الموسوعة

في الفتن والملاحم وأشراط الساعة



العلامات الصغرى
العلامات الصغرى الصريحة
العلامات الصغرى غير الصريحة
العلامات الصغرى التي لم تقع
الفتن
المبشرات
علامات الساعة الكبرى
الآيات العظام
الحدث الكوني
المهدي المنتظر
الدجال
يأجوج ومأجوج
علامات نهاية البشرية

تأليف
الدكتور محمد أحمد المبيض

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع

الموسوعة

في الفتن والملاحم وأشراط الساعة

تأليف
الدكتور محمد أحمد المبيّض

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع

الموسوعة

فى الفتن والملاحم وأشراط الساعة

الموسوعة
الدكتور محمد أحمد المبيض

الطبعة الاولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع ٢٢٤٧٧/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولى: 977-382-056-3

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع
القاهرة: ٦٥ شارع النزهة – مصر الجديدة
تليفون: ٢٩٠١٥٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

الآعراف: من الآية ٥٤

إهـــــــداء

إلى أهل العلم العاملين ... لعله يكون نبراساً لهم في معلم من معالم الدين .

إلى أفراد الأمة الحائرين ... لعله يكون هادياً لهم عبر تقلبات السنين .

إلى من لطمتهم موجات اليائسين ... لعله يتضمن بشرى لهم بقرب النصر والتمكين .

إلى الدعاة المخلصين ... لعله يكون بلسماً شافياً في فهم هدي خير الأولين والآخرين .

إلى كل من يلتمس بريق أمل عبر نفق الألم من أمة سيد المرسلين .

إلى والدتي بعد ثمانية عشر عاماً من رحيلها ، وأسأل الله أن يكون هذا الكتاب حسنة من حسناتها بين يدي رب العالمين .

إلى والدي ، وخالاتي رعاية لحقهن وفضلهن عليّ أجمعين .

إلى كل هؤلاء أهدي كتابي هذا

شكـــــر وتقـــديـــر

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ [النمل : ٤٠]

فالشكر والحمد لله العلي القدير أولاً وأخيراً على عظيم فضله وجزيل مننه على بإتمام هذا البحث ، وله الفضل والحمد والمنة .

ثم أثني بالشكر وعظيم الامتنان لفضيلة الدكتور محمد ماضي حفظه الله الذي أسعفني بتوجيهاته الكريمة ؛ حيث كان يشحذ فيّ الهمة والنشاط لإتمام هذا البحث .

ولا أنسى أن أتوجه بجزيل الشكر لأخي جهاد (أبو أحمد) وإلى زوجتي (أم عبد الله) على كريم جهدهم ، ومديد صبرهم ، و صائب رأيهم ، وعظيم تشجيعهم، وحقاً كانا نعم العون لي في إتمام هذا البحث .

و أتقدم بشكري إلى كل من ساهم معي من أصدقائي برأي صائب أو تشجيع محفز .... أسأل الله أن يجازيهم عني خير الجزاء .

المقدمـــــة

أولاً : توطئة .

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل عليه كتابه الكريم تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين .

وأصلي وأسلم على سيد الثقلين وإمام المرسلين ، المنعوت من ربه بأطيب النعوت ، وأجل صفات تليق ببشر ، رسول الرأفة والرحمة والبيان والسنان ، الذي بلغ رسالات ربه أتم تبليغ وترك أمته من بعده على محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يتنكبها إلا ضال .. أصلي عليه صلاة ترضيه وترضى ربنا ، وألهج إلى الله ضارعاً أن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة التي وعدها إياه .

وبعد :

المتبع للهدي النبوي الشريف يجد أن جزءً أصيلاً منه كان من حظ الأمور المستقبلية التي تطرأ على الأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولعل وفرة الأحاديث المتضمنة للأمور المستقبلية سواء كانت فتناً أو ملاحم أو علامات للساعة يمكن النظر إليها على أنها من مقتضيات رحمة الله سبحانه وتعالى بالأمة من جهة ، و من دلائل شفقة النبي ورأفته بأمته من جهة أخرى لتكون على بينة من أمرها فيما يستجد عليها من أحداث .

والناظر إلى هذا التراث المبارك التليد يجد أنه تضمن :

وصفاً لحال الأمة في كل عصر .

وبلسما شافياً ، ودواء ناجعاً لكل ما تتعرض إليه من أدواء تضعفها .

و **بشارة** ترفع من همتها حال هوانها .

فهذه هي الصورة المشرقة لعلامات الساعة ، وهكذا رآها الرعيل الأول : نوراً يستنار به في مدلهمات الخطوب ، وعواصف الفتن ، إلا أننا نجد أن هذا العلم العزيز المبارك لم ينل

حظه من البحث ، و لم تستخرج درره الكامنة حتى في اللحظات الحرجة ، بل على العكس استغل استغلالا مهيناً من البعض في عصرنا إما لجهلٍ ، أو لمقاصد خفية ، وهذا واضح في إسقاط بعض علامات الساعة على بعض الحوادث المعاصرة ، وخلط الغث بالسمين فيها ، كإدعاء أن صدام هو السفياني ، أو المهدي كما في بعض الكتب ، واعتبار الهرمحدون من علامات الساعة الثابتة لدينا ، وغير ذلك من الأمور ، لدرجة أن كثيراً من الكتب المعاصرة (✿) التي خاضت في علامات الساعة تعتبر مزيجاً من بعض الآثار الصحيحة والضعيفة والموضوعة ، والمختلقة أو المنسوجة في عصرنا والمنسوبة زوراً إما لنبي الأمة أو لأحد صحابته الكرام ، يضاف إلى هذا المزيج بعض ما ورد عند أهل الكتاب من تنبؤات مستقبلية سواء على يد بعض عرافيهم كإنسترداموس اليهودي ، أو ما أثر عن المدرسة الإنجيلية الأصولية من تحليلات دينية للتوراة والإنجيل خاصة فيما يتعلق بعقيدة الهرمجدون، والتي يظهر للباحث المنصف أنها انحرافات جديدة في الفهم الديني الغربي وراءها بواعث سياسية ، ومستقاة أصلاً من نصوص دينية ثبت عندنا تحريف أصولها .

هذه هي الصورة المشوهة لعلامات الساعة كما قدمت للناس في زماننا ، ووافقت ظرفاً نفسياً صعباً يمر به أفراد الأمة ، وحاجة غريزية في أعلى درجات هيجانها لتشوف مجريات المستقبل القريب ، وقد يكون مقصد بعض الكتاب المعاصرين من طرح هذا المزيج المتناقض والغريب بث الأمل في أمة يائسة ، أو تسكين الألم في أمة مجروحة يكيد لها الأعداء كيداً تزول منه الجبال ، ولا ترى بصيص أمل عبر نفقها المظلم الذي أوقعت نفسها به .

نعم قد تكون هذه بواعث البعض فيما يطرح من كتابات حول علامات الساعة

(✿) أقصد هنا كثيراً من الكتب التجارية المعاصرة التي تخصصت في بعض علامات الساعة ، والتي نالت رواجاً بين العامة ، وبعض الخاصة ، وكان لها الأثر الكبير في نفوس الناس ، بل كان لها الأثر في رسم صورة جديدة مشوهة لعلامات الساعة في أذهان الناس ، ومن هذه الكتب : المفاجأة و الهرمجدون ، والبيان النبوي ، واحذروا المسيح الدجال ، والجفر ، والمهدي المنتظر ، وغيرها من الكتب ، وهذه الكتب قد تناولتها تمحيصاً ودراسة وتحليلاً ونقداً في كتاب « كتب في ميزان الشرع » فليرجع إليه .

وقد يكون أصحابها قد وفقوا نسبياً في تسكين الألم ؛ إلا أن الآثار السلبية التي خلفتها مسكناتهم على معنويات الأمة ، خاصة بعد الصدمات المتكررة التي كانت تكشف زيف بضاعتهم ، ومضاعفات ذلك على الكثيرين كانت في :

١- تشككهم في مصداقية علامات الساعة .

٢- تشوه صورة هذا العلم العظيم في أذهان الناس .

٣- خلط كثير من المفاهيم والتصورات المستقبلية الثابتة في السنة بمفاهيم غريبة غريبة عنا.

٤- تعميق دائرة اليأس لدى الكثيرين ، وزيادة التوجس من مصداقية البشارات النبوية للأمة .

٥- تعميق ظاهرة الانحراف الديني عند البعض نتيجة لانحراف التصورات المستقبلية لديهم .

٦- عدم القدرة على التمييز بين الغث والسمين .

٧- حرمان الأمة من الاستفادة الإيجابية من علامات الساعة ، وخلق ردة فعل سلبية اتجاه هذا العلم العزيز .

هذه بعض نتائج انتشار الكتب التجارية التي لم تنل حظاً من التحقيق العلمي ، و تخصصها في علم من أعظم علوم السنة النبوية ، و ذخيرة من أكبر ذخائرها ، وبالمقابل لم يجد القارئ كتاباً علمياً متخصصاً معاصراً يشفي غليله في هذا الباب ، ويشبع حاجته النفسية في تشوف المستقبل من مصادر غيبية حقيقية (**الوحيان : الكتاب والسنة**) .

طبعاً هناك بعض الكتابات المعاصرة العلمية المعتمدة في علامات الساعة ، أو في الفتن والملاحم ، وهذه الكتب يشكر جهود أصحابها (✽) ، إلا أن كل ما وقع في يدي من هذه الكتب إما تخصص في جانب من هذا العلم أو باب من أبوابه ، وإما اقتصر

(✽) من هذه الكتب الجليلة في هذا الباب : المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة لعبد العظيم البستوي ، والصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة لمصطفى العدوي ، والأساس في السنة ، قسم العقائد لسعيد حوى .

على الجانب الحديثي دون تحليل لمعانيه أو تحديد المراد منه ، أو إعطاء تصور تكاملي منهجي شامل يربط بين مجموع الأحاديث .

ثانياً : رحلتي مع هذا العلم :

- كان قدر الله سبحانه وتعالى أن أحيا في هذا العصر الذي يمثل بداية صحوة لأمة طال رقادها ، وهي في صحوتها تترنح يميناً وشمالاً لطول الرقدة و سطوة القبضة وكثرة الجراح ، فما يلتئم جرح في جسدها ، إلا عوجل بجرح آخر أكثر نزفاً وأعمق غوراً .
- هذا الواقع الممزوج بأمل الصحوة و ألم اللحظة ، وعقدة المخرج ، وعظمة الأمانة حرك في كوامني دافع البحث كالكثيرين عن مستقبل هذه الأمة العظيمة التي انتسب إليها ، فبدأت أقلب الأوراق ... فكانت بداية رحلتي مع علامات الساعة ، ووقع في يدي كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير و كتاب التذكرة للقرطبي ، فأخذت بعض التصورات عن هذا العلم إلا أنه لم يُشف غليلي ، بل على العكس ازدادت رغبتي أكثر للغوص في بحر هذا العلم ، خاصة أن هذين الكتابين لم يتضمنا كل علامات الساعة ، و لم أجد فيهما بغيتي في تصور طبيعة المرحلة التي نعيشها ، وازداد إلحاح كثير من التساؤلات في داخلي لعل أهمها : أين نحن من العلامات ؟ وفي أي مرحلة نحن منها ؟ وما مدى قربنا من العلامات الكبرى ؟ وهل بيننا وبينها قرون كما يتصور البعض ؟ و ما مدى نصيب ملاحم هذا العصر من علامات الساعة ؟ أسئلة تترى على قلبي دون إجابة شافية .
- في تلك المرحلة اشتغلت بدراسة علوم الدين : الفقه وأصوله كتخصص جامعي ، ووافق تلك المرحلة اشتغالي أيضاً بالحديث والتفسير والعقيدة أكثر من اشتغالي بتخصصي ، وذلك لميول قوية داخلي نحو هذه العلوم ، و هذه المرحلة العلمية قد عمقت حاجتي أكثر لكشف أسرار علامات الساعة ، التي بدأت أنظر إليها ، وبعد إطلاع واسع شعرت بمدى تشوه هذا العلم في الكتب المعاصرة فقمت بإخراج كتاب للرد على بعضها أسميته **كتب في ميزان الشرع** .

- وجدت الحاجة قوية لدي للخوض في هذا العلم خاصة بعد دراسة حديثية متعمقة ، فقمت بهذه الخطوة التي كان الدافع الأول منها ترتيب تصوراتي لهذا العلم ، وملاحقة أجزاءه محاولاً الربط بين متناثره ، والجمع بين عناصره .

- كنت أتصور في بادئ الأمر أنه لن أخرج بجديد في هذا الموضوع ، إلا أنني فوجئت بعد الخوض في مضمار هذا العلم الجليل أني قد دخلت بحراً من المستجدات الغائبة عني ، **وأنا أجزم هنا أنني لم أطرح منها إلا القليل في كتابي هذا ، بل أجزم بأنني لم أصل بعد لساحل هذا البحر العظيم من هدي رسول الله ﷺ ، و لعل الله يسعفني في مرحلة أخرى أو طبعة أخرى في استخراج بعض كوامن درره وكنوزه و ملاحقة بعض مستجداته .**

ثالثاً : الجديد في الكتاب .

١- الكتاب تضمن دراسة تأصيلية في الباب التمهيدي ، وهي تعتبر لبنة أساس منهجي في التعامل مع علامات الساعة ، ولعلي أخص الدراسة التأصيلية بكتاب مستقل في المستقبل القريب لقناعتي أن هذا الجانب لم يأخذ حقه التفصيلي والتحليلي هنا .

٢- تضمن الكتاب نظرة تكاملية شاملة لعلامات الساعة والفتن وفق ترتيب جديد لبعض الأحداث .

٣- لم يقتصر الكتاب على الجانب الحديثي ، بل تضمن تحليلات وتصورات معينة على فهم الأحاديث النبوية .

٤- الكتاب تضمن محاولة لاستثمار القرآن الكريم في فهم علامات الساعة .

٥- اشتمل الكتاب على بعض الاجتهادات في فهم بعض الظواهر كظاهرة ابن صياد والدجال ، وظاهرة حسر الفرات و ظاهرة القحط المذكورة في السنة وآية الدخان وغيرها .

٦- لعل من أهم الأمور التي تضمنها الكتاب هو اقتصاره في الغالب على الأحاديث المقبولة [الصحيح لذاته ولغيره والحسن لذاته ولغيره] وتجنبه الأحاديث المردودة [الموضوعة والضعيفة] . (✿)

٧- الكتاب فيه محاولة لتفعيل علم علامات الساعة بشكل إيجابي بعيداً عن استغلال العواطف ، أو اغتنام الظروف النفسية التي تمر بها الأمة .

رابعاً : الدراسات السابقة .

١- **كتاب الفتن لنعيم بن حماد** : يعتبر هذا الكتاب من أقدم الكتب التي تخصصت في علم الفتن على وجه الخصوص إلا أن هذا الكتاب قد شمل غرائب كثيرة جداً وأحاديث وآثار موضوعة ، وركز على جوانب دون أخرى في علم الفتن والعلامات ، وهذا يجعل التعاطي معه صعباً على القارئ العادي ، بل قد يؤثر بطريقة سلبية على أفهام الناس من خلال بث قناعات مغلوطة ؛ وهذا لا يقلل من قيمة هذا الكتاب إلا أن الأفضل أن يتعاطى معه فقط ذوو الاختصاص (✿✿)

٢- **كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير** : وهذا الكتاب يعتبر من أسلم الكتب القديمة إلا أنه اقتصر على الجانب الحديثي مع بعض الإشارات السريعة والتحليلات المقتضبة ، إضافة إلى أنه لم يستوعب كل أحاديث علامات الساعة وخلط فيها بين الأحاديث الضعيفة والصحيحة ، وأحياناً بعض الأحاديث الموضوعة ، يضاف إلى ذلك أنه لم يتخصص في علم العلامات فقط ، بل يتضح من منهجه أنه اعتبرها مقدمة لحديثه عن رحلة الآخرة التي تبدأ بالنفخ في الصور

(✿) طبعاً هذا بخصوص الأحاديث . أما بخصوص الآثار فلم ألتزم ببيان درجة صحتها ، و إن كنت لا آلو جهداً في عدم اعتماد أثر عن صحابي أو تابعي إلا إذا كان عندي أصل صحيح في السنة النبوية أرجع إليه في المسألة ، أو أعنون به المسألة ويكون الأثر بمثابة الشاهد فقط لأصل ثبت صحته ، فإن لم أجد أجتهد في البحث عن حكم لبعض العلماء لهذا الأثر ، وقد أعرضت عن مئات الآثار التي توجست من مصداقيتها ، أو لمخالفتها الصريحة لدي لبعض الأحداث الثابتة أو لمخالفتها الصريحة للواقع ، أو لمعارضتها للأصول الصحيحة .

(✿✿) هذا الكتاب أفردته بدراسة خاصة في كتابي « كتب في ميزان الشرع »

وتنتهي بالجنة والنار ، والنسخة التي بين يدي عدد صفحاتها ٤٥٠ صفحة تضمنت فقط ١٥٠ صفحة عن الفتن وعلامات الساعة ، أما باقي الكتاب فهو عن أمور الآخرة ، كذلك يفتقر الكتاب إلى الترتيب بين العلامات ، أو بعبارة أخرى هو أقرب إلى الجمع منه إلى الترتيب .

٣- **التذكرة للقرطبي** : وهذا الكتاب كسابقه إلا أنه أكثر تحليلاً في بعض المسائل ، وأقل استيعاباً وتمحيصاً ، إضافة إلى كثرة تضمنه للأحاديث الضعيفة .

٤- **كتاب الإشاعة في أشراط الساعة للبرزنجي** : وهذا كتاب جيد في ترتيبه للمادة العلمية إلا أنه يشتمل على كثير من الغرائب والأمور المنكرة خاصة في باب المهدي والدجال ، وبالرغم من أن هذا الكتاب يتضمن بعض الإشارات والفوائد وحسن الترتيب في هذا الباب ، إلا أن الأصل أن يتعامل معه القارئ بحذر لاعتماده في كثير من طروحاته على أحاديث موضوعة ومنكرة ، وأحياناً متناقضة ، وقد أعجبني في الكتاب قدرة المؤلف التحليلية في الجمع بين بعض الأحاديث .

٥- **كتاب الإذاعة في أشراط الساعة** : وهذا الكتاب هو تلخيص لسابقه ، وأكثر دقة منه ، وأبعد عن الغرائب ؛ إلا أنه أيضاً كان في بعض المسائل أسيراً لسابقه ، وأحياناً كنت أرى تعسفاً في حمل الأحاديث على بعض الأحداث .

٦- **الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة للعدوي** : وهذا كتاب معاصر جمع فيه مؤلفه الأحاديث الصحيحة المتعلقة بموضوع الفتن مع بعض التعليقات ، وهو جيد في بابه ، بل هو من أفضل الكتب في هذا الباب ؛ إلا أنه ينقصه الترتيب ، فهو أقرب إلى الجمع منه إلى الترتيب والتحليل ، وبالرغم من ذلك فإن الكتاب يعتبر خطوة رائدة في هذا العلم ؛ حيث قصر صاحبه كتابه على الأحاديث الثابتة فقط .

٧- **الأساس في السنة ، قسم العقيدة لسعيد حوى** : وقد أفرد باباً واسعاً عن الملاحم والفتن عند حديثه عن اليوم الآخر ، والكتاب يعتمد على النصوص

الحديثية مع بعض التعليقات ، إلا أن طبيعة الكتاب وتخصصه في العقيدة على وجه العموم جعل الحديث عن علامات الساعة فيه اقتضاب سواء على مستوى المادة الحديثية ، أو على مستوى التحليل العلمي لها .

خامساً : منهج الباحث .

- قمت بجمع الأحاديث وعزوها إلى مصادرها ، وبيان درجتها في الغالب ، وما أغفلته ، وهو قليل جداً يكون له شواهد في الصحيح ذكرها في نفس الكتاب .
- قمت بترتيب المادة الحديثية ترتيباً تاريخياً أو منطقياً وفق تصوري للأحداث وضمنتها شرحاً لغريبها ، وتحليلاً لمادها .
- أحياناً أضع ملخصاً إجمالياً لبعض المجموعات الحديثية المنتمية لموضوع واحد ، وذلك لإعطاء صورة تحليلية كاملة لبعض الأحداث أو العلامات .
- حاولت قدر المستطاع أن أضمن الدراسة الحديثية كل الاحتمالات المتصورة مع مناقشتها وإبداء الراجح في ظني ، وذلك لكي تكتمل الصورة لدى القاري .
- آثرت الإطناب في بعض الجوانب لكي يسهل تعاطي الجميع مع الكتاب ، وأحياناً أكرر بعض الأحاديث في عدة مواضع حسب المناسبة ، مبرزاً وجه الاستدلال الخاص في كل موضع ، ومن هذا الوجه يمكن القول بأنه لا يوجد تكرار لأن العبرة بوجه الاستدلال .
- ضمنت الكتاب كثيراً من الاجتهادات المعينة في فهم بعض الظواهر ، وهذه الاجتهادات تبقى في دائرة الاحتمال ، فما كان صواباً فمن الله وما كان خطأً فمني ومن الشيطان ، إلا أنني أقول هنا أنني بذلت غاية جهدي في تحري الحق مستعيناً بالله سبحانه وتعالى .
- حاولت أن أرصع كتابي بكثير من الآيات القرآنية ذات العلاقة مبينا وجه الاستدلال ، وهذا الباب بالذات أشعر أنني قصرت في استيعابه على الوجه المطلوب ، و إن كان ما ذكرت يعتبر خطوة على الطريق .

البـــاب التمهـــيدي

ويتضمن فصلين

الفصل الأول : أهمية علامات الساعة .

الفصل الثاني : دراسة تأصيلية لعلم العلامات .

الفصل الأول : أهمية علامات الساعة

ويتضمن المباحث الأربعة التالية

المبحث الأول : اهتمام القرآن بعلامات الساعة

المبحث الثاني : اهتمام الرسول الأعظم بعلامات الساعة

المبحث الثالث :اهتمام الصحابة الكرام بعلامات الساعة

المبحث الرابع :أهمية دراسة علامات الساعة

المبحث الأول
اهتمام القرآن بعلامات الساعة

الناظر لكتاب الله سبحانه وتعالى يجد أن كثيراً من الآيات تكلمت عن لحظة وقوع الساعة ، والتغيرات الكونية الهائلة التي ترافق هذا الحدث العظيم ، أما عن علامات قرب الوقوع ، فقد كان الكلام مقتضباً ، لكن يتضح من بعض الآيات التنويه لعظمة علم علامات الساعة ، وضرورة الاهتمام به ، أذكر منها :

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

وجه الدلالة :

هاتان الآيتان تشيران بوضوح إلى أن الناس في حالة تساؤل عن الساعة وقيامها ، وتساؤلهم عبر عنه القرآن بأنه تساؤل عن نبأ عظيم ، وكون الساعة نبأً عظيماً يشير صراحة إلى أن مقدمات هذا الأمر العظيم لا بد أن تكون عظيمة مثله ، فالآية تدل بطريق الاقتضاء على ضرورة تعلم علامات الساعة والاهتمام بها ؛ لأنها إرهاصات وقوعها .

ويكون المفهوم العام للآية أن هناك أمرا عظيماً يتساءل الناس عنه باهتمام ، وهذا الأمر كما صرحت كثير من الآيات الأخرى قد استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم وقوعه ؛ إلا أنه قد نصب له علامات وإرهاصات تدل عليه ، وما دام هذا الأمر عظيماً ؛ إذا مقدماته لا بد أن تكون عظيمة مثله ؛ لأنها دالة عليه.

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ (٢)

---

(١) النبأ : الآيات ١-٢

(٢) محمد:١٨

وجه الدلالة :

الآية تشير إلى أمرين : الأول أن الساعة ذلك الأمر العظيم قريب جداً و يأتي بغتة ، والثاني التصريح بأن الساعة لها أشراط وأن هذه الأشراط قد بدأت ، وهذه الأشراط منها ما بينه القرآن كانشقاق القمر ومنها ما بينته السنة ، وقد جاءت الآية بصيغة الاستفهام للفت الانتباه إلى كلا الأمرين ، وفي ذلك تنويه لضرورة تعلم هذه الأشراط ومعرفتها ؛ لأن معرفتها يسعف أصحابها بعدم المباغتة فيها .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١)

وجه الدلالة :

الآية تشير بوضوح إلى علامة من علامات الساعة ، وهي ظاهرة انشقاق القمر التي حدثت في العهد المكي ، وقد ربطت الآية بين هذا الحدث وبين اقتراب الساعة ، وهي بذلك تشير إلى أن هناك علامات للساعة ، وأن وقوع أي علامة من العلامات إنما يقربنا درجةً من الحدث الجلل ؛ أي قيام الساعة .

والآية الكريمة توحي بالإشارة إلى ضرورة معرفة هذه الآيات أو العلامات الدالة على قرب وقوع الساعة ؛ لنكون على بينة من أمرنا .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) وقال : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤)

---

(١) القمر:١

(٢) الأعراف:١٨٧

(٣) الأنبياء: ١

(٤) النحل:١

وجه الدلالة :

تدل هذه الآيات بمجموعها أن الساعة أمر غيبي عظيم لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، وهي قريبة جداً من الناس وستباغتهم مباغتة ، بل عبرت بعض الآيات بأن هذا الأمر العظيم قد أتى وذلك للدلالة على قربه الشديد .

وهذه الآيات بمجموعها تبرز لنا مدى أهمية معرفة علامات هذه الأمر العظيم الذي سيباغتنا في كل لحظة .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ (١) و قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢)

وجه الدلالة :

هاتان الآيتان في الراجح من أقوال المفسرين يراد بها أن نزول عيسى ﷺ في آخر الزمان يعتبر علماً من أعلام الساعة وعلامة من علامات فناء الدنيا وقرب القيامة .

---

(١) النساء:١٥٩

(٢) الزخرف:٦١

المبحث الثاني
اهتمام الرسول الأعظم بعلامات الساعة

علامات الساعة وأشراطها من العلوم الهامة التي اهتمت بها السنة النبوية ، وهذا يتضح من الكم الهائل للآثار الواردة فيها ، ولعل ما يبرز مدى اهتمام النبي ﷺ وصحابته الكرام بهذا العلم ما تشير إليه الأحاديث التالية :

أولاً : أمين السماء جبريل عليه السلام ينبه الأمة إلى ضرورة معرفة علامات الساعة ، وأهمية السؤال عنها :

📖- عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ – أي عمر ﷺ – : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ . قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ . قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا . قَالَ : أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا عُمَرُ ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ! قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١)

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ٨ [مسلم بشرح النووي (١٥٧/١)]

الشاهد في الحديث :

الحديث يشير إلى نزول جبريل عليه السلام لتعليم الأمة أمور دينها ، ويلحظ من سياق الحديث أن جبريل عليه السلام قد اقتصر على الاستفسار عن الخطوط العامة للدين الإسلامي ؛ لذا سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، و هي أمور معلومة من الدين بالضرورة ، وإنما جاء السؤال عنها لبيان أن تحقيقها في حياة المسلم هو الأهم في الدين الإسلامي .

ثم عقب على ذلك بالسؤال عن الساعة وعلاماتها ، وفي هذا إشارة إلى أهمية هذا العلم ، وضرورة تعلمه و السؤال عنه ، وتأتي أهميته بعد أهمية تعلم أركان الإسلام والإيمان ، وإلا لما ذكره جبريل عليه السلام بعدهما مباشرة،ولذكر ما هو أولى منه – إن وجد – .

وكذلك سؤال جبريل عليه السلام عن علامات الساعة مقرونة مع أمور معلومة من الدين بالضرورة فيه إشارة واضحة على أهمية أن يسأل الصحابة عن علامات الساعة وأشراطها كما يسألون عن أركان الإسلام والإيمان اللذين بهما صلاحهما في الدنيا والآخرة .

بل تحتمل ألفاظ الحديث أن يكون الهدف الرئيس من نزول جبريل عليه السلام تنبيه الصحابة نحو الاستفسار عن أمر هام غفلوا عنه ، وهو أن يسألوا النبي ﷺ عن أشراط الساعة ، كما يسألونه عن أركان الإسلام والإيمان .

ولعل الصحابة عندما علموا أن تحديد الساعة من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، جاء في نفوسهم الإعراض في السؤال عن كل ما يخصها من باب الأدب مع الله ﷻ ، فجاء التنبيه إلى جواز السؤال عن مقدمات يوم القيامة وعلاماته ، بل إلى ضرورة السؤال عنه ؛ لأن ممهدات الشيء ومقدماته تأخذ أهميتها وضرورتها من أهمية هذا الشيء ، والساعة كما سماها الله ﷻ « النبأ العظيم » ؛ لذا تعلم مقدماتها أيضاً من الأنباء العظيمة والهامة التي يجب أن يحرص على معرفة ما يخصها كل مسلم .

كذلك يتضمن الحديث لفتة هامة جداً وهي اشتراك أمين السماء وأمين الأرض في التنبيه على أهمية تعلم علامات الساعة ، وجاءت طريقة التنبيه بأسلوب لم يعهده الصحابة ، وهو مجيء جبريل عليه السلام على هيئة رجل ليسأل الرسول ﷺ عن بعض المسائل ، ومثل هذه الواقعة يصعب على الصحابة نسيانها ، أو نسيان تفاصيلها ، وختمت هذه الواقعة بقول النبي ﷺ : « **هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم .** » وهذا تنبيه من النبي ﷺ إلى ضرورة السؤال عن هذه الأمور والاستفسار عنها ، وملاحقة تفاصيلها ، لأن معرفتها يترتب عليه صلاح الدين .

وكذلك يتضمن هذا القول من النبي ﷺ إرشاداً للصحابة الكرام على ضرورة السؤال عن علامات الساعة ، ويكون مقتضى العبارة السابقة أن جبريل عليه السلام قد جاء لينبهكم للخطوط العامة الهامة في أمور دينكم لتسألوا عنها ، ومن ضمنها السؤال عن أمارات الساعة .

ثانيا : يوم دراسي طويل لتعليم الصحابة الكرام كل ما يستجد على الأمة .

📖- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : ﴿ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ ، فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ . ﴾ (١)

📖 - عن عَمْرِو بْنَ أَخْطَبَ ﷺ قَالَ : ﴿ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا . ﴾ (٢)

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي (٢١٤/٩)]

(٢)أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٢ [مسلم بشرح النووي(٢١٥/٩)]

- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ . ﴾ (١)

- عن حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ إنه قال : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : - وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ - مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا ، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ . قَالَ حُذَيْفَةُ : فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي .(٢)

الشاهد في الأحاديث

الأحاديث تتضمن إشارات متعددة تدل على أهمية هذا العلم منها :

أ- قيام النبي ﷺ مقاماً طويلاً يتحدث فيه عن علامات الساعة كما دل عليه حديث حذيفة ﷺ ، وهذا المقام بينه حديث عمرو بن أكتم أنه من صلاة الصبح إلى غروب الشمس ، وهو مقام طويل جداً لم يُعهد مثله عن رسول الله ﷺ ؛ حيث عهد عنه أنه كان يتخول صحابته الكرام بالموعظة مخافة السآمة ، وكانت مواعظه في الغالب قصيرة ، ولكنها تحتمل المعاني الكثيرة – وكيف لا وقد أوتي جوامع الكلم – .

وهذا المقام الطويل لا يكون من النبي ﷺ إلا في أمر من الأهمية ما لا يتسع المجال للتهاون فيه أو في بعض عناصره ، ولا يقع من النبي ﷺ مثل ذلك مع ما تضمن من إرهاق للصحابة الكرام بالمكوث في موعظة استغرقت يوماً كاملاً إلا في أمر جد خطير ، فهذا اليوم يشبه ما نسميه اليوم باليوم الدراسي الذي يتضمن علاج قضية من قضايا المجتمع ، إلا أن المحاضر في ذلك اليوم كان النبي ﷺ ، والطلاب هم الصحابة الكرام أقل الناس تكلفاً وأوعاهم قلوباً ، والمحاضرة كانت متصلة – كما يتضح من

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي(٢١٤/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١[مسلم بشرح النووي(٢١٤/٩)]

الحديث – والموضوع أيضاً كان واحداً وهو الحديث عما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة .

ب- في الأحاديث إشارة ضمنية إلى مدى رحمة رسول الله ﷺ بأمته و وفور شفقته عليهم ، ومدى حرصه على تبليغ الأمانة كما نزلت عليه ، فهو لا يدخر جهداً في بيان ما خفي عليها في مستقبلها لتكون على بينة من أمرها في كل ما يجد عليها .

ج- هذه الأحاديث تشير إلى مدى اهتمام الصحابة بهذا العلم ، ولعل كثرة أسئلتهم وشدة نهمهم لاستشراف المستقبل وما يجد على الأمة من أحداث هي التي شجعت الرسول الكريم على إطالة المقام فيهم ، فهو يعلم من دلالة حالهم أنه مهما طال المقام فإن الصحابة لن يسأموا ، بل سيزدادون نهماً و وطلباً للمزيد ، ومهما طال المقام ، فإنه سيجد آذاناً صاغية وأعيناً متفتحة ، وقلوباً أشد تفتحاً .

ولئن احتاج الصحابة الكرام إلى مثل هذا اليوم لدراسة علامات الساعة ، إضافة إلى غيره من المجالس المتعددة ، **فنحن أحوج ما نكون إلى عدة أيام دراسية وإلى عدة ندوات نتعرف من خلالها على علامات الساعة وأشراطها والمخرج من الفتن التي بين يدي الساعة ، خاصة وأننا قد وقعنا في معظمها من حيث ندري أو لا ندري.**

د- مجموع الأحاديث تشير إلى مدى اهتمام النبي ﷺ بعلامات الساعة ، لدرجة أن بعض الصحابة قد عبروا عن ذلك بأن النبي ﷺ ما ترك شيئاً حتى قيام الساعة إلا أخبر به ، بل ما ترك صاحب فتنة إلى قيام الساعة إلا أخبر عنه .

ثالثا : اغتنام المناسبات المتعددة للتنبيه إلى علامات الساعة :

من يقرأ سنة النبي ﷺ يجد أنه كان لا يدخر مناسبة إلا ونبه فيها إلى بعض علامات الساعة ، وهذه إشارة واضحة إلى حضورها في ذهنه ، أو استمرارية الوحي بها على مدار الرسالة المحمدية ، ومثل هذا لا يكون إلا في كل ذي بال من الأمور العظام ،

وكيف لا يكون عظيماً كل ما كان مقدمة للنبأ العظيم ، وكيف لا يكون عظيماً جانب من أربعة جوانب أكد أمين السماء على أهمية تعلمها .

ومن هذه المناسبات استيقاظ النبي ﷺ في جوف الليل منذراً بشرٍ قد اقترب وهو بداية فتح ردم يأجوج ومأجوج ، وطبعاً هذا الموقف له دلالاته .

وكذلك نلحظ أنه يغتنم رحلته الطويلة في غزوة تبوك فيجعل لها نصيباً لبعض علامات الساعة ، يضاف إلى ذلك مناداته الصلاة جامعة ليسمع الناس ما يحدث به تميم بن أوس الداري عما رآه فيما يخص الدجال ، والصلاة جامعة لا تكون إلا فيما عظُم من الأمور .

حتى يلحظ أن النبي ﷺ كان يغتنم لحظة وضوئه ليخبر بعض الصحابة عن بعض العلامات ، ولا ننسى اغتنام النبي ﷺ الفرصة في خطبته العصماء (خطبة الوداع) ليسهب القول عن الدجال كما صرحت بعض الأحاديث .

كل هذه المواقف - والمتتبع لهذا البحث سيجد غيرها الكثير - تبرز لنا مدى اهتمام النبي ﷺ بعلامات الساعة ، وتوضح لنا مدى أهمية هذا العلم الذي غفل عنه أهله في عصرنا ، وتُرك للأصاغر ليتقولوا به ما شاءوا .

ملاحظة :

يحاول بعض العاملين في الحقل الإسلامي التقليل من أهمية دراسة علامات الساعة ، بل يرون أن دراستها قد يدخل في باب مضيعة الوقت ، أو هو في آخر أولويات الأمة في عصرنا ..إلخ

وهؤلاء لا نشك في إخلاصهم لدين الله سبحانه وتعالى ، ونؤيدهم في جانب واحد ، وهو عدم الغلو في تتبع علامات الساعة وملاحقة تفاصيلها من العامة ، لكن ما يذكرون أحياناً يمثل ردة فعل غير سليمة ، ولعل عدم فهمهم لهذا العلم الجليل هو الذي أوقعهم في ذلك ، ولهؤلاء أقول :

إن من أكبر مصائب الأمة الآن تتمثل في عدم استفادتها الإيجابية من هذا العلم العظيم الذي يعتبر منارات على الطريق ومعالم تصحح مسار الأمة إلى أن تلقى الله ، ولو انتبهوا للكم الهائل الوارد عن رسول الله ﷺ بخصوص هذا العلم ، ولو تبينوا كثرة المناسبات التي اغتنمها النبي ﷺ لكي تسترشد الأمة معالم سيرها مع رسالة الله عبر القرون ، لعلموا أن الانشغال بهذا العلم وفقهه ومدارسته ، ومعرفة مداخله يعتبر في أعلى سلم أولويات الأمة ، وكفى بالآثار السابقة شاهداً على جلالة هذا العلم .

بل خلال تتبعي لهذا العلم واستقرائي لكثير من المناسبات التي سيقت لأجلها الآثار وجدت أنه لم يخل شهر أو مناسبة في العهد النبوي إلا كان لهذا العلم نصيب من هدي رسول الله ﷺ .

بل لا يمكن أن تتضح المحجة البيضاء التي تركنا عليها النبي ﷺ إلا من خلال معرفة أسرار هذا العلم .

المبحث الثالث
اهتمام الصحابة الكرام بعلامات الساعة والفتن

المتتبع لحياة الصحابة يجد أن الكثير منهم قد اهتم بعلامات الساعة اهتماماً بالغاً ، فالساعة تعتبر الأمر الجلل الذي استحوذ على فكرهم ومجالسهم ، وهذا يتضح من خلال مناسبات عدة أذكر منها على سبيل المثال :

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ . فَقَالَ : مَا تَذَاكَرُونَ ؟ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ . قَالَ : إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ . ﴾ (١)

الشاهد في الحديث :

يتضح من الحديث أن بعض مذاكرات الصحابة كانت عن أمور الساعة ، وكلمة نتذاكر توحي بطول المقام ، ودل سياق الحديث على أن هذه المذاكرة تخصصت بموضوع واحد ؛ فعقب النبي على مذاكرتهم بذكر أشراط قيام الساعة الكبرى ، ولعله استشف من طبيعة مقامهم أنهم يتحدثون عن لحظة قيامها ، فبين لهم أن لها أشراط كبرى لا بد من وقوعها قبل قيامها ، و إجابة النبي ﷺ قد فتحت لهم مجالات كثيرة جديدة للمذاكرة في الأشراط ، وكأن النبي ﷺ يعزز هذه المذاكرة في صحابته الكرام ، ويثريها ليزيد من اهتمامهم بالأمر .

- عن حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : ﴿ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ ؟ قُلْتُ : أَنَا كَمَا قَالَهُ . قَالَ : إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ قُلْتُ : فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٠١ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٢٥)]

وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ . قَالَ : لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ قَالَ : لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا ، قَالَ أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ ؟ قَالَ : يُكْسَرُ . قَالَ : إِذًا لَا يُغْلَقَ أَبَدًا . قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ : نَعَمْ كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ . إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : الْبَابُ عُمَرُ . ﴾ (١)

الشاهد في الحديث :

يتضح من الحديث أن الصحابة على أعلى المستويات كانوا يهتمون بأحاديث الفتن ، ويسألون عنها ، ويستفهمون عن المراد بها ، وهذا واضح من سؤال أمير المؤمنين عمر ﷺ عن الفتنة التي تموج موج البحر ، والحديث أيضاً يشير إلى تعمقهم في دراسة هذا الباب ومعرفة تفاصيله ، فقد بدأ حذيفة ﷺ حديثه عن فتنة الرجل في أهله ، فعقب عليه عمر ﷺ بأنه يسأل عن غيرها من الفتن ، وحدد اسمها .

كذلك في الحديث إشارة إلى اهتمام الصحابة في استثمار هذا العلم في فهم واقعهم و حياتهم العملية .

📖 - عن أبي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا . قَالَ : هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا . قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ، حديث رقم ٥٢٥ [فتح الباري (١١/٢)] ؛ ومسلم في الفتن والملاحم برقم ١٤٤ [مسلم بشرح النووي (٢١٥/٩)]

لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ ؟ قَالَ : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ . » (١)

الشاهد في الحديث :

يتضح من الحديث صراحة مدى اهتمام بعض الصحابة في أحاديث الفتن والملاحم والعلامات ، ولعل أكثر المهتمين في هذا الباب كان حذيفة رضي الله عنه كاتم سر رسول الله ﷺ ، ويتضح من طبيعة الأسئلة الكثيرة التي كان يسألها حرصه الشديد على معرفة هذا العلم من جميع جوانبه ، وفي أدق تفاصيله .

وفي الحديث إشارة إلى صبر رسول الله وحلمه مع صحابته الكرام وحرصه على إشباع فضولهم في هذا العلم ، واهتمامه في إبراز تفاصيل كل مرحلة تمر بها الأمة ، وعنايته بتوصيف الدواء الشافي لكل داء يصيبها .

- عن يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ ابْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ قال : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : « مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ ؟ تَقُولُ : إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا إِنَّمَا قُلْتُ : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا يُحَرَّقُ الْبَيْتُ وَيَكُونُ وَيَكُونُ ... » (٢)

الشاهد في الأثر :

يتضح من سياق الأثر أن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما كان يكثر الحديث عن الأمور المستقبلية التي سمعها من رسول الله ﷺ ، وكان البعض يسيء فهمه ، ويقلب المعاني حتى هم بأن لا يحدث أحداً ، ويتضح من الحديث أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يهتم كثيراً بأحاديث العلامات،بل يجتهد في إسقاطها على الواقع وفق فهمه لها

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن باب : كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، حديث رقم ٧٠٨٤ [البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٨)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٠ [النووي بشرح مسلم (٢٦٧/٩)]

- عَنْ يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إِلَّا يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ قَالَ فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : « إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلَا يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ » (١)

وجه الدلالة :

هذا المقطع جزء من حديث طويل سيأتي في باب المهدي عند حديثي عن الملاحم ، والشاهد هنا أن الإمام الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ كان عنده تصور واضح لطبيعة المراحل التي ستمر بها الأمة ؛ لذا هو لا يتأثر لأي حدث عابر يقع هنا أو هناك ، فالملاحظ من سياق الأثر أن رجلاً جاءه ليخبره بأن الساعة قد قامت بسبب هياج ريح حمراء في الكوفة ، فقام ابن مسعود ﷺ بطمأنته بأن الساعة لا تقوم إلا بعد أحداث صريحة منها ما ذكره في الحديث ، ولعل هذا الأثر يبرز لنا أمرين :

الأول : مدى إطلاع الصحابة على علامات الساعة وتصورهم لمراحلها .

الثاني : مدى ضرورة معرفة علامات الساعة حتى لا يضطرب الفهم ، أو يختلط الأمر في إسقاط الحوادث وتحميلها ما لا تحتمل .

- عن أبي هريرة ﷺ قال : « حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ . » (٢)

وجه الدلالة :

المعلوم أن أبا هريرة هو من أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ ، وفي هذا الحديث يصف أبو هريرة محفوظاته عن رسول الله ﷺ بالوعاءين ، إشارة إلى نوعين من العلم أو من المحفوظات ؛ وأكثر المحققين على أن الوعاء الثاني يخص أحداثاً تتعلق بالفتن و علامات الساعة ، وهذا فيه إشارة واضحة إلى مدى اهتمام أبي هريرة ﷺ بعلم الفتن حتى جعل ما يحفظه في هذا الباب أحد قسمين من كل محفوظاته .

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٩ [مسلم بشرح النووي (٢٢٢/٩)]

(٢) أخرجه البخاري في العلم باب حفظ العلم برقم ١٢٠ [البخاري مع الفتح (٢٦٠/١)]

هذه بعض النقول ذكرتها على سبيل المثال ، والتي تشير صراحة إلى مدى اهتمام الصحابة الكرام بعلم علامات الساعة ، وسيمر علينا في سياق الموضوع أمثلة أخرى كثيرة .

فائدة :

لئن كان اهتمام الصحابة في علم علامات الساعة بهذا الشكل مع قرب عهدهم برسول الله ﷺ ، فنحن في عصرنا أولى بالاهتمام بهذا العلم ومعرفة تفاصيل المرحلة التي نمر بها خاصة مع بعد عهدنا برسول الله ﷺ

المبحث الرابع
أهمية دراسة علامات الساعة

تتجلى أهمية هذا العلم في الأمور التالية : (١)

١- معرفة علامات الساعة يعتبر امتداداً للوحي ورسالة السماء عبر القرون :

المعلوم أن النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، وأمته خاتمة الأمم ، ومما عهد عن البشرية أنه إذا طال بها العهد وبعدت في الزمن عن نبع النبوة ، اختلطت عليها الأمور فيما يستجد عليها ؛ فاقتضى الأمر أن تبقى على اتصال بالوحي فيما يستجد بها خاصة من العظائم ، لذا كانت علامات الساعة التي نبه إليها النبي ﷺ ، وما أشار إليه من فتن ، وبيان المخرج منها ، أو كيفية التعامل معها ، أو تشخيص أسبابها بمثابة امتداد للوحي عبر الأزمنة ، تسترشد من خلاله الأمة سبل السلامة .

فالأمة الإسلامية مرت بعظائم من الأمور ، وشبهات عظيمة كانت أحوج ما تكون لعلم قطعي من وحي السماء ، أو آثارة من الوحي النبوي يستبين من خلالها الحق من الباطل ، وتدفع به الشبهات ، ومن هذه العظائم مثلاً القتال الذي حصل بين معاوية وعلي رضي الله عنهما ، وقتل علي ﷺ لطائفة الخوارج الحرورية ، وغيرها من الأمور ، فكانت علامات الساعة التي أخبر بها النبي ﷺ بمثابة مدد من السماء للأمة دفعت بها الشبهات ، وعلمت حقيقة أمرها وكأن الرسول ما زال بين ظهرانيهم ، وتبين لهم أن طائفة علي ﷺ كانت أولى الطائفتين بالحق ، ودفعت الشبهات من قلوب من شارك في قتال الحرورية عندما علموا بأن الرسول ﷺ قد نعتهم نعتاً دقيقاً ، وقال في حقهم : لاقتلنهم قتل عاد ،واعتبرهم فرقة مارقة على المسلمين ، وفي قتلهم خير عظيم للمسلمين .

والأمر لا يقتصر على هذين المثالين ، بل ما زال الوحي النبوي يتجدد مع الأمة

---

(١) انظر العلي : إبراهيم محمد ، من نبوءات الرسول ، ط الأولى ، ٩٦م ، دار القلم (٢٤ وما بعدها)

إلى قيام الساعة من خلال علامات الساعة ، وكأن الرسول ﷺ بين ظهراني الأمة .

٢- معرفة علامات الساعة تعزز معاني الإيمان في قلب المؤمن بمدى مصداقية رسالة محمد ﷺ .

فالمؤمن إذا نظر إلى ما حوله من أحداث وفتن ، أو ما عايشه من سبقه من المؤمنين بعد وفاة النبي ﷺ ؛ ثم ينظر إلى علامات الساعة فيجد وصفاً دقيقاً في السنة النبوية لهذه الأحداث ، فإن ذلك يجدد في قلبه معاني الإيمان بصدق الرسالة ؛ إذا لا يعقل أن يكون هذا الوصف الدقيق لهذا الكم الهائل من الأحداث والمواقف الغيبية قد صدر من بشر مجرد عن الوحي ، فيخرج المؤمن بنتيجة حتمية لا تحتمل غيرها وهي صدق رسالة محمد ﷺ ، وهذا المعنى وإن كان من لوازم الإيمان إلا أن معرفة علامات الساعة تجدد هذا المعنى عند المؤمن خاصة في الأزمنة التي تستحكم فيها الشهوات والشبهات .

وكما أن الصحابة لم يحرموا من مؤيدات غيبية عايشوها مع شخص رسول الله ﷺ من خلال الكرامات المتعددة التي عاينوها مع شخصه الكريم ؛ كذلك من بعدهم لم يحرموا من هذه التأييدات من خلال معاينتهم لهذا الإعجاز المستقبلي لكل ما أخبر به النبي ﷺ ، ففي كل زمن تتجدد أمام أعينهم معجزات نبيهم الكريم من خلال معاينة مصداقية أن ما أخبر به قد تحقق بنفس الوصف .

٣- معرفة علامات الساعة تتضمن تنبيهاً للأمة وتحذيراً لها ، وتصف العلاج الرباني لكل ما يصيبها مـــن مواطن الزلل والسقوط .

فالنبي الكريم ﷺ إذ أرشد أمته إلى طبيعة الفتن التي ستقع فيها ، لم يقتصر حديثه على وصف هذه الفتن ، و إنما تعداه لبيان سبل النجاة منها ، ورسم منهجاً متكاملاً يتضمن السلامة لمن يعايش هذه الفتن ، أو يقع فيها .

فأحاديث الفتن والملاحم ترسم وصفاً دقيقاً لحقيقتها ، ومنهجاً حكيماً للنجاة منها ، والمسلم يعايش هدي رسول الله ﷺ الخاص به وبزمانه في كل ما يحيط به من فتن ، وهذا يتفق مع عمومية رسالة الإسلام للزمان والمكان .

ومن هنا تظهر أهمية دراسة علامات الساعة ، وذلك لما تتضمن من تفهيم وتحذير وإرشاد وتنبيه لمواطن البلاء ، أو الزلل وحقيقة الداء وطبيعة الدواء المناسب له إلى قيام الساعة ، وهذا الهدف واضح في أكثر علامات الساعة ، على سبيل المثال عندما تحدث النبي ﷺ عن غثائية الأمة في آخر الزمان وتكالب الأمة عليها بين سبب العلة الموضحة لسبيل العلاج من خلال بيانه بأن هذه الغثائية سببها حب الدنيا وكراهية الموت ، وعندما تحدث النبي ﷺ عن الذبذبة الإيمانية عند وقوع الفتن التي كقطع الليل المظلم بدأ بالعلاج لها قبل أن يبدأ بوصفها، وذلك عند قوله : بادروا بالأعمال الصالحة فتناً ، وعندما أشار إلى الفرقة والاقتتال الداخلي في الأمة ، أو إلى مرحلة الهرج التي تعصف بالأمة بين الوسائل المنجية فيها ..إلخ .

٤- دراسة علامات الساعة تدفع عن المسلم الخور والضعف والهزيمة النفسية ، وتعزز عنده التمسك بتعاليم الدين ، وتهيجه للعمل الدءوب للقيام بأعباء رسالة السماء .

فالمسلم عندما يعايش واقعاً مؤلماً وتملي عليه صفحات هذا الواقع أن يستسلم له بكل ما يحمل من انهزام وذلة ومهانة ، يجد عند دراسته لعلامات الساعة أن استمرارية هذا الواقع ليس حتمياً ، وأن للمسلم وللأمة جولات تعز بها ، وتغير من واقعها الأليم الذي وقعت به بسبب تضيعها للأمانة ، وتفريطها بمقتضيات الرسالة ، عندها تدب الحياة من جديد في قلب المسلم ، وهو يطالع المبشرات بالنصر والتمكين التي بشر بها الرسول الكريم ، وتتجدد همته لهذا الدين ليكون جزءاً من قدر الله ﷻ في تغيير حالة الأمة .

وأضرب لهذا مثلاً مما يعيشه المسلم في هذا الزمان ، فإن إملاءات الواقع تعزز عنده الانهزام ، وهو يرى سطوة الباطل قد أحكمت على الأمة الإسلامية من كل حدب وصوب .

فإن اقتصر المسلم على ما يمليه عليه هذا الواقع الشرس المتفاعل من خلال ضعف الأمة وهزالها الشديد ونزاعها الأخير – كما يرى البعض – ومن خلال سطوة أهل

الباطل وتنوع هذه السطوة وتغلغلها في جميع جسد الأمة ، فإن ذلك يهيج عنده معاني الهزيمة ، ولكن عندما يرى في السنة النبوية وصفاً دقيقاً لهذا الواقع ، والمبشرات التي ترادفه ، فإنه لن يستسلم لهذا الواقع ، بل سيشد المئزر لمواجهته .

فمثلاً :

أ- عندما يرى المسلم القدس قد أضحت ضحية بين أيدي اليهود الظلمة ، ويرى أن كل عناصر القوة والمال والنفير بأيديهم ، ويرى أن ابنتها أمريكياً قد أحكمت قبضتها على العالم العربي والإسلامي ، ولا تألوا جهداً في وأد كل فرصة في مهدها لتحرير القدس ، وكذلك عندما يسمع عبر وسائل الإعلام ادعاءات اليهود **أن القدس عاصمة إسرائيل الأبدية** ؛ فإن المسلم عندها يصاب بحالة إحباط يستبعد من خلالها أي فرصة لتخليص القدس من أيدي هؤلاء الظلمة .

فهذا ما يمليه الواقع عليه ، ولكن عندما يقلب صفحات السنة ، يرى البشرى أمام عينيه ، بأن هذه القدس الأسيرة ستكون مهد العالمية الثانية للإسلام ، والعاصمة لدولتهم الثانية ، وفي ربوعها أيضاً سيتم وأد الفتنة العظمى للدجال .

ب- عندما ينظر المسلم إلى الغثائية والتشرذم والانهزام الذي أصاب العالم الإسلامي ؛ فإن ذلك يعقب عنده السخط الممزوج بالانهزام في صعوبة تغيير هذا الواقع ، وعندما يقلب صفحات السنة يرى أن هذا الواقع ليس حتمياً ، فقد تكفل الله بأن يبعث على هذه الأمة من يجدد لها دينها ، وأن هذا الواقع ليس على إطلاقه،بل هناك طائفة قائمة على الحق في الأمة إلى قيام الساعة .

مثل هذه المعاني تجدد عند المسلم الاستعداد للقيام بأعباء الرسالة ، وتشحذ عنده الهمة ليكون من هذه الطائفة أو أنصارها ، أو ليكون جزءاً من قدر الله ﷻ في تجديد معاني الإيمان بالأمة .

ج- عندما ينظر المسلم للواقع حوله ويراه قد امتلأ ظلماً وجوراً في جميع مناحي الحياة ثم يقلب صفحات السنة النبوية فإنه سيرى أن في طيات هذا الظلم البشارة بالخلاص ،

واستحكامه في الأمة يدل على قرب الخلاص ، و أن هذا الظلم سيعقبه بإذن الله ﷻ عدل بقدر ما ملئت الأرض جوراً كما دل على ذلك بعض النصوص الحديثية .

فالملاحظ من خلال الأمثلة السابقة مدى الأثر المبارك لدراسة علامات الساعة على الأمة في شحذ همتها للعطاء والتجدد والحياة وما يترتب على ذلك من عزة وتمكين .

٥- تغذية فضول الإنسان وفطرته نحو استكشاف المجهول :

المعلوم أن في الإنسان حاجة فطرية تدفعه دائماً نحو استكشاف الغيب أو الأمور المجهولة ؛ لذا حرص في الماضي كما يحرص في الحاضر نحو استكشاف الغيبيات والمغيبات عنه ، فالعلم بما سيكون ويحدث ويستقبل علم حلو عند النفس، وله موقع عند العقل، فلا أحد إلا وهو يتمنى أن يعلم الغيب، ويطلع عليه ويدرك ما سوف يكون في غد، ويجد سبيلا إليه .

و قد عمد الإنسان إلى اتخاذ طرق كثيرة لإشباع هذه الحاجة لديه كالكهانة والتنجيم والعرافة والسحر ، وأنفق لأجله قديماً وحديثاً أموالاً طائلة ، والمعلوم أن أكثر هذه الطرق منافية لشرع الله سبحانه وتعالى من ناحية ، ومن ناحية أخرى اختلطت فيها الأوهام مع الحقائق ، والدجل مع غيره ، ووقع الإنسان من خلالها في دوامة من التيه والخزعبلات والأوهام ؛ أي أنه أشبع هذه الغريزة بطريقة شيطانية خاطئة لا تغني ولا تسمن من جوع إضافة إلى كونها ضرر محض على متعاطيها ، فعلم الغيب أمر اختص به الله سبحانه وتعالى وسد من دونه الأبواب ؛ لذا لا مدخل للإنسان لولوجه إلا عن طريق الوحي .

لذا تأتي قيمة الوحي بما يخص الأمور المستقبلية لتشبع تلك الرغبة الفطرية لدى الإنسان بطريقة سليمة بعيدة عن الأوهام .

٦- دراسة علامات الساعة تعين على فهم طبيعة المرحلة التي يعيشها المسلم ، وهذا يساعد في تجنبه لمزالقها .

فعلامات الساعة قد بينت طبيعة المراحل التي تمر بها الأمة عبر التاريخ إلى منتهى البشرية ، وأرشدت المؤمنين إلى منهجية التعامل مع هذه الفتن وطرق توقيها ، وكذلك معرفة علامات الساعة تعين على فهم الدين وما يصلح له بطريقة تكاملية ، والعلم بها جزء من الإحاطة بعلوم الإسلام وإدراكها من جميع جوانبها ، وهذا الفهم يعين على فهم طبيعة المرحلة ، وهو أحوج زاد يحتاجه الدعاة لهذا الدين ؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بهذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه ، وفي حديث حذيفة السابق عن الخير والشر والفتن يتضح لنا كيف بين النبي ﷺ في الحوار المتضمن صيغة السؤال والجواب طبيعة كل مرحلة تمر بها الأمة ، ومواصفات أهلها وكل وسائل العلاج في الحالات الاستثنائية التي ستمر بها الأمة .

تنبيه :

يرى البعض أن دراسة علامات الساعة مدعاة للخمول والاستسلام للواقع ، خاصة عندما يرى البعض وصفاً دقيقاً لما يعيشه من واقع أليم في سنة الرسول ﷺ ، فيقول : ماذا أفعل مع واقع قدره الله ﷻ علينا ؟

أو يرى البعض في خروج المهدي المنتظر مسلكاً له للخلود إلى الدعة ، و للاستسلام للواقع بحجة أنه لا بد للفساد أن يزداد وللظلم أن يحكم قبضته ، ليكون ذلك تمهيداً لخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام لتغيير هذا الواقع .

هذه التصورات الخاطئة نسمعها من البعض ، وهي تمثلاً فهماً فجاً سقيماً لعلامات الساعة ، ويتنافى والهدف السامي الذي ينشده الرسول ﷺ من طرحها وبيانها .

ولعل ما يعزز هذه النظرة الاتكالية والانهزامية ما يروج حالياً لبعض الكتب المعاصرة التي تحمل فكراً دخيلاً على الأمة ، وتشير في كثير من فقراتها أن العالم قد اقترب

من نهايته ، والتدهور سيستمر كما بينت السنة النبوية ، ولا مجال لتغيير هذا الواقع الذي يعتبر جزءاً من قدرنا .

وهذه المعاني فيها ما تحمل من دعوة للانهزام ، وتجهيز المسلم رأسه لمقصلة أعداء الله ، ويهيئ نفسه للذبح في المذبحة العظمى التي يجهزها له أعداؤه ، بحجة أن ذلك قدر لا مفر منه .

الرد على هذا الفهم الفج :

يمكن الرد على هذه الشبهات أو التصورات التي تنشأ عن فهم خاطئ لعلامات الساعة والفتن بما يلي :

أ- هذه الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ ليست نوعاً جبرياً على الأمة ، بل هي عبارة عن نتائج لمقدمات وقعت بها الأمة ، فبسبب تهاون الأمة بأمانة الدين ، وتتبعها آثار الأمم الهالكة بنص القرآن الكريم ــ اليهود والنصارى – وقعت فيما وقعت به ، وهنا يطرح سؤال هل تعالج النتائج بالاستسلام لها ، أم بالاجتهاد لمعالجة مقدماتها وأسبابها وبواعثها؟

وهل فهم الرعيل الأول – الصحابة – هذا الفهم الفج للقدر ، أم كانوا يدفعون قدر الله ﷻ بقدر الله ﷻ دون الركون للواقع ، بل مجاهته والسعي الدءوب لتغييره ، وعدم الركون لسطوته ، بل دلت النصوص الكثيرة أن الرضا بالواقع المنحرف هو عين الوقوع بنتائجه المدمرة ، وسبب رئيس من أسباب الهلاك .

فالرسول ﷺ عندما يصف واقعاً أليماً للأمة ستقع به ؛ إنما يقصد بذلك تنبيهها وتحذيرها منه وتهييجها على التحرك لتغييره .

ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام أسوة حسنة ؛ حيث إنهم لم يركنوا للواقع الأليم الذي عايشوه في بداية الدعوة ، بل ضاعفوا الجهود لتغييره ، وتم لهم ذلك .

ب- من يطلع على أحاديث الفتن يرى أنها تضمنت العلاج لما يقع به المسلمون منها ، ولم تقتصر على وصف الفتنة ، وفي ذلك دليل واضح على أن ذكر علامات الساعة من

رسول الله ﷺ ليس دعوة للركون للواقع بقدر ما هي تهييج واستنفار لتغييره ، وهذا لا يتنافى والقدر ؛ لأن المسلم إنما يدفع قدر الله بقدره .

بل الناظر إلى بعض أحاديث الفتن يجد أنها بدأت بذكر العلاج الذي به تدفع الفتن قبل وقوعها مما يشير إلى أهمية عدم الاستسلام بحجة أنها قدر الله ﷻ ، من هذه الأحاديث قول رسول الله ﷺ : ﴿ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا . ﴾ (١)

فالنبي الكريم قد طالب المسلمين بالمبادرة والإكثار من الأعمال الصالحة قبل الوقوع بالفتن ، مما يدل دلالة صريحة على عدم جبرية هذا الواقع ، وإلا لما نفع فيه العلاج الذي دعا إليه الرسول ﷺ .

ج- من المعلوم قطعاً أن الصحابة هم أعمق الناس فهماً لدين الله ﷻ ، كيف لا وقد اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه ، ولو نظرنا للصحابة نجد أنهم لم يفهموا القدر على أنه مدعاة للخمول وترك الجهد للدين ، بل كانوا يدفعون قدر الله بقدره ، اضرب لذلك مثالاً موقف عمر رضي الله عنه مع أبي عبيدة رضي الله عنه بشأن طاعون عمواس في الشام .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ .

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفُوا .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١١٨ [انظر مسلم بشرح النووي (٣٧٥/١)]

فَقَالَ عمر ﷺ : ارْتَفِعُوا عَنِّي .

ثُمَّ قَالَ ادْعُوا لِي الْأَنْصَارَ فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ .

فَقَالَ عمر ﷺ : ارْتَفِعُوا عَنِّي .

ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ

فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ؟

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : **لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ** أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ .

قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ ﴾ . » (١)

فالأثر السابق فيه دلالة واضحة على ضرورة عدم الاستسلام للأقدار ، وهذا المعنى لا يتنافى وطبيعة الإيمان بالقدر ؛ وقد أشار العلامة الشيخ عبد القادر الجيلاني لهذا المعنى بقوله : « ليس الرجل الذي يسلم – أي يستسلم – للأقدار ، وإنما الرجل الذي يدفع الأقدار بالأقدار .» (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، حديث رقم ٥٧٢٩ [انظر فتح الباري (١٨٩/١٠)]

(٢) العلي : من نبوءات الرسول (١٨)

د- الإيمان بخروج رجل من أهل بيت النبي ﷺ في آخر الزمان لا يعتبر مسلكاً للبعض للهروب من الواقع وعدم السعي على تغييره ، بل العكس هو الصحيح ؛ حيث إن من مقتضيات هذا الإيمان أن يعزز معاني القيام بأعباء الرسالة عند كل مسلم ؛ فالإيمان بخروج المهدي ﷺ في آخر الزمان يجدد شعلة الأمل في قلب المسلم ، ويحركه للإعداد لتلك المرحلة أو سابقتها ، وهنا أود أن أنبه أن مشكلة الأمة ليست في خروج رجل لإصلاحها فقط ، بل مشكلتها الحقيقية في مدى استعدادها لهذا الدين ، ومدى استقامتها على نهجه ، ويكون خروج المهدي ﷺ بمثابة المجازاة لها على هذا الاستعداد ليسلك بها سبيل النجاة ، ومن هنا أقول أني لا أتصور خروج المهدي إلا بعد أن يتواجد في الأمة مهديون كثر يمهدون للمهدي المنتظر جهده .

فالأثر المبارك الذي يحدثه المهدي ﷺ في الأرض لا يكون بسبب جهده فقط بل يضاف إليه جهد رعيل عظيم من الربانيين والصديقين الذين يمهدون لجهده ، ولنا في الأمم السابقة أكبر مثال فاليهود لعنهم الله ﷻ كان بعث بعض الأنبياء عليهم في بعض المراحل بمثابة إقامة الحجة عليهم وذلك لخبث نفوسهم و تمكن الهوى من قلوبهم ، وعدم استعدادهم لحمل أعباء الرسالة ، فما كان منهم إلا أن تخلصوا من أنبيائهم في تلك المراحل إما بقتلهم ، أو بقتل قدسيتهم في نفوس الناس من خلال تكذيبهم .

والمهدي مهما بلغ من درجة فإنه لا يبلغ درجة أدنى نبي ، فإذا وجد في أمة سيطرت عليها الأهواء ، وتمكن منها حب الدنيا ، و لم يجد رعيلاً من الربانيين المهديين من يحمل معه أعباء الرسالة بهمة عالية ، فعند ذلك لا يتصور أن يعدو خروجه من باب إقامة الحجة ، ولن يكون حظه من الأمة بأفضل من حظ بعض الأنبياء مع بني إسرائيل . (✽)

وأذكر في هذا المقام مقولة ذكرها بعض مروجي الفتن للإمام علي ﷺ ؛ حيث

(✽) طبعاً كلامي الأخير لا يتصور ؛ لأنه ثبت أن المهدي سيكون خروجه سبب بركة على الأمة وإحياء لهمتها وتجديد لعزمها ، فثبت من ذلك من أن المراحل التي تسبق المهدي ستشهد ميلاد جيشٍ عظيمٍ من الربانيين الذين يمهدون للمهدي ، ويستحقون خروجه لإعزاز الدين .

قال له : « يا علي . لم قامت الفتنة في زمانك ولم تقم في زمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .» طبعاً يتضح من هذه المقالة أن صاحبها يريد أن ينال من علي ﷺ ويعتبره سبباً للفتنة ومهيجاً لها ، ويقصد بذلك اتهام علي في دينه والإنقاص من فضله .

فأجابه علي ﷺ إجابة شافية تدل على فهم عميق للدين فقال له : « لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانوا أمراء على أناس مثلي - أي في التقوى والصلاح والشعور بالمسئولية تجاه هذا الدين - ، وأنا أمير على أناس مثلك - من مروجي الفتن . »

فهذه الإجابة العجيبة تعطينا درساً مهما وهو :كيفما تكونوا يولى عليكم . (✿)

وبالتالي يمكن القول بأن خروج المهدي ﷺ لا يدل على مرحلة خروج قائد معه النصرة الربانية بقدر ما يدل على ميلاد أمة ونضوجها للقيام بأعباء الرسالة وقيادة العالم نحو الهدى والرشاد ، فما خروج المهدي إلا جائزة لأمة استعدت للقيام بأعباء الرسالة .

(✿) لعل من أسباب حيرة الناس في عصرنا أنهم عندما رأوا بعض إرهاصات العودة للدين ، بدءوا يتعجلون الثمرة المترتبة عليه وهي النصر ، واحتاروا في كيفية هذا النصر ؛ لذا بدءوا بالتنقيب في الكتب ، فما وجدوا أمامهم إلا الكتب المضللة ؛ فإشكالية الأمة الآن ليس في كيفية النصر ، بل في تحقيق مواصفات استحقاق النصر فيها : « **لا تقولوا كيف ننتصر ولكن قولوا متى نستحق** . » فالحيرة في كيفية النصر تعكس نفسية متشككة في قدرة الله ، ومنبهرة بقدرة المخلوق ، والشك في قدرة الله ﷻ مخرج من الملة .

الفصل الثاني : دراسة تأصيلية لعلم العلامات

ويتضمن المباحث الثلاثة التالية

المبحث الأول :مصطلحات لها علاقة بعلم العلامات

المبحث الثاني : المصــادر الأصــلية لعلامات الساعة

المبحث الثالث :خصوصية أم تخصصية

المبحث الأول
مصطلحات لها علاقة بعلم العلامات

المعلوم أن هناك عدة اصطلاحات متعلقة بعلم العلامات ، يحسن بدارس هذا العلم أن يكون على معرفة بالمراد بها ، ولعل أهم هذه الاصطلاحات هي : الأشراط ، الأمارات ، الآيات ، لا تقوم الساعة ، الفتن ، الملاحم .

وسأقتصر هنا في بيان المراد بالمصطلحات الأربعة الأولى ، أما تعريف الفتن والملاحم ، فسأترك بيانها في فصولها الخاصة بها .

المطلب الأول : تعريف الأشراط

هذه الكلمة ، هي الكلمة القرآنية المعبرة عن علم العلامات ، لذا أرى أن أبدأ ببيان المراد بها

أولاً : الأصل اللغوي .

الشَّرَط بفتح الراء : العلامة ، والجمع أشراط ، والاشتراط العلامة التي يجعلها الناس بينهم . (١)

ثانياً : المراد بالأشراط .

يتضح من الأصل اللغوي أن أشراط الساعة هي العلامات التي تعرف بها ، ويرى البعض أن المراد بالأشراط ، الإرهاصات والمقدمات الدالة على قرب الساعة ، والبعض الآخر يرى أن كلمة الأشراط جاءت في علامات الساعة للتعبير عن صغار الأمور التي تحصل قبل العظائم والتي تدل على قرب الساعة (٢) ، وعلى المعنى الأخير يكون تعبير الأشراط يراد به العلامات الصغرى لقرب قيام الساعة ، أو العلامات البعيدة نسبياً ، لذا عبر القرآن عن العلامات التي بدأت ببعثة النبي ﷺ بالأشراط ، وهي بعيدة نسبيا عن الساعة .

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب (٣٢٩/٧)

(٢) انظر النووي : مسلم بشرح النووي (١٧٥/١) ؛ ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٤٦٠/٢)

المطلب الثاني : تعريف الأمارات

جاء ذكر الأمارات في بعض الأحاديث منها حديث جبريل الذي عبر عنه مرة بالأمارات ومرة بالأشراط .

أولاً : الأصل اللغوي .

أصل الأمارة بفتح الهمزة من الأمر وهو العلم الصغير من أعلام المفاوز – الصحاري – من الحجارة ؛ أي ما يضعه عابروا الصحاري من حجارة في طرقهم كعلامات في وسط الصحراء يستدلون بها ، والأمارة العلامة أو الوقت المحدود . (١)

ثانياً : المراد بالأمارات :

يتضح من الأصل اللغوي للأمارة أنها تدل على علامة الشيء ، أو وقته المحدد له ، وفي أصلها اللغوي إشارة إلى أن استخدام كلمة الأمارة للدلالة على العلامة الصغرى ، وليس الكبرى ، وذلك أشبه بتلك العلامات الصغرى التي يضعها المسافرون في الصحاري للاسترشاد بها ، وتكون عبارة عن بعض الحجارة الصغيرة .

المطلب الثالث : تعريف الآيات

جاء ذكر كلمة الآيات للدلالة على علامات مخصوصة ، منها حديث العلامات الكبرى العشر .

أولاً : الأصل اللغوي لكلمة آية .

الآية : الدليل والعلامة على صدق وقوع الشيء ، أو هي الأمر العجيب المفضي للاعتبار . (٢)

ثانياً : المراد بالآيات .

من تتبع استخدام النبي ﷺ لكلمة الآيات في علامات الساعة يلحظ أنه استخدمها فقط مع العلامات الكبرى للساعة ، كالعلامات العشر التي عبر عنها بأنها

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب (٣٢/٤) ؛ ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٦٧/١)

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (٦١/١٤)

الآيات العشر ، وكأن هذه الكلمة تدل على الأمور العظام الحاصلة قبل وقوع الساعة ، وهي بذلك مغايرة لمعنى الأشراط والأمارات في الدلالة ، وهذا يتضح من أصلها اللغوي ؛ لأنها تتضمن ثلاثة أمور : العلامة والدليل والشيء العجاب ؛ أي أن الآيات تعتبر دلائل حتمية مؤكدة لقرب الساعة ؛ وهي مغايرة لغيرها من العلامات بأنها تتضمن أموراً عجاب غير معهود وقوع مثلها ؛ لذا كان استخدامها في الأمور العظام الجلية التي لا يختلف فيها اثنان إذا وقعت ، والعجيبة في وصفها لما تتضمنه من أشياء غير معهودة .

المطلب الرابع : معنى قول النبي ﷺ « لا تقوم الساعة »

أحياناً يفهم البعض أن قول النبي ﷺ لا تقوم الساعة يفيد أنه إذا وقع ما بعده من العلامات فإن الساعة ستقوم مباشرة بعد ذلك ، وهذا مفهوم خطأ لهذه العبارة ، فقد حصلت كثير من العلامات التي صُدرت بهذه العبارة من قرون و لم تقم الساعة .

ومراد النبي ﷺ من استخدام هذا الاصطلاح بيان أن هذه الأمور التي يخبر عنها لا محالة واقعة في الحياة الدنيا ، ولا يتصور انقضاء الدنيا قبل وقوعها ، فهذا هو غاية مراد النبي من طرحه لهذه العبارة ، وليس كما يفهم البعض .

المطلب الخامس : العلامات الصغرى والعلامات الكبرى

المتتبع لأحاديث العلامات يجد أنه لم يتم التصريح بالتفريق أو التوصيف بأن هذه علامات صغرى ، وتلك علامات كبرى ، بل الملاحظ أن هذه العلامات بعمومها قد جاءت مرتبطة بقيام الساعة أو انتهاء الدنيا دون تحديد لكونها صغرى أم كبرى ، إنما هذا التفريق كان من العلماء .

بالتالي يمكن القول بأن مصطلحي « علامات صغرى » و « علامات كبرى » ليسا نبويين ، وإنما هما حادثان على هذا العلم ، ويأتي تساؤل هنا وهو : كيف فرق العلماء بين العلامات كما يتضح في كتب الفتن .

في ظني أن هذا راجع لأصل اللغة كما وضحت سابقاً ، فما عبر عنه النبي ﷺ مستخدماً لفظة الآيات اصطلح العلماء على تسميته بالعلامات الكبرى ، وما عبر عنه النبي

ﷺ بغير ذلك كالعلامة أو الأمارة اصطلح العلماء على تسميته بالعلامات الصغرى ، وفي ظني أن هذا التقسيم له وجاهته لما يلحظ من أن النبي ﷺ قد فرق بالعبارة والأسلوب بين نوعين من العلامات ، واعتبر عشراً منها من باب الآيات ، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه العلامات تختلف عن غيرها من العلامات ؛ إما لخطورتها وأهميتها ، وإما لعظمة أثرها وشمولها ، وإما لصراحتها في الدلالة على قرب الساعة ، وإما لخرقها للعادة و ونواميس الكون .

ويأتي هنا تساؤل آخر مبني على فرضية تقسيم العلامات إلى صغرى وكبرى وهو : هل يشترط وقوع كل العلامات الصغرى لكي يعتبر ذلك إرهاصاً لبداية الآيات العظام أو العلامات الكبرى ؟

و الحق في هذه المسألة أنه لا يشترط ذلك ، والمتتبع للعلامات يجد أن هناك كثيراً من العلامات الصغرى تقع بعد الكبرى ، منها هدم البيت (الكعبة) الذي يقع بعد يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى عليه السلام ؛ أي أنه يقع بعد العلامات الكبرى وفق ما اصطلحنا عليه ، وكذلك انتشار الزنا في الطرقات ، و رفع القرآن ، وغيرها من العلامات .

ووفق ما ذكرت أشير هنا إلى أن علامات الساعة يمكن وصف بعضها بأنه علامة صغيرة أو آية عظيمة (علامة كبيرة) وأن هذه العلامات متداخلة فيما بينها ؛ لكن دلالة الواقع تشير إلى أن أكثر العلامات الصغرى قد وقعت إلا بعض العلامات التي يمكن القول بأنها من إرهاصات الكبرى أو متداخلة معها (كحسر الفرات) إضافة إلى بعض العلامات المتعلقة بنهاية الرسالة في آخر الزمان والتي يترتب عليها الفناء الكامل .

المبحث الثاني
المصـــادر الأصـــلية لعلامات الساعة
ومنهج التعامل معها

المطلب الأول : مصدر الأمور الغيبية هو القرآن والسنة

- يقول الله ﷻ : ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)
- ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٢)
- ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ (٣)
- ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (٤)
- ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥)
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦)

---

(١) الأنعام:٥٠
(٢) الأنعام:٥٩
(٣) الأعراف:١٨٨
(٤) يونس:٢٠
(٥) هود:٣١
(٦) هود : ٤٩

- ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١)

- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ (٢)

علامات الساعة من أمور الغيب ؛ لذا لا بد في إثبات علامة منها أو نفيها من مصادر موثوق بها ، والمصدر الوحيد الموثوق به في هذا الباب هو الوحي ، والوحي الذي بين أيدينا له مصدران لا ثالث لهما ، وهما الكتاب والسنة .

يضاف إلى هذين المصدرين ما أثر عن السلف الصالح من صحابة وتابعين من آثار والتي تعتبر امتداداً للمصدرين السابقين ؛ إذ إن ما يؤثر عنهم إما مرجعه النقل خاصة في مثل هذا الباب من المسائل الغيبية ، أو يكون منشؤه فهما تحصل لبعضهم من عدة قرائن نقلية كانوا هم أعرف بها منا مع ما أوتوا من غزارة علم ونفاذ بصيرة ، وقرب عهد بالوحي .

أما غير هذين المصدرين الأصليين وما تفرع عنهما مما أثر عن السلف الصالح ؛ فيعتبر من المصادر الموهومة التي لا يعول عليها أبداً في هذا الباب كمصادر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أو غيرها من المصادر التي يدعيها بعض من ينتسب لهذه الأمة كالجفر (✽) أو الهفت أو غيرهما .

---

(١) النمل:٦٥

(٢) الجــن:٢٦

(✽) الجفر وضعه بعض غلاة الشيعة والروافض ، ونسبوه زوراً إما للإمام علي ، أو للإمام الصادق ، ويزعمون زوراً أن به أسرار كل شيء ، وقد قام الإمام علي بتلغيزها على جلد شاة أو جلد غزال ، وهذا وجه تسميته بالجفر في زعمهم ، و هذا الكتاب الملغز لا يعرف تأويله وفك رموزه إلا آل البيت .

وقد تناولت موضوع الجفر في كتاب آخر ، وخلصت إلى نتيجة وهي أن هذا الكتاب منسوب زوراً للإمامين علي وجعفر الصادق رضي الله عنهما ، والكتاب إما وضعه الخطابية من الشيعة أو الكليني ، وهو عبارة عن أوهام وأكاذيب ، أو بعبارة أخرى سموم يحاول أهل الباطل من الفرق الباطنية بثها في الأمة لترويج باطلهم ، أو تزيينه و يستخدمونه كمعول لهدم الوحيين الكتاب والسنة ، و المصيبة أن هذا الكتاب قد وجد من يروج له ويزينه في عصرنا بين العامة مستغلاً الظرف النفسي التي تمر به الأمة : [انظر المبيض : كتب في ميزان الشرع (١٩- ٢٦)]

وعدم اعتبار مصادر أهل الكتاب مرجعه ما ثبت عندنا من تحريف الكتب السماوية السابقة بما يجعل ما يرد عنهم أمرا مشكوكاً في صحته ، وهذا مما نحن في غنى عنه .

أما عدم اعتبار المصادر التي يدعيها بعض من ينتسب لهذه الأمة كالجفر والهفت والجامعة وغير ذلك من الكتب المنسوبة كذباً لبعض أهل البيت فمرجعه ما ثبت عندنا من عدم مصداقية أي مرجع في أمور الغيب غير الكتاب والسنة ، و قد تضافرت الآيات الكريمة في الدلالة على أن الغيب أمر لا يختص به إلا الله ﷻ ؛ لذا لا طريق لمعرفة بعضه إلا من خلال الوحي المحصور بالكتاب والسنة . (✽)

يضاف إلى ما ذكرت أنه قد ثبت لدينا أن أكثر الفرق كذباً واختلاقاً للأحاديث والآثار هم الروافض والشيعة ؛ لذا لا يعتد بمصادرهم لأنه اختلطت الحقيقة عندهم بالوهم ، والحق بالباطل ، والغث بالسمين ، والسلامة تقتضي طرح ما لديهم إلا ما وافق مصادرنا .

تساؤل :

قد يطرح البعض هنا تساؤلاً مفاده أن القرآن الكريم لم يتحدث كثيراً عن علامات الساعة ، والسنة تكلمت عن العلامات بشكل إجمالي ، والمرحلة الحساسة التي نعيشها الآن تستحثنا للبحث عن صورة تفصيلية للمستقبل القريب ومجريات الأحداث المتعاقبة ، وهذا ما يجعلنا نتوجه لأي مصدر يخبرنا عن طبيعة المرحلة والذي يعقبها ، أو بعبارة أخرى نسترشد من خلاله بصيص نور عبر هذا النفق المظلم ، وهل هناك مانع من ذلك ؟

أقول : صدور هذه التساؤل منشؤه غفلة الأمة أو أفراد منها عن حقيقة الأمور

(✽) انظر مبحث خصوصية أم تخصصية في هذا الفصل ، ففيه توضيح لهذه المسألة ، وتصريح من الإمام علي ﷺ بأن النبي ﷺ لم يخصه بعلم دون غيره من الصحابة ، وسنلاحظ أن هذه الفكرة قد نشأت عند بعض المارقين ليكيدوا للإسلام من خلالها .

الغيبية ومصدرها الحقيقي ، يضاف إلى ذلك القصور في الاستثمار الحقيقي للكتاب والسنة في بيان مجريات الواقع الحالي أو الأمور المستقبلية القريبة منا .

أما القول بأن هناك إجمالاً في طرح الأمور المستقبلية كما يظن البعض ، فليس كذلك ، حيث إن المتتبع لعلامات الساعة في الكتاب والسنة يجد أنها استوفت الحديث عن مجريات صراع الحق والباطل ، أما ما غاب عنا من تفصيلات فرعية ، فلا حاجة لنا به ، إضافة إلى أنه يمكن استنباطه من خلال فهم السنن الربانية في مجريات صراع الحق والباطل ، فالإشكالية ليست في قصور الكتاب والسنة عن الإيفاء بالأمور الغيبية وتوضيحها ، إنما الإشكالية تكمن في غياب العقلية المتأملة لهذين المصدرين العظيمين .

وهذا يقتضي منا بيان حقيقة هذين المصدرين وطرق استثمارهما في هذا الباب العظيم ، وذلك على النحو التالي .

المطلب الثاني : القرآن الكريم (*)

أولاً : طبيعة القرآن الكريم .

القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي ، ويتفرع على ذلك اعتباره المصدر الأول من مصادر علامات الساعة والفتن والملاحم ، فهو المعجزة الخالدة التي أكرم الله ﷻ بها نبينا وأمته إلى قيام الساعة ، وحقيقة الإعجاز في كتاب الله ﷻ أنه يتضمن وحياً متجدداً ومعاني متتابعة تفوق أفهام البشرية وعقولها إلى يوم القيامة بما يستحيل أن يصدر مثل ذلك عن بشر ، ومن هنا جاءت الإشارة إلى أن القرآن الكريم لا تشبع منه العلماء ، ويراد بذلك أن المعاني المتجددة عبره غير متناهية ، فالعلماء مهما أوتوا من قوة

(*) القرآن الكريم أعظم نعمة عرفتها البشرية ، وهو سبيل خلاصهم في الدنيا والآخرة ، وقد عظمه الله ﷻ بأشكال عدة منها :

١- إن الله ﷻ قد وصف كتابه بأوصاف حميدة متعددة ، من هذه الأوصاف : القرآن – الكتاب – ذي الذكر – الفرقان – مجيد – كريم – مبين – النور – التبيان لكل شيء – البيان – الفصل - الروح - الحق - حبل الله – عجباً ....إلخ

هذه بعض نعوت القرآن ، وكما هو معلوم **أن تعدد النعوت الحميدة تدل على عظمة المنعوت** ، فكيف إذا كان الذي ينعت القرآن هو رب العالمين .

٢- الإكثار من القسم به : وهذا واضح جلي في ثنايا القرآن ؛ حيث أقسم الله ﷻ بكتابه بمواضع كثيرة جداً فاقت غيره كثيراً ،والمعلوم أن الله ﷻ لا يقسم إلا بكل عظيم ، فكيف إذا كان المقسم به هو أكثر شيء قد أقسم الله ﷻ به .

٣- القسم بكل عظيم للتأكيد على عظمة الكتاب : ومن ذلك قوله ﷻ : فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم .

٤- الاستفتاح بتعظيم القرآن في بدايات السور ، وهذا واضح جلي في أكثر سور القرآن منها على سبيل المثال البقرة ، آل عمران الأعراف ، يس ، ص ، طه ، ق ، الدخان ..إلخ

٥- تعظيم أوقات مخصوصة لتعلقها بنزول القرآن ، كتعظيم ليلة القدر على سائر الليالي ، وشهر رمضان على سائر الشهور ، وكما هو معلوم أن سبب هذا التعظيم هو نزول القرآن فيها كما صرحت الآيات .

يضاف إلى ذلك تعظيم جبريل ﷺ على سائر الملائكة لتوكله بالوحي ، وتعظيم النبي ﷺ على سائر الأنبياء لنزول أعظم كتاب عليه ، وتعظيم أمة محمد ﷺ على سائر الأمم لنفس السبب ، بل كفى شرفاً لهذه الأمة بأنها أمة القرآن .

يضاف إلى ذلك تعظيم قراءته أو حمله واعتبار حملة القرآن أشراف أهل الجنة .

عقلية متميزة كلما غاصوا في بحار كتاب الله ﷻ فإنهم يستخرجون من لآلئه وكنوزه غير المتناهية ، وكيف يشبع طالب علم من كتاب كلما تأمل فيه يرى نفسه أمام ألفاظ تحمل وراءها معاني لا نهاية لها ، و كلما استجد له معنى منه في ذهنه فتح أمام بصيرته أفاقاً جديدة ومتواليات من المعاني لا حصر لها .

ومن عظمة القرآن أنه جاء بأساليب بسيطة يقدر على التعاطي معها كل البشر ، بحيث يقرر أحكاماً وتصورات وتشريعات يقدر على فهمها جميع البشر ، وهو من هذا الوجه ميسر للجميع ؛ فإذا تناوله أولوا الأفهام والعقول وجدوا خلف هذه الأساليب بغيتهم من الحكم والإسرار والعبر غير المتناهية ؛ وهذا سر القرآن ومظهر إعجازه فهو بسيط ميسر يتناوله الجميع ، وفي نفس الوقت هو عميق المعاني ، ولا متناهي الدلالات بحيث لا يشبع منه العلماء .

هذا عن طبيعة كتاب الله ﷻ ، يضاف إلى ذلك أنه اتصف بصفات متعددة فهو النور والفرقان ، والتبيان لكل شيء ، والكتاب المبين ، والفصل والقرآن المجيد ، والقرآن الكريم والمفصل ، والروح ، والعجب أو العجيب كما صرحت الجن .

ولهذه الصفات تجلياتها الواسعة ؛ خاصة في باب غيبي هام شغل الأمة قديماً وحديثاً . (✿)

(✿) قد يتساءل البعض هنا بقوله : لم اعتبرت القرآن المصدر الأول لعلامات الساعة بالرغم من أنه تكلم عن علامات قيامها فقط ، أما الأشراط الصغرى والكبرى الممهدة لقيامها ، فلم يتم التصريح بها أو التلميح إلا في حدود ضيقة جداً ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول : إن هذا الفهم نجم عن أمرين

أولاً : غفلة الأمة عن عظمة القرآن وطبيعة عطائه اللامتناهي .

ثانياً : جهلنا في طرق استثماره فيما يستجد علينا .

ثانياً : كيف يمكن استثمار كتاب الله ﷻ كمصدر أول من مصادر علامات الساعة :

هناك مسلكان يمكن من خلالهما استنباط المعاني المتعلقة بعلامات الساعة من كتاب الله ﷻ .

المسلك الأول : القياس على النماذج القرآنية المتعلقة بالأمم السابقة .

فالقرآن عبارة عن أمر ونهي ومثل وقصة ، والناظر إلى النماذج القصصية في كتاب الله ﷻ يجد أنها نماذج قليلة قياساً مع عدد الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ﷻ والذين يعدون بالآلاف ، وهذه النماذج على قلتها إلا أنها شغلت مساحة واسعة من كتاب الله ﷻ وتضمنت علاجاً كافياً وافياً للمشاكل التي تواجه الأمة ، أو تعرض لها إلى قيام الساعة ، يقول الله ﷻ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (١) ، ويعزز هذا القول ما ورد في الأثر عن القرآن أنه فيه : « نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم . » .

طبعاً المقدمة السابقة لا توضح لنا وجه العلاقة بين القصص القرآني وبين علامات الساعة ، **لكن لو انتبهنا لمقصد إيراد هذه النماذج بالذات في كتاب الله ﷻ ، والغاية التي لأجلها سيقت هذه القصص لوقفنا على أول الطريق الذي يبين هذه العلاقة .**

ما المقصد من إيراد القصص القرآني ؟

صرحت عدة آيات بمقاصد إيراد القصص القرآني وغاياته منها أن في إيرادها تثبيت لقلب النبي ﷺ وأمته حال قيامهم بأعباء الرسالة من خلال بيان ما قام به من سبقهم وما لاقوه من مخالفيهم ، وكذلك هذه القصص مجال واسع للتفكر والاتعاظ من خلال بيان طبيعة الصراع بين الحق والباطل على مدار حياة البشرية وعاقبة كل من الفريقين.

---

(١) الأنعام:٣٨

ولعل أهم مقصد صرحت به الآيات وهو في ذاته يشتمل الهدفين السابقين هو أن هذه النماذج القصصية تتضمن وصفاً دقيقاً لحقيقة الصراع بين الحق والباطل ، وتبرز كل ما يتصور من البشرية إلى يوم القيامة ، وبالتالي هذه النماذج كافية لبيان إفرازات كل صراع مستقبلي بين الحق والباطل بكل جزئياته من خلال قياس ما يستجد من أحداث وصراع على هذه النماذج ، وهذا المقصد عبرت عنه الآيات من خلال لفظة العبرة أو الاعتبار .

يقول الله ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . ﴾ (١)

وقال سبحانه وتعالى بشأن قصة بني النظير : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٢)

الآية الأولى تشير إلى مقصد إيراد القصص ، وهو حصول العبرة للسامع ، ولا يمكن تصور حصول العبرة إلا من خلال قياس الواقع الذي يعايشه على تلك النماذج .

أما الآية الثانية فهي عمدة الأصوليين في إثبات القياس وهو الركن الرابع والدلالة على حجيته في التشريع الإسلامي ، ويمكن إيجاز استدلالهم في التالي :

الآيات تشير إلى ما حل ببني النضير كما يصرح صدر الآية ثم أعقب ذلك بأمر عقلاء الأمة بالاعتبار (فاعتبروا يا أولي الأبصار) أي تأملوا فيما نزل بهؤلاء ، والسبب الموجب لعقابهم ، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم ، فتعاقبوا بمثل عقوبتهم ، فما جرى على المثيل ، يجري على مثيله ، مما يدل على أن الأسباب تابعة لمسبباتها ، فحيثما وجدت

(١) يوسف : الآية ١١١

(٢) الحشر:الآية ٢

الأسباب ترتبت مسبباها ، وحيثما وجدت العلة وُجد الحكم ، والقياس بهذا المعنى ، فهو ترتيب المسبب على سببه .

كذلك الاعتبار معناه المجاوزة والعبور ، وهو الانتقال من الشيء إلى غيره ، ومقتضى ذلك أن هذا النموذج الذي وقــع مع بني النضــير سيقع مع غيرهم إذا وجدت الأسباب نفسها الموجبة لها . (١)

هذا مجمل استدلالهم على اعتبار الآية دليلاً وحجة في اعتبار القياس ، يأتي هنا بيان وجه العلاقة بين هذا ، وما نحن فيه بخصوص علامات الساعة .

أقول : لئن اعتبر العلماء هذه الآية دليلاً وحجة في إثبات القياس في الأحكام الشرعية بإثبات تعدية حكم الأصل للفرع لاشتراكهما في العلة ، واعتبارهم ذلك مع أن الدلالة ضمنية ، فاعتبارنا قياس النماذج القصصية القرآنية على واقعنا أولى ؛ لأن معنى الآية دل عليه ، وأمر به صراحة ، بل هو المقصود الأصلي من الآية ؛ أي أن استدلالهم بالآية على مشروعية القياس بالأحكام يعتبر من باب دلالة الإشارة ، أما استدلالنا على قياس ما يستجد علينا من واقعات على النماذج القصصية المماثلة يدخل في باب دلالة النص ، ودلالة النص أقوى من دلالة الإشارة كما يرى علماء الأصول .

وإذا قلنا أن واقع البشرية ، وصراع الحق والباطل لا يتغير في بواعثه وأهدافه ، و مناهجه ، والسنن الربانية في التعامل معه إلى قيام الساعة ، فإن ما سيقع في الأمة الإسلامية من علامات وملاحم هي امتداد للنموذج القصصي القرآني ، ويترتب عليه نفس السنن الربانية ، ومن هنا نجد مادة غزيرة في توصيف كثير من الملاحم والعلامات من خلال النماذج القرآنية ، بحيث إن الإشارة النبوية لعلامة من العلامات قد يعطينا تصوراً كاملاً لكل ملابساها إذا أحسنا التعامل مع النموذج المطابق لها في القرآن ، والذي يحكي تفاصيل ملحمة الصراع فيه ونتائجه .

ومن هنا أقول : ثبت أن عدد الرسل و والأنبياء يفوق كثيراً العدد المذكور في

---

(١) انظر الزحيلي : أصول الفقه الإسلامي (٦٢٢/١)

القرآن ، وعدد النماذج القصصية في القرآن قليلة ، والحكمة الربانية تقتضي أن تكون هذه النماذج هي غاية ما تحتاجه أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة في فهم طبيعة صراعاتها ، وملاحمها ، وما يترتب عليها .

يترتب على هذا الفهم القول بأن النموذج الفرعوني سيتكرر مع أمة محمد ﷺ ، وكذلك النموذج العادي والثمودي .. إلخ .

ومن هنا يمكن القول أن معرفتنا لطبيعة علامات كل مرحلة تمر بها الأمة الإسلامية يتحصل لنا إذا عرفنا النموذج القصصي الذي تنتمي إليه تلك المرحلة .

ولكي يتضح ما ذكرت هنا عن طريقة استثمار القرآن في بيان الفتن وعلامات الساعة والملاحم من خلال استخدام القياس والاعتبار أسوق هنا مثالاً واحداً يتضح به المقال :

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . قَالَ فَمَنْ ؟﴾ (١)

هذا الحديث فيه إشارة إلى أن أمة محمد ﷺ ستتبع طرق الأمم السابقة ومناهجها ، وسيكون هذا الإتباع من باب التقليد الحرفي المطابق لتلك الأمم ، وبين لنا الحديث المراد بالأمم السابقة بأنهم اليهود والنصارى .

هذه دلالة الحديث الصريحة ، وهو بذلك يفتح أمامنا أفاقاً قرآنية واسعة في توصيف تلك السنن وما ترتب عليها مما أسهب في ذكره القرآن ، فلو ربطنا هذا الحديث بقوله تعالى : فاعتبروا يا أولي الأبصار ، استطعنا أن نكتفي بهذا الحديث في استنباط كل علامات الساعة الصغرى ، وذلك من خلال تتبع سنن اليهود والنصارى التي بينها القرآن ثم قياسها على واقع الأمة ، و اعتبارها علامات تترتب عليها نتائج مشابهة ، فنقول :

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري في الاعتصام ، حديث رقم ٧٣٢٠ [انظر البخاري مع الفتح (٣١٢/١٣)] ؛ ومسلم في العلم برقم ٢٦٦٩[انظر مسلم بشرح النووي (٤٣٧/٨))]

- عقدة البقرة المتضمنة التحايل على أمر الله سبحانه وتعالى ، والتلكؤ في الطاعة هو علامة ستقع فيها الأمة ، وواقع الأمة حالياً يشهد بذلك ، بل وقعت فيهم أيضاً نتائج عقدة البقرة ، وهو انتقالهم من اليسر إلى العسر ، ومن البساطة إلى التشديد .
- التحايل على الحكم الشرعي واستحلال المحرمات كما حصل مع أصحاب السبت وما ترتب عليه من مسخ ستقع الأمة في مثله باستحلالها محرمات ثابتة التحريم كالخمر والزنا ، وسيقع في الأمة المسخ نفسه ، وفي الباب علامات ساعة صريحة تدل عليه .
- التنصل من القيام بأعباء الرسالة والخوف مما يترتب على ذلك ، والرضا بموقف المتفرج كما حصل مع بني إسرائيل وموسى عندما طلب منهم دخول المدينة المقدسة ، هذا التنصل من المسؤولية ستقع فيه الأمة ، ويقع ما يترتب عليه ، وهو التيه والضياع ، وواقع الأمة يشهد لذلك ، وموقف المتفرج الآن يمثله السواد الأعظم المحسوب على الأمة ، والذلة والتيه والضياع أصبح عنوان لكل أفراد الأمة ، وهناك علامات صريحة ذكرها النبي ﷺ تدل على هذا المعنى .
- استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وقع فيه بنو إسرائيل ، وترتب عليه ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وأمة محمد ﷺ كرمت على الأمم ، وذلك واضح في قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. ﴾ (١) إلا أنها وقعت فيما وقعت به بنو اسرائيل واستبدلت في زماننا الخيرية التي أكرمها الله بها بالقومية والعلمانية والشيوعية ، فضربت عليها الذلة والمسكنة ، وهناك علامات ساعة صريحة تدل على هذا المعنى .

هذا مثال تطبيقي يبين لنا كيف يمكن استثمار القرآن من خلال القياس في توصيف علامات الساعة والملاحم والفتن ، وكما يتضح مما سبق أنني ذكرت بعض الأمثلة السريعة ، ولم استقص الموضوع هنا ، و لا أجانب الصواب إن قلت أن هذا الحديث من أجمع الأحاديث الدالة على علامات الساعة بكامل تفاصيلها إذا وظفنا القرآن

---

(١) آل عمران: ١١٠

في توصيف جزئياته وفق منهج الاعتبار ، وسأفصل بعض الجوانب المتعلقة بهذا الحديث في مواطن أخرى من الكتاب .

المسلك الثاني : تتبع بعض الإشارات القرآنية الدالة على مستقبل الأمة .

هذا المسلك له علاقة بالمسلك الذي قبله ؛ إلا أنه أعمق بحراً وأصعب منالاً ، ويحتاج بجانب الدراية والعلم إلى نور الهداية والفهم ، و بيان عناصره في النقاط التالية :

١- تتبع الآيات الصريحة في العلامات المستقبلية :

من ذلك الآيات التي تشير إلى إفساد بني إسرائيل وعلوهم في الأرض ، و الجديد في هذا الباب هو الدراسة التأملية المبرزة لكل عناصر هذا الإفساد مع بيان الإشارات الدالة على زمن نهايته وطبيعتها .

ومن ذلك دراسة الآيات المتعلقة بيأجوج ومأجوج ، التي جاء ذكرها في القرآن ، ومحاولة توصيف هذه الظاهرة توصيفاً علمياً واضحاً بعيداً عن الخرافات والأوهام .

ومن ذلك دراسة آية الدخان كما تشير إليها الآيات ومحاولة فهم المراد منها ، وتحقيق القول في كونها وقعت أم لم تقع .

٢- تتبع الآيات الضمنية في العلامات المستقبلية .

وهذا العنصر أصعب من سابقه ، ويحتاج إلى تأمل ، وهو باب من العلم نستطيع من خلاله استنباط العلامة من القرآن من خلال دلالة الإشارة أو دلالة الاقتضاء ، أو من خلال دلالة المفهوم لا المنطوق ، أو من مجموع النظم القرآني المتكامل والمعجز في ترتيب آياته وترتيب سوره ، منه على سبيل المثال الإشارة إلى وجود عاد الأولى مما يقتضي وجود عاد أخرى تحمل مواصفات عاد الأولى ، ومنها الآية الدالة على ظهور الفساد في البر والبحر ، فالملاحظ أن هذه الآية جاءت في سورة الروم ، والروم في عصرنا هم قادة الناس في توجيه دفة الكرة الأرضية وفق شهواتهم وغيهم بما ترتب عليه بشكل واضح عموم الفساد في البر والبحر ، ولعل الآية فيها إشارة إلى اختلال موازين الحياة وقوانينها على الكرة الأرضية بسبب إفساد الناس وعلى رأسهم الروم .

ومن ذلك الآيات الدالة على سقوط كسف من السماء وكيفية نظرة الناس لهذا الكسف بحيث يظنونه سحاباً مركوماً .

ومنها الآيات المتعلقة بطُرق العذاب الإلهي وعلاقتها بالأحداث المستقبلية ، ومنها الإنذارات القرآنية على لسان النبي محمد ﷺ ، والتي لم تقع إلى يومنا هذا .

ومنها كذلك بيان نظرة أهل الباطل لأهل الحق ، وحرصهم على إخراجهم من دائرة التأثير على الناس .

وهذا الباب واسع وتخدمه آيات كثيرة ويحتاج إلى دراسة تأملية عميقة ، ويحتاج إلى وعي واحتياطات وضوابط عدة حتى لا يدخل في باب التأويل المذموم أعاذنا الله سبحانه وتعالى منه ، ومن أن نتقول في كتاب الله سبحانه وتعالى ما ليس منه وما لا تحتمله آياته ، و قد لا أستطيع الولوج في هذا الباب في دراستي هذه إلا بحدود ضيقة ، ولكن أنبه له فرب مبلغ أوعى من سامع . (❁)

المطلب الثالث : السنة

السنة هي كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وهي بنص القرآن نوع من الوحي الإلهي يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١)

والأحاديث من حيث القبول والرد تنقسم إلى قسمين ، السنة المقبولة والأحاديث المردودة ، وبيان ذلك فيما يلي :

السنة المقبولة :

يقسم العلماء السنة المقبولة إلى أربعة أقسام ، أعلاها رتبةً الحديث الصحيح لذاته، ثم يليه الصحيح لغيره ، ثم الحديث الحسن لذاته ثم الحسن لغيره ، والقسم الثاني

(❁) سيلحظ القارئ خلال الفصول القادمة بعض أشكال لتوظيف القرآن في فهم علامات الساعة من خلال دلالة الإشارة والمفهوم ، إلا أنني أقر هنا أنني لم أعط هذا الموضوع حقه .

(١) النجم:الآيات ٣- ٤

والرابع قد يكونان من حيث الإسناد من باب الضعيف إلا أن هذين القسمين قد تقويا من خلال الشواهد بحيث يشهد لذلك الإسناد حديث صحيح آخر أو حديث حسن ، أو من خلال المتابعات ؛ بحيث يُعضَّد الحديث أو ينجبر من خلال أحاديث أخرى وبأسانيد أخرى تشهد لأصله ، وترجح إمكانية وروده وترقيه من درجة الحديث الضعيف إلى الحسن لغيره .

وهذه الأقسام الأربعة تلقتها الأمة بالقبول و استدلت بها في باب الأحكام ، وغيرها من أبواب الدين كالتفسير والسيرة .

السنة المردودة :

وهي تشمل الأحاديث الضعيفة بجميع أنواعها ، وكذا الأحاديث الموضوعة ، أما بخصوص الأحاديث الموضوعة ، فهذا القسم لا يحل روايته بأي حال إلا للتعريف بأنه كذب على رسول الله ﷺ ، وإنما ندخلها هنا في السنة المردودة تجوزاً لأنه يزعم بعض الكذابين بأنها تنسب لرسول الله ﷺ .

أما الأحاديث الضعيفة فاحتمالية صدورها عن رسول الله واردة إلا أن التشكك في سندها ومتنها جعل العلماء يعتبرونها من باب المردود ، وما استوى وروده عن رسول الله ﷺ أو اختلاقه ونسبه إليه فالأولى طرحه صيانة للدين من التزيد عليه ، ويرى العلماء أنه لا تجوز روايته إلا في الفضائل استئناساً خاصة إذا شهد للموضوع الذي يتم الاستشهاد به أصل عام أمكن إدراج هذا الحديث الضعف تحته .

هذا هو التقسيم العام للسنة بشقيها ، وما اعتمده في منهجي هنا هو جانب السنة المقبولة ، ولا أعمد للأحاديث الضعيفة إلا في حالات ضيقة جداً **استشهد بمثلها سلفنا الصالح من العلماء في هذا الباب** ، وفي حالة واحدة وهي أن يشهد للحديث الضعيف أصل عام،ويكون ذكر الحديث الضعيف من باب الاستئناس مع توضيح درجته .

المصدر الرابع : الآثار

يراد بها ما ورد عن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين من أقوال ، وهي كثيرة في بابنا هذا إلا أنه لا يحتاط بها كما يحتاط للأحاديث المرفوعة للنبي ﷺ ؛ حيث أن قول النبي ﷺ تشريع ، والكذب عليه موجب للنار ، وهذا الأمر له خصوصيته في أحاديث النبي ﷺ دون ما يروى عن غيره ؛ لذا يستأنس بالآثار ؛ حيث إن غاية ما فيها أنها إما اجتهاد عن صحابي أو تابعي أو فهم تحصل له من سياق بعض النصوص عن رسول الله ﷺ ، وفي الغالب أنها تأخذ حكم المرفوع لأنه لا يتصور من صحابي أو تابعي أن يتقول في أمور المستقبل والغيبيات دون آثارة من علم عن رسول الله تحصلت لديه .

و طبعاً الكذب على الصحابي أو التابعي قد يكون في بعض الأحيان أكثر منه على رسول الله ﷺ كما كان من كذب الروافض على الإمام علي .

لذا سأحاول في كتابي هذا الزهد في كثير من الآثار ، وأذكر إما ما ثبت قبوله من حيث السند ، أو ما يشهد له أصل صحيح مع بيان درجته ، وفي حدود ضيقة اقتضاها البحث لبيان مسألة ، أو تفسير المراد بها ، وهذا المنهج معلوم في كتب التفسير وغيرها .

المبحث الثالث
خصوصية أم تخصصية

فكرة الخصوصية فكرة قديمة حديثة ، ويراد بها أن هناك أفراداً معينين من صحابة أو من غيرهم قد خصوا من النبي ﷺ بعلم غير الذي يعلمه جمهور الأمة ، وهذا العلم المخصوص يتناقله أهله بينهم ، والمراد بأهله هنا الخواص من أهل الحقيقة ، أما باقي الأمة ، فلا علم لها بهذا العلم ، ولا يصل إليها منه إلا الإشارات ؛ لأنهم ليسوا أهلاً لتحمل تبعاته .

وقد نالت علامات الساعة والغيبيات المستقبلية الحظ الأوفر من فكرة الخصوصية التي زعمها البعض .

ولعل فكرة الخصوصية لا تعنينا كثيراً - نحن أهل السنة - لأنه لم يرد بيننا من استغل هذه الفكرة أو طرحها ممن يعتد به من علمائنا ، و انحصرت هذه الفكرة عند الشيعة والفرق الباطنية ، وغلاة الصوفية ممن ظهر بطلان مذهبهم .

فهذا الوضع الطبيعي لفكرة الخصوصية ، والفئات التي استغلته ؛ إلا أنه في عصرنا ، وفي ظل جهل الكثيرين بمعالم رسالة الإسلام ، والظرف الانهزامي الذي تعيشه الأمة بدأت تستغل هذه الفكرة مرة ثانية بين أوساط السنة ، وفي كتب ينتسب مؤلفوها لجمهور السنة ، وكذلك بدأت تتناقل هذه الأفكار من كتاب إلى غيره دون تمحيص ، وهذا يجعلنا نأخذ هذه الفكرة بعين الجدية لبيان حقيقتها ، و شبهات الأدلة التي استند إليها البعض لإثباتها ، ثم بيان الدوافع الخفية في اعتبار هذه الفكرة ونتائجها الخطيرة .

واهتمامي بفكرة الخصوصية هنا مرجعه أن استغلالها الأوسع كان في باب الفتن والملاحم وعلامات الساعة ، أي هي تخص موضوع البحث بشكل أصيل ، ويترتب على اعتبار هذه الفكرة نتائج وخيمة أهمها تشويه معالم الهدي النبوي الخاص بعلامات الساعة ، و ترويج مكذوبات كثيرة تفضي إلى نفرة الناس من هذا العلم الجليل ، أو الشك في مصداقية ما ثبت منه .

ولكي لا نطيل أقول : أهم الأشخاص الذين نسبت لهم هذه الخصوصية ثلاثة من الصحابة ، وهم الإمام علي ﷺ ، و أبو هريرة ، و حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما .

أما من غير الصحابة ، فقد استغلت فكرة الخصوصية في حق آل البيت على مدى العصور .

وكما ذكرت أن فكرة الخصوصية كان مدخلاً خبيثاً لتشويه معالم الدين ، و إدخال ما ليس منه فيه ، وقد استندت لشبهات ولفهم مغلوط لبعض الأدلة الواردة من جهة ، ولبعض المكذوبات من جهة أخرى ، ولتفنيد القول في المسألة أرى أن أخص كل واحد ممن ذكرت بكل ما أثير حول خصوصيته ، وذلك على النحو التالي :

أولاً : الإمام علي بن أبي طالب :

يعتبر الإمام علي ﷺ أكثر صحابي أثيرت الشبهات حول خصوصيته ، وأكثر صحابي كُذب عليه من بعض المنتسبين لهذا الدين ظاهراً ، والهادمين لأصوله باطناً كما تشير دلائل حالهم .

وأكثر المثيرين لهذه الشبهة هم الشيعة ، ولا يعنينا الإفاضة في هذا الموضوع والإسهاب فيه ، وإنما يعنينا هنا نفي فكرة الخصوصية عن الإمام علي ﷺ ، وإقفال هذا الباب على مستغليه .

١- فكرة خصوصية الإمام علي فكرة سبئية :

عبد الله السبئي المشهور بابن السوداء يهودي أظهر الإسلام وقاد الفتنة الكبرى ضد عثمان ، ثم افتعل ظاهرة الغلو تحت شعار محبة علي ﷺ ، ويعتبر هذا اليهودي أخطر من خطط ودعا وروج للأفكار الملحدة في العصور الأولى بحجة الانتصار لآل البيت ، وكل أفكار غلاة الشيعة والباطنية تعتبر امتداداً لفكره الخبيث ، وقد انتبه الإمام علي ﷺ لخبث الرجل ونواياه الخبيثة ، فقد جاء له عبد الله السبئي يسأله إذا كان رسول الله ﷺ قد

خصه بشيء من العلم بشأن الخلافة والإمامة بعده ، ففطن له الإمام علي ﷺ ، فقال له : « ويلك ! ما أفضى إلي بشيء كتمه أحداً من الناس ، ولكن سمعته يقول – يقصد رسول الله – : ﴿ إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً ﴾ . وإنك لأحدهم .» (١)

فالإمام علي ﷺ يعلم من دلالة حال عبدالله بن سبأ أنه يريد مدخلاً للكيد للإسلام وتشويه دينهم مستغلاً شعار حب أهل البيت ، فأقفل عليه هذا الباب ، وأنكر هذه الخصوصية التي ادعاها عبد الله بن سبأ ، ثم ذكر حديثاً للنبي عن خروج ثلاثين دجالاً واعتبر علي ﷺ عبد الله بن سبأ أحد هؤلاء الدجالين .

٢- الإمام علي ﷺ ينفي فكرة الخصوصية عن نفسه :

ثبت عندنا في الآثار الصحيحة نفي علي ﷺ عن نفسه تلك الخصوصية ، واقتصر على ما ذكره الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما وكفى بهما شاهداً على بطلان ما يزعمه المؤلف :

- عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ : قُلْتُ لِعَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِب : « هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ ، قَالَ : لَا إِلَّا كِتَابُ اللَّه أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ:قُلْتُ : فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ : الْعَقْلُ،وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.» (٢)

- عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ : « قُلْتُ لِعَلِيٍّ ﷺ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّه قَالَ : لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيه اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآن ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قُلْتُ وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ ، قَالَ الْعَقْلُ ، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ .» (٣)

---

(١) الهيثمي : ، وقال أخرجه أبو يعلى ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٣٣٣/٧)]

(٢) أخرجه البخاري في العلم ، حديث رقم ١١١ [البخاري مع الفتح (٢٤٦/١)]

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ، حديث رقم ٣٠٤٧ [البخاري مع الفتح (١٩٣/٦)]

- عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ :قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب ﷺ : « أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ ،وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا.. » (١)

وفي رواية « مَا خَصَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَعُمَّ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً » (٢)

أقول :

أ - هذه نصوص صريحة ، وهي في أعلى درجات الصحة ؛ حيث رواها البخاري ومسلم ، وفي الحديث الأول و الثالث ينفي الإمام علي ﷺ أي علم خُص به ، أما في الثاني فيقسم بالله على نفيه هذه الخصوصية .

ب- في الأحاديث إشارة إلى أن فكرة خصوصية علي ﷺ قد عايشها الإمام نفسه ، فسارع إلى إنكارها لئلا تستغل ؛ لذا من يدعي خصوصية الإمام علي إنما هو متقول ما ليس به علم ، أو مغرض أو جاهل .

ثانياً : الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان .

يعتبر حذيفة بن اليمان من أكثر الصحابة اهتماماً بعلامات الساعة والفتن ، بحيث يمكن القول أنه ممن تخصص بهذا العلم في الرعيل الأول .وهذه التخصصية أوهمت البعض بخصوصيته ، أي أن النبي ﷺ قد خصه بشيء من هذه العلامات دون غيره من الصحابة ؛ لذا أرى أن أطرح بعض شبهات معززة يمكن أن تفهم من بعض الآثار أنها دالة على خصوصيته ، ومناقشة هذه الشبهات ومدى دلالاتها على هذا الزعم .

أولاً : شبهات وأدلة يمكن أن يفهم منها خصوصية حذيفة في باب علامات الساعة .

١- حذيفة بن اليمان ﷺ كاتم سر الرسول ﷺ ، وقد أسر له النبي ﷺ دون غيره من الصحابة بأسماء المنافقين ، وكان أقرب الصحابة من رسول الله ﷺ لا يعلمها لدرجة أن عمر ﷺ كان يستفسر عن نفسه هل هو من تلك الأسماء أم لا .

---

(١)أخرجه مسلم في الأضاحي برقم ١٩٧٨ [انظر مسلم بشرح النووي (١٣٨/٧)]

(٢)أخرجه مسلم في الأضاحي برقم ١٩٧٨ [انظر مسلم بشرح النووي (١٣٨/٧)]

وهذه الخصوصية في معرفة أسماء المنافقين ، والتي كانت لحذيفة دون غيره تشعر بمزية لهذا الرجل بخصوصه ، وما دام قد تميز عن غيره من الصحابة بمعرفة متفوقة في الفتن والملاحم ، فلم يمتنع أن يخصه النبي ﷺ في هذا الباب دون غيره .

٢- يتضح من بعض الآثار أنها تتضمن بعض الإشارات الدالة على خصوصية حذيفة دون غيره من الصحابة في باب الملاحم والفتن منها :

- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ . ﴾ (١)

فالحديث فيه إشارة إلى أنه قد خُص بكثير من علم علامات الساعة ، فقوله « أخبرني رسول الله ﷺ » فيها إشارة إلى خصوصيته بشيء من هذا العلم ، ولو كان معه أحد عند إخبار الرسول ﷺ لبين ذلك ، أو لقال أخبرنا ، ولئن وردت أحاديث تدل على مشاركة الصحابة له في كثير من هذا العلم ؛ إلا أنه لا يمنع المقام أن يكون قد خص ببعضها ، أو ببعض تفاصيلها .

- عن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷺ قال « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي .﴾ (٢)

هذا الحديث يشير إلى سبب من الأسباب التي تعزز فكرة خصوصية حذيفة ﷺ ، وهي طبيعة أسئلته ، وقوة اهتمامه بهذا العلم على وجه الخصوص ، والحديث صريح بأن أسئلة حذيفة غير أسئلة غيره ، واختلاف أسئلته يترتب عليه اختلاف الأجوبة ، وهذه الأسئلة قد تكون حصلت من حذيفة بمحضر من الصحابة ، وقد تكون وقعت منه بشكل انفرادي مع رسول الله ، وهذا أرجح ، ويعزز ذلك الأثر السابق الذي أشار فيه إلى إخبار النبي ﷺ بصيغة المفرد الدالة على تفرده بسماع الخبر .

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي (٢١٤/٩)]

(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٠٦ [البخاري مع الفتح (٧١٢/٦)]

فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة هدي النبي ﷺ في اكتشاف قدرات الصحابة والاهتمام بإمكاناهم وطاقاهم وتنمية ميولهم ومواهبهم الخاصة تعزز عندنا القول بخصوصية حذيفة رضي الله عنه ببعض جوانب هذا العلم رعاية لميولهم ، وذلك لعلمه أن هذا العلم قد وقع في يد حريص عليه وعلى تبليغه في المقام المناسب الذي لا يترتب عليه الفتن ، وما دام عند حذيفة تشوق لمعرفة كل شيء عن هذا العلم ، فلم لا يوليه النبي ﷺ بشيء من الخصوصية في هذا الجانب ، ويكون اهتمام الرسول بتعليم حذيفة هذا العلم الذي نبغ فيه وحرص عليه من باب اهتمامه بتنمية مواهب خالد بن الوليد القتالية و وتشريفه بوسام سيف الله المسلول في بداية معاركه في عهد الإسلام ، ومن باب تنمية مواهب ابن عباس رضي الله عنه التي خص بها من عميق الفهم وحدة الذكاء ودقة الفقه ، فخصه بدعاء خاص يتناسب وقدراته « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

ثانياً : هل علم حذيفة رضي الله عنه بعلامات الساعة يعتبر من باب الخصوصية أم التخصصية .

قد توهم الأدلة السابقة ، وما ساندها من تصورات أن حذيفة رضي الله عنه قد خص بشيء من علامات الساعة ، فهو كاتم سر الرسول ﷺ ، وله سابقة في الخصوصية بمعرفة أسماء الصحابة ، وله اهتمامات خاصة بهذا العلم على وجه الخصوص ، وهناك إشارات تعزز كونه قد استمع إلى ما لم يسمعه غيره .

فهذه مجمل الأفكار المعززة لخصوصية حذيفة ، إلا أن المتأمل فيها يجد أن دلالتها على التخصصية أكثر من دلالتها على الخصوصية ، ولكي يتضح لنا الأمر من جميع جوانبه أذكر الأدلة المبطلة لفكرة خصوصية حذيفة ثم أناقش مدى دلالة الأفكار السابقة عليها ، وذلك على النحو التالي :

أولاً : حذيفة رضي الله عنه ينفي عن نفسه الخصوصية ليقطع توهم البعض بها .

📖 – عن حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه إنه قال : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْـنَ السَّاعَةِ ، <u>وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي</u>

ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي » (١)

هذا الأثر يتضمن أمرين :

الأمر الأول :

فيه تصريح من حذيفة بأنه أعلم الناس بالفتن ، وكونه أعلم الناس بشيء ما ، يدل على تخصصه به ، وهذا التخصص دل عليه بعض الأحاديث السابقة التي تشير إلى طبيعة أسئلة حذيفة المخالفة لأسئلة الصحابة ، وهي أسئلته عن الشر الذي ستقع فيه الأمة حتى لا يقع فيه .

وما دام أكثر أسئلة حذيفة كانت عن الشر المستقبلي الذي ستقع به الأمة ، إذا لا بد أن تكون الإجابة من رسول الله ﷺ متضمنة الحديث عن الفتن المستقبلية ، وإذا وافقت هذه الإجابات عقلية متفتحة لها اهتمامات خاصة وميول نحو معرفة هذا العلم ، فلا بد أن تقع هذه الأجوبة موقعها من حيث الفهم والحفظ والاهتمام ، وملاحقة التفاصيل الموضحة ، ومن هذا الوجه كان حذيفة أعلم الناس بهذا العلم .

وبهذا تكون دلالة الحديث الذي سبق ذكره عن طبيعة أسئلة حذيفة تعزز فكرة تخصص حذيفة بعلم الفتن أكثر من دلالته على خصوصيته .

الأمر الثاني :

الحديث صريح الدلالة في نفي حذيفة لأي شكل من أشكال خصوصيته من قبل رسول الله ﷺ بشيء من علم الفتن ، وجاء بصيغة نفي أي سرية أو إسرار في هذا الجانب من قبل رسول الله ﷺ ، وإذا كان أعلم الناس بالفتن ينفي كون هذا العلم حاصل له من النبي ﷺ بطريقة سرية ، فمن باب أولى نفي السرية عن غيره من الصحابة .

والحديث حجة قاطعة في نفي الخصوصية والسرية في تبليغ النبي ﷺ لشيء من

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي (٩/٢١٤)]

علامات الساعة ، و تميز صحابي عن غيره في هذا الباب راجع إلى طبيعة هذا الصحابيَ وميوله واهتماماته ، وكما قيض الله سبحانه وتعالى للتفسير ابن عباس رضي الله عنهما ، وللحديث أبي هريرة ، فكذلك قيض الله سبحانه وتعالى لعلامات الساعة والفتن حذيفة بن اليمان .

وتخصص حذيفة ببعض تفاصيل علامات الساعة ، وتعزيز النبي ﷺ لهذه الميول عنده فيه إشارة مهمة وهي ضرورة تصدي بعض من وجد عندهم الكفاءة للتخصص في هذا العلم الهام جداً ، والذي يتعلق بركن هام من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر ، ولعل من نافلة الحديث القول بأن هذا العلم يحتاج إلى كفاءات عالية جداً للتصدي له ، وذلك لصعوبة مدخله ، ولعمومية أحداثه بما يتطلب دقة متناهية جداً في إسقاط مفرداته على الأحداث الواقعة على الأمة الإسلامية .

- عن حُذَيْفَةَ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ قال : « وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْا وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَ مِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَاسْمِ قَبِيلَتِهِ . » (١)

هذا الأثر يشير صراحة إلى أن حذيفة يعزو ذكره لبعض الفتن دون غيره من الصحابة إلى أمرين في ظنه : إما أن من شاركه فيما سمع قد نسي ، أو أنه يعرض عن ذكر ما سمعه من باب التناسي .

وهذا أمر طبيعي متصور في كل مجلس علم ، فحذيفة كان يختلف عن غيره من الصحابة باهتمامه الشديد في علم الفتن على وجه الخصوص ؛ لذا الدوافع عنده قوية للاستماع والحفظ والفهم ، فكان ما حفظه في هذا العلم أكثر مما حفظه من شاركه في سماعه .

والحديث فيه إشارة قوية إلى تخصصية حذيفة ، ويتضمن قرينة مانعة من خصوصيته .

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم برقم ٤٢٢٢ [عون المعبود (٣٠٥/١١)]

مناقشة بعض الشبهات الموهمة لخصوصية حذيفة :

كون حذيفة كاتم سر الرسول حيث خصه بمعرفة بعض أسماء المنافقين ليس فيه دلالة على خصوصيته في علم الفتن بمعنى أن الرسول ﷺ قد أسر له شيئاً منها دون غيره ، وعدم الدلالة لعدة أسباب :

السبب الأول :

هناك فارق بين الأمرين ، فمعرفة حذيفة بأسماء المنافقين له حكمته بما يمنع وقوع الفتنة من خلال إشهار أسمائهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون أحد الصحابة على اطلاع على أسمائهم بعهد وفاة الرسول ﷺ حتى يكون من بعده من الخلفاء على بينة من أمرهم إذا وقع شيء من الفتن على يد أحدهم ، فيطلعه حذيفة عند الضرورة .

أما بخصوص علامات الساعة فالحكمة إشاعة العلم بها لأكبر عدد لتكون الأمة على بينة من أمرها في مستقبلها .

السبب الثاني :

علامات الساعة جزء أصيل من الرسالة ، ومقتضيات التبليغ تتطلب أن يكون هناك جمع من الصحابة قد علموا بها ليكونوا على بينة من أمرهم ، وخطورة هذا الجزء الأصيل من الرسالة يقتضي إفشائه ، وليس الإسرار به لأحد الصحابة ، وهذا يتنافى مع أمانة التبليغ المنوطة بالنبي ﷺ .

أما القول بأن الإسرار للبعض يحسم الفتنة في الملاحم القريبة العهد بالصحابة ؛ إذ التصريح بأفرادها يعزز منها في المجتمع ، فهذا قد اعتاض عنه النبي ﷺ ببعض الرمزية في بعض العلامات حتى لا يفهمها إلا أولوا العلم في وقتها .

السبب الثالث :

القول بالخصوصية في علامات الساعة مخالف لمنهج النبي ﷺ وهديه بخصوص هذا العلم ، والمتتبع لمنهج النبي ﷺ بخصوص الفتن وعلامات الساعة يجد أن من هديه اختيار الأوقات التي يجتمع فيها أكثر الصحابة ، كخطبة الوداع التي أطنب النبي ﷺ فيها عن الفتن وفتنة الدجال على وجه الخصوص ، أو كالنداء للصلاة جامعة لكي يذكر للناس ما حصل مع تميم والدجال .

٢- قول حذيفة عن إخبار النبي ﷺ بصيغة المفرد « أخبرني » يحتمل أنه كان رداً و إجابة من رسول الله لبعض أسئلة حذيفة عن الشر المستقبلي الذي كان يستفهم عنه ، ويحتمل الأمر أن يكون لوحده مع رسول الله ﷺ حين السؤال .

ولكن على كلا الاحتمالين لا يمكن حمل قوله على أن النبي ﷺ قد أسر إليه بشيء دون الصحابة ، ويحتمل الأمر أن ما سمعه حذيفة كرد على سؤال في بعض المواقف قد سمعه غيره من الصحابة في مناسبات أخرى ، ومن تتبع الهدي النبوي يجد من هذه الشاكلة الكثير ؛ حيث تتعدد المناسبات والمواقف والرواة في المتن الواحد ، أو الفكرة الواحدة .

لذا ليس في صيغة المفرد التي عبر بها حذيفة أي دليل على الخصوصية ، ويحتمل الأمر أيضاً أن سياق ذكره للحديث الذي ذكره عن النبي ﷺ وملابسات ذلك هي التي أسعفته باستخدام لفظة أخبرني ، خاصة أنه استخدم صيغة الجمع في حديث آخر يحمل نفس دلالة الحديث مما يشير إلى أن استخدامه لصيغة المفرد كان يقتضيه سياق طرحه للحديث حسب السامع دون أن تكون لها دلالة معينة .

ثالثاً : الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ .

يعتبر الصحابي عبد الرحمن بن صخر الدوسي المشهور بأبي هريرة أكثر راوي لأحاديث النبي ﷺ ؛ حيث تفوق مروياته الخمسة آلاف حديث ، وهو رقم لم يدانيه فيه

أحد من الصحابة في الرواية ، فالمكثر الثاني من الصحابة بعده لم تبلغ مروياته الثلاثة آلف حديث .

ولعل فكرة خصوصية أبي هريرة نشأت نتيجة فهم خاطئ لأثر ورد عنه : « حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ . » (١)

ومعنى الأثر السابق أن أبا هريرة قد حفظ نوعين من العلم ، أحدهما بلغه للناس ، والآخر استأثر به مبيناً أنه لو أخبر به لقطعت رأسه .

ويلحظ أن لفظ الأثر واضح في أن معنى وعاءين من باب المجاز ؛ لأن الحفظ يكون في الصدور ، و أراد بالوعاءين هنا نوعين من المحفوظات التي حفظها وقد ثبت عن أبي هريرة أنه قال عن نفسه أنه لا يكتب ، ويحتمل الأثر احتمالاً ضعيفاً أن يكون الوعاءان على حقيقتهما ؛ والمقصود أن أبا هريرة قد أملى على من يثق به ما يحفظ فكتبه ، ثم وضعه عنده في وعاءين .

والأثر السابق يثير إشكالية وهي ما هي طبيعة العلم الذي أخفاه أبو هريرة على الناس ، وهل ناله بطريق الخصوصية .

والصحيح في هذه المسألة كما يرى كثير من المحققين أن ما أخفاه أبو هريرة يقتصر على ما ورد في علامات الساعة من أحاديث فيها تبيين لأسماء أمراء السوء وأحوالهم في زمانه فقط ، وليس الأمر على إطلاقه كما يفهم البعض ، حيث إن أبا هريرة ربط بين قطع الحلقوم والإخبار بما لديه ، وهذا لا يتأتى إلى إذا كان المقصود به أمراء السوء في زمانه ، أما غير ذلك فلا يمنع أبا هريرة من البوح به .

ويعزز هذا الفهم أن أبا هريرة قد استخدم صيغة الكناية في بيان ما يكتمه من علم كتعوذه بالله من رأس الستين ، أو من إمارة الصبيان يشير بذلك إلى إمارة يزيد بن

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب حفظ العلم برقم ١٢٠ [البخاري مع الفتح (١/ ٢٦٠)]

معاوية التي كانت سنة ستين ، والتي وقع فيها من العظائم ما وقع .

ويحتمل الأثر السابق أيضاً احتمالاً ضعيفاً أن مما كتمه أبو هريرة ﷺ هو مما علمه من أحاديث عن أمور عظام لو ذكرها لمن حوله أنكرها من لم يألفها أو من يستعظمها فيترتب على ذلك اتهام أبي هريرة والتحرش به وقتله من الجهلة ، وهذا العلم يجدر كتمانه وعدم نشره عند من لا يفهمه أو يسيء فهمه (١)

إذا هذا الأثر الذي أثار شبهة الخصوصية ، وقد استغلته بعض الفرق الباطنية لتدعم حجتها المختلقة بأن للدين ظاهراً وباطناً ، والباطن عندهم هو التحلل من الدين نفسه ، وهو دين الخواص بزعمهم .

وحاول بعض المعاصرين استغلال هذا الأثر مشيراً إلى أن ما كتمه أبو هريرة في بادئ الأمر بلغ به في آخر حياته تأثماً ، وتم تناقل البعض علمه بطريقة سرية ، وهو موجود في بعض المخطوطات التي اطلع عليها هذا المعاصر ، وبدأ ينسج بعض المختلقات المعاصرة وينسبها إلى أبي هريرة ، وأبو هريرة براء مما ينسب إليه براءة الذئب من دم يوسف ؛ إلا أن أهل الزيغ يستغلون كل واردة وشاردة ليتخذوها ذريعة لباطلهم .

كذلك كلمة حفظت ليس فيها أي إشارة إلى خصوصية أبي هريرة في أي علم ، و الوعاء الذي بلغه أبو هريرة قد شاركه غيره في تبليغه ممن حفظه من الصحابة ، و الوعاء الذي امتنع عن بثه بين الناس لظرف خاص به قد بثه غيره ممن شارك أبا هريرة في السماع والحفظ عن رسول الله ﷺ.

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (١/ ٢٦١) ؛ د . الخطيب : السنة قبل التدوين (٤٥٣)

الباب الأول:العلامات الصغرى والفتن

ويتضمن الفصول الستة التالية :

الفصل الأول : العلامات الصغرى والملاحم والفتن التي وقعت

الفصل الثاني : العلامات الصغرى الصريحة .

الفصل الثالث : العلامات الصغرى غير الصريحة .

الفصل الرابع : العلامات الصغرى التي لم تقع .

الفصل الخامس : الفتن

الفصل السادس : المبشرات

الفصل الأول: العلامات الصغرى والملاحم والفتن التي وقعت وانتهت

ويتضمن المباحث الستة التالية:

المبحث الأول :العلامات الواقعة في عهد النبوة .

المبحث الثاني : العلامات الواقعة في عهد الخليفتين الراشدين.

المبحث الثالث : استشهاد عثمان والفتنة العظمى .

المبحث الرابع : الاقتتال الداخلي بين الصحابة بعد مقتل عثمان.

المبحث الخامس: الإشارات النبوية إلى قتال الخوارج .

المبحث السادس: الإشارات النبوية حول أحداث المرحلتين الأموية والعباسية

تقديم :

هذا الفصل يتضمن العلامات والفتن والملاحم الواقعة من عهد رسول الله ﷺ إلى زماننا ، ويختص بالعلامات التي وقعت وانتهت دون العلامات التي وقعت وما زالت تقع إلى زماننا ، وقد يتساءل البعض عن ضرورة هذا الفصل وأهميته ، أو ما يجنيه المسلم في عصرنا من دراسته ؟

طبعاً هذا التساؤل يتبادر عند البعض للوهلة الأولى ، لكن إذا علم بأن العلامات والفتن متصلة في بعضها البعض بحيث تفضي الواحدة إلى الأخرى لعلم مدى أهمية هذا الفصل ، ولكي تتضح للقارئ مدى ضرورة هذا الفصل أوضح ذلك في النقاط التالية :

١- في هذا الفصل تتضح لنا مدى أهمية علامات الساعة وحضورها عند الصحابة ، وكيفية استثمارها في وقائعها التي تنتمي إليها .

٢- تبرز لنا عظمة علامات الساعة في هذا الفصل بشكل أوضح من غيره ، وذلك لما تتضمن من دلائل وإشارات نبوية وقعت ، وثبت وقوعها على الشكل الذي أخبر به النبي ﷺ بالرغم من أن بعض العلامات كان لا يتصور وقوعها ؛ وأوضح مثال على ذلك الحديث الذي أخبر به النبي ﷺ عدي بن حاتم رضي الله عنه عن حصول الرخاء والأمن في جزيرة العرب والعراق ؛ حيث ازداد عدي بن حاتم ثقة بدين الله وبما أخبر به النبي ﷺ بعدما عاين مصداقية كل كلمة قالها النبي ﷺ ، ونحن الآن عندما نعاين في هذا الفصل تلك الدلائل نزداد ثقة بدين الله ، وبموعوده على لسان نبيه ، فالعلامات في هذا الفصل يمكن تصنيفها في باب دلائل النبوة التي تعزز ثقتنا بدين الله وبوعده للأمة بالتمكين في آخر الزمان .

٣- المعلوم أن تاريخ أمة من الأمم هو جزء منها ، ووفقه يمكن استرشاد مستقبلها ؛ حيث تستبين من خلاله مواطن الزلل ؛ لذا بدأ هذا الدين من خلال كتاب الله ببيان تاريخ الحق والباطل من لدن آدم إلى عهد رسول الله ﷺ ، ونحن لا يمكن لنا أن نستبين رشدنا فيما وقعنا به إلا إذا عرفنا مواطن الخلل التي وقع فيها أسلافنا ،

وهذا يوضح لنا أهمية الخوض في مباحث هذا الفصل ؛ حيث نستبين من خلاله أسباب انزلاق الخوارج وغيرهم ، ومواطن هذا الانزلاق ، وكيفية التعامل معه إذا وقعنا في ما يشابهه .. إلخ

٤- علامات الساعة سلسلة متصلة ، وهذا واضح جلي ؛ لذا لا بد من بيان أول حلقاتها ، ولكي يتضح لنا الأمر أقول : إن أول فتنة عصفت بالأمة هي فتنة قتل الإمام عثمان ﷺ ، والتي وصفها النبي ﷺ بأنها الفتنة التي تموج موج البحر ، وموج البحر في الحديث كناية عن الاستمرارية والتتابع ، والمتتبع لهذه الفتنة على وجه الخصوص يجد أن أكثر ويلات الأمة وتفرقها من خوارج وشيعة وغير ذلك إنما هي من موجات هذه الفتنة ، فقد ترتب على مقتل عثمان ﷺ وقعة الجمل وصفين ، وبعد صفين كان الخوارج ، وفي آخر عهد علي ﷺ كان الشيعة الذين تعزز وضعهم بعد مقتل الحسين ﷺ ، والمعلوم أن ما بعد صفين تحولت الأمة من الخلافة الراشدة إلى الملك العضود الذي أسلمنا بدوره إلى الحكومة الجبرية التي نعايشها في زماننا ، وعليه يمكن القول أنه لا يمكن فهم ما نحن فيه إلا إذا فهمنا ما وقع فيه من قبلنا .

٥- أساء الكثيرون فهم ملابسات الاقتتال الداخلي الذي وقع فيه الصحابة رضي الله عنهم ؛ لذا رأيت أن أوضح معالم تلك المرحلة وملابساتها ؛ لأنها تتعلق بخير البشر بعد الأنبياء .

٦- هذا الفصل يعطينا تصوراً عجيباً عن بعض العلامات حيث سنلحظ أن البعض كان يستبعد وقوع بعض العلامات وهي قريبة جداً منهم كما سيتضح

تنبيه :

هذا الفصل لم يشمل علامات الساعة فقط ، بل فيه بيان للملاحم والفتن أيضاً ؛ لذا أصدر حديثي عن علامات الساعة باستخدام كلمة **علامة** ، أما في الملاحم والفتن ،فأستخدم عبارة **الإشارة النبوية** .

المبحث الأول
العلامات الواقعة في عهد النبي ﷺ

العلامة الأولى : بعثة النبي ﷺ أول علامات الساعة :

📖 - عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ قَالَ وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى ﴾ (١)

وفي رواية : ﴿ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَـذِهِ مِنْ هَذِهِ وَإِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي. ﴾ (٢)

شرح :

الحديث عن أنس ﷺ واضح الدلالة في كون بعثة النبي ﷺ أول أشراط الساعة ، فرسالته آخر الرسالات ، وأمته خاتمة الأمم ، وبعثة النبي ﷺ إيذان بقرب الساعة ؛ لذا قرن النبي ﷺ بين بعثته وبين قيام الساعة كما يقرن بين السبابة والتي تليها ، وقوله وإن كادت لتسبقني إشارة إلى قربها الشديد .

وقد ذكر العلماء قولين في المراد بقرن السبابة والوسطى : الأول للمجاورة ؛ أي ليس بين النبي ﷺ وبين الساعة نبي فبعثته بين يديها ، والثاني : أن بين الساعة وبين بعثة النبي ﷺ كما بين السبابة في قدر الطول ، أي أن تاريخ الأمم على مر العصور هو مقدار طول الإصبعين ، والزائد في الإصبع الوسطى يمثل المدة الباقية من الدنيا منذ بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة . (٣)

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦٥٠٤ [البخاري مع الفتح (٣٥٥/١١)] ؛ ومسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٥١ [مسلم بشرح النووي (٢٧٩/٩)]

(٢) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٧٩٧ [المسند (٣٨٠/٤)] ، والحديث له شواهد في الصحيح

(٣) النووي : شرح مسلم (٢٨١/٩)

وفي ظني أنه إشارة لقرب وقوعها ؛ لذا عبر النبي ﷺ بأن الساعة كادت تسبقه ، وفي رواية قال ﷺ : « بُعِثْتُ فِي نَفَسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هَذِهِ هَذِهِ لِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى » (١) ؛ أي بعثت عند تنفسها .

وقد نقل ابن حجر عن القرطبي قوله : « حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها » ثم عقب عليه بقوله : « سياقه يفيد قربها وأن أشراطها متتابعة كما قال تعالى { فقد جاء أشراطها } قال الضحاك : أول أشراطها بعثة محمد ﷺ ، والحكمة في تقدم الأشراط إيقاظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد ، وقيل معنى الحديث أنه ليس بيني وبين القيامة شيء ، هي التي تليني كما تلي السبابة الوسطى .» (٢)

العلامة الثانية : انشقاق القمر :

📖 - قال الله ﷻ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (٣)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : ﴿ انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ : اشْهَدُوا . ﴾ (٤)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : ﴿بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِنًى إِذَا انْفَلَقَ الْقَمَرُ فِلْقَتَيْنِ : فَكَانَتْ فِلْقَةٌ وَرَاءَ الْجَبَلِ ، وَفِلْقَةٌ دُونَهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اشْهَدُوا . ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣١٠ ، وقال عنه : حديث غريب [تحفة الأحوذي (٤٥٩/٦)]

(٢) ابن حجر : فتح الباري (٣٥٧/١١)

(٣) القمر: الآية ١

(٤)أخرجه البخاري في تفسير القرآن برقم ٤٨٦٥ [البخاري مع الفتح (٤٨٣/٨)] ومسلم في صفة القيامة برقم ٢٨٠٠[مسلم بشرح النووي (٩/ ١٣٩)]

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن برقم ٤٨٦٤[البخاري مع الفتح (٤٨٣/٨)] ؛ ومسلم في صفة القيامة برقم ٢٨٠٠ ، واللفظ له [مسلم بشرح النووي (٩/ ١٣٩)]

📖 - عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ . ﴾ (١)

شرح :

في الآية والأحاديث إشارة إلى اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، وأن انشقاق القمر من علامات ذلك .

أورد ابن كثير عن حذيفة ﷺ أنه خطب الناس فقال : « ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد أذنت بفراق ، ألا وإن اليوم مضمار وغداً السباق . »

وثبت عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر . » (٢)

نقل النووي عن القاضي قوله : « انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا محمد ﷺ ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها . » ونقل عن الزجاج قوله : « وقد أنكرها بعض المبتدعة المخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ؛ لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره . » (٣)

وهذا كلام جميل من الزجاج أضيف إليه بأنه كما أنه لا إنكار للعقل فيه ، فكذلك لا إنكار للعلم أيضاً فيه ؛ بل دلائل العلم المعاصر تشير إلى مصداقية هذا الحدث ، بل الصور الجيولوجية للقمر تؤكد وقوعه .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن برقم ٤٨٦٧ [البخاري مع الفتح (٤٨٤/٨)] ؛ و مسلم في صفة القيامة برقم ٢٨٠٢ ، واللفظ له [مسلم بشرح النووي (٩/ ١٣٩)]

(٢) انظر الأثرين عند ابن كثير في تفسيره (٢٦٢/٤)

(٣) النووي : شرح مسلم (١٤٠/٩)

العلامة الثالثة : خروج الدجالين وأدعياء النبوة .

📖 – عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي . ﴾ (١)

📖 – عن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ أَنَّهُ وُضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَفُظِعْتُهُمَا وَكَرِهْتُهُمَا فَأُذِنَ لِي فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ . ﴾ فَقَالَ عُبَيْدُاللَّهِ : أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ الَّذِي قَتَلَهُ فَيْرُوزٌ بِالْيَمَنِ وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةُ . (٢)

📖 – عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي مُسَيْلِمَةَ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ شَيْئًا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ : ﴿ أَمَّا بَعْدُ : فَفِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ أَكْثَرْتُمْ فِيهِ وَإِنَّهُ كَذَّابٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَذَّابًا يَخْرُجُونَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَلْدَةٍ إِلَّا يَبْلُغُهَا رُعْبُ الْمَسِيحِ إِلَّا الْمَدِينَةَ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ الْمَسِيحِ . ﴾ (٣)

شرح :

هذه العلامة من دلائل نبوة المصطفى ﷺ ؛ حيث ظهر بعض المتنبئين في آخر عصره كمسيلمة الكذاب في اليمامة والأسود العنسي في اليمن ، واستمرت هذه الظاهرة بعد موته ﷺ ؛ حيث خرجت سجاح التميمية في بني تميم ، وطليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة وذلك في عهد أبي بكر ﷺ ، وترادف بعد ذلك خروج أدعياء النبوة فما

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣١٥ ، وقال عنه : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٦٥/٦)] ؛ والحديث له أصل في البخاري ومسلم وأبي داود في متن طويل .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير برقم ٧٠٣٤ [البخاري مع الفتح (٤٣٨/١٢)]

(٣) أخرجه أحمد في مسند البصريين برقم ٢٠٤٥٢ [المسند (٥٢/٥)] ؛ وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٦٥٢ [ابن حبان (٢٩/١٥)] ؛ قال الهيثمي : أخرجه أحمد والطبراني ، وأحد أسانيد أحمد والطبراني رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣٢/٧)]

من قرن إلا وبه من ادعاها ، وكان له أتباع وشوكة منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي غلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وبدأ دعوته بإظهار حب آل البيت والمطالبة بقتلة الحسين ثم زعم أن جبريل ﷺ كان يتترل عليه ، وقد قُتل المختار سنة بضع وستين .

ومن مدعي النبوة أيضاً الحارث الكذاب الذي خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . (١)

وفي العصور القريبة خرج **أحمد القادياني** في الباكستان وادعى النبوة ، بل ادعى أنه المسيح الموعود وله ضلالات كثيرة ، وأتباعه يعرفون بالقاديانية أو الأحمدية ، وكذلك خرج علينا **علي محمد الشيرازي** في إيران والذي اعتبر نفسه باب المهدي ؛ أي الممهد لخروجه ، الذي كان من أتباعه **حسين علي** الملقب ببهاء الله ، وهذا الأخير قد ادعى إلغاء الأديان واعتبر نفسه مظهر الله الحقيقي الذي بشر به جميع الأنبياء وأدعياء هذه الفرقة تعرف بالبهائية أو البابية ، وهي من المذاهب الهدامة المستغلة من أعداء الأمة ، (٢) وآخر من خرج علينا المدعو رائيل زعيم الطائفة الرائيلية الذي ادعى النبوة وادعى التقائه بالأنبياء .

والأحاديث السابقة تنطبق على من ادعى النبوة وكان له أتباع وشوكة ، أما مجرد دعوى النبوة فقط ، فقد حصلت من كثيرين لا يحصى عددهم .

---

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (٦/٧١٤)

(٢) انظر البستوي : المهدي المنتظر (١٠٩ وما بعدها)

المبحث الثاني
العلامات والفتن الملاحم في مرحلة الخلافة الراشدة

أولاً : العلامات (١-٣) موت النبي ﷺ وفتح بيت المقدس والوباء الذي أصاب الصحابة .

- عن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ ﵁ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ : ﴿ اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي ،ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا * ... ﴾ (١)

شرح الحديث :

الحديث تضمن ستاً من علامات الساعة الذي يعنينا منها هنا ثلاثة :

العلامة الأولى : موت الرسول ﷺ .

العلامة الثانية : فتح بيت المقدس ، وهذا كان في عهد الخليفة عمر ﵁ .

العلامة الثالثة : الموت الكثير ، فالموتان بضم الميم وسكون الواو هو الموت ، وقيل تستخدم هذه الكلمة للدلالة على الموت الكثير مرادفة لكلمة موت ، ويقال أن هذه العلامة ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر ﵁ ، وهذا القول أرجحه لأن الضمير في كلمة « فيكم » يعود على الصحابة ، وأظهر موت وأشده وأكثره وقع فيهم في طاعون عمواس .

وكذلك وصف النبي ﷺ هذا الموت بأنه يأخذهم كقعاص الغنم والقعاص : داء يأخذ الدواب ، فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة (٢). وهذا إشارة إلى أن سبب الموت الذي يصيب الصحابة هو وباء .

---

(١)أخرجه البخاري في الجزية والموادعة ، حديث رقم ٣١٧٦ [البخاري مع الفتح (٦/٣٢٠)]

(٢) انظر فتح الباري (٦/٣٢١)

ومما يعزز هذا القول ما جاء في رواية ابن ماجة للحديث نفسه ؛ حيث جاء فيه ﴿ .. ثُمَّ دَاءٌ يَظْهَرُ فِيكُمْ يَسْتَشْهِدُ اللَّهُ بِهِ ذَرَارِيَّكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَيُزَكِّي بِهِ أَعْمَالَكُمْ . ﴾ (١)

فهذه رواية أخرى للحديث ، وفيها التصريح بأن هذا الموت مرجعه إلى وباء يصيب الصحابة ، ويعزز ذلك رواية الحاكم عن الشعبي عن عوف بن مالك « أنه قال لمعاذ في طاعون عمواس أن رسول الله ﷺ قال لي : أعدد ستاً بين يدي الساعة ، فقد وقع منهن ثلاثة ، يعني موته ﷺ ، وفتح بيت المقدس ، والطاعون ، قال : وبقي ثلاث ، فقال له معاذ : إن لهذا أهلاً . » (٢)

تنبيه :

سيأتي ذكر موتان شديد كعلامة من علامات الساعة ، وهو علامة مستقلة غير هذه العلامة التي حصلت مع الصحابة ، وهناك قرائن عدة سأذكرها في موضعها تبين أنهما علامتان منفصلتان ، ولا يراد بهما حدثاً واحداً .

الإشارة النبوية إلى فتح جزيرة العرب وفارس والروم .

- عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ أن النبي ﷺ قَالَ : ﴿ تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللَّهُ . قَالَ : فَقَالَ نَافِعٌ : يَا جَابِرُ! لَا نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ ﴾ (٣)

شرح :

الحديث من دلائل نبوة المصطفى ، حيث تم بسط نفوذ المسلمين على جزيرة العرب في عهد أبي بكر ، وتم غزو فارس وبسط النفوذ عليها كاملاً وقتل آخر أكاسرهم

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٤٢ [سنن ابن ماجة (١٣٤١/٢)]

(٢) انظر فتح الباري (٦/ ٣٢١)

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٠٠ [مسلم بشرح النووي (٢٢٤/٩)]

في عهد عثمان ﷺ ، وكذلك تم غزو الروم في عهد عمر ، وتم بسط نفوذ المسلمين على الشام في عهده .

فائدة :

يحتمل أن يراد بغزو الروم هنا أيضاً ما يقع من معارك بين المسلمين وبينهم في آخر الزمان ، ويتم فيها فتح روما والقسطنطينية ؛ لأن الروم لم يتم فتحها نهائياً كما حصل مع الفرس ، بل ما تم هو كسر شوكتها وإجلائها عن كثير من الأراضي التي تحت نفوذها ، أما الفتح الكامل للروم والقضاء على ملكهم نهائياً فيكون قبل خروج الدجال بوقت قصير .

ويعزز هذا الاحتمال ما ذكره نافع لجابر ﷺ ؛ حيث ربط بين الحدثين بطريق الالتزام أو الاقتضاء ، فقال : لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم ؛ أي أن فتح الروم يقتضي خروج الدجال بعده ، ومن يدرس الملاحم في آخر الزمان يجد هذا الرابط واضحاً ؛ حيث يخرج الدجال بعد فتح معقل الروم ، وهي القسطنطينية .

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ **إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .** ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث يختلف عن سابقه في الدلالة ؛ حيث يشير إلى أنه إذا هلك كسرى ، فلن يكون بعده ملك من ملوك الفرس ، وإذا هلك قيصر ، فسينتهي ملك الروم ، وقد ذكر النبي ﷺ هذا الحديث بعدما جاءه خبر هلاك كسرى ، والملاحظ أن ملك الأكاسرة استمر إلى زمان خلافة عثمان ﷺ ، وكذلك مملكة الروم باقية .

والجواب على ذلك أن مراد النبي ﷺ هنا زوال ملك قيصر وكسرى عن الشام

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٣٠٢٧ [البخاري مع الفتح (٦/١٨٢)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٣١٣ [تحفة الأحوذي (٦/٤٦٢)]

والعراق ، أي أن هلاكهما يراد به زوال ملكهما عن تلك البقاع التي هي محل سؤال الصحابة رضي الله عنهم ، وسبب الحديث كما أشار الإمام الشافعي أن قريشاً كانوا يأتون الشام والعراق تجاراً ، فلما أسلموا خافوا انقطاع سفرهم إليها لدخولهم في الإسلام ، فبين النبي ﷺ من باب البشارة بأن ملكهما ــ أي الفرس والروم - سيزول عن هذين الإقليمين . (١)

الإشارة النبوية إلى حصول الرخاء والأمن .

- عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ ، فَقَالَ يَا عَدِيُّ ! هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟ قُلْتُ لَمْ أَرَهَا ،وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا ، قَالَ : فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ . قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي : فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ ؟ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ . قَالَ : كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ! وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ .. قَالَ عَدِيٌّ : فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

الظعينة : المرأة في الهودج .

الحيرة : عاصمة المناذرة ، أو هي بلد ملوك العرب الذين تحت ملك فارس .

دعار طيء : الدعار جمع داعر ، وهو قاطع الطريق الخبيث المفسد ، وطيء بلاد عدي بن حاتم وهي في الطريق بين العراق والحجاز ، وكان عدد من أهلها يحترفون قطع

(١) تحفة الأحوذي (٦/٤٦٣)

(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٥٩٥ [البخاري مع الفتح (٦/٧٠٦)]

الطريق ؛ بحيث لا يأمن أحد في السير في تلك البلاد . (١)

شرح :

- هذا الحديث صريح في تغير حال المسلمين عما كانوا عليه في عهد رسول الله ﷺ ، وبدايته كانت في شكوى من البعض من قطع الطريق والفقر ، فبين النبي ﷺ أن هذه الحال ستتغير ، ودلائل سياق الحديث يشير إلى قرب هذا التغير ؛ حيث استخدم النبي ﷺ عبارة لئن طالت بك حياة ، مخاطباً بها عدي ؛ أي أن الأمر قريب ، وهذه التغيرات التي ذكرها النبي ﷺ كانت في نظر عدي ﷺ من العجائب التي لا يتصور حدوثها في زمانه ، وأحد هذه التغيرات حصول الأمن فيما بين العراق والحجاز ، وهذا أمر مستبعد في نظر عدي ﷺ ، وذلك لما يراه من دلالة الحال من انتشار المجرمين وقطاع الطرق في هذه الطرق بما تعجز معه القافلة أن تحفظ نفسها ، فكيف بامرأة تخرج على الهودج من الحيرة عاصمة المناذرة ناحية العراق إلى الحجاز ، وتكون الطريق في حقها آمنة ، وأين سيذهب قاطعوا الطرق من طيء ممن تفننوا في قطع الطريق وإخافة المسافر وسلبه ، ويتضح في خاتمة الحديث أن ما استعظم عدي ﷺ حدوثه قد رآه رأي العين من خروج الظعينة ، والأمر الثاني وهو أعظم من الأول ، وهو الإستيلاء على ملك كسرى ، وهذا كان أيضاً في نظر عدي من العظائم ، وذلك لما يرى من قوة ملك الأكاسرة ، بل حتى فكرة غزوهم لم تكن تراود فكر العرب إلا من جهة السلب من التخوم فقط ، ويتضح من الحديث أيضاً أن ما استعظم حصوله عدي ﷺ وقع فعلاً بعد مدة وجيزة ، وكان هو أحد الجنود الفاتحين لبلاد الفرس .
- والأمر الثالث الذي أخبر عنه النبي ﷺ هو إفاضة المال وانتشار الرخاء ، وهذا لم يقع على الوصف الذي ذكره النبي ﷺ في حياة عدي ﷺ ؛ لذا أخبر بثقة بأن من بعده

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٦/٦٠٩)

سيرون هذا الرخاء يقيناً على كلام الرسول الأعظم ، وبالفعل وقع ما أخبر النبي ﷺ في عهد عمر بن عبد العزيز .

- يتضح من الحديث السابق أنه تضمن ثلاثة من دلائل نبوة النبي ﷺ ، وعلى الوجه الذي أخبر ، و العجيب في هذا الحديث أن النبي ﷺ قد أخبر بأمور غير متوقع حصولها ، بل دلالة الحال والواقع تشير إلى خلافها .
- لعل من أهم الدروس التي يتعلمها المسلم في هذا الزمان المتقلب من هذا الحديث هو الثقة بموعود الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة بالرغم من أن دلالة الحال تشير إلى خلاف ذلك في بعض الأمور ، وما يستعظمه المسلم في زماننا من عودة العالمية الثانية للإسلام ، ليس بأعجب مما استعظمه عدي رضي الله عنه في هذا الحديث ، والأمر بيد الله سبحانه وتعالى يصرفه كيفما يشاء .

الإشارة النبوية إلى فتح البيت الأبيض في المدائن .

📖- عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جُمُعَةٍ عَشِيَّةَ رُجِمَ الْأَسْلَمِيُّ يَقُولُ : ﴿ لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى . ﴾ (١)

📖 - عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : ﴿ لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى يَكُونَ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً مِنْ قُرَيْشٍ ثُمَّ يَخْرُجُ كَذَّابُونَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ثُمَّ تَخْرُجُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَ الْأَبْيَضِ كِسْرَى وَآلِ كِسْرَى . ﴾ (٢)

أقول :

- هذان الحديثان يشيران إلى فتح قصر عاصمة فارس (المدائن) والمعروف باسم القصر

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٢٢ [مسلم بشرح النووي (٤١٣/٩)]

(٢) أخرجه أحمد في مسند البصريين ٢٠٨٣٣ [المسند (١٠٤/٥)] والحديث حسن ، ورواته هم رواة حديث مسلم

الأبيض أو البيت الأبيض ، ولعل هذه التسمية لها علاقة بلون هذا القصر ، ومثل هذه العبارة وقعت من الدجال عندما وصل إلى أنقاب المدينة وأخبر أتباعه قائلاً : أترون هذا القصر الأبيض هذا مسجد رسول الله ﷺ .

- يلحظ من البعض في عصرنا هذا أنه يرى أن المقصود بالبيت الأبيض ، البيت المعروف في عصرنا لدى الأمريكان ، وهذا فهم خطأ ، وتعسف في حمل الأدلة على غير محملها ، ودلائل سياق الحديث وألفاظه تشير إلى أن المراد به القصر الأبيض في المدائن فهو يعرف بهذه التسمية منذ عهد النبي ﷺ ، وفي حديث مسلم تقييد واضح في أن المراد بالقصر الأبيض بيت كسرى ، وفي روايات أخرى تحديد لموقعه وهو المدائن .
- هذا الحديث كما يذكر الإمام النووي دليل من دلائل النبوة حيث قال : « **هذا من المعجزات الظاهرة لرسول الله ﷺ ، وقد فتحوه بحمد الله في زمن عمر بن الخطاب .** » (١)

فائدة : (۞)

يتضح من كلام النووي أنه يرى أن عملية فتح القصر الأبيض يراد بها ما وقع في عهد عمر بن الخطاب ؛ و كلام النووي رحمه الله يؤيده سياق الحديث والواقع ؛ إلا أن هناك قرينة موهمة وهي أن الحديث الأول جعل فتح البيت الأبيض بعد الاثنا عشر خليفة ، وفي الحديث الثاني استخدم لفظة « ثم » الدالة على الترتيب مع التراخي مما يشير إلى أن فتح البيت الأبيض سيكون بعد الاثنا عشر خليفة ، وبعد خروج الكذابين ، فهل يدور

---

(١) النووي : شرح مسلم (٢٠٣/١٢)

(۞) ذكرت هذه الفائدة بقصد بيان القرينة الموهمة وتوجيهها ، وذلك من باب ملاحقة بعض الأحاديث من جميع احتمالاتها مع الرد على الاحتمال المرجوح لدي ، ولعل هذه القرينة الموهمة هي التي حدت بالبعض لأن يتصور بأن المراد بالبيت الأبيض هذا البيت المعهود لدى الأمريكان ؛ لدى وجهت الرأي في المسألة ، وعلى فرضية صحة القرينة وقوتها فإنها تحتمل أن يراد بالبيت الأبيض بيتاً جديداً في إيران كبيت المدائن القديم ، ولا تحتمل أن يراد بها البيت المعروف لدى الأمريكان ؛ وذلك لكثرة القرائن الصارفة للمعنى الأخير .

الزمان كهيئته الأولى ، وترجع رسوم فارس وأفكارها إلى بلاد إيران ؛ بحيث يصدق فيهم القول أنهم أكاسرة أو أبناء الأكاسرة من حيث المعنى ، وإن لم يتسموا بهذا الاسم ، ويكون لهم بيت عز شبيه ببيت المدائن الأول ، أقول هذا الأمر محتمل ، والقرينة في الحديث موهمة ، ويعززها حديث نافع السابق ذكره عن غزو جزيرة العرب وفارس والروم ثم الدجال ، ويكون المراد بحديث نافع ما سيقع في العالمية الثانية للإسلام من أحداث شبيهة بالعالمية الأولى ، ولكن هذه الأحداث تنتهي بخروج الدجال .

وبالرغم من هذه القرينة الموهمة إلا أنني أميل لترجيح ما قطع به النووي رحمه الله من أن هذا الحديث يشير إلى حدث وقع بالفعل ، وقد يكون هذا الترتيب المذكور في الحديث من تصرف راوي الحديث ، أو لا يراد على حقيقته ، وإنما يقصد به الجمع بين الأحداث ، أو هو من باب الترتيب الإخباري لا الزماني . (۞)

الإشارة النبوية إلى أن استشهاد عمر رضي الله عنه بوابة الفتن العظمى .

– عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ . ﴾ (١)

(۞) يرى علماء النحو أن حرف العطف ثم يأتي بمعنى التشريك في الحكم والترتيب والتراخي ، إلا أن هذه المعاني تتخلف في بعض الأحيان ، أي أن هذه القاعدة غير مطردة في كل أفرادها ؛ فأحياناً تأتي ولا يراد بها التشريك في الحكم وممن يرى ذلك من النحويين الأخفش والكوفيون ، وأحياناً تأتي ولا يراد بها الترتيب ، وكذلك تأتي ولا يراد بها المهلة أو التراخي كما يرى الفراء من النحويين ، وللتوفيق بين آراء النحويين في المسألة بخصوص الترتيب والتراخي يرى ابن هشام أن حرف العطف ثم قد يأتي للترتيب الإخباري لا لترتيب الحكم ، وذكر عليه مثالاً بقوله : « ..وأنه يقال : (بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب) ؛ أي ثم أخبرك أن الذي صنعته أمس أعجب » . [ابن هشام : مغني اللبيب (١٥٨ وما بعدها)]

ووفق هذا التوجيه يمكن القول أن حرف ثم في الأحاديث السابقة لا يراد به الترتيب الزماني ، بل الترتيب الإخباري بمعنى أن راوي الحديث سمع هذه الأخبار من رسول الله وفق هذا الترتيب فرتب الخبر وفق ما سمع دون أن يكون لهذا الترتيب معنى زماني .

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٩٩ [البخاري مع الفتح (٦٦/٧)]

شرح :

هذا الحديث ذكرته بين يدي العلامة للدلالة على أن مقتل الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما يصدق فيه وصف الشهادة، فكلاهما شهيدان بشهادة النبي ﷺ لهما بذلك .

– عن حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : ﴿ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ ؟ قُلْتُ : أَنَا كَمَا قَالَهُ . قَالَ : إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ قُلْتُ : فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ . قَالَ : لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ قَالَ : لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا ، قَالَ أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ ؟ قَالَ : يُكْسَرُ . قَالَ : إِذًا لَا يُغْلَقَ أَبَدًا . قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ : نَعَمْ كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ . إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : الْبَابُ عُمَرُ . ﴾ (١)

شرح غريب الحديث :

- **تموج كموج البحر** : أي تضطرب اضطراب البحر عند هيجانه ، وذلك كناية عن شدتها وكثرة المنازعة والمخاصمة فيها ، وقد يكون المراد بتشبيهها بموج البحر كناية عن استمراريتها وتتابع أحداثها ، وإن كان منشؤها واحد ؛ أي أن هذه الفتن مترادفة الجولات فما تنتهي جولة إلا وتتبعها أخرى وذلك كموج البحر ، وهذا ما وقع بالفعل فقد نشأت الفتنة بمقتل عثمان ﷺ ، ثم تجددت بين طلحة وعائشة والزبير رضوان الله عليهم من جهة وبين علي رضي الله عنه لنفس السبب ، ثم تجددت بين معاوية وعلى رضي الله عنهما ، وترادفت الفتن بعدها ومرجعها الأساسي جميعاً مقتل عثمان ﷺ .

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ، حديث رقم ٥٢٥ [فتح الباري (٢/١١)] ؛ ومسلم في الفتن والملاحم برقم ١٤٤ [مسلم بشرح النووي (٩/٢١٥)]

- **الأغاليط** : جمع أغلوطة ، وهو ما يغالط به من الكلام ؛ والمراد من كلام حذيفة ﷺ دفع الإشكال أو الوهم الذي قد يعتري السامع ، خاصة عندما يرى في الحديث بعض الرموز التي لم تعهد « الباب » « كسر الباب » فيظن أنها كانت رموز خاصة بين حذيفة وعمر رضي الله عنهما قد تتضمن بعض المغالطات ، فدفع حذيفة هذا التوهم بأن ما حدَّث به لم يقله عن اجتهاد ورأي ، إنما حدث حديثاً صدقاً محققاً من كلام سيد البشر .

شرح الحديث :

الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن عمر ﷺ كان سداً منيعاً بين الأمة وبين الفتن ، وبموته تترادف المحن وتشتد على الأمة كموج البحر ، وهذا الأمر كان يعلمه عمر ﷺ ، لأنه كان ممن سمعه من رسول الله ﷺ ولكنه أراد التأكد منه ، أو التأكد من فهمه للحديث خاصة أنه تضمن بعض الرموز التي تحتاج إلى بيان .

و معنى هذا الحديث لم يختص به حذيفة ﷺ لوحده ، بل كان متداولاً بين الصحابة رضوان الله عليهم ، يؤكد ذلك ما روي عن أبي ذر ﷺ « **أنه لقي عمر** ﷺ ، **فأخذ بيده فغمزها ، فقال له أبو ذر : أرسل يدي يا قفل الفتنة .** » وفي الحديث أن أبا ذر قال مشيراً إلى عمر ﷺ : « **لا يصيبكم فتنة ما دام فيكم .** » (١)

ورُوي عن عثمان بن مظعون « **أنه قال لعمر** ﷺ **: يا غلق الفتنة** » (٢)

وكذلك رُوي عن عبد الله بن سلام ﷺ أنه قال لعمر رضي الله عنه : « **إني أرى في التوراة أنك باب من أبواب جهنم ، فقال له عمر** ﷺ **: فسر لي : قال : أنت باب من أبوابها مغلقاً لئلا يقتحمها الناس فإذا مت انفتح .** » (٣)

وقد قتل عمر ﷺ في صلاة الصبح من يوم الأربعاء لأربع ليالي بقـــين من ذي

---

(١) أخرجه الطبراني بإسناد رجاله ثقات [انظر ابن حجر : فتح الباري (٧٠١/٦)]

(٢)انظر ابن حجر : فتح الباري (٧٠١/٦) ، وقد عزاه للبزار

(٣) عبد الوهاب ، محمد ، مختصر سيرة الرسول (٣٠٤)

الحجة سنة أربع وعشرين للهجرة ، وبمقتله كُسر البـــاب الذي يحجز الفتنة التي تمـــوج كموج البحر . (١)

فائدة :

يلحظ من هذا الحديث أنه تضمن نوعاً من الرمزية في ألفاظه (الباب - كسر الباب - فتح الباب) ، وهذا ملاحظ في بعض أحاديث علامات الساعة ، ولعل الحكمة من ذلك عدم وضوح بعض المسائل الخطيرة للعامة فيترتب على وضوحها الفتن ، ويبقى فهمها مقصوراً على ذوي الأفهام من الأمة .

(١) المرجع السابق

المبحث الثالث
استشهاد عثمان ﷺ والفتنة العظمى

بعد مقتل عمر ﷺ اصطلحت الأمة على تولية عثمان ﷺ الخلافة بعده ، وقد توسع عثمان ﷺ في الأمر على خلاف سابقيه ، واتُهم من بعض مروجي الفتن في الكوفة ومصر في المحاباة في الولاة فبدأت الفتنة التي تحركت بداية في العراق ، وانتهت إلى مصر بقيادة عبدالله بن سبأ اليهودي الذي ألب الناس على عثمان ﷺ وهيجهم لقتله حتى كان أمر محاصرته في بيته ومقتله ، وبمقتله اشتعلت الفتنة العظمى التي نبتت بسببها كل الفتن التي لحقت بالأمة الإسلامية ، والناس في بقايا من شرها إلى يومنا هذا .

ووقع ما أخبر به الرسول ﷺ بالهيئة التي وصف ، ويضاف إلى الأثر السابق بعض الآثار التفصيلية التي تدل على منشأ هذه الفتنة ، ومقتل عثمان ﷺ ، منها :

أولاً : شهادة عثمان ﷺ من علامات الساعة :

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلُوا إِمَامَكُمْ وَتَجْتَلِدُوا بِأَسْيَافِكُمْ وَيَرِثَ دُنْيَاكُمْ شِرَارُكُمْ .» (١)

شرح :

الحديث يشير إلى مقتل عثمان ﷺ وما يقع بعده من فتن ، وهو من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع ما أخبر به .كذلك فيه إشارة واضحة إلى أن مقتله ، والاقتتال الداخلي بعده علامتان من علامات الساعة .

ثانياً : الإشارة النبوية على أن عثمان ﷺ كان على الحق .

📖 - عن مُرَّةُ بْنُ كَعْبٍ قَالَ : « ذَكَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْفِتَنَ فَقَرَّبَهَا فَمَرَّ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ فِي ثَوْبٍ فَقَالَ : هَذَا يَوْمَئِذٍ عَلَى الْهُدَى فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ قَالَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ، وقال عنه : حديث حسن [تحفة الأحوذي (٣٩١/٦)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٤٣ [السنن (١٣٤٢/٢)] .

فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ فَقُلْتُ : هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الأثر يشير صراحة على أن عثمان ﷺ كان على الحق والهدى ، ودلائل السياق تشير إلى أن الفتن التي كان يقصدها النبي ﷺ هي ما وقع لعثمان ﷺ .

ثالثاً : الإشارة النبوية الدالة على يوم الجرعة (۞) :

قَالَ : جُنْدُبٌ « جِئْتُ يَوْمَ الْجَرَعَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ فَقُلْتُ : لَيُهْرَاقَنَّ الْيَوْمَ هَاهُنَا دِمَاءٌ ، فَقَالَ ذَاكَ الرَّجُلُ : كَلَّا وَاللَّهِ . قُلْتُ : بَلَى وَاللَّهِ . قَالَ : كَلَّا وَاللَّهِ . قُلْتُ : بَلَى وَاللَّهِ . قَالَ : كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنِيهِ . قُلْتُ بِئْسَ الْجَلِيسُ لِي أَنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ ، تَسْمَعُنِي أُخَالِفُكَ ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، فَلَا تَنْهَانِي ، ثُمَّ قُلْتُ : مَا هَذَا الْغَضَبُ ؟ فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَأَسْأَلُهُ ، فَإِذَا الرَّجُلُ حُذَيْفَةُ » (٢)

شرح الحديث :

يوم الجرعة يومٌ خرج فيه أهل الكوفة – وقد شحنت نفوسهم – يتلقون والياً ولاه عثمان ﷺ ليردوه ، فردوه ، وسألوا عثمان ﷺ أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري ﷺ ، فولاه ، ودلائل الحال تشير إلى وقوع معركة يهراق بسببها الدماء فقال جندب ﷺ : ليهراقن اليوم ها هنا دماء ، وذلك لما يرى من استعداد أهل الكوفة للمواجهة ، وما يترتب على مخالفة الخليفة وشق عصا الجماعة من عواقب ، فأقسم حذيفة ﷺ –وكان جليس جندب في ذلك المقام – بقوله : لا والله ، فأقسم جندب ﷺ مؤكداً كلامه السابق بقوله : بلى والله ، وتكرر القسم من الرجلين ، ثم بين حذيفة أن إنكاره وقوع الدماء بين الفريقين إنما استند فيه إلى حديث عن رسول الله ﷺ ، عندها غضب جندب ﷺ ، وقال

(١)أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٣٧٨٨وقال حسن صحيح [تحفة الأحوذي (١٠/١٩٨)]

(۞) الجَرَعة : اسم مكان بقرب الكوفة على طريق الحيرة يوم الجرعة يوم خرج فيه أهل الكوفة يتلقون والياً ولاه عثمان ﷺ، فردوه ، وسألوا عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري ، فولاه .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٣ [مسلم بشرح النووي (٩/٢١٦)]

لحذيفة وهو لا يعرفه : بئس الجليس لي أنت ، وسبب غضبه أن حذيفة تركه يقسم بالله على شيء ، وعنده ما يخالفه من كلام رسول الله ، وإلا لو بادر حذيفة ببيان ما ورد عن رسول الله ﷺ لما وقع جندب ﵁ في القسم خطأً .

فوائد :

يتضمن الحديث عدة فوائد مهمة منها :

١- سعة اطلاع حذيفة ﵁ فيما يخص الفتن والملاحم التي تقع بين المسلمين ، أو مع المسلمين .

٢- يتضح من الحديث مدى توسع الرسول وتفصيله للفتن والملاحم لصحابته الكرام ، حتى لو كانت هذه الفتن صغيرة لم يترتب عليها عواقب وخيمة ، خاصة في الدماء ، وهذا واضح جلي في يوم الجرعة .

فإذا كان يوم الجرعة له نصيب من كلام رسول الله ﷺ ، فما بال الفتن العظمى في زماننا ، والتي تُستحل فيها الدماء والأموال والفروج .

وفي ظني أنها نالت حظاً وافراً من الهدي النبوي ، ولكنها لم تصادف حذيفة العصر .

٣ – الحديث فيه إشارة إلى مدى تعظيم الصحابة لكلام رسول الله ﷺ ، وهذا واضح من موقف جندب ﵁ .

رابعاً : الإشارة النبوية إلى حصار عثمان ﵁ ومقتله .

- عَنْ أَبِي مُوسَى ﵁ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا وَأَمَرَنِي بِحِفْظِ بَابِ الْحَائِطِ فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ . فَقَالَ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ فَإِذَا عُمَرُ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَسَكَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى سَتُصِيبُهُ فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﴾ (١)

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٩٥ [البخاري مع الفتح (٦٥/٧)]

شرح :

الحديث فيه إشارة واضحة للفتنة التي وقعت في زمان عثمان ﷺ ، و البلاء الذي وقع به بسببها .

فائدة :

قد يقال هنا أن عمر ﷺ تعرض للقتل مثل عثمان ﷺ ، ولكن النبي ﷺ لم يقل له مثل ما قال لعثمان بأنه يتعرض لبلوى تصيبه .

ويجاب على ذلك بأن هناك فارقاً واضحاً بين ما أصاب عمر ﷺ وما أصاب عثمان ﷺ ، بحيث يصدق أن يقال أن ما أصاب الثاني هو بلوى ، أو ابتلاء عظيم . فالملاحظ أن عمر ﷺ قتل على يد مجوسي ، ولم يترتب على قتله فتنة أو ابتلاء له ، بينما عثمان ﷺ قد تعرض للبلاء قبل قتله بتسلط القوم الذين أرادوا أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظلم مع تنصله من ذلك واعتذاره عن كل ما أوردوه عليه ثم هجومهم على بيته ، وهتكهم ستر أهله ...إلخ

وبالتالي يمكن القول بأن البلوى التي خص بها عثمان ﷺ عن عمر ﷺ هي ليس تعرضه للقتل ، وإنما ما رافق القتل من حصار ومحن ألمت به .

المبحث الرابع
الاقتتال الداخلي بين الصحابة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه

هذا المبحث يتضمن الحديث عن وقعتي الجمل وصفين اللتين وقعتا بين الصحابة الكرام كأحد إفرازات الفتنة العظمى والتي بدأت شرارتها الأولى بمقتل عثمان رضي الله عنه ، وقد سبقت الإشارة في حديث سابق أن النبي ﷺ قد صرح بأن وقوع هذا الاقتتال من علامات الساعة . (١)

المطلب الأول : الاقتتال الداخلي من البلاءات الخاصة بهذه الأمة

- عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا . » (٢)

<u>أقول :</u>

هذا الحديث فيه إشارات عجيبة منها :

- مدى ملك الأمة ؛ حيث سيبلغ المشارق والمغارب ، وهذا وقع في الماضي حيث بلغ ملكها الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، ويحتمل أن يراد بالحديث أكثر مما ذكرت ؛ حيث يعم الدين الأرض كلها بعد خروج المهدي ونزول عيسى ﷺ .

---

(١) انظر حديث حذيفة ص ٨٤

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٩ [مسلم بشرح النووي (٢١٢/٩)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٢٦٧ [تحفة الأحوذي (٣٩٨/٦)]

- الحديث فيه إشارة إلى أن الأمة الإسلامية ستُعطى الكترين الأبيض والأحمر ، وهما الذهب والفضة ، أو ما يؤول إلى الذهب والفضة ، والناظر إلى كنوز البلاد الإسلامية يجد أنها نالت الحظ الأوفر من كنوز الأرض .
- الحديث فيه إشارة إلى ذمة هذه الأمة عند الله سبحانه وتعالى ؛ بحيث لا يمكن أن تستباح بيضتها أو رمز قوتها من الخارج أبداً حتى لو اجتمع عليها أهل الأرض جميعاً ، فالاستباحة للعدو الخارجي لا يمكن أن تتم إلا بمساعدة الأمة من الداخل وواقع الأمة يشهد لذلك .
- في الحديث إشارة إلى أن وهن الأمة الحقيقي هو في استباحة بعضهم بعضاً ، بل هو البلاء الذي حرمت الأمة من رفعه عنها ، والحديث يشير إلى أن ذلك كائن في الأمة ، وتاريخ الأمة وحاضرها يشهد لذلك ؛ وبذا تكون الأمة قد وقعت فيما حذرنا الله منه بخصوص الأمة التي سبقتنا ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)
- تعتبر بداية الاقتتال الداخلي بما وقع بين الصحابة ، وهذا الاقتتال وإن كان يختلف عما وقع بعده إلا أنه يعتبر بداية افتتان الأمة بوقوعها في أخطر بلاء أصابها ، ومن تتبع الصراعات الداخلية الواقعة بين المسلمين في مرحلة الخلافة العباسية وما وقع بعدها يرى مصداقية هذه الآية في بيانها لبعض آثار إتباع الأمة للأمم السابقة .

---

(١) البقرة: الآيات ٨٤- ٨٥

📖 – عن عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ : ﴿ سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا . ﴾ (١)

شرح الغريب :

السنة : القحط

وفي رواية : ﴿ .. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا . ﴾ (٢)

وفي رواية : ﴿ وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأَبَى عَلَيَّ أَوْ قَالَ فَمَنَعَنِيهَا فَقُلْتُ حُمَّى إِذًا أَوْ طَاعُونًا حُمَّى إِذًا أَوْ طَاعُونًا حُمَّى إِذًا أَوْ طَاعُونًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . ﴾ (٣)

شرح :

- هذه الأحاديث تتضمن دلالة صريحة بأن تفرق الأمة إلى شيع ، وإفناء بعضهم لبعضهم هو أحد أشكال العقوبة التي ستبتلى بها إلى قيام الساعة ، والواقع يشهد لذلك ، والرواية الأخيرة تبرز مدى خطورة هذا البلاء ؛ حيث إن النبي ﷺ عندما علم بأنه قدر نافذ في الأمة دعا الله سبحانه وتعالى التخفيف ، بأن يبتلوا بالطاعون والحمى ، بدلاً من الاقتتال الداخلي ؛ ويلحظ هنا أن النبي ﷺ قد اختار أهون الشرين على الأمة فالموت بالطاعون شهادة ، وتكفير للسيئات ، وهو أهـــون من أن يقتل

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٠ [مسلم بشرح النووي (٢١٣/٩)]

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٦٦ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٣٩٧/٦)]

(٣) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢٢١٩٧ [المسند (٢٩٣/٥)] والحديث له شواهد في الصحيح

بعضهم بعضاً .

- نجد أن راوي هذا الحديث وهو معاذ بن جبل ﷺ قد ابتلي بطاعون عمواس هو وولده ، وكان مستبشراً به قائلاً دعوة نبيكم ، ويقصد بذلك تلك الدعوة الواردة في الحديث ، وهي تمني النبي ﷺ فناء صحابته بالطاعون عوضاً عن فنائهم بالاقتتال الداخلي ؛ لذا يمكن القول أن طاعون عمواس الذي حصد قرابة الثلاثين الفاً من الصحابة كان في ظاهره بلاءً ، وفي حقيقته تخفيف على الصحابة الكرام ، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَـمُونَ ﴾ (٢)

المطلب الثاني : وقعة الجمل

﴿ جمادى الأخرة / ٣٦ هـ ﴾

١- فريقا النزاع وسبب التسمية :

وقعة الجمل هي المعركة التي وقعت بين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم وبين علي ﷺ ، وسبب تسمية المعركة بهذا الاسم نسبة إلى الجمل التي كانت تركبه عائشة رضي الله عنها في المعركة .

٢- دوافع المعركة وبواعثها :

خلاصة دوافع هذه المعركة أنه بعد مقتل عثمان ﷺ مكث علي ﷺ في بيته فجاءه الناس ليبايعوه فتمت له البيعة ، ودخل الجميع في بيعته إلا أهل الشام ، و كان من طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم اجتهاد بأنه يجب أن يقتص علي ﷺ من قتلة عثمان ﷺ ، ورأوا أنهم قصروا في نصرته حياً ؛ فكان منهم الندم على خذلانه ، لذا لن

---

(١) الإسراء: من الآية٨٥

(٢) البقرة: من الآية٢١٦

يخذلوه بعد مماته في القصاص من قتلته ، إضافة إلى أن القصاص حق شرعي لكل فرد من الرعية ، فكيف إذا كان المقتول إمام الأمة ، وكان رأي الإمام علي رضي الله عنه أن ينتظر حتى يتقدم أولياء عثمان رضي الله عنه ليتحاكموا إليه فإذا ثبت على أحد بعينه أنه قتل عثمان رضي الله عنه اقتص منه ، خاصة أنه لم يثبت عنده ببينة المرتكب الحقيقي للقتل .

٣- الإشارات النبوية الواردة بخصوص وقعة الجمل :

📖 - عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ « أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ لَمَّا أَتَتْ عَلَى الْحَوْأَبِ سَمِعَتْ نُبَاحَ الْكِلَابِ فَقَالَتْ مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا : ﴿ أَيَّتُكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ . ﴾ فَقَالَ لَهَا الزُّبَيْرُ تَرْجِعِينَ عَسَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُصْلِحَ بِكِ بَيْنَ النَّاسِ » (١)

📖 - عن قَيْسٌ قَالَ : « لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتْ الْكِلَابُ . قَالَتْ : أَيُّ مَاءٍ هَذَا ؟ قَالُوا : مَاءُ الْحَوْأَبِ . قَالَتْ : مَا أَظُنُّنِي إِلَّا أَنِّي رَاجِعَةٌ ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا : بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ فَيُصْلِحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَ بَيْنِهِمْ قَالَتْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ : ﴿ كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ . ﴾ (٢)

📖 - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لنسائه : ﴿ **أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة ، وتنجو من بعد ما كادت .** ﴾ (٣)

أقول :

- هذه الآثار الثلاثة من دلائل نبوة النبي ﷺ ؛ حيث وقع ما أخبر به ، وهو يتضمن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٤٧٠٨ [المسند (١٠٨/٦)] ؛ وابن عبد البر في الاستيعاب ، وقال : عصام بن قدامة ثقة ، وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج لذكره [الاستيعاب (١٨٨٥/٤)] وقال ابن حجر : أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وصححه ابن حبان والحاكم وسنده على شرط الصحيح . [فتح الباري (٥٩/١٣)] وقال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (١٣٠)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ، وقال ابن حجر : رواه البزار ورجاله ثقات [فتح الباري (٥٩/١٣)]

(٣) هذا الأثر ذكره ابن حجر في الفتح وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . [فتح الباري (٥٩/١٣)]

أربعة أمور ، الأول : أن إحدى نساء النبي ستصل إلى مكان يقال له الحوأب ، والثاني : أن الكلاب تنبح هناك ، وجاءت صيغة الحديث بعبارة تنبحها ، الثالث : أن هذه المرأة ستكون على جبل أدبب أي كثير الشعر ، الرابع : أن صيغة الأحاديث تتضمن توبيخاً لها على موقفها .

- هذه الأحاديث فيها إشارة إلى أن بعض العلامات المستقبلية لا يمكن فهم المراد بها إلا من خلال سياق الموقف الدال عليها ، فهي أشبه بالرؤى التي تتضمن بعض الرموز التي لا يتضح معناها بصورة جلية إلا إذا عايش الإنسان الموقف نفسه ، فكلمات النبي ﷺ عندما قيلت لم يتضح المراد منها إلا عندما عايشت سيدتنا عائشة الموقف بنفسها ، وسمعت الكلاب ، فسألت عن المكان — وهذا من فقهها — فعلمت أنه الحوأب ، ففهمت أن المراد بالحديث هذا الموقف الذي وقعت فيه ، فهمت بالرجوع ، وينبني على هذا الفهم القول أن عدداً من الأحاديث التي رويت عن علامات للساعة أو عن توصيف لبعض الفتن ، قد لا يتصور المراد بحقيقتها إلا عند وقوعها ، وللأسف يلحظ من البعض أنه يتعسف في تحميل الأحاديث ما لا تحتمل بإسقاطها على واقع لا تنتمي إليه ، أو على زمان ليس زمانها .

- هذه الأحاديث فيها دلالة واضحة على نوايا الزبير و عائشة رضي الله عنهما ، وكذلك طلحة رضي الله عنه قبل وقعة الجمل ، فالزبير رضي الله عنه عارض رجوعها لعل الله يصلح بها بين الفريقين ، وهذه إشارة واضحة إلى أن الزبير رضي الله عنه لا يقصد القتال في ذلك الموقف ، وكذلك عائشة كان الباعث من بقائها هو نية الإصلاح ، وفي هذا دلالة واضحة إلى أن ما حصل من عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم كان من باب الإصلاح والمعذرة بين يدي الله ﷻ لشعورهم بأنهم خذلوا عثمان رضي الله عنه حين قتل ، فموقفهم فقط كان عبارة عن ورقة ضغط يراد بها حسب اجتهادهم نصرة الحق ، والأخذ للإمام المظلوم الذي قتل بينهم .

📖 – عن خيثمة بن عبد الرحمن قال : « كنا عند حذيفة رضي الله عنه فقال بعضنا : حدثنا يا أبا عبد الله ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو فعلت لرجمتموني . قال : قلنا : سبحان الله أنحن نفعل ذلك ؟ قال : أرأيتكم لو حدثتكم أن بعض أمهاتكم تأتيكم في كتيبة كثير عددها شديد بأسها صدقتم به؟ قالوا : سبحان الله ومن يصدق بهذا ؟ ثم قال حذيفة : أتتكم الحميراء في كتيبة يسوقها أعلاجها حيث تسوء وجوهكم ثم قال فدخل مخدعا . » (١)

أقول :

- هذا الأثر يشير إلى مدى سعة إطلاع حذيفة رضي الله عنه في باب الفتن ، حتى يصدق في حقه القول بأنه المتخصص الأول من الصحابة في هذا العلم ، وعدم إخباره في بادئ الأمر هنا ليس مرجعه الخصوصية أو السرية ، وإنما مرجعه أن حذيفة رضي الله عنه يريد أن يضع هذا العلم مواضعه عند من يتصوره ؛ لأن بعض الفتن لا يسهل على البعض تصور وقوعها ، فإذا أخبر بها من يستعظمها أو يستبعد وقوعها ، فهذا مظنة لتشكك البعض في حذيفة رضي الله عنه بما لا يترتب عليه المقصد الأساسي من هذا العلم ، فموقف حذيفة يعتبر من باب : « **حدثوا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله .** »
- الملاحظ أن حذيفة رضي الله عنه ذكر قصة الجمل وما سيقع فيها ، وصرح بأن زوجة النبي ﷺ التي ستشارك فيها هي الحميراء ، وهذا وصف عائشة ، مما يدل على أن ملابسات وقعة الجمل وما سيقع فيها كان معلوماً عند أكابر الصحابة ، وما وقعوا فيه كان موجة من موجات الفتنة التي تموج موج البحر كما أخبر النبي ﷺ .
- المعلوم أن حذيفة قد مات سنة ست وثلاثين هجري ؛ أي قبل وقعة الجمل التي كانت في جمادى الآخرة من نفس العام ، ومن سياق الخبر نفهم أنه قال ذلك قبل وقعة الجمل بوقت ليس بالقصير ؛ لأن من سمع الخبر استعظم ذلك لعدم تصور وقوع

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥١٧)]

مثله مما يشير إلى أن دلائل الحال عند سماع هذا الخبر من حذيفة ﷺ تستبعد وقوع مثل هذا الحدث .

- عَنْ أَبِي رَافِعٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَائِشَةَ أَمْرٌ ، قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَنَا قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَأَنَا أَشْقَاهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : لَا وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَارْدُدْهَا إِلَى مَأْمَنِهَا . ﴾ (١)

أقول :

الحديث فيه إشارة واضحة لما حدث في وقعة الجمل ؛ حيث كانت عائشة رضي الله عنها مع الزبير وطلحة رضي الله عنهما في مواجهة الإمام علي ﷺ ، وفيه وصية من النبي ﷺ للإمام علي بردها إلى مأمنها في المدينة ، وهذا ما حصل من علي ﷺ بعد المعركة ؛ حيث جاء إليها مسلّماً ، فقال : كيف أنت يا أم ؟ قالت بخير . قال يغفر الله لك ، ثم أرسلها مع أخيها محمد إلى البصرة ومن البصرة أرسلها إلى مكة ومعها أربعين امرأة ، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه وخرجت من الدار على الهودج ، جاء علي ﷺ ، فوقف على الباب ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا بني ! لا يعتب بعضنا على بعض ، وإنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه لمن الأخيار . فقال علي : صدقت ، والله ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ، وسار معها علي ﷺ مشياً أميالاً ، وسرح بنيه معها بقية اليوم .

وقد فعل الإمام علي ﷺ ذلك إكراماً لرسول الله ﷺ ، وأداء لحق الأمومة . (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسند القبائل برقم ٢٦٦٥٧ ، قال الحافظ ابن حجر : أخرجه أحمد والبزار بسند حسن [فتح الباري (٦٠/١٣)] ؛ وقال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٢٣٤/٧)]

(٢) انظر البرزنجي : الإشاعة (٣١)

٤- الآثار التفصيلية لبعض أحداث وقعة الجمل .

📖 - عن عَبْدُاللَّهِ بْنُ زِيَادٍ الْأَسَدِيُّ قَالَ : « لَمَّا سَارَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ إِلَى الْبَصْرَةِ بَعَثَ عَلِيٌّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَقَدِمَا عَلَيْنَا الْكُوفَةَ ، فَصَعِدَا الْمِنْبَرَ ، فَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَوْقَ الْمِنْبَرِ فِي أَعْلَاهُ ، وَقَامَ عَمَّارٌ أَسْفَلَ مِنَ الْحَسَنِ فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ ، فَسَمِعْتُ عَمَّارًا يَقُولُ : إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ وَ وَاللَّهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابْتَلَاكُمْ لِيَعْلَمَ إِيَّاهُ تُطِيعُونَ أَمْ هِيَ . » (١)

أقول :

هذا الأثر يبين أن ما وقع به الصحابة إنما هو موجة من موجات الفتنة التي أخبر عنها النبي ﷺ ، وأن ما وقع من اقتتال بينهم لا يرفع عنهم صفة الإيمان ، بل هو قتال مبني على اجتهاد مع سلامة النية من كلا الطرفين ؛ لذا لم يرد من كلا الطرفين أي اهام لدين الطرف الآخر ، فها هو عمار ﷺ وقد كان في صف الإمام علي ﷺ في مواجهة عائشة والزبير يقسم أن عائشة زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة ، ، وهي شهادة منه بحدود ما علمه من الهدي النبوي أن عائشة من أهل الجنة ، وهذا الأثر حجة على غلاة الشيعة الذين يجدون في هذه الفتنة غايتهم في الطعن بعائشة والنيل منها ، ويرون ذلك نصرة للإمام علي وتشيعاً له ، والإمام وأقرب الناس إليه كعمار ﷺ بريئون من مزاعمهم ، بل لو حصل ذلك بحضرهم لاستنفروا لقتال من وقع به ولاهموه في دينه .

📖 - عن أبي وَائِلٍ قال : « دَخَلَ أَبُو مُوسَى وَأَبُو مَسْعُودٍ عَلَى عَمَّارٍ حَيْثُ بَعَثَهُ عَلِيٌّ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ يَسْتَنْفِرُهُمْ ، فَقَالَا : مَا رَأَيْنَاكَ أَتَيْتَ أَمْرًا أَكْرَهَ عِنْدَنَا مِنْ إِسْرَاعِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مُنْذُ أَسْلَمْتَ ؟ فَقَالَ عَمَّارٌ : مَا رَأَيْتُ مِنْكُمَا مُنْذُ أَسْلَمْتُمَا أَمْرًا أَكْرَهَ عِنْدِي مِنْ إِبْطَائِكُمَا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ؟ وَكَسَاهُمَا حُلَّةً حُلَّةً ثُمَّ رَاحُوا إِلَى

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٠٠ [البخاري مع الفتح (٥٨/١٣)]

الْمَسْجِدِ . » (١)

أقول :

هذا الأثر يبين لنا أن ما وقع به الصحابة الكرام إنما هو اجتهاد منهم كل حسب فهمه ووسعه لدرء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين بعد مقتل عثمان ؛ لذا وجدنا إنكار أبي موسى وأبي مسعود رضي الله عنهما على عمار ﷺ إسراعه في الأمر وتحركه لاستنفار أهل الكوفة للقتال ، وإنكارهم هذا مبني على تحذيرات النبي ﷺ في حال الفتن من الإسراع فيها ، والنائم فيها أفضل من القاعد ، والقاعد أفضل من الساعي .

فهذا الهدي النبوي الذي فهمه أبو موسى وأبو مسعود رضي الله عنهما هو الذي جعلهم يستنكرون فعل عمار ﷺ وإسراعه في الأمر.

أما عمار ﷺ فقد أنكر عليهم إبطاءهم في الأمر ، وهذا مبني على اجتهاد وفهم سليم بأن ترك الإمام الحق للفتنة دون ملاحقتها وإخمادها يترتب عليه شر كبير يحيق بالأمة كلها ، ويعزز من فرقتها وشرذمتها ، وطاعة الإمام الحق في استنفاره لقتال الفئة الباغية واجبة ، فقتال الفئة الباغية مع الإمام الحق أمر أوجبه القرآن بقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) ؛ لذا إبطاء أفراد الأمة في القيام به مع الإمام الحق يعتبر تقصيراً في حق الطاعة له ، وإبطاءً في تنفيذ أمر رباني .

هذا توجيه لكلا الاجتهادين في المسألة ، وكلا الفهمين تحتمله النصوص سواء من اعتزل القتال و لم يشارك مع الإمام علي ﷺ ، أو شارك معه ، فإذا توفرت سلامة النية التي عُهدت من الصحابة الكرام عُلم أن أصحاب الاجتهادين مأجورون بإذن الله ؛ حيث كان كل اجتهاد مبني على غلبة الظن عند صاحبه بأنه بموقفه مقيماً لحدود الله ووقافاً عند أوامره .

📖 - عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ : قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ رَضِي اللَّه عَنْه : « يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا جَـاءَ بِكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٠٢ [البخاري مع الفتح (٥٨/١٣)]

(٢) الحجرات: من الآية٩

ضَيَّعْتُمُ الْخَلِيفَةَ حَتَّى قُتِلَ ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ : قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِي اللَّه عَنْه : إِنَّا قَرَأْنَاهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِي اللَّهم عَنْهمْ (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ . » (١)

📖 - عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي قال : « شهدت الزبير خرج يريد عليا فقال له علي أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول تقاتله وأنت له ظالم فقال لم أذكر ثم مضى الزبير منصرفا . »

وفي رواية أخرى عن أبي جروة المازني قال : « سمعت عليا والزبير وعلي يقول له أنشدتك بالله يا زبير أما سمعت رسول الله ﷺ يقول إنك تقاتلني وأنت ظالم لي قال : بلى ولكني نسيت » (٢)

📖 - عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي قال : « شهدت عليا والزبير لما رجع الزبير على دابته يشق الصفوف فعرض له ابنه عبد الله فقال :ما لك؟ فقال : ذكر لي علي حديثا سمعته من رسول الله ﷺ يقول لتقاتلنه وأنت ظالم له فلا أقاتله . قال : وللقتال جئت إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله هذا الأمر بك قال : قد حلفت أن لا أقاتل . قال : فأعتق غلامك جرجس وقف حتى تصلح بين الناس . قال : فأعتق غلامه جرجس ووقف فاختلف أمر الناس فذهب على فرسه » (٣)

أقول :

هذا الآثار واضحة الدلالة في أن الزبير رضي الله عنه كان مجتهداً في المسألة ، ووقافاً عند حدود الله سبحانه وتعالى ، فعندما سمع ما قاله علي رضي الله عنه حين ذكره بما قاله الرسول

---

(١) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين برقم ١٤١٨ [المسند (٢٠٨/١)] قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند من أحاديث الفتن (١٢٩)]

(٢) أخرج الحاكم الروايتين في المناقب برقم ٥٥٧٤ و ٥٥٧٦، وقال عن الأولى : هذا حديث صحيح [المستدرك (٤١٣/٣)]

(٣) أخرجه الحاكم في المناقب برقم ٥٥٧٥ [المستدرك (٤١٣/٣)]

الكريم ، ترك القتال وعزم على عدم البقاء في أرض المعركة ، وخرج منها إلى أن تبعه ابن جرموز فقتله .

كذلك الأثر صريح في سلامة نية الزبير رضي الله عنه ، فقد اجتهد لإصابة الحق في ظنه ، وكان بقاؤه بنية الإصلاح لا القتال ، ودلائل السياق أن هذه نيته حتى قبل أن يسمع كلام علي رضي الله عنه ، وهذا واضح من خطاب ابنه له ، وواضح أيضاً في خطابه لعائشة كما سبق ذكره .

- عن أبي جعفر قال « **جلس علي وأصحابه يوم الجمل يبكون على طلحة والزبير** » (١)

- عن زر بن حبيش رضي الله عنه قال : « **كنت جالسا عند علي فأتي برأس الزبير ومعه قاتله فقال علي للآذن بشر قاتل بن صفية بالنار سمعت رسول الله ﷺ يقول : لكل نبي حواري وإن حواري الزبير** » (٢)

أقول :

هذان الأثران يبرزان لنا طبيعة نفسية الصحابة ومدى سلامة قلوبهم ، فهم بالرغم من تلك الفتنة التي أنشبت أظفارها بهم ، وكانوا خلالها ضحية مهيجي الفتنة من الظَلَمة ، إلا أن قلوبهم تجاه بعضهم البعض لم تتغير ، وبالرغم من أن وقعة الجمل تعتبر صفحة سوداء ونتاج فتنة غبراء ، إلا أنها أوضحت لنا أيضاً مدى رسوخ الإيمان وسلامة قلوب الصحابة رضي الله عنهم ورحمهم الله جميعاً .

وبالرغم من هذا القتل والقتال في سياق فتنة انساق لها العظماء من حيث لا يشعرون ؛ إلا أننا نرى صورة لم نجدها على مر البشرية يبكي فيها قادة الجيش المنتصر على قادة الجيش المهزوم بكاء الأم لفقدها فلذة كبدها ... **إنهم الصحابة** .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٧٧٧٤ [المصنف (٥٣٦/٧)]

(٢) أخرجه الحاكم هذا النص بثلاث روايات برقم ٥٥٧٨-٥٥٨٠ ، وقال بعدها : هذه الأحاديث صحيحة عن أمير المؤمنين علي وإن لم يخرجاه بهذه الأسانيد [المستدرك (٤١٤/٣)] ؛ قال المقدسي في المختارة : إسناده حسن [الأحاديث المختارة (٧٩/٢)]

🕮 - عن ثور بن مجزأة قال : « مررت بطلحة بن عبيد الله يوم الجمل وهو صريع في آخر رمق فوقفت عليه فرفع رأسه ، فقال : إني لأرى وجه رجل كأنه القمر ، ممن أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين علي . فقال: أبسط يدك أبايعك فبسطت يدي وبايعني ففاضت نفسه فأتيت عليا فأخبرته بقول طلحة . فقال : الله أكبر الله أكبر ! صدق رسول الله ﷺ أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتي في عنقه » (١)

أقول :

هذا الأثر يبين أن معالم الفتنة أو ما وقع به الصحابة قد أخبر به النبي ﷺ صحابته الكرام ، لكنهم لم ينتبهوا لذلك إلا وهم في غمراتها .

والأثر فيه شهادة من علي رضي الله عنه لطلحة بالجنة ، وهو بذلك يشهد بشهادة رسول الله له ، كذلك في الأثر بيان لتلك النفسية الإيمانية الرائعة التي كان يتمتع بها طلحة رضي الله عنه وهو في الرمق الأخير من حياته ، والتي ادخرها لبيعة الإمام علي رضي الله عنه .

المطلب الثالث :

الإشارات النبوية الدالة على وقعة صفين

﴿ محرم / ٣٧ هـ ﴾

أولاً : تعريف بوقعة صفين :

معركة صفين هي الوقعة التي حدثت بين معاوية رضي الله عنه عنه من جهة وبين علي رضي الله عنه من الجهة الأخرى ، وهذه المعركة أيضاً كانت إحدى موجات الفتنة التي تموج موج البحر كما أخبر النبي ﷺ ، والتي تحركت موجاتها بمقتل عثمان رضي الله عنه ، ودوافع المعركة وأسبابها هي نفس دوافع معركة الجمل ؛ فمعاوية يعتبر ولي دم عثمان رضي الله عنه وابن عمه ؛ لذا لم يقبل الدخول تحت بيعة الإمام علي رضي الله عنه إلا بعد أخذ القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه ، وكان الإمام علي رضي الله عنه يرى أن يدخل أولاً في البيعة كما بايع الناس ، ثم يحتكم أو

(١) أخرجه الحاكم في المناقب برقم ٥٦٠١ [المستدرك (٤٢١/٣)]

يطالب بدم وليه ، وزاد الأمر حدة بين الرجلين أن علياً ﷺ قام بعزله عن الشام ، وعزل معه عمرو بن العاص ﷺ في مصر ، فاجتمعت هذه الأسباب في تهييج المعركة بينهما والتي وقعت بعد وقعة الجمل .

ثانياً : ملخص مجريات المعركة .

- عندما فرغ الإمام علي ﷺ من الجمل رجع إلى الكوفة ، وأرسل جرير بن عبد الله البجلي ﷺ إلى معاوية ليدخل في الطاعة كما دخل الناس ، فرفض معاوية ذلك متذرعاً بأنه ولي دم عثمان ﷺ وأنه يطالب بالقصاص من قتلته قبل الدخول في الطاعة ، وأرسل إلى علي ﷺ يطالب بدم عثمان ﷺ .
- رفض الإمام علي ﷺ طلب معاوية قائلاً يدخل في البيعة ثم يحاكمهم إلي ، وقام علي ﷺ بتجهيز جيش لقتال أهل الشام لبغيهم وخروجهم على الإمام ، فجهز معاوية جيشاً من الشام ، والتقى الجيشان في صفين وهناك حصلت مقتلة عظيمة بلغ عدد قتلاها ثلاثون ألفاً ، وشعر معاوية ﷺ بعجزه أمام جيش علي ﷺ ، فأشار عليه عمرو بن العاص بأن يرفع المصاحف على السيوف مطالباً بتحكيم كتاب الله بينهم ، فقبل الإمام علي ﷺ بالتحكيم حقناً لدماء المسلمين ، و اعترض القراء من جيش علي ﷺ على ذلك ، ورأوا أن الحكم في هذا المقام للسيف ، وهؤلاء القراء هم الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ﷺ عند قبوله التحكيم .
- حصل الاتفاق بين الفريقين على أن يكون الحكم من جيش الإمام علي ﷺ أبا موسى الأشعري ﷺ ، وعن معاوية ﷺ عمرو بن العاص ﷺ ، فاتفق الحكمان على أن يخلع كل منهما صاحبه ، فقام أبو موسى الأشعري ﷺ بخلع الإمام علي ﷺ ، أما عمرو ﷺ فقال : إن أبا موسى خلع علياً ، وأنا نصبت معاوية ، فاختلف الناس ، وأخذ أبو موسى ﷺ يسب عمراً ﷺ، فرجع علي إلى الكوفة، ومعاوية إلى الشام .
- تجهز الإمام علي ﷺ مرة أخرى لقتال الشام ، فشغله أمر الخوارج إلى أن انتهى من القضاء على شوكتهم ، فتجهز مرة أخرى سنة تسع وثلاثين ولم يتهيأ له الأمر

لافتراق آراء أهل العراق ، ثم وقع الجد منه سنة أربعين وجهز جيشاً قوامه أربعين ألفاً ، إلا أنه قتل ﷺ قبل المسير إلى أهل الشام ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . (١)

ثالثاً : الإشارات النبوية الدالة على وقعة صفين :

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ فَيَكُونَ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ . ﴾ (٢)

شرح :

الحديث فيه إشارة إلى ما وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من قتال عقب فتنة مقتل عثمان ﷺ ، وقول النبي ﷺ دعواهما واحدة أي أن كلا الطائفتين من أهل دعوة الإسلام ، أو أن كلا الفئتين كان يدعي أنه المحق في قتاله ، فقد كان علي ﷺ الإمام والأفضل يومئذ ، وقد بايعه أهل الحل والعقد بعد عثمان ومخالفه مخطئ معذور في الاجتهاد .

– عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « كُنَّا نَنْقُلُ لَبِنَ الْمَسْجِدِ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وَكَانَ عَمَّارٌ يَنْقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ ، فَمَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَمَسَحَ عَنْ رَأْسِهِ الْغُبَارَ . وَقَالَ : ﴿ وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ﴾ (٣)

شرح :

المعلوم أن عماراً قُتل في صفين وكان مع فئة علي ﷺ ، فتبين من ذلك أن الفئة المقابلة لعلي ﷺ ، وهي جيش معاوية هي الفئة الباغية .

فوائد :

١ – الحديث دليل من دلائل النبوة ؛ حيث وقع ما أخبر به النبي ﷺ ، والملاحظ أن النبي ﷺ قال ذلك عند بناء المسجد أي في بداية العهد المدني ، وقد سلم عمار من

---

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (٦٧/١٣) ؛ البرزنجي : الإشاعة (٣٤-٣٥) ؛ عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول (٣١٣)

(٢)متفق عليه [انظر اللؤلؤ والمرجان (٤٤٧/٢)]

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ، حديث رقم ٤٤٧ [انظر البخاري مع الفتح (٦٤٤/١)]

القتل في كل الغزوات والمعارك التي شارك بها في عهد النبي ﷺ و الخلفاء الراشدين ، إلى أن وقعت الفتنة وكان مقتله في صفين ، والمعلوم أن استخدام كلمة الفئة الباغية فيه إشارة واضحة إلى أن الاقتتال بين طائفتين مسلمتين ؛ لأن مصطلح البغي لا يستخدم إلا في حال خروج طائفة من المؤمنين على الإمام .

٢- في الحديث إشارة إلى مدى اهتمام النبي ﷺ بأحاديث الفتن وعلامات الساعة ؛ حيث إنه كان يغتنم أي فرصة سانحة للتنبيه لها كما يلاحظ هنا ؛ فقد نبه لأمر مستقبلي يخص مرحلة حساسة تمر بها الأمة وذلك عند بنائه المسجد ، وفي رواية أخرى للحديث أنه أعاد نفس الكلام لعمار عند حفر الخندق .

٣- الحديث فيه إشارة إلى فضيلة عمار وعلي رضي الله عنهما ، وفيه رد على من أدعى أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه . (١)

٤- في الحديث إشارة إلى مدى رحمة النبي ﷺ بأمته ، فهو في اللحظة التي يباشر بها مسح الغبار بيديه الشريفتين عن رأس عمار لم ينس أن ينبه الأمة إلى موطن الحق فيما يشتبه عليها من فتن ، وذلك رحمة بها .

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ تَكُونُ فِي أُمَّتِي فِرْقَتَانِ فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِقَةٌ يَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ (٢)

وفي رواية ﴿ تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ فَيَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ ﴾ (٣)

شرح :

- الحديث يشير إلى قتال الخوارج الذين مرقوا من الدين حين الفرقة التي وقعت بين المسلمين في زمان معاوية وعلي رضي الله عنهما ، وقد بين الحديث أن الذي يتولى قتالهم أولى الطائفتين بالحق ، وبالفعل قام الإمام علي ﷺ بقتالهم ، وهذا دليل صريح أن

---

(١) انظر فتح الباري (١/٦٤٦)

(٢)أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٠٦٥ (١٥١) [انظر مسلم بشرح النووي (٤/١٨٠)]

(٣)أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٠٦٥ (١٥٢) [انظر مسلم بشرح النووي (٤/١٨٠)]

طائفة علي رضي الله عنه كانت مصيبة ، أما أصحاب معاوية فقد كانوا بغاة متأولين ، وكذلك فيه التصريح بأن الطائفتين لم يخرجوا بقتالهم من دائرة الإيمان إلى الكفر ، أو إلى الفسق ، فقد كان هناك اجتهاد من الطرفين أحدهما أصاب الحق والآخر اجتهد فأخطأ في اجتهاده ، والمسالة بينهم كانت في إطار الحق إلا أن أحد الفريقين كان أرجح في فهمه ، و أولى في إصابة الحق ، فهي من باب الراجح والأرجح .

- نلحظ من الحديث و الأحاديث التي سبقته أن توصيف النبي ﷺ لما حصل في الجمل وصفين ليس فيه اتهام مقذع لطرفي النزاع ، بل كان التأكيد على العبارات أن هذا الاقتتال إنما وقع بناءً على اجتهاد ضمن دائرة الإيمان أو الإسلام ، مع بيان المصيب في طرفي النزاع ، والمخطئ في اجتهاده .

وهذا بخلاف الأحاديث الدالة على فرقة الخوارج فنلحظ أن هناك اتهاما صريحا لهم في دينهم ووصفهم ، وبواعث القتال عندهم ، وغلوهم ، وضرورة محاربتهم واستئصالهم ، ومدى خطورة بقائهم على وحدة المسلمين وبقاء دعوتهم مما يشير إلى أن هناك اختلافاً جوهرياً بين الاقتتال الذي حصل بين الصحابة ، وبين قتال الخوارج كما سيتضح .

رابعاً : الآثار الواردة بخصوص وقعة صفين :

-عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْعَنَزِيِّ قَالَ « بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي رَأْسِ عَمَّارٍ يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُهُ .فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : لِيَطِبْ بِهِ أَحَدُكُمَا نَفْسًا لِصَاحِبِهِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ . قَالَ : مُعَاوِيَةُ فَمَا بَالُكَ مَعَنَا ؟ قَالَ إِنَّ أَبِي شَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَطِعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أُقَاتِلُ » (١)

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٦٩٤٣ [المسند (٢/٢٧٧)] قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٤)]

📖 - عَنْ أَبِي غَادِيَةَ قَالَ : « قُتِلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَأُخْبِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ فِي النَّارِ . » فَقِيلَ لِعَمْرٍو فَإِنَّكَ هُوَ ذَا تُقَاتِلُهُ قَالَ : إِنَّمَا قَالَ قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ . » (١)

أقول :

هذان الأثران يبرزان نفسية الصحابة رضوان الله عليهم ، فعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بالرغم أنه كان في جيش معاوية رضي الله عنه طاعة لأمر الرسول ﷺ بلزومه طاعة والده ، إلا أن ذلك لم يغير نفسيته تجاه الصحابي الجليل عمار رضي الله عنه فقال كلمة الحق مبيناً أن معاوية رضي الله عنه كان باغياً بقتاله لعلي رضي الله عنه ، وتحمل كلماته معنى الحسرة على فقدان هذا الصحابي الجليل .

كذلك في الأثر الأول فيه إشارة إلى جهل الكثيرين من غير الصحابة ممن شاركوا في المعركة بتعاليم الإسلام ، فالذين اختصما في مقتل عمار رضي الله عنه يظنان أنها مفخرة يحق الاختصام عليها عند القائد ، و غفلا أنهما إنما اختصما في قتل عظيم من عظماء الإسلام ، مما يدل على أن الفتنة قد أخذت بقلوب بعض من شاركوا بها .

وكذلك أبوه عمرو رضي الله عنه بالرغم أنه كان رأساً في جيش معاوية رضي الله عنه إلا أنه تألم لمقتل عمار رضي الله عنه ، وصرح بأن قاتله وسالبه من أهل النار كما سمع من رسول الله ﷺ مما يشير إلى أن الصحابة رضي الله عنهم لم تتغير قلوبهم مع المعركة ، وبقيت عاطفة الإيمان ، وما يترتب عليها من محبة لأهل الله مهيمنة على قلوبهم ، وكذلك لم يمنعهم القتال و أجواء الفتنة من قول كلمة الحق ، ولو كانت تصيبهم .

📖 - عن يزيد بن الأصم قال : « سئل علي رضي الله عنه عن قتلى يوم صفين فقال قتلانا وقتلاهم في الجنة ويصير الأمر إلي وإلى معاوية » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الشاميين برقم ١٧٧٩٢ [المسند (٢٤٣/٤)] قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٤)]

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٧٨٨٠ [المصنف (٥٠٢/٧)] وذكره البرزنجي في الإشاعة ، وقال محققه : رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح [الإشاعة (٣٥) حاشية رقم (١)]

أقول :

ما ذكره الإمام علي ﷺ هو ما نظنه في قتلى صفين ، ومثل هذا القول لا يصدر عن الإمام علي ﷺ إلا عن وحي أو فهم له ، وفي هذا الكلام إقفال للباب لمن يخوض دون وعي فيما حصل من اقتتال بين الصحابة الكرام .

المطلب الرابع

اعتزال بعض الصحابة القتال الحاصل في صفين والجمل

📖 – عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : « لَقَدْ نَفَعَنِي اللَّهُ بِكَلِمَةٍ أَيَّامَ الْجَمَلِ لَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ : ﴿ لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً . ﴾ (١)

أقول :

هذا الأثر يبين أهمية العلم وضرورته زمن الفتن ، والملاحظ أن هناك اجتهاداً من هذا الصحابي الجليل ربط فيه بين الحديث ، وبين ما رآه من أن عائشة رضي الله عنها تقود الجيش في معركة الجمل ، أو هي رأس فيه .

📖 - عن ابن سيرين قال : « قيل لسعد بن أبي وقاص ألا تقاتل فإنك من أهل الشورى وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك قال لا أقاتل حتى يأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف الكافر من المؤمن قد جاهدت وأنا أعرف الجهاد ولا أنجع بنفسي إن كان رجلا خير مني . » (٢)

أقول :

هذا الموقف من سعد ﷺ يشعر بأنه يرى أن ما حصل من قتال في الجمل وصفين لا يعتبره من الجهاد لكلا الفئتين ، وأن الأسلم للمسلم تجنبه مخافة الوقوع في دم

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٩٩ [البخاري مع الفتح (٥٨/١٣)]

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٨٣٧٠ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/ ٤٩١)]

مسلم .

🕮 – عن الحسين بن خارجة قال : « لما كانت الفتنة الأولى أشكلت علي فقلت : اللهم أرني أمرا من أمر الحق أتمسك به . قال : فأريت الدنيا والآخرة وبينهما حائط غير طويل ، وإذا أنا بجائز فقلت : لو تشبثت بهذا الجائز لعلي أهبط إلى قتلى أشجع ليخبروني . قال : فهبطت بأرض ذات شجر ، وإذا أنا بنفر جلوس . فقلت : أنتم الشهداء قالوا : لا نحن الملائكة قلت : فأين الشهداء قالوا : تقدم إلى الدرجات العلى إلى محمد ﷺ ، فتقدمت فإذا أنا بدرجة الله أعلم ما هي من السعة والحسن ، فإذا أنا بمحمد ﷺ وإبراهيم ﷺ وهو يقول لإبراهيم ﷺ : استغفر لأمتي . فقال له إبراهيم ﷺ : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك أراقوا دماءهم وقتلوا إمامهم ألا فعلوا كم فعل خليلي سعد . قلت : أراني قد أريت .أذهب إلى سعد ، فأنظر مع من هو ، فأكون معه ، فأتيته فقصصت عليه الرؤيا ، فما أكثر بها فرحا وقال : قد شقي من لم يكن له إبراهيم خليلا قلت : في أي الطائفتين أنت ؟ قال لست مع واحد منهما قلت فكيف تأمرني ؟ قال : ألك ماشية ؟ قلت لا قال : فاشتر ماشية واعتزل فيها حتى تنجلي . » (١)

أقول :

– هذا الأثر المتضمن لرؤية فيه درس هام لكل مسلم ، وهو إن أشكل عليه شيء يخص دين الله خاصة في زمن الفتن ، فليضرع إلى الله ليلهمه الصواب فيما أشكل عليه .

– هذه الرؤية تعزز موقف سعد ﷺ من هذا القتال، وأن مثل هذا الموقف هو الأسلم .

🕮 – عن حَرْمَلَةَ مَوْلَى أُسَامَةَ قَالَ : « أَرْسَلَنِي أُسَامَةُ إِلَى عَلِيٍّ وَقَالَ إِنَّهُ سَيَسْأَلُكَ الْآنَ فَيَقُولُ : مَا خَلَّفَ صَاحِبَكَ فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ: لَوْ كُنْتَ فِي شِدْقِ الْأَسَدِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِيهِ وَلَكِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ أَرَهُ .. » (٢)

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن ، وقال صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤٩٩/٤)]

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١١٠ [البخاري مع الفتح (٦٦/١٣)]

أقول :

نلحظ من أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه تجنب القتال في الفتنة ، بالرغم من حبه للإمام علي ﷺ ، ومعنى قوله : هذا أمر لم أره ؛ أي أنه يرى حرمة دم المسلم وعدم جواز قتاله في جميع الأحوال ، وموقف أسامة ﷺ له علاقة بما حصل منه سابقاً عندما قتل أحد المشركين بعدما قال كلمة التوحيد تعوذاً ، فلامه النبي ﷺ على فعله فآلى على نفسه ألا يقاتل مسلماً .

المبحث الرابع
الإشارات النبوية عن طائفة الخوارج الحرورية
المطلب الأول : تعريف بالخوارج

هم الفرقة التي خرجت على الإمام علي رضي الله عنه عندما رضي بالتحكيم مع معاوية رضي الله عنه ، وكان عددهم ثمانية آلاف وأكثرهم من القراء ، وقد نقموا على الإمام علي رضي الله عنه لرضاه بالتحكيم واعتبروه بذلك قد نزع قميصاً ألبسه الله إياه وخالف حكم الله تعالى ، فجادلهم الإمام علي رضي الله عنه فرجع بعضهم ، ثم أرسل إليهم من يجادلهم بالحسنى وممن أرسله إليهم ابن عباس رضي الله عنهما ، فرجع منهم ألفان ، أما الآخرون فبقوا على ضلالتهم و سارعوا بتكفير الكثير من الصحابة و سفكوا الدماء واستحلوا أهل الذمة ، وقطعوا السبيل وتعاقدوا على قتال الإمام علي والإمام معاوية رضي الله عنهما ، فعزم الإمام علي رضي الله عنه على قتالهم ، وانتصر عليهم في النهروان . (✿)

ووجه تسميتهم بالحرورية لأنهم نزلوا بقرية تسمى حروراء ، وهي قرية قريبة من الكوفة ، أما عن وجه تسميتهم بالخوارج ففيه اختلاف : قيل لأنهم خرجوا على جماعة المسلمين أو عن طريقها ، وقيل لأن النبي ﷺ وصفهم بالخروج على المسلمين كما سيتضح من الأحاديث .

والخوارج فرق متعددة يصل عددها إلى عشرين فرقة ، وأكثر فرق الخوارج قد اندثرت إلا فرقة الأباضية ، وهي موجودة في عمان وزنجبار وفي بلاد طرابلس الغرب .

(✿) من معتقدات الخوارج : التسوية بين الصغائر والكبائر ، و عدم إتباع السنة المخالفة في ظنهم للقرآن كالرجم للزاني المحصن ، وتكفير الخليفتين الراشدين عثمان وعلي رضي الله عنهما ، واعتقادهم بأن العبد يصبح كافراً إذا ارتكب ذنباً ، واعتقاد بعض فرقهم أن من لا يعرف أسماء الله وتفاصيل الشريعة فهو كافر ، وتعتقد بعض فرقهم جواز نكاح البنات ، و كذلك تعتقد بعض فرقهم أن سورة يوسف ليست من القرآن لأنها في شرح العشق والعاشق والمعشوق ، ويجوزون أن يكون الرسول ظالماً إلى غير ذلك من المعتقدات التي تدل على مدى الانحراف الخطير التي وقعت به هذه الفرقة . [انظر د . القيسي : معالم الهدى إلى فهم الإسلام (٢٥ وما بعدها)]

(١) انظر صلاح أحمد ، زوابع في وجه السنة قديماً وحديثاً (٥١) ؛ حوى : الأساس في السنة ، قسم العقائد (١/٤١٥)

وبالرغم من تعدد فرق الخوارج ؛ إلا أنه يجمعها على افتراق مذاهبها القول بتكفير الإمامين علي وعثمان رضي الله عنهما ، والحكمين وأصحاب الجمل ، والخروج على السلطان الجائر . (١)

المطلب الثاني : الأحاديث والآثار في وصف طائفة الخوارج

- عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : اعْدِلْ فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ : دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ . ﴾ (٢)

شرح غريب الحديث :

« **تراقيهم** » جمع ترقوة وهي الحنجرة . « **الرمية** » أي الصيد المرمي . « **نصله** » أي حديدة السهم . « **نضيه** » عود السهم قبل أن ينصل . « **قذذه** » جمع قذة ، وهي

---

(١) انظر صلاح أحمد ، زوابع في وجه السنة قديماً وحديثاً (٥١) ؛ حوى : الأساس في السنة ، قسم العقائد (١/ ٤١٥)

(٢)أخرجه البخاري في المناقب ، حديث رقم ٣٦١٠[انظر البخاري مع الفتح (٦/٧١٤)] ؛ ومسلم في الزكاة برقم ١٠٦٤ (١٤٨) [انظر مسلم بشرح النووي (٤/١٧٩)]

ريشة السهم . « **آيتهم** » أي علامتهم « **بضعة** » أي قطعة اللحم . « **تدردر** » أي تضطرب ، والدردرة صوت إذا اندفع سمع له اختلاط .

- عن عَليٍّ ﷺ قال : « إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴾ (١)

شرح غريب الحديث :

« **حدثاء الأسنان** » أي صغار السن .« **سفهاء الأحلام** » أي ضعاف العقول والبصيرة

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ . ﴾ (٢)

- عن زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ الْجُهَنِيُّ « أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ ﷺ الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ﴾ ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لَاتَّكَلُوا

---

(١)أخرجه البخاري في المناقب ، حديث رقم ٣٦١١[انظر البخاري مع الفتح (٧١٥/٦)] ؛ ومسلم في الزكاة برقم ١٠٦٦ (١٥٤) [انظر مسلم بشرح النووي (١٨٥/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٠٦٧ [انظر مسلم بشرح النووي (٤/ ١٩٠)]

عَنِ الْعَمَلِ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ ، فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ : فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا حَتَّى قَالَ : مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ. فَقَالَ لَهُمْ : أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ قَالَ : وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ . فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . قَالَ : أَخِّرُوهُمْ ! فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ ، فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللَّهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ . ﴾ (١)

- ٣٣٤٤ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ : ﴿ بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ : الْأَقْرَعِ ابْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ ثُمَّ الْمُجَاشِعِيِّ ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ ، وَزَيْدٍ الطَّائِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلَابٍ ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ قَالُوا : يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا . قَالَ : إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ . فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ ! فَقَالَ : مَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَلَا تَأْمَنُونِي ، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَمَنَعَهُ ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ : إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٠٦٦ (١٥٦)[انظر مسلم بشرح النووي (١٨٧/٤)]

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ، حديث رقم ٣٣٤٤ [انظر البخاري مع الفتح (٣٤٤/٦)

شرح غريب الحديث :

« **صناديد** » جمع صنديد وهو كبير القوم .

« **غائر العينين** » أي أن عينيه داخلتان في محاجرهما لاصقين بقعر الحدقة ، وعكسها جحوظ العينين . « **مشرف الوجنتين** » أي أن عظمتي الخدين بارزتان .

« **محلوق** » يراد بها أنه حليق شعر الرأس ، وهذه سمة من سمات الخوارج ؛ حيث كانت طريقتهم حلق جميع رءوسهم ، بينما كان السلف يوفرون شعورهم ولا يحلقونها .

« **ضئضئي** » أي من نسل أ وعقب .

شرح الأحاديث السابقة :

الأحاديث السابقة كما يتضح من سياقها ، ومن فهم الصحابة الكرام لها تحكي فتنة الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ﷺ بعد التحكيم ، فضلوا بخروجهم واستحلالهم الدماء وقطعهم السبيل وتكفير عدد من الصحابة ، والملاحظ من صفاتهم كما يتضح من الأحاديث ما يلي :

١- يشتهرون بكثرة العبادة ؛ بحيث يحقر الصحابة وهم أفضل الأمة صلاتهم مع صلاتهم .

٢- يقرءون القرآن قراءة سطحية دون تدبر لمعاني الآيات ؛ لذا وصف النبي ﷺ قراءتهم بأنها لا تتجاوز حلاقيمهم ؛ أي لا تصل إلى القلوب لتتدبرها ، فلا حظ لهم من القرآن سوى تلاوة الفم وهواء الحنجرة .

٣- صغار السن فيهم طيش وتسرع في الأحكام ناتج عن خفة في العقل وسفاهة .

٤- يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؛ أي أنهم حديثو عهد بالإسلام و يخرجون منه بسرعة دون أن يستفيدوا من تعاليمه ، كما أنه لا يتعلق بالسهم شيئاً من لحم الصيد في حالة دخوله وخروجه السريع منه .

٥- أصول فتنتهم رآها النبي ﷺ في شخص رجل من تميم اسمه ذو الخويصرة أساء الأدب مع النبي ﷺ و أسرع في اتهامه بعدم العدل ، والمعلوم أن مثل هذا الاتهام

هو طعن في نبوة محمد ﷺ . فغضب لذلك عمر ﷺ ، وفي رواية على الشك خالد ﷺ ، وطلب الإذن من النبي ﷺ بقتله فمنعه النبي ﷺ ، ثم شرع بالحديث عن أوصاف الخوارج مبيناً أهم من نسله أو من أصحابه وعلى شاكلته في افتعال الفتن والتسرع بالأحكام ، والطيش في الاتهام و إساءة الظن فسلفهم قد اتهم النبي ﷺ بعدم العدل، وهم بدورهم قد كفرو أفضل لصحابة، وأعلاهم مترلة عند الله .

٦- علامتهم التحليق ؛ أي حلق الشعر ، ولعل هذه الصفة كانت غالبة على أكثرهم بحيث كانوا يميزون بها عن غيرهم ، و يرجح أن يكون حلقهم للرأس بهذا الشكل تعبداً ، وهذا الوصف للتعريف بهم ، وليس في معرض الذم لحلق الشعر لأنه من السنن .

٧- تتقلب قلوبهم بسرعة فما أن يدخلوا في دين الله سبحانه وتعالى ، إلا وتجدهم بسرعة يخرجون منه لأقل شبهة ، ويكون خروجهم من الدين تحت شعاره ، ولأجله بزعمهم ، لذا لا تجد في هذه الفئة إلا الضغينة والحقد واتهام أهل الدين من الصحابة والتحريض على قتلهم واستباحة دمائهم ؛ وهذا يفسر لنا السبب في وصف النبي لهم بأنهم شر الخلق في زمانهم ، وشر الخليقة على مدى الدهر .

٨- أهم ما تتميز به فرقتهم وجود رجل فيهم حدد النبي ﷺ أوصافه بدقة بأنه أسود له عضد بدون ذراع وآخر العضد قطعة لحم مضطربة تشبه ثدي المرأة ، وفي رأسها ما يشبه حلمة الثدي فيها عدة شعرات . وهذا الرجل بهذه الأوصاف التي يندر اختلاطها مع غيرها هو علامة هذه الجماعة ؛ لذا حرص الإمام علي ﷺ على إيجاده بين القتلى ليطمئن قلبه ، وليُطمئن من معه من المقاتلين بأن قتالهم لهذه الفرقة هو امتثال لأمر الرسول الكريم ﷺ ، وليس استباحة لدماء المسلمين .

وبالفعل وجد الرجل بين القتلى بالوصف الذي نعته به رسول الله ﷺ، وكان وجوده سبباً لفرحة الإمام علي ﷺ ، و إشارة قوية تضاف إلى غيرها من الإشارات التي تعزز عنده ضرورة مقاتلة الخوارج ؛ وذلك لعلمه ـ كما يتضح

من الأحاديث - بأنه بقتالهم يحقق رغبة نبوية في ذلك ، حيث بين النبي ﷺ أن في قتلهم أجراً لمن قتلهم ، وإن عايشهم ليقتلنهم قتل عاد؛أي لا يبقي فيهم ولا يذر .

المطلب الثالث : مدى المفارقة بين وقعتي صفين والجمل وقتال للخوارج

لاحظنا من خلال الهدي النبوي أن هناك مفارقة واضحة بين طبيعة الوصف للمقتتلين في الجمل وصفين ، وبين قتال الإمام علي ﷺ لطائفة الخوارج ، فالاقتتال الواقع بين الصحابة كان ضمن دائرة الإيمان والإسلام لم يخرج أحدهم منه بسبب هذا الاقتتال ، وغاية ما ورد في ذلك أن هناك اجتهادين أو أكثر في فهم الحق أصاب أحدهم وأخطأ الآخرون ، وكان المصيب في وقعتي الجمل وصفين الإمام علي ﷺ أما عائشة وطلحة والزبير ومعاوية فقد كانوا مخطئين في اجتهادهم ، ويصدق في حقهم صفة الطائفة المؤمنة الباغية .

لذا جاء توصيف النبي ﷺ للفرقة الباغية في صفين والجمل بأنهم أدنى الفرقتين في إصابة الحق ، وأن كلا الفرق المتقاتلة أصحاب دعوة واحدة ، وهي دعوة الإيمان ..إلخ

أما القتال الحاصل بين علي ﷺ والخوارج فقد اختلف الهدي النبوي في توصيفه لاختلاف بواعثه وطبيعة الخوارج القائمين به ؛ حيث جاء في الوصف لهم بأنهم شر الخلق والخليقة ، وأنهم سفهاء الأحلام ، وأنهم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، ومن القرآن إلا التغني به إلى غير ذلك مما سبق ذكره .

وقد يطرح هنا تساؤل : **لماذا اختلف الهدي النبوي وفرق بين قتال صفين والجمل ، وبين قتال الخوارج ؟**

وهذا يجاب عنه بأن عقلية ونفسية البغاة المقاتلين للإمام علي ﷺ في الجمل وصفين تختلف اختلافاً جوهرياً عن عقلية ونفسية الخوارج المقاتلين للإمام علي ﷺ .

ففي صفين والجمل كان القتال يقوده صحابة يعرف كل منهم فضل الآخر ، ويحرص كل منهم على دين الإسلام دون غلو أو تطرف في الفكر أو اتهام لدين الطرف

الآخر ، بل كان اقتتالهم لأجل الإسلام وإحقاق الحق وإقرار العدل بعضهم أصاب في اجتهاده والبعض أخطأ ؛ لذا كان القتال ضمن دائرة الإسلام وذوداً عن حوضه .

أما الخوارج فهي نفسية جديدة جهولة ومغالية في الدين كفرت أكثر الصحابة واعتقدت معتقدات هدامة استباحت بسببها دماء الصحابة ، وحملت في فكرها معول هدم لا يمكن أن يستقيم معه دين بعد ذلك ، فأكثر الصحابة في معتقدهم كفرة مستباحي الدماء ، ومن يرتكب ذنباً منهم يصبح كافراً ، والرسول الكريم يجوز أن يكون ظالماً .

فمثل هذه العقلية لا يمكن أن يبقى معها دين على وجه الأرض ، بل هي بهذه العقلية المنحرفة **ستدخل في متوالية غير متناهية من التكفير الذي لا يستقيم معه دين** .

لذا كان القضاء على هذه العقلية المنحرفة الغالية في دين الله من أعظم الواجبات ، وإلا هدم الإسلام من الداخل على يد أهله ، من هنا نال الإمام علي رضي الله عنه حظ القضاء على هذا الانحراف الخطير الذي كاد أن يعصف بجسد الأمة الإسلامية .

ومن هنا نستطيع أن نفهم طبيعة اختلاف التوصيف النبوي بين القتال الحاصل في صفين و الجمل المبني على الاجتهاد دون غلو في فهم تعاليم الإسلام ، وبين قتال الخوارج الذين غلو في أفكارهم ومعتقداتهم لدرجة أصبحوا معولاً حاداً هداماً لتعاليم الإسلام الحقيقة ، وتمزيقاً حقيقياً للأمة في فهمها وفكرها .

ولكي يتضح الأمر أكثر أسوق هذا المثال العجيب الذي يوضح لنا طبيعة نفسية الخوارج ، والمدى الذي وصلوا إليه : « يروى أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحسوا الخوارج ، فقال واصل لأهل الرفقة : إن هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودعوني وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب . فقالوا : شأنك . فخرج إليهم ، فقالوا ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ، ويعرفوا حدوده . فقالوا قد أجرناك ، فقال : علمونا . فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول قد قبلت أنا ومن معي . قالوا : فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا ، قال : ليس ذلك لكم ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى

يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه ﴾ (١) فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن . » (٢)

فهذا الأثر العجيب يوضح لنا طبيعة عقلية الخوارج ؛ حيث إن المسلمين لا يستطيعون النجاة منهم إلا بالحيلة ، ومن هنا قام واصل بن عطاء بادعاء أنه من المشركين الذين يستجيرون بهم ، ويلحظ من النص السابق مدى سطحية تلك العقلية وحرفيتها في التعامل مع كتاب الله سبحانه وتعالى ، تلك العقلية التي أوصلتهم لذبح المسلمين و إعطاء الأمان للمشركين .

والملاحظ على الفكر الخوارجي أنه مبني على الغلو في العمل والتشدد في المواقف والمسارعة في التكفير ، وسطحية في الفكر ، ومن هنا تعتبر الخارجية أخطر ما يفرزه المجتمع الإسلامي بشكل عام ، وأقوالها تلتبس لأنها في ظاهرها توحي بالتمسك بتعاليم الإسلام ، فهم أهل صلاة وصيام وقراءة قرآن ، وفي نفس الوقت هم أهل جهل وهوى يتصرفون بسوء الأخلاق ويعتبرون ذلك كله ديناً وما هو من الدين . (٭)

---

(١) التوبة: من الآية٦

(٢) العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام (١٢) وقد عزاه للمبرد في كتابه الكامل (١٢٢/٢)

(٭) بالرغم من الأحاديث الكثيرة التي تدل على خطورة الخارجية في الإسلام إلا أن أكثر العلماء لا يرون تكفيرهم ، ولعل أجمل توصيف يوضحه هذا الأثر الوارد من أن البعض سأل الإمام علي عن الخوارج أكفار هم ؟ فقال : من الكفر فروا ، فقيل : فمنافقون هم ؟ قال إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلاً ، قيل : فمن هم ؟ قال : هم قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا .

المبحث الخامس
الإشارات النبوية حول أحداث المرحلتين الأموية والعباسية
المطلب الأول : الإشارة النبوية لعام الجماعة

بعد وقعة صفين ، وما حصل فيها من تحكيم قرر الإمام علي ﷺ تجهيز جيش عظيم لقتال أهل الشام ، إلا أن خروج طائفة الخوارج عليه وانشغاله بقتالهم في النهروان وغيرها سنة ثماني وثلاثين أخر عليه خروجه على أهل الشام ، ثم عقد العزم مرة أخرى سنة تسع وثلاثين فلم يتهيأ له الأمر لافتراق أهل العراق عليه ، فأخر الخروج لقتال أهل الشام لسنة أربعين والتي أعد فيها جيشاً عظيماً بايعه فيها أربعون ألفاً على الموت ، إلا أن المنية التي عاجلته على يد الشقي ابن ملجم قد حالت دون الخروج ، فبايع الناس الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما على الخلافة ، وكان لا يرغب كثيراً في القتال ، كما صادف الأمر عدم رغبة معاوية ﷺ في القتال أيضاً حسرة منه على ما يُزهق من أرواح المسلمين بسبب هذه الحروب ، فكان الصلح الذي هَيأ أهله و أسبابه التي من أهمها تلك المنقبة التي ادخرت للإمام الحسن ﷺ والتي أخبر بها النبي ﷺ كما سيتضح من النصوص ، حيث تنازل عن الخلافة لمعاوية بشروط وأصلح الله على يديه بين المسلمين وحقن بين دمائهم ، وهذا العام الذي اجتمع فيه الناس على خليفة واحد يعرف بعام الجماعة .

📖 – عن أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ إِلَى جَنْبِهِ يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وَإِلَيْهِ مَرَّةً وَيَقُولُ : « ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . » (١)

📖 – عن الْحَسَنُ البصري قال : « لَمَّا سَارَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِي اللَّه عَنْهما إِلَى مُعَاوِيَةَ بِالْكَتَائِبِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ : أَرَى كَتِيبَةً لَا تُوَلِّي حَتَّى تُدْبِرَ أُخْرَاهَا . قَالَ مُعَاوِيَةُ : مَنْ لِذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ ؟ فَقَالَ : أَنَا فَقَالَ : عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَامِرٍ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٧٤٦ [البخاري مع الفتح (١١٨/٦)]

سَمُرَةَ : نَلْقَاهُ فَنَقُولُ لَهُ الصُّلْحَ . قَالَ الْحَسَنُ وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ جَاءَ الْحَسَنُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . » (١)

شرح :

- هذان النصان يبرزان دليلاً من دلائل نبوة محمد عليه السلام ؛ حيث أخبر وهو على منبره بأن الحسن رضي الله عنه سيكون سبباً في الصلح بين فئتين من المسلمين ، وهذا ما حصل عام الجماعة ؛ حيث تنازل الإمام الحسن لمعاوية رضي الله عنه بالخلافة حقناً لدماء المسلمين ، وجاء في خطبته كما أوردها ابن حجر : « أما بعد . فإن أكيس الكيس التقى ، وإن أعجز العجز الفجور ، ألا و إن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حق لامرئ كان أحق به مني ، أو حق لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم ، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . » (٢)
- في النص الثاني يتضح لنا مدى حرص معاوية على حقن الدماء ومدى حسرته على رجال المسلمين وشفقته على الذراري بعدهم ، وكان لهذه الشفقة والحسرة أثرها في وقوع الصلح بإذن الله ، يقول سبحانه وتعالى « إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً » (٣)

فكلا الطرفين كان منهما إرادة الصلح حقناً للدماء ، ولكن كفة الحسن ترجح في هذا الباب لأنه تنازل عن حقه الثابت في الخلافة ، فيصدق في حقه لوحده أنه سبب الصلح .

- بعد هذا الصلح اجتمع المسلمون كافة تحت راية خليفة واحد وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وسمي هذا العام بعام الجماعة ، وتحقــقت نبوءة النبي ﷺ بأن الحسن بن

(١) أخرجه البخاري في الفتن حديث رقم ٧١٠٩ [البخاري مع الفتح (٦٦/١٣)]

(٢) ابن حجر : فتح الباري (٦٨/١٣)

(٣) النساء:٣٥

علي رضي الله عنهما سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين .

المطلب الثاني : الإشارة النبوية إلى مدة الخلافة الراشدة

- عَنْ سَفِينَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قَالَ سَعِيدٌ قَالَ لِي سَفِينَةُ أَمْسِكْ عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ سَنَتَيْنِ وَعُمَرُ عَشْرًا وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَعَلِيٌّ كَذَا قَالَ سَعِيدٌ قُلْتُ لِسَفِينَةَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَام لَمْ يَكُنْ بِخَلِيفَةٍ قَالَ كَذَبَتْ أَسْتَاهُ بَنِي الزَّرْقَاءِ يَعْنِي بَنِي مَرْوَانَ » (١)

شرح الغريب :

أستاه : مؤخرات

شرح :

- هذه الحديث فيه إشارة إلى مدة الخلافة الراشدة وهي ثلاثون عاماً ، ومن خلال حساب مدة خلافة الخلفاء الأربعة نجد أن هذا الحديث يصدق عليهم ، فمدة خلافة أبي بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ومدة عمر ﷺ عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ، ومدة خلافة عثمان ﷺ إحدى عشر سنة وأحد عشر شهراً وتسعة أيام ، ومدة خلافة علي ﷺ أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام .
- يرى البعض أن هذه المدة تستوعب أيضاً مدة خلافة الحسن ﷺ وهي سبعة أشهر ، والذين ادخلوه في الخلافة الراشدة ألغوا حساب الأيام وبعض الشهور بالنسبة للخلفاء الأربعة ، والصحيح أن مدة خلافته تحسب في الثلاثين ، وهذا واضح ؛ حيث إن مجموع مدة الخلفاء الراشدين الأربعة المذكورة سابقاً هي : تسع وعشرون سنة وأربعة شهور وخمسة أيام ، ولو أضفنا لها مدة الحسن ﷺ وهي السبعة شهور لاكتمل العدد ثلاثين سنة .

(١) أخرجه أبو داود في السنة برقم ٤٦٢٢ [عون المعبود (٣٩٧/١٢)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٣٢٦ ، وقال : هذا حديث حسن [تحفة الأحوذي (٤٤٦/٦)] قال ابن حجر : أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان [فتح الباري (٢٢٥/١٣)]

- هذه المدة المذكورة في الحديث يصدق فيها وصف خلافة النبوة ، وما بعدها يعتبر ملكاً ، والمراد بخلافة النبوة الخلافة الكاملة المستوعبة لهدي النبي ﷺ ، أما ما كان خلاف ذلك فقد تغير وصفه ؛ لذا يطلق عليهم ملوك ، ووفق هذا التوجيه يعتبر معاوية أول الملوك ، ويكون هذا الحديث إشارة إلى بداية الدولة الأموية .

📖 - عن حُذَيْفَة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ . ﴾ (١)

شرح :

- هذه الحديث فيه إشارة إلى تقلبات الأمة السياسية عبر التاريخ ؛ حيث بدأت بحكم النبوة التي انتهت بوفاة رسول الله ﷺ ، ثم الخلافة الراشدة التي انتهت بعام الجماعة عند تنازل الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية ﷺ ، والملك العاض الذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية والله أعلم ، والأمة الآن في مرحلة الحكومة الجبرية التي لا يعلم متى انتهاؤها ، والحديث صريح أنه لا يكون بعد الحكومة الجبرية إلا الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ، والراجح في ذلك أنها تبدأ ببيعة المهدي ﷺ .

- الحديث السابق يتضمن في طياته البشرى للأمة بأن ما هي عليه من ظلم و جبرية لن يدوم حاله ، بل يخلفه الخير بأعلى درجاته ؛ حيث تعود الخلافة الراشدة من جديد للأمة ، وكذلك يتضمن الحديث حثاً للأمة للسعي لإقامة الخلافة الراشدة في الأرض ، فكما كانت الخلافة الراشدة الأولى نتيجة لجهد عظيم وتضحيات عظمى ، فكذلك الخلافة الراشدة الثانية .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٤٣٦ [المسند (٣٣٤/٤)] وإسناد أحمد لا بأس به .

– عن جَابر بْنَ سَمُرَةَ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ أَمِيرًا ، فَقَالَ كَلِمَةً لَمْ أَسْمَعْهَا فَقَالَ أَبِي : إِنَّهُ قَالَ كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ . ﴾ (١)

– عن جَابر بْنَ سَمُرَةَ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمْهَا . فَقُلْتُ لِأَبِي : مَا قَالَ ؟ فَقَالَ : كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ . ﴾ (٢)

– عن جَابر بْنَ سَمُرَةَ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً قَالَ : فَكَبَّرَ النَّاسُ وَضَجُّوا ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً خَفِيفَةً قُلْتُ لِأَبِي : يَا أَبَتِ مَا قَالَ ؟ قَالَ : كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ .. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَتَتْهُ قُرَيْشٌ فَقَالُوا : ثُمَّ يَكُونُ مَاذَا ؟ قَالَ ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ . ﴾ (٣) وفي رواية ﴿ كُلُّهُمْ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ ﴾ (٤) وفي رواية ﴿ لا تضرهم عداوة من عاداهم ﴾ (٥)

شرح :

هذا الحديث مشكل ، واحتار في فهمه العلماء ، وقبل بيان آراء العلماء فيه ، والاحتمالات المتعددة له أرى أن أوضح الدلالات الواردة في روايات الحديث والتي تعتبر ضوابط تعين على فهم المراد به .

أولاً : دلالات الحديث والضوابط المعينة على فهمه .

يتضح من الحديث ورواياته ما يلي :

١- عدد هؤلاء الخلفاء اثنا عشر ، وجاء في رواية ذكر أنهم أمراء والمعنى واحد ؛

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام برقم ٧٢٢٣ [البخاري مع الفتح (٢٢٤/١٣)] ، ومسلم في الإمارة ١٨٢١ [مسلم بشرح النووي (٤١٢/٦)]

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في الإمارة ١٨٢١ (٧) [مسلم بشرح النووي (٤١٣/٦)]

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المهدي بروايتين رقم ٤٢٦٠ ، ٤٢٦١ [عون المعبود (٣٦٨/١١)] ، والحديث له أصل في الصحيحين .

(٤) أخرجه أبو داود في المهدي برقم ٤٢٥٩ [عون المعبود (٣٦١/١١)]

(٥) هذه الرواية ذكرها ابن حجر وعزاها للطبراني [فتح الباري (٢٢٥/١٣)]

يجمعهما أن المقصود بذلك الولاية السلطانية على الأمة .

٢- هؤلاء الخلفاء كلهم من قريش ، والتصريح باسم القبيلة يشير إلى أنهم من بطون متعددة من قريش ، ولو كانوا من بطن واحد لخصص النبي ﷺ اسم البطن دون القبيلة ؛ أي لقال مثلاً كلهم من بني هاشم ، أو من بني أمية .

٣- هؤلاء الخلفاء يتميزون عن غيرهم بأنهم تجتمع عليهم الأمة أو يجتمع على بيعتهم الناس .

٤- أهم أوصاف مرحلة الخلفاء الاثنى عشر أن الدين في عهدهم يكون عزيزاً ؛ إذاً مرحلتهم مرحلة عزة لتعاليم الإسلام ، وفي رواية منيعاً ؛ أي تكون الأمة مهابة لا يستطال عليها من الخارج ، وفي رواية يكون الدين ماضياً ؛ أي قوياً بأهله وتعاليمه ، وفي رواية لا تضرهم عداوة من عاداهم ، وهي متضمنة في الأوصاف السابقة كالعزة والمنعة ، وفي رواية لا يزال الدين قائماً ؛ أي أن تعاليمه محفوظة بالأمة سلوكاً يجعل الأمة تستحق وصف أنها قائمة على أمر الله سبحانه وتعالى ، ومعنى قائماً هنا ؛ أي مستقيماً سديداً جارياً على الحق والصواب .

٥- كلمة لا يزال تشير إلى تغير الحال بعد هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر ، والتغير يكون بتغير الأوصاف السابقة إلى نقيضها تدريجياً ؛ أي تبدأ الفرقة في الولاية السياسية ، وتختلف توجهات الناس ، ويبدأ الضعف في تعاليم الدين مما يكسبه وهناً بعد قوته ومنعته ، ويستطال على الأمة من الخارج ، ولعل أهم الأوصاف التي صرح ﷺ بحصولها هو وقوع الهرج ، والهرج هو القتل الفوضوي داخل الأمة ، واختلاف المشارب والآراء بين أفراد الأمة وما يترتب على ذلك .

٦- كذلك كلمة لا يزال تحمل في طياتها معنى المتابعة بين حال الأمة لحظة قوله هذه الكلمات ، وبين مدة الخلفاء الاثنا عشر ، مما يشير إلى أن النبي ﷺ أراد بهذا الحديث تنبيه الأمة إلى مرحلة الانتكاسة العظمى في الأمة ، والتي يتغير حالها عن

حال الرعيل الأول ، سواء على المستوى السياسي أو على المستويات الأخرى المتأثرة به .

٧- يتضح من روايات الحديث أن هؤلاء الاثنا عشر هم من أئمة العدل ، وإن كان الأمر يحتمل أن يكونوا درجات في مدى تمثلهم بهذا المبدأ ، والحقيقة أن هذا الوصف لم يتم التصريح به ؛ إلا أنه سبب فعال يؤدي لما ذكره النبي ﷺ من عزة ومناعة ، وكون الدين قائماً في عهدهم يشير بالضرورة إلى كونهم أئمة عدل ، وإن كان يحتمل الأمر أن يكون عدلهم متفاوتاً في الدرجة إلا أنهم يشملهم هذا الوصف سواء كان بأدنى درجاته ، أو بأعلى درجاته .

ثانياً : الاحتمالات التي أوردها العلماء في تفسير المراد بالخلفاء الاثنا عشر .

الاحتمال الأول : الخلفاء الاثنا عشر يراد بهم الخلفاء الراشدون وبعض خلفاء بني أمية على التتابع :

ويمكن القول أن تلك المرحلة التي تضمنت مدة خلافة الاثنا عشر يصدق في حقها القول أنه اجتمع الناس عليهم ، ولا يقدح في ذلك مرحلة الزبير والحسن ، فهي مرحلة استثنائية ثم استقام الأمر لأصحابه ، والعبرة هنا بالأغلب .

الاحتمال الثاني : صورة أخرى لتوجيه العلماء حول تتابع الخلفاء .

وهذا الاحتمال مبني على الاحتمال السابق وهو التتابع في الخلفاء الاثنا عشر بعد رسول الله ﷺ ، وهو مبني على الرواية الدالة على أن هؤلاء الخلفاء تجتمع عليهم الناس ، والذين اجتمع الناس على بيعتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين ، ثم معاوية بعد تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة ، ثم يزيد ولم ينتظم الأمر للحسين بن علي رضي الله عنهما ، ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ثم على أولاده الأربعة من بعده : الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم

هشام ، وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز ، والثاني عشر كان الوليد بن يزيد الذي اجتمع الناس عليه مدة أربع سنين ثم قتل ثم بدأت الفتن بعده .

والملاحظ أنه بعد يزيد بن عبد الملك لم يجتمع أمر الأمة على خليفة واحد ، فقد ولي بعده أخوه إبراهيم الذي ثار عليه مروان بن محمد بن مروان ، وهذا الأخير لم يستقم له الأمر ؛ حيث ثار عليه بنو العباس وقتلوه ، وبذا بدأت المرحلة العباسية التي لم يجتمع خلالها الناس على خليفة واحد بل كان المروانيين في المغرب الأقصى والأندلس الذين غلبوا هناك وتسموا بالخلافة أيضاً ، وبعد ذلك قامت كثير من الانشقاقات في الدولة العباسية إلى درجة لم يبق من الخلافة إلا الاسم . (١)

الاحتمال الثالث : يراد بالخلفاء الاثنا عشر ما يكون من خلفاء مهديين إلى قيام الساعة :

وهذا الاحتمال مبني على أن البعدية في الحديث ليس على حقيقتها ولا يراد بها التتابع ، بل المقصود بها وقوع هذا الأمر على مدى الزمان ، ويراد بالخلفاء في الحديث أهل الكمال في هذا الشأن من حيث الرشد والهداية ، أي خلفاء النبوة ، وهذه حصلت في الخلفاء الراشدين الأربعة وعمر بن عبد العزيز ، وبعض خلفاء بني العباس ، ومنهم خليفة آخر الزمان المهدي ﷺ ، ويكون المراد من الحديث أن الأمة يستمر أهلها في عزة إلى أن يكتمل عدة اثنا عشر خليفة هدى على مر الزمان ، ثم بعد ذلك لا يستقيم أمرها أبداً إلى أن تقوم الساعة .

الاحتمال الرابع: يراد بالحديث الإشارة إلى وجود اثنا عشر خليفة في وقت واحد .

وهذا الاحتمال مبني على رواية البخاري التي جاء فيها يكون اثنا عشر خليفة ، ويكون المراد من الحديث أن أمر الأمة يبقى عزيزاً منيعاً إلى أن تتفرق لدرجة يوجد في

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (١٣/٢٢٧) ؛ عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول (٣٢٢)

زمان واحد اثنا عشر أميراً كلهم يدعي الخلافة في نفس الوقت ، عندها يبدأ عز الأمة بالأفول .

وهذا الاحتمال وإن كان يحتمله نص البخاري إلا أن الروايات الأخرى للحديث تتناقض مع مقتضاه ؛ لأنه جاء في وصف هؤلاء الخلفاء أنه تجتمع الناس عليهم ، ووجود اثنا عشر أميراً يدعي الخلافة في نفس الوقت يتنافى ومقتضى اجتماع الناس ؛ لذا هذا الاحتمال بعيد جداً .

الاحتمال الخامس : يراد بهم الخلفاء الذين يكونون بعد المهدي ﷺ .

وهذا الاحتمال يستند على عدة روايات ضعيفة تشير إلى أن خلفاء المهدي يكون ستة منهم من ولد الحسن وخمسة من ولد الحسين .

ويكون المراد من هذا الحديث الإشارة إلى العالمية الثانية للإسلام والتي تبدأ بالمهدي أو قبله ، وبعد هؤلاء الاثنا عشر يبدأ الإسلام بالأفول إلى قيام الساعة .

وهذا الحديث مستنده أحاديث ضعيفة ، و لعل سبب ذكره من البعض الخروج من الإشكال الذي يحتمله الحديث .

وفي ظني أن هذا الاحتمال بعيد جداً ، ويفرغ كلام النبي ﷺ من مضمونه ، فسياق الروايات كلها تشير إلى أن النبي ﷺ يقصد به عزة الإسلام في العالمية الأولى للإسلام بعده

الاحتمال السادس : يراد بالخلفاء الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة .

وهذا الاحتمال يزعمه الشيعة الإمامية ، ويرون الحديث هنا يشهد لهم ؛ حيث وافق العدد فيه معتقدهم في أن الأمر يكون في اثنا عشر رجلاً من آل البيت ، أولهم الإمام علي ﷺ ، وآخرهم بزعمهم محمد العسكري الذي اختبأ في سرداب سامراء ، ويكون خروجه آخر الزمان .

ومن تتبع روايات الحديث يعلم أنها تتناقض كلية مع مزاعم الشيعة ، فبعض الروايات تشير إلى أنهم خلفاء وأمراء ، ولم يتولَ الخلافة من آل البيت إلا الإمام علي وابنه الحسن رضي الله عنهما ، وفي بعض الروايات إشارة إلى أن الدين يكون عزيزاً منيعاً

بهؤلاء الخلفاء ، وهذا لم يقع مع الأئمة ، وبعضها يشير إلى أن الناس يجتمع أمرها وولاؤها لهؤلاء الخلفاء ، وهذا لم يقع إلا للإمام علي ﷺ إلى ما قبل صفين ، كذلك الملاحظ في كل روايات الحديث أنه نسب الخلفاء الاثنا عشر لقريش ؛ أي للقبيلة مما يدل على أنهم كلهم أو أغلبهم ليسوا من بني هاشم ، فقد جرت العادة على أن الجماعة إذا فعلت أمراً وكان الفاعلون كلهم من بطن واحد نسب الكلام لهذا البطن ، أو يسموهم بهذا البطن ، وإذا كان العمل في بطون شتى نسب الأمر للقبيلة ، وهنا كان نسب الخلفاء لقريش مما يدل على أنهم ليسوا من بني هاشم على وجه الخصوص ، وإلا لقال رسول الله ﷺ كلهم من بني هاشم .

كذلك ظاهر الحديث يتنافى مع ما يعتقده الشيعة ، فالحديث يشير إلى ظهور الدين في عهد هؤلاء الخلفاء ، أما الشيعة الإمامية فيقولون أن الدين قد اختفى بعد وفاة النبي ﷺ ،والأئمة كانوا جميعاً يعملون بالتقية - بزعمهم - مما يدل صراحة على عدم الظهور. (١)

ثالثاً : توجيه القول في الاحتمالات السابقة :

يلحظ مما سبق أن الاحتمالات الواردة ستة منها ثلاثة بين فسادها ، وهي الاحتمال الرابع والخامس والسادس ، ويبقى ثلاثة محتملة ، منها اثنان يعبران عن محصلة واحدة مع اختلاف في الصورة ، وهما الأول والثاني ، حيث يعبران على أن المقصود بالخلافة التتابع ، وتشمل المرحلتين الراشدة والأموية فقط ، والاختلاف كان في تحديد المقصود من بني أمية .

ووفق ذلك يمكن القول أن المسألة تحتمل رأيين يعتد بهما : الأول أن الخلفاء الاثنا عشر يراد بهم خلفاء المرحلتين الراشدة والأموية ، والثاني يراد بهم خلفاء الهدى على مر تاريخ الأمة ولا يلزم تتابعهم ، ومنهم الإمام المهدي ﷺ .

---

(١) انظر عون المعبود (٣٦٥/١١ وما بعدها) ؛ تحفة الأحوذي (٤٧٣/٦ وما بعدها) .

و الذي يترجح عندي هو الاحتمال الأول (✿) ، من أن المراد بهذا الحديث الإشارة إلى الوضع العام للأمة ، فهذه الأمة بدأت ضعيفة ثم اشتد أزرها حتى أصبحت قوية منيعة ، خاصة في آخر عهد الرسول ﷺ ، ولعل الصحابة قد بدءوا يستفهمون عن مرحلة الأفول لمنعة الأمة ، فبين لهم النبي ﷺ إن هذا الأفول لا يكون إلا بعد أن تنتهي ولاية اثنا عشر خليفة كلهم من قريش ، ويكون سؤال الصحابة رضي الله عنهم من باب سؤال حذيفة عن الشر الذي يكون بعد الخير ، ولعل الصحابة تصوروا من بعض الأحاديث التي أشارت إلى أن رحى الإسلام تدور لخمس وثلاثين سنة ، وأن خلافة النبوة ثلاثون سنة فقط أن ذلك سيترتب عليه قرب زوال منعة الأمة ، فطمأنهم النبي ﷺ إلى أن الدين سيبقى منيعاً إلى اثنا عشر خليفة ثم يدب الوهن القاتل في عضد الأمة .

وطبعاً هذا الرأي لا يتعارض مع قول النبي ﷺ خلافة النبوة ثلاثون كما يرى ابن كثير (١) ، فهو هنا أشار إلى مرحلة الكمال في الأمة ، والذي يتمثل في خلافة النبوة ، وليس فيه إشارة إلى هوان الأمة و ذهاب منعتها وعزها بانتهاء خلافة النبوة ، بل يدوم لها الأمر إلى مرحلة أخرى تبقى معها منعتها مع تغير وصف الخلافة ، وهذا يكون على مدار القرن الأول الذي يعتبر خير القرون .

فيكون محصلة الحديثين القول : بأن الأمة تمر بمرحلتين : الأولى هي مرحلة كمال متمثلة بالخلافة الراشدة التي تستمر لثلاثين سنة ، والمرحلة الثانية ، وهي مرحلة العزة والمنعة واجتماع شمل الناس وبقاء الدين مستقيماً جارياً على الحق ، وهذه المرحلة تستمر لقرابة نهاية الدولة الأموية .

أما الاحتمال الثاني هنا والثالث في ترتيب الاحتمالات والذي يرى أصحابه أن المراد بهم خلفاء الهدى على مر الزمان فقط ، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة ، وعمر بن

(✿) ممن قال بهذا الرأي القاضي عياض ، ويرى ابن حجر أنه الأوجه في المسألة ، وكذلك البيهقي في دلائل النبوة ، وكذلك رجحه الإمام محمد بن عبد الوهاب وولي الله الدهلوي ، ومحمد شمس الحق آبادي [فتح الباري (٢٢٧/١٣) ؛ مختصر سيرة الرسول (٣٢٢) ؛ عون المعبود (٣٦٤/١١ وما بعدها)]

(١) ابن كثير : النهاية في الفتن والملاحم (١٦)

عبد العزيز ، وبعض خلفاء بني العباس والمهدي ﷺ (١) ، فهذا الاحتمال وإن كان هناك ما يعززه في بعض الآثار إلا أنني أرى أنه ليس هو المراد من الحديث لأسباب منها أن النبي ﷺ قد صرح بديمومة واستمرارية عزة الأمة ومنعتها وانتصارها على عدوها واجتماع أمرها طول مدة الاثنا عشر خليفة ، وقد استخدم النبي ﷺ لفظة « إلى » الدالة على الغاية ، وهذه الديمومة تتنافى مع القول بعدم تتابع الخلفاء ، وكذلك دلائل الواقع تشير إلى أن هذه العزة والمنعة قد انقطعت ، وكذلك اجتماع الناس على رأي واحد قد انقطع ، أما وفق الاحتمال الأول فيمكن القول بأن هذه الأوصاف كانت ملاحظة إلى ما قبل نهاية المرحلة الأموية بقليل .

وقد يعترض البعض بقوله أن هذه المنعة أيضاً كانت ملحوظة في العصر العباسي ، وهذا صحيح إلا أن بداية الوهن الحقيقي وتخلف بعض الأوصاف الواردة في الحديث قد بدأ مع قيامها ، ومن يدرس بداية الانقلاب العباسي وما جر إليه من فتن في بدايته (❁) ، ثم انقسام الأمة الإسلامية إلى خلافتين إحداهما في الشرق وهي الخلافة العباسية والثانية في الغرب وهي الأموية في الأندلس ، فهذا الواقع بدأ مع قيام الدولة العباسية ، واستمر خط الوهن يزداد في تلك المرحلة وانتشرت البدع التي وجدت لها نصيراً على مستوى الدولة كبدعة خلق القرآن وغيرها ، وبدأ الوهن والترف يدب في الأمة من الداخل حتى لم يبق للخلافة العباسية إلا الاسم ، وأصبح علماء الإسلام غرباء في دولتهم كالإمام أحمد رحمه الله ، وغيره .

وفي المرحلة العباسية بدأ الهرج يظهر بشكل واضح و اشتدت صولة الفرق الباطنية وشوكتها وتملكت الكثير من مواطن الدولة الإسلامية كالفاطميين والقرامطة وغيرهم ، وبدأت الغربة الثانية ترسم أول معالمها ، ومثل هذه الأوصاف لا تتفق مع قولنا أن الدين عزيز وقائم ومنيع .

(١) ممن يرى هذا الرأي الإمام ابن كثير و الإمام السيوطي والتوربتشي [ابن كثير : النهاية (١٦) ؛ منصور عبد الحكيم : المهدي المنتظر (٢٤) ؛ عون المعبود (٣٦٦/١١)]

(❁) راجع : الخضري : محاضرات في الدولة العباسية (٢٢ وما بعدها)

الإشارة النبوية إلى إمارة الصبيان ، وسنة ستين :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ رَأْسِ السَّبْعِينَ وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ . ﴾ (١)

وفي رواية عند ابن أبي شيبة : « أن أبا هريرة كان يمشي في الأسواق ويقول اللهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصبيان . » (٢)

- عن أبي هريرة رضي الله عنه يرويه قال : « ويل للعرب من شر قد اقترب على رأس الستين تصير الأمانة غنيمة ، والصدقة غرامة ، والشهادة بالمعرفة ، والحكم بالهوى . » (٣)

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ثم يكون خلف بعد ستين سنة يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم .. ﴾ (٤)

أقول :

- هذه الآثار يعضد بعضهما البعض ، بعضها موقوف ، ولكنه يأخذ حكم المرفوع ، وفيها إشارة إلى أحداث ما بعد الستين ، وهي مما كان يتعوذ منها أبو هريرة رضي الله عنه ، ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يقبضه قبل شهودها ، ويظهر من السياق أن أبا هريرة قد علم من رسول الله ﷺ أنه يحدث عظائم بعد سنة ستين هجري وهذا ما وقع بالفعل ؛ حيث تولى الأمارة يزيد بن معاوية ، وكان في عهده مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء ، وكثير من أهل البيت الكرام ، وأيضاً كان في عهده استباحة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين ٨٣٤٠ [المسند (٢/٤٣٦)]

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٣/١٢) والأثر صححه الألباني في الأدب المفرد برقم ٤٧ ، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣١٩١

(٣) أخرجه الحاكم في الفتن ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذه الزيادات ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٣٠)]

(٤) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦٤٣ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد،ولم يخرجاه [المستدرك (٤/٥٩٠)]

وأتم التسليم ؛ وانتهاك حرمتها ، واستباحة دماء أهلها الأطهار على يد مسلم بن عقبة ثلاثة أيام ، الذي نعته المسلمون بعد ذلك باسم مسرف بن عقبة لشدة ما أسرف عند استباحته للحرم المدني ؛ وتروي الأخبار أنه ارتكب فظائع كثيرة في الحرم المدني .

كذلك كان استباحة الحرم المكي ، ونصب المنجنيق على أطرافه ، لولا أن عاجلت المنية يزيد ، وانتهى حصار مكة .

و أي عظائم أشد من انتهاك حرمة الحرمين على يد أهله .

- في الأثر إشارة إلى إمارة الصبيان ، وهذا ما وقع في عهد يزيد الذي كان يعزل الكبار ، ويجعل مكانهم صغار السن من بني أمية ، واستمر هذا الحال في بني أمية ، وهذا الأثر يشهد له الأثر التالي الذي يشير إلى أن هلاك أمة محمد على يد غلمة من قريش .
- يلحظ في الأثر عن أبي هريرة أنه كان يدعو الله سبحانه وتعالى ألا يدرك سنة ستين ، وقد استجاب الله دعائه فمات قبل الستين باتفاق العلماء .
- أما الأثر الأخير ففيه توصيف لتغير الحال إلى النقيض بعد سنة ستين ، وقد بين الحديث أخص الأمور كالأمانة التي تتحول إلى غنيمة يغتنمها المؤتمنون عليها ، والصدقة التي هي طهرة وتقرب لله سبحانه وتعالى ، والأصل أن تخرج بطيب نفس تتحول إلى عبء وغرامة يتغرمها أهلها مما يشير إلى فساد حال الناس وتغير توجهاتهم الإيمانية ، وطريقة نظرتهم للتكاليف ، وطمعهم في الدنيا ، وتشوفهم للاستزادة منها على حساب الآخرة ، أما قوله الشهادة بالمعرفة ففيه إشارة إلى فساد حال أكثر الناس بحيث لا يؤتمن على صدق شهادته إلا من يعرف بذلك ، وأما الحكم بالهوى فهو الطامة الكبرى التي يغيب معها معالم الحق في رسالة الإسلام .

📖 - عن سَعِيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَمَعَنَا مَرْوَانُ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ يَقُولُ : ﴿ هَلَكَةُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ مَرْوَانُ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ غِلْمَةً فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ بَنِي فُلَانٍ وَبَنِي فُلَانٍ لَفَعَلْتُ فَكُنْتُ

أَخْرُجُ مَعَ جَدِّي إِلَى بَنِي مَرْوَانَ حِينَ مُلِّكُوا بِالشَّأْمِ فَإِذَا رَآهُمْ غِلْمَانًا أَحْدَاثًا قَالَ لَنَا عَسَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُونُوا مِنْهُمْ قُلْنَا أَنْتَ أَعْلَمُ ﴾ (١)

أقول :

- هذا الحديث المرفوع واضح الدلالة في سبب تمني أبي هريرة ﷺ الموت قبل سنة ستين ، حيث كان يعلم من رسول الله ﷺ ، سواء هذا الحديث أو غيره ما سيقع بيد الأمويين من أمور مخالفة لدين الله سبحانه وتعالى بسبب الملك ، وهذا الحديث يشير إلى أن هلاك الأمة على يد غلمة ، أي على يد الصبيان الذين يتولون أمر الأمة ويتصرفون بطيش الشباب واندفاعه بما لا يليق بملك أمة صاحبة رسالة ، ولعل أولهم هو يزيد الذي كان يولي الصغار من أهل بيته ويترع الكبار ، ويعزز ذلك أن راوي الحديث عن أبي هريرة قد رأى تولي الغلمان مما يشير إلى أن ذلك كان منذ عهد يزيد .
- الملاحظ من هذا الحديث وغيره من مجموع أحاديث واردة عن أبي هريرة ﷺ أن أبا هريرة كان يعلم بتفاصيل فتنة إمارة الصبيان كاملة ، ويعرف أسماء أصحابها كما بين في الحديث ، لكنه لم يصرح بها واكتفى بالكناية دون التصريح خوف الفتنة ، واختياراً لأهون الشرين في المسالة ، ولعل هذه الأسماء ومعالم الفتنة القريبة من عهده هي مما أشار إليه أبو هريرة بأنه الجراب الذي حفظه عن رسول الله ﷺ ولم يبثه بين الناس ، واكتفى فقط بالتلميح والكناية دون التصريح .
- هلاك الأمة هنا يخص بطائفة من أهل قريش وهم الأحداث الذين يتولون زمام أمر الأمة ، ووجه الهلاك المقصود يكون بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال الناس وتتوالى الفتن عليهم ، وهذا واضح جلي بعد هجوم مسلم بن عقبة على المدينة ، وقتل خيارها ، وكذلك تقتيل وتشريد وإذلال أهل بيت رسول الله الكرام .

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٥٨ [البخاري مع الفتح (١١/١٣)]

– عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَكُونُ خَلْفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ مُؤْمِنٌ وَمُنَافِقٌ وَفَاجِرٌ قَالَ بَشِيرٌ فَقُلْتُ لِلْوَلِيدِ مَا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ فَقَالَ الْمُنَافِقُ كَافِرٌ بِهِ وَالْفَاجِرُ يَتَأَكَّلُ بِهِ وَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِهِ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث يشير إلى بداية تغير المسلمين بعد ستين سنة ، ولو افترضنا أن النبي ﷺ قال ذلك سنة عشر أو ما دونها في العهد المدني ؛ فيكون المراد بهذا الحديث ما بين سنة ستين إلى سنة سبعين ؛ وهو يعضد الآثار السابقة ، وفيه إضافة هامة ، وهي طروء الخلل على الجانب التعبدي عند البعض ، وهذا واضح في تضييع الصلاة واستخدام القرآن لنيل المآرب الدنيوية ، والانتباه إلى شهوات الدنيا واتباعها ، ولعل المراد هنا من تضييع الصلاة تضييع روحها وهو الخشوع ، فهو أول ما تفقده الأمة من عرى الإسلام كما سيتضح بعد ؛ وهذا الحديث يشير إلى فئة جديدة من قراء القرآن غير المنافق والمؤمن ، وهي فئة الفجار الذين يتخذون القرآن سلعة يتحصلون بها على مآربهم ومصالحهم .

الإشارة النبوية إلى وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ.

– عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ وَمَوْتًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى يُقَوَّمَ الْبَيْتُ بِالْوَصِيفِ يَعْنِي الْقَبْرَ قُلْتُ مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ أَوْ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ تَصَبَّرْ قَالَ : كَيْفَ أَنْتَ وَجُوعًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى تَأْتِي مَسْجِدَكَ فَلَا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى فِرَاشِكَ وَلَا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ . قَالَ : قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَوْ مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ قَالَ عَلَيْكَ بِالْعِفَّةِ ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَنْتَ وَقَتْلًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى تُغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ بِالدَّمِ قُلْتُ مَا خَارَ اللَّهُ لِي وَرَسُولُهُ قَالَ الْحَقْ بِمَنْ أَنْتَ مِنْهُ . قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا آخُذُ بِسَيْفِي

(١) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٦٤٣ ، وصححه ، وأقره الذهبي [المستدرك (٥٩٠/٤)]

فَأَضْرِبَ بِهِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ . قَالَ : شَارَكْتَ الْقَوْمَ إِذًا وَلَكِنِ ادْخُلْ بَيْتَكَ . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ دُخِلَ بَيْتِي قَالَ : إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْقِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ فَيَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ . ﴾ (١)

أقول :

- هذا الحديث تضمن عدة علامات مستقبلية والمخاطب فيها أبو ذر الغفاري ﷺ ، ودلائل السياق أن هذه العلامات المستقبلية سيعيشها أهل المدينة المنورة على وجه الخصوص ، وهذا ما صرحت به روايات أخرى للحديث (❁)
- يتضح من الحديث أن أول هذه العلامات ذكراً هو موت وبائي واسع يصيب أكثر الناس لدرجة أن البيوت يصبح لا قيمة لها لقلة ساكنيها فيشترى العبد بثمن البيت ، والمعلوم أن ثمن أي بيت أغلى بكثير من ثمن العبد ، وهذه حالة استثنائية تتغير فيها الأحوال وتكثر فيها البيوت الخاوية من أهلها بسبب هذا الموت بحيث لا يصبح لها قيمة لدرجة أن ثمن العبد يوازيها لأن نفعه في تلك المرحلة يكون أكثر من نفع تلك البيوت ، وهذا إشارة إلى تفشي الموت وكثرته ، وكثرة من يصاب به .
- العلامة الثانية تشير إلى جوع شديد يصيب الناس لدرجة يمنع الناس من الحركة القليلة لشدة الجهد وهوان الجسم بسببه ، وهذه العلامة والتي سبقتها أظن أنها لم تقع بعد ، ولم نسمع بوقوع مثلها على مدى تاريخ المدينة المنورة ، والمجاعة التي حصلت في عهد عمر ﷺ لم تبلغ بالناس هذه الدرجة ، ولنا مع هاتين العلامتين وقفة أخرى عند حديثي عن الأحداث الكونية المستقبلية .

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم والفتن برقم ٤٢٤١ [عون المعبود (٣٤٠/١١)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٣٩٤٨ [السنن (١٣٠٨/٢)] ؛ والحاكم برقم ٢٦٦٦ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [المستدرك (١٦٩/٢)]

(❁) وفي رواية ذكرها آبادي عن البغوي ونسبها البغوي لأبي داود ، وفيها أن النبي ﷺ قد نسب وقوع هذه الأحداث للمدينة ؛ أي قال فيها : كيف بك يا أبا ذر إذا كان بالمدينة جوع .. إذا كان بالمدينة موت .. إذا كان بالمدينة قتل . [عون المعبود (٣٤٠/١١)

- العلامة الثالثة ، فيها إشارة إلى مقتلة عظيمة تحصل عند أحجار الزيت ، وهو موقع في المدينة المنورة في الحرة ، وكأن الحديث يشير إلى وقعة الحرة الحاصلة في زمن يزيد حيث استباح قائده مسلم بن عقبة المدينة ، وحصلت مقتلة عظيمة عند الحرة ، غرقت فيها أحجار الزيت بالدم يقول التوربتشي عند تفسيره للمراد بأحجار الزيت : « هي من الحرة التي كانت بها الوقعة زمن يزيد والأمير على تلك الجيوش العاتية مسلم بن عقبة المستبيح بحرم رسول الله ﷺ ، وكان نزوله بعسكره في الحرة الغربية من المدينة فاستباح حرمتها ، وقتل رجالها ، وعاث فيها ثلاثة أيام ، و قيل خمسة . » (١)

آية من آيات الله حصلت بعد وقعة الحرة .

📖 - عن سعد ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ . ﴾ (٢)

<u>أقول :</u>

هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى حرمة المدينة ، ومعاجلة الكائدين لها ، وهذه الآية رأيناها في مسلم بن عقبة الذي استباح حرمة المدينة وسفك دم أهلها ؛ حيث انماع كما ينماع الملح في الماء ، ومات بعد فعلته الشنيعة مباشرة بين الحرمين عندما خرج من المدينة قاصداً مكة ، ومات بعده أيضاً يزيد الذي أرسله وخسر هنالك المبطلون . (٣)

الإشارة النبوية إلى المبير والكذاب من ثقيف .

📖 - عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ النَّاجِيِّ أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ دَخَلَ عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها بَعْدَمَا قُتِلَ ابْنُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَقَالَ : إِنَّ ابْنَكِ أَلْحَدَ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذَاقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَفَعَلَ بِهِ مَا فَعَلَ . فَقَالَتْ : كَذَبْتَ كَانَ بَرًّا

---

(١) عون المعبود (٤٢/١١)

(٢) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٧٧ [البخاري مع الفتح (١١٢/٤)]

(٣) فتح الباري (١١٢/٤) ؛ عون المعبود (١١/ ٣٤٢) .

بِالْوَالِدَيْنِ صَوَّامًا قَوَّامًا وَاللَّهِ لَقَدْ أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابَانِ الْآخِرُ مِنْهُمَا شَرٌّ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ مُبِيرٌ . ﴾ (١)

﴿ إِنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا ، فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلَا إِخَالُكَ إِلَّا إِيَّاهُ قَالَ فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا . ﴾ (٢)

شرح :

- هذا الحديث فيه إشارة إلى اثنين من ثقيف إحداهما اشتهر بالكذب ، وهذا الوصف ينطبق على المختار ابن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى نصرة آل البيت بعد مقتل الحسين ﷺ ، ثم ادعى النبوة وكان شديد الكذب ، ومن أكاذيبه أنه ادعى أن جبريل ﷺ يأتيه بالوحي .
- كذلك في الحديث إشارة الحجاج بن يوسف الثقفي السفاح المشهور الذي قتل آلاف العلماء وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وصلب عبدالله بن الزبير ، واشتهر بفظائع عدة ، يقول النووي : « اتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد الثقفي ، والمبير الحجاج بن يوسف الثقفي .» (٣)

علامة خروج نار من أرض الحجاز

📖 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى . ﴾ (٤)

هذه العلامة تختلف عن سابقاتها بأنها تتعلق بحدث جيولوجي أو طبيعي يعصف بأرض الحجاز بينما العلامات الأخرى تتعلق بالبشر ، وهي بذلك تعتبر أول العلامات

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل برقم ٢٥٤٥ [مسلم بشرح النووي (٣١٣/٨)] ؛ أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٧٠٢٩ ، واللفظ له [المسند (٣٨٤/٦)]

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل برقم ٢٥٤٥ [مسلم بشرح النووي (٣١٣/٨)]

(٣) النووي : شرح مسلم (٣١٥/٨)

(٤) أخرجه البخاري في الفتن باب خروج النار ، حديث رقم ٧١١٨ [البخاري مع الفتح (٨٤/١٣)] ؛ ومسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٠٢ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٢٧)]

الأرضية التي وقعت كما وصف النبي ﷺ ، ووقوعها دليل من دلائل نبوته، أما عن زمان وقوعها فكان سنة ٦٥٤ هـ .

ومع أن هذا الحدث طبيعي يحدث مثله دائماً في كثير من أصقاع الأرض البركانية ؛ إذ هو عبارة عن لابة بركانية منفجرة من جوف الأرض والله أعلم إلا أن النبي ﷺ اعتبره شرطاً من أشراط الساعة ، والحكمة من ذلك في ظني تكمن في طبيعة المرحلة التي تقع بها هذه العلامة ، فهي مرحلة ضعف عصفت بالأمة الإسلامية رافقها فرقة واختلاف وتشرذم ، مع سطوة للشبهات والشهوات في تلك المرحلة ، فجاءت هذه العلامة الحسية وفق الوصف النبوي لتدلل على صدق الرسالة ، وصدق صاحبها ، فتكون بمثابة جذوة إيمانية يستنير بنورها أهل الحق في ذلك الزمان ، ودعامة حق تضيف رصيداً إيمانياً مثبتاً لأهل الملة في ذلك الزمان ؛ حيث يرون هذه المعجزة الحسية تحصل وفق ما أخبر النبي ﷺ بها قبل أكثر من ستة قرون من حدوثها .

كذلك تتضمن هذه العلامة تحذيراً للأمة في مرحلة تعتبر من أحرج المراحل التي مرت بها ، ففي اللحظة التي كان يعصف بركان طبيعي بجوار العاصمة الأولى للرسالة المحمدية ، كان يتململ بركان بشري آخر ليعصف بعاصمة الخلافة آنذاك (بغداد) هذا البركان البشري المتمثل بالتتار الذين هجموا على دار الخلافة كالسيل العارم فقتلوا العباد ودمروا البلاد ، وأسقطوا الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ .

أوصاف نار الحجاز سنة ٦٥٤ هـ .

نلحظ من الحديث السابق أن النبي ﷺ صرح بخروج نار عظيمة من الحجاز ، وتبلغ عظمتها لدرجة أن شدة ضوئها يبلغ أطراف الشام الجنوبية ، ويضيء أعناق الإبل فيها وخص الحديث بلد بصرى - وهي بلد معروفة في الشام و تسمى حوران - للدلالة على المدى البعيد الذي سيبلغه ضوء هذه النار .

وقد ذكر علماء المئة السابعة أو من عاصروا خروج النار توصيفاً لها أو تأكيداً لوقوعها ، أذكر بعضه هنا :

١- قال الإمام النووي : « تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام . » (١) وكلام النووي يشير صراحة إلى استفاضة الأخبار المصرحة والمؤكدة والمعاينة لخروج النار ، وهذه الاستفاضة حصلت بين الناس في الشام لدرجة إفادتها القطعي الدال على وقوعها .

٢- قال القرطبي : « قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة ، كان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة ، فسكنت ، وظهرت بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم .. لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم ، فانتهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان ياتي المدينة نسيم بارد ، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر ،وقال لي بعض أصحابنا :رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام،وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى. » (٢)

هذا توصيف القرطبي لنار الحجاز ، وتوصيفه يتطابق مع ما نعهده أو نراه عبر شاشات التلفاز للانفجارات البركانية الشديدة .

٣- يقول أبو شامة : « أخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب .. » ويعقب أبو شامة « ومن ذلك أن في بعض الكتب : ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض ، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد .. و في كتاب آخر انبجست الأرض من

(١) ابن حجر : فتح الباري (٨٥/١٣)

(٢) القرطبي : التذكرة (٧٢١ وما بعدها)

الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة ، وهي برأي العين من المدينة . » (١)

علامة قتال الترك ، والتتار

-عن عَمْرُو بْنُ تَغْلبَ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلُونَ نِعَالَ الشَّعَرِ وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا عِرَاضَ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ . ﴾ وفي رواية : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التُّرْكَ قَوْمًا وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ يَلْبَسُونَ الشَّعَرَ وَيَمْشُونَ فِي الشَّعَرِ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

المجان : جمع مجن ، وهو الترس .

المطرقة : التي أُلبست الأطرقة من الجلود ، وهي الأغشية ، والمراد هنا أن وجوههم عريضة وغليظة كثيرة اللحم كالتروس التي كسيت جلداً ، يقال : لبست نعلين مطارقين ؛ أي مطبقين واحداً فوق الآخر (٣) يقول البيضاوي : « شبه وجوههم بالترسة لبسطها وتدويرها ، وبالمطرقة لغلظها وكثرة لحمها » . (٤)

ينتعلون الشعر : أي يلبسون نعالاً من الشعر ، وظاهر الحديث يشير إلى أن الذين ينتعلون الشعر طائفة غير الترك عراض الوجوه . (٥)

الترك : أمة من الأمم يقال أنهم من أولاد يافث ، ويقال أنهم بنو قنطوراء ، وقنطوراء جارية كانت لإبراهيم فولدت له أولاداً فانتشر منهم الترك ، وهذا الرأي جزم به بعض العلماء واستبعده ابن الأثير ، وفي ظني أنه بعيد ، أما عن موقعهم الحقيقي فهو في الغالب من مشارق خراسان

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٨٥/١٣)

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٩٢٧ [البخاري مع الفتح (٦/؛ ومسلم في الفتن ٢٩١٢[مسلم بشرح النووي (٢٣٣/٩)]

(٣) ابن الأثير : النهاية (١٢٢/٣)

(٤) فتح الباري (٧٠٣/٦)

(٥) فتح الباري (١٢٢/٦)

إلى مغارب الصين ومن شمال الهند إلى أقصى المعمورة ، وهذه البقعة التي ذكرها ابن حجر تصدق على بلاد التتار والمغول . (١) والصحيح أن اسم الترك يطلق على الشعوب التي تقطن وراء جبال القوقاز ، ووفق هذا الإطلاق نحن أمام أمة عظيمة تحتل مساحات ضخمة من آسيا ، إلا أن الأوصاف المذكورة في أكثر الأحاديث تنطبق على أمتي التتار والمغول (٢) ، وفي ظني أن قتال الترك في السنة يراد به الإشارة إلى عدة وقائع لا وقعة واحدة .

— عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ ، حُمْرَ الْوُجُوهِ ، ذُلْفَ الْأُنُوفِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُمْ الشَّعَرُ ﴾

وفي رواية ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلَكُمْ أُمَّةٌ يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرَ . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

ذلف الأنوف : فطس الأنوف ، أو هو قصر الأنف وغلظ أرنبته مع انبطاحه (٤)

حمر الوجوه : بيض الوجوه مع حمرة .

أقول :

هذه الرواية والرواية التي قبلها يدلان على أن الذين ينتعلون الشعر قوم غير الترك المقصودين في نص الحديث ، فالحديث يشير إلى قتال فريقين ، وليس فريقاً واحداً ، ويرى ابن حجر أن هذا الوصف ينطبق على بابك وأصحابه الذين كانت نعالهم من الشعر ، وبابك هذا أحد الزنادقة الذين خرجوا على الدولة العباسية ، وكان موطنه الرئيس بين أذربيجان وآران في شمال بلاد فارس ، خرج في عهد المأمون والمعتصم ، وكان يرى وأصحابه إباحة سائر المحرمات فأشبه بذلك المزدكية ، وقد انتشرت بدعته في

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (٦/٧٠٣) ؛ العدوي : الصحيح المسند (٣٣٠ وما بعدها)

(٢) انظر حوى : الأساس في السنة ، قسم العقائد (٢/٩٤٥)

(٣)أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٩٢٧ [البخاري مع الفتح (٦/١٢٢)] ؛ ومسلم في الفتن ٢٩١٢[مسلم بشرح النووي (٩/٢٣٣)]

(٤) انظر : النووي : شرح مسلم (٩/٢٤٠) .

جبال أصبهان وما سبذان وهمذان ، وقامت له شوكة عظيمة في أيام المأمون ، وغلب على كثير من بلاد العجم كطبرستان والري وعاث في الأرض فساداً وتقتيلاً إلى أن انتهت فتنته في عهد المعتصم بعد حروب دامية ، وبابك وأصحابه كانوا ينتعلون الشعر ويلبسون الشعر ، ولعل طبيعة المنطقة الجبلية والثلجية فرضت عليهم هذا التقليد . (١)

ويظهر من سياق الحديث أن ما ذكره ابن حجر له نصيب من الصحة ، فتلك المناطق وطبيعة أهلها يصدق في حقهم هذا الوصف ، فيكون بهذه الفقرة في الحديثين الإشارة إلى قتال هؤلاء الزنادقة من الترك أو من الأقوام الذين ينتعلون الشعر .

– عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا خُوزًا وَكَرْمَانَ مِنَ الْأَعَاجِمِ حُمْرَ الْوُجُوهِ فُطْسَ الْأُنُوفِ صِغَارَ الْأَعْيُنِ وُجُوهُهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ. ﴾(٢)

شرح الغريب

خوز وكرمان : إقليمان من أقاليم العجم ، أما كرمان فهي بلدة مشهورة بين خراسان وبحر الهند ، وأما خوز فهي من عراق العجم ، ويمكن أن يراد بها مناطق قريبة من بحر قزوين .

أقول :

في هذا الحديث إشارة إلى ما ذكرت من أن المراد بأحاديث قتال الترك ، هو ما سيقع بين المسلمين وبين الأقوام التي خلف جبال القوقاز ، ومن شابههم في الأوصاف في المشرق ، وهذه الأحاديث بمجموعها تشير إلى عدة معارك ، وليس إلى معركة واحدة .

– عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ لَيَنْزِلَنَّ الدَّجَّالُ خُوزَ وَكَرْمَانَ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ . ﴾ (٣)

(١) انظر الخضري بك (١٩٦ وما بعدها) ؛ ابن حجر (فتح الباري (١٢٢/٦)

(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٥٩٠ [البخاري مع الفتح (٦٩٩/٦)]

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٤٧٤ [المسند (٤٥٠/٢)]

أقول :

هذا الحديث فيه إشارة إلى أن من أتباع الدجال من يحمل أوصاف الترك ، والمتتبع لتحركات الدجال الأولية يجد أن بداية تحركاته تكون من ناحية بحر قزوين من أصبهان وغيرها ، وهذا الوصف يتفق مع أوصاف القومية التي تسكن تلك المناطق ، وفي الحديث إشارة إلى عدد السبعين ألف ، وورد في أحاديث أخرى أنه يتبع الدجال سبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم الطيالسة ، فهل هم المقصودون في هذا الحديث ، الأمر يحتمل ذلك ؛ ويكون هذا الحديث قد أشار إلى أوصافهم ، والحديث الآخر قد أشار إلى ديانتهم ، هذا في حال عدم اعتبار نقاء العرق اليهودي .

كذلك في الحديث إشارة إلى أن الدجال سيترل خوزاً وكرمان بأقوام وجوههم كالمجان المطرقة ، وفي الحديث الذي سبقه جاء التصريح بأن المسلمين سيقاتلون خوزاً وكرمان بين يدي الساعة ، ومجموع الحديثين يعزز لدي أن إحدى محطات أنصار الدجال منطقة خوز وكرمان ؛ لذا عبر الحديث بترول الدجال ؛ أي يكون نزيلاً عندهم مما يوحي بأنها بيئة نصرة له ؛ ثم ينطلق بهم لقتال المسلمين من هاتين القاعدتين ، ووفق هذا الرأي يكون حديث قتال المسلمين لخوز وكرمان مشيراً إلى معركة لم تقع بعد .

ويحتمل الأمر أن خوزاً وكرمان يعتبران من أول المعاقل التي تقع في يد الدجال ، ومنها يتوجه لقتال المسلمين بمن معه ممن يحمل أوصاف الترك ممن هاجم بهم خوزا وكرمان .

📖 – عن بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ **إِنَّ أُمَّتِي يَسُوقُهَا (❁) قَوْمٌ عِرَاضُ الْأَوْجُهِ صِغَارُ الْأَعْيُنِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْحَجَفُ ،**

(❁) هذا لفظ الإمام أحمد ، والرواية عند أبي داود مغايرة ؛ حيث ذكر فيها أن المسلمين هم الذين يسوقون الترك ثلاث مرات ، وأغلب الظن أن الخطأ وقع في رواية أبي داود ، وذلك للقرائن المتعددة في سياق الحديث والتي تعزز رواية الإمام أحمد ، والواقع أيضاً يشهد لها ، وقد رجح شارح أبي داود رواية الإمام أحمد ، حيث قال : « وعندي أن الصواب هي رواية أحمد أما رواية أبي داود فالظاهر أنه قد وقع الوهم فيه من بعض الرواة . » [عون المعبود (١١/ ٤١٤)]

ثَلَاثَ مِرَارٍ حَتَّى يُلْحِقُوهُمْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ : أَمَّا السَّابِقَةُ الْأُولَى فَيَنْجُو مَنْ هَرَبَ مِنْهُمْ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَيَهْلِكُ بَعْضٌ وَيَنْجُو بَعْضٌ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَيُصْطَلُونَ كُلُّهُمْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ . قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! مَنْ هُمْ ؟ قَالَ : هُمُ التُّرْكُ قَالَ : أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَرْبِطُنَّ خُيُولَهُمْ إِلَى سَوَارِي مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ . قَالَ : وَكَانَ بُرَيْدَةُ - الصحابي راوي الحديث - لَا يُفَارِقُهُ بَعِيرَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ وَمَتَاعُ السَّفَرِ وَالْأَسْقِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْهَرَبِ مِمَّا سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْبَلَاءِ مِنْ أُمَرَاءِ التُّرْكِ . ﴾ (١)

أقول :

- لعل في الحديث إشارة إلى تلك الموجة الشرسة التي قام بها التتار عندما عاثوا فساداً في المشرق الإسلامي وتوجهوا نحوا المغرب فأسقطوا دار الخلافة العباسية سنة ٦٥٤ هـ ، وقد حمل القرطبي وغيره هذا الحديث على هجمة التتار ، فقال « وقد وقع ذلك على نحو ما أخبر النبي ﷺ ، فخرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله ، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله حتى كأنهم يأجوج ومأجوج . » و نقل عن الحافظ ابن دحية قوله : « وخرج منهم في جمادى الأولى سنة ٦١٧ هـ جيش من الترك يقال له الططر (أي التتار) عظم في قتله الخطب والخطر ، وقضى له في قتل النفوس المؤمنة الوطر ، فقتلوا ما وراء النهر وما دونه من جميع بلاد خراسان ، ومحوا رسوم ملك بني ساسان ، وخربوا مدينة نشاور (أي بيشاور في باكستان) وأطلقوا فيها النيران ، وحاد عنهم من أهل خوارزم كل إنسان ، ولم يبق منهم إلا من اختبأ في المغارات والكهفان ، حتى وصلوا إليها وقتلوا وسبوا وخربوا البنيان ، وأطلقوا الماء على المدينة من نهر جيحان ، فغرق منها مباني الدرار والأركان ثم وصلوا إلى بلاد نهشان ، فخربوا مدينة الري وقزوين ومدينة أردبيل ، ومدينة مراغة كرسي بلاد أذربيجان ، وغير ذلك . » (٢)

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٨٣[عون المعبود (٤١٢/١١)] ، وأحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٤٤٣ واللفظ له ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار باختصار ، ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣١١/٧)]

(٢) القرطبي : التذكرة (٦٧٧)

هذا نص أورده القرطبي عن ابن دحية أردت أن أثبته هنا ليتضح مدى فظاعة الترك ، أو التتار وعظمة هجمتهم الشرسة لدرجة أن الناس كانت تفر منهم إلى الجبال والمغارات ، ومن رام الاستزادة في بيان فظائع التتر والخراب الذي خلفوه وراءهم في البلاد الإسلامية فليراجع كتاب الدولة العباسية للخضري بك. (١)

وأوصاف العلماء والمؤرخين لتلك الهجمة الشرسة يتفق وسياق الحديث السابق ، والأثر النفسي الذي خلفه عند راوي الحديث لدرجة أنه كان يعد فرساً أو فرسين للهرب إذا سمع بهجمة الترك ، ولعله سمعاً حديثاً عجاباً من رسول الله ﷺ عن قتال الترك غير هذا الحديث ، وعلم من مجموعها أنه لا يدان في بادئ الأمر لأحد بقتالهم ، وأن الخراب الذي سيخلفونه وراءهم ليس هيناً بما يوحي **أنهم سيف نقمة سُلط على الأمة الإسلامية في مرحلة من مراحل ضعفها** ، وهذا ما وقع بالفعل ، ووفق الصورة التي ذكرها النبي ﷺ .

- يرى القرطبي أن خرجات الترك قد وقعت كلها ، حيث يقول : « **فقد كملت بحمد الله خرجاتهم ، ولم يبق إلا قتلهم وقتالهم .** » (٢) وفي ظني أنه للترك بقايا خروج في آخر الزمان ، ولعل بعضها مع الدجال ، وآخرها يأجوج ومأجوج .

📖 - عَنِ ابْنِ حَرْمَلَةَ عَنْ خَالَتِهِ قَالَتْ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ إِصْبَعَهُ مِنْ لَدْغَةِ عَقْرَبٍ فَقَالَ : ﴿ **إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لَا عَدُوَّ ! وَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عِرَاضُ الْوُجُوهِ صِغَارُ الْعُيُونِ شُهْبُ الشِّعَافِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ .** ﴾ (٣)

شرح الغريب :

شهب الشعاف : أصل الشهاب شعلة من النار ، ويراد به هنا البياض الذي يعلو الرأس

---

(١) انظر ص ٤٧٠ -٤٧٧ من ذلك الكتاب .

(٢) القرطبي : التذكرة (٦٧٨)

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٣٩٤ [المسند (٥/ ٣٢٠)] والحديث إسناده حسن

والشعاف يراد بها هنا أعلى شعر الرأس ، وشهب الشعاف ؛ أي أن أعالي شعر رأسهم لونه أبيض .

أقول :

- الحديث فيه إشارة إلى أن الأمة لا تخلو من عدو لها على مر الدهر حتى ينتهي الأمر بالعدو الذي لا يدان لأحد بقتالهم وهم يأجوج ومأجوج ، ومن تتبع تاريخ الأمة يجد أنها لم تخل من عداوة الغير ومن الاقتتال الخارجي أو الداخلي ، والأمة في صراع مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
- في الحديث إشارة عجيبة إلى طبيعة أوصاف يأجوج ومأجوج ، ويلحظ منها أنها أوصاف الترك بعينهم ؛ فإذا أضفنا القرائن الأخرى الواردة في الأحاديث الصحيحة الدالة على أن يأجوج ومأجوج من البشر ، تبين لنا أن المراد بهم أمة الترك الموصوفة بهذه الأوصاف ، وهذا ما سأبينه عند حديثي عن ياجوج ومأجوج .

- عَنْ أَبِي سُكَيْنَةَ رَجُلٌ مِنَ الْمُحَرَّرِينَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ . ﴾ (١)

شرح :

- الحديث يشير إلى عدم التعرض لقتال الحبشة والترك طالما أن هاتين الأمتين لم يتعرضا للمسلمين ، و لم يبدءا قتالهم.
- قال الخطابي : « إن الجمع بين قوله تعالى : { قاتلوا المشركين كافة } وبين هذا الحديث أن الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيد ويجعل الحديث مخصصا لعموم الآية كما خص ذلك في حق المجوس فإنهم كفرة ومع ذلك أخذ منهم الجزية لقوله ﷺ : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب » (٢)

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٤٢٨٠ [عون المعبود (٤٠٩/١١)] ؛ والنسائي في الجهاد [السنن (٤٣/٦)]؛ قال الألباني : صحيح [السلسلة الصحيحة : ح (٧٧٢)]

(٢) عون المعبود (١١/ ٤٠٩)

- الحكمة من عدم تهييج أمتي الترك والحبشة بينها آبادي بقوله : « وأما تخصيص الحبشة والترك بالترك والودع فلأن بلاد الحبشة وغيره بين المسلمين وبينهم مهامه وقفار فلم يكلف المسلمين دخول ديارهم لكثرة التعب وعظمة المشقة ، وأما الترك فبأسهم شديد وبلادهم باردة والعرب وهم جند الإسلام كانوا من البلاد الحارة فلم يكلفهم دخول البلاد ، فلهذين السرين خصصهم .» (١)
- جاء في حديث النسائي بيان سبب ورود هذا الحديث وزمانه ؛ حيث بين أن النبي ﷺ قال ذلك عند مشاركته في حفر الخندق وبشارته للمسلمين بفتح مدائن كسرى وقصور اليمن والشام . (٢)

نصيحة نبوية غابت عن المسلمين :

هذا الحديث يبرز لنا فائدة عظمى من فوائد علامات الساعة ، وتوجيهاً نبوياً غفلت عنه الأمة ، فذاقت وبال مخالفته ، فالنبي الكريم قد أرشد أمته إلى عدم تهييج الترك ، وتركهم وشأنهم ، وعدم بدئهم بقتال ونحوه ، واستمر المسلمون على هذا الهدي ردحا من الدهر ، إلى أن وقعوا في المخالفة وعواقبها ، وقاموا بتهييج الترك و قائدهم جنكيز خان وتحرشوا بتجاره وقتلوهم واستولوا على بضاعتهم ، وأساءوا معاملة رسوله تحقيراً لهم مما هيج جنكيز خان للتحرك نحوهم انتقاماً فكانت الطامة الكبرى بما يعرف الهجمة المغولية على بلاد المسلمين .

هذه المخالفة يبرزها ابن كثير بقوله : « وقد قتل جنكيز خان - زعيم التتار - من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ، ولكن كان البُداءة من خوارزم شاه فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده ، فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه ، وأخذ جميع ما كان معهم ، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه : هل وقع هذا الأمر عن رضى منه ، أو أنه

---

(١) عون المعبود (١١/ ٤٠٩) ؛ وانظر شرح السيوطي على النسائي (٤٤/٦)
(٢) النسائي : كتاب الجهاد [السنن (٤٣/٦)]

لا يعلم به فأنكره ؟ ، وقال فيما أرسل إليه : من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون ؛ لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة ، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك ، فقتلهم نائبك ؛ فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك .

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان ، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير ، وقد كان خرف وكبرت سنه ، وقد ورد في الحديث اتركوا الترك ما تركوكم ، فلما بلغ ذلك جنكيز خان ، تجهز لقتاله ، وأخذ بلاده ، فكان بقدر الله سبحانه وتعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ، ولا أبشع . » (١)

ويوضح الخضري بك سبب هذه المأساة التي حلت بالمسلمين ، والتي كانت بعد معاهدة تبادل تجاري بين جنكيز خان وخوارزم شاه ، استطاع التجار بعدها أن يترددوا بين الطرفين آمنين ، ثم كان الغدر من جهة والي خوارزم شاه ، يقول الخضري بك : « وفي سنة ٦١٥ هـ سافر تجار من بلاد **جنكيز خان** حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهي بلدة بثغر **خوارزم شاه** بساحل سيحون ، وبها وال كان من قبله ، فلما ورد هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم ، فأرسل قاصداً إلى **خوارزم شاه** يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قدموا في زي تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم ، فسارع ذلك الوالي المشئوم إلى ذلك ، وأرسل إلى خوارزم شاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها ، فلما بلغ ذلك **جنكيز خان** أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزم شاه يخبر بصورة الحال ، ويطلب منه **غاير خان** ذلك الوالي ليقتص منه ، فلم يكن من الأحمق خوارزم شاه إلا أن قتل الرسول ، فلما بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضباً وصمم على قصده وحربه ، وعلم خوارزم شاه أنه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (١٣/١١٩)

قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة ، وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه ... » (١)

هذان النصان عند ابن كثير والخضري بك يبرزان سبب بدء الغارة المغولية على العالم الإسلامي ؛ حيث كانت المخالفة للهدي النبوي والحماقة التي ارتكبها بعض ولاة المسلمين ببدء هذه الأمة العظيمة بالقتال مع نهي النبي ﷺ عن ذلك هو الذي حرك جيوش التتار نحو تخريب العالم الإسلامي .

نظرة إجمالية حول قتال الترك .

- المعلوم أن النبي ﷺ قد بين في هديه طبيعة الأعداء التي سيواجهها المسلمون إلى قيام الساعة ، وهم الفرس والروم (النصارى) ، والترك ، والحبشة في مواطن محدودة ، واليهود ، والدجال ، ويأجوج ومأجوج (✽) ، والملاحظ أن الترك يمثلون جزءاً من الصراع الذي سيخوضه المسلمون ، والمتتبع لأحاديث النبي ﷺ الخاصة بقتال الترك يتحصل له من مجموعها أنها تشير إلى عدة معارك وعدة جولات ، وأحداث متكررة لا حدثاً واحداً ، ولعل أعظم هذه الأحداث هو هجمة التتار على العالم الإسلامي ، والتي كانت سبباً في سقوط الخلافة العباسية .

والذي يعزز عندي كون مجموع الأحاديث يشير إلى عدة أحداث ، أنها تتضمن إشارات إلى مواقع متعددة ، و إلى أوصاف متغايرة تدل على قوميات متعددة داخل الأمة التركية ، وكذلك سياق الأحاديث وصيغها وألفاظها تشير أحياناً إلى معارك عدة ، فبعضها يشير إلى أن الذي يبدأ القتال هم المسلمون يدل على ذلك الأحاديث التي بدأت بقول النبي ﷺ تقاتلون ، وبعضها يشير إلى أن الهجمة تبدأ من الترك بينما يكون المسلمون في مقام الدفاع عن أنفسهم ، وهذه يدل عليها الأحاديث التي تضمنت لفظة يقاتلكم .

---

(١) الخضري بك : الدولة العباسية (٤٧٠)

(✽) هناك قرائن عديدة تشير إلى أن يأجوج ومأجوج من الترك منها حديث ابن حرملة السابق ذكره ، وبالتالي يمكن اعتبار هجمة يأجوج ومأجوج جزءً من صراع الأمة مع الترك .

وعلى وجه العموم إذا نظرنا إلى أن المراد بالأمة التركية كل الأقوام الذين يسكنون وراء جبال القوقاز ، فيكون المراد بالأحاديث الدالة على قتال المسلمين للترك إشارة للفتوحات الإسلامية لتلك الأماكن مثل بخارى وتركستان وأذربيجان وغيرها .

أما الأحاديث الدالة على قتال الترك للمسلمين وهجومهم عليهم فيراد به الهجمة الشرسة من أمتي المغول والتتار على العالم الإسلامي ، وقد يراد ببعض هذه الأحاديث أموراً مستقبلية لم تقع بعد ، بعضها مع الدجال ؛ حيث يكون بعض الترك أتباعه ، وبعضها قد يشير إلى بعض جولات الصراع مع يأجوج ومأجوج .

- ووفق كل الاحتمالات السابقة يمكن اعتبار هذه الأحاديث من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع ما أخبر به ، يقول النووي : « وهذه كلها معجزات لرسول الله ﷺ ، فقد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها النبي ﷺ صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة ينتعلون الشعر ، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا ، وقاتلهم المسلمون مرات . » (١)

ويقول سعيد حوى : « لقد قاتل المسلمون زنادقة انطلقوا من بلاد فارس ، وقاتلوا قبائل انطلقوا من أرض الترك ، وقاتلوا الأتراك قبل دخولهم في الإسلام ، وقاتلوا قبائل انطلقوا مما وراء بلاد الترك كالمغول والتتار .. وذلك من معجزاته ﷺ . » (٢)

---

(١) النووي : شرح مسلم (٩/ ٢٤٠)

(٢) حوى : الأساس (٢/ ٩٤٢)

الفصل الثاني : العلامات الصغرى الصريحة

ويتضمن ثلاث وثلاثون علامة

١- (قبض العلم) ٢- (التماس العلم عند الأصاغر)٣- (خـروج الكـذابين وأدعياء النبوة)
٤- (كثـرة الزلازل) ٥- (تقـارب الزمـان) ٦- (كثـرة الهـرج) ٧- (نقصـان العمـل)
٨- (إلقاء الشـح) ٩ - (ظهـور الفتن) ١٠ - (إفاضة المـال) ١١ - (التطاول في البنيان)
١٢- (رؤية الحفاة العراة ملوك الأرض) ١٣ -.(ظهور الزنا و انتشاره)١٤- (استحلال الخمر)
١٥- (اتخاذ القينات والمعازف)١٦- (تضييع الأمانة ورفعها) ١٧- (توسيد الأمر إلى غير أهله)
١٦- (تقارب الأسواق) ١٩- (كثرة الكذب)٢٠- (تسليم الخاصة) ٢١- (مساعدة المرأة زوجها)
٢٢- (انتشار الغش في التجارة) ٢٣ - (غياب المعيار الديني في التمييز بين الحق والباطل)
٢٤- (ظهور الفحـش والتفحـش) ٢٥ - (سـوء الجوار) ٢٦ - (قطـع الأرحام)
٢٧- (انتشار شهادة الزور وكتمان الحق) ٢٨- (انتشار آلات الكتابة) ٢٩- (هيمنة الأشرار)
٣٠- (هلاك الوعـول وظهـور التحـوت) ٣١ - (أسعد النـاس اللؤمـاء والسفـهاء)
٣٢ - (تعظيم الناس لكتب غير كتاب الله) ٣٣ - (عودة الوثنية) ٣٤- (التباهي في المساجد)

تقـــديم

يمكن تقسيم العلامات التي وقعت وما تزال في ازدياد حتى وقوع العلامات الكبرى إلى قسمين ، الأول : القسم الصريح ، وهو الذي يتصدر الحديث فيه بألفاظ وصيغ تدل صراحة على أنها من علامات الساعة ، كقول النبي ﷺ لا تقوم الساعة ، أو بين يدي الساعة ، أو من أماراتها ..إلخ

أما القسم الثاني فهو العلامات غير الصريحة ، وهي التي تدل على إشارات مستقبلية مغايرة لعهد النبوة ، ولم يقترن فيها أي صيغة تبرز أنها من علامات الساعة كالصيغ السابقة .

واعتبارنا أن هذا القسم يدخل في علامات الساعة مبني على اعتبار أن بعثة النبي ﷺ نفسها تعتبر من علامات الساعة ؛ حيث إن كل حدث أو تغير عن زمن البعثة يعتبر كإشارة أو دلالة من دلالات قرب الساعة ؛ لذا نجد علماء الحديث يدرجون الأحاديث الدالة على الأمور المستقبلية في أبواب الفتن والملاحم والعلامات .

وهذا الفصل خصصته للعلامات الصغرى الصريحة ، أبدأه ببعض الأحاديث الجامعة لهذه العلامات ، ثم أتناول كل علامة بالشرح التفصيلي ، مضيفاً باقي العلامات الواردة في هذا الباب وذلك على النحو التالي

أولاً : أحاديث جامعة .

📖 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي بِهِ ، وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ ، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ يَعْنِي آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ

حِينَ (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا . ﴾ (١)

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ . ﴾ (٢)

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا وَمَا الْهَرْجُ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ . ﴾ (٣)

قال ابن بطال : « جميع ما تضمنه هذا الحديث من الأشراط قد رأيناها عياناً ، فقد نقص العلم ، وظهر الجهل ، وألقي الشح في القلوب ، وعمت الفتن ، وكثر القتل . » (٤)

هذه الأحاديث الجامعة تضمنت عدة علامات للساعة يعنينا منها في هذا الفصل عشر علامات (❁) ، وهي قبض العلم ، وكثرة الزلازل ، وتقارب الزمان ، و

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٢١ [فتح الباري (٨٨/١٣)]

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء برقم ١٠٣٦[البخاري مع الفتح (٦٠٥/٢)] ؛ومسلم في العلم ١٥٧ [مسلم بشرح النووي (٤٤٠/٤)]

(٣) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٦١ [البخاري مع الفتح (١٦/١٣)] ؛ ومسلم في العلم ١٥٧[مسلم بشرح النووي (٤٤٠/٤)]

(٤) فتح الباري (١٨/١٣)

(❁) آثرت أن أرتب العلامات وفق ما يراه العلماء قديماً وحديثاً من أن أكثر العلامات الصغرى قد وقعت ، وفي ظني أن بعض هذه العلامات لم يقع بعد بالشكل المراد في الأحاديث ، ومن هذه العلامات التي لم تقع في ظني : تقارب الزمان وكثرة الزلازل ؛ لذا سأطرحها مرة أخرى في موطنها الذي أتصوره فيها مع محافظتي هنا على التصور العام الذي يراه أكثر العلماء ، وبالتالي أجمع بهذه الطريقة بين جميع التصورات المحتملة من الأحاديث .

انتشار القتل بشكل غير معهود ، وكثرة الأموال ، ونقص العمل ، وإلقاء الشح ، وانتشار الكذابين ، والتطاول في البنيان ، وحصول اليأس ، وشرح هذه العلامات وغيرها مما ثبت في أحاديث أخرى على النحو التالي :

ثانياً : شرح تفصيلي .

﴿ العلامة الأولى : قبض العلم ﴾

وهذه العلامة جاء ما يشرح المراد بها في أحاديث أخرى منها :

- عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » (١)

شرح :

الحديث صريح في بيان كيفية قبض العلم ، وذلك بقبض العلماء ، والأصل أن العلم يتوارث إذا بقي في الأمة الاستعداد لحمل تبعات الرسالة ، لكن إذا فسد حال الناس وزهدوا في طلب العلم وتحمل تبعاته ، وانحصر العلم في حملته فقط ، فإنه يترتب على ذلك أن قبض كل عالم في ذلك الزمان إنما هو قبض لعلمه ؛ لأنه لم يتحمله عنه غيره ، وبقبض العلماء في زمان يزهد الناس فيه في طلبه يقبض العلم ، ويستقر أمر الفتوى -وهي أعلى مراتب العلم (✽) - بيد الجهال ، فيكون على يديهم ضلال الناس .وقد ورد في أثر عن الإمام أحمد والطبراني عن أبي أمامة أن النبي ﷺ إنما قال ذلك في حجة الوداع وفيه : « لَمَّا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُرْدِفٌ الْفَضْلَ بْنَ

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم ١٠٠ [البخاري مع الفتح (١/٢٣٤)] ؛ ومسلم في العلم برقم ٢٦٧٣ [مسلم بشرح النووي (٤/٤٤٠)]

(✽) لعظمة علم الفتوى عنون الإمام ابن القيم كتابه الخاص بالعلوم المؤسسة للاجتهاد و الفتوى باسم « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ؛ حيث اعتبر مقام المفتي والاجتهاد المفضي لها بمثابة الموقع عن رب العالمين ، والمبين لمراده في الأرض ، وأي مقام يدنو من هذا المقام .

عَبَّاسٍ عَلَى جَمَلٍ آدَمَ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ .. فَقَالَ أعرابي لَهُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! كَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ مِنَّا وَبَيْنَ أَظْهُرِنَا الْمَصَاحِفُ وَقَدْ تَعَلَّمْنَا مَا فِيهَا وَعَلَّمْنَا نِسَاءَنَا وَذَرَارِيَّنَا وَخَدَمَنَا ؟ قَالَ : فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ ، وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةٌ مِنَ الْغَضَبِ . فَقَالَ : أَيْ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَيْنَ أَظْهُرِهِمُ الْمَصَاحِفُ لَمْ يُصْبِحُوا يَتَعَلَّقُوا بِحَرْفٍ مِمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ . أَلَا وَإِنَّ مِنْ ذَهَابِ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ ثَلَاثَ مِرَارٍ . ﴾ (١)

فالأثر السابق يبين لنا أهمية بقاء حملة العلم في الأمة ، وفيه بيان أن بقاء العلم في الكتب لا ينفع مع فناء العلماء الذين يبينون المراد منه ، وقد جاء في أثر آخر ما يشير إلى أن قبض العلم أحد أسباب ثلاثة لضياع الأمة و تنكبها عن صراط الله سبحانه وتعالى ، وعن نهج الشريعة ، فعَنْ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ لَا تَزَالُ الْأُمَّةُ عَلَى الشَّرِيعَةِ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهَا ثَلَاثٌ مَا لَمْ يُقْبَضِ الْعِلْمُ مِنْهُمْ ، وَيَكْثُرْ فِيهِمْ وَلَدُ الْحِنْثِ ، وَيَظْهَرْ فِيهِمُ الصَّقَّارُونَ . قَالَ : وَمَا الصَّقَّارُونَ أَوِ الصَّقْلَاوُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : بَشَرٌ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَحِيَّتُهُمْ بَيْنَهُمُ التَّلَاعُنُ . ﴾ (٢)

وأرى أن هذه العلامة - أي قبض العلم - بهذا الشكل قد تكون بعد عيسى ﷺ ، حيث يبدأ الأمر بالانحسار ، فتكون أول علاماته قبض العلماء ، ثم رفع القرآن ، ثم غياب رسم الدين من حياة الناس ، فلا يبقى من يقـــول لا إله إلا الله ، أو يقول الله ،

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٣٥٣ ، وفيه علي بن يزيد ، ضعيف [المسند (٣١٤/٥)] ؛ وله شاهد عند الدارمي عن أبي الدرداء برقم ٢٨٨ [مسند الدارمي (٩٩/١)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وعند ابن ماجة طرف منه ، وإسناد الطبراني أصح ؛ لأن في إسناد أحمد على بن يزيد وهو ضعيف جداً ، وهو عند الطبراني من طرق فيها الحجاج بن أرطأة ، وهو مدلس صدوق يكتب حديثه [مجمع الزوائد (٢٠٠/١)]

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسند المكيين ، وسنده ضعيف فيه ابن لهيعة ؛ إلا أن المتن له شواهد في الصحيح ، خاصة المقطع الأول فيه وهو الذي يعنينا من الحديث [المسند (٥٣٦/٣)]؛ والطبراني [المعجم الكبير (٢٠ / ١٩٥)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وزبان وكلاهما ضعيف ،وقد وثقا [مجـــمع الزوائـــد (٢٠٢/١)] ؛ وأخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٣٧١ ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين [المستدرك (٤/ ٤٩١)]

عندها تقوم الساعة .

ويحتمل أن يراد بها ما نعيشه الآن ، أو في الزمان الماضي القريب من ندرة العلماء الربانيين ؛ وإن كان قد كثر من ينتسب لعلم الدين ، ولكن قليل منهم من اتضحت معالم الرسالة لديه ، وحدد هدفه من علمه ، وهو ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، والدار الآخرة ؛ وغياب هذا الهدف عند من يحمل علم الدين أخطر على الأمة من غياب العالم نفسه .

لطيفتان

١- نقل البخاري عن ربيعة الرأي قوله : « لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه . » (١)

يعقب ابن حجر على كلام ربيعة : « ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه ، فيترك الاشتغال ، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم ، أو مراده الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدي إلى رفع العلم ، أو مراده أن يشهر العالم نفسه ، ويتصدى للأخذ عنه ، لئلا يضيع علمه ، وقيل مراده تعظيم العلم، وتوقيره ،فلا يهين نفسه بأنه يجعله عرضة للدنيا. » (٢)

٢- من علامات قبض العلم ورفعه عدم الاستفادة منه في الحياة العملية ، وهذا المعنى أشار إليه النبي ﷺ في حديث أبي أمامة من عدم انتفاع الأمة بالقرآن كما لم ينتفع اليهود والنصارى من التوراة والانجيل ، وهذا فيه إشارة إلى حالة فصل بين الجانب التثقيفي ، والجانب التطبيقي ، وإذا لم يترجم العلم في الواقع أصبح حجة على حامليه ، وأصبح كالمقبوض أو المرفوع حكماً ، أو يصبح مثل حامله كحمار يحمل أسفاراً ، وهذا المعنى أشارت إليه بعض الروايات بأن من علامات الساعة أن يكون الزهد رواية ؛ أي يقتصر على جانب ذكره لا تطبيقه ، وفي بعض الآثار أن عبادة بن الصامت ﷺ قال لجبير بن

---

(١) البخاري مع الفتح (٢١٣/١)

(٢) فتح الباري (٢١٤/١)

نفير بعدما حدثه حديث رفع العلم عن أبي الدرداء ﷺ : « صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الْجَمَاعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا. » (١)

فالخشوع حالة قلبية ، وقد جاء تسميته بالأثر بأنه أول علم يرفع ، وفي ذلك إشارة إلى أن حقيقة العلم في نوره ، ونوره في تطبيقه ، فإذا نزع التطبيق من الأمة قبضت حقيقة العلم من حياقم .

وعلى هذا الوجه يمكن القول بأن قبض العلم حكماً قد بدأت إرهاصاته من عهد طويل .

كذلك من أشكال قبض العلم طلب الدنيا به ، أو تحويله مطية لأصحابه يستأكلون به العاجل بالآجل ،يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

وهذا التوجه مما ابتليت به الأمة ، وهو من أخطر أمراضها ؛ لأن العلماء مؤتمنون على الدين ، والأصل فيهم ألا يبتغوا بعلمهم إلا وجه الله ورفعة دينه ، إضافة إلى توجيه الناس من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ، فهذا هو المعنى الأهم الذي ورثه العلماء من الأنبياء ؛ فإذا غاب هذا المعلم على من ائتمن عليه فهذه هي الطامة الكبرى ، ويترتب على ذلك أن من عنده آثارة من علم ، فإنه سيجتهد في استثمارها لنيل مآربه من الدنيا ؛ وتوظيفها لهذا الغرض ، فيستحل بها الحرام ، ويتتبع الرخص ، ويصرف الناس باسم العلم

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم برقم ٢٧٩١، وقال عنه حسن غريب . [تحفة الأحوذي (٤١٢/٧)] ؛ و الدارمي في المقدمة برقم ٢٨٨ [مسند الدارمي (٩٩/١)] ؛ والحاكم برقم ٣٣٧ ، وقال : هذا صحيح ، وقد احتج الشيخان بجميع رواته [المستدرك (١٧٨/١)] ؛ قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير ، وإسناده حسن [مجمع الزوائد (٢/ ١٣٦)]؛ والحديث له عدة شواهد عند ابن حبان عن أوس بن شداد [صحيح ابن حبان (١٠/ ٤٣٣) (١٥/ ١١٥)]

(٢) الأعراف:١٧٦

أو الدين عن المعالم الحقيقية لدين الله مزينا لهم دنياهم ، مفسداً لهم آخرهم .

وقد أعجبتني رسالة أوردها الإمام الدارمي لعباد بن عباد الخواص الشامي وجهها لأهل العلم اخترت منها قوله : « .. اتقوا الله فإنكم في زمان رق فيه الورع ، وقل فيه الخشوع ، وحمل العلم مفسدوه فأحبوا أن يعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعته فنطقوا فيه بالهوى ، لما ادخلوا فيه من الخطأ وحرفوا الكلم عما تركوا من الحق إلى ما عملوا به من باطل . فذنوبهم ذنوب لا يستغفر منها ، وتقصيرهم تقصير لا يعترف به ، كيف يهتدي المستدل المسترشد إذا كان الدليل حائرا ، أحبوا الدنيا وكرهوا منزلة أهلها ، فشاركوهم في العيش وزايلوهم بالقول ، ودافعوا بالقول عن أنفسهم أن ينسبوا إلى عملهم ، فلم يتبرءوا مما انتفوا منه ولم يدخلوا فيما نسبوا إليه أنفسهم » (١)

أقول : سبحان الله ! كلمات معبرة تحكي بعض أهل العلم في خير القرون ــ القرن الثاني للهجرة - كما يرى عباد بن الخواص ، فكيف بحالنا في هذا العصر وماذا نقول عن أهله ؟ وماذا نقول عن أنفسنا ؟ نسأل الله العفو والعافية .

﴿ العلامة الثانية : التماس العلم عند الأصاغر ﴾

- عن أبي أمية الجمحي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلتمَسْ الْعِلْمُ عندَ الأصاغِرْ ﴾ (٢)

هذه العلامة أقحمتها هنا لعلاقتها بالعلامة السابقة ، وقد يتصور البعض أنها تدخل في مضمون علامة قبض العلم السابقة ، و الصواب أنها علامة مستقلة ، وإن كان لها نوع تعلق بقبض العلم ؛ إذ هي معززة لقبضه .

والأصاغر هنا جمع أصغر ، ويراد به سفلة القوم وجهالهم ، وليس المراد بها صغار السن .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٦٨)

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والطبراني ،وقال عنه العدوي : رجاله ثقات[الصحيح المسند (٣٨٣ و ما بعدها)] والحديث صححه الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٦٩٥

والمراد بهذه العلامة أن يقصد الناس من تزيا بزي العلم وإن كان من غير أهله إما لجهل أو لفسق ونحوه (۞) ، بينما يزهد الناس في التماس العلم من أهله ممن يصدق في وصفهم بالأكابر في هذا الشأن .

وهذه العلامة تدل على عدة أمور منها فساد حال الناس واختلال موازينهم في الحكم على فلان أنه عالم ، أو دعي علم .

و منها فساد توجهات الناس وزهدهم في العلم الحقيقي ؛ لذا يعمدون إلى من يجاريهم ، ومن يدغدغ عواطفهم ، ومن يغرقهم في الأوهام والخيال ، لا من يرشدهم سبيل النجاة .

وهذه العلامة ظهرت بعد الخلافة الراشدة ، وزادت ذروتها في العهد العباسي ، و هي بازدياد إلى عصرنا الحاضر التي بلغت به ذروتها .

يقول الدكتور محمد عجاج الخطيب عن القصاصين وعلاقتهم بظاهرة وضع الحديث : « ظهرت حلقات القصاصين والوعاظ في أواخر عهد الخلافة الراشدة .. وكان بعض القصاص لا يهمه إلا أن يجتمع الناس عليه ، فيضع لهم ما يرضيهم من الأحاديث التي تستثير نفوسهم ، وتحرك عواطفهم .. ومما يؤسف له أن هؤلاء القصاصين على تعالمهم وكذبهم على رسول الله ﷺ قد وجدوا آذانا تسمع لهم وتصدقهم وتدافع عنهم ، وكان هؤلاء - أي القصاصين - من جهلة العامة التي لا يهمها البحث والتقصي . » (١)

ومن الشواهد على التماس العلم عند الأصاغر أن شعبة رحمه الله قد مر على

(۞) الضابط في معرفة الأصاغر من غيرهم نلتمسه من هذا القول الرشيد للإمام مالك -رحمه الله - حيث قال : « لا يؤخذ العلم عن أربعة ، ويؤخذ مما سوى ذلك ، لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه معلن بالسفه ، وإن كان من أروى الناس ، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه في الكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث . » [انظر الخطيب : السنة قبل التدوين (٢٣٧)]

(١) الخطيب : السنة قبل التدوين (٢١٠ وما بعدها)

مسجد فيه جعفر بن الزبير وعمران بن حدير ، فوجد الزحام على جعفر بن الزبير ، وليس عند عمران أحد ، فتعجب شعبة ، وقال: « يا عجباً للناس ! اجتمعوا على أكذب الناس ، وتركوا أصدق الناس . » (١)

وورد أن الشعبي أنكر على أحد القصاص في بلاد الشام ، فقامت عليه العامة تضربه ، ولم يدعه أتباع القاص حتى قال الشعبي برأي شيخهم نجاة بنفسه . (٢)

ولكي يتضح الأمر لنا أسوق قصة وقعت مع شيخ المفسرين قاطبة الإمام المجتهد محمد بن جرير الطبري : فقد ذكر السيوطي في كتابه تحذير الخواص من أكاذيب القصاص : « أن أحد هؤلاء القصاص جلس ببغداد ، فروى تفسير قوله تعالى : (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) (٣) وزعم أن النبي ﷺ يجلس مع الله سبحانه وتعالى على عرشه ، فبلغ ذلك محمد بن جرير الطبري ، فغضب من ذلك ، وبالغ في إنكاره ، وكتب على باب داره « سبحان من ليس له أنيس ، ولا له على عرشه جليس » فثارت عليه عوام بغداد ، ورجموا بيته بالحجارة حتى استد بابه بالحجارة وعلت عليه . » (٤)

أقول : سبحان الله ! هذا هو عين التماس العلم عند الأصاغر ، ويزيد عليه تحقير الأكابر ، وهذا الطامة التي ابتلي بها الأوائل ، وما زلنا نعيش في نيرها بعدما اشتدت توقداً ، أذكر أمراً عاينته وهو أنه لفت انتباهي الإقبال الشديد على كتاب من الكتب التجارية الغالية الثمن في بلادي ، وعندما تصفحته وجدته محشواً كذباً على الله ورسوله ، والغريب أن أكثر النسخ قد نفدت لشدة الإقبال ، و أعيد تصويرها ، وعندما خرج كتيب صغير الحجم قليل الثمن غزير العلم ينبه الناس من هذه الأكاذيب التي غرق الناس في وحلها ، كان الناس في زهد من اقتنائه ، فسألت متعجباً صديقاً لي صاحب تجربة من

(١) المرجع السابق ٢٣٢

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) الاسراء: من الآية٧٩

(٤) نقلاً عن السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٨٦)

أهل العلم عن ذلك فقال : الناس تحب من يخرجها من واقعها الأليم ، ويغرقها في بحر من الخيال والأوهام حتى لو علمت بأنه كاذب ، فإذا جاء من يخرجها من هذه الأوهام ، أو بعبارة أخرى يوقظها من أضغاث الأحلام ، استنفرت وفرت .

أقول : أليس ذلك شكل من أشكال التماس العلم عند الأصاغر ، وطبيعة الناس ونفسيتهم معززة لوجودهم ، ولتصدرهم أمراً ليسوا من أهله .

﴿ العلامة الثالثة : خروج الكذابين وأدعياء النبوة ﴾

هذه العلامة يمكن تقسيمها إلى فقرتين :

الفقرة الأولى : خروج أدعياء النبوة :

– عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي . ﴾ (١)

– عن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ أَنَّهُ وُضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَفُظِعْتُهُمَا وَكَرِهْتُهُمَا فَأُذِنَ لِي فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ . ﴾ فَقَالَ عُبَيْدُاللَّهِ أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ الَّذِي قَتَلَهُ فَيْرُوزُ بِالْيَمَنِ وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةُ . (٢)

– عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي مُسَيْلِمَةَ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ شَيْئًا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ : ﴿ أَمَّا بَعْدُ : فَفِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ أَكْثَرْتُمْ فِيهِ وَإِنَّهُ كَذَّابٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَذَّابًا يَخْرُجُونَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَلْدَةٍ إِلَّا يَبْلُغُهَا رُعْبُ الْمَسِيحِ إِلَّا الْمَدِينَةَ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣١٥ ، وقال عنه : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٦٥/٦)] ؛ والحديث له أصل في البخاري ومسلم وأبي داود في متن طويل .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير برقم ٧٠٣٤ [البخاري مع الفتح (٤٣٨/١٢)]

الْمَسِيحِ . ﴾ (١)

شرح :

هذه العلامة من دلائل نبوة المصطفى ﷺ ؛ حيث ظهر بعض المتنبئين في آخر عصره كمسيلمة الكذاب في اليمامة والأسود العنسي في اليمن ، واستمرت هذه الظاهرة بعد موته ﷺ ؛ حيث خرجت سجاح التميمية في بني تميم ، وطليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة وذلك في عهد أبي بكر ﵁ ، وترادف بعد ذلك خروج أدعياء النبوة فما من قرن إلا به من ادعاها ، وكان له أتباع وشوكة منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي غلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وبدأ دعوته بإظهار حب آل البيت والمطالبة بقتلة الحسين ثم زعم أن جبريل ﷺ كان يتترل عليه ، وقد قتل المختار سنة بضع وستين .

ومن مدعي النبوة أيضاً الحارث الكذاب الذي خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . (٢)

وفي العصور القريبة خرج **أحمد القادياني** في الباكستان وادعى النبوة ، بل ادعى أنه المسيح الموعود وله ضلالات كثيرة ، وأتباعه يعرفون بالقاديانية أو الأحمدية ، وكذلك خرج علينا **علي محمد الشيرازي** في إيران والذي اعتبر نفسه باب المهدي ؛ أي الممهد لخروجه ، الذي كان من أتباعه **حسين علي** الملقب ببهاء الله ، وهذا الأخير قد ادعى إلغاء الأديان واعتبر نفسه مظهر الله الحقيقي الذي بشر به جميع الأنبياء وأدعياء هذه الفرقة تعرف بالبهائية أو البابية ، وهي من المذاهب الهدامة المستغلة من أعداء الأمة ، (٣)

(١) أخرجه أحمد في مسند البصريين برقم ٢٠٤٥٢ [المسند (٥٢/٥)] ؛ وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٦٥٢ [ابن حبان (٢٩/١٥)] ؛ قال الهيثمي : أخرجه أحمد والطبراني ، وأحد أسانيد أحمد والطبراني رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣٢/٧)]

(٢) انظر ابن حجر : فتح الباري (٧١٤/٦)

(٣) انظر البستوي : المهدي المنتظر (١٠٩ وما بعدها)

وآخر من خرج علينا المدعو رائيل زعيم الطائفة الرائيلية الذي ادعى النبوة وادعى التقائه بالأنبياء .

والملاحظ في الأحاديث السابقة أنها ركزت على أدعياء النبوة ، ويراد بهم من كان له أتباع وشوكة ، وقد بينت الأحاديث السابقة أنهم ثلاثون ، وفي أثر أن آخرهم الدجال الذي يدعي الألوهية ، وورد في أثر مرفوع بسند جيد عند الإمام أحمد أن عدد أدعياء النبوة سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة ، فيكون المراد بعدد الثلاثين هنا جبر الكسر ، ويؤيد هذا الرأي أثر آخر عن جابر ﷺ عند أحمد بأنه قال : قريب من ثلاثين .

هذا بالنسبة لأدعياء النبوة ممن كان لهم شوكة ، أما من ادعى النبوة دون أن يكون له أتباع وشوكة فهؤلاء كُثر ، ولا يكاد يخلو منهم عصر أو قطر ، وكان لهم تفانين في ادعاء النبوة ، منها أن إحدى النساء التي ادعت النبوة قد استدلت على دعواها بحديث النبي ﷺ : لا نبي بعدي حيث قالت أن النبي ﷺ قال : لا نبي بعدي ولم يقل : لا نبية .

وبعضهم غير اسمه وسمى نفسه « لا » ، واعتبر أن حرف النفي في الحديث السابق هو اسم واعتبر أن المراد بالحديث بأنه سيكون نبيٌّ بعد محمد ﷺ يكون اسمه لا ، وهكذا للكذب طرائف وتفانين لا يخلوا منها عصر .

الفقرة الثانية : خروج الكذابين :

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ .﴾ (١)

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة برقم ٧[مسلم بشرح النووي (١/٩٦)]

(٢)أخرجه مسلم في المقدمة برقم ٦ [مسلم بشرح النووي (١/ ٩٥)]

- عن أبي الجلاس قال : سمعت علياً ﷺ يقول لعبد الله السبئي : « ويلك والله ما أفضى إلي بشيء كتمه أحداً من الناس ، ولكن سمعته يقول : ﴿ إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً ﴾ . وإنك لأحدهم .» (١)

شرح :

هذه الآثار تشير إلى خروج كثير من الدجالين والكذابين بين يدي الساعة ، ولا يشترط إدعاؤهم النبوة كما في الفقرة السابقة ، والأثر الأول والثاني يشيران إلى أن هذه الظاهرة تتضح في آخر الزمان ، أو في آخر الأمة .

وقد دلت الأحاديث إلى بعض أوجه الدجل التي يخرج بها هؤلاء ؛ حيث يحدثون الناس بأخبار وأحاديث مضلة لم يسمع بها المسلم أو لم يعهد أي أثارة من علم السابقين عنها ، ولعل الأحاديث السابقة تشير إلى ظاهرة وضع الأحاديث واختلاق الأكاذيب ونسبها للصحابة وغيرهم ، وهذه العلامة بهذا الوصف يشهد الماضي والحاضر بصحتها ، و ما زلنا نسمع بكثير من الأحاديث التي تنسب إلى رسول الله أو إلى غيره من الصحابة والتابعين فيما يتعلق بأسماء وشخصيات ومعارك معاصرة كحرب العراق وأفغانستان ، و من نظر إلى تلك الأكاذيب فإنه لا يساوره شك بأنها من نسج الحاضر .

﴿ العلامة الرابعة : كثرة الزلازل ﴾

وهذه العلامة بالرغم من أن كثيرا ممن كتب في علامات الساعة في الماضي والحاضر يرى أنها وقعت ، وكلّ في عصره يتكلم عن بعض الرجفات التي سمع بها ، إلا أنني أرى أنه يُقصد بها وقوع الزلازل بطريقة غير معهودة ، بحيث يصدق عند وقوعها القول أن الزلازل قد كثرت بشكل غير معهود .

ويرى البعض أن هذه العلامة ملحوظة في زماننا ، فما من شهر أو حتى أسبوع إلا وتطلعنا نشرات الأخبار على وقوع رجفة هنا أو هناك ، إلا إنه يمكن القول أن

---

(١) ذكره الهيثمي وقال : أخرجه أبو يعلى ، ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٣٣٣/٧)]

الزلازل حتى في عصرنا لم تأخذ شكلاً غير معهود يصدق عليه المراد في الحديث ، وإن كان ما نعيشه قد يكون من إرهاصاته .

وفي تصوري أن كثرة الزلازل تكون في مرحلة معينة تمر بالكرة الأرضية بحيث يكثر اهتزازها ، ويقل توازنها بشكل غير معهود ؛ والذي يعزز عندي هذا التصور ما ورد في بعض الآثار منها قول النبي ﷺ لابن حوالة : « يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدَيَّ هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ » (١)

ومنها ما ورد عن سَلَمَةَ بْنُ نُفَيْلٍ السَّكُونِيُّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « .. وَبَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مُوتَانٌ شَدِيدٌ وَبَعْدَهُ سَنَوَاتُ الزَّلَازِلِ . » (٢)

فالحديث الأول يربط بين نزول الخلافة وبين قرب الزلازل مما يدل على أن كثرة الزلازل يراد بها شيئاً غير ما نعهده الآن .

أما الحديث الثاني فيشير إلى وقوع موت شديد في الأرض ، وبعده سنوات الزلازل مما يدل على أن للزلازل مرحلة معينة غير معهودة بالنسبة للكرة الأرضية ، يكثر فيها اهتزاز الأرض ، ولعل للأمر علاقة بحدث كوني يعصف بالكرة الأرضية . (۞)

« العلامة الخامسة : تقارب الزمان »

📖 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ الْخُوصَةُ . » (٣)

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥١٨ [عون المعبود (٢٠٩/٧)] ؛ وأحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٥٤٨ [المسند(٣٤٠/٥)] ، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، المجلد الثاني برقم ٧٨٣٨

(٢) أخرجه أحمد في مسند الشاميين برقم ١٦٩٦٦ ، ورجاله ثقات [المسند (١٢٩/٤)]

(۞) هذا الأمر بإذن الله سأفصله عند حديثي عن الحدث الكوني المحتمل

(٣) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ، والحديث إسناده حسن و له شاهد عند الترمذي عن أنس رضي الله عنه [العدوي : الصحيح المسند (٤١٧)] و صححه الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٣٣٢

هذا الأثر أوردته هنا كتفسير للمراد بتقارب الزمان ؛ حيث يوضح أن تقارب الزمان يراد به انتقاص الوقت حقيقة بحيث تكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة .

و وفق مستجدات العلم يمكن تصور ذلك في حال اضطراب حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وهذا الاضطراب غير متزن أي لا يكون على نسق واحد ، فتسرع الأرض في دورالها حول نفسها ، وتسرع أيضا في دورالها حول الشمس ، فبدلاً من أن تدور الكرة الأرضية حول الشمس ،مرة كل اثنا عشر شهراً ، تقضي هذه المسافة في شهر واحد .

وفي ظني أن النبي ﷺ ذكر هذه النسب للتقريب وليس للتحديد ؛ أي أراد النبي ﷺ أن يبين للصحابة تغير النسب الزمنية للوقت ، فجاء بمثال يقرب المعنى ، حيث قال السنة كالشهر والشهر كالأسبوع ..إلخ

وهذا التقارب الحقيقي للزمن يعزز ما ذكرت سابقاً في العلامة السابقة من أن هناك تغيرا كونيا سيعصف بالكرة الأرضية يؤثر في جيولوجيتها وفي نمط سيرها حول نفسها وحول الشمس .

وإذا ربطنا هذه العلامة بما يقع في زمن الدجال ؛حيث يكون يومه الأول كسنة ويومه الثاني كشهر أصبح عندنا تصور إلى أن آخر مراحل اضطراب الكرة الأرضية يكون في عهد الدجال ؛ أي أن الكرة الأرضية في بادئ الأمر ونتيجة لأمر كوني تسرع في دورالها حول نفسها وفي دورالها حول الشمس ، ثم تأخذ بالبطء في دورالها حول نفسها ، فتكمل دورها الأولى في سنة كاملة (❁) ، و دورها الثانية في شهر ، ثم تبدأ في العودة التدريجية لوضعها الطبيعي ، وتبدأ بالاتزان .

(❁) قد يقول البعض أن اليوم كسنة ليس على حقيقته ؛ بل هو كناية عن شدة هذا اليوم ، وهذا التصور ضعيف لوجود شاهد في الحديث ، وهو استفسار الصحابة عن طبيعة العبادة في هذا اليوم ، فقال النبي ﷺ : اقدروا له قدره . مما يدل صراحة على أن الطول الزمني لهذا اليوم هو سنة حقيقية . وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخاص عن الدجال .

وكلامنا هذا في حالة واحدة ، وهي اعتبار تقارب الزمان على حقيقته ، وهو ما أرجحه لقرائن عدة تدل عليه ، ولكن نظراً لطبيعة اللغة العربية ومرونتها بحيث يحمل الكلام على الحقيقة تارة ، وأحيانا يحمل على المجاز والكناية ذكر العلماء عدة احتمالات أخرى لمراد النبي ﷺ من تقارب الزمان منها :

١- المراد بتقارب الزمان هنا نزع البركة من كل شيء حتى الزمان ، فيصير الانتفاع باليوم كالانتفاع بالساعة ، وهذا الاحتمال وإن كان يتناسب مع حال انتشار الشرور والمعاصي في عصرنا ، إلا أنه بخصوص الوقت بالذات غير ملاحظ ، بل الملاحظ خلافه ، لأن ما نراه في عصرنا أن القدرة على الانتفاع بالوقت بسبب كثرة الاختراعات قد زاد عن الأزمنة السابقة ، فحرث أرض معينة إذا كان يستغرق في الماضي أياماً ، أصبح في عصرنا يستغرق ساعات .

٢- المراد بتقارب الزمان استواء الليل بالنهار . وهذا الاحتمال في ظني بعيد

٣- المراد تقارب أهل ذلك الزمان في الشر والفساد والجهل . وهذا احتمال بعيد وسياق الحديث برواياته لا يدل عليه

٤- يراد بذلك قرب يوم القيامة ، واستدلوا بحديث رسول الله ﷺ : إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا النبي تكذب ، وهذا الاحتمال في ظني بعيد جداً ، بل الحديث يشهد لما ذكرت سابقاً بأن تقارب الزمان على حقيقته ويمثل مرحلة تضطرب فيها الكرة الأرضية .

٥- المراد به استلذاذ العيش الذي يقع في زمان المهدي ﷺ وعيسى ﷺ ؛ لدرجة أن الناس تستقصر مدة الرخاء ، والأيام السعيدة سريعة الانقضاء ، وهذا الاحتمال بعيد ؛ لأن سياق الأحاديث يشير إلى فساد الحال وظهور الفتن ، وهذا المعنى لا يتناسب مع أخواته من ظهور الفتن وكثرة الهرج وغيرها . (١)

(١) انظر فتح الباري (١٨/١٣ وما بعدها)]

٦- تقارب الزمان يفسر بما وقع في العصر من تقارب بين المدن والأقاليم ، وقصر زمن المسافة بينها بسبب اختراع وسائل المواصلات والاتصالات المتعددة ، بحيث أصبحت المسافات التي تقطع بين البلاد في الماضي بالأشهر ، تقطع في عصرنا بالساعات ، والخبر الذي يحتاج انتقاله من بلد إلى أخرى في الماضي أشهراً أو سنين ، أصبح ينتقل في عصرنا في لحظات ، وهذا نوع من تقارب الزمان .

٧- يمكن إضافة احتمال سابع نشعر به في زماننا ، وهو انفتاح الدنيا ، وكثرة متطلباتها مما يجعل الوقت لا يفي بها جميعاً ، فتمر الأيام سراعاً دون الشعور بها ؛ أي أن الوقت يكون أقصر من متطلبات حياة الإنسان ، فيشعر الإنسان بمرور الوقت سريعاً دون الاستفادة منه على الوجه المطلوب ، وهذا الاحتمال ملاحظ في زماننا،و عليه يحمل قول الكثيرين بأنهم يشعرون بسرعة مرور الأيام والسنين .

هذه بعض الاحتمالات التي ذكرها العلماء في تفسير مراد النبي ﷺ من قوله يتقارب الزمان ، والناظر إليها يرى أن أرجحها هو السادس ، ويأتي بعده في الرجحان - في ظني - الاحتمال السابع .

يتحصل مما سبق القول : إما أن تقارب الزمان على حقيقته ، ويراد به قصر الوقت ، وهذا متصور حال اضطراب الأرض ، والبعض يستبعد ذلك ، وفي ظني أنه الراجح ؛ لأن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، وما ألفناه بالنسبة لحال الأرض قد يتغير بكل لحظة ، وقد مر على الكرة الأرضية تغيرات كبيرة في الدهور السحيقة ، وقد يقع مثلها في المستقبل ، فالأمر ليس ببعيد وتوقعات العلماء لا تستبعده .

وإما أن يراد بتقارب الزمان معنى مجازياً ، كما ذكرنا في الاحتمال السادس والسابع .

والأصل ألا نعدل عن المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي إلا في حال تعذر حمل الكلام على المعنى الحقيقي ، وهنا لا تعذر ، أو في حال وجود قرينة تصرف الكلام من المعنى

الحقيقي إلى المعنى المجازي ، وهنا لا توجد قرينة صارفة ، بل على العكس هناك قرائن معززة للمعنى الحقيقي (❁) ، وهو الحديث الذي صدرت فيه كلامي على هذه العلامة .

واختم هذه العلامة بكلمات شاملة أوردها ابن حجر عن ابن أبي جمرة : « يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان قصره ... وعلى هذا يحتمل أن يكون حسياً ، ويحتمل أن يكون معنوياً ، أما الحسي فلم يظهر بعد ، ولعله من الأمور التي تكون قرب قيام الساعة ، و أما المعنوي فله مدة منذ ظهر ، يعرف ذلك أهل العلم الديني ومن له فطنة من أهل السبب الدنيوي فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدر أحدهم أن يبلغ من العمل قدر ما كانوا يعملونه قبل ذلك ، ويشكون ذلك ، ولا يدرون العلة فيه (❁❁) . » (١)

﴿ العلامة السادسة : كثرة الهرج ﴾

هذه العلامة جاء ذكرها مع العلامات السابقة ، والهرج في أصل اللغة معناه الاختلاط مع الاختلاف ، يقال هرج الناس إذا اختلطوا واختلفوا ، وهرج القوم في الحديث إذا كثروا وخلطوا فيه، أما في لسان الحبشية فمعنى الهرج هو القتل ، وذكر ابن منظور للهرج عدة معاني أذكر منها : شدة القتل ، وكثرة القتل ، والاختلاط مع الاختلاف ، والفتنة في آخر الزمان ، وكثرة الكذب ، والريبة وعدم الإيقان بالأمر . (٢)

(❁) من هذه القرائن : الحديث الخاص ببيان أيام الدجال ، وكيف استغرب الصحابة من ذلك مما يدل أنه يرونه على حقيقته ، وجاءت إجابة النبي ﷺ معززة لتصورهم ، وما يقال في أيام الدجال يقال في تقارب الزمان ، ومن القرائن أيضاً أن النبي ﷺ بين النسبة التقريبية بين السنة والشهر والجمعة مما يدل على أن الأمر على حقيقته ، ومن القرائن أيضا ما سأبينه من مجموع أدلة سأوردها في موضوع الحدث الكوني الذي سيسهل علينا تصور المسألة .

(❁❁) يلحظ من كلام ابن أبي جمرة أنه يرجح الاحتمال الأول ، وهو نزع البركة من الوقت ، وهذا المعنى ملاحظ في زماننا ، كما أنه لاحظه أسلافنا كابن أبي جمرة ؛ إلا إنه وفق التوجيه الذي أوردته ، أرى أن هذا الاحتمال بعيد .

(١) فتح الباري (١٩/١٣)

(٢) انظر لسان العرب (٣٨٩/٢)

والناظر لهذه المعاني يجد أنها متقاربة بل استخدام النبي ﷺ لكلمة الهرج للدلالة على القتل في زمان الفتنة أدق وأنسب من استخدام كلمة القتل ؛ لأن كلمة الهرج أعطتنا تصوراً لحال الناس وطبيعة القتل الذي يقعون فيه وملابساته ، فهناك تخليط واختلاف بين الناس يترتب عليه فتنة بينهم واختلاف قلوبهم ، ويظهر أثر اللسان في هذه الفتنة حيث يكثر الكذب والادعاءات المهيجة لإراقة الدماء .

فكل هذه المعاني تتضمنه كلمة هرج لوحدها ، فهي ترسم لنا حالة فوضوية يقع فيها الناس تؤول بهم إلى الاستهانة بالدماء والوقوع فيها .

ولئن كانت دلالات الكلمة تكفينا في تصور المراد بهذه العلامة ؛ إلا أنه لا غنى لنا عن الاستعانة بالمأثور لكي نلم بكل ما يخص هذه العلامة من دلالات نسترشد من خلالها زمان وقوعه وطبيعته ، وعلاماته وسبل النجاة منه ، أو من عواقبه ، وذلك ما توضحه الأحاديث التالية :

📖 - عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ : يَزُولُ فِيهَا الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ . قَالَ أَبُو مُوسَى : وَالْهَرْجُ الْقَتْلُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ . ﴾ (١)

أقول :

الحديث يشير صراحة إلى أن الهرج يراد به القتل ، وقد صرحت أحاديث أخرى بذلك ، وفي الحديث إشارة إلى أن هناك أياماً معلومة ينتشر فيها الهرج ، من علامات هذه الأيام انتشار الجهل وزوال العلم .

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ فَقِيلَ : كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : الْهَرْجُ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٦٧ [فتح الباري (١٧/١٣)] ؛ ومسلم في العلم برقم ٢٦٧٢ [مسلم بشرح النووي (٤٣٩/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٠٨ [مسلم بشرح النووي (٢٣٠/٩))]

أقول :

الحديث يدل على أن المراد بالهرج ليس القتال بين أهل الحق والفرق الباغية ، بل هو قتال على الدنيا ، أو هو حالة فوضى من القتال غير الهادف صراحة ، وإن كانت أهدافه الخفية نوع من صراعات المصالح الشخصية التي يديرها علّية القوم ، أما المباشرون للقتل ، فلا تتضح أمام أعينهم الصورة لدرجة لا يعلم القاتل لما قَتل ، ولا المقتول لما قُتل .

وكذلك في الحديث ما يدل على أن الصراع دنيوي ؛ لذا جمع الحديث بين مصير القاتل والمقتول بأهم في النار .

🕮 – عن أَبي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ يَكُونُ الْمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيْرًا مِنَ الْجَالِسِ وَالْجَالِسُ خَيْرًا مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ خَيْرًا مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي خَيْرًا مِنَ السَّاعِي قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ ، قَالَ : فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : فَلْيَعْمِدْ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَضْرِبْ بِحَدِّهِ عَلَى حَرَّةٍ ثُمَّ لِيَنْجُ مَا اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ . »

وفي رواية ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فَذَكَرَ بَعْضَ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ ثم قال : قَتْلَاهَا كُلُّهُمْ فِي النَّارِ قَالَ فِيهِ قُلْتُ : مَتَى ذَلِكَ يَا ابْنَ مَسْعُودٍ ؟ قَالَ : تِلْكَ أَيَّامُ الْهَرْجِ حَيْثُ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ الزَّمَانُ قَالَ تَكُفُّ لِسَانَكَ وَيَدَكَ وَتَكُونُ حِلْسًا مِنْ أَحْلَاسِ بَيْتِكَ . فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ طَارَ قَلْبِي مَطَارَهُ فَرَكِبْتُ حَتَّى أَتَيْتُ دِمَشْقَ فَلَقِيتُ خُرَيْمَ بْنَ فَاتِكٍ فَحَدَّثْتُهُ فَحَلَفَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَدَّثَنِيهِ ابْنُ مَسْعُودٍ. » (١)

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن ٢٨٨٧ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٠٨)] ؛ وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٣٨ ، واللفظ له [عون المعبود (١١/ ٣٣٥)]

أقول :

هذا الحديث بروايتيه يشير إلى أن الخير في اعتزال الناس في مراحل الهرج التي تعصف بالأمة ، وفيه الإشارة إلى ضرورة كف اللسان واليد حال وقوعه ، وكذلك في الحديث علامة من علامات مراحل الهرج ؛ حيث لا يأمن الرجل جليسه ، ولعل في ذلك إشارة إلى كثرة الجواسيس الذين يتجسسون أخبار الناس ؛ كذلك فيه إشارة إلى فساد حال الناس وتشرذمهم إلى فرق وشيع ، وحرصهم على النيل من بعضهم البعض ، وتصيد الأخطاء ، وتصبح هذه الحالة ظاهرة عامة يتخللها التوجس والريبة لدرجة أن الإنسان يصل إلى درجة لا يأمن فيها حتى ممن يجالسه .

- عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﵁ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً قَالَ فَكَبَّرَ النَّاسُ وَضَجُّوا ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً خَفِيفَةً قُلْتُ لِأَبِي يَا أَبَتِ مَا قَالَ قَالَ كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ . »

وزاد أبو داود : « فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَتَتْهُ قُرَيْشٌ فَقَالُوا ثُمَّ يَكُونُ مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ . » (١)

أقول :

هذا الحديث اختلف في المراد به كثير من العلماء ، فبعضهم أسقطه على البعدية أي بعد رسول الله ، فيكون المراد به الخلفاء الأربعة وثمانية من خلفاء بني أمية ، ويرجح ابن حجر أن نهاية الاثنا عشر كانت بوفاة عمر بن عبد العزيز ، وبعده بدأت الفرقة بين المسلمين و لم يستقم أمرهم .

وبعضهم يرى أن المقصود به اثنا عشر خليفة على منهج النبوة ، فيدخل في هذا التأويل الخلفاء الراشدين الأربعة وعمر بن عبد العزيز ، وبعض خلفاء بني العباس ، ويختتم بالمهدي ، أو ببعض خلفائه ، ثم بعد ذلك يكون الهرج .

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام برقم ٧٢٢٣ [البخاري مع الفتح (٢٢٤/١٣)] ؛ و أبو داود مع زيادته في المهدي ، برقم ٤٢٦١ [عون المعبود (٣٦٩/١١)]

والبعض يرى أن المراد به تملك اثني عشر أميراً في زمان واحد ، ثم يكون الهرج ، وهذا الرأي بعيد في ظني ، لأنه مخالف لبعض روايات الحديث الدالة على أنه تجتمع عليهم كلمة الأمة ، وهذا لا يتصور مع تملك اثنا عشر أميراً في نفس اللحظة إذ يقتضي ذلك الفرقة لا الاجتماع .

و الراجح في ظني أن المقصود به الخلفاء الراشدين وبعض خلفاء بني أمية ؛ أي أنه يمثل مرحلة ما قبل الخلافة العباسية ، هذا وقد فصلت القول في هذا الحديث في الفصل الأول ، فليرجع إليه .

والشاهد في الحديث أنه دل على أن ظاهرة القتل الفوضوي أو الهرج إنما تكون بعد تملك الإثنا عشر خليفة ، وهذا يجعلنا نفرق بين الاقتتال الداخلي ، أو قتال الطوائف الباغية وبين مرحلة الهرج .

- عن أبي مُوسَى الأشعري ﷺ أن رَسُولُ اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ : الْقَتْلُ . فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَقْتُلُ الْآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وكَذَا . فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ ، ولَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ؟ فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا . تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لَا عُقُولَ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ الْأَشْعَرِيُّ : وَايْمُ اللَّهِ ! إِنِّي لَأَظُنُّهَا مُدْرِكَتِي وَإِيَّاكُمْ وَايْمُ اللَّهِ مَا لِي وَلَكُمْ مِنْهَا مَخْرَجٌ إِنْ أَدْرَكَتْنَا فِيمَا عَهِدَ إِلَيْنَا نَبِيُّنَا ﷺ إِلَّا أَنْ نَخْرُجَ كَمَا دَخَلْنَا فِيهَا . » (١)

أقول :

الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن الهرج يراد به ما يقع من اقتـــتال داخلي بين

(١)أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٣٩٥٩ ، ورجاله ثقات [سنن ابن ماجة (٢/ ١٣٠٩)] ؛ وأحمد في مسند الشاميين برقم ١٦٨٢٦ [المسند (١١٢/٤)]

أفراد الأمة ، وليس المراد به قتل المشركين ، والحديث يدل صراحة إلى فظاعته لدرجة أن يقتل الرجل جاره وابن عمه وقرابته ، ويظهر من السياق أن ذلك يقع في زمان جهل وغياب للعقول ؛ أي يقع بين الجهلة وحثالة الناس في زمان يتصف أهله بذلك ، ولعل المراد به ما يقع بعد المهدي وعيسى ﷺ ؛ حيث يبقى الشرار وينتشر الفساد وتغيب معالم الرسالة من عقول الناس .

ولكن في كلام أبي موسى ما يشعر أن المراد بها شيء قريب من عهده ، ومن درس فتن المرحلة العباسية وما وقع فيها من صراعات دنيوية ذبح فيها مئات الآلاف يعلم أن ما وقع في تلك المرحلة من إرهاصات الهرج الذي أخبر به النبي ﷺ وما تزال الصراعات الدنيوية غير الهادفة تأكل من أفراد الأمة إلى يومنا هذا . (١)

وفي ظني أن مرحلة الهرج وإن بدأت إرهاصاتها في الماضي ونعيش بعض أشكالها في الحاضر كما نرى في العراق والسودان والجزائر وغيره ؛ إلا أن السقف الأعلى منها لم يقع بعد أو الصورة التي يصدق القول فيها أنها أيام الهرج لم تحصل ؛ حيث أتصور أنها تمثل مرحلة فوضوية عارمة في جميع البلدان لعل آخرها ما يحصده حسر الفرات عن جبل من ذهب حيث يُقتل من كل تسعة سبعة ، فحالة الهرج المقصودة لم تأت بعد ، ودلائل الحال تشير إلى أنها قريبة .

📖 - عَنْ عَزْرَةَ بْنِ قَيْسٍ عَنْ خَالِد بن الْوَلِيد رضي الله عنه قال : « أن رَجُلاً قَامَ فَقَالَ لِي : يَا أَبَا سُلَيْمَانَ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ الْفِتَنَ قَدْ ظَهَرَتْ ! فَقَالَ خالد : أما وَابْنُ الْخَطَّاب حَيٌّ فلا إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَهُ .. فَيَنْظُرُ الرَّجُلُ فَيَتَفَكَّرُ هَلْ يَجِدُ مَكَانًا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِمَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ فَلَا يَجِدُهُ قَالَ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكَنَا وَإِيَّاكُمْ تِلْكَ الْأَيَّامُ . » (٢)

---

(١) راجع الخضري بك : ٢٨ وما بعدها .

(٢) ذكر هذا الأثر ابن حجر في الفتح ، وقال عنه : أخرجه أحمد والطبراني بسند حسن [فتح الباري (١٣/١٧)]

أقول :

كلام خالد ﷺ في توصيف مرحلة الهرج ، وما تحيطه من فتن يرشد إلى أنه يقصد مرحلة بعينها يعم الشر فيها جميع الأرض ، خصوصاً أرض المسلمين ، ولعلنا اليوم نعيش إرهاصات هذه المرحلة وبدايتها ، ومن يسمع ما يقع في الجزائر أو العراق أو السودان أو غيرها من بلاد المسلمين يجد مصداق ذلك ، ولعل الظاهرة التي نحياها في ازدياد ، ونعوذ بالله منها كما تعوذ بذلك سيدنا خالد ﷺ .

- عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « الْعِبَــادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ . » (١)

أقول :

الحديث فيه إشارة إلى عظمة الانشغال في العبادة في الهرج ، واعتبار القائم بها كالمهاجر في سبيل الله إلى بلد رسول الله ﷺ .

يقول النووي : « المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس ، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ، ويشتغلون عنها ، ولا يتفرغ لها إلا أفراد . » (٢)

خلاصة القول في علامة انتشار الهرج :

- الهرج حالة فوضوية يتخللها الاختلاف و كثرة الكذب ، والريبة ، ويترتب عليها الاقتتال الداخلي الشديد بين أفراد الأمة على مصالح شخصية دنيوية ؛ لذا لا يستحق أصحابها عند الله سبحانه وتعالى إلا النار .

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٨ [مسلم بشرح النووي (٢٧٨/٩)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٢٩٧ [تحفة الأحوذي (٤٤٤/٦)]

(٢) النووي : شرح مسلم (٢٧٨/٩)

- يتضح أن زمان الهرج في الأغلب يكون في آخر الزمان عند استحكام الفساد ، و غياب معالم الدين ، والتكالب على الدنيا .
- من العلامات الدالة على زمان الهرج ، نقص العلم وانتشار الجهل ، والتكالب على الدنيا ، وعدم الشعور بالأمان بين الناس حتى لا يأمن الرجل جليسه ، مما يدل على أن ظاهرة التجسس على الناس وتحسس أخبارهم تكون شائعة ، كذلك من علاماته انتشار العداوة بين الناس حتى تكون ملحوظة بين الأقارب والجيران ، وأيضاً من علاماته أنه يكون في فتنة عامة تعم جميع الأماكن،بحيث تكون ظاهرة عامة ملحوظة .

﴿ العلامة السابعة : نقصان العمل ﴾

هذه العلامة بينها النبي ﷺ بقوله : « يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ . » (١) ، وجاء في بعض الأحاديث الإشارة إليها بقوله ﷺ : « ويخزن العمل . » ويراد انشغال الناس عن أعمال الآخرة ، فيدخل التقصير في أعمالهم ، سواء على مستوى جوهر العمل كالخشوع في الصلاة مثلاً ، أو على مستوى العمل نفسه كالتقصير بالنوافل ، وقراءة القرآن والصدقات والجهاد وغيرها من أعمال الدين ، ولعل ذلك بسبب تغير قلوب الناس و توجهها نحو الدنيا ، والانشغال بها .

يقول ابن حجر : « **وأما نقص العمل ، فيحتمل أن يكون بالنسبة لكل فرد فرد ، فإن العامل إذا دهمته الخطوب ألهته عن أوراده وعبادته ، ويحتمل أن يراد به ظهور الخيانة في الأمانات والصناعات .** » (٢)

يلحظ من كلام ابن حجر أن المقصود بنقص العمل يحتمل أمرين :

الأول : انشغال الناس في الدنيا ، أو كثره همومها ، أو كثرة صراعاتها بما يترتب عليه تضييع أعمال الدين أو التقصير في أدائها على الوجه المطلوب وهذا المـــعنى ملحوظ في

---

(١) سبق تخريجه

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٠)

زماننا بشكل واضح .

نقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة قوله : « نقص العمل الحسي ينشأ عن نقص الدين ضرورة ، وأما المعنوي ، فبحسب ما يدخل من الخلل بسبب سوء المطعم وقلة المساعد على العمل ، والنفس ميالة إلى الراحة ، وتحن إلى جنسها ، ولكثرة شياطين الإنس الذين هم أضر من شياطين الجن . » (١)

أقول : هذا توصيف دقيق منه لبيان أسباب نقص العمل الديني وعلله ، و رحم الله ابن أبي جمرة ، كيف لو عاش في زماننا ، فماذا سيقول ؟

<u>الثاني</u> : ظهور الخيانة في الأعمال والصناعات ، بحيث يُنقص العامل في عمله ، والتاجر في تجارته ، وصاحب العمل في الأجر ، ولا يؤدون الأمانة كما ائتمنوا عليها ، فيضيعوها ، وهذا المعنى أيضاً ملاحظ في زماننا .

﴿ العلامة الثامنة : إلقاء الشح ﴾

هذه العلامة أشار لها النبي ﷺ بقوله : ﴿ وَيُلْقَى الشُّحُّ ﴾ (٢) ولكي يتم فهم المراد بها لا بد من بيان معنى الشح ، ومعنى الإلقاء ، وذلك على النحو التالي :

<u>معنى الشح :</u>

الشح في أصل اللغة البخل ، وقيل هو البخل مع الحرص ، والشح أبلغ في المنع من البخل ، وقيل البخل في أفراد الأمور وآحادها ، والشح عام . وقيل البخل في المال ، والشح بالمال والمعروف ، والمشاحة : تنازع الفريقين على أمر كل واحد منهما لا يريد أن يفوته .

ومن معاني الشح : أخذ مال الغير بغير حقه،أو منع الزكاة وإدخال الحرام . (٣)

هذه أبرز معاني الشح يجمعها حرص النفس على ما ملكت أو سلبت ، وبخلها به

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) سبق تخريجه

(٣) انظر ابن منظور : لسان العرب (٤٩٦/٢)

أو بخلها في أداء حقوق الغير ومستحقاتهم ، وهي بذلك تمثل حالة نفسية مريضة جداً مانعة للخير من جميع وجوهه .

معنى الإلقاء :

أصل الإلقاء في اللغة الطرح ، يقال ألقيت الشيء إذا طرحته على الأرض ، وتأتي بمعنى القبول ، يقال تلقت المرأة إذا علقت النطفة في رحمها ، ويقال تلقت الرحم ماء الفحل ؛ أي قبلته .

والإلقاء بالتشديد يأتي بمعنى تعليم الشيء والتواصي به ، ومنه معنى قوله تعالى : « وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا. » (١) ؛ أي ما يتعلمها ويتواصى بها إلا الصابرون ، ومنها قوله تعالى بشأن حديث الإفك : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم » (٢) ؛ أي يأخذ بعض عن بعض يتناقلونه بينهم . (٣)

هذه أبرز معاني الإلقاء يجمعها طرح الشح بين الناس وشيوعه ، وقبوله ، وتمكنه من القلوب ، و تعلمه والتواصي به بينهم حتى يصبح سجية مرغوب فيها ومدعو إليها .

لطيفة :

من نظر إلى اللفظتين التي استخدمهما النبي ﷺ للدلالة على هذه العلامة وهما (الإلقاء والشح) ، يجد مدى الروعة البيانية ذات الإيحاءات الدلالية المتنوعة التي تتضمنهما ، ومثل هذا الأسلوب الرائع لا يمكن أن يتصور إلا لمن أوتي جوامع الكلم .

خلاصة القول بالنسبة لإلقاء الشح :

١- الشح كما بينت يمثل نفسية مريضة تمنع الخير وتحوز به وتستأثر ، وتمنعه عن الغير ، وتحرص على منعه ؛ لذا جاء الذم لمثل هذه النفسية أكثر من ذم البخل .

---

(١) فصلت: من الآية٣٥

(٢) النور: من الآية١٥

(٣) ابن منظور : لسان العرب (٢٥٣/١٥ وما بعدها)

وهذه النفسية المريضة لا يتصور شيوعها في المجتمع بشكل ملحوظ ، بل تكون في آحاد الناس بحيث لا تكون ظاهرة ملحوظة يشار إليها بالبيان ، وهذا في حالة واحدة ، وهي كون باقي المجتمع سليماً أو محصنا من انتشار هذا الوباء ، و الطبيعة الإنسانية بفطرتها تنفر من مثل هذه النفسية ، مما يجعلها محجمة في المجتمعات .

والمعنى الذي ذكرت بحجمه الطبيعي ليس هو المراد من كلام النبي ﷺ للدلالة على علامة من علامات الساعة ؛ لأنه أمر لازم للبشرية من بدايتها ، و المراد من هذه العلامة هو الدلالة على فساد حال الناس وتغير فطرهم بحيث يصبح الشح والدعوة إليه والتواصي به جزء من ثقافة المجتمع ؛ لذا جاء تعبير النبي ﷺ بكلمة الإلقاء المتضمنة لمعنى القذف بالقلوب لخصلة الشح ، و تعلمها والتواصي بها بين عموم الناس .

وهذه الحالة يمكن تصورها إذا فسد حال الناس وانتشرت بينهم الخيانة والأثرة وتضييع الحقوق ، والانبهار في الدنيا والتشوف إليها والتحاسد عليها ، والتصارع في سبيل نيل القليل منها ، ويقابل ذلك الإعراض عن الآخرة ، والزهد حتى في ذكرها ، فكل هذه الأسباب مجتمعة يمكن أن ينتج عنها مثل هذه النفوس الشحيحة المريضة ؛ أي يمكن القول إن مجموع ثقافة المجتمع وطريقة تفكيره المنحرفة يترتب عليها إفراز وانتاج مثل هذه النفسيات المريضة « وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً » (١)

وهذه العلامة بكل دلالاتها وإيحاءاتها نجدها في مجتمعنا بصورة ملحوظة ، بل نجد التناصح بين الناس لتعزيزها ، وما ذلك إلا بسبب فساد حال الناس الداعي لها ، على سبيل المثال : إذا أقرض إنسان غيره مالاً يجد من هذا الغير عدم الوفاء بالعهد والتسويف والمماطلة الداعية لهذا الإنسان أن يشح بماله إذا جاء من يطلب

---

(١) الأعراف: من الآية٥٨

قرضاً منه بعد ذلك ، بل يجد هذا الإنسان من ينصحه بألا يقرض ، ويجد من قصص الناس ما يشجعه على ذلك ، وقس على ذلك باقي الأمور حتى على مستوى العلم والمعروف والصدقات ، بل يقول لي بعض الزملاء معبراً عن حال بعض الجامعات والأساليب الملتوية المتضمنة للشح في عمليات التوظيف والأثرة حيث يقول : « إن هؤلاء قد كسروا السلم الذي ارتقوا منه لوظائفهم ليمنعوا الغير من الارتقاء .»

٢- يقول ابن حجر مبينا المراد بكلمة الإلقاء : « فالمراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم حتى يبخل العالم بعلمه ، فيترك التعليم والفتوى ، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره ، ، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير ، وليس المراد وجود أصل الشح ؛ لأنه لم يزل موجوداً . » (١)

﴿ العلامة التاسعة : ظهور الفتن ﴾

هذه العلامة أرشد إليها قول النبي ﷺ : ﴿ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ﴾ (٢) والفتن لها باب خاص سأتناوله فيها بالتفصيل ، و إنما أردت هنا أن أسير مع سياق الأحاديث الدالة على العلامات الصغرى ، ولعل الملفت هنا في هذا الحديث الربط بين الفتن والظهور ، مما يدل على أنها تشير إلى مرحلة تتميز بشيوع الفتن بأنواعها فيها ؛ سواء كانت فتن الأموال أو النساء أو فتن الشهوات والشبهات بعمومها و صنوفها وما يترتب عليها من انتشار الجرائم سيما القتل ؛ ويكون شيوعها بحيث تصبح سمة تلك المرحلة ، و الفتن بهذا المعنى أمر ملموس في عصرنا ، بحيث يصدق فيه القول بأن الفتن تمثل ظاهرة عامة شاملة .

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٠)

(٢) سبق تخريجه

﴿ العلامة العاشرة : إفاضة المال ﴾

وهذه العلامة عبرت عنها الأحاديث بطرق مختلفة منها قول النبي ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي بِهِ ﴾ (١) ﴿ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ ﴾ (٢)

﴿ ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا.﴾ (٣)

هذه أهم الروايات الدالة على هذه العلامة ، وهي في ظني لها أربع أو خمس احتمالات أو حالات ، وإن كانت تجمعها نفس الفكرة ، وتوضيح ذلك في التالي :

الاحتمال الأول : يراد بإفاضة المال الكنوز التي وقعت بأيدي المسلمين بسبب الفتوحات :

وهذا المعنى يرشد إليه قول النبي ﷺ في حديث ابن حوالة الطويل ، وفيه : ﴿ لَيُفْتَحَنَّ لَكُمْ الشَّامُ وَالرُّومُ وَفَارِسُ أَوْ الرُّومُ وَفَارِسُ حَتَّى يَكُونَ لِأَحَدِكُمْ مِنْ الْإِبِلِ كَذَا وَكَذَا وَمِنْ الْبَقَرِ كَذَا وَكَذَا وَمِنْ الْغَنَمِ، حَتَّى يُعْطَى أَحَدُهُمْ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَسْخَطَهَا.﴾ (٤)

فالأثر السابق ربط بين إفاضة المال والفتوحات رابطة السبب والنتيجة ، فالفتوحات سبب لهذه العلامة مما يدل أنها مقارنة لزمانها ، والعجيب في هذا الحديث أنه استخدم ضمير المخاطب في بدايته (لكم - لأحدكم) مما يدل أن المقصود به الصحابة رضي الله عنهم ؛ أي أنهم أهل فتح الشام والفرس والروم ، وسينالون من ذلك كنوز كثيرة ، لكن عندما تحدث النبي ﷺ عن العطاء والسخط المترتب عليه ، استخدم ضمير الغائب (حتى

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة برقم ١٤١٢ [البخاري مع الفتح (٣/٣٣٠)]

(٢) سبق تخريجه

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في الجزية والموادعة برقم ٣١٧٦ [البخاري مع الفتح (٦/٣٢٠)]

(٤) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٥٤٨ ، واللفظ له [المسند(٥/٣٤٠)] ؛ وأصل الحديث أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥١٨ [عون المعبود (٧/٢٠٩)] ؛ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، المجلد الثاني برقم ٧٨٣٨

يعطى أحدهم) مما يشير أن حالة السخط لا تكون في الصحابة ، إنما تكون في غيرهم ممن يشاركون الصحابة في الفتوحات .

الاحتمال الثاني : يراد بإفاضة المال ما وقع في عهد عمر بن عبد العزيز :

وهذه الدلالة يرشد إليها الأثر الأول الذي ذكرت ، حيث قال فيه النبي ﷺ حتى يكثر فيكم ؛ أي في زمن الصحابة ، ويكون بذلك الإشارة إلى ما وقع من فتوحات وغنائم ، ويكون قول النبي ﷺ « فيفيض حتى يهم رب المال » إشارة إلى ما وقع في عهد عمر بن عبد العزيز ، وهذا ما وقع فالمال كثر في عهد الصحابة ، ولكنه وصل درجة الإفاضة بحيث يحصل استغناء كل أحد عن مال غيره في عهد عمر بن عبد العزيز .

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في حديث عدي ومنه : « ... وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ﴾ قَالَ عَدِيٌّ : فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ » (١)

فهذا الأثر الذي يخاطب به النبي ﷺ عدياً بأنه سيرى أموراً ثلاث على خلاف ما هو حال الصحابة لحظة الكلام ، منها خروج الرجل بالمال ، فلا يجد من يقبل صدقته ، وقد رأى عدي الأمرين الأوليين ، وكلامه يشير إلى قرب وقوع الأمر الثالث كما يتضح من السياق ، وهذا ما حدث بعد موته في زمان عمر بن عبد العزيز ، ذكر ابن حجر عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بسند جيد أنه قال : « لا والله ! ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٥٩٥ [البخاري مع الفتح (٦/ ٧٠٦)]

يجد ، فيرجع به ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس . » (١)

والملاحظ أن ما يدل عليه شاهد الحديث هنا يشير إلى عهد صلاح وقناعة ، وهذا يناسب عهد عمر بن عبد العزيز ، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ : ﴿ تَصَدَّقُوا فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا يَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالْأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا . ﴾ (٢)

فالحديث يشير إلى قناعة الناس وزهدهم في الدنيا ، ورغبتهم في التقلل من أحمالها وأثقالها ؛ وعدم أخذهم من الصدقات تكسباً بل بما يقضون به حاجتهم فقط ، وهذا صريح سياق الحديث ؛ حيث يرفض الرجل الصدقة لعدم حاجته إليها بالرغم أنه كان بالأمس بحاجة إليها ، وهذا المعنى كما ذكرت يناسب حال الناس في عهد عمر بن عبد العزيز ، ويمكن أن يحمل على حال الناس في عهد عيسى ﷺ ، والمهدي ﷺ .

الاحتمال الثالث : يراد بإفاضة المال ما يكون في عهد المهدي وعيسى بن مريم عليهما السلام .

وهذا المعنى يرشد إليه قول النبي ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ . ﴾ (٣)

ويرشد إليه أيضاً ما ورد عن المهدي بأنه يحثو المال حثياً، و لا يجد من يأخذه .

وأود الإشارة هنا إلى أن إفاضة المال في عهد عيسى سببه هو كثرة المال وقلة الناس بسبب ما وقع من حروب وفتن وملاحم ، واستشعارهم بقرب قيام الساعة ؛ لذا يزهدون في أخذه .

---

(١) فتح الباري (٨٩/١٣)

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ، برقم ١٤١١ [البخاري مع الفتح (٣/ ٣٣٠)]

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٤٨ [البخاري مع الفتح (٥٦٦/٦)]

الاحتمال الرابع : يراد بإفاضة المال كثرته مع كثرة متطلبات الحياة ، وتطلع الناس للترف .

وهذا الاحتمال يؤيده قول النبي ﷺ : ﴿ ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا . ﴾ (١)

والشاهد في الحديث الثاني أن الذي يُعطى المائة دينار يظل ساخطاً ، وفي رواية أخرى للحديث أن الرجل يعطى الألف دينار فيظل يتسخطها .

فالسخط هنا ليس فيه إشارة للقناعة والاكتفاء بما لديه ، بل فيه إشارة إلى عدم رضا الآخذ لشعوره بقلة العطاء ، وهذا يحتمل أمرين :

الأول : حصول التضخم في الأموال ، بحيث لا يكون للمائة دينار قيمة عظيمة عند الناس ولا تكفيهم حاجتهم ، وهذا بخلاف ما كان عليه الأمر في الماضي ، ويعزز هذا المعنى قول النبي ﷺ : ﴿ لَا يَزْدَادُ الْأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً وَلَا المال إلا إفاضة ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ من خلقه . ﴾ (٢).

الثاني : انتشار الترف ، وكثرة متطلبات الحياة مما يجعل المائة دينار لا تفي بهذه المتطلبات ، ولا تحقق ما يتشوف إليه الناس مما يرونه حولهم من ترف فاحش ، **وهذا الاحتمال مبني على فساد قلوب الناس وطمعهم في الدنيا ، وعدم قناعتهم بالقليل منها .**

وهذه العلامة نعيشها في عصرنا بشكل لا يحتمل التأويل ، وحال دول الخليج وانتشار الترف وكثرة الأموال فيها بصورة غير طبيعية تشهد لمصداقية هذه العلامة .

الاحتمال الخامس : انتشار الفتن و كثرة القتل وانشغال الناس بذلك مما يجعلهم يعرضون عن الأموال .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٣٥٩ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي [المستدرك (٤/٤٨٦)]

وهذا الاحتمال يُتصور عند انشغال كل إنسان بنفسه عند طروق الفتن والملاحم العظام ، وفتنة الدجال ؛ بحيث لا ينتبه الإنسان للأهل فضلاً عن المال ، فالأمر في نظره أعظم من ذلك ، والمصيبة أكبر والخطب أشد من أن يلتفت للمال .

وهذا المعنى يرشد إليه حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ حيث قال : ﴿ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ . ﴾ (١)

فرفض الصدقة من الذهب إشارة إلى كثرة المال ، وسياق الحديث يشير إلى زمن يقل فيه الرجال إما بسبب الفتن والحروب ، أو لأسباب أخرى ، وهذه العلامة لم تأت بعد .

خلاصة القول حول علامة إفاضة المال :

الأحاديث الدالة على إفاضة المال لها دلالات عدة منها ما وقع كما في عهد عمر بن عبد العزيز ، ومنها ما هو واقع كما نرى في كثير من الدول العربية التي كثر فيها المال بصورة غير معهودة ، ومنها ما سيقع إما في عهد عيسى ﷺ ، أو في زمن الفتن والملاحم وفتنة الدجال ، أو عند قرب قيام الساعة ، فهذه خمسة أحوال يصدق فيها إفاضة المال .

﴿ العلامة الحادية عشرة : التطاول في البنيان ﴾

وهذه العلامة عبرت عنها الأحاديث بعبارات مختلفة منها : ﴿ وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ ﴾ (٢) ﴿ وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ﴾ (٣) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبَهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ﴾ (٤) ﴿ وَأَنْ يُرَى الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ الْجُوَّعُ يَتَبَارَوْنَ فِي الْبِنَاءِ ﴾ (١)

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة برقم ١٤١٤ [البخاري مع الفتح (٣/ ٣٣٠)]

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٨[انظر مسلم بشرح النووي (١٥٨/١)]

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ٩ [انظر مسلم بشرح النووي (١٥٩/١)]

شرح الغريب :

العالة : الفقراء **البهم** : جمع بهمة ، وهي صغار الضأن والمعز .

شرح :

هذه الروايات تشير إلى تقلب حال فئة من الناس من حال القلة والضعف والفقر إلى حال الغنى الفاحش المفاجئ ، و تبين الروايات أن هاتين الحالتين المتناقضتين سيعاينها أفراد الأمة بصورة جلية عبر عنها النبي ﷺ بقوله « ترى - رأيت - يرى » .

وهذه العلامة بهذه الصورة قد عاينها المسلمون بالجزيرة العربية ، ورأوا تقلب أهلها من حال الرعي والفقر إلى حال الغنى الفاحش والتطاول بالبنيان ، وذلك بعد اكتشاف البترول الذي أثر على أهل تلك المناطق ، والرواية الثالثة عند أحمد تبين المراد في المطاولة ، حيث عبر عنها بقوله « يتبارون » التي تتضمن معنى المنافسة أيهم يكون بناءه أطول أو أجمل أو أكثر تكلفة ، وهذا الأمر مشاهد في الخليج بصورة ملحوظة ، ومن نظر إلى بعض المباني هناك وما تضمنته من ترف فاحش يشعر بمدى مصداقية الحديث ، ومدى دقة توصيفه للواقع .

﴿ العلامة الثانية عشرة : رؤية الحفاة العراة ملوك الأرض ﴾

- ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ﴾ (٢)

- ﴿ وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ﴾ (٣)

وهذه العلامة متعلقة بسابقتها ، وهي غنية عن البيان لما سبق شرحه ، وهي من علامات عصرنا .

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين عن أبي هريرة برقم ٨٨٨٣ ، والحديث له أصل يشهد له عند مسلم ؛ والحديث بهذا اللفظ ذكره المقري الداني برقم ٣٩٣ [السنن الواردة في الفتن (٤/٧٨٥)]

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٠ [انظر مسلم بشرح النووي (١/١٦٠)]

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٩ [انظر مسلم بشرح النووي (١/١٥٩)]

﴿ العلامة الثالثة عشرة :ظهور الزنا و انتشاره ﴾

- قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ، فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (١)

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ . ﴾ (٢)

وفي رواية : ﴿ يفشو الزنا ﴾ (٣)

- عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤)

شرح الغريب :

القيم : يراد به هنا الرجل الواحد القائم على أمر النسوة الحر : بكسر الحاء الزنا

سارحتهم : أي الماشية التي يسرحون بها للرعي .

شرح :

هذه العلامة لها جانبان :

---

(١) البقرة:٦٥

(٢) أخرجه البخاري في الفتح برقم ٨١ [البخاري مع الفتح (٢١٤/١)]

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ، برقم ٢٣٠١ وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٤٩/٦)]

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً في الأشربة برقم ٥٩٩٠ وقال عنه ابن حجر : « والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح » وفي موطن آخر قال : « صححه ابن حبان ، وله شواهد كثيرة » [انظر فتح الباري (٥٣/١٠) (٥٥/١٠)] ، والحديث ذكره الألباني في الصحيحة ، المجلد الأول برقم ٩١

الجانب الأول :

انتشار الزنا بحيث يصبح ظاهرة طبيعية لا ينكرها المجتمع ، أو يتعامل معها دون معاقبة ، ويكون ذكر وقوع الناس بها غير مستهجناً ، وهذه الحالة موجودة في عصرنا بصورة جلية ، خاصة أن قوانين الدول الإسلامية المستوردة لا تعاقب على جريمة الزنا إن كانت برضا الطرفين ، وهذا نوع لظهور الزنا في المجتمعات ، أما مقدماته فحدث ولا حرج،حيث بدأت المجاهرة به في وسائل الإعلام مع تزيينه بعبارات مخادعة كالفن وغيره .

يضاف إلى ذلك انتشار من يمتهن تلك المهنة من البغايا في أوساط الدول الإسلامية ، ولا مُنكِر عليهن ، وبعضهن يأخذن تراخيص على ذلك .

وهذه العلامة ، وإن كانت بدأت إرهاصاتها من قرون إلا أنها في عصرنا قد أخذت شكلاً ظاهراً .

الجانب الثاني :

استحلال الزنا من أقوام من الأمة ، وهذا الجانب أشد من سابقه ، ويوقع أهله في الكفر ؛ لأنه إنكار حرمة شيء معلوم حرمته من الدين بالضرورة ، وهذا المعنى وجد في عصرنا بين فئات من المجتمع لا ترى في الزنا أي حرمة ، بل ترى التيسير فيه نوعاً من تطور المجتمع المدني .

وكذلك وقعت هذه العلامة في الماضي على يد إباحيين من الفرق المارقة في الأمة كالقرامطة الذين أباحوا كثيراً من المحرمات منها الزنا الذي كان يرتكب عندهم بشكل جماعي .

وفي عصرنا أيضاً يمكن اعتبار وجود قوانين لا تجرم الزنا أو مرتكبيه هو نوع استحلال لهذه الجريمة .

وهذه الظاهرة تستمر بازدياد إلى قيام الساعة حتى تصل إلى درجة ارتكاب الزنا في الطرقات دون منكر لها – كما سيتضح في العلامات الأخيرة لقرب وقوع الساعة – وتكون أعلى درجات الإنكار في ذلك الزمان أن يقول الرجل لمرتكب الزنا ، لو أخذتها

إلى جانب الطريق أو إلى زقاق منه ، وقد بين النبي ﷺ أن أمثال هذا المُنكِر فيمن حوله كمثل أبي بكر وعمر في الصحابة ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على تمكن الفساد بحيث يصبح الزنا نفسه ظاهرة طبيعية جداً في المجتمع ، وبحيث لا يتورع مرتكبه منه كما لا يتورع الإنسان في شرب الماء .

لطيفتان

١- المعلوم أن الشريعة قدا جاءت لحفظ كليات خمس هي : الدين والنفس والعقل والمال والنسل بما يترتب عليه صلاح البشر في الحال والمآل ، والحديث الأول يشير إلى أن الاختلال يقع في هذه الخمس مما يشير إلى غياب حقيقة الرسالة ومعالمها الأساسية من حياة المسلمين ، يقول ابن حجر : « وكأن هذه الأمور الخمسة خصت بالذكر لكونها مشعرة باختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح المعاش والمعاد ، وهي الدين ؛ لأن رفع العلم يخل به ، والعقل ؛ لأن شرب الخمر يخل به ، والنسب ؛ لأن الزنا يخل به ، والنفس والمال ؛ لأن كثرة الفتن تخل بهما .. وإنما اختلال هذه الأمور مؤذنا بخراب العالم . » (١)

٢- يلحظ من باقي الحديث أن بعض هذه الأقوام تمسخ قردة وخنازير كما وقع مع أهل السبت الذين استحلوا حرمته ، وتحايلوا على أمر الله ، فناسب ذلك ألا يبقوا على إنسانيتهم ، بل ينحدروا إلى أخبث المخلوقات ، وكذلك هنا استحلال الحرام يترتب عليه نفس العقوبة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

وما دام الإنسان قد وصل لدرجة تعطيل عقله ، أو استخدامه بطريقة خاطئة يتحايل فيها على أمر الله سبحانه وتعالى ، فلا داعي لتكريمه ، وجعله خليفة في الأرض تسخر له الكائنات ؛ لأن المُكرَم لم يحترم هذا التكريم ؛ لذا الأليق به أن يكون من أخبث الكائنات وأنجسها على الأرض .

---

(١) فتح الباري : (١/ ٢١٦)

(٢) الفتح:٢٣

﴿ العلامة الرابعة عشرة : استحلال الخمر وتسميتها بغير اسمها ﴾

- عن أَنَسُ بْنُ مَالِك ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا ﴾ (١)

- عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ﴿ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَتَى ذَاكَ قَالَ إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ . ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ لَا تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَشْرَبَ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا .﴾ (٣)

وفي رواية : ﴿ لَيَسْتَحِلَّنَّ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ بِاسْمٍ يُسَمُّونَهَا إِيَّاهُ .﴾ (٤)

- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُكْفَأُ - يَعْنِي الْإِسْلَامَ - كَمَا يُكْفَأُ لِلْإِنَاءُ - يعني - الْخَمْر - فَقِيلَ : فَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّه وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا مَا بَيَّنَ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا فَيَسْتَحِلُّونَهَا . ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم ٨٠ [البخاري مع الفتح (٢١٣/١)] ؛ ومسلم في العلم ٢٦٧١[مسلم بشرح النووي (٤٣٩/٨)]

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٠٩ [تحفة الأحوذي (٤٥٨/٦)] ؛ والحديث صححه الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٢١٢ ، وذكره في السلسلة الصحيحة المجلد الخامس برقم ٢٢٠٣

(٣) أخرجه أبو داود في الأشربة برقم ٣٦٧١ [عون المعبود (١٥٢/١٠)] ؛ وابن ماجة في الأشربة برقم ٣٣٨٤ [السنن (١٢٢٣/٢)] ، وأحمد في مسند باقي الأنصار برقم ٢٢٩٦٦ [المسند (٤٠١/٥)] ، والحديث أخرجه النسائي والدار مي من طرق أخرى ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة

(٤) أخرجه ابن ماجة في الأشربة برقم ٣٣٨٥ [السنن (١٢٢٣/٢)] ؛ وأحمد في مسند باقي الأنصار برقم ٢٢٧٧٥ ، واللفظ له [المسند (٣٧٣/٥)] والحديث قال عن ابن حجر : سنده جيد [فتح الباري (٥٤/١٠)] ، والحديث صححه الألباني [السلسلة الصحيحة ، المجلد الأول برقم ٩٠ ، وفي سنن ابن ماجة برقم ٣٣٨٤]

(٥) أخرجه الدارمي برقم ٢٠٠٨ ؛ وصححه الألباني [السلسلة الصحيحة ، المجلد الأول برقم ٨٩]

- عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ . ﴾ (١)

شرح :

١- هذه العلامة لها علاقة بسابقتها ، وفيها توضيح لطريقة الاستحلال ، وذلك من خلال تسمية الخمر باسم غير اسمها ، ولئن كان القرآن والسنة قد أثرا في نظرة المسلمين نحو الخمر وتمكنا من نفور كل مسلم منها ، فقد عمد شياطين الإنس ، وأصحاب الشهوات إلى الابتعاد عن هذا الاسم الذي ينفر منه المسلمون ، فأخرجوا للخمر مسميات جديدة ؛ كمشروب الروح أو غيره من المسميات المعاصرة ، وفي الماضي تسميته بالنبيذ وغيره ، والمراد خداع المسلمين أو أنفسهم في إباحة ما حرم الله سبحانه وتعالى ، وهم بذلك أشبه بحال أهل السبت الذين استحلوا حرمته بحيلة عجيبة ، وهي نصب الشباك وحفر الحفر يوم الجمعة ، و جمعها واصطياد ما فيها يوم الأحد ، أما يوم السبت فهم في بيوتهم مسبتون ؛ فإن جاء الإنكار عليهم بأنهم استحلوا حرمة السبت ، قالوا : إننا مثلكم مسبتون ، وها نحن أمام أعينكم في بيوتنا أو كنائسنا لم نخرج منها .

فهذه صورة الأمر،أما حقيقته فهي أن عملية الصيد حقيقة وقعت يوم السبت .

وهنا إن جاء الإنكار على مستحلي الخمر ، سيقولون : من قال لكم أننا نبيح الخمر ، فالخمر حرام عندنا ، أما ما نشربه فليس خمراً إنما هو مشروب روحي ، أو نبيذ ، و لم يعلم هؤلاء وأصحاب السبت أن العبرة في شريعة الله للدلالات والمعاني وليس للألفاظ والمباني ، فتغيير اسم الشيء لا يغير حكمه ، وتسمية الخترير غزالا لا يحوله إلى غزال مباح الأكل ، وتسمية كل مسكر مذهب للعقل بأي اسم آخر غير الخمر لا يغير من حقيقتها ولا حكمها .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٢٠ [السنن (١٣٣٣/٢)] ؛ والحديث صححه الألباني [صحيح الجامع الصغير المجلد الثاني ، حديث رقم ٥٤٥٤

٢- هذه العلامة وقعت قديماً ، وإرهاصاتها بدأت حتى في عهد الصحابة ، فقد ورد « أن أبا مسلم الخولاني حج فدخل على عائشة ، فجعلت تسأله عن الشام ، وعن بردها ، فقال : يا أم المؤمنين إنهم يشربون شراباً لهم يقال له الطلاء ، فقالت : صدق رسول الله ﷺ وبلغ حتى سمعته يقول : إن ناساً من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها . » (١)

وهناك فرق كثيرة مارقة على مر التاريخ الإسلامي تشرب الخمر تسميه بغير اسمه ، بل بعضهم يقدسها ، ويراها حلالاً صرفاً ، ولئلا يكون الكلام خالياً من الشواهد أذكر بعض ما ذكره الدكتور محمد الخطيب عن النصيرية أو العلوية : « الخمر في نظر النصيريين مقدسة أيما تقديس .. لذلك يطلقون عليها اسم عبد النور باعتبار أن الخمر خلق من شجرة النور ، وهي العنب . » (٢)

وينقل عن بعض النصيريين قوله في قداس الخمر : « أنه إذا حضر بين يديه عبد النور (الخمر) يأخذ القدح بيمينه ، وينهل منه ثلاث نهلات ويترنم عليه بهذا القداس المبارك ... اللهم إن هذا عبدك عبد النور حللته وكرمته وفضلته لأوليائك العارفين بك حلالاً طلقاً ، وحرمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك حراماً نصاً ، مولاي كما حللته لنا ارزقنا به الأمن والأمان ، والصحة من الأسقام ، وانف عنا به الهم والأحزان . » (٣)

٢- يعتبر في عصرنا فتح محلات الخمر وشيوعها و إعطاء التراخيص لها نوع استحلال لها ، وتسمية الخمر بمئات الأسماء غير اسمها الحقيقي يشهد لكلام الحبيب ، ويعزز كون هذه العلامة ظهرت في القديم ، وما زالت في ازدياد حتى عصرنا .

٤- طريقة استحلال المحرمات بتغيير المسميات لم يقتصر على الخمر ، بل تعداه لكل المحرمات في عصرنا ، ويقصد بتغيير الاسم تزيين القبيح ، و تخفيف النفرة من القلوب من

---

(١) فتح الباري (١٠/٥٤)

(٢) الخطيب : الحركات الباطنية في الإسلام (٣٦٩)

(٣) نفس المرجع (٣٧٠)

اسم ارتبطت النفرة منه بتحريم رباني ؛ لذا نلحظ في عصرنا تسمية الربا بالفائدة ، وتسمية سفور المرأة وتبرجها بتحرير المرأة ، والتنصل من قيم الإسلام وتعاليمه بالتحرر والمدنية والرشوة هدية والنفاق حضارة .

﴿ العلامة الخامسة عشرة : اتخاذ القينات والمعازف ﴾

وهذه العلامة شواهدها من السنة سبق ذكرها في العلامتين السابقتين ، والمراد بالقينات المغنيات ، ويمكن أن يحمل على الراقصات أيضاً ، ويلحظ أن الأحاديث قد ربطت بين آلات اللهو والخمر والزنا والمغنيات والراقصات ، أو بعبارة أخرى كأن الحديث يشير إلى تلك المحلات أو الدور المسماة بالكباريهات ، فهي التي يصدق عليها مجموع هذا الوصف ؛ ووجودها أو شيوعها في بلاد المسلمين معروف ، ولها أماكنها الخاصة المرخصة ، وهي عبارة عن بؤر منكرات منها ما ذكر الحديث يضاف إليها القمار وغيره ، ولعل أحاديث المسخ في آخر الزمان يقصد بها مثل هذه الأماكن و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (١) .

﴿ العلامة السادسة عشر : تضييع الأمانة ورفعها ﴾

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً. ﴾ (٢)

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ. ﴾ (٣) (❁)

---

(١) الرعد: من الآية٣٨

(٢) الأحزاب:٧٢

(٣) الأعراف ١٦٩

(❁) قد يستغرب البعض من إيرادي هذه الآية في موضوع رفع الأمانة ، وفي ظني أنها ذات علاقة وثيقة به ، ومن تأمل فيها ملياً بعد قراءته لشرح الحديث يعلم وجه العلاقة ، وهنا أشير إلى بعض دلالاتها ، فالآية تدل على أن الخلف=

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ . ﴾ (١)

أقول :

١- الحديث فيه إشارة إلى علامتين متلازمتين من علامات الساعة ، إحداهما تضييع الأمانة ، والثانية توسيد الأمر إلى غير أهله ، والملاحظ أن العلامة الأولى مترتبة على الثانية ، أما العلامة الثانية فسيأتي شرحها في علامة منفصلة ، و الشاهد في الحديث هنا هو معرفة أن ضياع الأمانة هو من علامات الساعة .

٢- سنلحظ في الحديث التالي أن الأمانة ترفع من القلوب وتترع منه ليلاً ، وقد يسأل سائل : ما ذنبنا إذا كان نزع الأمانة مترتبا على شيء خارج عن طاقتنا ؟ ومن نظر للحديث السابق وللآية التي قبله يعلم أن نزع شيء أو رفع تكريم إنما هو لمقدمات حاصلة من البشر ، يترتب عليها عدم استحقاقهم لهذا التكريم ، وهذا معلوم في حياة البشر ؛ فقد تكرم إنساناً ، وتضعه في مقام رفيع للقيام بوظيفة ما تتناسب مع هذا المقام الذي وضع فيه ، فإن رأيته غفل عن وظيفته ، ولم يقم بواجباتها ، أو استغلها في غير ما وضعت له ، فإنك ترى ضرورة نزعه من مقامه ، وتجريده من ذلك التكريم ، ولله المثل الأعلى ، يقول الله سبحانه وتعالى : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٢) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

=قد ورثوا أمانة الدين من سلفهم ، لكن اختلفت قلوبهم عمن سبقهم ، فطلبوا بالرسالة عرض الدنيا وتشوفت قلوبهم إليها ، وتنصلوا من مواثيق الله سبحانه وتعالى ، وهذه العقلية في الخلف هي الموطئة لحرمانهم من رسالتهم ، ومن القوة الدافعة والمعينة لحملها في قلوبهم ، وهي الأمانة .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦٤٩٦ [البخاري مع الفتح (٣٤١/١١)]

(٢) النحل: من الآية١١٨

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

- عن حُذَيْفَةُ رضي الله عنه قَالَ : ﴿ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا . ﴾ (٢)

أولاً : شرح الغريب .

جذر : الأصل ، وجذر القلوب أصلها .
الوكت : أثر الشيء اليسير
المجل : أثر العمل في الكف إذا غلظ ، أو هو الدمل في اليد
نفط : تورم وانتفخ
منتبراً : منتفخاً ومتورماً أو مرتفعاً

ثانياً : معنى الأمانة في الحديث .

اختلفت أقوال العلماء في المراد بالأمانة في الحديث على أقوال :

أ- الأمانة هي كل ما يخفى ولا يعلمه إلا الله من المكلف .

ب- الأمانة هي الفرائض التي أمر الله سبحانه وتعالى به عباده ، والنواهي التي نهاهم عنها أو هي التكاليف والطاعة .

ت- الأمانة هي العهد الذي أخذه الله على العباد .

---

(١) الأعراف:١٧٦

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦٤٩٧ [البخاري مع الفتح (٣٤١/١١)]

ث- الأمانة هي الإيمـــان الذي إذا استمكن في القلب قام بأداء ما أمر واجتناب ما نهي . (١)

ج- الأمانة هي الصفة السلوكية التي هي ضد الخيانة . (٢)

هذه أبرز معاني الأمانة التي ذكرها العلماء بخصوص هذا الحديث ، و اختلاف العلماء في توصيفها أو تحديد ماهيتها إنما يرجع للجهة التي نظر إليها كل منهم ، فالبعض نظر للمعنى اللغوي الصرف فعرفه من خلال ذكر نقيضه ، والبعض نظر إلى آثار الأمانة فعرفها بها ، والبعض نظر إلى أصلها قبل خلق البشرية فيما عهد إلى بني آدم وهم في الأصلاب .

وفي ظني أن أرجح المعاني المذكورة هو اعتبار الأمانة هي السر الذي يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلوب العباد بما يمهد لهم حمل أعباء الرسالة وتكاليفها أي هي سر العبودية وروحه ، أو هي ذلك الاستعداد الإيماني المودع في القلوب لحمل أعباء الرسالة ، وهي بهذا المعنى لها متعلق بالإيمان الذي أشار إليه أحد الصحابة بقوله : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً .

ولها متعلق بالعهد الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في الأصلاب ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. ﴾ (٣)

فهذا العهد هو الأمانة التي قبلها الإنسان ، واستعد لها ، فإذا غفل عن هذا الاستعداد ، كان لنفسه ظلوماً ، وكان في حقها جهولاً ، فاستحق بذلك أن يترع منه هذه السر المتعلق بهذا العهد ؛ إذا لا فائدة منه ترجى في قلب ظلوم جهول .

---

(١) فتح الباري (١٣/٤٣)

(٢) المرجع السابق ص (١١/٣٤١)

(٣) الأعراف:١٧٢

ثالثاً : شرح الحديث .

١ - الحديث السابق يتضمن في داخله حديثين سمعهما حذيفة من النبي ﷺ الأول أشار فيه النبي إلى أن الأمانة نزلت في أصل قلوب الرجال ، وهي سر العبودية أو روح الإيمان التي تمهد لقبولهم مقتضيات التكليف ، ثم نزلت بعد ذلك التكاليف من قرآن وسنة فحملها أهلها من الرعيل الأول ، وهذا المعنى رآه حذيفة في صحابة رسول الله ﷺ .

أما الحديث الثاني فيشير إلى رفع هذا الاستعداد الإيماني ، أو سر العبودية ، أو القوة الدافعة نحو القيام بأعباء الرسالة من قلوب الناس ، وذلك لفساد حالهم وتشوفهم للدنيا وطلبها ، ويشير الحديث إلى أن نزع الأمانة يمر بعدة مراحل ، في كل مرحلة ينزع شيء من هذا السر أو هذه القوة الدافعة من القلوب ، ونزع الأمانة إنما يقع حال نوم الأفراد ، و قد عبر عن ذلك بصورتين حسيتين :

الصورة الأولى : قبض الأمانة وبقاء شيء يسير منها في القلوب ، يشبه الوكت وهو الأثر اليسير الذي يبقى من الشيء من غير لونه ، يقال وكت البسر ؛ أي وقعت فيه نقطة من الإرطاب ، والبسر البلح غير الناضج . (١)

فهذا الأثر ، أو هذه النقطة اليسيرة التي تبقى في القلب ، هي ما تبقى من القبض الأول للأمانة في القلوب .

الصورة الثانية : في القبض الثاني لا يبقى من الأمانة شيء في القلوب ، وتغيب ماهيتها ووصفها ولا يبقى إلا رسمها ، وقد شبه النبي ﷺ ذلك بجمر يتدحرج على القدم ، فانتفخ مكانه بسبب ما يحمل من ماء تحته ، وهذا الانتفاخ لا خير فيه ، وشبهه النبي ﷺ بأثر المجل ، وهو الورم أو الآثار المتبقية في اليد العاملة الغليظة .

فهذا الورم أو الانتفاخ هو الصورة الحسية التي ضربها النبي ﷺ لما تبقى من الأمانة ، وحاصل هذه الصورة أن الأمانة تزول فلا يبقى منها إلا الأثر الموصوف الذي لا خير فيه لصاحبه ، وأن الموصوف بالأمانة يسلبها حتى يصير خائناً بعد أن كان أميناً ، وذلك

---

(١) ابن منظور : لسان العرب (١٠٨/٢)

يقع بسبب مقارفة الأمين للخونة ومخالطته لهم فيصير مثلهم ؛ لأن القرين بقرينه يعرف .

٢- يلحظ في الحديث أن نزع الأمانة في الصورتين المذكورتين يكون لحظة النوم ، والمعلوم أن النوم هي حالة أشبه بالموت ، وقد ورد في بعض الآثار أن النبي ﷺ سماه موتاً ، أو موتة صغرى ، فعن الْبَرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ : ﴿ اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ . ﴾ (١)

وسمى الله سبحانه وتعالى الموت وفاة ، وذلك بقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

يقول ابن القيم : « إنه سبحانه أخبر بوفاتين : وفاة كبرى وهي الموت ، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم . ﴾ (٣)

والمعلوم أن الروح تسرح في نومها مع بقاء نوع تعلق مع الجسد ، وأرواح المؤمنين تسرح في الملكوت الأعلى أما أرواح الكافرين فلا تفتح لها أبواب السماء ، وتبقى جوالة فيما يتناسب مع خبثها في الأرض . (۞)

وما يعنينا هنا هو أرواح المؤمنين ، فهذه الأرواح هي التي تحمل معها السر الأعظم ، وهو الأمانة ، فإذا أُثقلت بالذنوب ، ولابست الفتن ، وثقلت عليها التكاليف ، وبدأت تختل فيها موازين حمل الرسالة ، عندها يرتفع تأهيل هذه الروح ، ويقل استحقاقها للقوة الدافعة الجوالة في ملكوت السماء ، فيبدأ نزع هذا السر منها ، وكلما نزع منه شيء انحدرت وهبطت نحو الأرض .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٧١١ [مسلم بشرح النووي (٣٤/٩)]

(٢) الزمر:٤٢

(٣) ابن القيم : الروح (٢٧)

(۞) يمكن مراجعة كتاب الروح لابن القيم ، ففيه تفصيلات قيمة بخصـــــوص الروح وتنقلاتها حال النوم [الروح (٢٦- ٣٨ - ٤٢)]

كذلك الحديث يتضمن في طياته تحذيراً لنا في مراعاة معاني الرسالة و متعلقاتها بحيث لا نغفل عنها ، أو نستثقل منها ،أو تتشوف قلوبنا إلى غيرها ، ونتنبه قبل نومنا – خاصة في عصر التناقضات الذي نحياه – على تجديد العهد مع الله إما بلسان مقالنا باعتماد سنن النوم وأذكاره قدر المستطاع ، أو بلسان حالنا من خلال تجديد معاني التوحيد في قلوبنا ، وإلا استيقظنا بقلوب غير تلك التي نمنا بها .

٢– يلحظ من الحديث أن النقص في الأمانة بدأ يشعر به الرعيل الأول من الصحابة كحذيفة مثلاً كما يتضح من سياق الحديث ؛ حيث بدأ يتوجس في آخر حياته من حال الناس ؛ لدرجة أنه لا يبايع إلا فلانا أو فلانا ؛ أي أناس قلائل ، وطبعاً المراد بالمبايعة هنا البيع والشراء ، وليس بيعة الخلافة والإمارة ، والقرينة الصارفة للمبايعة على البيع والشراء قول حذيفة : « وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ » ؛ إذ لا يتصور في المبايعة أن تكون على الخلافة أو الإمارة التي لا تصح إلا للمسلم ، يقول الخطابي : « تأوله بعض الناس على بيعة الخلافة ، و هذا خطأ ، وكيف يكون وهو يقول إن كان نصرانياً رده على ساعيه ، فهل يبايع النصراني على الخلافة ؟ وإنما أراد مبايعة البيع والشراء . » (١)

وهذا النقص الذي شعر به حذيفة نسبياً بالنسبة للعهد الذي قبله ، ليس هو المراد من الحديث بالنسبة لنزع الأمانة ؛ إذ ما ذكره من حال الناس عند نزع الأمانة منهم أشد مما كان عليه آخر عهده ؛ إذ مقتضى الحديث أن تفقد الأمانة من الجميع إلا النادر .

ولئن كان حذيفة قد بدأ يشعر بنقص الأمانة ويتوجس من حال الناس في آخر عهده ، بالرغم من أنه زمان حديث العهد برسول الله ﷺ ، فكيف بزماننا الذي بعدت بيننا وبين الرعيل الأول الشقة ، وطال بيننا الأمد ، واختلفت فيه القلوب ، واختلت فيه الموازين ، وانتشرت المنكرات والفتن ، ولعل زماننا يتضح فيه أكثر معاني نزع الأمانة .

---

(١) فتح الباري (١١/٣٤٢)

٣- في حديث حذيفة الثاني إشارة إلى اختلال موازين الناس في حكمهم على الأشياء والأشخاص ، وفي ذلك دلالة على فساد السواد الأعظم منهم ، ولفساد حالهم فسد حكمهم ، فيقولون عن الرجل ما أظرفه ما أجلده ، وليس في قلبه حبة خردل من إيمان ، وفي ذلك بيان أن الميزان الإيماني يخرج من اعتبارات الناس في ذلك الزمان ، وهذا المعنى نعيشه في عصرنا بصورة ملحوظة ، فأحكام الناس على الأشخاص كلها أحكام مبنية على غير ميزان الإيمان .

لطيـــفة

يلحظ أن البخاري قد بوب لحديث الأمانة بعنوان « إذا بقي في حثالة من الناس . » وهو بهذه الترجمة يشير إلى أن رفع الأمانة يترتب عليه فساد حال ذلك الزمان لدرجة يصدق في حقهم وصف الحثالة ، والحثالة يراد بها هنا سقط الناس وأراذلهم ، وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير .

وعلاقة الترجمة في الحديث واضحة ، فوجود الحثالة نتيجة لازمة لرفع الأمانة ؛ حيث يبقى رسم الإسلام دون وصفه وحقيقته ؛ وأي حثالة أو سقط أشد من أقوام يعظمون رجلاً ليس في قلبه حبة خردل من إيمان .

وهذه الترجمة التي بوب بها البخاري لها أصل في السنة عن أبي هريرة ﷺ حيث قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **كيف بك يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا ، فصاروا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، قال : فما تأمرني ؟ عليك بخاصتك ودع عنك عوامهم .** ﴾ (١)

والملاحظ من الحديث أنه أشار إلى اختلاط عهود الناس وأماناتهم ، وهذا الاختلاط جاء في معرض الذم للدلالة على أنهم ليسوا من حملة الأمانة مما يشير إلى رفعها الوارد في الحديث .

---

(١) أخرجه الطبري و صححه ابن حبان [انظر ابن حجر : فتح الباري (٤٢/١٣)]

وكذلك تضمن الحديث حكماً فقهياً يتناسب وتلك المرحلة ، وهي اقتصار الإنسان في علاقته على الخواص من أهل الأمانة إذا وجدوا ، ويتجنب عوام الناس ، وهو فقه مرحلي حال فساد السواد الأعظم من الناس ، فلينتبه إليه .

﴿ العلامة السابعة عشرة : توسيد الأمر إلى غير أهله ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ . ﴾ (١)

وفي رواية : ﴿ إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ﴾ (٢)

شرح الحديث :

المعلوم أن الوسادة تعطى للإنسان لكي يتكئ عليها ، والأصل أن تتناسب مع طبيعة الاتكاء ، وهذا الدين جُعل له وسادة من أهله شعارهم « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (٣) ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (٤)

لذا من تحمل أمر هذا الدين في بداية الرسالة – سواء فيما يتعلق بالخلافة أو الأمارة أو ما هو دون ذلك – كانوا أتقى الناس وأورعهم و أعدلهم ، وأكثرهم استعداداً لحمل أعباء الرسالة ، وأوسعهم علماً في شؤون الدنيا والآخرة ، وأقلهم تكلفاً في ما يخص الحياة ومتطلباتها ، وفوق ذلك كله كانوا أكثر الناس زهداً في الدنيا ، وأشدهم نفوراً من حبائلها .

فهؤلاء هم حملة الأمانة الأوائل ؛ لذا سعدت بهم الأمانة وازدانت ، ووجدت بهم متكئاً رحباً يتسع لحملها على الوجه المطلوب .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦٤٩٦ [البخاري مع الفتح (٣٤١/١١)]

(٢) أخرجه البخاري في العلم برقم ٥٩ [البخاري مع الفتح (١/ ١٧١)]

(٣) الحجرات: من الآية١٣

(٤) القصص: من الآية٢٦

أما إذا أصبح حملة الأمانة وقادة الأمة ، ورعاة الأمر على نقيض ما ذكرت ، فعندها تقع الطامة ، وتتغير الموازين ، وتضيع الأمانة ، وتغيب معالم الرسالة ، ويدنو الهلاك ، عندها انتظر الساعة .

ولكي يتضح الأمر في المراد بتوسيد الأمر إلى غير أهله ، بحيث يقدم الخونة والفسقة و بغاث القوم على أهل العدالة وحملة الرسالة من أمناء الأمة وربانييها أسوق هنا بعض الأحاديث الدالة على بعض تلك المظاهر :

الحديث الأول :

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَتَى نَدَعُ الائْتِمَارَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : ﴿ إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : إِذَا كَانَتِ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ ، وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

الفاحشة : يراد بها هنا الزنا ، وإن كان لفظ الفحش يعم كل القبائح في القول والفعل .

صغاركم : يحتمل أن يراد بها صغار السن ، أو سفلة الأمة وحثالتها من الرويبضة وأمثاله .

رذالكم : جمع رذل أو رذيل ، وهو الدون الخسيس من الناس ، ويراد به هنا الفساق وأصحاب المجون والرذيلة ، وسفلة القوم .

أقول :

المعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عنوان أمة محمد ﷺ ورمز خيريتها كما صرحت الآيات ، ولا تقوم عزة للأمة بدونه ؛ إلا أنه في ظل اختلال موازين

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠١٥ [ابن ماجة (١٣٣١/٢)] أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٢٩٤٨ [المسند (٢٢٩/٣)] ؛ والبيهقي في الشعب برقم ٧٥٥٥ [شعب الإيمان (٦/ ٨٤)] ؛ قال المقدسي في المختارة : إسناده صحيح [الأحاديث المختارة (٢٢٧/٧)]

الصلاح في الأمة خاصة في أهم عناصرها ففي مثل هذه الحالة قد لا ينفع الأمر بالمعروف ، أو قد ييئس القائمون به من جدواه ، أو قد لا يترتب منه الأثر المرجو منه ؛ لذا يدعه أفراد الأمة ، والمعلوم أن أهم عنصرين في الأمة العلماء والسلاطين بهما صلاح الأمة أو فسادها ، فإذا كان :

أ- **الملك والسلطان في صغار الأمة** ، والمعلوم أن الصغير يتميز بالطيش والخفة والميل إلى الشهوة واضطراب المنطق ، هذا إذا كان مراد النبي ﷺ من الصغار صغار السن .

أما إن كان المراد بقول النبي ﷺ بأن الملك في صغار القوم أي في سفلتهم وفساقهم فتكون الطامة أكبر ، ومن تتبع أحاديث النبي ﷺ في هذا الباب يرجح هذا المعنى .

ب - **العلم في الفسقة وسفلة القوم** : ويترتب على ذلك تأويل وتعطيل وتلاعب في مدلولات الوحيين : القرآن والسنة ، واتخاذ الدين مطية للأهواء والمصالح .

ج- **الفاحشة في الكبار** : الفاحشة سواء أريد بها الزنا الذي يعتبر أم الفواحش أو أريد بها ما هو أعم من ذلك مما فحُش من القول والفعل ، والكبار سواء أريد بهم كبار السن ، والمعلوم أن من الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة شيخ زانٍ ، وعدم نظر الله إليه لأنه ارتكب محظوراً بالرغم من قلة الدوافع إليه ، خاصة داعي الشهوة .

أو أريدِ بالكبار هنا كبار القوم وذوو السلطة ممن بأيديهم نواصي الأمة فإن انتشار الفاحشة في هذه الفئة في المجتمع إضافة إلى فساد الملوك والعلماء حَرِي بأن لا ينفع معه أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ، أو لا ترجى الثمرة المرجوة منه ؛ لذا اعتبر النبي ﷺ وقوع هذه الأمور الثلاثة مدعاة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والحديث يشهد له الواقع في حاضرنا المعاصر بما يغني عن بيانه ، فدلالة الحال أبلغ في البيان من دلالة المقال .

كذلك دلالة الحديث على تضييع الأمانة ، وتوسيد الأمر إلى غير أهله واضح ، يضاف إلى ذلك أن هذا التوسيد يصل إلى درجة لا ينفع فيها الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر .

الحديث الثاني :

📖 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً : يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث يشير إشارة واضحة إلى مظهر من مظاهر توسيد الأمر إلى غير أهله ، وهو نطق الرجل التافه الفاسق في أمر الأمة ؛ بحيث يكون صاحب أمرها ، ومالك شأنها ، وأي تضييع للأمانة وأي توسيد للأمر إلى غير أهله أكبر من ذلك .

وربط عهد الرويبضة بمقدمات خروج الدجال وإرهاصات ذلك ؛ لأن ما يقوم به الرويبضة هو جزء ممهد لسنّة الدجال في الأرض ، والخوف منهم على الأمة اعتبره النبي ﷺ أعظم من الخوف من الدجال نفسه ،فعن أبي ذر ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يَقُولُ : ﴿ غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَّالِ فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنَ الدَّجَّالِ قَالَ الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٣٣٠٣ [المسند (٢٧٠/٣)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط ، وفيه ابن إسحق وهو مدلس،وفي إسناد الطبراني ابن لهيعة ،وهو لين [مجمع الزوائد (٢٨٤/٧)] قال العدوي بعد ذكره لحديث آخر مطابق له في المعنى : صحيح لشواهده [العدوي : الصحيح المسند (٣٩٨)] .

(٢) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢١٣٥٤ ، وفيه ابن لهيعة ، ضعيف [المسند (١٧٤/٥)] ، وله شاهد عن أوس بن شداد قال عنه الهيثمي : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٢١/٧)]

﴿ العلامة الثامنة عشرة : تقارب الأسواق ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ ، وَيَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ،وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ قِيلَ : وَمَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ : الْقَتْلُ . » (١)

شرح :

يلحظ أن تقارب الأسواق بشكل ملحوظ لم تتضح بصورته إلا في عصرنا الحاضر ؛ حيث انتشر العمران وتقاربت المدن ، وفشت التجارة ، وتيسر أمرها وأسبابها ، وفي الماضي كانت بعض الأسواق ينتقل إليها مسافات طويلة ، أما في عصرنا ، فيمكن القول أن كل مدينة قد أصبحت بمثابة سوق كبير ؛ حيث انتشرت المحلات تحت البيوت واتصلت مع بعضها البعض ؛ إضافة إلى انتشار مراكز التسوق في كل حي .

وهذه الصورة التي نحياها تشهد للحديث ، وإننا من أهله وزمانه .

﴿ العلامة التاسعة عشرة : كثرة الكذب ﴾

وهذا العلامة أرشد إليها الحديث السابق ، و انتشار الكذب في مجتمع همه الدنيا ومصالحها في ظل غياب معالم رسالة الإسلام من أفهام الناس وحياقم العملية أمر متوقع ، بل هو نتيجة لازمة لإفرازات العلامات السابقة كترع الأمانة وتضييعها وقبض العلم ، وانتشار الجهل ..إلخ .

وهذه العلامة ملحوظة في زماننا ، حتى أصبح الكذب فاكهة يتفكه بها الناس ، وقل الورع منه ، ووافقه انتشار الريبة بين الناس ؛ بحيث أصبح الغالب على كلام الناس إما الكذب أو التهويل والمبالغة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ١٠٣٤٦ ، ورجاله كلهم ثقات ، قال العدوي أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ١٨٨٢ والحديث صحيح [انظر الصحيح المسند (٤١٤)] ، والحديث صححه الألباني [انظر السلسلة الصحيحة المجلد السادس ، الجزء الأول منه ، حديث رقم ٢٧٧٢]

ويلحظ أن علامة انتشار الكذب اقترنت بتقارب الأسواق ، وهناك مناسبة بين الأمرين ، فالتجارة إن لم يقم بها صاحب رسالة مؤمن ، فلا بد أن يكون الكذب أحد وسائلها في التسويق والرواج .

و واقعنا يشهد لذلك بحيث يندر بين التجار الصادق الأمين ، بل زين الكذب في التجارة حتى أصبح جزء من دبلوماسيتها وفنونها المروجة .

﴿ العلامة العشرون : تسليم الخاصة ﴾

🕮 – عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ . ﴾ (١)

🕮 – عن عبد الله بن مسعود ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ ... ﴾ (٢)

شرح :

حتى يتم فهم المراد من هذه العلامة لا بد من بيان طبيعة العلاقة بين المسلمين ، أو طبيعة الهدي النبوي في تمتين العلاقة بين المسلمين ، ودلالات هذه العلامة على مخالفة هذا الهدي ، وذلك في النقاط الثلاثة التالية :

أولاً : هدي النبي ﷺ في تمتين العلاقة بين الأسرة الإسلامية من خلال إفشاء السلام بينهم .

المعلوم أن المسلمين يمثلون مع بعضهم البعض أسرة واحدة ، بل جسداً واحداً

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ٣٨٤٧ [المسند (١/٥٢٦)] ؛ وقال عنه العدوي : صحيح لغيره [انظر الصحيح المسند (٤٠٤)]

(٢) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ٣٨٩٦ ؛ قال العدوي : « .. وإسناده صحيح إلا أن فيه سيار ، وقد اختلف فيه هل هو سيار أبو حمزة أو سيار أبو الحكم ، فجزم بعض أهل العلم أنه سيار أبو حمزة (وحديثه لا يرتقي للحسن لكنه يصلح في الشواهد) ووقع عند أحمد أنه سيار أبو الحكم ، وهو ثقة .» [العدوي (٤٩٥)] ؛ وأخرجه الحاكم في الفتن برقم ٧٠٤٣ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد [المستدرك (٤/١١٠) ؛ قال البيهقي : رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٩)] ؛ وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٠٤٩ ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٨٠١ ، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٦٧

إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، و العلاقة بينهم هي علاقة الأخوة التي هي أقوى من أخوة الدم في نظر الشريعة .

وهذا المعنى حرص النبي ﷺ على تعزيزه إلى أقصى درجاته ، ومن معززاته التي حرص عليها النبي ﷺ إفشاء السلام بين المسلمين دون تمييز بين المعرفة وغيرها ، بل المعرفة الحقيقية التي اعتبرها النبي ﷺ هي أن تعرف أن المار بك مسلم ، وكفى بذلك محفزاً لأن ترد عليه السلام لأنه جزء منك ، و أحد أفراد أسرتك من حملة الرسالة .

لذا اعتبر النبي ﷺ إفشاء السلام ونشره بين المسلمين من أعظم أسباب الإيمان ومن أوسع الطرق إلى الجنة حيث قال : « لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ . » (١)

ومن وصايا النبي ﷺ التي اعتبرها أعظم شعار للإسلام وأهله ، يرشدنا إليها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، حيث قال : « إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : تُطْـعِمُ الطَّعَـامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ . » (٢)

ثانياً : السـلام على الخاصة مرض أخل بالجسد الإسلامي منذ نهاية عهد الرعيل الأول .

الملاحظ أن لحمة المسلمين وطبيعة العلاقة بينهم قد بدأت في الانحسار بعد الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه ، وبدأت بعض التعاليم الهامة والمعززة للحمة المسلمين تتناقص تدريجياً ، ولعل من أبرز العلامات الدالة على ذلك رد السلام على المعرفة ، أو تسليم الخاصة ؛ بحيث يرد المسلم على من يخصه من المسلمين ، أما غيره منهم فلا علاقة له معه تدفعه لرد السلام ، وهذا شرخ خطير في طبيعة العلاقة بين أفراد الأمة المسلمة ، شعر فيه بعض الصحابة في أواخر حياتهم ، أذكر على سبيل المثال هذا الأثر عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ حيث

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ٥٤ [مسلم بشرح النووي (٢٨١/١)]

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان برقم ١٢ ، ومسلم في الإيمان برقم ٣٩ [مسلم بشرح النووي (٢٥٦/١)]

قَالَ : « أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَجِئْنَا نَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، فَلَمَّا رَكَعَ النَّاسُ رَكَعَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَرَكَعْنَا مَعَهُ وَنَحْنُ نَمْشِي فَمَرَّ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ . فَقَالَ : عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ رَاكِعٌ : صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَلَمَّا انْصَرَفَ سَأَلَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ : لِمَ قُلْتَ حِينَ سَلَّمَ عَلَيْكَ الرَّجُلُ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِذَا كَانَتِ التَّحِيَّةُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ . » (١)

فهذا الأثر يبين لنا أن بوادر هذه العلامة وقعت منذ الرعيل الأول ، و حال الأمة بعد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يشهد لازدياد هذه الظاهرة .

ثالثا : تسليم الخاصة نتيجة لازمة لمقدمات عدة منتشرة حالياً في المجتمع الإسلامي .

تسليم الخاصة يعتبر إفرازاً ناتجاً عن مقدمات داعية له ومعززة لوجوده في المجتمع ، منها اختلال عواطف المسلمين واختلافها ، و تنوع توجهاتهم ، و تناقض آمالهم ، و تفرقهم إلى شيع وأحزاب ، ولكل حزب شبهاته التي يستطيع من خلالها تنفير أفراده من الغير ، ولكل حزب ولاؤه وبراؤه الخاص به ، ومنها انتشار الريبة بين أفراد المجتمع ، وغياب شعور الفرد بالأمن حتى مع جلسائه ، فإذا أضفنا إلى تلك المقدمات الانسعار المادي والدنيوي ، والتأليه المصلحي النفعي ، يمكن تصور إلى أي مدى وصلت إليه علامة تسليم الخاصة في عصرنا .

بل لا أجانب الصواب إن قلت أننا في زمن تسليم خاصة الخاصة ؛ أي نحن مع هذه العلامة في أوسع دوائرها ، يكفي القول أن بعض المباني السكنية ذات الشقق المتعددة يكون قاطنيها كالأغراب يكاد لا يعرف بعضهم بعضاً ، فضلاً عن عدم شعورهم بحق بعضهم على البعض برد السلام .

وهذه العلامة متغلغلة في عصرنا ، ولا ينكرها إلا مكـــابر ، ومن أراد معاينتها

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ٣٦٥٥ ، قال العدوي : صحيح لغيره [الصحيح المسند ٤٠٤]

فليخرج للحظات في إحـــدى شـــوارع مدينته ، وليعاين إفشاء السلام بين الأفراد المارين .

﴿ العلامة الواحدة والعشرون : مساعدة المرأة زوجها في التجارة ﴾

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّي تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ . ﴾ (١)

شرح :

هذه العلامة تتضمن أمرين أحدهما معزز للأخر ، الأول انتشار التجارة ، وهي أمر ملاحظ في زماننا ، بل ما عرفت الحركة التجارية في عصر من العصور رواجاً وانتشار كعصرنا ؛ بحيث أصبـــح بالإمكان التعاطي مع البضائع مع أي بقعة في الأرض مهما بعدت ، يضاف إلى ذلك انتشار التجارة والتسوق عبر الانترنت ، وهذه العلامة – فشو التجارة – نحن أهلها .

أما الأمر الثاني فهو إدخال العنصر النسائي في التجارة بشكل ملحوظ ، وقد غبر عنه الحديث بقوله حتى تعين المرأة زوجها ، وهذا التعبير له دلالتان :

دلالة صريحة : وهي مساعدة المرأة لزوجها .

وهذا المعنى في حد ذاته ليس فيه ما يحرم ، ولكن إشارة الحديث تدل على رغبة في الدنيا ، واستهتار في العفة والفضيلة والحياء ، فالأسواق هي شر البقاع ، والنساء هي أعظم فتنة تخوف منها النبي ﷺ ، فكيف إذا تواجدت أعظم فتنة في شر البقاع التي باض فيها الشيطان وفرخ ، وفيها نصب حبائله .

دلالة ضمنية : إدخال العنصر النسائي في التجارة بشكل ملحوظ :

وهذا المعنى الضمني نستشفه من مضمون الحديث ؛ و يدخل ضمنا في المعنى

(١) سبق تخريجه

الصريح ، وعليه لا يقتصر مراد النبي ﷺ على الزوجة ، وإن كان فيه الإشارة إلى الغالب ، و قد تساعد الابنة والأخت وغيرها .

ولعل النبي ﷺ أشار هنا إلى بداية إدخال العنصر النسائي في التجارة ، فأول صوره المقبولة مساعدة المرأة زوجها في التجارة .

وكذلك يمكن القول أن النبي ﷺ ذكر التجارة من باب الأغلب ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يشمل مساعدة المرأة زوجها في تكاليف الحياة من خلال امتهانها وظيفة ما سواء كانت تجارية أو غيرها .

وبهذه المضامين يمكن إعطاء تصور عام لهذه العلامة ، و واقعنا يشهد لمصداقيته .

فالملاحظ أنه لم تشهد العصور الماضية إدخالاً للمرأة في مجال التجارة والعمل ما شهده عصرنا ، حتى أصبحت في بعض البلاد معززة لجانب البطالة في حق الذكور ، بعدما أصبح أرباب العمل يرغبون في العنصر النسائي أكثر من الرجال ، وذلك لقلة تكاليفه ولاعتبارات أخرى بعضها له علاقة بالرواج التجاري .

بل الملاحظ أن استخدام العنصر النسائي ذا جدوى اقتصادية ، ووسيلة جذب في المحال التجارية ، مما جعل وجوده فيه عاملاً أساسياً مروجاً في عصرنا .

تنبيه :

ما ذكرته سابقاً لا علاقة له من الناحية التشريعية في مشروعية عمل المرأة أو عدمه ، فليس هنا موقعه ، إنما المراد بما ذكرت توصيف علامة من علامات الساعة أخبر بها النبي ﷺ .

خلاصة القول في علامة مساعدة المرأة زوجها في التجارة .

١- الحديث يشير صراحة إلى مساعدة المرأة زوجها في التجارة ، وهذا ملاحظ ، واعتبارها علامة من علامات الساعة ؛ لأن إقحام المرأة في الأسواق بهذا الشكل غير المعهود ، ولدواعي لا تقتضيها الضرورة أمر مخالف لما كان عليه المسلمون الأوائل ، وارتباط الأمر بعلامات الساعة فيه إشارة إلى أن هذه المعاونة غير منضبطة بضوابط الشرع

، وليس لها دواعي سوى التكسب والطمع ؛ لذا ربط النبي ﷺ بينها وبين فشو التجارة وانتشارها ، وهذه العلامة بالوصف المذكور سابقاً ملحوظة بشكل لا يحتمل التأويل ، وما يقع في الأسواق بين النساء والرجال من منكرات أمر ملحوظ ، ولعل هذه العلامة معززة لما حذرنا منه النبي ﷺ من فتنة النساء .

٢ – الحديث يدل ضمناً على إخراج العنصر النسائي من وظيفته الأساسية في البيت وإقحامه في معترك الوظائف والعمل والتجارة ، وهذا المعنى هو إحدى إفرازات الحرب الغربية على الإسلام باسم تحرير المرأة ، ونتائجها بادية للعيان في كل مكان ؛ حيث أصبحت المرأة تزاحم الرجال في المواصلات والأسواق والمحلات و الوظائف وغيرها ، وما رافق ذلك من امتهان لكرامة المرأة وهتك لعفتها وطهارتها ، وهذا المعنى ملحوظ في عصرنا .

٣– هذه العلامة فيها إشارة إلى فساد حال الرجال قبل النساء ، وتمكن الطمع فيهم ، واستهانتهم بالعفة والكرامة .

٤ – ليس في الحديث ما يشير إلى تحريم معاونة المرأة زوجها ، بل قصارى مفهوم الحديث في الدلالة على حالة شاذة منحرفة لا تحتكم إلى ضوابط الشرع ، وقرينة ذلك اعتبار الأمر من علامات الساعة .

﴿ العلامة الثانية والعشرون : انتشار الغش في التجارة والبيوع ﴾

- عَنْ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَفْشُوَ الْمَالُ وَيَكْثُرَ وَتَفْشُوَ التِّجَارَةُ وَيَظْهَرَ الْعِلْمُ وَيَبِيعَ الرَّجُلُ الْبَيْعَ فَيَقُولَ لَا حَتَّى أَسْتَأْمِرَ تَاجِرَ بَنِي فُلَانٍ وَيُلْتَمَسَ فِي الْحَيِّ الْعَظِيمِ الْكَاتِبُ فَلَا يُوجَدُ .﴾ (١)

شرح :

لكي نفهم المراد بهذا الحديث أرى أن أقف معه بعض الوقفات الموضحة :

(١) أخرجه النسائي في البيوع [سنن النسائي (٧/٢٤٤)]

الوقفة الأولى : ما المراد بظهور العلم في الحديث .

نلحظ في هذا الحديث أنه عبر عن ظهور العلم على اعتبار أنه من علامات الساعة ، مع أن الثابت في روايات صحيحة عدة أن العلم يقبض والجهل يظهر ، وقد استشكل فهم هذا الحديث على بعض الشراح ، لذا ذكر السندي في حاشيته على هذا الحديث « ويظهر الجهل » وعقب على ذلك بأنه في بعض روايات هذا الحديث ذكر يظهر الجهل ، فاعتمده مع إقراره بأن أكثر روايات الحديث فيها يظهر العلم .

وهذا وجه لرفع إشكال الحديث باعتبار أن هناك خطأ من الرواة ، وهناك وجه آخر ذكر بأن معنى يظهر العلم ؛ أي يزول ، وهذا المعنى أرى أنه بعيد .

لكن لو نظرنا لسياق هذا الحديث على وجه الخصوص يمكن استنباط وجه آخر لمعنى ظهور العلم ، فالحديث يشير إلى أربعة أمور كلها لها علاقة بالأموال ، وهي كثرة الأموال وانتشار التجارة وفشوها ، وعلامة تتعلق بالبيع ، وأخرى بالكتابة ، وأظنها لها علاقة بكتابة العقود ، فالعلامات الأربعة اقتصادية ، وبينها جاء ذكر ظهور العلم ، وربط الحديث بينه وبين حالة البيع المذكورة .

وهذا السياق يرشدنا إلى طبيعة العلم المراد بهذا الحديث ، وهو العلوم الدنيوية الخاصة بالتجارة ، وهذه العلوم ظهرت في عصرنا ، وتفرعت تخصصاتها ، ولها كليات مستقلة كالتجارة أو الاقتصاد ، وكثر خبراء هذا العلم ، وخُصصت للفن التجاري وزارات خاصة ..إلخ .

ومن نظر إلى حالة البيع المذكورة وعلاقتها بالعلم على وجه الخصوص يحصل له هذا الفهم الذي ذكرت من أن المراد به علوم التجارة ، وسياق الحديث قرينة معززة لذلك .

ومن هذا الوجه يمكن القول أن ظهور هذه العلوم على الوجه المعلوم في عصرنا هو علامة مستقلة من علامات الساعة ، ولا يتنافى مع أحاديث قبض العلم التي يراد بها علم الدين على وجه الخصوص .

وهذا الوجه (✿) من الجمع بين الروايات هو الأرجح في ظني ، ولا يتعارض مع أحاديث قبض العلم لانفكاك الجهة .

الوقفة الثانية : تعقد العمليات التجارية ، و حاجتها لأهل الخبرة .

الحديث يشير إلى رغبة الرجل في بيع أو شراء ساعة ما ، ثم يتوقف عن البيع ليستشير تاجر متخصص في ذلك ، ويرى السندي في حاشيته أن توقف الرجل عن البيع إشارة إلى الجهل ، وبنى ذلك على اعتماده رواية يظهر الجهل .

وهذا التحليل في ظني وفق وجهة نظر السندي بعيد ، وإن كنت أتفق معه في المحصلة ، وبيان ذلك بأنه صحيح أن جهل هذا الإنسان هو السبب في توقفه في البيع ، ولكن ليس سبب ذلك ظهور الجهل ، بل سببه في ظني تعقد العمليات التجارية عما كانت عليه في الماضي ، بحيث أصبحت تحتاج في كل فن أو صنف من صنوفها إلى أهل التخصص والخبرة في التقييم ، وسياق الحديث يعزز هذا التصور ، و واقعنا يدل عليه دلالة صريحة ، فبيع سيارة مثلاً ليس كبيع شاة ، وذلك لارتباط بيعها بعوامل عدة وموازين مختلفة ، قد يجهل معرفتها الكثير من الناس ، إلا تجار السيارات مثلاً .

و لا يقال أن الأمر نفسه موجود في الشاة ؛ لأنه وإن كان موجوداً إلا أنه أقل تعقيداً من السيارة ، والماضي بكل معاملاته التجارية كان أكثر بساطة منه في الحاضر ، وذلك لكثرة العوامل المتفاعلة والمؤثرة في السلعة الواحدة من وقت لآخر .

وما يقال في السيارة يقال في البيت أو الأرض أو الأجهزة المتنوعة التي تختلف أسعارها في كل لحظة ، ومن موقع لآخر ، ومن تصميم لآخر ، ومن ماركة لأخرى ، و التمييز بين هذه الأمور يحتاج خبرة تخصصية .

فإذا أضفنا لتعقيد المعاملات المالية ، والتعقيد الحاصل في طبيعة السلع عاملاً آخراً ، وهو فساد ذمم الناس وانتشار الغش بينهم ، يمكن معرفة سبب توقف الرجل في بيع

(✿) يمكن إضافة وجه آخر للمراد بظهور العلم ، أي ظهور أدواته وكثرتها وانتشارها ، وهذه الوجه ملحوظ في زماننا وهناك آثار نبوية ترشد إليه كعلامة مستقلة كما سيتضح .

سلعته أو شرائها حتى يستشير الخبراء في ذلك .

وهذه الدلالات تعطينا تصوراً كاملاً لهذه العلامة المتعددة الجوانب ، منها : تعقد العمليات التجارية ، انتشار العلم التجاري وكثرة تخصصاته ، انتشار الريبة والغش في المعاملات التجارية ، وانتشار الجهل في ماهية كل معاملة لتعقد العمليات الاقتصادية ، الحاجة والضرورة لاستشارة ذوي الاختصاص في المعاملات التجارية .

هذه الصورة المركبة لهذه العلامة يشهد لها عصرنا ؛ لذا أعتبر أنها من العلامات التي وقعت فيه على وجه الخصوص .

العلامة الثالثة والعشرون :غياب المعيار الديني في التمييز بين الحق والباطل

- قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ (٣)
- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ ، حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ ، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ ، وَسُوءُ الْجِوَارِ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ الْقِطْعَةِ مِنَ الذَّهَبِ نَفَخَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فَلَمْ تَغَيَّرْ ، وَلَمْ تَنْقُصْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ

---

(١) الأعراف : الآية ١٢٧

(٢) النمل : الآية ٥٦

(٣) الأعراف : الآية ٩٠

مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ أَكَلَتْ طَيِّبًا وَوَضَعَتْ طَيِّبًا ، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ . ﴾ (١)

شرح :

١- الآيات الكريمة تشير إلى اختلال موازين المجتمع لدرجة أهم يرون الفضيلة جريمة يعاقب عليها صاحبها ، والمصلح يتحول في نظرهم إلى مفسد يجب التخلص منه ، فهذا موسى عليه السلام يتحول في نظر الملأ إلى ساعي في الفساد في الأرض ، أما جريمة آل لوط عليه السلام فهي ابتغائهم الفضيلة والطهارة في ظل مجتمع أَلِف الفحش والتفحش والمنكرات حتى أصبحت جزءً من أخلاقه التي لا محيد عنها بحيث يصبح الخروج عنها جريمة يستحق صاحبها العقاب عليها ، أما الملأ من قوم شعيب فيرون في إتباع شعيب عليه السلام الخسران بعينه ، وطبعاً يقصدون بالخسران خروجهم عن ملذاتهم ومناصبهم ومنكراتهم التي تشربوها في قلوبهم ، والملاحظ أن القائم على هذه الدعاية الإعلامية المبنية على قلب موازين الحكم على الأشياء هم كبار القوم وعليته المتنفذون في مصير شعوبهم .

٢- الحديث يشير إلى اختلال موازين الناس في الحكم على الأمور فيما حولهم لدرجة تخوين الأمين و تأمين الخائن وتصديق الكاذب وتكذيب الصادق ، وهذا يدل على فساد حال الأمة ، أو فساد المتنفذين في القرار فيها ، وقوة تأثيرهم على عامة الناس ، وفيه إشارة إلى الحرب الإعلامية الشديدة على أهل الله سبحانه وتعالى في الأرض في ذلك الزمان ، بحيث يكونون موطن اتهام في أجل الصفات التي يتحلون بها كالصدق والأمانة ، وكذلك يشير إلى التلاعب بالحقائق بحيث لا يظهر من خلالها كذب الكاذب ، أو خيانة الخائن بل يظهر خلافها ، فيعمد العامة إلى إسناد الأمر أو الرضا به للخونة الكذبة ، وإقصاء المؤتمنين الصادقين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين ، حديث رقم ٦٨٨٦ [المسند (٢/٢٦٦)] والحديث صحيح لشواهده المتعددة [العدوي : الصحيح المسند (٣٩٨))

٣- الحديث أشار إلى ثلاث علامات أخرى من علامات الساعة ، وهي سوء الجوار وقطيعة الأرحام ، وظهور الفحش والتفحش ، وشرح هذه العلامات ليس هنا موضعه ، لكن يمكن القول هنا أنه في ظل مجتمع أو بيئة تنتشر فيها هذه العظائم الثلاثة القاتلة ، فإنه لا مكان للأمين الصادق بين أهله كما أنه لا مكان لآل لوط بين قومهم ، ولئن كان موقف قوم لوط من آل لوط قد استقر على إخراجهم من قريتهم ، فإن موقف البيئة التي تنتشر فيها هذه العظائم الثلاثة على الأقل هو بإخراج الصادق الأمين من دائرة القرار وقيادة الأمة باتهامه بالخيانة والكذب .

٤- الحديث فيه تنبيه لأفراد الأمة للتنبه من الإشاعات والتثبت منها خاصة إذا تعلقت بأناس ظاهر حالهم الصلاح والستر ، وسيرتهم تدل على الصدق والأمانة ، والأصل في أفراد الأمة ألا ينعقون مع كل ناعق .

كذلك في الحديث إشارة إلى غياب المعيار الحقيقي من أفهام الناس في الحكم على ما يستجد أو يحيق بهم ، بحيث ينبني حكمهم على تصورات جديدة غريبة عن مفاهيم الأمة وموازينها ، وقد أشار حديث رفع الأمانة إلى هذا المعنى ، وفيه :﴿ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا ، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ ، وَمَا فِيقَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ﴾ (١)

﴿ العلامة الرابعة والعشرون : ظهور الفحش والتفحش ﴾

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ ، حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ ، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ ، وَسُوءُ الْجِوَارِ... ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٤٣ [مسلم بشرح النووي (١/٤٠٨)]

(٢) سبق تخريجه .

شرح الغريب :

الفحش : كل قبيح في القول والفعل .

التفحش : تكلف سب الناس وتعمده .

شرح :

هذه العلامة غنية عن التعريف ، وواقعنا يشهد لمصداقيتها بأكمل صورة ، فالألفاظ البذيئة أو الفاحشة أصبحت فاكهة تتفكه فيها المجالس ، فهي ملح المجلس الذي لا بد منه عند الكثير ، بل ظاهرة الفحش منتشرة في الطبقة المثقفة أيضاً بصورة واضحة ، وهذا أمر ملموس عاينته في بلدي بعيني ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الزنا ومقدماته في المجتمع ، والانسعار الجنسي والانحلال الخلقي الذي تثيره وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة ، تصورنا مدى الأثر العميق الذي خلفته في قلوب عامة الناس ؛ إضافة إلى تزيين الفحش بجميع أشكاله في المجتمع فالفحش والتفحش أصبح فنا ، وأهله نجوماً ، يكفي القول هنا أن دلالة الحال أبلغ في البيان من دلالة المقال .

﴿ العلامة الخامسة والعشرون : سوء الجوار ﴾

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ ، حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ ، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ ، وَسُوءُ الْجِوَارِ ... ﴾ (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى أن من علامات الساعة سوء الجوار ، وهو نتيجة لازمة لمجتمع تحلل من تعاليم رسالته ، وتغيرت أهدافه ، واختلفت مصالحه وأهواؤه ومشاربه وتوجهاته ؛ فمجتمع انتشر فيه الكذب والريبة والغيبة والحسد والتنافس على الدنيا والتحاسد لا بد أن تتفت لحمة الجيرة فيه ، وسوء الجوار أمر مغاير لجار السوء الذي

---

(١) سبق تخريجه .

كان يتعوذ منه النبي ﷺ ، فجار السوء يمثل حالة نادرة في المجتمع النظيف ، وقلما لا يبتلى الإنسان بجار سوء ؛ أما سوء الجوار ففيه إشارة إلى حالة غالبة على المجتمع بأسره ؛ بحيث يسيئ كل جار لجاره ، فسوء الجوار عملية متفاعلة بين جميع الجيران ، ولكل واحد منهم حظ منها ، أو نصيب فيها .

- هذه العلامة والتي سبقتها تشير إلى طروء خلل مفصلي في الجانب الاجتماعي في الأمة ، و ويترتب على هذه العلامة والتي سبقتها تبدل الرحمة في حياة المسلمين إلى حالة من اللعنة والشقاء ؛ وأي لعنة أشد من أن يبتلى كل واحد بجيران يفرحون لألمه ، ويتألمون لفرحه ، ولا يرقبون فيه إلا ولا ذمة ، يتتبعون عورته ، ويتصيدون أخطائه ، ويكتمون محاسنه ، ويتحينون الفرص للكيد به ، يرقبونه بأعينهم ، وتصيبه يومياً سهام قلوبهم الحاسدة ، وتحيطه نار نفوسهم الحاقدة .

ولعل هذان البيتان يبرزان لنا مدى خطورة هذه العلامة في المجتمع ؛ حيث يحكي صاحبهما سبب بيعه لبيته بثمن زهيد فيقول .

يلومونني أن بعت بالرخص داري   و لم يعلموا أن لي جاراً ينغص

فقلت لهم : كفـــــــوا الملام   فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

– المعلوم أن النبي ﷺ قد أكد على حقوق الجيرة ، واعتبرها من أهم الحقوق ؛ لدرجة أنه قال : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . وهذا تأكيد منه على هذا الحق ؛ لذا كان من وصاياه لصحابته أن يتعاهدوا جيرانهم ويحسنوا إليهم ، وفي نفس الوقت كان النبي ﷺ يتعوذ من جار السوء جار المقامة كما يتعوذ من الشيطان ، وقد عرف جار السوء بأنه الذي إذا رأى سيئة من جاره أذاعها ، وإذا رأى حسنة كتمها ، وكذلك أقسم ثلاث مرات بنفي الإيمان عن كل إنسان لا يأمن منه جيرانه سواء على أعراضهم أو أموالهم ، أو لحومهم ؛ وهذه التربية في الرعيل الأول أثمرت ثمرتها حتى أضحى المسلمون وكأنهم أسرة واحدة متكافلة متعاونة ، وكانت الجيرة نعمة على

أصحابها ، ورحمة بهم ، ومن يشهد واقع المسلمين حالياً فإنه يعلم بدلالة الحال أن هذه النعمة أو بعضها قد سلب من الأمة .

﴿ العلامة السادسة والعشرون : قطع الأرحام ﴾

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١)

- عن عبد الله بن مسعود ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ . ﴾ (٢)

أولاً : معنى الرحم .

الرحم تطلق على الأقارب ، وهم من بينه وبين الآخر نسب سواء كان يرثه أم لا ، سواء كان ذا محرم أم لا ، والرحم بهذا المعنى تشمل أولاد العم وأولاد الخال ، وقيل الرحم تطلق على المحارم فقط كالعمة والخالة والعم والخال ..إلخ (٣)

ثانياً : منزلة صلة الرحم في الإسلام .

اهتم الإسلام والهدي النبوي بالرحم و صلتها اهتماماً خاصاً ؛ حيث اعتبرت خلقاً أصيلاً من أخلاق الإسلام ، ومن مظاهر عناية الإسلام أن الرحم اشتقت اسمها من اسم الرحمن ، و هي شجنة متعلقة بعرش الرحمان من قطعها قطع من رحمة الله سبحانه وتعالى ، يخاطبها الله سبحانه وتعالى قائلاً : أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؛ أي هي عنوان صلة أو قطع مع الله ، وذلك لعظم حقها عنده ، وصلة الرحم سبب أساس لدخول الجنة ، التي لا يدخلها قاطع ، وصلتها سبب في بركة الأجل وزيادة الرزق ، وامتداد الذكر لصاحبها .

---

(١) محمد:الآيات ٢٢ - ٢٣

(٢) سبق تخريجه

(٣) انظر فتح الباري (١٠/ ٤٢٨)

هذه بعض المعاني المستقاة من الأحاديث الصحيحة والدالة على مدى عناية الشريعة بصلة الأرحام ومدى أهمية التأكيد على حقها . (✿)

ثالثاً : قطع الأرحام خلل طارئ على تعاليم الإسلام وعلامة من علامات الساعة .

لاحظنا في الفقرة الثانية مدى عناية الإسلام بصلة الأرحام ، حتى أصبحت جزء أساسياً من أخلاق الأمة .

و هذا الخلق العظيم الذي حرص عليه النبي ﷺ لم يسلم من الخلل في ظل فساد الحال العام للأمة ، بل كان له نصيبه ؛ حتى أصبح علامة من علامات الساعة المؤذنة بقيامها ، فقطع الأرحام صنو الفساد في الأرض كما بينت الآية الكريمة ، و وقوعه علامة من علامات اللعنة الربانية لمرتكبيه .

وهذه العلامة يشهد لوقوعها عصرنا بأوسع أشكاله ، وقد تضافرت عوامل عدة لتعزيزه في المجتمع ، منها التخلق بأخلاق الغرب والتشبه بهم ، وأخلاق الغرب لا تعرف رحماً ولا أماً ولا أباً إلا المصالح الشخصية .

﴿ العلامة السابعة والعشرون : انتشار شهادة الزور وكتمان الحق ﴾

📖 – عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ . ﴾ (١)

شرح :

أولاً : انتشار شهادة الزور .

يعتبر الزور من أكبر الكبائر بنص رسول الله ﷺ ، والزور هو الكذب والافتراء

(✿) يمكن مراجعة فتح الباري الجزء العاشر ، كتاب البر والصلة ؛ حيث تضمن ثمانية أبواب ، وعشرة أحاديث في فضل صلة الرحم وخطورة قطعها [فتح الباري (١٠/ ٤٢٨-٤٣٨)]

(١) سبق تخريجه

بقصد تغيير الحقائق وما يترتب على ذلك من تضييع للحقوق أو اغتصابها ، وإيقاع الظلم على الأبرياء ، وتبرئة ساحة المجرمين من أن تنالهم يد العدالة ، والزور بهذا المعنى لم يفش في القرون الثلاثة،فقد ورد عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ : لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ . ﴾ (١)

فهذا الحديث يشير إلى تبدل حال الناس بعد القرون الثلاثة الأولى ، ومن معالم هذا التغير أنهم يشهدون ولا يستشهدون ، وقد ذكر ابن حجر عدة تأويلات لهذه العبارة منها أنهم يشهدون الزور ؛ أي يؤدون شهادة لم يسبق لهم تحملها .

والملاحظ في عصرنا أنه يسهل فيه شراء الذمم بأبخس الأثمان ، ونرى شهادة الزور قد أصبحت من السلع المتوفرة لمن رام الحصول عليها ، فعصرنا يشهد لمصداقية وقوع هذه العلامة ، وهي نتيجة لازمة لفساد دين الناس إلا من رحم الله ، ونتيجة لازمة لفتن تأكل دين الخلق ؛ حتى يبيع الرجل دينه بعرض من الدنيا قليل .

والمعلوم كما ذكرت سابقاً أن الكذب من علامات الساعة ، ويتصور أن شهادة الكذب نتيجة لازمة لانتشار علامة الكذب ؛ فمن استباحه تفكهاً أو تسلية فمن باب أولى أن يستبيحه طمعاً كما في الزور .

ثانياً : كتمان شهادة الحق .

كتمان شهادة الحق علامة مستقلة عن شهادة الزور ، وبكليهما تضيع الحقوق في المجتمع ، ويختل ميزان العدل فيه ، فشهادة الزور تغيير للحقيقة بادعاء غيرها ، وكتمان شهادة الحق تغييب للحقيقة بما يترتب عليه ضياع الحقوق وصعوبة إثباتها ، وفيه إشارة إلى عدم استعداد الناس لتحمل الشهادة و تحمل تبعاتها لأجل إحقاق الحق في الأرض ، وشعار

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات برقم ٢٦٥١ [البخاري مع الفتح (٣٠٦/٥)

الأغلب من الناس : نفسي نفسي . وقد ذم القرآن كاتم شهادة الحق بقوله : ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١)

﴿ العلامة الثامنة والعشرون : انتشار آلات الكتابة ﴾

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ . ﴾ (٢)

شرح :

نلحظ أن ظهور القلم من علامات الساعة ، والقلم الأداء الرئيسة للكتابة والمصنفات ، وشعارها ومعلمها الأساس ، ولعل المراد بظهوره هنا انتشار المؤلفات والكتب انتشاراً واسعاً ؛ وهذا أمر ملحوظ في عصرنا بفضل التطور العلمي ؛ حيث أصبح من السهولة طباعة ملايين الكتب ونشرها بأسعار أقل كلفة من الماضي ، ووفق هذا الاعتبار يمكن القول أن هذه العلامة من علامات عصرنا الحديث ، والتي لم يعهد مثلها في الماضي .

ويمكن إيراد احتمال آخر لظهور القلم بمعنى زيادة المعرفة التراكمية وانتشارها ، وانتشار الأدوات المعينة عليها ، فالمعلوم أن القلم أداة لحفظ العلم التراكمي ، وهذا العلم يفتح للإنسان أفاقاً جديدة في الأمور التي لا يعلمها ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٣)

فالقلم هو الأداء الحافظة للعلم التراكمي ، والمعينة على اكتشاف المجهول ، وبه يتعلم الإنسان ما لم يعلم ، وهذا الظهور للقلم لم يعهد في البشرية بشكل شبيه بعصرنا ؛

---

(١) البقرة: من الآية٢٨٣

(٢) سبق تخريجه

(٣) العلق:الآيات ٣-٥

لدرجة أن العصر قد نسب للنتيجة المترتبة عليه ؛ حيث يقال عصر العلم . (✽) ، ووفق هذا الاحتمال يمكن القول أيضاً أن ظهور القلم من علامات هذا العصر .

وقد أشار البرزنجي إلى معنى آخر لفشو القلم أو ظهوره بقوله : « وفشو القلم كناية عن كثرة الكتبة وقلة العلماء،يعني يكتفون بتعلم الخط ليخالطوا الحكام. » (١)

ووفق هذا المعنى الأخير يمكن القول أن المراد بظهور القلم ما نلحظه من انتشار التعلم طلباً للدنيا وسعياً لنيل المناصب ، ولا يراد به وجه الله سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى ملاحظ أيضاً في عصرنا ؛ حيث أصبحت الشهادات هدفاً ، وعج المجتمع بمن تحمله الشهادة ، لا بمن يحمل الشهادة الدالة حقيقة على علم صاحبها .

﴿ العلامة التاسعة والعشرون: هيمنة الأشرار وتحقير الأخيار ﴾

- عن ابن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُرْفَعَ الْأَشْرَارُ وَتُوضَعَ الْأَخْيَارُ ، أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ - وفي رواية يقبح - الْقَوْلُ وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُتْلَى الْمَثْنَاةُ فَلَا يُوجَدُ مَنْ يُغَيِّرُهَا قِيلَ لَهُ وَمَا الْمَثْنَاةُ قَالَ مَا اسْتُكْتِبَ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ ، وفي رواية : ما كتب سوى كتاب الله . ﴾ (٢)

(✽) الأصل في العلوم الدنيوية والاكتشافات أن تعين الإنسان على معرفة الله سبحانه وتعالى والدينونة له ؛ فهذه الاكتشافات أو الاختراعات تبرز جوانب جديدة من مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى ، ولله في كل شيء آية تدل على أنه واحد ؛ لكن إذا دارت هذه المخترعات ضمن منظومة كافرة تغيب الحقيقة وتطمسها ، بل تستخدم تلك الاكتشافات للتدليس على الناس ، و إقصائهم عن حقيقة العبودية لله ، عندها تسمى معارفهم علماً من باب المجاز ، ويكونون بذلك في موطن الذم الرباني لهم ، وأصدق آية تنطبق على هؤلاء قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧] ؛ لذا التسمية الأصح لعصر العلم هو عصر علم ظاهر الدنيا .

(١) البرزنجي : الإشاعة (١٢٨)

(٢)أخرجه الدارمي برقم ٤٧٦ [السنن (١٣٤/١) ؛ و الحاكم في الفتن والملاحم بإسنادين برقم ٨٦٦٠ ، ٨٦٦١ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسنادين جميعا ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح [المستدرك (٥٩٧/٤)] ؛ و أخرجه الطبراني ، وقال عنه الهيثمي : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح [انظر مجمع الزوائد (٣٢٦/٧)]

أقول :

هذا الحديث تضمن أربع علامات للساعة ، وهي بمجموعها تدل على سوء حال المسلمين عند وقوعها ، سيتم الحديث هنا عن العلامة الأولى ، وهي هيمنة الأشرار وتحقير الأخيار ، وهذه العلامة وإن تضمنت أمرين إلا إنهما متلازمان ، بحيث لا يمكن تصور إحداهما دون توقع الآخر ، فهيمنة الأشرار ورفعتهم في الأرض يترتب عليه لا محالة تحقير الأخيار ، وإخراجهم من دائرة القرار المصيري للأمة ، بل و جعلهم في موطن الاتهام لئلا تهوي إليهم أفئدة الناس ، وهذه العلامة أيضاً متلازمة مع علامة تخوين الأمين وتأمين الخائن وتصديق الكاذب وتكذيب الصادق بحيث يمكن القول أن فساد حال الناس ، وما يرافقه من حرب إعلامية قوية ومغيرة للحقائق يترتب عليه لا محالة ثلاثة أمور :

الأول : اختلاف معايير الناس في الحكم على الأمور [وهذا متصور حال فساد الناس] ، واختلاط الأمر عليهم في تحديد مفهومي الصدق والأمانة و مفهومي الكذب والخيانة وفق المنهج الرباني .

الثاني : اختلاف نظرة الناس للأشياء واشتباه الأمور عليهم بحيث يرفعون الأشرار ظناً منهم أنهم أخيار ، أو أن بأيديهم تحقيق الخير لهم ، [وهذا متصور حال الصلاح النسبي للناس ، وتملكهم القرار في ظل حرب إعلامية شرسة موجهة]

الثالث : أن تكون هيمنة الأشرار بطريقة قسرية لا يملك المجتمع تغييرها ، فإذا هيمن الأشرار ، فلا محالة سيُحقّر الأخيار ويتهمون ويخرجون من دائرة القرار ، أو توجيه دفة الأمة ، ويحتمل أن تكون هيمنتهم بقوة قسرية خارجية .

وهذه الأمور الثلاثة متصورة ، ويشهد لها واقع المسلمين ، ويعززها صيغة الحديث التي جاءت من باب المبني للمجهول ، وإن كنت أرجح الأول في الدلالة على هذه العلامة ، مع كون الاثنين الآخرين تابعَين له ، والذي يحملني على هذا الترجيح ، هو أن رفعة الأشرار لا يكون إلا حال فساد الناس وتوجهاتهم ، وهذا أرشد إليه الحديث نفسه حيث وصف المرحلة بأنها مرحلة خزن العمل وقبح القول ، وأناس هذا ديدنهم

كيف يليق بهم رفعة الأخيار ، فهذا لا يتناسب وتوجهاتهم النفسية والدنيوية ، وكذلك نظرتهم للمعايير التي يحكمون بها على الأشياء ستكون مغايرة للمعايير الدينية .

والذي يعزز هذا الفهم أن الحديث عمم رفعة الأشرار ، سواء على المستوى السياسي ، أو على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي ، وهذا التعميم يشير إلى اتساع دائرة الفساد أو التوجهات المخالفة لدين الله في المجتمعات ، فيترتب على ذلك رفعة الأشرار في جميع مناحي الحياة ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

﴿ العلامة الثلاثون : هلاك الوعول وظهور التحوت ﴾

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿ والذي نفس محمد بيده لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ والبخل ، و يُخَوَّنَ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ ، ويهلك الوعول ويظهر التحوت . فقالوا : يا رسول الله ! وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم . ﴾ (١)

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿ من أشراط الساعة أن يظهر الشح والفحش ويؤتمن الخائن ويخون الأمين وتظهر ثياب تلبسها نساء كاسيات عاريات ويعلو التحوت الوعول قلنا : وما التحوت ؟ قال : فسول الرجال وأهل البيوت الغامضة يرفعون فوق صالحهم والوعول أهل البيوت الصالحة . » (٢)

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦٤٤ ، وقال : هذا حديث رواته كلهم مدنيون ممن لم ينسبوا إلى نوع من الجرح [المستدرك (٥٩٠/٤)] ؛ والهيثمي في موارد الظمآن برقم ١٨٨٢ [موارد الظمآن (٤٦٥/١)] ؛ وفي مجمع الزوائد وقال : في الصحيح بعضه رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن سليمان بن والبة لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات [مجمع الزوائد (٣٢٤/٧)]

(٢) ذكره الهيثمي ، وقال : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان وهو ثقة [مجمع الزوائد (٣٢٧/٧)]

شرح :

- هذه العلامة لها علاقة بالعلامة التي سبقتها ، وهي هيمنة الأشرار و تحقير الأخيار ، ففي ظل منظومة عامة يسيطر فيها الأشرار يكون الأخيار ، أو الوعول عرضة للملاحقة والهلاك بنوعيه الحقيقي والمعنوي ، والهلاك الحقيقي معروف ، أما المعنوي فقد صرح به الحديث الثاني حيث يعلو التحوت على الوعول ، وهو نوع إهلاك للوعول ؛ أو لطاقاتهم في خدمة الأمة .
- يلحظ من الحديث مدى الانتكاسة التي تقع فيها الأمة ؛ حيث تتغير موازينها الربانية إلى موازين شيطانية ، فالمعلوم أن الميزان الوحيد المعتبر والمعروف في الرعيل الأول هو ما أرشد إليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) فهذا هو ميزان التقييم عند الرعيل الأول ، وبه عملوا ، وبه حكم الوعول الأرض في زمانهم دون نظر إلى لون أو جنس أو نسب ، وكان لا يعتد بغير هذا الميزان ، أما وفق الحديث السابق ، فقد أصبح الميزان الرباني السابق في قفص الاتهام ، وأصبح أهل الفضل والعدل من البيوت الصالحة موطن تهمة وريبة ، يقابل ذلك ترفع فسول الناس من أهل البيوت الغامضة ، وتصدرهم موقع القرار وزمام أمر الأمة ، وأي مجال سيبقى للوعول وهم في بيئة فشا فيها الفحش والشح و ائتمن الخائن وخون الأمين ، بل أهل هذه البيئة لن يكون لهم مع الوعول إلا موقفين عبر عنهما القرآن وهما قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (٢) ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٣)
- يلحظ في الحديث الثاني أنه أشار إلى النســــاء الكاسيات العاريات على أنها من علامات الساعة ، والغريب في هذا الحديــــث أنه اعتبر أن العلامة هي ظهور **ثياب**

---

(١) الحجرات: من الآية١٣

(٢) إبراهيم: من الآية١٣

(٣) الأعراف:٨٢

نساء كاسيات عاريات ، والظهور معناه هنا الشهرة والرواج لهذه الثياب ، وكأن في الحديث إشارة إلى تلك الملابس النسائية المعززة للفحش والعري والتي تزخر بها المحلات التجارية ؛ بحيث أصبحت في باب الشائع المألوف ، أو أن فيه إشارة إلى ملابس ما يعرف بالموضة النسائية والتي تزخر في بلادنا ولها نساؤها التي تقوم بعرضها في عروض الموضة لترويجها .

ولعل هذه الإشارة لتلك الملابس ، والمقحمة في ثنايا علامات الساعة ما يدل على أن هذه الأشراط من علامات عصرنا هذا .

﴿ العلامة الواحدة والثلاثون: أسعد الناس اللؤماء والسفهاء ﴾

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ ﴾

وفي رواية عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا تنقضي الدنيا حتى تكون عند لكع بن لكع ﴾ (١)

- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من أشراط الساعة أن يغلب على الدنيا لكع بن لكع ، فخير الناس يومئذ مؤمن بين كريمين ﴾ (٢)

شرح الغريب :

لكع بن لكع : اللكع كلمة تطلق على اللئيم أو الخسيس ، أو دنيء الحسب ، أو من لا يعرف له أصل ولا حُمِد له خلق ، وهي في أصل لغة العرب تطلق على العبد ثم استعملت أيضاً للدلالة على الحمق والخسة والنذالة واللؤم ، وأحياناً تطلق على صغير السن . (٣)

---

(١) أخرجه الترمذي برقم٢٣٠٥ ، وقال عنه : هذا حديث حسن [تحفة الأحوذي (٤٥٢/٦)] ؛و ابن حبان برقم ٦٧٢١ [صحيح ابن حبان (١١٦/١٥)] ؛ وحسنه الضياء المقدسي [الأحاديث المختارة (٢٧٣/٧)] ؛ والهيثمي ، وقال رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير كامل بن العلاء وهو ثقة [مجمع الزوائد (٢٢٠/٧)]

(٢) ذكره الهيثمي ، وقال رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما ثقات [مجمع الزوائد (٣٢٥/٧)]

(٣) انظر تحفة الأحوذي (٤٥٢/٦)

شرح :

- الملاحظ من الحديث أنه يشير إلى حقبة زمانية يكون فيه أهل النذالة واللؤم والخسة هم أكثر الناس مالاً وأطيبهم عيشاً وأنفذهم حكماً بالدنيا وأمورها ، وهذه الحالة هي نتيجة لازمة لهيمنة الأشرار ووضع الأخيار ؛ أي أن هذه العلامة مترتبة على العلامتين السابقتين .
- المقصود هنا بالسعادة ، السعادة الدنيوية في تيسر أحوال اللكع في دنياه ، فالزمان زمانه .
- هذه العلامة والعلامتان اللتان سبقتاها يشهد لهما واقع المسلمين ، ويعتبران من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع ما أخبر على الوجه الذي وصف .

﴿ العلامة الثانية والثلاثون: تعظيم الناس لكتب غير كتاب الله ﴾

هذه العلامة أشار إليها النبي ﷺ بقوله : **﴿ وتتلى في القوم المثناة ، قلت : وما المثناة ؟ قال : ما كتب سوى كتاب الله .﴾** (١)

هذا الأثر يشير إلى أن بعض المنتسبين للإسلام سيكون منهم إعراض عن كتاب الله ، وابتداع بعض الكتب لكبرائهم أو عظمائهم يتلونها بينهم كما يتلى القرآن .

وهذه العلامة واضح وقوعها في الماضي والحاضر ، فهناك فرق كثيرة لها متونها الخاصة التي تعظمها على كتاب الله ، وتقدمها عليه ، بل ابتليت المذاهب الإسلامية في عصور التخلف بالمثناة ، وقدمت متون مذهبية وعظمت ودرست وانفقت عليها أوقات كثيرة على حساب كتاب الله سبحانه وتعالى ، وكذلك ابتليت كثير من الفرق الصوفية بذلك ، ولها متونها المتضمنة كرامات الأولياء ، ونصوصهم التي اتخذت قرآنا لهم دون كتاب الله ، ولعل أصدق مثال على المثناة كتاب الجفر الذي اختلقته بعض الفرق الباطنية والشيعية ونسبته زوراً للإمام جعفر الصادق ، وهذا الكتاب يقول في حقه الكليني في كتابه الكافي – وهو من غلاة الشيعة – « **إن الجفر فيه توراة موسى وإنجيل عيسى**

---

(١) سبق تخريجه

وعلوم الأنبياء والأوصياء ، ومن مضى من علماء بني إسرائيل ، وعلم الحلال والحرام ، وعلم ما كان وما يكون . » (١) ويراد من هذا النص طبعاً إضفاء قدسية على هذا الكتاب المسخ تفوق القرآن الكريم لصرف الناس إليه .

﴿ العلامة الثالثة والثلاثون: عودة الوثنية والشرك ﴾

– عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ . ﴾ (٢)

شرح :

- هذه العلامة وقعت في عهد أبي بكر الصديق ﷺ ، وارتدت كثير من القبائل ، ثم انحسرت هذه الظاهرة نهائياً بفضل حروب الردة ، ثم بدأت في العودة تدريجياً بشكل غير صريح من خلال تعظيم القبور والمشاهد ، فالمعلوم أن النبي ﷺ كان يدعو قائلاً : اللهم لا تجعل قبراً وثناً يعبد ، وهذه الدعوة و إن استجيبت لرسول الله ﷺ ، وحُفظ قبره ؛ إلا أن قبور آل بيته هي التي تحولت إلى أوثان تعبد من دون الله ، وتقصد بشكل تعبدي كما هو معروف عند الشيعة ، بل أصبحت قدسية بعض القبور لديهم مساوية لقدسية وحرمة الحرمين الشريفين ، بل تربو في نفوسهم أكثر من قدسية الحرمين الشريفين ، وهناك كثير من طوائف الصوفية وافقت الشيعة في هذا المنحى ، وعظمت قبور الأولياء وتبركت بها ، وقصدتها للزيارة .
- ووفق التوجيه السابق يمكن القول أن علامة عودة الوثنية موجودة في الأمة من قرون إضافة إلى أشكال أخرى كثيرة من الوثنية والشرك غير تعظيم القبور مما ابتليت به الأمة ، وهذا أمر ملاحظ معلوم .

---

(١)أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية (٦٩٧)

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم برقم ٤٢٣٢[عون المعبود (٣٢٢/١١)]؛ الترمذي في الفتن برقم ٢٣١٦، وقال عنه حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٦٦/٦)] ؛ وابن ماجه في الفتن برقم ٣٩٥٢ [السنن (١٣٠٤/٢)]

﴿ العلامة الرابعة والثلاثون : التباهي في المساجد ﴾

- عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ . ﴾ (١)

شرح :

- المراد في التباهي بالمساجد التفاخر في شأنها أو بنائها ؛ أي يتفاخر كل أحد بمسجده ، ويقول : مسجدي أجمل وأرفع وأزين أو أوسع وأحسن ، ويتباهى في ذلك رياء وسمعة وجلباً للمدح .
- وهذه العلامة حاصلة في الأمة من قرون يقول ابن رسلان : « هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة لإخباره ﷺ عما سيقع بعده فإن تزويق المساجد والمباهاة بزخرفتها كثر من الملوك والأمراء في هذا الزمان بالقاهرة والشام وبيت المقدس بأخذهم أموال الناس ظلما وعمارتهم بها المدارس على شكل بديع نسأل الله السلامة والعافية.» (٢)

وما عهده ابن رسلان في عصره نعهده في عصرنا بشكل أوضح ؛ حتى كأن هذه العلامة من علامات هذا العصر ، فالاهتمام بزخرفة المساجد وتزيينها أمر ملحوظ ، ويلحظ أن بعض الأحياء تتبارى مع غيرها في تزيينها ، وتشييدها ، وكذا الأمراء وقد ورد في أثر عن النبي ﷺ أنه قال : ﴿ مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى » (٣) قال الخطابي : « التشييد رفع

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم ٤٤٥ [عون المعبود (١١٨/٢)] ؛ وابن ماجة في المساجد والجماعات برقم ٧٣٩ [السنن (٢٤٤/١)] ، وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٢٤٨٢ [المسند (١٧٨/٣)] ؛ وابن حبان في التاريخ برقم ٦٧٦٠ ، وقال محققه : إسناده صحيح [صحيح ابن حبان (١٦٢/١٥)]

(٢) عون المعبود (١١٨/٢)

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم ٤٤٤ [عون المعبود (١١٧/٢)]

البناء وتطويله » (١) ومعنى الزخرفة هنا التزيين ، وأصل الزخرف الذهب ، والمراد به هنا تمويه المساجد بماء الذهب والنقوش والتصاوير ونحوه ، ومعنى الحديث أن هذه العلامة قد ورثتها الأمة من اليهود والنصارى ، فإنهم عندما حرفوا وبدلوا وتركوا العمل بكتبهم بدءوا ينتبهون للأمور الشكلية فعمدوا إلى تزيين كنائسهم مراءاة وتفاخراً ومباهاة فيما بينهم ، وهذه الأمة يصير حالها كالأمم السابقة إذا طلبت الدنيا بالدين وتركت الإخلاص في العمل ، وصار أمرها إلى المراءاة بالمساجد والمباهاة في تشييدها وتزيينها .

المعلوم أن المسجد النبوي الذي خرج أعظم رجال عرفتهم البشرية كان من أبسط المباني ؛ حيث كان من الجريد ، وكان المطر يصيب أرض المصلى ، وعندما فتحت بلاد فارس والروم على المسلمين و سيقت كنوزهما إلي الخليفة عمر ﷺ لم يغير من حال المسجد شيئاً إلا بعض التوسعة ، فبقي على بساطته ، بالرغم من سعة حال المسلمين ، ولعل الأمر يرتبط بطريقة تفكير الرعيل الأول الزاهد في الدنيا والراغب في الآخرة ، ويرتبط أيضاً بمنهج تربية يركز على جوهر الأمور والمقاصد العليا ويعرض عن الكماليات التزيينية الملهية ؛ لذا ما كان في المسجد النبوي أي زينة تذكر سوى تزينه بالقلوب العامرة بالإيمان .

قد يتساءل البعض قائلاً : لم اعتبر التباهي في المساجد من علامات الساعة ، وما المانع أن يتباهى الناس في المساجد ، بل تباهيهم هذا يدل على تعلقهم ببيوت الله ، وهذا أفضل من تباهيهم بأمور منكرة .

ويجاب عليه : بأن هذه العلامة مؤشر على تغير حال الناس وانحراف طريقة التفكير عندهم عن تلك التي كان عليها الرعيل الأول ، فالأمة يتحول اهتمامها بالأمور الشكلية فقط ؛ و التباهي المقصود به هنا لا يراد به وجه الله بقدر ما يراد به تفاخر دنيوي فيما بينهم على معلم من معالمهم ، فالزخرفة والتزيين والتباهي في المساجد

---

(١) عون المعبود (١١٧/٢)

إشارة إلى أن الأمة قد ساء عملها الأخروي ، وبدأ انشغالها بأمور دنياها وقد ورد عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إذا زخرفتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم . ﴾ (١) فزخرفة المساجد عنوان دمار على أصحابها .

- يحتمل الحديث معنى آخر وهو أن الناس لفساد حالها وتغير قلوبها وانبهارها بالدنيا وانغماسها في شهواتها ، تنقل فساد حالها للمساجد فتحولها معرضاً للتباهي في أمور الدنيا ، بدلاً من أن تكون مكاناً للافتقار لله والانشغال بعبادته ، وهذا المعنى يرشد إليه قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد ليس فيهم مؤمن . » (٢). وقول عَبْد اللَّه بْن بُسْر ﷺ : « لَقَدْ سَمِعْتُ حَدِيثًا مُنْذُ زَمَانٍ إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عِشْرِينَ رَجُلًا أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ ، فَتَصَفَّحْتَ فِي وُجُوهِهِمْ ، فَلَمْ تَرَ فِيهِمْ رَجُلًا يُهَابُ فِي اللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْـرَ قَدْ رَقَّ . » (٣)

فائدة :

- عن نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ « أَنَّ الْمَسْجِدَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَبْنِيًّا بِاللَّبِنِ وَسَقْفُهُ الْجَرِيدُ وَعُمُدُهُ خَشَبُ النَّخْلِ ، فَلَمْ يَزِدْ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ شَيْئًا ، وَزَادَ فِيهِ عُمَرُ وَبَنَاهُ عَلَى بُنْيَانِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِاللَّبِنِ وَالْجَرِيدِ وَأَعَادَ عُمُدَهُ خَشَبًا ، ثُمَّ غَيَّرَهُ عُثْمَانُ فَزَادَ فِيهِ زِيَادَةً كَثِيرَةً وَبَنَى جِدَارَهُ بِالْحِجَارَةِ

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢٥٦/٣) ؛ قال المناوي : رواه الحكيم الترمذي ، وكذا ابن المبارك في الزهد ، عن أبي الدرداء بإسناد ضعيف [فيض القدير (٣٦٦/١)] وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٨٥

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٣٦٥ ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤٨٩/٤)]

(٣) أخرجه أحمد في مسند الشاميين برقم ١٧٢٢٦ ، قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، و إسناد أحمد جيد [مجمع الزوائد (٢٦٧/٧)]

الْمَنْقُوشَةِ وَالْقَصَّةِ وَجَعَلَ عُمُدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ مَنْقُوشَةٍ وَسَقَفَهُ بِالسَّاجِ » (١)

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخدري : « كَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ وَأَمَرَ عُمَرُ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ وَقَالَ أَكِنَّ النَّاسَ مِنْ الْمَطَرِ وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ . » وَقَالَ أَنَسٌ : « يَتَبَاهَوْنَ بِهَا ثُمَّ لَا يَعْمُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا . » (٢))

قال ابن بطال : « هذا يدل على أن السنة في بنيان المسجد القصد وترك الغلو في تحسينه ، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة المال عنده لم يغير المسجد عما كان عليه ، وإنما احتاج إلى تجديده لأن جريد النخل كان قد نخر في أيامه ، ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسنه بما لا يقتضي الزخرفة ، ومع ذلك فقد أنكر بعض الصحابة عليه كما سيأتي بعد قليل . وأول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك في أواخر عصر الصحابة ، وسكت كثير من أهل العلم عن إنكار ذلك خوفا من الفتنة.» (٣)

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة برقم ٤٤٦ [البخاري مع الفتح (٦٤٣/١)] ؛ وأبو داود في في الصلاة برقم ٤٤٧ [عون المعبود (١٢٠/٢)]

(٢) البخاري مع الفتح (٦٤٢/١)

(٣) فتح الباري (٦٤٤/١)

الفصل الثالث :العلامات الصغرى غير الصريحة

ويتضمن عشرين علامة

١- (إتباع سنن الأمم السابقة) ٢-(انتشار الفرق الضالة) ٣- (غربة التعاليم الدينية الحقة)
٤- (الذبذبة بين الإيمان والكفر)٥- (التمزق الداخلي للأمة) ٦-(تهافت الأمم على أمة محمد)
٧- (معـاصي وعقوبـات) ٨- (الولوغ في المـال الحـرام) ٩ - (الطمـع والأثـرة)
١٠- (ظهور المخترعات) ١١- (استخراج البترول) ١٢ - (انتقاض عرى الإسـلام)
١٣ - (الاعتداء في الطهور الدعاء) ١٤- (أشراط قاتلة) ١٥- (تسلط أعوان السلاطين)
١٦- (شدة البلاء وحصول اليأس) ١٧- (تغير الزمان وتحوله للأسوأ) ١٨- (غلبة الظلم)
١٩- (أيام الصبر) ٢٠ - (تشوف الناس لرؤية النبي ﷺ)

يراد بالعلامات الصغرى غير الصريحة كل الإشارات المستقبلية التي أخبر بها النبي ﷺ على اعتبار أنها تمثل تغيراً عما كانت عليه الأمة في عهده ، وهذه الإشارات قد أثبتها أكثر علماء السنة في كتبهم في باب الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، وذكرت سابقاً أن اعتبارها في باب العلامات مبني على أساس أن بعثة النبي ﷺ تعتبر علامة من علامات الساعة ، لذا كل تغير مستقبلي للأمة يعتبر أمارة على قرب الساعة وإيذاناً بقرب وقوعها ، وهذا من وجوه حكمة ذكر النبي ﷺ لها .

أما عدم اعتبارها علامات صريحة فذلك لأن هذه الإشارات لم ترتبط بأي صيغة (✽) توحي بتعلقها بقيام الساعة ، وتفصيل هذه العلامات على النحو التالي .

﴿ العلامة الأولى : إتباع سنن الأمم السابقة ﴾

هذه العلامة وفق الآثار الواردة تتضمن أمرين ، وهما :

أولاً : إتباع سنن فارس والروم في طريقة الملك ونظام الحكم .

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ . فَقَالَ : وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

تأخذ أمتي : يراد بالأخذ هنا السيرة ، يقال أخذ فلان بأخذ فلان ؛ أي سار بسيرته .

القرون : جمع قَرْن ، وهو الأمة من الناس

شرح :

١-يشير الحديث إلى أن الأمة الإسلامية ستتبع طرق الأمم السابقة ، ودلالة السياق تشير

(✽) أي لم ترتبط كغيرها من العلامات الساعة بالصيغ التالية [لا تقوم الساعة – من أشراط الساعة ، من أماراتها – يكون في آخر الزمان ..إلخ]

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ، حديث رقم ٧٣١٩ [انظر البخاري مع الفتح (٣١٢/١٣)]

إلى أن النبي ﷺ يقصد بالإتباع في هذا المقام ما يختص بالنظام السياسي وطرق الحكم في الأمة ؛ أي أن الأمة ستتبع نهج الأمم السابقة في طرائق الحكم ؛ لذا أجابه البعض مستفهما من النبي ﷺ بمراده عن الأمم التي ستتبعها أمة محمد ﷺ فقال : أتقصد فارس والروم ؛ وهما الدولتان - أو النظامان السياسيان - اللتان عهدهما الصحابة في عصرهم فأشار النبي ﷺ بالإيجاب ؛ أي أنه يقصدهما .

ولا تعارض بين هذا الحديث والذي سيليه حيث يقصر الإتباع على اليهود والنصارى وذلك لانفكاك الجهة واختلاف المقام .

فإتباع الأمة لفارس والروم يكون في النظام السياسي ؛ أي أنهم سينهجون نهج كسرى وقيصر في الحكم ، أما إتباعهم لليهود والنصارى فيكون في طرائق تعامل هؤلاء مع أصول ديانتهم وفروعها ، وسياق الحديثين يدلان على تلك القرينة بدليل اختلاف استفسار السائل في السياقين ؛ فحيثما كان المراد الإتباع في النظام السياسي استفسر بعض الجالسين عن الأمم المتبوعة وأشار إلى فارس والروم لأن طريقتهم في الحكم هي المعهودة ، وحيثما كان السياق يدل على الإتباع في أصول الديانة وفروعها ، أشار بعض المستمعين إلى اليهود والنصارى ؛ لأنهما الديانتان المعهودتان لدى الصحابة .

٢- يعتبر الحديث السابق من أجمع الأحاديث الدالة على علامات الساعة الصغرى المتعلقة بالملك والنظام السياسي للأمة ، فالحديث يشير إلى أن الأمة سينتشر في نظامها السياسي مظالم ملوك الروم والفرس ، بل سيكون هناك إتباعٌ كامل لمناهجهم في الحكم ، وهو بهذا يشمل كل أحاديث العلامات التي تتكلم عن ظلم الأمراء و تضييع حقوق الرعية ، ويشمل الأحاديث الدالة على ما سيترتب على فساد النظام السياسي من فساد اجتماعي وديني واقتصادي .

و من يقرأ عن نظام الحكم عند القياصرة والأكاسرة وما ترتب عليه من طبقية

ومظالم واستغلال (*) وقارنها بما ورد عن النبي ﷺ من علامات للساعة تخص الناحية السياسية و ما يترتب عليها ، وقارن بين الأمرين وبين ماضي الأمة منذ الدولة الأموية إلى زماننا وجد مدى المطابقة بين الجهات الثلاث .

٣- قد يعترض البعض بقوله : لئن كانت الأمة قد تشبهت بفارس والروم في طريقة الحكم منذ الدولة الأموية إلى وقت قريب فهذا يتناسب مع كونها الدولة العظمى في ذلك الزمان ، إلا أن هذا الشبه لا يتناسب معها من كل وجه في عصرنا الحاضر الذي نُزعت فيه من عزها وأصبحت تابعة لغيرها من الأمم ؛ فبأي شيء تشبه فارس والروم .

ويجاب على ذلك بأن الأمة في الماضي قد أشبهت فارس والروم من كل الوجوه ، والوجه الوحيد الذي اختلف فيها في عصرنا الحاضر هو في نزع سلطانها الدينوي كالذي كان عند الفرس والروم ، إلا أنه بالرغم من هذا الاختلاف فإنها ما زالت تدور في فلك فارس والروم تستمد عزها من خلالهم فأصبحت أشبه في عصرنا الحاضر بعمال فارس والروم ؛ أي أشبه بملوك الغساسنة والمناذرة الذين كانوا أتباعاً للدول العظمى في زمانهم ، والحدث يعيد نفسه .

ثانياً : اتباع سنن اليهود والنصارى في طرائق تعاطيهم مع دين الله .

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . قَالَ فَمَنْ ؟﴾ (١)

وفي رواية للحاكم عن ابن عباس زاد فيها : ﴿ لو أن أحدهم جامع امرأته

(*) يراجع في هذا الباب :

١- كتاب الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٣٧ – ٥٢) ففيه تفصيل عن نظام الحكم عند فارس والروم

٢- كتاب د علي محمود : عالمية الدعوة الإسلامية (١٠٧- ١١١)

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري في الاعتصام ، حديث رقم ٧٣٢٠ [انظر البخاري مع الفتح (٣١٢/١٣)] ؛ ومسلم في العلم برقم ٢٦٦٩[انظر مسلم بشرح النووي (٤٣٧/٨))]

بالطريق لفعلتموه ﴾ (١)

وفي رواية : ﴿ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ﴾ (٢)

شرح الغريب :

سنن : جمع سنة وهي الطريقة .

جحر ضب : بيت صغير لزاحف صحراوي معروف

شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً : تمثيل للاقتداء بهم في كل صغيرة وكبيرة مما ذمه الشرع ونهى عنه .

فمن ؟ : استفهام الغرض منه الإنكار والتقدير : فمن هم غير أولئك ؟

شرح :

- الحديث برواياته كسابقه يشير إلى أن الأمة ستنسلخ من منهجها وتتبع مناهج الأمم السابقة ، وبين الحديث بأن المراد بهذه الأمم اليهود والنصارى ، ويختلف هذا الحديث عن سابقه بأنه لا يقتصر على جانب واحد بل يشمل جميع مناحي الحياة المتعلقة بأصول الدين وفروعه .
- الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن الأمة ستتبع طرائق اليهود والنصارى وتتشبه بها في الكبير والقطمير والشاذة والفاذة ، و لا تترك شيئاً إلا تتبعه حتى قبائح الأمور كما بين الحاكم في روايته عن ابن عباس رضي الله عنهما .
- هذا الحديث لا يشمل كل الأمة ، إنما سوادها الأعظم ، وذلك لما ثبت من بقاء طائفة على الحق إلى قيام الساعة ، وهم غرباء الأمة .
- يعتبر هذا الحديث من أجمع الأحاديث الدالة على العلامات الصغرى وهو أشمل من

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي [المستدرك (٥٠٨/٤)] قال المناوي : إسناده صحيح [نقلاً عن تحفة الأحوذي (٤٠٨/٦)]

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان برقم ٢٧٧٩ ، وقال عنه : حسن غريب [تحفة الأحوذي (٣٩٩/٧)

سابقه ، ولو لم يكن إلا هذا الحـديث في الدلالة على معـالم انحراف الأمة ونتائجه لكفاها .(*)

ولبيان بعض دلالات هذا الحديث وشموليته أقول :

- لقد صرح الحديث بأن الأمة الإسلامية ستتبع طرائق اليهود والنصارى ؛ أي صراط المغضوب عليهم والضالين ، وقد جاء تفصيل طرائق اليهود والنصارى في القرآن ، ومن ذلك تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، واتهامهم للأنبياء ، وتكذيب اليهود للأنبياء أو قتلهم ، وتحايلهم على أمر الله كما فعل أصحاب السبت ، وكثرة أسئلتهم للهروب من إتباع الأمر كما في قصة البقرة ، وسوء أدبهم مع الله كما طلبوا من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، وكقولهم أن يد الله مغلولة ، وعدم صبرهم على أمر الله وسعيهم وراء حطام الدنيا كما في قصة عدم صبرهم على المن والسلوى واتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ، و وضعهم الصور والتماثيل في الكنائس لأنبيائهم وعظمائهم ، واختلاف قلوبهم وقسوتها ، وطلبهم العزة من الناس ، وادعاء النصارى أن عيسى ابن الله ، وابتداعهم الرهبانية ... إلخ.

- هذه بعض ضلالات اليهود والنصارى التي صرح بها القرآن وفصل معانيها ، وهي بعينها ما وقعت بها الأمة كما سيتضح خلال ذكري لباقي علامات الساعة ، ولو قارن المسلم بين ما جاء في القرآن من تفصيلات عن سير الأمتين وانحرافهما ونتائج تلك الانحرافات ، وقارن ذلك في حال الأمة الإسلامية لكفاه تبصرة بكل ما حل وسيحل بالأمة من علامات صغرى للساعة إلى قيام الساعة ، وأرى أن هذا الحديث لوحده يحتاج لشرحه سفراً ضخماً ، والمقام هنا لا يتسع لاستقصاء معانيه ، واقتصر هنا على بعض التفاصيل المطابقة على سبيل المثال :

- اليهود حرفوا الكلم عن مواضعه وتلاعبوا بكتاب الله أو بالوحي عموماً ، ووجد في

(*) راجع الفصل التمهيدي في مبحث مصادر علامات الساعة (٤٨ وما بعدها) ففيه تفصيل آخر لهذا الحديث

الأمة الإسلامية من حرف الكلم عن مواضعه، كما حصل عند كثير من طوائف الشيعة ، فهي عندما لم تستطع التلاعب بكتاب الله تلاعبت بمدلولاته ففسرت الآيات بما لا تحتمل كادعائهم أن الجبت والطاغوت هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وتأويلهم أكثر من ثلث القرآن على أنه يراد به أهل البيت ، وكما حصل عند الفرق الباطنية التي تلاعبت بكل القرآن الكريم ، وكما حصل عند كثير من غلاة الصوفية الذين تلاعبوا بالتفسير لدرجة أنها ما أبقوا آية على ظاهرها ، هذا بالنسبة للقرآن ، أما بالنسبة للسنة فقد تغيرت كل معالمها عند الشيعة بعدم اعتمادهم مصادر أهل السنة واتخاذهم مرجعية انتشر فيها الكذب على رسول الله وآل البيت وكتبهم المعتمدة طافحة بأكاذيب ما أنزل الله بها سلطان ، بحيث يمكن القول أن معالم الوحيين الكتاب والسنة قد اندرست حقيقتهما في مراجع تلك الفرق ، وهذا هو عين تغيير الكلم عن مواضعه . (۞)

- النصارى ادعوا أن عيسى ابن الله ، ووجد في بعض فرق الشيعة كالسبئية من ادعت أن علياً هو ابن الله ، بل يترحمون على قاتله ابن ملجم لأنه بزعمهم قد خلص الإله من ناسوته ، وفيهم يقول السيد الحميري :

قوم غلوا في علي لا أباً لهم ... واجشموا أنفـــساً في حبه تعبـــاً
قالوا هو ابن الإله جل خالقنا ... من أن يكون له ابن أو يكون أباً

(۞) راجع في هذا الباب :

- **الذهبي** : التفسير والمفسرون ، الجزء الثاني والثالث ، وفيه تفصيل واضح لكل ضلالات الشيعة والفرق الباطنية وغلاة الصوفية
- **السالوس** : بين الشيعة والسنة دراسة مقارنة في التفسير وأصوله . (١٦٥ وما بعدها) وهذا الكتاب أيضا يبرز الشطحات الواسعة في تفاسير الشيعة ، وغلوهم في تحريف دلالات الكتاب ومعانيه بما لا يحتمل ؛ ولئن لم يستطع هؤلاء تحريف الكلم عن مواضعه كاليهود والنصارى ، فقد حاولوا تحريف معاني الكلم عن مواضعها .

يضاف إلى مزاعم بعض فرق الشيعة ادعاءات أصحاب الحلول والاتحاد من الفرق الصوفية . (✿)

- اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وبلاد المسلمين متخمة بالقبوريين الذين اتخذوا قبور الأولياء مساجد وقربات ، يضاف إليها كثير من مشاهد الشيعة وأماكنهم المقدسة ، والتي هي عبارة عن قبور .
- اليهود استحلوا الحرام واعتدوا في السبت فمُسخوا بسبب ذلك ، وأقوام من الأمة الإسلامية استحلت كثيراً من المحرمات في الماضي والحاضر ، وستستحل باقيها كالخمر والحرير والمعازف وسيقع فيها المسخ كما وضح النبي ﷺ .
- النصارى ابتدعوا الرهبانية ، وكان باعثهم وراء ابتداعها إرادة الخير والفرار بالدين وابتغاء رضوان الله ؛ إلا أن الأمر لم يسلم لهم ، ووقعوا في الغلو والضلالات المتعددة ؛ أي ما رعوها حق رعايتها ، ووجد في أمة محمد من سن سنة النصارى في ابتداع رهبانية جديدة بما يعرف بالمتصوفة أو الصوفية ، وكان باعثهم الفرار في دين الله ؛ إلا أنهم لم يرعوها حق رعايتها ووقعوا في ضلالات عديدة كما حصل عند النصارى . (✿✿)

ج- أعجبتني كلمة للشعبي تصدق في هذا المقام وتدل على مدى تشبه الشيعة الروافض

(✿) راجع في هذا الباب : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، الجزء الحادي عشر ، وقد خُصص بكامله لمناقشة التصوف وفرقه وآرائه وشطحاته وضلالاته ؛ وكتاب الفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق .

(✿✿) من رام الاستزادة في هذا الباب فعليه بالكتب التالية :

- **ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم** . (١٧ وما بعدها) ، وهو كتاب تخصص في بيان الأدلة في مخالفة اليهود والنصارى من كتاب وسنة وعمل للصحابة وإجماع لهم في هذا الشأن ، وذكر بعض الأمور التي تشبه بها المسلمون باليهود والنصارى .
- **ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** . (٦٤٢- ٧٠٣) وهذا الكتاب يبرز ضلالات اليهود والنصارى وانحرافاتهم ومدى ملاحقة الأمة لهم في تلك الضلالات ، والكتاب فيه تفصيل شيق في هذا الباب .

بأفكار اليهود واتباعهم لهم حيث قال لمالك بن معاوية : « أحذرك الأهواء المضلة ، شرها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ، ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الإسلام وبغياً عليهم ، وقد حرقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار ونفاهم إلى البلدان منهم عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط وعبد الله بن سباب نفاه إلى الحازر ، وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود :

قالت اليهود : لا يكون الملك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب .

وقالت اليهود لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي منادٍ من السماء . وقالت الرافضة : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سبب من السماء .واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة .

واليهود لا ترى الطلاق ثلاثاً شيئاً وكذلك الرافضة ، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذلك الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة ، واليهود حرفوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرفت القرآن .

واليهود تبغض جبريل عليه السلام ، وكذلك الرافضة تقول غلط جبريل في الوحي إلى محمد ﷺ بترك علي بن أبي طالب .واليهود لا تأكل لحم الجزور ، وكذلك الرافضة .

ولليهود والنصارى فضيلة على الرافضة في خصلتين : سئل اليهود من خير أهل ملتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى عليه السلام . وسئلت النصارى فقالوا : أصحاب عيسى عليه السلام ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم ، فقالوا : أصحاب محمد .. أ.هـ » (١)

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (٢/١٠٤)

هذه بعض الأمثلة الدالة على شمولية هذا الحديث ، ومصداقية الواقع له ، **وليت الأمر يقتصر على ما أصاب بعض الفرق الإسلامية من إتباع لليهود والنصارى في مناهجهم وطرائقهم ، بل الأمر بدأ يشمل الأمة كلها في جميع مناحي الحياة ، ولسان حال الأمة في عصرنا الحاضر يشهد بذلك ويؤيده ، والتقليد الأعمى المبني على الانبهار بكل ما هو غربي بدأ يعصف أكثر بيوت المسلمين في كل صغيرة و كبيرة ، بحيث أصبحت أسواقنا ومناهجنا التربوية وجامعاتنا وأفراحنا وملابسنا ، والموضة المتجدد لدينا كلها على النسق الغربي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .**

- عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . ﴾ (١)

شرح :

يتضح من الحديث أنه يبين مناسبة تحذير النبي ﷺ لأمته من إتباع سنن الأولين ؛ والملاحظ من القصة أن وجه الشبه بين طلب الصحابة وطلب قوم موسى عليه السلام ينحصر في انتباه كلا الأمتين نحو ما حولهم من الأمم ، واستشرافهم وتشوفهم لمشابهتهم .

أما في طبيعة الطلب فهناك مفارقة واضحة ، فبنو إسرائيل طلبوا آلهة ليعبدوها من دون الله مشابهة للمشركين ؛ أي طلبوا الكفر بعينه صراحة ، بينما أصحاب محمد ﷺ اقتصر طلبهم على شجرة يعلقون عليها الأسلحة كشجرة ذات أنواط التي كان يعلق عليها المشركون أسلحتهم ، وهذا الطلب في حد ذاته ليس فيه ما يخل بالإيمان أو ينقص منه ، كما في طلب بني إسرائيل ، بل هو طلب طبيعي أصبح عنوان عصرنا الحاضر ولسان حال

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٧١ ، وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٠٧/٦)] ؛ وابن حبان في التاريخ برقم ٦٧٠٢ ، وقال محققه : إسناده صحيح [صحيح ابن حبان (٩٤/١٥)]

الكثيرين ، ولكن نجد أن النبي ﷺ أنكر على الصحابة طلبهم .

وقد يسأل سائل : لماذا أنكر النبي ﷺ هذا الأمر الطبيعي وقارنه بطلب شركي لبني إسرائيل ، وما المانع في اتخاذ شجرة لتعليق السلاح عليها ، و ما المانع في عصرنا من الاستفادة من كل ما لدى الغرب في تيسير حياتنا ؟

ويجاب على ذلك بأن إنكار الرسول ﷺ لم ينصب على فكرة تعليق السلاح على الشجر ، ولا ينصب في زماننا على الاستفادة مما لدى الغير من تقدم مدني ، إنما انصب على تشوف صحابته وطلبهم مشابهة ما حولهم وهذا يتنافى مع حرص النبي ﷺ في خصوصية تلقي الأمة لكل ما يخص شؤون دنياها وآخرتها من الوحي ، ومع حرصه في توحيد منهج التلقي ، و حرصه في مخالفة الأمم حوله ، وذلك ليبقى منهج التلقي خالصاً لا تشوبه شائبة .

أما تعليق السلاح على الشجر في حد ذاته ، فهذا لم يمنعه النبي ﷺ ، بل فعله بنفسه كما في غزوة ذات الرقاع ، ومثل هذا الأمر يختلف مع شجرة ارتبطت بطريقة تفكير معين ، وأصبح لها اسم معين ، وتمثل نمطاً سلوكياً دالاً على فئة بعينها ، بل أصبح فيها دلالة على قوم معينين ؛ بحيث يصدق على من يتخذها أنه متبع لقوم معينين في هذا الشيء .

وهذا الفهم ينسحب على كل شؤون المدنية في عصرنا ، فكل ما كان دالاً على طريقة تفكير لقوم معينين فالأصل عدم اتخاذه لأن فيه تشبها بهم حتى لو كان جنس هذا الشيء مباحاً ، وعليه يحمل كل الأحاديث الدالة على حرص النبي ﷺ في مخالفة اليهود والنصارى .

وكذلك وصية عمر لكثير من أمرائه ومنها وصيته للمسلمين الذين كانوا مقيمين في بلاد فارس: «وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ وَلَبُوسَ الْحَرِيرَ » (١)

فالملابس في حد ذاتها مباحة إلا ما كان فيه تشبهاً بأمة من الأمم ، فهـو منهي

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة برقم ٢٠٦٩ [مسلم بشرح النووي (٢٥٥/٧)]

عنه لعلة المشابهة .

أما باقي صنوف المدنية الموجودة عند الأمم الأخرى مما لا يرتبط بطريقة تفكير معينة أو نمط سلوكي لأمة ما ، أو فيه مشابهة لها ، فيدخل استخدامه في دائرة الإباحة أو الوجوب أو الندب بحسب حاجة الأمة إليه . (✽)

ومن هذا الوجه يعتبر هذا الحديث أصلاً يبين للأمة معالم طريق النجاة في ضرورة توحيد منهج التلقي عن الوحي والابتعاد عن إتباع المناهج الأخرى ، والأخذ عنهم بقصد مشابهتهم - خاصة أهل الكتابين - حتى لو كان ما ينقل عنهم لا يخل بالتوحيد ويقتصر على ما دونه .

- عن الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ﴿ دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ ،وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ.﴾ (١)

شرح الغريب :

- **دب** : تغلغل فيكم وانتشر — **داء الأمم** : مرض الأمم
- **الحسد** : تمني زوال النعمة عن الغير — **أفشوا السلام** : أي انشروه بينكم

شرح :

الحديث فيه إشارة إلى أن الأمة ستنتشر بها أمراض روحية مهلكة كانت سبب

(✽) الأصل في الأمة أن تستفيد مما لدى الآخرين من ضروب التكنولوجيا والمخترعات والمدنية إلى أبعد حد إلا كل ما دل دليل خاص على تحريمه ،والمتتبع لهدي النبي ﷺ يجد أنه استفاد كثيراً في طرائق الحروب وأدواتها ووسائلها من الأمم حوله كالمنجنيق وحفر الخندق ونحوه .

أما غير ذلك مما يدل اتخاذه على إتباع أمة مخصوصة في طريقة تفكيرها أو نمط سلوكها فوصية النبي ﷺ واضحة في النهي عن ذلك .

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم ٢٦٢٨ [تحفة الأحوذي (٢١٢/٧)] ؛ وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة برقم ١٤٣٤ [المسند (٢١٠/١)] ؛ نقل المباركفوري عن المنذري قوله : رواه البزار بإسناد جيد والبيهقي وغيرهما [تحفة الأحوذي (٢١٣/٧)]

هلاك الأمم السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم ، وطبعاً انتشار هذه الأمراض نتيجة لازمة لحب الدنيا والتنافس عليها ، وقد بين النبي ﷺ العلاج لهذه الأمراض ، وهو نشر المحبة بين أفراد الأمة والتأكيد على ما يدل على ذلك ظاهراً وهو نشر السلام بينهم .

والحديث دليل من دلائل النبوة ؛ حيث إن واقع الأمة يشهد لمصداقيته .

- الحديث يشهد لحديث الباب بأن الأمة ستتبع الأمم السابقة ، وهنا ركز الحديث على الأمراض الروحية المهلكة .

📖 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَتَى نَدَعُ الِائْتِمَارَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : ﴿ إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : إِذَا كَانَتِ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ ، وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ . ﴾ (١)

وهذا الحديث سبق شرحه ، ولكني ذكرته هنا لبيان طبيعة العلاقة بين أمراض أمة الإسلام وأمراض الأمم السالفة .

﴿ العلامة الثانية : انتشار الفرق الضالة ﴾

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. ﴾ (٢)

وفي رواية أخرى : ﴿ قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي ﴾ (٣)

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه أبو داود في السنة برقم ٤٥٧٢ [عون المعبود (٣٤٠/١٢)] ؛ والترمذي في الإيمان برقم ٢٧٧٨ وقال عنه : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٣٩٧/٧)] ، وابن ماجة في الفتن برقم ٣٩٩١[السنن (١٣٢١/٢)] ؛ والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، وأقره الذهبي [المستدرك (١٢٨/١)] .

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان برقم ٢٧٧٩ ، وقال : حسن غريب [تحفة الأحوذي (٣٩٩/٧)]

– عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِينَا فَقَالَ : أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ ﴿أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ . زَادَ ابْنُ يَحْيَى وَعَمْرٌو فِي حَدِيثَيْهِمَا وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ لِصَاحِبِهِ وَقَالَ عَمْرٌو: الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ ﴾ (١)

شرح :

١- الحديث برواياته يشير إلى تفرق الأمة بعدد تفرق اليهود والنصارى ويزيدون عليها بفرقة واحدة وهي الطائفة المنصورة القائمة على الحق إلى يوم القيامة كما صرحت بعض الأحاديث .

٢- يلاحظ أن هذه الحديث يشهد له حديث تتبع الأمة لسنن اليهود والنصارى السابق ؛ أي هو نتيجة لازمة له ؛ أي ما دامت الأمة ستتبع طرائق اليهود والنصارى في كل صغيرة وكبيرة ، فلا بد أن يترتب على ذلك أن يحصل بها التفرق الحاصل بهم بنفس الوصف ، وما دام تفرق اليهود والنصارى قد ثبت ذمه وبيان أن أهله من أهل النار ؛ إذا كل تفرق يحمل هذا الوصف لا بد أن يترتب عليه نفس النتيجة ، وهي كون أهله من أهل النار ، إلا الفرقة التي تثبت على دين محمد ﷺ كما جاء ، وهي الفرقة الناجية التي بين النبي ﷺ المراد بها بقوله : ما أنا عليه وأصحابي ، وهم الغرباء كما سيأتي .

٣- الفُرقة المقصودة في الحديث هي كل تفرق في أصل الدين ثبت بدليل قطعي كفر مُعتقده ، أما الاختلاف في فروع الدين أو في الاجتهاد ، أو في طرق العمل للدين مع الاتفاق على أصول الدين فلا يدخل ضمن التفرق المذموم – وإن كان

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة برقم ٤٥٧٣ [عون المعبود (٣٤١/١٢)] ؛ وأحمد في مسند الشاميين ١٦٩٤٠ [المسند ١٢٧/٤)] ؛ قال العدوي : حسن لشواهده [الصحيح المسند (٦٦)]

عدم وجوده أولى (❁) – وذلك لحصوله في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين دون إنكار عليه (❁❁) ، بل طبيعة الرسالة تقتضي وقوع هذا الاختلاف في الفهم ، وعليه يمكن اعتبار أهل السنة والجماعة على اختلاف مذاهبهم واجتهاداتهم يدخلون ضمن الفرقة الناجية .

٤- اختلفت المذاهب في توصيف المراد بتلك الفرق ، فبعضهم كان ينظر إلى كل صاحب مقالة مخالفة للسنة والجماعة بأنه فرقة من الفرق ، ووفقاً لهذا المذهب اعتبر هؤلاء أن كل الفرق قد وقعت في العصور الأولى حيث عدوا من فرق الشيعة عشرين فرقة ومن فرق المعتزلة عشرين ، ومن الخوارج عشرين فرقة كما صرح كتب الفرق كالملل والنحل للشهرستاني وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ، ولو ارتضينا هذا التقسيم لوجدنا أن الفرق الضالة في الماضي والحاضر تربو على المائة .

(❁) الاختلاف المقبول في الفروع هو الذي تقتضيه طبيعة اللغة ومرونتها وسعة دلالاتها أو تقتضيه السنة ورواياتها من حيث ثبوت بعضها عند البعض وعدم ثبوته عند البعض الآخر أو تقتضيه طبيعة الاختلاف في قواعد الاستنباط من الأدلة التفصيلية . وهذا الاختلاف وإن كان يدخل في دائرة القبول إلا أن الأولى عدم وجوده كما يرى كثير من الفقهاء منهم ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال الخلاف شر ، ومنهم السبكي الذي قال إن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف ، ومنهم ابن حزم الذي لم يجعل شيئاً من الاختلاف رحمة ، وبالرغم من رأي هؤلاء العلماء إلا أن هذا الاختلاف يبقى في دائرة القبول بين جميع علماء المسلمين ، ويبقى القول أن الأولى عدم وجوده أو التقليل منه قدر المستطاع ، وهذا كان هدي الرعيل الأول في حرصهم على حصول الإجماع في كثير من المسائل التي يمكن أن يتبادر إليها الاختلاف ؛ ولهذا السبب كان يحرص عمر على إبقاء أكثر الصحابة حوله في المدينة ليحقق هذا المعنى من خلال مشاورتهم وتحقيق إجماعهم على ما يستجد من مسائل .

(❁❁) من هذا الباب اختلاف الصحابة في مراد النبي ﷺ عند قوله : « لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » فبعضهم حمله على حقيقته وظاهره ، ولم يصل العصر حتى مع خروج الوقت ، وبعضهم حمل كلام النبي ﷺ على الحث على التعجيل في الذهاب لبني قريظة وعدم الانشغال في أمر آخر ، أي تعدوا ظاهر اللفظ إلى المعنى الذي أرشد إليه السياق ، وهؤلاء صلوا العصر في وقته وأكملوا السير إلى بني قريظة ، وكلا الاجتهادين في فهم النص لم ينكره النبي ﷺ من صحابته الكرام ؛ لأن كليهما تحتمله الألفاظ ودلالاتها والسياق الذي قيل فيه النص .

والبعض اقتصر على ما أجمع العلماء على تكفيره أو ضلاله من الفرق المارقة واعتبر كل أصحاب المقالات المتفقة في أصولها فرقة ، وهذا الرأي هو الذي أرجحه ، وأرى أنه يتسع لكل ما يستجد في المستقبل من فرق مارقة .

٥- لا يتسع المجال هنا لتتبع كل الفرق الضالة ؛ إلا أنه يمكن القول أن كل أتباع مدعي النبوة أو الألوهية - وهم كثر - ممن كانت أصولهم إسلامية يدخلون في الفرق الكافرة ، وهذا الأمر وجد في فرق عدة مثل السبئية والخطابية من الشيعة والبابية والقاديانية ، ويضاف إليها كل الفرق الباطنية التي نسفت كل تعاليم الإسلام رأساً على عقب ، وذلك مثل : القرامطة والاسماعيليين والنصيريين والدروز ، يضاف إليها الفرق أصحاب معتقد الحلول والاتحاد من الصوفية وأشباههم ، يضاف إليها كل المذاهب الفكرية المعاصرة المخالفة صراحة لتعاليم الإسلام ، و التي انتشرت في بلاد المسلمين مثل العلمانية والشيوعية والقومية ، فكل اتباع هذه الفرق ممن يعتقد معتقدها مع مخالفته صراحة لأصول الدين الإسلامي ، فهو يدخل ضمن الفرق الضالة ... إلخ

٦- يقول عبد القاهر الجرجاني موضحاً ضابط الحكم على الفرق التي انتشرت في العالم الإسلامي : « فإن كل بدعة الباطنية أو البيانية ، أو المغيرية ، أو الخطابية الذين يعتقدون إلهية الأئمة ، أو إلهية بعض الأئمة ، أو كان على مذهب الحلول ، أو على بعض مذاهب أهل التناسخ ، أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين ، أو على مذهب اليزيدية من الإباضية في قولها بان شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان ، أو أباح ما نص القرآن على تحريمه ، أو حرم ما أباحه الله نصاً لا يحتمل التأويل ، فليس من أمة الإسلام ولا كرامة له ، وإن كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة ، أو الرافضة الإمامية ، أو اليزيدية ، أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية أو المجسمة فهو من الأمة في بعض الأحكام : وهو جواز دفنه في مقابر المسلمين ، وفي أن لا يمنع حظه من

الفيء والغنيمة إن غزا مع المسلمين ، وفي أن لا يمنع من الصلاة في مساجد المسلمين ، وليس من الأمة أحكام سواها ، وذلك أن لا تجوز الصلاة عليه ولا خلفه ، ولا تحل ذبيحته ، ولا نكاحه لامرأة سنية ، ولا يحل للسني أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم . وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ للخوارج : علينا ثلاث : لا نبدؤكم بقتال ، ولا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم من الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا . » أ . هـ (١)

﴿ العلامة الثالثة : غربة التعاليم الدينية الحقة ﴾

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)
- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا ﴾ (٤)

شرح الغريب :

يأرز : ينضم ويجتمع

بدأ غريباً : معناه هنا أن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر .

سيعود غريباً : معناه أنه سيلحقه النقص وتتغير معالمه عند السواد الأعظم ، حتى لا يبقى

(١) حوى : الأساس في السنة ، قسم العقيدة (٤٠٥/١) نقلاً عن عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق

(٢) هود : الآية ١١٦

(٣) يوسف : الآية ١٠٣

(٤)أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٤٦ [مسلم بشرح النووي (٤١٥/١)]

إلا في آحاده وقلة من الناس .

<u>كما بدأ</u> : أي أن هذه الغربة تحكم حلقاها ؛ لدرجة تصبح غربته الثانية شبيهة جداً بغربته الأولى عند بدء البعثة .

📖 – عن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ابْنِ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا ، ولَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ ، إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ !الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي . ﴾ (١)

شرح الغريب :

<u>**يعقلن**</u> : يعتصم و يتحصن .

<u>**الأُروية**</u> : أنثى المعز الجبلي ، وهي تتميز عن الذكر بأنها أقدر منه في التمكن من رءوس الجبال الوعرة .

<u>**طوبى لهم**</u> : اختلف المفسرون في معناها قيل معناها فرح وقرة عين ، وقيل حسنى لهم ، وقيل : خير وكرامة لهم ، وقيل : الجنة ، وقيل : شجرة في الجنة .وكل هذه الأقوال محتملة في الحديث

📖 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :﴿ إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ﴾ قَالَ : قِيلَ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ (٢)

شرح :

– الحديث يشير إلى عودة الغربة إلى الإسلام وتعاليمه وأهله المخلصين القائمين كما كان غريباً عند بدايته ، و هذه الغربة يشهد لها واقعنا المعاصر بشكل جلي واضح لا يختلف

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ، حديث رقم ٢٧٦٥ ، وقال عنه : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٣٨٠/٧)]

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان برقم ٢٧٦٤ ، و قال عنه : حسن غريب صحيح [تحفة الأحوذي (٣٨٠/٧)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٣٩٨٨ [السنن (١٣٢٠/٢)]

فيه مخلصان ، وطبعاً هذه الغربة نتيجة لازمة لغياب معالم الدين الحقيقية عند السواد الأعظم من المسلمين إما بسبب انتشار كثير من أفكار الفرق الضالة بين الناس ، أو نتيجة لتتبع السواد الأعظم من الناس لسنن اليهود والنصارى، فتبقى صورة الدين بين الناس ، أما حقيقته فلا تبقى إلا في القلة القليلة منهم ، وهؤلاء يكونون غرباء في فهمهم وتصوراتهم وعاداتهم وتوجهاتهم ، أي هم قلة من أهل سنة النبي ﷺ في ظل مجتمعات انتشرت فيها البدع والأهواء .

- لكي يتضح لنا المراد بالغربة هنا لا بد من بيان المراد بالغربة الأولى ، فالمعلوم أن مشركي العرب بكفرهم وضلالاتهم وظلمهم كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام ، واليهود والنصارى بانحرافاتهم وزيغهم عن الحق وتبديلهم لدين الله رأساً على عقب يزعمون أنهم على ملة موسى وعيسى عليهما السلام ، وفي هذه الأوضاع بدأت رسالة الإسلام وجاء النبي محمد ﷺ للعرب بملة إبراهيم الحنيفية الحقة ، مصلحاً ما أفسدوا منها ، وجاء لليهود والنصارى بمعالم الدين الحق متمماً ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام و مبيناً ما غير أتباعهم وبدلوا فيه ، فكانت هذه التعاليم غريبة على من حوله ، وانتفضت جزيرة العرب منكرة لهذا الدين و أتباعه ، ومستهجنة منهم ما يدعون إليه ، وكان أتباع النبي ﷺ هم القلة ومفرقون بين القبائل ؛ وبذلك بدأت غربتهم بالنسبة لمن حولهم .

ثم انتشر الإسلام وألقى بجرانه في الأرض وزالت غربته ، ثم دخل على أهله البدع والضلالات ، وأخذ في الاغتراب والترحل في معالمه وتعاليمه وجوهره شيئاً فشيئاً ، ولم يبق إلا صورته ، بل أصبح الإسلام الحق الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه الكرام اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره ، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة معروفة .

وكيف لا يكون المسلم الحق غريباً بين سواد اتبع سنن اليهود والنصارى في كل صغيرة وكبيرة ، وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة

ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول الكريم ، أو محاربته .

وفي ظل هذا التغيير والتبديل إذا جاء للناس من يصلح ما أفسدوا من ملة إبراهيم وسنة محمد عليهما السلام أنكروا عليهم عملهم ، ووصفوهم بأقبح الأوصاف كما حصل مع الرعيل الأول ، بل يجدون فيهم خروجاً عن الصف ومخالفة للسواد الأعظم - الذي تشرب أخلاق اليهود والنصارى وعاداتهم ومعتقداتهم - بل يرونهم الصابئين الجدد ، وهذه هي الغربة بعينها ، و لعل أدق توصيف لمعالم الغربة يوضحها لنا هذا الأثر الذي يبرز بعض أسباب الغربة ، فعَنْ شَقِيقٍ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود : « **كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً ، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا : غُيِّرَتِ السُّنَّةُ (❁) قَالُوا : وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ قَالَ : إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتْ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ** . » (١)

فهذه هي عين الغربة وأبرز أسبابها في الأمة ، فالأمة إذا ابتليت بقلة الفقهاء وكثرة القراء المتعالمين ، وكثرة الأمراء عديمي الأمانة ، وبدأ الناس يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، واستمر حالهم دهراً غيبت فيه معالم الرسالة الحقة وبقي رسمها دون روحها بين الناس ، عندها تبدأ الغربة الحقيقية في الأمة ، ويصبح المطالب بدين الحنيفية السمحة في ذلك الوقت كحال الرعيل الأول بقيادة النبي الكريم ، وقد حذر

(❁) هذا هو عين إلباس الباطل ثوب الحق ، بحيث إذا أتى من يغير هذا الباطل يتهمه الناس بأنه غير وبدل في دين الله ، وهذا هو ما وقعت به بنو إسرائيل قبل ذلك حيث ألبسوا الباطل ثوب الحق وبدءوا يدعون الناس لباطلهم طلباً للدنيا يقول الله سبـــحانه وتعالى في حق بني إسرائيل : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢]

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة ، باب تغير الزمان وما يحدث فيه برقم ١٨٥،ورواته ثقات [سنن الدارمي (٧٥/١)] ؛ والحاكم في الفتن برقم ٨٥٧١ [المستدرك (٥٦٠/٤)] وابن شيبة برقم ٣٧١٥٦ [المصنف (٤٥٢/٧)] ؛ والشاشي في مسنده برقم ٦١٣ [مسند الشاشي (٩٠/٢)]

الصحابي الفقيه عبد الله بن مسعود ﷺ من هذه الفتنة ، ومثل هذا القول منه لابد أن يكون توقيفياً ؛ لأنه مثله لا يصدر عن اجتهاد . وما حذر منه ابن مسعود هو عين ما وقعت به أمة محمد ﷺ .

- الغريب هو من يحمل صفات تخالف ما حوله ، وصفات الغرباء الذين غبطهم رسول الله ﷺ التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس ، وتجريد التوحيد لله ، وإن أنكر أكثر الناس عليهم ذلك ، والانتساب إلى الله بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بإتباع ما جاء به وحده ، ومن حولهم نسبتهم لغير ذلك ، ووصف الغربة يشير إلى قلتهم بين الناس ، وأهل الله سبحانه وتعالى كذلك ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . (١)

﴿ العلامة الرابعة : الذبذبة بين الإيمان والكفر ﴾

- يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :﴿ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا . ﴾ (٣)

شرح :

- الآية الكريمة فيها مثال لتقلب الكافر في فتن الشبهات التي أظلمت عليه من كل جانب بما لا يستطيع من خلالها أن يميز أو يستبين طريق الحق ، ومثله كمثل رجل في بحر هائج متراكب الأمواج في يوم غائم أسود قاتم ، لشدة سواده لا يكاد يبصر

---

(١) راجع : ابن القيم: مدارج السالكين (٢٠٣/٣ وما بعدها) ؛ مسلم بشرح النووي (١٧٦/٢ وما بعدها) ؛ تحفة الأحوذي (٧/ ٣٨٠ وما بعدها)

(٢) النور : الآية ٤٠

(٣) سبق تخريجه

خلاله أقرب الأشياء إليه وهي يده ، ومن لم يستطع إبصار يده كيف سيستبين طريق النجاة .

- أما الحديث فيشير إلى فتن شديدة مزيج من الشبهات المتراكمة والمزينة بالشهوات ستقع بها الأمة لا تستبين أفراد منها سبيل الحق فتختلط عليها الأمور بين الحق والباطل ، ويترتب على اختلاط الأمور وقوعها في الكفر تارة ، ورجوعها إلى الإيمان تارة أخرى ، وقد وصفت هذه الفتن بقطع الليل المظلم للدلالة على حال أهلها ، فكما لا يستبين الإنسان الأمور ، وتختلط عليه الأشياء في الظلام الدامس ، كذلك لا يستبين الحق من الباطل في ظل إحكام الفتن ، وانتشار سحبها القاتمة على بصيرة القلوب .
- الحديث يرشد إلى العلاج من هذه الفتن ، وهو الإكثار من الأعمال الصالحة التي تكون نوراً لصاحبها ، فإذا اشتدت ظلمة الفتن ظهرت بركة هذا النور في استبانة طريق النجاة ، والمعلوم أن للحسنة ضياءً في الوجه ونوراً في القلب ، فإذا غيمت سحب الفتن على القلوب انقشعت بإذن الله بقدر قوة وسطوع شمس الحسنات في قلب المؤمن ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، فلينتبه المؤمن في هذا الزمان لهذا البلسم النبوي الشافي .
- يلحظ من سياق الحديث مدى شدة هذه الفتن وقوة تأثيرها ، وفيه إشارة إلى ضعف الإيمان لدى الكثيرين في هذه المرحلة لدرجة عدم قدرتهم على الثبات على الإيمان مدة أربع وعشرين ساعة مما يشير إلى أن هذه الفتن تكون ملازمة للناس صباحهم ومساءهم ، ولعل في الحديث إشارة إلى فتن الإعلام التي يصدق عليها هذا الوصف ، فهي الأكثر ملازمة للأفراد ؛ حيث إنها دخلت حتى غرف النوم ، وهي الأكثر تأثيراً على القلوب ، والأوسع استخداماً في إثارة الشبهات والخلافيات والشهوات ، **فكم من صريع لها ، وكم من متذبذب بين ذا أو ذاك ، وكم من متقلب بفكره وهمومه وتوجهاته ومعتقداته بسببها .**

- الحديث أشار إلى مدى أثر هذه الفتن على الرجال ، وهي بذلك تكون أكثر تأثيراً على النساء ، بل تكون النساء إحدى حبائل هذه الفتنة .
- كَانَ الْحَسَنِ البصري يَقُولُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا قَالَ : يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُحَرِّمًا لِدَمِ أَخِيهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ وَيُمْسِي مُسْتَحِلًّا لَهُ وَيُمْسِي مُحَرِّمًا لِدَمِ أَخِيهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ وَيُصْبِحُ مُسْتَحِلًّا لَهُ . » (١)

وهذا الأثر عن الحسن البصري يشير إلى فهم له لسبب من أسباب تذبذب الرجل بين الكفر والإيمان ، وهو وقوع المسلم في الشبهات التي يستحل فيها دم المسلم أو ماله أو عرضه ، وفي الغالب هذا لا يكون إلا عند اتهام المسلمين بعضهم البعض بالكفر ، و تحولهم إلى فرق شتى يستبيح بعضهم دم بعض أو عرضهم أو مالهم ، وهو ما حذر منه النبي ﷺ حيث قال : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

وهذا الفهم للحسن البصري للحديث يدل على سوء حال ما كان يراه في زمانه من تفرق المسلمين واقتتالهم على الملك ، وما نجم عن ذلك من تكفير أو تفسيق أو تضليل بعضهم البعض ، وما ترتب عليه من استباحة الدماء والأموال والأعراض الحرام .

﴿ العلامة الخامسة : التمزق الداخلي للأمة ﴾

- عن عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ : سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٩٤ [تحفة الأحوذي (٤٤٢/٦)]

(٢)أخرجه مسلم في الفتن و الملاحم برقم ٢٨٩٠ [مسلم بشرح النووي (٢١٣/٩)

شرح الغريب :

السنة : القحط .

- عن خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ : ﴿ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَهَا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيهَا قَالَ : أَجَلْ ! إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ ، فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا ﴾ (١)

شرح :

- الحديث يشير إلى وفور رحمة النبي ﷺ بأمته ؛ لذا هذه الصلاة غير المعهودة ، والتي أطالها رغبة ورهبة بين يدي الله ، إنما كانت بقصد التخفيف على الأمة ، والاحتراز من مواطن هلاكها ؛ وقد سأل الرسول الكريم فيها ربه العظيم إلا يهلك أمته بثلاثة من عظائم المهلكات ؛ وهي القحط العام الذي يأكل الأخضر واليابس ، والغرق ، وفي الرواية الأخرى تسليط العدو الخارجي والثالثة ألا تتعرض الأمة إلى التمزق الداخلي من خلال تشيعهم وتحزبهم وتفرقهم،وما يترتب على ذلك من قتال داخلي .
- يلحظ من الحديثين أن سؤال النبي ﷺ لربه قد أجيب في اثنتين ، ومنع من الثالثة ، وهو إذاقة بعضهم بأس بعض ، مما يشير إلى أن هذه المهلكة جزء من قضاء الله في الأمة ؛ ودلائل الحال والتاريخ تشير إلى أن أكثر بلاء الأمة كان من التمزق الداخلي والتشيع والتحزب والتفرق و وما يترتب على ذلك من ويلات وحروب ؛ بل لم يكن الصحابة رضي الله عنهم بعيدين عن ذلك الاقتتال الداخلي ؛ إلا أنه في عهدهم لم يأخذ منحى خطيراً يؤثر على العقيدة أو السلوك ، وذلك لقوة التوجه نحو الآخرة ، ولسلامة نواياهم ، أما بعدهم فقد بدأ يأخذ الاقتتال منحى دنيوياً ، وظهرت آثاره على العقيدة والسلوك والتوجهات ، واشتد أواره في الدولة العباسية حتى تحولت إلى

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٦٦، وقال حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٣٩٧/٦)]

عشرات الدويلات ضمن دار الخلافة ، وكل دويلة تكيد للأخرى ، وما زالت الأمة في هذا التمزق إلى يومنا ، مما يدل صراحة على أن هذه العقوبة هي مما ابتليت بها الأمة إلى يوم القيامة وأن أكثر هلاكها يكون بسببها .

- قد يعترض البعض ويقول أن العقوبتين الأخريين ، أو العقوبات الثلاثة الأخرى المذكورة في مجموع الحديثين [الغرق - السنة - تسلط العدو الخارجي] هي أيضاً من الأمور التي ابتليت بها الأمة أو أفراد منها ، ولعل أقرب مثال على ذلك ظاهرة تسونامي التي حصدت قرابة النصف مليون وكان أكثرهم من المسلمين ، ويجاب على هذا الاعتراض بأنه لا يمتنع أن تتعرض الأمة إلى أي أشكال من العقوبة الجزئية سواء كان غرقاً أو زلزلة أو نحوها ؛ لكن هذه العقوبة لا تؤدي إلى فناء مجموع الأمة ولا تؤدي إلى هلاكها بالكلية ، أو لا تحمل صفة العقوبة الغالبة المفنية للأمة ، وهذا هو مضمون سؤال النبي ﷺ لأمته ؛ أي أن لا يقع غرق يفني كامل الأمة أو قحط يهلكها على وجه العموم ، أما أن يتعرض بعض أقوام من الأمة لمثل هذه العقوبات ؛ فسياق الحديث لا يدل على أنه المراد ، يقول النووي : « أي لا أهلكهم بقحط يعمهم ، بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام » (١) ، وهنا قد يقال : إن التمزق والاقتتال الداخلي أيضاً لم يفن سائر الأمة ، ويجاب عليه بأنه اتخذ صفة العقوبة الغالبة في حق الأمة ؛ بحيث من تتبع تاريخ الأمة يجد أن هذه العقوبة قد لازمت الأمة منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا ؛ بحيث يندر تخلفها في عصر من عصور الأمة ؛ ومن تتبع أعداد الذين هلكوا في الأمة بسبب الاقتتال الداخلي يجدهم الحظ الأوفر بالنسبة لأي عقوبة أخرى ، وبالتالي يمكن القول أن أكثر هلاك هذه الأمة إنما يكون بسبب هذه العقوبة التي توفرت أسبابها في الأمة .

---

(١) النووي : شرح مسلم (٢١٣/٩)

📖 – عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا .﴾ (١)

شرح الغريب :

بيضتهم : البيضة العزة والملك .

شرح :

– يقول النووي : « قوله ﷺ هذا الحديث فيه معجزات ظاهرة ، وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به ﷺ قال العلماء : المراد بالكنزين الذهب والفضة ، والمراد كنزي كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (✽) . فيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب ، وهكذا وقع . وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . » (٢)

– هذا الذي ذكره الإمام النووي رحمه الله يمثل جزءً من الإعجاز الذي تضمنه الحديث أما الجانب الآخر ، فهو ما تضمنه آخر الحديث من القضاء الرباني بأنه لا يسلط على

(١)أخرجه مسلم في الفتن و الملاحم برقم ٢٨٨٩ [مسلم بشرح النووي (٢١٢/٩)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٢٦٧ [تحفة الأحوذي (٣٩٨/٦)]

(✽) يقول التوربتشي : « يريد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر ، وذلك أن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير ، والغالب على نقود ممالك قيصر الفضة » [تحفة الأحوذي (٣٩٩/٦)]

(٢) النووي : شرح مسلم (٢١٣/٩)

الأمة عدو خارجي يستبيح بيضتها ؛ أي ملكها أو رمز عزها حتى لو اجتمع كل أعداء الأرض على الأمة ؛ واستثنى الحديث حالة يكون فيها الهلاك على يد بعضهم البعض ، وهذه المعنى فيه دلالات عجيبة ، وهي أن الأمة لا تستباح حقيقة إلا من الداخل ، ولو ترك العدو الخارجي لوحده يكيد للأمة فإنه لن يستطيع استباحتها ، و دلائل التاريخ ووقائعه المتعددة تدل على هذا المعنى ؛ حيث إن العدو الخارجي لم يتمكن من الأمة إلا من خلال المعونة الداخلية ، ولعل أقرب الوقائع هي غزو أفغانستان والعراق ، حيث الملاحظ أن العون الداخلي من الأمة نفسها هو الذي استباح بيضتها ، ولو ترك العدو الخارجي لوحده في الميدان دون عون من داخل الأمة لما وقع له هذه الاستباحة حتى لو جمع كل أهل الأرض .

لطيفة :

الحديث أشار إلى قضاء الله الذي لا يرد ، وهذا يوجهنا إلى تفصيل القول في قضاء الله ؛ حيث إن قضاء الله في خلقه نوعان : أحدهما مبرم ، والآخر معلق بفعل ، أما القضاء المعلق بفعل ، فهو ذلك القضاء الذي يكون من باب كون العبد إذا فعل شيئاً معينا ؛ فإنه يكون كذا وكذا ، وهذا القضاء يكون من قبيل القضاء الذي يتطرق إليه المحو والإثبات ، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (١) .

أما القضاء المبرم ، فهو عبارة عما قدره الله في الأزل دون أن يعلقه بفعل ، وهذا النوع من القضاء نافذ في جميع الأحوال ؛ بحيث لا يتغير بحال ، ولا يتوقف على المقضي عليه ولا المقضي له ، وهذا النوع من القضاء أشار إليه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ (٢)

وقول الرسول هنا أن الله سبحانه وتعالى قال : « إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا

(١) الرعد:٣٩

(٢) الرعد: من الآية٤١

يُرَدُّ » فإنه يدخل في باب القضاء المبرم ؛ لذلك لم تُستجب دعوة الرسول ﷺ فيه ، فالأنبياء مستجابو الدعوة إلا في مثل القضاء المبرم . (١) 📖 – عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيْفَيْنِ : سَيْفًا مِنْهَا وَسَيْفًا مِنْ عَدُوِّهَا ﴾ (٢)

شرح :

- هذا الحديث في إشارتين الأولى : أنه يشير إلى خصوصية هذه الأمة والثانية مدى وفور رحمة الله سبحانه وتعالى بها ؛ بحيث إن تسليط شدة أو بلاء على هذه الأمة – بسبب تقصيرها – يترتب عليه رفع التسليط عنها في شدة أخرى .
- دلائل الحال واستقراء التاريخ يشهدان لمصداقية هذا الحديث ؛ حيث إن التسلط الخارجي على الأمة يخفف من وطأة التسلط الداخلي أو يرفعه ، وهذا المعنى عايشته في بلدي ؛ حيث إن اندلاع الانتفاضة والهجمة الشرسة لليهود على أهل الضفة والقطاع قد خفف من وطأة تسلط السلطة وأجهزتها على الناس ، بل يمكن القول بأن هذا التسلط قد تلاشى بالكلية ، وتخندقت جميع الفصائل ومن خلفهم السلطة في خندق المواجهة مع العدو ، وإن كانت درجات المواجهة متفاوتة ، ويكفي القول بأن السيف الداخلي قد رفع بالكلية .
- قد يعترض البعض قائلاً بأن هذا ينتقض بما يحصل في أفغانستان والعراق ، ويرد عليه أن العون الداخلي للعدو الخارجي هناك لا يتصرف في نظر الجميع على أنه سيف داخلي ؛ بل هو أحد أذرع السيف الخارجي ، وهذا واضح جلي .
- يقول المباركفوري : « من خصائص هذه الأمة ورحمة الله تعالى لها أن لا يجتمع قتال كفار ومسلمين في وقت واحد بل إما كفار وإما مسلمين ، ولو كانوا

(١) انظر تحفة الأحوذي (٦/ ٤٠٠)

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٩ [عون المعبود (١١/ ٤٠٧)] ؛ وأحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٤٠٤٤ [المسند (٦/ ٣٠)] ؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٢٢١.

في وقت في قتال مسلمين ووقع قتال كفار رجع المسلمون عن القتال واجتمعوا على قتال الكفار لتكون كلمه الله هي العليا . »

و قال المناوي : « يعني أن السيفين لا يجتمعان فيؤدي إلى استئصالهم لكن إذا جعلوا بأسهم بينهم سلط الله عليهم العدو وكف بأسهم عن أنفسهم وقيل معناه محاربتهم إما معهم أو مع الكفار » (١)

□ العلامة السادسة: تهافت الأمم وتكالبها على أمة محمد ﷺ

📖 – عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ – في رواية أحمد : من كل أفق – كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا . فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ . وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ . فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » (٢)

شرح الغريب :

تداعي : تداعى هنا لها معنيان : إما من التداعي ، وهو التساقط من علٍ ؛ أي تتساقط الأمم على أمة محمد طمعاً فيها كتساقط الوحوش على الفريسة ، أو من الدعوة ؛ أي أن الأمم يدعو بعضها بعضاً للهجوم على أمة محمد ﷺ كما يدعو الأكلة بعضهم على الطعام .

الأكلة : جمع أكول ، وهي صيغة مبالغة تدل على عظمة الهجمة ، وشراهة أصحابها .

قصعتها : القصعة هي الإناء الصغير الذي يوضع فيه الطعام .

و لكنكم غثاء كغثاء السيل : تشبيه يراد به أنه لا نفع للأمة في ذلك الزمان مع كثرتها

---

(١) عون المعبود (١١/ ٤٠٨)

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٧٦ [عون المعبود (١١/٤٠٤)] ؛ وأحمد في باقي مسند الأنصار ؛ قال العدوي : حسن [الصحيح المسند (٣٨١)]

كما أنه لا نفع في الزبد الذي يعلو الماء عند السيول مهما كان كثيراً .

الوهن : الضعف ؛ وغرض السائل في سؤاله عن الوهن ، الاستفسار عن موجب الوهن وسببه

شرح :

- الحديث فيه إشارة واضحة إلى تسلط السيف الخارجي على الأمة بعدما أنهك السيف الداخلي قوتها ، وبداية السيف الخارجي لم يقع إلا بعد سبعة قرون من البعثة ،وذلك بهجمة التتار ثم بالحروب الصليبية ، ثم في حلقات الاستعمار الغربي ، و في عصرنا بدأت صورة تكالب الأمم على أمة محمد ﷺ تكتمل بأبشع أشكالها .
- هذا الحديث يرسم صورة متكاملة لحال الأمة آخر الزمان ، فهي كثيرة العدد ، وبالرغم من كثرة عددها إلا أنها تكون مطمعاً للأمم الأخرى بسبب هوانها وضعفها الذي بين النبي ﷺ أسبابه ، وهو حب الدنيا وكراهية الموت مما يشير إلى أن أكثر أفراد الأمة تتغير في قلوبهم معالم الرسالة التي كانت عند الرعيل الأول والذي كان من أهم أوصافهم كما بين خالد بن الوليد في إحدى رسائله لملوك الفرس حيث قال : « بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس السلام على من اتبع الهدى ! فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، بالحمد الذي فصل حرمكم وفرق جماعتكم ووهن بأسكم وسلب ملككم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فاعتقدوا مني الذمة ، وأدوا إلي الجزية ، وابعثوا إلي بالرهن وإلا فوالذي لا إله إلا هو لألقينكم بقوم يحبون الموت كحبكم الحياة » (١)
- الحديث يشير إلى هجمة الأمم على أمة محمد ﷺ ، وجاءت لفظة الأمم (جمعاً معرفاً) للدلالة على العموم ؛ مما يدل على أن الهجمة لا تتولاها أمة بعينها في الأرض بل تتضافر جهود أمم الأرض للكيد بأمة الإسلام ؛ وكأن المستهدف الوحيد هو أمة

---

(١) أخرجه أبو يعلى [مسند أبي يعلى (١٤٧/١٣)] قال الهيثمي : رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق [مجمع الزوائد (٢٢٠/٦)]

الرسالة في الأرض ، وقد عبر الحديث عن هذه الهجمة أصدق تعبير وأشمله وأغزره معاني ؛ فالأمم تتهافت على أمة الإسلام طمعاً فيها ، أو خوفاً من رسالة الحق التي خبا نورها بين أفراد الأمة ، والتي طالما أزعجت مشركي الماضي .

وقد شبه النبي ﷺ هذه الهجمة بهجوم أصحاب البطون الشرهة ودعوة بعضهم البعض على قصعة طعام لاحت بين أيديهم ، والتشبيه يحمل في طياته عدة معاني منها شدة الهجمة ، وشراهة الهاجم ، وصغر الوجبة التي تساقط عليها هؤلاء الأكلة مما يشير إلى حرصهم على عدم إبقاء شيء منها ؛ كذلك تتضمن سهولة حصولهم على خيرات الأمة ، قال القاري عند تفسيره لإسناد كلمة الأكلة للقصعة : « **الضمير للأكلة ؛ أي التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع فيأكلونها عفواً صفواً ، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم ، أو ضـــرر يلحقهم ، أو بأس يمنعهم** » . (١)

- من تتبع حال الأمة في عصرنا ، وطبيعة المؤامرات التي تكاد حولها من كل أمم الأرض (يهود - نصارى - هندوس - ترك ..إلخ) يجد مصداقية كلام رسول الله ﷺ ، وكأننا بأمة محمد فريسة تنهش منها الذئاب وتأكل منها الكلاب ، والعراق والبوسنة وفلسطين والشيشان وأفغانستان وغيرها أكبر دليل على ذلك ، بل لا أجانب الصواب إذا قلت أن المستهدف الوحيد في الأرض أصبح المسلم والمسلم وحده (۞) ولو أراد إنسان في عصرنا أن يصف حال الأمة فإنه لن يجد وصفاً أبلغ ولا أكمل من تلك الألفاظ النورانية التي سطرت حديث رسول الله ﷺ عن حال الأمة في آخر الزمان ،

---

(١) عون المعبود (١١/٤٠٤)

(۞) يشهد لكلامي هذا أثر أورده المقري الداني عن أبي الجعد قال فيه: « **يلج البلاء بأهل الإسلام خصوصية دون الناس وأهل الأديان حولهم آمنون يرتعون حتى يتهود قوم ويتنصر آخرون** » [الداني : السنن الورادة في الفتن (٣/٥٤٤)] ؛ وهذا الأثر لا يختلف في دلالة الواقع عليه اثنان ، وقول أبي الجعد بأن أقوام يتهودون أو يتنصرون قد يحمل على حقيقته ، وقد يحمل على معناه ، فلا يشترط أن يؤمن المسلم بالنصرانية كاملة ، بل يكفي منه الولاء للنصرانية وحب أهلها ومشابهتها في أفكارها وسلوكها ، وكلا المعنيين واقع في الأمة .

ويكفي هذا الحديث في عصرنا ليكون من أعظم دلائل نبوة الحبيب محمد ﷺ .

- عَنْ سَمُرَةَ بن جندب ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ أَنْ يَمْلَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَيْدِيَكُمْ مِنَ الْعَجَمِ ، ثُمَّ يَكُونُون أُسْدًا لَا يَفِرُّونَ فَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَيَأْكُلُونَ فَيْئَكُمْ ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث فيه إشارة عجيبة إلى بداية تسلط العرب على العجم ، وتحكمهم بهم ثم بعد ذلك تنقلب الموازين ويبدأ تسلط العجم على العرب وأخذهم الخيرات من أيديهم ، والحديث فيه إشارة إلى بداية نزع السلطان من يد العرب ، وهذا ما حصل في أواخر الدولة العباسية ، والحديث بهذا المفهوم تشهد له دلائل الواقع وفق ما أخبر النبي ﷺ .

﴿ العلامة السابعة : معاصي وعقوبات ﴾

- ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (٢) ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤)

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ ﴿ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ! لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ

---

(١) أخرجه أحمد عن سمرة من أربعة طرق ، قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣١٠/٧) ؛ و أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٥٦٣ وبرقم ٨٥٨٣ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه [المستدرك (٥٥٧/٤ ، ٥٤٦)]

(٢) فاطر: من الآية٤٣

(٣) غافر:٨٥

(٤) آل عمران:١٣٧

تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا . وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ . وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ . ﴾ (١)

- المعلوم أن هناك سننا وقوانين ربانية تحكم حياة البشر (۞) ، كما أن هناك سننا ربانية تحكم المادة ، وللأسف استطاع الإنسان أن يكتشف كثيراً من القوانين التي تحكم المادة وأن يستفيد منها في تيسير حياته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) إلا أن الإنسان لجهله وطغيانه لم ينتبه لتلك القوانين التي تحكم حياته وعلاقته مع الخالق وعلاقته مع البشر ، فوقع في المحظور .

والحديث الذي بين أيدينا ينبهنا إلى بعض السنن والقوانين التي تحدد لوازم العقوبات الربانية وموجباتها ؛ بحيث يبين الحديث أن لكل معصية عقوبة مخصصة لها ، تتناسب وطبيعة المعصية .

الجريمة الأولى : انتشار الزنا .

- نلحظ في الحديث أن أول المعاصي الموجبة للعقوبة هي الفاحشة ، ويراد بها هنا الزنا ، ويستفاد من قول النبي ﷺ « لم تظهر في قوم قط » أمران ، وهما :

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠١٩ ، وقال محققه « في الزوائد . هذا حديث صالح للعمل به » [السنن (٢/ ١٣٣٢)] ؛ وللحديث شاهد عند الحاكم في الفتن برقم ٨٥٣٦ إلا أنه ذكر فيه فقط بخس الميزان وكثرة الزنا وانتشار الكذب ، وقال حديث صحيح ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٤٩)]

(۞) يقول محمد الغزالي : « كما أنه توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلاً عند المائة ، ودرجة التجمد عند الصفر ، أو تجعل للغازات ضغوطاً معينة .. كذلك الأمر في الحضارات البشرية وانهيارات الأمم وانتصاراتها : إنما تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل [الغزالي : كيف نتعامل مع القرآن (٥٣)]

(٢) البقرة:٢٤٣

الأول : إن العذاب مرتبط بظهور الزنا في المجتمع ؛ أي تفشيه لدرجة يصبح طبيعياً لا ينكره أحد أو يوجد منكر إلا أن درجة الإنكار ضعيفة لا تؤثر في انتشاره وتفشيه .

الثاني : إن العقوبة في هذه الحالة تكون عامة تنال من أي قوم يقعون فيها ؛ أياً كان هؤلاء القوم ؛ لذا جاءت كلمة قوم نكرة للتعميم ، وكلمة « قط » للدلالة على قطعية حصول العقوبة .

- الملاحظ أن النبي ﷺ قد بين أن العقوبة المترتبة على انتشار الزنا هو انتشار الأوجاع والطاعون والأمراض الأخرى الجديدة غير المعهودة من قبل ، فكما أن الإنسان قد اعتدى بنفسه على روحه الإنسانية بطاعون الروح (الزنا) ؛ لذا ناسب المقام أن يبتلى جسده بالطاعون والأوجاع ؛ ولئن استطاع البشر أن يجدوا بلسماً شافياً للطاعون ، و اعتلوا سنام الغرور في عصر العلم بأنه لا يعجزهم شي فليعلم ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (١) ؛ وما داموا غير معجزين في الأرض ؛ إذا سيبتلون من خالقهم بأمراض لا قبل لهم بها ، ولا معرفة لهم بأسرارها تحول أجسادهم إلى جحيم قبل جحيم الآخرة ، وأكبر مثال على ذلك ما عهده القرن الحالي والقرن المنصرم من أمراض جنسية سرية كثيرة ، لعل أهمها وأخطرها مرض الإيدز الذي حير العلماء في عصر العلم ، والعجيب في هذا المرض أنه يضرب جهاز المناعة لدى الإنسان ؛ أي يضرب نعمة من أعظم نعم الله على جسد الإنسان ؛ وهذا يتناسب مع جريمة الزنا الذي تضرب مناعة المجتمع ، وتهتك متانته ، وتفسد أواصره ، والجزاء من جنس العمل ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢)

---

(١) الزمر: من الآية٥١

(٢) فصلت:٤٦

الجريمة الثانية : التطفيف في الكيل .

وهذه الجريمة من الجرائم العظمى التي وقع فيها قوم شعيب فاستحقوا بسبب كفرهم ووجودها عذاب الله ، ولعل خطورة هذه الجريمة تتمثل بأكل مال الغير بالباطل دون شعوره بذلك ، وهذا هو عين الظلم والاستغفال ، وهدف القائمين بذلك زيادة أموالهم وتنعمهم على حساب الآخرين ؛ لذا استحق هؤلاء ثلاثة أشكال من العقوبات تتناسب وطبيعة الجريمة :

العقوبة الأولى : القحط وقلة الأمطار المحققة للخير على الأرض ؛ فلا يجد هؤلاء كفايتهم ؛ بل لا يجدون ما يزنونه لكي يطففوا فيه ، فطمعهم بالقليل أذهب عنهم الخير الكثير ، ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (١) .

العقوبة الثانية : شدة المئونة ، وهي هنا عامة تشمل غلاء الأسعار ، وكثرة الضرائب التي تأكل الأخضر واليابس ، وكثرة تكاليف النقل وتعسيرها على أهلها ... وغير ذلك من شدة المئونة التي لا تبقي ولا تذر ، حتى يصبح تحصيل الشيء القليل يتطلب الجهد الجهيد ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً ﴾ (٢)

العقوبة الثالثة : جور السلطان وظلمه للرعية ، وأخذ أموالهم أو مصادرتها دون أدنى حق ، و التشديد عليهم بالضرائب والجمارك ، وهذا يتناسب وطبيعة معصيتهم ؛ فلئن وجد المطففون وسائلهم لأكل مال الناس بالباطل والاستكثار منه ، فقد وُجد أيضاً من هو أكثر ظلماً منهم وأشد نكاية بهم ليأخذ منهم ما جمعوا قسراً أمام أعينهم « **وكيفما تكونوا يولى عليكم** . »

---

(١) سبأ:١٧

(٢) الأعراف: من الآية٥٨

الجريمة الثالثة : منع الزكاة .

الزكاة حق أوجبه الله سبحانه وتعالى على الأغنياء حقاً للفقراء ، وهي عنوان تزكية وبركة لأصحابها ﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (١) ومنعها نوع من أنواع كفر النعمة ، وسبب المنع هو الطمع والتزيد بما لا يملك حقيقة ، و إن كان في الظاهر هو المالك له ، وما دام الإنسان يمنع الحق عن إخوته طمعاً ؛ إذا ليعاقب الإنسان بمنع فضل الله سبحانه وتعالى عليه ، وكفران النعمة سبب لزوالها ؛ فكانت العقوبة بمنع القطر من السماء ولولا وفور رحمه الله بخلقه ممن يعايش هؤلاء الجاحدين كالبهائم لم يمطروا قطرة واحدة من السماء ، فنزول المطر عليهم ليس كرامة لهم بل رحمة ببهائمهم .

الجريمة الرابعة : نقض عهد الله ورسوله .

المعلوم أن هناك مواثيق غليظة بين البشر وبين الله سبحانه وتعالى من لدن آدم على ألا يشركوا بالله شيئاً ، ويسمعوا ويطيعوا ، وقد انتقلت هذه المواثيق عبر الرسل إلى أممهم ، إلى أن انتهت بالرسول الخاتم محمد ﷺ ، و الحفاظ على هذه العهود والمواثيق هو الذي يبقي الأمة في دائرة الرسالة والعبودية ، فإذا نقضت أمة هذه المواثيق أصابتها اللعنة وقسوة القلب والخسران في الدنيا والآخرة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٢) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (٣)

وأمة أصابتها اللعنة والقسوة ؛ لا تستحق حفظاً أو تكريماً من الله سبحانه وتعالى ، بل تصبح نهبة للأمم الأخرى وغرضاً لسهامهم وهدفاً لمطامعهم ؛ لذا تسلط عليها الأمم لتنال من خيرها وخيراتها .

---

(١) البقرة: من الآية٢٧٦

(٢) الرعد:٢٥

(٣) المائدة: من الآية١٣

الجريمة الخامسة : عدم الحكم بما أنزل الله .

وهذه الجريمة تمثل الطامة الكبرى بالنسبة للأمة ، وتخرجها من دائرة العبودية لله سبحانه وتعالى في جميع شئون حياتها ، بل تخرج الأمة من دائرة الرسالة بأكملها ؛ وأي بقاء لرسالة سماوية ما دامت تعاليمها لا تحترم ، ويقدم عليها زبالات الفكر البشري القاصر ؛ لذا وقوع الأمة أو حكامها بهذا الأمر يترتب عليه لا محالة الشرذمة والتشيع والتفرق المفضي للحقد والكراهية المؤدية للاقتتال الداخلي ، فخروج الأمة من دائرة الحاكمية لله إلى دائرة الحاكمية للأهواء والمصالح ليس له إلا محصلة واحدة وهي اشتعال النار الداخلية بين أفراد الأمة من ذوي الأهواء والمشارب المختلفة،وحعل بأسهم بينهم شديد .

﴿ العلامة الثامنة : الولوغ في المال الحرام وعدم تحري الحلال ﴾

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ. ﴾ (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى تغير نفسيات الناس التي كانت تتوق للحلال وتتقي الحرام في الرعيل الأول ، إلى نفسيات مريضة همها جمع المال دون النظر إلى الناحية الشرعية لهذا الكسب ؛ مما يشير إلى ضعف الوازع الديني أمام شهوة المال مع تغييب فقه المعاملات من حياة الناس ، ويحل بدلاً منه فن الشطارة في التكسب بعيداً عن أي اعتبارات دينية أو خلقية ، كذلك الحديث يشير إلى حقبة زمانية معينة يفشو فيها عدم المبالاة بالجانب الشرعي في الكسب ، ولعل زماننا هذا هو المقصود ، ومن نظر إلى أكثر معاملات الناس يجد أن للحرام أو غباره مدخلاً فيها ، وهذه حقيقة لا يدركها إلا أهل البصيرة بالعلم الشرعي وواقع المسلمين المعاصر ، على سبيل المثال نجد أن هناك

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع برقم ٢٠٨٣ [البخاري مع الفتح (٣٦٦/٤)]

شبكة عنكبوتية ربوية في جميع أنحاء العالم الإسلامي تدور من خلالها عجلة الاقتصاد في بلاد المسلمين ، ونرى لهذه الشبكة رواجاً وازدهاراً مما يشير إلى سعة التعامل معها ، وقس على ذلك باقي الأمور من رشوة أو قمار ، أو غش وخداع وحلف كاذب في التجارة ، أو متاجرة في المحرمات .

- طبعاً لا أقصد بكلامي السابق شمول الأمر لكافة المسلمين ؛ بل هناك الكثيرون من أهل الورع والتحري في الجانب المالي رعاية لأمر الله سبحانه وتعالى ، لكن هناك صفة غالبة مؤثرة في المجتمع تشير إلى شريحة واسعة نالها حظاً من هذا الحديث ، فالكثيرون في عصرنا إما وقعوا في الربا ، أو نالهم من غباره ، والحديث هنا لا يدل على العموم ؛ إنما يدل على حصول الأمر من عدم المبالاة في الناس في توخي الحلال في كسبهم ، وهذه الصفة على هذا الوجه موجودة في عصرنا بشكل واضح ، وإن كانت في القرون السالفة تأخذ حكم النادر .

- هناك إشارات نبوية تدل على أن هذه العلامة في ازدياد لدرجة يعز فيها المال الحلال ، منها قول رسول الله ﷺ ﴿ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (١) فهذا الحديث يدل على زمان تقل فيه مداخل الحلال وأسبابه للمسلم ؛ لدرجة يختلط فيها الحرام في الحلال في جميع أشكال الكسب على درجات متفاوتة ؛ بحيث لا يبقى إلا وجهان من الحلال الصرف وهما ما ذكرهما الحديث .

﴿ العلامة التاسعة : الطمع والأثرة ﴾

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٨٨ [البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٤)]

(٢) الحشر: من الآية٩

شرح الغريب :

يؤثرون : الإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا ، وعكسه الأثرة

📖 – عَنْ أَنَسٍ ﷺ قال : ﴿ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْصَارَ لِيُقْطِعَ لَهُمْ بِالْبَحْرَيْنِ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَعَلْتَ ! فَاكْتُبْ لِإِخْوَانِنَا مِنْ قُرَيْشٍ بِمِثْلِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي ﴾ (١)

أقول :

الحديث يشير إلى ثلاث فضائل للأنصار وهي : إيثارهم على أنفسهم ، ومواساتهم لغيرهم .

📖 – عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا قَالَ : ﴿ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

الأثرة : الأنانية ، وتقديم النفس على الغير في جميع الأحوال ، والطمع في نيل حقوق الغير والاستئثار بها

📖 – عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ سَتَكُونُ أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ . ﴾ (٣)

📖 – عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ : أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ ، فَطَفِقَ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، فَقَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدَعُنَا ، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة برقم ٢٣٧٧ [فتح الباري (٥/٥٩)]

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار برقم ٣٧٩٢ [فتح الباري (٧/١٤٦)

(٣) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٠٣ [فتح الباري (٦/٧٠٨)]

دِمَائِهِمْ ، قَالَ أَنَسٌ : فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ أَحَدًا غَيْرَهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « مَا كَانَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ قَالَ لَهُ : فُقَهَاؤُهُمْ أَمَّا ذَوُو آرَائِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا ، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُ الْأَنْصَارَ وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ . فَقَالَ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ ، وَتَرْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَاللَّهِ مَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ عَلَى الْحَوْضِ . » قَالَ أَنَسٌ : فَلَمْ نَصْبِرْ . » (١)

📖 - عن وَائِلِ ابْنِ حُجْرٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَجُلٌ سَأَلَهُ فَقَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَمْنَعُونَا حَقَّنَا وَيَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » (٢)

شرح :

- الآية الكريمة تدل على ما كان عليه الرعيل الأول من تنافس على الآخرة ، وحب المسلمين لبعضهم البعض ، وتقديم المسلم - خصوصاً الأنصاري - أخيه على نفسه في حظوظ الدنيا ، وكانت هذه الصفة من أعظم ما تميز به المسلمون في الرعيل الأول ، خصوصاً بين الأنصار ، الذين آثروا ما عند الله ورسوله على حظوظ الدنيا الزائلة ، والحديث الأول يشير إلى تلك النفسية الرائعة التي تميزوا بها .

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس برقم ٣١٤٧ [فتح الباري (٦/٢٨٨)] ؛ ومسلم في الزكاة برقم ١٠٥٩ [مسلم بشرح النووي (٤/١٦٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٤٦ [مسلم بشرح النووي (٦/٤٤٦)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٢٩٥ [تحفة الأحوذي (٦/٤٤٢)]

- تشير الأحاديث الأخرى إلى فساد ذات حال المسلمين ، وتنافسهم على الدنيا ، واستئثار بعضهم بحظوظها ، ومنعها عن أهلها ، وتحول بيت المال للخاصة من الأمراء والملوك ومن تابعهم ووالاهم بدلاً من كونه لعامة المسلمين ، وهذا تحول خطير ، وانحراف مفصلي في أمة ربانية اختارها الله سبحانه وتعالى لقيادة العالم .
- من تتبع تاريخ الأمة الإسلامية يجد أن ما أخبر به النبي ﷺ قد وقع على الوجه الذي قال ، وهذا من علامات النبوة ، وقد شعر به الرعيل الأول من الصحابة ممن عاشر دولة الأمويين ، حتى نلحظ أن أنس ﷺ الذي رأى هذه الأثرة قال : فلم نصبر . ومن تتبع التاريخ يجد أن الدولة العباسية وما بعدها لم يكن أحسن حالاً من الأمويين ، بل كان للأسوأ ، وكان الأمراء يؤثرون من شاءوا ويخصون بطانتهم دون الناس ، وأعطياهم من بيت مال المسلمين لم يكن على شكل أداء حقوق الناس بقدر ما كان يحمل اسم هبات السلطان ومكرماته للناس .
- قد يستهين البعض في هذه العلامة من علامات الساعة ، وهي من أعظمها أثراً ، فالمعلوم أن شرارة الفتنة الأولى بين المسلمين كان سببها ما أثير من أن عثمان ﷺ يخص قرابته من دون الناس ، وبالرغم من أن عثمان ﷺ لم يخرج عن طور العدل فيما وقع منه ، ولم يترتب عليه منع حقوق الناس والجور في حقهم ؛ إلا أن وقوع شبهة الأثرة كانت سبباً في إشعال الفتنة .
- من تتبع واقع الأمة المعاصر يجد أن الأثرة هيمنت على كل مصالح الناس ، وتركزت في يد فئة قليلة ، وبالمقابل ينال باقي الأمة الحرمان ، بل من تتبع حال كل مؤسسات الأمة يجد أن الأثرة تتربع على كرسي العرش فيها .
- تضمنت الأحاديث السابقة بياناً لموقف المسلم من هذا الواقع المنحرف ، وهو كما أشار النبي ﷺ : أداء المسلم الحقوق المطلوبة منه ، و يسأل الله الذي له ، ولا يقابل الأثرة بالأثرة ، والصبر على هذه الحال إلى أن يلقى رسول الله على الحوض ، فينال المسلم الثواب لقيامه على الأمر الرباني ، وعدم إثارته للفتن في المجتمع المسلم سعياً

وراء حظوظ الدنيا ، وينال الوالي وأصحاب الأثرة ما حملوا من أوزار منع الناس حقوقهم وظلمهم للعباد .

- قد يتصور البعض أن موقف المسلم من الأثرة والخصوصية بالشكل الذي ذكرت ، ودلت عليه الأحاديث يكون سلبياً ، ولا أثر له في تغيير هذا الواقع المنحرف ، والأمر ليس كذلك ، بل هذا الموقف هو عين الصواب، فهو من باب اختيار أهون الشرين؛ فالمسلم مخير بين أمرين كلاهما مر :

الأمر الأول : التغيير على الحاكم بسبب محاباته ، وهذا قد يفتح باباً من الاقتتال الداخلي الذي لا تحمد عقباه في جميع الأحوال ، ويجر إلى فتن قد ينال المغيرين حظاً منها .

الأمر الثاني : الصبر على تلك المحاباة ، وعلى الحاكم ما حمل من أوزار .

والملاحظ أن الأمر الثاني أهون شراً من الأول ؛ لذا يصار إليه حفاظاً على لحمة الأمة ، وصوناً لدمائها .

﴿ العلامة العاشرة : ظهور المخترعات منها السيارة ﴾

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ تَكُونُ إِبِلٌ لِلشَّيَاطِينِ وَبُيُوتٌ لِلشَّيَاطِينِ فَأَمَّا إِبِلُ الشَّيَاطِينِ فَقَدْ رَأَيْتُهَا يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ بِجُنَيْبَاتٍ مَعَهُ قَدْ أَسْمَنَهَا فَلَا يَعْلُو بَعِيرًا مِنْهَا وَيَمُرُّ بِأَخِيهِ قَدْ انْقَطَعَ بِهِ فَلَا يَحْمِلُهُ ، وَأَمَّا بُيُوتُ الشَّيَاطِينِ فَلَمْ أَرَهَا ﴾ كَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : لَا أُرَاهَا إِلَّا هَذِهِ الْأَقْفَاصُ الَّتِي يَسْتُرُ النَّاسُ بِالدِّيبَاجِ (٢)

---

(١) النحل:٨

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥٥١ [عون المعبود (٢٣٦/٧)] ؛ وقال عنه العدوي : صحيح (الصحيح المسند (٤٠٥)]

شرح الغريب :

جنيبات : جمع جنيبة ؛ وهي الدابة التي تقاد ؛ أي ليس عليها راكب .

إلا هذه الأقفاص : أي المحامل والهوادج التي يتخذها المترفون في سفرهم

كان سعيد : هو ابن أبي هند التابعي الراوي عن أبي هريرة .

شرح :

- هذا الحديث يبرز أمرين حاصلين في الأمة وهما إبل الشياطين وبيوت الشياطين ، وجاء بيان المراد بإبل الشياطين ، وهي الإبل المعدة للتكاثر والتفاخر ولم يُقصد بها أمرٌ مشروع ، ثم بين النبي الوجه الذي استحقت فيه هذه الإبل أن تنسب للشياطين ، وهو أن صاحبها يسير بها مجتمعة لا يعلو واحداً منها ؛ فإذا مر على أخيه المسلم الذي كَلّ عن السير وانقطع به الطريق فلا يحمله معه في طريقه ؛ أي أن إبل الشياطين هي الركوبة القادرة على الحمل ، ولكن صاحبها لا يحمل عليها المنقطع في الطريق ممن هو في حاجة لئن يحمل .
- أما بيوت الشياطين فقد قال النبي ﷺ أنه لم يرها ؛ أي أنه لم يعاين في عصره شيئاً شبيها لها لكي يصفها للصحابة ، فهي أمر جديد سيجِدّ على الأمة من حيث الوصف والماهية ، وسياق الحديث يبرز أن المراد بها أيضاً ركوبة تشبه البيت يمر بها صاحبها على أخيه المنقطع فلا يحمله عليها ، وركوبة تشبه البيت مما لم يعهد في العصور السابقة ، لا يصدق إلا على ما عهدناه في عصرنا بما يعرف بوسائل النقل الحديثة [السيارة والشاحنة وغيرها] ، فالسيارة هي أصدق وصف لبيوت الشياطين التي ذكرها النبي ﷺ .
- هذه العلامة إذا كان المراد بها السيارات ، فهي حاصلة في زماننا ؛ وكثيراً ما نرى من أصحاب السيارات الخاصة أنهم يأنفون أن يحملوا أخاهم المنقطع في طريقهم .

ملاحظة :

قد يعترض البعض قائلاً : إن حمل المراد ببيوت الشياطين على السيارة نوع من التعسف ، فليس في السياق ما يدل على ذلك ، والأولى حملها على تلك البيوت الفارغة التي يبنيها المترفون دون حاجة إليها تكثراً وتفاخراً ، وتترك تلك البيوت فارغة دون أن ينتفع بها أحد ، فبعض المترفين في عصرنا يكون له أكثر من بيت ، وأحياناً يكون له عدة طوابق وشقق متعددة ، وهناك الكثيرون حوله لا يجدون مأوى لهم ، وكثيراً من هذه البيوت تترك فارغة لمناسبة واحدة في العام فقط ، فهذه البيوت يصدق عليها وصف النبي ﷺ ، وهي كثيرة في عصرنا ، والأصل أن يحمل الكلام عليها وليس على السيارة ونحوها .

ويجاب على هذا الاعتراض بأنه يمكن تصور أن هناك تعسفاً في حمل الحديث على السيارة إذا لم تكن هناك أي قرينة دالة على ذلك ، ومن تأمل الحديث يجد عدة قرائن تجعل هذا المحمل مسوغاً ، منها :

القرينة الأولى : سياق الحديث يشير إلى أن مراد النبي ﷺ هو الحديث عن وسائل نقل يراد بها التفاخر ، ولا ينتفع بها المسلمون المحتاجون لها مما يشير إلى حصول الأثرة وتفتت اللحمة الإسلامية ، وهذا واضح من تفسيره لإبل الشياطين ؛ لذا ناسب المقام أن تحمل البيوت أيضاً على وسائل النقل ؛ والملاحظ على التابعي راوي الحديث أنه حمل بيوت الشياطين على تلك الأقفاص والمحامل والهوادج التي يتخذها المترفون في سفرهم ؛ وهذا المحمل من التابعي يشير إلى أنه يرى أن سياق الحديث كله يشير إلى وسائل النقل ، وتفسيره إنما هو اجتهاد في حدود ما عهده في عصره مع أن ما فسر به البيوت كان معروفاً في عهد الرسول ﷺ ، ولا يصعب على النبي ﷺ أن يذكره ، ولا يصعب على الصحابة أن يتصوروه ؛ وهذا كله يعزز أن

المراد ببيوت الشياطين أمر غريب في جنسه ووصفه يستخدم كركوبة في آخر الزمان ، وهذا لا يصدق إلا على السيارة .

القرينة الثانية : لو كان المقصود من بيوت الشياطين ، تلك البيوت الفارغة التي تكون لبعض المترفين ، ويمنعون المحتاجين من الانتفاع بها ، لفسر النبي ﷺ المراد بها ، ولما قال : أما بيوت الشياطين فلم أرها ، فجنس البيوت أمر يسهل وصفه ، فكما أنه وصف المراد بإبل الشياطين مع أن هذا الأمر لم يكن في عهده ؛ كذلك أمكن له أن يصف تلك البيوت ، فالمقام مقام بيان .

القرينة الثالثة : قول النبي ﷺ عن بيوت الشياطين أنه لم يرها إشارة واضحة إلى أن هذه البيوت أمراً مغايراً لما يعهده في عصره من البيوت ، وهذا الوصف لا ينطبق وفق سياق الحديث إلا على السيارات ؛ لذا صعب وصفها للصحابة ؛ ولئن وصفها فسيصعب عليهم تصورها ؛ لذا ترك الأمر لزمانه الذي يتضح فيه تأويل المراد به .

📖 - عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ ! لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث يعتبر قرينة رابعة على أن المراد ببيوت الشياطين السيارات ، فالحديث صورة هي بنت عصرنا قلباً وقالباً ، وتعبيرات الحديث المجازية تعبر عنها بأصدق وصف وأجمله ، فالنبي ﷺ لم يذكر أنهم يركبون دواباً ؛ إنما يعتلون سروجاً ؛ أي تلك

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ٧١٠٢ [المسند (٢/٢٩٩)] قال الألباني : صحيح [السلسلة الصحيحة ، المجلد السادس ١ ، حديث رقم : ٢٦٨٣] وقال في موضع آخر : حديث حسن ، رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم [صحيح الترغيب والترهيب ، المجلد الثاني ، كتاب اللباس والزينة]

الرحال التي توضع على الدواب ، وهذا يتناسب مع وصف تلك الكراسي المريحة التي توضع في السيارات ؛ وكأن النبي يشير إلى أن ركوبتهم شيئاً مصنوعاً دون دابة يحمل عليها ؛ لذا عبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله «يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ»

وسياق الحديث يقرن بين أمرين وهما أن هؤلاء يركبون السروج ويتركونها على أبواب المساجد ، وأن نساءهم كاسيات عاريات مما يدل على التلازم بين ظهور السروج المركوبة والنساء الكاسيات العاريات ؛ أي أن هذا الوصف يمثل حقبة زمانية واحدة والنساء الكاسيات العاريات من علامات هذا العصر ؛ لذا ناسب أن يكون المراد بالسروج هنا وسائل النقل المعهودة في هذا العصر ، وهي السيارات .

□ العلامة الحادية عشرة : استخراج البترول

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ : فِي هَذَا قَتَلْتُ .وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ : فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي ، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ : فِـي هَذَا قُطِـعَتْ يَدِي.ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا. ﴾ (١)

شرح الغريب :

أفلاذ أكبادها : الفلذ هي القطعة من كبد البعير ، ويراد بالتشبيه هنا أن الأرض تخرج أغلى ما فيها من كنوز .

الأسطوان : الأسطوانة هي السارية والعمود ، وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته . (٢)

أقول :

قد يكون الحديث فيه إشارة إلى النفط ، يدل على ذلك وصف النبي ﷺ لطبيعة إخراجه من الأرض بقوله « **تقيء** » مما يشير إلى أن هذه الكنوز سائلة وليست صلبة . و « **أفلاذ كبدها** » إشارة إلى أن هذه الكنوز هي أهم ما في الأرض من خيرات في باطنها ،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٠١٣ [مسلم بشرح النووي (١١٦/٤)]

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (٢٠٨/١٣) ؛ النووي : شرح مسلم (٤/ ١٨)]

والمعلوم أن أهم كنوز الأرض وأكثرها تأثيراً في عجلة الاقتصاد العالمي هو البترول ، « كأمثال الأسطوان » وتصوير هذا الكنز بأنه أمثال الأسطوان لا يتناسب مع الذهب والفضة لأنها في حقيقتها لا تكون كذلك في باطن الأرض ، ولعل المراد به تلك الأعمدة التي توضع في باطن الأرض لاستخراج النفط من الأرض .

ومثل هذا الوصف ودقته لا ينطبق بصورة متكاملة إلا على البترول ، ومن نظر إلى دقة هذا التوصيف وجماله في التعبير عن ذلك يعلم أنه لا يمكن أن يصدر إلا عمن لا ينطق عن الهوى ، ولو أراد إنسان من أهل البلاغة في الماضي التعبير عن استخراج الكنز الأسود من الأرض ، فلن تطوع له اللغة بأوجز عبارة وأجملها ، وأوفاها في التعبير بما يتفق والعقلية القديمة وحدود فهمها ، و بما يتسع في الإفصاح لأهل تلك الإشارة وعصرهم ، كما طوعت لمن أوتي جوامع الكلم فصلاة الله وسلامه عليه .

◻ العلامة الثانية عشرة : انتقاض عرى الإسلام ◊

📖 — عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا ، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

العرى : جمع عروة و هي مقبض الشيء ، مدخل زر القميص ، ويراد بها أيضاً العهود الموثقة التي يعقدها الإنسان على نفسه على ألا يتحلل مما عقد عليه . و تطلق العروة أيضاً على ما بقي من الشجر في الصيف ، أو ما يبقى له أصل في الأرض مثل العرفج ولا يتأثر في القحط ؛ فإذا أمحل الناس عصمت العروة الماشية فتبلغت بها . (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار ، قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٨١/٧)]

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (٤٥/١٥وما بعدها)

شرح :

- يتضح من المعنى اللغوي لكلمة عروة أن المراد بعرى الإسلام تلك الأصول الهامة لدين الإسلام والتي بها تعرف معالمه ، وبها تؤتي الرسالة ثمرها في الأرض ، وبها يتحقق فلاح الأمة والأفراد في الدنيا والآخرة ، فهي مقابض النجاة للأمة وللأفراد على وجه السواء ، وكل مقبض من هذه المقابض إذا تحللت منه الأمة ترتب على ذلك نوع من الخلل الوظيفي لرسالة الإسلام من الناحية التطبيقية .
- يتضح من الحديث أن عرى الإسلام كثيرة ، و هي بمجموعها إذا تشبثت بها الأمة عصمت نفسها وأفلحت ، وقد ذكر الحديث أن هذه العرى تذهب من الأمة تدريجياً ، ومن العرى التي ذكرها الحديث الصلاة والحكم ، وهاتان العروتان تمثلان طرفي عرى الإسلام ، أما بقية العرى فتعرف من أحاديث أخرى منها ما ورد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أنه قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : ﴿ أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْسَطُ ؟ قَالُوا : الصَّلَاةُ . قَالَ : حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا . قَالُوا : الزَّكَاةُ . قَالَ : حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا . قَالُوا : صِيَامُ رَمَضَانَ قَالَ : حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ . قَالُوا : الْحَجُّ قَالَ : حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ . قَالُوا : الْجِهَادُ قَالَ : حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ . قَالَ : إِنَّ أَوْسَطَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ . ﴾ (١)

فهذه الحديث يشير إلى بعض عرى الإسلام كالزكاة والصيام والجهاد ، ويبرز أن أوثق هذه العرى وأوسطها وأعظمها أثراً الحب في الله والبغض في الله ، وهذه العروة تمثل قمة هرم العرى ، وأعظم موثق فيها ، والحديث يشير إلى أن هذه العروة ستذهب من الأمة ولعل تفاعل الفتن وتقلبات المحن وما يرافقها من علامات كعلامات الساعة المذكورة هنا كفيلة بنقض العروة الأهم من الأمة .

- يلحظ من الحديث أن أول عروة تنقض هي الحكم ، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ ؛ حيث أن أول نقص ظهر في الأمة كان في تحول الحكم من نظام الخلافة الراشدة إلى

(١) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٥٥١ [المسند (٣٥٠/٤)] ورجاله ثقات .

نظام الملك العضوض ، وكان لهذا التغير أثره الكبير على الأمة على وجه العموم ، وهذا التغير شهده من صحب رسول الله ﷺ ، ومن هذا الوجه يعتبر هذا الحديث من دلائل نبوة محمد ﷺ .

- يلحظ في الحديث أن آخر العرى انتقاضاً هو الصلاة ، والمعلوم أن الصلاة عمود الدين ؛ فإذا ذهبت من الأمة لم يبق للأمة وجوداً وللرسالة معنىً في الأرض ، فكما أن سقوط عمود الخيمة إعلام بسقوط الخيمة نفسها وذهاب معلمها الذي به تعرف على وجه الأرض ؛ فكذلك ذهاب الصلاة هو ذهاب للدين نفسه ، وتغييب للرسالة بأكملها .
- بقاء الصلاة في الناس كآخر عروة يتشبث بها الناس ليس معناه أن هذه الصلاة التي يؤديها الناس تكون على أكمل وجه (✿) ، بل الذي يبقى في الناس صورة الصلاة دون روحها إلا أن صورتها تعصم الناس وتبقي أثراً لها في مدى ارتباطهم بدين الله ، أما روح الصلاة فهي أول ما تفقده الأمة ، وقد ورد عن حذيفة ؓ أنه قال : « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، ولتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة ، وليصلين النساء وهن حيض ، ولتسلكن طريق من كان قبلك حذو القدة بالقذة ، وحذو النعل بالنعل لا تخطئون طريقهم ولا يخطأنكم حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة فتقول إحداهما : ما بال الصلوت الخمس لقد ضل من قبلنا ، إنما قال الله ﷻ : ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً

(✿) لو كانت الصلاة على أكمل وجه لكانت كفيلة لوحدها بلم شمل الأمة على العرى الأخرى ، ولما ضاعت بقية العرى منها ، لكن ما يتبقى للناس هو صورة الصلاة بينما روحها فهي تبهت تدريجياً من قلوب الناس ، وصورة الصلاة لا تتضمن من القوة المغيرة أو الحافظة لمعالم الرسالة وعرى الإسلام في الأمة ؛ ولعل هذه الأحاديث تشير إلى طبيعة الكيد الشيطاني للإنسان ؛ حيث إنه لا يطالبه بترك الصلاة بالكلية ابتداءً ، ولو وقع ذلك منه لانتبه المسلم لذلك ، وحصلت النفرة من الشيطان والانتباه لكيده ؛ لذا يعمد الشيطان إلى سلب روح الصلاة تدريجياً مبقياً المصلي غارقاً في أمنه وأمانيه ؛ فإذا طال عليه الأمد وتوغل في الدنيا والشهوات تصبح الصلاة نفسها عبئاً وحملاً ثقيلاً ؛ عندها يطالبه الشيطان بتخفيف تلك الأحمال عن ظهره ، ويكون المصلي عند ذلك أدعى لقبول ترك الصلاة ؛ وهذا الكيد الشيطاني يفسر لنا لماذا تفقد الأمة أولاً الخشوع ، أما آخر ما تفقده فهو الصلاة نفسها .

من الليل . ﴾ [هود ١١٤] لا تصلوا إلا ثلاثاً ، وتقول الأخرى : إيمان المؤمنين بالله كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق ، حق على الله أن يحشرهما مع الدجال . » (١)

فهذا الأثر يبرز لنا عدة أمور منها : إن الخشوع وهو روح الصلاة وعنوان الفلاح بها هو أول ما تفقده الأمة ، وإن من أشكال تضييع الصلاة أن تصلي النساء وهن حيض ، و لعل الأثر يشير إلى التأويل الذي به يبدأ نقض الصلاة من أصلها ؛ حيث تصلي إحدى الفرق بتأويل فاسد ثلاث صلوات ، وفرقة أخرى ترى أن مجرد الإيمان بالله دون عمل كفيل بإدخالهم الجنة مما يوحي بأن هذه الفرقة تترك الصلاة بالكلية .

- عن عَبْدَ اللَّه بْنَ مَسْعُود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّهُ سَتَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا وَيَخْنُقُونَهَا إِلَى شَرَقِ الْمَوْتَى فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِمِيقَاتِهَا وَاجْعَلُوا صَلَاتَكُمْ مَعَهُمْ سُبْحَةً . ﴾ (٢)

وفي رواية أبي ذر ، قال رسول الله ﷺ : إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا فَإِنْ صَلَّيْتَ لِوَقْتِهَا كَانَتْ لَكَ نَافِلَةً وَإِلَّا كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ . ﴾ (٣)

أقول :

هذان الحديثان يبرزان بعض أشكال تضييع الصلاة ، وهو ما يقع من بعض الأمراء من تأخير الصلاة عن وقتها ، فالصلاة تؤدى لكن في آخر وقتها أو بعد خروج الوقت ، وهذه الظاهرة رآها ابن مسعود ﷺ وساق الحديث بعد أن عايشها ، والحديث

---

(١) أخرجه الحاكم موقوفاً على حذيفة ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٥١٦/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة برقم ٥٤٣ [مسلم بشرح النووي (١٥/٣)]

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة برقم ٦٤٨ [مسلم بشرح النووي (١٤٣/٣)]

يبين هدي النبي ﷺ والفقه الاستثنائي مع هذه الظاهرة ، وقد ذكر الإمام النووي عدة فوائد فقهية لهذين الحديثين منها : « وفي هذا الحديث : الحث على الصلاة أول الوقت . وفيه : أن الإمام إذا أخرها عن أول وقتها يستحب للمأموم أن يصليها في أول الوقت منفردا ، ثم يصليها مع الإمام فيجمع فضيلتي أول الوقت والجماعة ، فلو أراد الاقتصار على إحداهما فهل الأفضل الاقتصار على فعلها منفردا في أول الوقت أم الاقتصار على فعلها جماعة في آخر الوقت ؟ فيه خلاف مشهور لأصحابنا ، واختلفوا في الراجح وقد وضحته في باب التيمم من شرح المهذب ، والمختار استحباب الانتظار إن لم يفحش التأخير . وفيه : الحث على موافقة الأمراء في غير معصية لئلا تتفرق الكلمة وتقع الفتنة ، ولهذا قال في الرواية الأخرى : (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا مجدع الأطراف) وفيه : أن الصلاة التي يصليها مرتين تكون الأولى فريضة والثانية نفلا . وهذا الحديث صريح في ذلك » (١)

﴿ العلامة الثالثة عشرة : الاعتداء في الطهور الدعاء ﴾

📖 – عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ ﷺ أنه سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا فَقَالَ أَيْ بُنَيَّ سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ . ﴾ (٢)

شرح :

- يلحظ من مناسبة ورود الحديث من الصحابي أنه رأى ابنه يطلب القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلها ، فقال محذراً لابنه بأن هذا تجاوز للحد في الدعاء وسوء أدب مع

(١) النووي : شرح مسلم (٣/١٤٥)

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة برقم ٩٦ [عون المعبود (١/١٦٩)] ؛ وابن ماجة في الدعاء برقم ٣٨٦٤ [السنن (٢/١٢٧١)] ؛ وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٧٦٣ ، وقال محققه إسناده صحيح على شرط مسلم [صحيح ابن حبان (١٥/١٦٦)]

الله سبحانه وتعالى ، وهذه صفة لا تليق بمسلم ، وإنه سيأتي أقوام أخبر عنهم النبي ﷺ بأهم يتجاوزون في دعائهم ، فيسيئون الأدب مع الله إما في طبيعة طلبهم ، أو في طريقة الطلب ، ووجه إنكار الصحابي على ابنه قد يكون لأنه طلب منازل الأنبياء أو طمع بما لا يبلغه عمله ، أو لأنه سأل شيئاً معيناً في الجنة بطريقة موحية أنه تجاوز فيها حد الأدب مع الله سبحانه وتعالى .

- من أشكال الاعتداء في الدعاء التكلف فيه بسجع ونحوه أو تحويله إلى ترنيمة أقرب للغناء منها للطلب والتضرع لله ، ومنها أيضا الدعاء الآثم المتضمن طلب فيه ظلم للعباد ، أو قطيعة رحم .. إلخ ، وهذه الأشكال من الاعتداء في الدعاء أصبحت سمة عصرنا وكأننا من أهل هذا الحديث ، فكلمات : الله يغضب عليك – الله يقصف عمرك – الله يفضحك – الله يأخذك ، وغيرها من الأشكال أصبحت كلمات يتفكه بها الكثيرون ، بل هناك من الأدعية التي يتلفظها البعض من باب المزاح أو التفكه والتسلية مع الغير ، وهناك من الأدعية التي تدخل عند البعض في باب النكات والتسالي .. ولا يعلم هؤلاء أهم بكلماتهم يخاطبون عظيم السماوات والأرض ، والأصل أن يحسنوا الأدب بين يديه .
- الأمر الثاني الذي يتجاوز الناس فيه الحد هو الطهور سواء كان وضوءً أو غسلاً ، ووجه الاعتداء فيهما إنما يكون بالإسراف في الماء أو المبالغة في الغسل إلى حد الوسواس ، أو تجاوز الحد المسنون كمن يزيد على الثلاث غسلات .. إلخ .

﴿ العلامة الرابعة عشر : أشراط قاتلة ﴾

– عن عَبْس الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ بَادِرُوا بِالْمَوْتِ سِتًّا إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ وَكَثْرَةَ الشُّرْطِ وَبَيْعَ الْحُكْمِ وَاسْتِخْفَافًا بِالدَّمِ وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ وَنَشْئًا يَتَّخِذُونَ

الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَهُ يُغَنِّيهِمْ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ فِقْهًا . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث تضمن ستة من العظائم التي إن أصابت الأمة ، أصبح باطن الأرض أفضل من ظاهرها لأهل الله سبحانه وتعالى ، لأنها تتضمن اختلالاً لا تستقيم معه الحياة ، ولا يرغب مؤمن بها ، وهذا المراد في قوله ﷺ بادروا بالموت ؛ لأن الموت لا يملكه الإنسان ، و لا يراد أن يعجل الإنسان منيته بإرادته بما يعرف بالانتحار ؛ لأن ذلك منهي عنه أشد نهي .

إنما مراد النبي ﷺ المبالغة في بيان خطورة هذه الأمور الستة على حياة المسلم ؛ لدرجة أنه إن عاجله قدره قبل رؤيتها ، فيكون قد قُدم لخير ، وصرف عن شر عظيم كاد أن يلابسه .

أو يكون المراد به بيان جواز تمني الموت حال الفتن ، والتي منها هذه الأمور الستة التي لا تستقيم حياة معها .

وبعض هذه العظائم والعلامات قد تم بيان المراد بها في موضعه ، وأذكر هنا :

١- إمرة السفهاء :

المقصود بإمرة السفهاء أن يتولى أصحاب الطيش وخفة العقول الحكم ومقاليد أمور الأمة ، وهذا قد فصلت القول في ذلك عند حديثي عن إمارة الصبيان وهيمنة الأشرار و وارتفاع التحوت على الوعول ، وإسناد الأمر إلى غير أهله ، فليرجع إليه في مظانه ، وهذه العلامة قد ابتليت بها الأمة منذ إمارة يزيد بن معاوية التي ارتكب فظائع كثيرة منها وقعة الحرة وقتل سبط رسول الله ﷺ ، وإيذاء أهل بيته ، ويكون بذلك قد سن تلك السنة السيئة من إمرة السفهاء إلى يومنا هذا .

---

(١) أخرجه أحمد برقم ١٦٠٤٦[المسند (٦٠٠/٣)] ؛ والحاكم برقم ٥٨٧١ [المستدرك (٥٠١/٢)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط والكبير بنحوه .. وأحد إسنادي الكبير رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٤٥/٥)] وذكره الألباني في الصحيحة

٢- **كثرة الشرط** : المراد بالشرط هنا أعوان السلطان من الشرطة ونحوها ، وكثرتها إشارة إلى أهم ما يستند إليه الحاكم في تسيير تغلبه على الأمة ؛ وهذه العلامة لا تتواجد إلا إذا كان السلطان من الظلمة ؛ فهم مجن السلطان ودرعه وعينه على الرعية ، وكلما زاد ظلمه زادت حاجته إلى تكثير الشرطة حوله ، بل إلى تكثير تخصصاتها وأجهزتها الأمنية ؛ وهذه العلامة مما ابتليت به أيضاً الأمة ؛ وقد يكون من أسباب كثرة الشرط فساد الناس وكثرة مشاربهم وفرقهم واختلاف نفوسهم ، فهذه الأسباب كلها داعية إلى زيادة الشرط لتحقيق الأمن ، ويكون منطق تلك المرحلة أخذ الناس بحق القوة لا بقوة الحق .

٣- **بيع الحكم** :

بيع الحكم له عدة دلالات منها فساد القضاة ، وقبولهم الرشوة في أحكامهم لتتفق وأهواء الراشين ، ومنها أيضاً بيع المناصب ونيلها أيضاً بالرشوة لا بالكفاءة ، ومنها أيضاً في ظل هذه التصورات المعاصرة ما يعرف بشراء الأصوات والذمم في الانتخابات ، وكل هذه الاحتمالات واقعة في الأمة .

٤- **الاستخفاف بالدم** :

يراد بالاستخفاف بالدم استهانة المسلم بدم أخيه المسلم ، وهذا حصل في الماضي وما يزال بازدياد ، بل هناك عوامل كثيرة تساعد على ذلك في عصرنا منها الانسعار الدنيوي ، والجهل الديني بخطورة جريمة القتل ، والفرقة المعززة للبغضاء والشحناء ، والتأويل الفاسد الذي تستباح به الدماء ، والثقافة الدخيلة في الإعلام ، والتي يظهر فيها مشاهد العنف يرافقها تعظيم مرتكبيه ، وسهولة نجاتهم من المحاسبة ، ونعتهم بالبطولة .

٥- **قطيعة الرحم** :

وهذه العلامة قد سبق تفصيل المراد بها .

٦- **نشئاً يتخذون القرآن مزامير** .

وهذه العلامة تشير إلى السطحية التي تبتلى بها الأمة أو بعض منها ؛ حيث يتحول كتاب الله سبحانه وتعالى إلى ترانيم يتغنى به دون الانتباه إلى معانية ودلالاته ، ويقدم

الأجمل صوتاً على الأغزر علما وفقهاً ؛ لأن المقام يصبح مقام تغني لا مقام تدبر ، وهذا لا يعني عدم أهمية تحسين الصوت بالقرآن ، لكن المراد بهذه العلامة الإشارة إلى تغير القلوب وطريقة تعاملها مع القرآن ، فالقرآن أصبح ترنيمات جميلة يتمتع بها صاحبها فقط ، وهذا من مظاهر علامة رفع الأمانة من الناس حتى لا يبقى إلا أثرها .

وهذه العلامة لها علاقة بعلامة أخرى تبرز اهتمام الأمة بشكل القرآن دون جوهره ، وتطلب به الدنيا دون الآخرة فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَفِينَا الْأَعْرَابِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَقَالَ : ﴿ اقْرَءُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ وَسَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَامُ الْقِدْحُ يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ . ﴾ (١)

فهذا الحديث يشير إلى فئات من الناس تهتم بالقرآن من ناحية الأحكام والمخارج فقط (✿) ، وتبرع في ذلك وتجعله جل همها ، وقصدها من ذلك ليس وجه الله ، بل نيل الأعطيات والهبات من الناس أو غير ذلك من حطام الدنيا ، أي يصبح القرآن مطية لنيل المآرب الدنيوية عند هؤلاء ، ونلحظ أن هذه العلامة لها علاقة بقول النبي ﷺ :« أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ الْقَوْلُ وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ » . (٢)

لطيفة :

جاء في مناسبة إيراد الصحابي لهذا الحديث أن الناس كانوا يخوضون في الطاعون فقام عبس الغفاري بدعوة الله أن يميته بالطاعون ثلاثاً ، فأنكر من حوله عليه هذا الطلب المخالف لهدي النبي ﷺ في ذمه أن يتمنى الإنسان الموت ، فقام عبس ﷺ بذكر الحديث مبيناً أن هناك حالات استثنائية سمعتها من رسول الله ﷺ تدل على إباحة تمني الموت عند

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ؛ وأحمد في باقي مسند المكثرين من طريق أنس ، برقم ١٢٤٩٢ ، ١٢٥٨٨ [المسند (١٩٠/٣، ١٨٠)]

(✿) لا يعني كلامي عدم أهمية الأحكام بل هي واجبة في حق كتاب الله سبحانه وتعالى ، لكن لوحدها لا تكفي لأن العبرة في القرآن هو تدبره والعمل به لا تلاوته فقط مهما بلغت درجة هذه التلاوة من الإتقان ، بل تلاوة القرآن دون تدبره والعمل به حجة على صاحبه لا حجه له .

(٢) سبق تخريجه

وقوعها ، فذكر الحديث . وهذا الموقف يشير إلى أن إرهاصات وقوع هذه العلامات القاتلة قد شعر بها الصحابة في آخر عهدهم . (١)

﴿ العلامة الخامسة عشرة:تسلط أعوان السلاطين على الناس ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا . ﴾ (٢)

يقول النووي : « هذا الحديث من معجزات النبوة ، فقد وقع هذان الصنفان ، وهما موجودان . وفيه ذم هذين الصنفين » (٣)

- عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَرَى قَوْمًا فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ يَغْدُونَ فِي غَضَبِ اللَّهِ وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللَّهِ .﴾ (٤)

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قد رأينا من كل شيء قاله لنا رسول الله ﷺ غير أنه قال : ﴿ يقال لرجال يوم القيامة اطرحوا سياطكم وادخلوا جهنم .﴾ (٥)

شرح :

هذه العلامة فيها إشارة صريحة إلى ذم أعوان السلاطين من شرطة ونحوها ممن يتسلطون على الناس يضربونهم بالسياط ونحوها ، وفي الأحاديث إشارة صريحة إلى أنهم

---

(١) انظر مسند أحمد ، حديث رقم ١٦٠٤٦ (٣/٦٠٠)

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة برقم ٢١٢٨ [مسلم بشرح النووي (٧/٣٢٦)]

(٣) النووي : شرح مسلم (٧/٣٢٦)

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة برقم ٢٨٥٧ [مسلم بشرح النووي (٩/١٨٠)

(٥) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٥٧٧،وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه [المستدرك (٤/٥٦٢)]

بفعلهم هذا من أهل النار ، بل جاءت صيغة الذم بما يشير إلى أنهم يأتون يوم القيامة يحملون سياطهم بأيديهم ، ودلالة السياق تشير إلى أنهم لا يؤذن لهم لفصل الخطاب بل يؤمر بهم للنار مباشرة ، وذلك لشناعة فعلتهم ، وكذلك في الآثار السابقة إشارة إلى أن هذه العلامة لم يرها أبو هريرة في عهده ؛ أي إلى قرابة سنة ٦٠ هـ ، وهذا صحيح لأن هذه العلامة ظهرت بعد الستين في العهد الأموي إلا أنها أخذت شكلاً واضحاً في العصر العباسي وما بعده إلى يومنا هذا .

﴿ العلامة السادسة عشرة :شدة البلاء وحصول اليأس ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ . ﴾ (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى شدة البلاء وكثرة المصائب التي تقع على الناس مع خفة دينهم ؛ لذا يتمنون الموت ، ويغبطون أهل القبور مع عظمة مصاب أهل القبور وخطورة فتنتهم في قبورهم، يقول ابن حجر:« يقع البلاء والشدة حتى يكون الموت الذي هو أعظم المصائب أهون على المرء فيتمنى أهون المصيبتين في اعتقاده.» (٢)
- واضح من سياق الحديث أن تمنى الموت ليس لأمر أصابه من جهة الدين ؛ بحيث خاف الفتنة أو نحوها ؛ بل هذا التمني لشدة تنزل بالناس تؤثر على معاشهم ، وهذه الدلالة صريحة في قوله « وليس به الدين إنما به البلاء » فهذه العبارة سيقت هنا للذم والإنكار ؛ أي لو كان هذا التمني بسبب الدين لكان محموداً ، ويؤيده ثبوت تمني

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١١٥ [البخاري مع الفتح (٨٠/١٣) ؛ مسلم في الفتن برقم ١٥٧ ، واللفظ له [مسلم بشرح النووي (٢٣١/٩)]

(٢) فتح الباري (٨١/١٣)

الموت عند فساد أمر الدين عند جماعة من السلف .

- الحديث يشير إلى قوة البلاء الذي سيصيب الناس في أمور دنياهم بسبب الفتن والملاحم ونحوها ، ويدل على قوة البلاء قوة التمني في ظرف لا يتمنى فيه الإنسان الموت ، وهو عند مشاهدته للقبور ، فقد يتمنى الإنسان الموت لشدة ألمت به ، لكنه إذا شاهد القبور ، وتذكر شدة النزع وأهوال أهل القبور فقد يصرف هذا التمني من نفسه أو يضعف ، والناظر إلى سياق الحديث هنا يجد خلاف ذلك ؛ حيث يشير إلى تمني مصحوب بالشوق ؛ فالرجل يتمرغ على القبر شوقاً للموت وغبطة لأهله ، مما يشير صراحة إلى أن البلاء الذي يحل به أعظم في نفسه مما يتصوره من أهوال يعايشها أهل القبور .

- هذه العلامة بهذا الوجه قد لا نكون عايناها في زماننا ، وإن كانت إرهاصاتها بادية للعيان .

- أورد ابن حجر أثراً من رواية عبد الله بن الصامت ﷺ عن أبي ذر ﷺ قال : « **يوشك أن تمر الجنازة في السوق على الجماعة فيراها الرجل فيهز رأسه فيقول : يا ليتني مكان هذا ، قلت : يا أبا ذر إن ذلك لمن أمر عظيم ، قال : أجل** » (١) ، وهذا الأثر يشير إلى أن هناك أموراً عظيمة وفتن مخيفة تلجئ الناس لمثل هذا التمني .

﴿ العلامة السابعة عشر : تغير الزمان وتحوله للأسوأ ﴾

📖 – عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ : أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِك فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنْ الْحَجَّاجِ فَقَالَ : ﴿ **اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ** سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ . ﴾ (٢)

– يتضح من الأثر السابق أن سبب إيراد الصحابي لهذا الحديث هو شكوى الناس له مما

---

(١) فتح الباري (٨١/١٣)

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٦٨ [البخاري مع الفتح (٢٢/١٣)]

يلقونه من الحجاج بن يوسف الثقفي ، فأخبرهم بأن هذا الذي يلقونه ليس حالة عارضة ، بل سيزداد الأمر في الشدة حتى يلقوا ربهم إما بالموت أو بقيام الساعة ، وهذا الذي ذكره أنس كان يعلمه غيره من الصحابة ؛ حيث يعرفون أنه بموت الرسول ﷺ قد بدأ يدخل النقصان في الدين إلا أنه في عهد الخلفاء الراشدين خاصة أول خليفتين كان الدين - وما يترتب عليه من ثمرات - قد حافظ على استقراره نسبياً ، ثم بدأ يتضح النقص الذي ترتب عليه أن يكون ما يأتي شر مما مضى وأسوأ حتى ابتلي الناس بالحجاج ، يقول الشعبي :« كان عمر فمن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته ، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط ، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية ، فلما كان بشر بن مروان سمر كف الجاني بمسمار ، فلما قدم الحجاج قال : هذا كله لعب ، فقتل بالسيف. » (١)

فالملاحظ من الأثر السابق مدى التدرج في التشديد على الناس ، إلى أن وصل الأمر لقتلهم في عهد الحجاج ، والشدة المقصودة في الحديث لا يراد بها الشدة من الحكام فقط ، بل الأمر يتعداه إلى كل أنواع الشرور ؛ خاصة ما يتعلق بالدين وذهابه بين الناس ، بحيث يكون الماضي أقل في الشر نسبياً من الحاضر ، والمستقبل أكثر شراً من الحاضر ، وهذا المعنى أشار إليه ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال لامرأته سائلاً لها : « اليوم خير أم أمس ؟ فقالت : لا أدري . فقال : لكني أدري . أمس خير من اليوم ، واليوم خير من غد وكذلك حتى تقوم الساعة . » (٢)

وأورد ابن حجر بعض الآثار عن ابن مسعود تبين المراد من هذه الشرور فقال : « أخرج يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد بن وهب قال " سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة ، لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا مالا يفيده

(١) فتح الباري (٢٣/١٣)

(٢) ذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٨٦/٧)] وقال عنه ابن حجر : أخرجه الطبراني بسند صحيح [فتح الباري (٢٣/١٣)]

ولكن لا يأتي عليكم يوم وإلا وهو أقل علما من اليوم الذي مضى قبله ، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون " ومن طريق أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود إلى قوله " شر منه " قال " فأصابتنا سنة خصب فقال ليس ذلك أعني إنما أعني ذهاب العلماء " ومن طريق الشعبي عن مسروق عنه قال " لا يأتي عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله أما إني لا أعني أميرا خيرا من أمير ولا عاما خيرا من عام ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفا ، ويجيء قوم يفتون برأيهم " وفي لفظ عنه من هذا الوجه " وما ذاك بكثرة الأمطار وقلتها ولكن بذهاب العلماء ، ثم يحدث قوم يفتون في الأمور برأيهم فيثلمون الإسلام ويهدمونه . » (١)

فهذه الآثار توضح المراد بهذه الشرور ، وهو ضعف الدين وذهاب علمائه ، وما يترتب على ذلك من تضييع لمعالمه بسبب الجهلة والظلمة والفسقة ، وما ينتج عن ذلك من شرور على المستوى الاجتماعي والسياسي .

- هذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة ؛ حيث أخبر النبي بتدرج الفساد نحو الأسوأ إلى قيام الساعة ، وهذا أمر ملحوظ ، وقد يشكل على البعض فيقول إن عهد عمر بن عبد العزيز أفضل من عهد الحجاج ، وعهد المهدي وعيسى عليه السلام أفضل مما دونه ، ويرد على ذلك بأن الحديث أشار إلى الأكثر الأغلب ، وهذا ملاحظ ، وقد سئل الحسن البصري عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج فقال :« لا بد للناس من تنفيس » . (٢)

إذا هذا التنفيس الذي يقع عبر الأزمنة بالمجددين لا يتنافى مع كون الأزمنة اللاحقة في الأغلب أسوأ من الأزمنة السابقة ، ويشهد لذلك حديث النبي ﷺ عن خير القرون ، و القرون الثلاثة الأولى على وجه الخصوص ، ويمكن القول أنه كلما بعدت الأمة عن زمن البعثة كلما كان الحال في حقها أسوأ ، ولا ينخرم هذا الحال إلا في بعض وجوه التنفيس

---

(١) فتح الباري (٢٣/١٣)

(٢) فتح الباري (٢٣/١٣)

على يد المجددين ؛ إلا أن المجدد مهما بلغ من نوره وعطائه ، فلن يبلغ درجة النور المحمدي ، فمثل محمد ﷺ ومثل المجددين من أمته كمثل القمر مع سائر الكواكب .

أما بخصوص عهد المهدي وعيسى عليه السلام ، فيحتمل أن المراد بالأزمنة في الحديث ما يكون قبل العلامات العظام ، ويكون المراد بالأزمنة المتزايدة في الشر من زمن الحجاج فما بعده إلى زمن الدجال ، وأما زمن عيسى عليه السلام فله حكم مستأنف والله أعلم .

- واقعنا المعاصر يشهد لمصداقية الحديث ، ولسان حال الكثيرين يشير إلى ذلك ، ودلائل أحوالهم تتناقل هذا الشعور الذي من خلاله يترحمون على الماضي ، ويشعرون بسوء حال الحاضر ، ويتخوفون الأكثر من المستقبل .

﴿ العلامة الثامنة عشرة: غلبة الظلم والفجور على الأرض ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُخَيَّرُ فِيهِ الرَّجُلُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْفُجُورِ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَخْتَرْ الْعَجْزَ عَلَى الْفُجُورِ . ﴾ (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى غلبة الظلم والفجور في الأرض في جميع مناحي الحياة ، ويترتب على ذلك ضيق الخيارات المتاحة للمسلم ، والحديث يشير إلى أن هناك خيارين : إما الفجور بتعاطي أسبابه ، والتفاعل مع أهله ، وإما العجز ، وفي ظل هذين الخيارين يجب في حق المسلم اختيار أهون الشرين وهو العجز .

﴿ العلامة التاسعة عشرة: أيام الصبر ﴾

- عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ ؟ قُلْتُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٧٦٨٦ ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى عن شيخ عن أبي هريرة ، و بقية رجاله ثقات [مجمع الزوائد (٢٨٧/٧)]

مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ . » (١)

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ . » (٢)

شرح :

- هذه الأحاديث تشير صراحة إلى تغير الزمان وفساد أهله و كثرة الفتن المهلكة ، و صنوف البلاء والمحن التي يبتلى بها أهل الله في آخر الزمان ، بحيث لا يثبت على الدين وتعاليمه الحقة إلا من رزق صبراً عظيماً ، فكما لا يصبر الإنسان على قبض الجمر بيديه ، فكذلك يصعب التمسك في الدين ذلك الزمان .
- هذه الأحاديث تحتمل في حق المؤمن معنيين : إحداهما شدة البلاء وكثرة الفسق مع ضعف الإيمان المعين على الصبر ، وهذا المعنى أشار إليه الطيبي بقوله : « المعنى كما لا يقدر القابض على الجمر أن يصبر لإحراق يده ، كذلك المتدين يومئذ لا يقدر على ثباته على دينه لغلبة العصاة والمعاصي وانتشار الفسق وضعف

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣١٩ [عون المعبود (٤٩٣/١١)] ؛ والترمذي في تفسير القرآن برقم ٥٠٥١، وقال : هذا حديث حسن غريب [تحفة الأحوذي (٤٢٣/٨)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠١٤ [السنن (١٣٣٠/٢)] وابن حبان برقم ٣٨٥ [صحيح ابن حبان (١٠٨/٢) ؛ والحاكم برقم ٧٩١٢ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه [المستدرك (٣٥٨/٤)]

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٦١ ، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه ، و عمر بن شاكر روى عنه غير واحد من أهل العلم [تحفة الأحوذي (٥٣٩/٦)] والحديث يشهد لمتنه حديث أبي ثعلبة السابق ، وحديث أنس في العلامة التالية .

الإيمان » . (١)

والمعنى الثاني : شدة البلاء الذي لا يتصور حفظ الإيمان معه إلا بصبر عظيم ، أي يلحق المؤمن المشقة بالصبر في تلك الأيام كمشقة الصابر على قبض الجمر بيده ، وهذا المعنى أشار له العلامة القاري بقوله : « الظاهر أن معنى الحديث كما لا يمكن القبض على الجمرة إلا بصبر شديد وتحمل غلبة المشقة كذلك في ذلك الزمان لا يتصور حفظ دينه ونور إيمانه إلا بصبر عظيم » (٢)

- يتضح من حديث أبي ثعلبة أن أيام الصبر تلك لها أهلها من المؤمنين الصادقين الصابرين ، وهم الطائفة المنصورة التي تعيش في الغربة الثانية لدين الله ، وتجتهد لدين الله سبحانه وتعالى حتى يتم لهم وعد الله سبحانه وتعالى : وهؤلاء ينالون أجراً عظيماً من الله سبحانه وتعالى على ثباتهم على دينه ؛ لدرجة يفضل أجرهم في أيام الصبر على أجر خمسين من الصحابة رضي الله عنهم ، وجاء تعليل ذلك في آثار أخرى بأن الصحابة يجدون على الحق أعواناً ، وهؤلاء لا يجدون على الحق أعواناً ، والعون المقصود هو كون الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ، والوحي يتنزل بينهم ، وهذا العون العظيم الذي اختص به الصحابة أشار إليه النبي ﷺ بقوله : ﴿ طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي ، ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي .﴾ (٣)

- هذا الأجر الذي يفضل على أجر الصحابة لا يتنافى مع كون الصحابة أفضل البشر ، وقرنهم خير القرون ، وتوجيهه أن أفضلية هؤلاء في الأجر على الصحابة من هذه الحيثية فقط ، والفضل الجزئي لا ينافي الفضل الكلي ، يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « ليس هذا - أي الأجر والأفضلية – على إطلاقه بل هو مبني على قاعدتين : الأولى: أن الأعمال تشرف بثمراتها ، والثانية : أن الغريب في آخر الإسلام كالغريب في أوله وبالعكس ، لقوله عليه السلام : " بدأ الإسلام

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/٥٣٩)
(٢) تحفة الأحوذي (٦/٥٣٩)
(٣) أخرجه أحمد برقم ١١٦٧٩ [المسند (٣/٨٧)]

غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي " ، يريد المنفردين عن أهل زمانهم.» (١)

﴿ العلامة العشرون : تشوف الناس لرؤية النبي ﷺ ﴾

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال : ﴿ .. وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ زَمَانٌ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَهْلِهِ وَمَالِهِ ﴾ (٢)

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال : ﴿ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلَا يَرَانِي ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ . ﴾ (٣)

شرح :

- هذه الحديث دلائله الظاهرة أنه يراد به الصحابة ، لتشجيعهم على لزوم مجالس النبي ﷺ ، والاستفادة من تلك اللحظات الثمينة التي يعايشون فيها خير البرية وخير البشر ، يقول النووي رحمه الله : « ومقصود الحديث حثهم على ملازمة مجلسه الكريم ومشاهدته حضرا وسفرا للتأدب بآدابه ، وتعلم الشرائع وحفظها ليبلغوها ، وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرطوا فيه من الزيادة من مشاهدته وملازمته. » (٤)

- كذلك يحتمل الحديث أن يكون المراد به كامل أمته ، وأن رؤية النبي ﷺ في المنام أو التشوف لرؤيته تكون أغلى على قلب المؤمن عند قلة النصير والمعين من زينة الحياة الدنيا (الأهل والمال) ، والمعلوم أنه كلما اشتدت المحن وابتعدت الأمة عن عهد النبوة كلما ازداد شوقها لرؤية النبي ﷺ في المنام ، فرؤيته بشارة خير ، وتثبيت

---

(١) تحفة الأحوذي (٤٢٦/٨)

(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٥٨٩ [البخاري مع الفتح (٦٩٩/٦)]

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٦٤ [مسلم بشرح النووي (١١٧/٨)] ، وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٧٦٥ [صحيح ابن حبان (١٦٨/١٥)]

(٤) النووي : شرح صحيح مسلم (١١٨/٨)

للمؤمن ، وشحذ لهمته ، ولعل أهم دلالة تحملها رؤيا النبي ﷺ هي طمأنة من يراه أنه من أهل الخير ، فالطاهر لا يطرق في المنام إلا القلوب الطاهرة ، ولعل الشوق لرؤية النبي ﷺ يزداد عند من ينال حظ رؤيته قبلاً في منامه ، فيهيج شوقه أكثر لرؤية ثانية ، وهذا الشوق يغلب على قلبه أكثر من باقي المحبوبات كالأهل والمال .

يقول ابن حجر : « فإن كل أحد من الصحابة بعد موته ﷺ كان يود لو كان رآه ، وفقد مثل أهله وماله ، وإنما قلت ذلك لأن كل أحد ممن بعدهم إلى زماننا هذا يتمنى مثل ذلك فكيف بهم مع عظيم منزلته عندهم ومحبتهم فيه » (١)

والمعلوم أنه بانخرام عهد النبوة لم يبق للمؤمن إلا المبشرات ، وهي الرؤية الصالحة التي يراها المؤمن ، أو تُرى له ، وأهم هذه الرؤى هي رؤية صاحب الرسالة نفسه ؛ لأن الشيطان لا يتمثل بصورته الحقيقية . اللهم متعنا برؤية الحبيب محمد ﷺ .

---

(١) فتح الباري (٧٠٢/٦)

الفصل الرابع : العلامات الصغرى التي لم تقع

ويتضمن مبحثين

المبحث الأول : علامات متفرقة

المبحث الثاني : عندما يتكلم الشجر والحجر

هناك كثير من العلامات الصغرى التي لم تقع حقيقة ، أو اختُلف في حقيقة إسقاطها على وقائع حصلت في الماضي ، أو في الحاضر ، ولكي يتم طرق موضوع العلامات بجميع احتمالاتها آثرت أن أخصص هذا الفصل لبيان هذا الجانب من العلامات ، أما القول بأن جميع العلامات الصغرى قد وقعت فهذا ليس بصحيح ؛ بل هناك عدة علامات صغرى لم تقع قطعاً كما سأبين .

كذلك القول بأنه يشترط حصول العلامات الصغرى كاملة كي تبدأ الكبرى في الوقوع أيضاً ليس عليه دليل يُرتجى ، بل هناك كثير من العلامات الصغرى تكون متداخلة مع الكبرى وملازمة لها إلى قيام الساعة ، كذلك هناك كثير من العلامات الصغرى ستقع بعد الدجال ويأجوج ومأجوج كرفع القرآن وتخريب الكعبة وانتشار الزنا بشكل فاحش ، وترك كافة العبادات وعودة الوثنية القديمة .

و العلامات الصغرى التي لم تقع يمكن تقسيمها إلى قسمين :

القسم الأول : علامات صغرى غير معلوم المراد بزمان وقوعها ، وهذه العلامات هي التي سأتناولها في هذا الفصل ، ولن أستوعبها كاملة فيه لأنني سأترك بعضها عند حديثي عن الحدث الكوني لاعتباري أن ذكرها هناك أكثر مناسبة ، وأقرب للعقول في تصور المراد بها ، وإنما سيقتصر حديثي هنا على بعض العلامات التي لم أجد لها حقبة زمانية منتمية إليها يطمئن لها قلبي ، ويستبين من خلالها المراد بها . (✿)

القسم الثاني : علامات صغرى معلوم المراد بزمن وقوعها ، وهي العلامات التي جاء التصريح بأنها بين يدي الساعة والدالة على قرب فناء العالم ، والمتعلقة بإشارات تدل على فساد دين الناس بالكلية ، وهذه العلامات سأذكرها في موضعها في الباب الثاني بعد حديثي عن يأجوج ومأجوج .

(✿) سأحاول جاهداً في حدود ما تحتمله النصوص أن أبين تصوراتي لطبيعة الحقبة الزمنية التي تنتمي لها هذه العلامات ؛ إلا أن هذه الاجتهادات هي عبارة عن احتمالات قد تصيب ، وقد تخطئ

ملاحظة :

بعض ما سأذكره في الباب يراه بعض العلماء قديماً وحديثاً أنه قد وقع ؛ إلا أن تصورهم هذا ليس قطعياً بل تتطرق له الاحتمالات ؛ لذا أذكر هذه العلامات هنا مع البيان المراد بها بجميع احتمالاتها .

المبحث الأول
علامـــــات متفـــــرقة

وهذا المبحث يتضمن تسع علامات ، وهي على النحو التالي :

﴿ العلامة الأولى : حصار بعض البلدان الإسلامية ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ ﴾ (١)

شرح الغريب :

القفيز : مكيال معروف لأهل العراق ، وهو اثنا عشر صاعاً .

المُدي : مكيال أهل الشام وهو يسع قرابة الاثنين وعشرين صاعاً .

الإردب : مكيال أهل مصر ، وهو يسع أربعة وعشرين صاعاً .

عدتم من حيث بدأتم : فيه إشارة عجيبة إلى أن الأمة إذا وصلت لتلك المرحلة فإنها عادت من حيث بدأت وعادت للإسلام غربته الأولى التي تتطلب دعوة للتوحيد ثم جهاد لتحرير البلاد والعباد من جديد كما حصل مع الرعيل الأول .

- عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلَا دِرْهَمٌ قُلْنَا : مِنْ أَيْنَ ذَاكَ ؟ قَالَ : **مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ** يَمْنَعُونَ ذَاكَ . ثُمَّ قَالَ : يُوشِكُ أَهْلُ الشَّأْمِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ دِينَارٌ وَلَا مُدْيٌ . قُلْنَا : مِنْ أَيْنَ ذَاكَ ؟ قَالَ : **مِنْ قِبَلِ الرُّومِ** ، ثُمَّ سَكَتَ هُنَيَّةً ثُمَّ قَالَ قَالَ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا .﴾ (٢)

---

(١)أخرجه الإمام مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٦ [مسلم بشرح النووي (٢١٨/٩)] ؛ وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٧٥٨٢ [المسند (٣٥٢/٢)]

(٢)أخرجه الإمام مسلم في الفتن برقم ٢٩١٣ ، [مسلم بشرح النووي (٢٣٤/٩)]

شرح :

- اختلف العلماء في المراد بمنع العراق والشام لمديها وقفيزها ، يقول النووي : . « وفي معنى منعت العراق وغيرها قولان مشهوران : أحدهما لإسلامهم ، فتسقط عنهم الجزية ، وهذا قد وجد . والثاني وهو الأشهر أن معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان ، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين . .. وقيل : لأنهم يرتدون في آخر الزمان ، فيمنعون ما لزمهم من الزكاة وغيرها . وقيل : معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج وغير ذلك » . (١)

فهذه هي المعاني التي ذكرها أهل العلم بخصوص الحديثين ، وهي تتضمن أربعة احتمالات لعل أشهرها كما ذكر النووي الاحتمال الثاني ، وهو أن المراد بالمنع في الحديث استيلاء العجم والروم على بلاد المسلمين ، ومنع المسلمين من خيرات بلادهم .

- الملاحظ في الحديث الأول إشارة عجيبة ، وهي أن المنع الذي يصيب العراق بسبب العجم ، وهي تقال لأهل الشرق ، أو لغير العرب ممن لا يلهجون اللسان العربي ؛ أما بالنسبة للشام فالمنع يقع من قبل الروم ، والروم لا تقال إلا إلى قومية معينة ، وفي الغالب هي إشارة إلى نصارى الغرب ، وهذا المعنى حصل في الماضي بهجمة التتار على العراق ؛ الذين يصدق في حقهم لفظة العجم ، وبهجمة الروم الصليبيين على الشام، فهل هذه الهجمات هي المقصودة في الحديثين ، الأمر يحتمل ذلك ، ويحتمل أن يراد به ما هو أوسع من ذلك .
- يلحظ في الحديث الثاني أنه أشار لحصار يصيب العراق أولاً تُمنع من خلاله العراق أن يأتيها شيء من أرض المسلمين أو غيرهم ، ثم ثنى الحديث بالشام ، ثم ربط راوي الحديث بين هذين الحدثين ، وبين خروج المهدي في آخر الزمان ، مما يوحي بأن

---

(١) النووي : شرح مسلم (٢١٩/٩)

هناك علاقة بين الحدثين ، وبين إرهاصات خروج المهدي في العالمية الثانية للإسلام ؛ خاصة أن الحديث الأول قد أشار إلى عودة الأمة من حيث بدأت ، وفي ذلك إشارة إلى عودة الغربة الثانية للإسلام بما تحمله تلك الغربة من ضعف في بدايتها ، ويرافق هذا الضعف سطوة لأهل الباطل وسيطرة في الأرض ، وهذه الغربة لم تكتمل بجميع معالمها إلا في عصرنا هذا ، فهل يمكن اعتبار ذلك قرينة على أن المراد بالحديثين الإشارة إلى حصار شديد يصيب العراق أولاً ، وهذا قد حصل في زماننا ، ثم يصيب الشام ، ويثلث بمصر ، إذا كان الحديث يحتمل هذا المعنى ؛ فيمكن القول بأن حصار العراق هو بداية الإرهاصات الأخرى ، ووفق هذا التأويل يمكن القول أن حلقات هذه الإشارة النبوية لم تكتمل بعد ، ويمكن تصور المراد بحصار الشام هنا بأنه يختص به الروم فقط أما حصار العراق الذي وقع فقد حصل في الغالب باسم ومباركة أمم العالم أو ما يعرف بالأمم المتحدة ، وهؤلاء الأليق بوصفهم أن يقال عنهم عجم ؛ لأن لفظة العجم أعم من لفظة الروم ؛ فهي تشمل الروم وغيرهم ، أما حصار الشام فسيختص به الروم لوحدهم فقط ، وليس بقرار دولي عالمي .

ووفق التوجيه الأخير لهذه العلامة يمكن القول بأن حلقات هذه العلامة لم تكتمل بعد ؛ لذا يمكن اعتبارها من العلامات التي لم تقع .

﴿ العلامة الثانية : حصار المدينة ﴾

– عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُحَاصَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبْعَدَ مَسَالِحِهِمْ سَلَاحِ . قال الزُّهْرِيّ : وَسَلَاحِ قَرِيبٌ مِنْ خَيْبَرَ ﴾ (١)

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٧ [عون المعبود (٤٠٦/١١)] ؛ وابن حبان في التاريخ برقم ٦٧٧١ ، وقال محققه : حديث صحيح [صحيح ابن حبان (١٧٤/١٥)]

وفي رواية : ﴿ يُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى تَصِيرَ مَسَالِحُهُمْ بِسِلَاحٍ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

مسالح : جمع مسلحة وأصله موضع السلاح ثم استعمل للثغر ، وهو المراد هنا أي أبعد ثغورهم هذا الموضع القريب من خيبر القريب من المدينة على عدة مراحل ، وقد يستعمل لقوم يحفظون الثغور من العدو . قال ابن الأثير في النهاية : « المسالح جمع المسلح والمسلحة القوم الذين يحفظون الثغور من العدو ، وسموا مسلحه لأنهم يكونون ذوي سلاح ، أو لأنهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . » (٢)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى كمال تضييق الكفار على المسلمين ؛ لدرجة أنهم يلجئوهم إلى مدينة رسول الله ﷺ في آخر الزمان محاصرين لها ، ويكون أبعد ثغور المسلمين ثغر بمنطقة سلاح القريبة من خيبر ، وخيبر بعيدة عن المدينة المنورة قرابة المائة وستين كيلو متر فقط ، مما يشير إلى قرب الأعداء من المدينة المنورة ، وفي الحديث إشارة إلى أن الأعداء يقصدون إيقاع المحاصرة والتضييق على المدينة نفسها .
- توقيت هذا الحصار غير معلوم ، و أشار البعض إلى أنه يكون في زمان الدجال ، وممن أورد هذا الاحتمال الشيخ عبد الحق الدهلوي حيث يقول : « الظاهر أن هذا إخبار عن حال المسلمين زمن الدجال حين يأرز الإسلام إلى المدينة المطهرة ، أو يكون هذا في زمان آخر . » (٣)

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٩٢٣٨ [المسند (٢/٥٣١)]

(٢) عون المعبود (١١/٣٢١)

(٣)عون المعبود (١١/٣٢١)

وهذا القول الذي أورده الدهلوي - رحمه الله - محتمل ، ويعززه من جهة أن لفظة مسالح أيضا ذكرت في أحاديث الدجال وأريد بها مسالح الدجال ؛ أي طليعته الكشفية ، وكأن هذه اللفظة من مصطلحات ذلك العصر ، ووفق هذا التوجيه يمكن القول أن المسلمين في البداية يتصورون أنهم يستطيعون مواجهة الدجال ، ثم يظهر لهم أنهم لا طاقة لهم بذلك ، فيفرون إلى المدينة ، عندها تتولى الملائكة نفسها حفظ المدينة المنورة شرفها الله .

طبعاً هذا التوجيه مبني على صحة فرضية الشيخ الدهلوي - رحمه الله - وفي ظني أن هذا الاحتمال ضعيف من وجوه منها أنه ثبت أن المسلمين يتحصنون بالمدينة نفسها ، و لم يُذكر في الأحاديث الدالة على ذلك أي مواجهة مع الدجال ، بل لا تكون المواجهة إلا في فلسطين ، كذلك المعهود في هدي النبي ﷺ بخصوص الدجال أن كل حدث يتعلق به كحصار أو تجويع أو حروب لا بد أن يذكر اسم الدجال في الحديث ؛ أما الأحاديث العارية عن ذكر الدجال ؛ فهي في الغالب تشير إلى علامات مستقلة عن زمن الدجال ؛ لذا يمكن القول أن ذِكر الحديث كعلامة مستقلة يوحي بأنه يراد به عدو آخر ؛ لذا نجد الشيخ الدهلوي يختم كلامه بقوله « أو يكون ذلك في زمان آخر » وهذا يجعلنا تصور احتمال آخر له علاقة بواقعنا المعاصر .

فالمعلوم أن هناك أطماعاً لليهود في خيبر على وجه الخصوص ، وخريطتهم الموهومة لدولتهم (إسرائيل الكبرى) تدرج خيبر فيها ، والمؤامرات في الوقت الحاضر على وجه الخصوص تحاك لتفتيت الدول العربية ؛ بحيث تتحول كل دولة إلى عدة دويلات ، ونسمع أن من الدول الأولى المستهدفة في ذلك مصر والسعودية حفظهما الله من كل كيد .

فهل يحتمل الأمر أن تقع مثل هذه التجزئة ، ويترتب عليها أن تجر إلى حروب جديدة تتذرع من خلالها إسرائيل بمسألة الأمن وحفظ الحدود فتتوسع تلك التوسعة من ناحية الجنوب ، الأمر محتمل ، والمؤامرات الحالية تعززه ، ونسأل الله أن يحفظ بلاد الحجاز من كل كيد ومكر .

﴿ العلامة الثالثة : الجهجاه والقحطاني ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَذْهَبُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَمْلِكَ رَجُلٌ - وفي رواية الترمذي من الموالي - يُقَالُ لَهُ الْجَهْجَاهُ ﴾ (١)

الموالي : جمع مولى ، وهو المملوك .

شرح :

يلحظ أن تملك هذا الملك من علامات الساعة ، وقول الرسول ﷺ « يقال له الجهجاه » إشارة إلى أنه لقب له ، وظاهر الحديث يشير إلى أنه يملك على سبيل التغلب لا بشورى أهل الحل والعقد ؛ لأنه مملوك ، ولأنه يخالف الأحاديث القاضية بأن الخلافة تكون في قريش .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ ﴾ (٢)

شرح :

- عبارة « يسوق الناس بعصاه » جاءت من باب الكناية للإشارة إلى الملك ؛ حيث شبه النبي ﷺ القحطاني بالراعي وشبه رعيته بالغنم ، ونكتة التشبيه التصرف الذي يملكه الراعي في الغنم ، ويحتمل أنها كناية إلى تغلبه عليهم وانقيادهم له ، ويكون المراد بالعصا الإشارة إلى خشونته وعسفه بهم ، أو للدلالة على شدة عنفه وعدوانه .
- هذه العلامة في أغلب الظن أنها لم تقع ، ويراد بها الإشارة إلى ملك يتملك على الأمة في آخر الزمان ، والقحطاني معروف بنسبته دون اسمه ، وقد جوز القرطبي أن يكون الجهجاه هو نفسه القحطاني ؛ لأن أصل كلمة الجهجاه من الصياح وهي صفة تناسب

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩١١ [مسلم بشرح النووي (٢٣٣/٩)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٣٢٩ [تحفة الأحوذي (٤٨٣/٦)] ؛ وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٣٨٥ [المسند (٤٤٠/٢)]

(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٥١٧ [البخاري مع الفتح (٦٣٠/٦)] ؛ ومسلم في الفتن برقم ٢٩١٠ [مسلم بشرح النووي (٢٣٢/٩)]

ذكر العصا في حديث القحطاني ، وهذا الاحتمال في ظني ضعيف ؛ لأنه جاء في رواية الترمذي التصريح بأن الجهجاه من الموالي ، أما القحطاني فظاهر السياق أنه من الأحرار لإطلاق كونه من قحطان . (١)

- ليس في السياق ما يدل على صلاح هذا الملك أو فساده ، بل كلا الأمرين يحتملهما النص ، وإن كان ذكره كعلامة منفصلة يغلب جانب الصلاح على جانب الفساد ، وإلا لا داعي لذكره كعلامة منفصلة ، و لأُدرج ذكره ضمنا مع الأئمة المضلين ، ويعزز ذلك بعض الآثار التي أوردها الطبراني و نعيم بن حماد والهيثمي (٢) حيث أشارت إلى أن القحطاني يملك بعد المهدي ، وأنه يستن بسنته ، ولا يكون أقل منه في الصلاح ، وعلى يديه تفتح روما ، وفي رواية أنه هو الذي يخوض الملاحم ووفق هذه الآثار يكون المراد بقول رسول الله ﷺ أنه يسوق الناس بعصاه الإشارة إلى تملكه أمر الأمة ، وكون ذكر القحطاني كعلامة مستقلة عن غيره من الأئمة الذين يحكمون الأمة يعزز مصداقية تلك الآثار ؛ لأنه في مثل هذه الحالة لا بد أن يكون للقحطاني أثر واضح في حق الأمة ، والأغلب أن هذا الأثر يكون في جانب الصلاح .

وعلى فرض ثبوت هذه الآثار فإن القحطاني يملك في مرحلة عيسى ﷺ ، وقد يورد البعض إشكالاً هنا بقوله : كيف يملك القحطاني أو يسوق الناس بعصاه في عهد عيسى ﷺ ، والأمر إنما هو لعيسى ﷺ ، ويجاب على ذلك بأنه لا يمتنع أن يقيمه عيسى ﷺ نائباً له ، ويوكله بأمور مهمة تتعلق بأمر الأمة .

وهذا الاحتمال وارد ، بل يحتمل الأمر – كما سأبين في فصل المهدي – أن يكون نزول عيسى في زمن خليفة المهدي ، وليس في زمن المهدي ﷺ ، ووفق هذه الآثار يحتمل أن يكون نزول عيسى ﷺ في عهد القحطاني .

---

(١) انظر فتح الباري (٦٣١/٦) ؛ العدوي : الصحيح المسند (٤٣٤)

(٢) انظر الطبراني : المعجم الكبير (٣٣٨/١) والأوسط (٢٠٢/١) ؛ وابن حماد برقم ١٠٨٣ – ١٠٨٤ (٢٧٤) ومن الروايات التي أوردها : « يكون بعد الجبابرة رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلا ثم القحطاني بعده والذي بعثني بالحق ما هو دونه » « يكون بعد المهدي القحطاني والذي بعثني بالحق ما هو دونه »

ومحصلة الأمر أن كل ما ذكرت عبارة عن احتمالات ، ولا يستبين لنا الحق في تصور هذه العلامة إلا حين وقوعها ، إلا أن ما يجب معرفته هو أن ذكر هذه العلامة منفصلة على وجه الخصوص لا بد أن يكون له علاقة بأمر مفصلي هام في حق الأمة ، وفي الأرجح أنه رجل صالح.

لطـــيـــفة

ذكر ابن حجر نصاً وجده في أحد الكتب ووجهه بتوجيهاته ، آثرت أن أذكره هنا دون تعليق فيه إشارة للمراد بالقحطاني والأمر يحتمل ذلك ، حيث يقول : « وجدت في كتاب " التيجان لابن هشام " ما يعرف منه – إن ثبت – اسم القحطاني وسيرته وزمانه ، فذكر أن عمران بن عامر كان ملكا متوجا وكان كاهنا معمرا وأنه قال لأخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا لما حضرته الوفاة : إن بلادكم ستخرب ، وإن لله في أهل اليمن سخطتين ورحمتين : فالسخطة الأولى هدم سد مأرب وتخرب البلاد بسببه ، والثانية غلبة الحبشة على أرض اليمن . والرحمة الأولى بعثة نبي من تهامة اسمه محمد يرسل بالرحمة ويغلب أهل الشرك ، والثانية إذا خرب بيت الله يبعث الله رجلا يقال له شعيب بن صالح فيهلك من خربه ويخرجهم حتى لا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن انتهى . وقد تقدم في الحج أن البيت يحج بعد خروج يأجوج ومأجوج ، وتقدم الجمع بينه وبين حديث " لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت وأن الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبشة " فينتظم من ذلك أن الحبشة إذا خربت البيت خرج عليهم القحطاني فأهلكهم ، وأن المؤمنين قبل ذلك يحجون في زمن عيسى بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ، وأن الريح التي تقبض أرواح المؤمنين تبدأ بمن بقي بعد عيسى ويتأخر أهل اليمن بعدها ، ويمكن أن يكون هذا مما يفسر به قوله " الإيمان يمان " أي يتأخر الإيمان بها بعد فقده من جميع الأرض

. وقد أخرج مسلم حديث القحطاني عقب حديث تخريب الكعبة ذو السويقتين فلعله رمز إلى هذا . » (١)

﴿ العلامة الرابعة : كثرة النساء وقلة الرجال ﴾

– عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنْ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ ، وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ . ﴾ (٢)

وفي رواية : ﴿ وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ ﴾ (٣)

شرح الغريب :

يلُذن : يحتمين ؛ قيل لكوهن نساءه وسراريه ، أو لكوهن قراباته أو من الجميع .

– عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا تقوم الساعة حتى تتخذ المساجد طرقا وحتى يسلم الرجل على الرجل بالمعرفة وحتى تتجر المرأة وزوجها وحتى تغلو الخيل والنساء ثم ترخص فلا تغلو إلى يوم القيامة ﴾ (٤)

شرح :

– هذه العلامة بهذا الوصف لم تقع بعد ، وفيها إشارة واضحة على كثرة النساء بشكل ملحوظ بالنسبة للرجال ؛ أي واحد مقابل خمسين ، و معنى يلذن به كما اتضح سابقاً ؛ أي ينتمين له ليقوم بحوائجهن ويذب عنهن كقبيلة بقي فيها رجل واحد ، فهو يقوم

---

(١) فتح الباري (٨٤/١٣)

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة برقم ١٤١٤ [البخاري مع الفتح (٣٣٠/٣)] ؛ ومسلم في الزكاة برقم ١٠١٢ [مسلم بشرح النووي (١١٦/٤)]

(٣) أخرجه البخاري في العلم برقم ٨١٢ [البخاري مع الفتح (٢١٥/١)]

(٤) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٣٧٩ ، ٨٥٩٨ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه [المستدرك (٤/ ٤٩٣– ٥٦٩)] قال الهيثمي ؛ أخرجه أحمد والطبراني والبزار ، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٩)]

بحوائج النسوة فيها ، ، والاحتمال الأكبر أن سبب قلة الرجل هو كثرة الفتن والحروب التي تفني الرجال دون النساء ، يقول النووي : « وأما سبب قلة الرجال وكثرة النساء ، فهو الحروب والقتال الذي يقع في آخر الزمان وتراكم الملاحم » (١) . ويعزز ذلك هذا الأثر الذي أورده ابن حجر عن علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وفيه : « إذا عمت الفتنة ميز الله أولياءه ، حتى يتبع الرجل خمسون امرأة تقول : يا عبد الله استرني يا عبد الله آوني . » (٢)

ويشهد لهذا الرأي أيضاً أحاديث الفتن والملاحم المتعددة التي تدل على فناء عظيم يصيب الرجال على وجه الخصوص منها فتنة حسر الفرات عن جبل من ذهب ، والمعلوم أن هذه الفتنة تحصد من كل تسعة سبعة رجال ، وفي رواية تحصد من كل عشرة تسعة ، وكذلك الملحمة الكبرى التي تحصد أكثر رجال الأمة ، وهي المرحلة التي لا يفرح فيها بغنيمة ، وسأوضح ذلك عند حديثي عن المهدي والملاحم .

– الحديث الثاني يشير إلى علامة أخرى وهي غلاء المهور والخيل ، وهذه العلامة من هذا الوجه حاصلة في عصرنا إلا إنها لم تكتمل ؛ حيث ترخص المهور والخيل إلى يوم القيامة ، وسبب رخص المهور أو النساء يوضحه الحديث الأول ، وهو كثرة النساء وقلة الرجال ، أما سبب رخص الخيل فقد وضحت سببه وزمانه أحاديث منها حديث الدجال الطويل وفي آخره يتطرق إلى عهد عيسى ﷺ ، وفيه يقول الرسول ﷺ : ﴿ .. وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا يُرْخِصُ الْفَرَسَ ؟ قَالَ : لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا ﴾ (٣)

وهذا الحديث صريح في بيان زمان رخص الخيل وسببه ، ولعله نفس الزمان الذي ترخص فيه النساء أيضاً لتلازم الأمرين ، وارتباط الحدثين .

---

(١) النووي : شرح مسلم (١١٨/٤)

(٢) انظر فتح الباري (٢٤٣/٩)

(٣) أخرجه ابن ماجة مطولاً برقم ٤٠٧٧ [السنن (١٣٥٩/٢)] وسيأتي ذكره كاملاً مع تخريجه في فصل الدجال .

لطـــيــــفة

يلحظ في الحديث الأول والرواية الثانية له أن عدد النساء يختلف في كليهما ففي الحديث الأول عدد النساء خمسون مقابل واحد ، وفي الثاني أربعون مقابل واحد ، ولعل اختلاف العدد فيه إشارة إلى أن العدد ليس على حقيقته إنما ذكر للدلالة على الكثرة والمبالغة في كثرة النساء بالنسبة للرجال .

وقد يكون على حقيقته ، فيكون عدد اللواتي يلذن به ؛ أي يحتمين به أربعين ، أما عدد اللواتي يتبعنه كما في الرواية الثانية فخمسون ، والاتباع أعم من الاحتماء والانتماء الذي أشارت له الرواية الأولى ؛ لذا لا منافاة بين الروايتين .

﴿ العلامة الخامسة : أول قبائل العرب هلاكاً قريش ﴾

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ أَسْرَعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ فَنَاءً قُرَيْشٌ وَيُوشِكُ أَنْ تَمُرَّ الْمَرْأَةُ بِالنَّعْلِ فَتَقُولَ إِنَّ هَذَا نَعْلُ قُرَشِيٍّ . ﴾ (١)

- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : ﴿ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : يَا عَائِشَةُ قَوْمُكِ أَسْرَعُ أُمَّتِي بِي لَحَاقًا . قَالَتْ فَلَمَّا جَلَسَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ! لَقَدْ دَخَلْتَ وَأَنْتَ تَقُولُ كَلَامًا ذَعَرَنِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَتْ : تَزْعُمُ أَنَّ قَوْمِي أَسْرَعُ أُمَّتِكَ بِكَ لَحَاقًا . قَالَ : نَعَمْ قَالَتْ : وَمِمَّ ذَاكَ ؟ قَالَ : تَسْتَحْلِيهِمْ الْمَنَايَا وَتَنَفَّسُ عَلَيْهِمْ أُمَّتُهُمْ . قَالَتْ فَقُلْتُ : فَكَيْفَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ دَبًى يَأْكُلُ شِدَادُهُ ضِعَافَهُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِمْ السَّاعَةُ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٤٥٨ [المسند (٢/٤٤٩)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٤٣٦)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ١١٨٤٧ [المسند (٣/١٠٨)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٤٣٦)]

شرح :

- هذان الأثران يشيران إلى أن أول القبائل هلاكاً قريش ، وسبب ذلك كما بين الحديث الثاني الحسد من الأمة لهم على مكانتهم ؛ فالمعلوم أن الناس تبع لقريش ، وأن الخلافة فيهم ، وأنها لهم ما بقي في الناس اثنان ، فهذه المكانة العالية تجد لها أثراً عميقاً في النفوس المريضة في آخر الزمان ، فيتآمرون عليهم ، ولعلها مؤامرة عظمى تحاك حول القرشيين تجعل كل قرشي مطلوب للموت في نظر الناس ، وهي أشبه بتلك التي وقعت في بداية العهد العباسي ؛ حيث أصبح كل أموي مطلوب للموت في ذلك الوقت .
- دلائل الحال تشير إلى أن هذه العلامة تقع بعد المهدي ، ولعلها تقع في آخر عهد خلفائه ؛ حيث يبدأ الفساد يستشري مؤذنا بانصرام الدنيا وبداية إرهاصات النهاية ، ويرشد إلى ذلك سؤال عائشة رضي الله عنها عن حال الناس بعد ذلك ، فأخبر النبي ﷺ أنهم كصغار الجراد يأكل بعضهم بعضاً حتى تقوم الساعة ؛ ولعل بعد إفناء قريش مباشرة تكون علامة الريح التي تقبض أرواح من تبقى من المؤمنين ثم تقوم الساعة على شرار الخلق .

﴿ العلامة السادسة : كلام السباع والجمادات ﴾

📖 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ ، وَحَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ ، وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

عذبة سوطه : عذبة السوط أي طرفه .

السباع : أي وحوش الحيوان كالأسد والنمر أو وحوش الطير كالنسر والصقر .

شراك نعله : أحد سيور النعل تكون على وجهها .

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٧٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٦/٤٠٩)]

شرح :

- الحديث يشير إلى تغير جوهري في قوانين الأشياء ؛ وخرق للنواميس المعهودة ، وهذا الخرق يكون بين يدي الساعة ، ومن علاماتها ، فالحديث يشير صراحة إلى مخاطبة العجماوات من السباع للإنسان ، وكذلك الجمادات ، وهذا أمر غير معهود وخارق للنواميس ، وكونها غير معهودة لا يعني أنها محال ، بل الأدلة تشير إلى وقوع مثل ذلك حتى في عهد رسول الله ﷺ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ : مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ : إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ ، قَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللَّهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:فَإِنِّي أُومِنُ بِذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴾ (١)

فهذا الأثر يصرح بكلام الذئب والبقرة ، وهو خارق للعادة ؛ لذا تعجب الصحابة من ذلك ، فبين النبي ﷺ أنه وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما يؤمنون بحصول ذلك (✽) ، وفي هذا الحديث لطيفة عجيبة ، وهي قول الذئب من لها يوم السبع ، يوم لا راعي لها غيري ، فقد ذكر بعض العلماء أن المراد بيوم السبع ، أيام الشدائد والفتن التي تشغل الناس فيذهلون عن غنمهم .

- ليس هناك أي إشارة في الحديث ترشد إلى زمان تلك الخوارق ، ولعلها تكون بين يدي الساعة ، أو خلال الفتن والملاحم العظمى .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٦٣ [البخاري مع الفتح (٢٣/٧)]

(✽) ثبت في أحاديث أخرى أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا في القوم عندما أخبر النبي ﷺ بهذه القصة ؛ وذكرت كتب الدلائل قصة شبيهة لها وقعت مع أهبان بن أوس مع ذئب كلمه بعدما أخذ شاة من الغنم ، ثم أخبره الذئب بأن هناك ما هو أعجب من حديث الذئاب وهو خروج محمد ودعوته لله ، فأتى أهبان إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالقصة ، وأعلن إسلامه ، فيحتمل أن قصة أهبان وقعت وكان عند النبي ﷺ وقتذاك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعاينا القصة بنفسيهما ؛ لذا أخبر النبي ﷺ في هذه القصة ثم بين في ختامها بأنه وأبو بكر وعمر يؤمنون بذلك . [انظر فتح الباري (٣٣/٧)]

- قد يستغرب البعض أو يستجهن أو يستبعد حصول ذلك ، أو يميل إلى تأويله مع أننا في عصر رأينا فيه عجائب لو ذكرت لمن قبلنا لاعتبروها من الخوارق كالجمادات التي تتكلم ، أو تعرض صورة حية ، بل أصبحت قطعة بلاستيك صغيرة (الجوال أو الموبايل) كفيلة بربطك بأي مكان بالعالم بالصوت والصورة ، و هناك أجهزة تصنت صغيرة جداً أقرب في الحجم من شراك النعل أو عذبة السوط ، وهذه الأجهزة تقوم بالتسجيل بالصوت والصورة ، وأصبح الأمر بديهيا في هذا العصر ؛ فإذا كانت هذه قدرة البشر مع أن المقدر الحقيقي لها هو الله سبحانه وتعالى ، فهل نستغرب من حصول تلك العجائب بقدرة الله في آخر الزمان ، ونحن أصلاً نعيش في زمن عجائب المخلوق ، فكيف بقدرة الخالق ، والأصل في المؤمن أن يتمثل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ولا يتعجب من حصول أي خارق ما دام هناك دليل صحيح يرشد إليه ؛ لأن قدرة الله مطلقة ، يقول الله سبحانه وتعالى على لسان الملائكة التي تخاطب زوج إبراهيم ﷺ بعد تبشيرها بإسحاق، و تعجبها من هذا الأمر الخارق ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) فسبحان من أنطق لسان الإنسان ، وأعجم لسان السباع ، وسبحان من ينطق ألسنة السباع في آخر الزمان .
- قد يرى البعض أن الحديث ليس على حقيقته ، بل هو كناية عن المخترعات المعاصرة التي نشهدها في عصرنا ، وإمكانية وضع أجهزة صغيرة في الأحذية واردة ، وكذلك عذبة السوط إشارة إلى أجهزة الجوال ، و قد كان لبعضها مثل عذبة السوط؛ إذا لم لا يحمل كل الحديث على هذه النوعية من المخترعات التي عهدها عصرنا .
- وهذا القول له ما يبرره ، إلا أن هناك موانع من حمل الحديث عليه ، منها أن هذه العلامة لم تقتصر على الجمادات بل تعدها إلى العجماوات كالأسود والسباع ،

---

(١) البقرة: من الآية٢٥٩

(٢) هود:٧٣

وكذلك فخذ الإنسان ، وهذا يجعلنا نحمل الحديث على حقيقته ، ولعل وقوع هذه الخوارق يكون في زمان الدجال نفسه المعروف بكثرة الخوارق ، يضاف إلى ذلك أن الأصل حمل الكلام على حقيقته إلا إذا كانت هناك قرينة تصرفه من الحقيقة إلى غيرها ، أو كان هناك مانع يمنع من تصور وقوع الأمر ، وهنا لا توجد قرينة صارفة ، وليس هناك ما يمنع من الوقوع لأن وقوع ذلك يدخل في باب الممكن لا المستحيل ،بل إخبار النبي ﷺ بحصول ذلك في الحديث الصحيح يعزز حمل الحديث على حقيقته .

﴿ العلامة السابعة : شياطين تقرأ على الناس قرآناً ﴾

– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما : قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي الْبَحْرِ شَيَاطِينَ مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَقْـرَأَ عَلَى النَّاسِ قُرْآنًا . ﴾ (١)

شرح :

– هذا الأثر الثابت عن عبد الله بن عمرو يشير صراحة إلى أن هناك شياطين أوثقها سليمان في البحر ، وذلك من سليمان عليه السلام رحمة بالناس ، ويشير أيضاً إلى أن لهذا الوثاق أجل ، تتحرر تلك الشياطين من قيودها عند حلوله ، وتخرج على الناس تقرأ عليهم ما يتصور أنه قرآناً ؛ أي تقول كلاماً ، ثم تزعم أنه قرآن ، يقول النووي : « تقرأ شيئا ليس بقرآن وتقول إنه قرآن لتغري به عوام الناس فلا يغترون . » (٢)

- دلالة السياق تشير إلى أن هذه الشياطين إنما تظهر للناس على هيئتهم ، ويشهد لذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنْ الْكَذِبِ فَيَتَفَرَّقُونَ فَيَقُـولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ سَمِعْتُ رَجُلًا أَعْرِفُ وَجْهَهُ وَلَا أَدْرِي مَا اسْمُهُ يُحَدِّثُ . » (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة [مسلم بشرح النووي (٩٦/١)]

(٢) النووي : شرح مسلم (١٠٠/١)

(٣) أخرجه مسلم في المقدمة [مسلم بشرح النووي (٩٦/١)]

- هذه العلامة في ظني أنها لم تقع بعد ، وما يدرينا لعلها وقعت في بعض البلدان دون أن ينتبه لها أحد ما دام أن هذه الشياطين ستخرج على الناس على هيئة رجال ، وفي ظني أن هذه العلامة لا تقع إلا عند إحكام الفتن لكامل حلقاتها ، ولعلها تكون في فتنة الدهيماء ، أو يحتمل أن يكون ذلك في زمن الدجال لعنه الله سبحانه وتعالى ، ليكونوا عوناً له على فتنته للناس ، خاصة أنه ورد أنه يكون بين يديه شياطين تتمثل للناس على هيئة أموالهم أو أهلهم الأعزاء كالآباء والإبل وغير ذلك ، وقد يكون الأجل الذي تتحرر فيه هذه الشياطين هو عينه الأجل الذي يتحرر فيه الدجال من قيوده .

﴿ العلامة الثامنة : الروم أكثر الناس عند قيام الساعة ﴾

- عن مُوسَى بْنُ عُلَيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ » فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو رضي الله عنهما : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ ! قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ . » (١)

شرح :

- هذا الحديث فيه إشارة واضحة على أن الروم هم ملوك الأرض والمتنفذون بالقرار حين قيام الساعة ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ الروم أكثر الناس ، فالأكثرية هنا يراد بها نفوذ القرار وسطوة الحكم ، ويعزز هذا الفهم توصيف عبدالله بن عمرو وتصوراته لطبيعة الروم في ذلك الزمان ، وهذا التوصيف يرشد إلى أنه فهم من كلام النبي ﷺ أنه يراد به الملك والنفوذ ، والغريب أن هذا الحديث الوحيد في ظني الذي صُدّر بقول النبي ﷺ « تقوم » ، ولم يتصدر بصيغة « لا تقوم » ، وقد ظننت في بادئ الأمر أن ذلك قد يكون خطأً من بعض الرواة فتتبعت كل رواياته فوجدها بنفس هذا التصدير

(١) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٨[مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٢٠)]

، ولولا هذه الصيغة الجديدة لاعتبرت أن هذا الحديث من العلامات التي وقعت في زماننا ؛ خاصة أن الأوصاف الخمسة التي ذكرها ابن عمرو رضي الله عنهما للروم لينالوا الصدارة في الحكم والملك موجودة في الروم في عصرنا ؛ وكذلك كونهم أكثر الناس من حيث حكم الأرض والتأثير في مصيرها أمر ملاحظ معلوم في زماننا .

لكن صيغة الحديث مانعة من إسقاط المراد به على عصرنا هذا ؛ لأن دلالتها تشير إلى قيام الساعة حقاً وحال الروم أنهم أكثر الناس مما يشير إلى أن للروم جولات أخرى بعد العالمية الثانية للإسلام ، وبعد دك حصونهم في القسطنطينية وروما آخر الزمان ، ولعل هذه الجولات تفسر لنا وصف النبي ﷺ للروم بأنها ذات القرون .

- الخصال الخمسة التي ذكرها ابن عمرو رضي الله عنهما تشير إلى سعة فهمه ودرايته في شؤون الملك والسياسة ، وتقلبات الدول و أسباب بقائها أو انهيارها ؛ فهذه الخمسة خصال هي العاصمة للدول من الانهيار في ظن ابن عمرو رضي الله عنهما ، وهي التي حققت للروم السيادة في الأرض ، والملاحظ أن هذه الخصال الخمسة موجودة نسبياً في عصر الروم الذي نعيشه ، فهم أحلم الناس عند الفتنة ، فلا يتعجلون في الأحكام وإنما يدرسون ويخططون ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ؛ فهم يستخلصون العبر والدروس من كل حدث ، ويعاجلونه بحل يتناسب معه ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخير الناس للأرملة والمسكين ، وهذه الخصلة غير واضحة عندهم بصورة كاملة ، ولكن قوانينهم تسمح لإعالة هؤلاء وتحسين حياتهم ، أما الخامسة فهي واضحة عندهم بشكل أوضح من غيرهم ؛ حيث إن قوانينهم لا تسمح لتعسف الملوك وطغيانهم في حقهم ، وهذه الخصال الخمسة ملاحظة فيهم .

وبالمقابل تخلفت هذه الخصال الخمسة في الأمة الإسلامية بشكل واضح فالمصائب تترادف على الأمة ، ولا إفاقة ، والفرار من ساحة مواجهة الأعداء يترادف ولا كرة واحدة للأمة تحاول فيها أن تستعيد بعض عزتها ، ولا نجد إلا دفن الرؤوس في الرمال ، وأما الفقير والمسكين ، فالعناية بهم موجودة نسبياً في الأمة ، وأحياناً

يكون الاستغلال لهم بدلاً من إعانتهم ، أما الخامسة وهي منع الملوك من الظلم ، فلا القوانين تسمح بذلك ، ولا النفوس مهيأة للقيام به ، ولا الشعوب قادرة لدفعه ، وهذا هو سبب هوان الأمة .

﴿ العلامة التاسعة : انتفاخ الأهلة ﴾

- عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلا فيقال: لليلتين و أن تتخذ المساجد طرقا و أن يظهر موت الفجأة ﴾ (١)

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة ، وأن يرى الهلال لليلة ، فيقال: هو ابن ليلتين . ﴾ (٢)

شرح :

- هذان الأثران يشيران إلى علامة من علامة الساعة تتعلق بمنازل القمر ، والملاحظ أن هذه المنازل تتغير نسبياً حتى يكون الهلال ابن ليلة واحدة بحجم الهلال ابن ليلتين ، وهذه عبر عنها النبي ﷺ بقوله « انتفاخ الأهلة » أي ينتفخ الهلال فيرى أكبر من حجمه ، وهذه العلامة بهذا الشكل لم تأت بعد .
- يرى البعض أن المراد بانتفاخ الأهلة هو خروج الهلال قبل وقته ، وهذا في ظني خطأ ، بل الهلال يخرج في وقته ، لكن عندما يرى في أول ليلة يكون حجمه كبيراً يتناسب مع هلال ابن ليلتين ، وهذا صريح في الرواية السابقة حيث أشارت إلى أن الهلال المريء هو ابن ليلة ، لكن حجمه يتناسب مع ابن ليلتين ، وهذا ما يدل صراحة على أن منازل القمر نفسها تتغير ، ولعلها تكون من باب العقوبة للأمة التي تختلف الآن لأسباب سياسية أو غيرها في رؤية الهلال مما يترتب عليه اختلافهم في بداية العبادة أو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق آخر برقم ٣٧٥٥٣ [المصنف (٥٠١/٧)] وصححه الضياء [الأحاديث المختارة (٣٠٦/٦)] وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، المجلد الثاني ، حديث رقم ٥٨٩٩

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم ٦٨٦٤ [المعجم الأوسط (٦٥/٧)] ؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، المجلد الخامس ، حديث رقم ٢٢٩٢

نهايتها، وما داموا مختلفين في ظل هذا التطور العلمي ، وهذه الدقة في منازل القمر ؛ إذا فليعاقبوا في تلاعب منازل القمر بهم .

- ارتبط الهلال بعبادتين عظيمتين وهما الصوم والحج ، ولئن حرمت الأمة تعيين ليلة القدر بسبب تخاصم البعض عند رسول الله ﷺ ، فقد تحرم في آخر الزمان بسبب تخاصمها في تعيين يوم عرفة ، فالمعلوم أنه اليوم التاسع من ذي الحجة لكن إذا كان هلال ابن ليلة سيرى بحجم ابن ليلتين إذا سيكون هلال الثامن بحجم هلال التاسع ، وهلال التاسع بحجم هلال العاشر ، وهذا يترتب عليه أن يكون يوم النحر وفق منازل القمر المعهودة ووفق نظرة الناس للهلال هو يوم عرفة نفسه .
- المعلوم أن الجهة الوحيدة المكلفة بتعيين هلال ذي الحجة هي السعودية ؛ لذا لم يختلف أحد معها في تعيين يوم عرفة أو يوم النحر ، ولم نعهد أي اختلاف في ذلك في حدود علمي ، إنما جل الاختلاف بين الدول العربية يكون في تعيين أول يوم في رمضان أو آخر يوم فيه ، أما يوم النحر فقد فوض الجميع أهل الحرمين ليفتوا فيه ، **لكن ما لفت انتباهي لأول مرة** أن آخر موسم للحج (١٤٢٥هـ)حصل اختلاف في تعيين التاسع والعاشر من ذي الحجة بين أهل الحرمين أنفسهم ، وخلص الأمر إلى تقديم يوم على حساباتهم ، فهل هذه الحالة هي بداية انتفاخ الأهلة أو إرهاصات وقوع هذه العلامة هذا الأمر يحتمل ، والأصل في الجهات المعنية أن تنتبه لذلك .
- انتفاخ الأهلة يشير إلى تغير جوهري في منازل القمر في آخر الزمان ، أي نحن أمام علامة طبيعية وليست بشرية ، ما الحكمة من ذلك ؟ الله أعلم ، هل لها علاقة بحدث كوني آخر أعظم منه ؟ أيضاً الله أعلم . **لكن المهم قوله هنا أن لهذه العلامة على وجه الخصوص أسراراً ستظهر لأهلها في وقتها .**

المبحث الثاني
عندما يتكلم الشجر والحجر

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ﴿لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ ! يَا عَبْدَ اللَّهِ ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ﴾ (١)

📖 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ ، فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ : يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ﴾(٢) وفي رواية أخرى عنه جاء فيها : ﴿تَقْتَتِلُونَ أَنْتُمْ وَيَهُودُ﴾ (٣)

شرح :

- هذه الأحاديث تشير إلى قتال اليهود في آخر الزمان ، ؛ وبالتالي تتضمن هذه الأحاديث بشارة للأمة بالانتصار عليهم وكسر شوكتهم ، و هذه البشرى التي وردت عن النبي ﷺ عبر عدة أحاديث كانت مدار اختلاف العلماء ، وجل اختلافهم كان في المرحلة الزمنية التي تنتمي إليها ، هل هي أيام الدجال لعنه الله ، أو قبل ذلك ، وهذا الاختلاف استوقفني كثيراً بين متأمل لهذه الأحاديث ،أو باحث عن كل شاردة وواردة تبين المراد بها، خاصة أن هذه الأحاديث لها علاقة مباشرة بواقعنا المعاصر ، وتمثل حلقة

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٩٢٦ [البخاري مع الفتح (١٢١/٦)] ؛ ومسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢٢[مسلم بشرح النووي (٢٣٨/٩)]

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٩٢٥ [البخاري مع الفتح (١٢١/٦)] ؛ ومسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢١ [مسلم بشرح النووي (٢٣٨/٩)] ؛ أحمد برقم ٦١٩١ [المسند (١٨٣/٢)]

(٣)أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢١ [مسلم بشرح النووي (٢٣٨/٩)] ؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٣٣٧ [تحفة الإحوذي (٤٩٤/٦)]

من حلقات الصراع بين الحق والباطل فكان خلاصة جهدي هذا الوقفات التي ضمنتها بعض التساؤلات ، وذلك على النحو التالي :

الوقفة الأولى : ما هو زمان هذه المعركة ؟

الأحاديث التي ذكرها تتحدث عن معركة بين المسلمين واليهود ، ينتصر فيها المسلمون ، ويؤيدون فيها بنصرات خاصة من الموجودات كالشجر والحجر ، وقد عبر النبي ﷺ عن هذه المعركة بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال ؛ أي أن هذه المعركة ستحصل مستقبلاً ، وفي بعض روايات الحديث قرنها النبي ﷺ بالساعة ، وذلك بقوله « لا تقوم الساعة » للدلالة على أن هذه المعركة من علامات قرب الساعة ، أو أنها بين يدي الساعة ، وكذلك يلحظ على هذه الأحاديث وغيرها من الروايات الكثيرة لها أنها تكلمت عن قتال اليهود للمسلمين دون أن يذكر الدجال في المعركة ، وقد اختلف العلماء في توقيت وزمان هذه المعركة على رأيين وهما على النحو التالي :

الرأي الأول :

يرى أكثر العلماء – خاصة القدماء – أن المراد بهذه المعركة ما يكون بين المسلمين وبين الدجال وشيعته من اليهود من معارك آخر الزمان (١) ، والذي حملهم على هذا الفهم عدة أمور لا تتضح لنا إلا إذا سقنا بعض الأحاديث التي تحدثت عن معركة المسلمين مع الدجال،ومن هذه الأحاديث ما يلي :

- حديث أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ الطويل عن الدجال وفيه ﴿ ...قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام : افْتَحُوا الْبَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا ، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام : إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ ، فَيَقْتُلُهُ ، فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ

---

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (١٢١/٦) ؛ النووي : شرح صحيح مسلم (٢٤٢/٩)] ؛ المباركفوري : تحفة الإحوذي (٤٩٤/٦)

مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ ، إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا **حَجَرَ** وَلَا **شَجَرَ** وَلَا حَائِطَ وَلَا دَابَّةَ إِلَّا **الْغَرْقَدَةَ** ، فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ ، إِلَّا قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ ، فَتَعَالَ اقْتُلْهُ ﴾ (١)

– ما ورد عن ابنِ عُمَرَ أنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّ قَنَاةَ ، فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا ، مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَلِّطُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُونَهُ ، وَيَقْتُلُونَ شِيعَتَهُ ، حَتَّى إِنَّ الْيَهُودِيَّ لَيَخْتَبِئُ تَحْتَ **الشَّجَرَةِ أَوِ الْحَجَرِ** ، فَيَقُولُ **الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرَةُ** لِلْمُسْلِمِ : هَذَا يَهُودِيٌّ تَحْتِي فَاقْتُلْهُ ﴾ (٢)

– هذان الحديثان صريحان في أن المسلمين يقاتلون الدجال ومعه شيعته من اليهود ، ويتضح من خلال مجريات المعركة وتفاصيلها أنها نفس تفاصيل المعركة المذكورة في حديثي أبي هريرة وابن عمر السابقين اللذين انفردا بذكر قتال اليهود دون أن يذكر في المعركة الدجال ، ومن هذه التفاصيل ما يلي :

- مجموع الأحاديث تكلمت عن جانب إعجازي واحد يُنصر فيه المسلم على اليهودي وهو كلام الشجر والحجر ومساعدته للمسلم في قتاله مع اليهودي .
- مجموع الأحاديث تكلمت عن مساندة شجر الغرقد لليهود ، و الغرقد نوع من الشوك يكثر في فلسطين ؛ إذا الأحاديث كلها تدل على معركة تحصل في مكان واحد وهو فلسطين .

فعندما لاحظ العلماء أن الأحاديث بمجموعها تتحدث عن معركة تتضمن نفس التفاصيل

---

(١)جزء من حديث طويل أخرجه ابن ماجة بطوله برقم ٤٠٧٧ [السنن (٢/١٣٥٩)] ؛ وأبو داود مختصراً برقم ٤٣٠٠ ، وقال شارحه : « أما إسناد المؤلف حديث أبي أمامة فصحيح ، ورواته كلهم ثقات [عون المعبود (١١/ ٤٤٩ وما بعدها)] .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسند المكثرين من الصحابة برقم ٥٣٥٢ [المسند (٢/٩٢)] ، قال الهيثمي : في الصحيح بعضه رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، وفيه ابن اسحق ، وهو مدلس [مجمع الزوائد ٣٤٧/٧]

ونفس الجانب الإعجازي من مشاركة الشجر والحجر للمسلم في المعركة ، وفي نفس الموقع وهو بلاد فلسطين ، حملوا جميع هذه الأحاديث على حدث واحد ومعركة واحدة وهي المعركة التي تكون بين المسلمين وبين الدجال آخر الزمان ، و هذا منهج معروف عند علماء الحديث في الجمع والتوفيق بين الأحاديث ، وهذا ما أشار إليه ابن حجر عند شرحه لحديثي ابن عمر وأبي هريرة حيث قال : « **وفيه إشارة إلى بقاء دين الإسلام إلى أن ينزل عيسى عليه السلام ، فإنه الذي يقاتل الدجال ، ويستأصل اليهود الذين هم تبع للدجال على ما ورد من طريق أخرى .** » (١) فالملاحظ من كلام ابن حجر أنه يرى أن الأحاديث التي انفردت بذكر قتال اليهود دون أن يذكر فيها الدجال إنما تحمل على تلك المعركة التي تكون بين الدجال وبين المسلمين لما ثبت من طرق أخرى كحديثي أبي أمامة وابن عمر التي ذكرت نفس تفاصيل تلك المعركة .

واتفاق الأحاديث في الدلالة على نفس المكان حمل النووي رحمه الله على اعتبار الأحاديث التي انفردت بذكر قتال اليهود دون أن يذكر فيها الدجال تدل على المعركة التي تكون بيننا وبين الدجال ،وهذا ما صرح به عند بيانه لمعنى كلمة الغرقد في شرحه لحديث أبي هريرة حيث قال : « **والغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل الدجال واليهود .** » (٢)

إذا التشابه الكبير بين تفاصيل المعركة ومكانها مع نفس الفئة التي يقاتلها المسلمون ، هو الذي حمل العلماء على اعتبار مجموع الأحاديث ، سواء التي انفردت بذكر قتال اليهود دون أن يذكر فيها الدجال ، أو التي ذكر فيها الدجال تدل على معركة واحدة تحدث آخر الزمان مع الدجال.

٢- بالإضافة إلى السبب السابق في الجمع بين هذه الأحاديث واعتبارها دالة على معركة واحدة هناك سبب آخر لا يقل في الدلالة عن سابقه ، وهو أنه لم يتصور علماؤنا القدماء

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٦/ ١٢١)

(٢) النووي : شرح مسلم (١٨/٤٥)

- جزاهم الله خيراً – أن يكون لليهود تواجد في الأرض المقدسة ، وكذلك لم يتصوروا أن يكون لهم كيان ودولة وصولات وجولات في بلاد الشام وهم يرون على مدى ثلاثة عشر قرناً أن اليهود يعيشون في المجتمع الإسلامي على شكل مجموعات متفرقة مشتتة ذليلة ضعيفة .(١)

وبالتالي إذا كان تصور وجود كيان لليهود ودولة بعيداً ، وهناك أحاديث تتكلم عن معركة مع الدجال تحمل نفس التفاصيل ، فلم لا تحمل هذه الأحاديث على هذه المعركة .

٣- كذلك يمكن إضافة سبب ثالث يؤيد هذا الرأي ، وهو أن مرحلة خروج الدجال تتخللها كثير من الخوارق التي يحاول من خلالها الدجال أن يلبس على الناس دينهم ، فناسب ذلك أن يُنصر المسلمون ببعض الخوارق كرامة لهم ، وشداً لأزرهم وطمأنة لقلوبهم ، كأن يشاركهم في المعركة الشجر والحجر، ويقع من الجمادات الحديث والكلام الذي لم يُعهد عنها .

كذلك ابتداء الأحاديث بصيغة « لا تقوم الساعة » فيها إشارة إلى أن هذه المعركة إنما تكون في نهاية الزمان وآخره فناسب ذلك أن يكون المراد بها المعركة التي تكون مع الدجال في آخر الزمان .

الرأي الثاني :

يرى بعض العلماء المعاصرين أن هذه الأحاديث بمجموعها تتحدث عن مرحلتين من مراحل قتال اليهود ، وعن معركتين مع اليهود وليس معركة واحدة :(٢)

المعركة الأولى : يتم فيها إذلال اليهود والإساءة إليهم وتدمير قوتهم وكسر شوكتهم ، وتحويل اليهود بعدها إلى قوم أذلاء مستضعفين ، ومجموعات مشتتة في الأرض ، وهذه المعركة هي التي تشير إليها سورة الإسراء عند حديثها عن الإفساد الثاني لبني إسرائيل

---

(١) انظر إبراهيم العلي : الأرض المقدسة (١٥٢) وقد تناول هذه القضية تحت عنوان فهم معاصر للإفسادين

(٢) انظر إبراهيم العلي : الأرض المقدسة (١٦٥– وما بعدها) ؛ الخالدي : حقائق قرآنية (١٤٧وما بعدها)

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ (١)

فالعلماء المعاصرون يرون أن معركة الإفساد الثاني التي تشير إليها الآية السابقة لم تقع بعد ، وأن كل دلائل الواقع تشير إلى أن المراد بهذه المعركة هو ما يكون بين المسلمين وبين اليهود من قتال يترتب عليه زوال دولة إسرائيل الحالية ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى إساءة وجه اليهود وتتبير علوهم ، وليس إفناؤهم ، وإساءة الوجه تحمل عدة معاني منها : تدمير قوة اليهود العسكرية والاقتصادية ، وإذلالهم وكسر شوكتهم ، ومسخ كيانهم ، وشرذمتهم في جميع الأرض ، وهذه المعركة التي أشارت إليها الآية الكريمة تُحمل عليها الأحاديث التي انفردت بذكر قتال اليهود دون أن يذكر فيها الدجال ، وبالتالي تكون هذه الأحاديث دالة على إحدى حلقات الصراع بين المسلمين واليهود، قبل الصراع الأخير معهم ومع الدجال .

المعركة الثانية : يتم فيها القضاء على اليهود نهائياً ، وهذه المعركة هي التي تُحمل عليها الأحاديث التي ذكرت قتال المسلمين للدجال واليهود ، حيث سيخرج الدجال من جهة المشرق ويتبعه سبعون ألفا من يهود أصبهان في إيران ، وفي هذه المعركة يحارب عيسى عليه السلام الدجال فيقتله عند باب لد في فلسطين،ويُسلط المسلمون على شيعة الدجال وأنصاره وأكثرهم من اليهود فيقتلونهم ويقضون عليهم نهائياً .

وهذا الرأي الذي يميل إليه كثير من الكتاب المعاصرين ـــ وهو ما أرجحه ـــ له وجاهته وما يؤيده ، ومن الأسباب الدالة على رجحان هذا الرأي على سابقه ما يلي :

١- بالنظر إلى مجموع الأحاديث يلحظ أنها تمثل منهجين يختلف فيها كل منهج في الصياغة بما يوحي أنها تدل على معركتين لا معركة واحدة ، فالأحاديث التي انفردت في الحديث عن قتال اليهود دون ذكر الدجال في المعركة كحديثي أبي هريرة وابن عمر قد

(١) الإسراء : الآية ٧

ذُكرت فيها العبارات التالية : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم » « حتى تقاتلوا اليهود » « تقتتلون أنتم ويهود » .

ولو أمعنا النظر في هذه العبارات وتدبرنا فيها لوجدناها تدل دلالة صريحة على أن اليهود في هذه المعركة أصحاب قوة وسطوة ، وأنهم أصحاب قرار في المعركة ، بل يملكون القدرة والقوة في إشعال فتيل الحرب بينهم وبين المسلمين،وهذا واضح في حديث ابن عمر وفيه «تقاتلكم اليهود » .

بينما الأحاديث التي تكلمت عن قتال اليهود مع الدجال ، فقد جاءت بعبارات وصيغ تدل على أن اليهود في المعركة لا يمثلون قوة ، بل هم عبارة عن تبع للدجال يأتمرون بأمره ، ويجرون وراءه ، ولا يملكون من أمرهم شيئاً ، ومن هذه العبارات «فَيَقْتُلُهُ – أي يقتل عيسى الدجال – فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ » « ثُمَّ يُسَلِّطُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُونَهُ – أي الدجال – وَيَقْتُلُونَ شيعَتَهُ ، حَتَّى إِنَّ الْيَهُودِيَّ لَيَخْتَبِئُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَوِ الْحَجَرِ ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرَةُ لِلْمُسْلِمِ : هَذَا يَهُودِيٌّ تَحْتِي فَاقْتُلْهُ »[(١)]

فالعبارات السابقة واضحة الدلالة على أن اليهود مع الدجال ما هم إلا تبع له وشيعة ، لا يمثلون قوة ، ولا يملكون قراراً في المعركة .

و بالمقارنة بين ألفاظ الأحاديث في المرحلتين يتضح الاختلاف الواضح بينهما ، فالأحاديث التي تمثل المرحلة الأولى عبرت عن اليهود على أنهم أصحاب قوة ودولة وسطوة ، ويملكون القرار في إشعال فتيل الحرب ، بينما أحاديث المرحلة الثانية جاءت بعبارات تدل على أن اليهود عبارة عن تبع للدجال وشيعة ، يحتمون به ، ويقاتلون من ورائه والذي يملك القرار في معاركهم مع المسلمين هو الدجال .

وهذا الاختلاف في الصياغة بين هذه الأحاديث يدل دلالة واضحة على أنها تمثل معركتين ، لا معركة واحدة ، ومرحلتين من مراحل قتال اليهود ، لا مرحلة واحدة ، تختلف فيهما قوة اليهود واستراتيجيتهم في كلا المعركتين .

---

(١) سبق تخريجه

٢- ومما يؤيد هذا الرأي أن بعض الأحاديث التي تكلمت عن قتال اليهود مع الدجال قد صرحت بأهم من يهود أصبهان في إيران ، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أَنَسِ بْنِ مَالك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ ﴾[1]

فالحديث صريح الدلالة في أن نوعية اليهود الذين سيقاتلهم المسلمون مع الدجال سيكون مصدرهم أصبهان ، و هذه البلدة قريبة من المواطن التي ذُكر أن الدجال سيخرج منها .

إذا يلحظ من الحديث السابق أن اليهود الذين سيقاتلهم المسلمون مع الدجال هم غير اليهود الموجودين الآن في فلسطين ، والسؤال الذي يطرح الآن ما هو مصير اليهود الموجودين الآن في فلسطين قبل هذه المعركة ؟ ما يتضح من مجريات الحديث ، أنه لن يكون لهم تواجد ، أو بعبارة أصح لن تكون لهم شوكة في فلسطين أو كيان ، ويترتب على هذا التصور أنه ستكون معركة بين المسلمين واليهود الحاليين ، يتم فيها القضاء على شوكة إسرائيل وكيانهم الحالي ، هذه المعركة هي التي أشار إليها النبي ﷺ في الأحاديث الواردة عنه في قتال اليهود دون أن يذكر الدجال في المعركة .

٣- دلت أحاديث أخرى كثيرة على أن المرحلة التي يخرج فيها الدجال لا يكون هناك أي تواجد لليهود في فلسطين ، بل على العكس أكثر الأحاديث تدل على أن عاصمة المسلمين ورمز قوتهم وتواجدهم الحقيقي سيكون في بيت المقدس ، مما يدل دلالة واضحة على أن اليهود الحاليين لن يكون لهم تواجد في فلسطين أو بيت المقدس في تلك الآونة ،وهذا معناه أن دولة إسرائيل الحالية لن يكون لها أي وجود زمان الدجال ، ومن هذه الأحاديث

أ- ما ورد عن أبي أمامة الباهلي في حديث الدجال الطويل وفيه يقول رسول الله ﷺ : ﴿ ...وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَطِئَهُ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ، لَا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٤ [مسلم بشرح النووي (٢٧٦/٩)]

يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلَّا لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً ، حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الْأَحْمَرِ ، عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ فَتَنْفِي – أي المدينة المنورة – الْخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَلَاصِ ، فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي الْعَكَرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : **هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ** ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . ﴾ (١)

يتضح من هذا الحديث عدة أمور وهي :

- الدجال لن يترك شبراً من الأرض حتى يطأه ويعيث فيه فساداً إلا مكة والمدينة ، يمنع عنهما من الله ، وترتجف المدينة فتخرج منافقيها ليتبعوا الدجال ، ولا يبقى فيها إلا أهل الإيمان الخالص ، ويلحظ أن هؤلاء المؤمنين لا يملكون قوة أو شوكة يستطيعون بها مواجهة الدجال .
- المدينة التي تعتبر عقر دار المسلمين ورمز قوتهم في زمان الرسول لن تستطيع مواجهة الدجال وقتاله ، وهذا أمر يثير للعجب والتساؤل ، فإذا كانت المدينة بمن فيها من العرب والمسلمين والتي تمثل عقر دار المسلمين ورمز قوتهم لا تملك مقومات مواجهة الدجال ، فأين العرب ؟ وهذا ما تعجبت منه أم شريك ومرادها من هذا السؤال التعجبي هو الاستفسار عن العرب الذين يملكون الشوكة والمنعة و قوة المواجهة مع الدجال أين سيكون تواجدهم إذا لم يكونوا في المدينة المنورة عاصمة المسلمين ورمز قوتهم ، فبين النبي عليه السلام أنهم قليل وأكثر تواجدهم سيكون في بيت المقدس ، مما يدل على أنها تكون عاصمة المسلمين ورمز قوتهم أيام الدجال ، وهذا الأمر يقتضي أن تكون دولة إسرائيل الحالية غير موجودة في ذلك الزمان .

(١) سبق تخريجه

ب- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَا وَاللَّهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا ، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ ، خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ...﴾ (١)

هذا الحديث يبن لنا مرحلة خروج الدجال وحال بيت المقدس والشام عند خروجه ، ويمكن بيان ذلك في النقاط التالية :

- يتضح من مجريات الحديث وصريح دلالته أنه ستكون معركة عظيمة بيننا وبين الروم في الشام ينتصر فيها المسلمون ، وينطلقون من الشام إلى بلاد أوروبا فاتحين حتى يفتتحوا القسطنطينية ، وهذا لا يُتصور إلا إذا كانت الشام كلها بين أيدي المسلمين إذ كيف يُتصور أن يفتح المسلمون جبهة للقتال مع أوروبا منطلقين من الشام ، وفي الشام دولة قوية لليهود ، ويترتب على ذلك أنه لا يتصور أن يكون هناك أي تواجد لدولة إسرائيل في تلك المرحلة ؛ إذ لو كانت دولة إسرائيل موجودة في ذلك الوقت – وفي أهم بقعة عند المسلمين وهي بيت المقدس وفلسطين – لانشغل المسلمون بقتالها بدلاً من قتال أوروبا .
- رجوع المسلمين إلى الشام بعد الصيحة الكاذبة من الشيطان ، واستعدادهم لقتال الدجال ، وحديث أبي أمامة السابق يبين أن الاستعداد للقتال يكون في بيت المقدس ، مما يشير إلى أن مركز تواجد المسلمين في الشام سيكون في بيت المقدس ، وذلك يدل

(١) أخرجه مسلم في الفتن و أشراط الساعة برقم ٢٨٩٧[النووي بشرح مسلم (٢١٩/٩)]

دلالة واضــحة على أن تواجد اليهود الحاليين في بيت المقدس سيزول قبل تلك المرحلة .

هذان الحديثان ــ وغيرهما كثير لا يتسع المجال لذكرها (✽) ــ يدلان دلالة جازمة على أنه لن يكون هناك وجود ولا دولة لليهود في فلسطين زمان خروج الدجال (✽✽) ، بل على العكس ستكون فلسطين وبيت المقدس هي مقر خلافة المسلمين ، وفي هذا إشارة واضحة على أنه ستكون هناك معركة بين المسلمين واليهود يتم من خلالها إنهاء وجود اليهود في الأرض المقدسة ، هذه المعركة هي التي أشار إليها النبي ﷺ عند حديثه عن قتال اليهود دون أن يذكر فيها الدجال

هذه الأدلة – وغيرها كثير – تدل دلالة واضحة على معركتين بيننا وبين اليهود ، الأولى تكون موطئة للثانية ، أما ما استدل به أصحاب الفريق الأول من أنها دالة بمجموعها على معركة واحدة فيمكن مناقشة وجهة نظرهم في التالي :

- اتفاق الأحاديث في تفاصيل المعركة ومكانها ، لا يلزم منه اتفاقها في الدلالة على معركة واحدة ، إذ لا مانع من أن تتشابه معركتان في بعض التفاصيل خاصة إذا كانت مع نفس الفئة وفي نفس المكان ، و يؤيد ذلك أن الأحاديث قد اختلفت في

(✽) هناك أحاديث بينت أن خراب المدينة عمران بيت المقدس ، وأنه ستكون في آخر الزمان قبل الدجال عدة هجرات للمسلمين إلى بلاد فلسطين مهاجر أبينا إبراهيم ، وهذه الهجرات تدل على أن قوة المسلمين ورمز عزهم سيكون في بيت المقدس ، وهناك آثار تدل على أن الدجال يخرج بعد غضبة يغضبها ، وقد تكون هذه الغضبة سببها زوال دولة إسرائيل أعظم عون للدجال في إفساده ، وما يترتب بعدها من تدمير لقوة الروم والانتصار عليهم ، وغير ذلك من الآثار والقرائن ، والتي تدل بمجموعها أن دولة إسرائيل لن تبقى إلى عهد الدجال ، وأن هناك معركة بين المسلمين وبين اليهود يتم فيها القضاء على دولة إسرائيل وكسر شوكتهم ، هذه المعركة هي التي أشارت إليها سورة الإسراء في الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، وهي التي أشارت إليها الأحاديث التي انفردت بذكر قتال المسلمين لليهود دون أن يذكر فيها الدجال .

(✽✽) لكي يتضح الأمر أكثر للقارئ يمكن أن يقارن بين هذه التحليلات ودلائلها ، وبين الملاحم الواقعة في عهد المهدي بينه وبين الروم ؛ حيث تتضمن المعارك هناك عدة قرائن تعزز ما ذكرته هنا .

صياغتها بما يوحي أنهما معركتان لا معركة واحدة ، إذ لا بد من اختلاف الصياغة الذي ينجم عنه اختلاف في المعاني والدلالات أن يكون له حكمته ، وإعماله أولى من إهماله ، خاصة إذا صدر ممن أوتي جوامع الكلم ، ولا يكتمل إعماله إلا إذا اعتبرناه دالاً على معركتين وليس واحدة .

- ليس بالضرورة أن تدل صيغة « لا تقوم الساعة » على أن ما بعدها سيقع بين يدي الساعة ، وفي نهاية الزمان ، بل المراد من هذه الصيغة كما يتضح من أحاديث أخرى من أن ما بعدها لا محالة واقع في الدار الدنيا قبل قيام الساعة ، وهناك أحاديث كثيرة قد صُدرت بهذه العبارة وأحداثها قد وقعت قبل قرون عديدة ، وعليه فلا مانع من أن تدل الأحاديث التي صدرت بهذه العبارة على معركة مع اليهود ، ولا يلزم من ذلك أن تكون دالة على نهاية الزمان .
- ليس هناك ما يمنع من أن ينصر المسلمون في هذا الزمان بنصرات وتأييدات غيبية ككلام الشجر والحجر ، بل هم أحوج في هذا الزمان لمثل هذه النصرات من غيرهم ، خاصة في ظل سيطرة الماديات على عقول الناس وقلوبهم في هذا الزمان ، وما يترتب على ذلك من إنكار للأمور الغيبية ،أو زعزعة الإيمان بها .

الوقفة الثانية : لماذا الشجر والحجر .

يلحظ على الأحاديث السابقة أنها ركزت على نوعين من الموجودات دون غيرهما يُنصر بهما المسلم وهما الشجر والحجر ، وقد يطرح هنا تساؤل : لماذا الشجر والحجر بالذات ، وهذا التساؤل قد يصعب الإجابة عليه في الماضي ، أو قد يقف المسلم في الإجابة على نتيجة يتفق عليها الجميع تتوافق وطبيعة النصرات الإلهية وهي: أن كل شيء في هذا الكون هو جندي من جنود الله ﷻ يسلطه على من يشاء كيفما شاء ، فالريح سلطت على عاد والطوفان على قوم نوح والبحر على فرعون ، والشجر والحجر على اليهود في آخر الزمان .

وهذه النتيجة أتفق مع الآخرين عليها ، وهي نتيجة عامة تحكم طبيعة تصورنا للنصرة الإلهية ، والقدرة الربانية ، وهي لا تمنع من البحث عن الحكمة من اختصاص النصرة على اليهود بالشجر والحجر دون غيرهما ، فالاختصاص هنا له حكمته ، والتساؤل هنا يدور فقط حول هذه الحكمة بحثاً عنها ، لعلنا نستفيد منها في تصور طبيعة المرحلة التي نعايشها .

وكما ذكرت قد تصعب الإجابة على هذا التساؤل في الماضي ، أو على من لم يعايش ظروف الواقع المرير الملازم لأهل الرباط في الأرض المقدسة ، أما من يعيش ملابسات هذا الواقع من الفلسطينيين ، فإن الصورة تتضح أمامه جلية ، والحكمة في اختصاص الشجر والحجر لنصرة المسلم تتجلى أمام عينيه في كل لحظة يعايش فيها طبيعة الهجمة الشرسة المسعورة لليهود في الأرض المقدسة ، وأنا واحد من هؤلاء الذين يعيشون هذا الواقع المرير وطبيعة عملي تتطلب المرور يومياً عبر مناطق يتركز فيها اليهود والمستوطنون ، والانتظار كثيراً على الحواجز المتركزة في مواضع مختلفة ، وأذكر أنه بعد حصار دام أسبوعين تم خلاله إقفال الطرق التي تربط بين شمال غزة وجنوبها ، وقفت أمام الحاجز كعادتي ، وهالني ما رأيت : فكثير من البيوت المتواجدة هناك أمست كومة من تراب ، ولحظة وقوفي رأيت شجرة من النخيل تهوي إلى الأرض بفعل الجرافات الإسرائيلية، واستوقفني هذا المنظر متسائلاً : لماذا الشجر والحجر ، لماذا تهدم البيوت وتقلع الأشجار ، وما وجه الأذى الذي تلحقه باليهود وأمنهم ، هذا المنظر نبهني إلى أمر لم يُعهد بهذا الشكل من اليهود ، فاليهود عبر سنين الاحتلال لم يعهد منهم هذه الهجمة الشرسة على الشجر والحجر بهذا الشكل إلا في انتفاضة الأقصى ، وأي شجر هذا الذي نال الحظ الأوفر من هجمتهم ، إنه الشجرة المباركة والشجرة الطيبة في القرآن الزيتون النخيل ، إضافة إلى ذلك لم يعهد عن اليهود أنهم زرعوا هذا الكم الهائل من الكتل الإسمنتية الضخمة بهذا الشكل إلا في انتفاضة الأقصى ، و جدار الفصل العنصري في الضفة أكبر مثال على ذلك حتى أضحى هذا الجدار شبيها بسور الصين ، وشقيقاً لسور برلين .

هذه الهجمة الشرسة على الشجر والحجر ملفتة للانتباه خاصة أن هذين الصنفين لهما علاقة مباشرة وصريحة بأحاديث المصطفى عليه السلام ، فالملاحظ في زماننا هذا وفي انتفاضة الأقصى بالذات أن ظلم اليهود وغطرستهم لم تقتصر على البشر فقط بل تعدتها لتشمل الشجر والحجر ، وبذلك يوطئون من حيث لا يعلمون للمعركة التي يشارك فيها الحجر والشجر مع البشر في الانتقام من تلك الملة الفاسدة ، وتصرفهم هذا إنما يدل دلالة صريحة على قرب هذه المعركة ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

إذا تجمع اليهود في فلسطين فيه إشارة واضحة على صدق نبوة محمد عليه السلام وصدق ما يخبر به ، وهجمة اليهود على الشجر والحجر في انتفاضة الأقصى إشارة واضحة ، وبشارة مطمئنة على قرب معركة الخلاص منهم ، فالمعلوم أن الشجر والحجر هما جزء من الكون الساجد لله ، يقول الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) وهي تشارك غيرها من الكائنات في تسبيح الله ﷻ وتتريهه، يقول الله ﷻ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢)، وهي كغيرها من كائنات هذا الكون الفسيح تتألم لسطوة الكافر وافترائه على الله ﷻ بغير علم ، فالنصارى افتروا على الله ﷻ فرية وادعوا للرحمن ولداً ، وظنوا أن مقولتهم هينة عند الله ، فجاءت الآيات في سورة مريم تبين عظمة هذه الفرية عند الله ، وكيف استقبلها الكون العابد الساجد لله ، يقول الله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا،لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (٣)

---

(١) الحج : الآية ١٨

(٢) الإسراء : الآية ٤٤

(٣) مريم : الآيات ٨٨-٩١

فبمجرد ما افترى النصارى هذه الفرية ، وبين الله عظم جرمهم ، بينت الآيات آثار ذلك على الكون ، فالسماء على عظمتها وسمكها تكاد تتفطر ، والأرض على سعتها لم تحتمل تلك الفرية وتكاد تتشقق ، والجبال بعظمتها وصلابة صخورها تكاد تتحول تراباً لعظمة هذه الفرية على من لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

فالآيات بينت كيف تألمت أعظم عناصر الكون و موجوداته وكادت أن تزول لافتراء النصارى على الله سبحانه وتعالى ،فإذا كان هذا حال الكون مع فرية النصارى الذين وصفهم الله بأنهم ضلوا الطريق،فكيف يكون حال الأرض المقدسة عندما يسكنها أعظم الناس افتراء على الله سبحانه وتعالى واجتراءً عليه ، وكيف بتراب تشبع بدماء الشهداء واختلط بأجساد الأنبياء والربانيين والصحابة ، كيف يكون حاله وقد وطأته أمة مغضوب عليها نزلت عليها لعائن الله المتكررة ، وكيف يكون حال التين و الزيتون والنخيل وغيرهما من الأشجار ممن نالت حظاً وافراً من ظلم يهود ، الأرض المقدسة كلها تتألم لسكنى اليهود بها بما يحملوه وورثوه من ظلم وفساد وافتراء على الله ، ولعل أكثر موجودات الأرض المقدسة ألما الشجر والحجر بما نالا من ظلم سافر مباشر من اليهود،وبما أن الشجر والحجر قد نالا الحظ الأوفر من ظلم اليهود؛إذا فليكن لهما مع المسلم شرف تطهير الأرض المقدسة من أمة لها النصيب الأوفر في كل افتراء على دين الله سبحانه وتعالى وعلى أهله في الأرض .

الوقفة الثالثة : لماذا ذكر النبي ﷺ ما يدل على نهاية صراعنا مع اليهود ، دون أن يتطرق إلى تجمعهم في فلسطين ، وإفسادهم في الأرض ، وإذلالهم للمسلمين .

تبين في الراجح في الوقفة الأولى أن بعض الأحاديث دلت على أن هناك معركة بيننا وبين اليهود تكون سابقة للمعركة الكبرى أيام الدجال ، ودلائل الواقع تشير إلى أن هذه المعركة هي التي يتم فيها القضاء على دولة إسرائيل الحالية .

والحقيقة أن إخبار النبي ﷺ عن معركة يتم فيها إنهاء كيان يهود في فلسطين استوقفني أمام تساؤل استهللت به عنوان هذه الوقفة ومفاده أن علامات الساعة قد نالت حظاً وافراً من السنة النبوية ، بل ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ كان يجلس مع أصحابه الكرام جلسات طوال يخبرهم فيها عن علامات الساعة ، وما سيستجد على الأمة الإسلامية في مستقبلها عبر العصور ، بل بعض رواة هذه الأحاديث من الصحابة صرح بأن النبي ﷺ كان يميل إلى التفصيل في علامات الساعة حتى في الأمور الدقيقة والبسيطة ، وهذا من حرصه على أمته ، لتكون على بينة مما يطرأ عليها سواء كان صغيراً أم كبيراً ، وبالرغم من أن هذا منهج النبي عليه السلام في عرضه لعلامات الساعة ، إلا أنه يلحظ عليه أنه لم يتناول من صراعنا مع اليهود إلا جانباً واحداً من هذا الصراع ، وهو معركة النهاية والخلاص ، وأغفل كثيراً من الصفحات السوداء المريرة مع اليهود ، من بداية تجمعهم في فلسطين إلى حروبهم فيها ، وإذلالهم للمسلمين ، والسيطرة على العالمين الإسلامي والغربي بأفكارهم السوداء ..إلخ

والسؤال الذي يطرح هنا : ما الحكمة في أن يقتصر النبي ﷺ على ذكر المعركة النهائية بيننا وبين اليهود ، ويغفل كل هذه الصفحات السوداء من صراعنا معهم بالرغم من أن صراعنا مع اليهود يمثل حلقة من أهم حلقات الصراع بين الحق والباطل على مدار التاريخ ؟ و بالرغم من أن منهج النبي ﷺ التفصيل في علامات الساعة حتى في الأمور البسيطة .

هذا السؤال الذي استوقفني ، وقد يكون استوقف الكثيرين ممن بحثوا في علامات الساعة عن كل ما يخص صراعنا مع اليهود خاصة مع إلحاح الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون الآن ، وخلال بحثي عن إجابة لهذا السؤال ، وقفت إلى التالي .

- قد يكون النبي ﷺ قد اكتفى بما أشارت إليه سورة الإسراء مـــــن تجمع لليهود في فلسطين ، وفسادهم وعلوهم في الأرض ، ويكون المراد من أحاديثه في هذا الموضوع

هو زيادة في التوضيح لطبيعة المعركة بيننا وبين اليهود مع التنويه لطبيعة النصرة الإلهية للمسلمين من خلال الجمادات .

- – المسلم عندما يرى نفسه أسيراً لواقع مؤلم مظلم ، فإنه لا يبحث على ما يصف حاله ، لأن هذا لا يفيد في إخراجه مما هو فيه ، إنما جل اهتمامه ينصب في البحث عن سبيل للخلاص ، وطريق للنجاة ، وعن بارقة أمل ، أو إشارة نصر ، فهذا ما يفيده في صراعه ، والمسلمون الآن وجدوا أنفسهم أمام هذا الصراع المرير مع اليهود وسطوتهم ، فهل يفيدهم شيئاً وصف هذه الصفحات المظلمة التي يعيشونها ؟ طبعاً لا ؛ لأن وصف الواقع لا يغيره ، بل قد يزيد من وطأته في النفوس ، أما ما يفيد فهو الإشارات الدالة على زوال هذا الواقع المرير ، أو توقيت زواله ؛ لذا اقتصر النبي عليه السلام ما يفيد ، وأغفل غيره. (❁)

(❁) قد يطرح هنا إشكال من البعض فيقول : أنت ادعيت أن وصف الحال لا يفيد ، والمتتبع لفتنة الدجال وما ورد فيها من آثار ، يلحظ أنها تناولت وصفاً كاملاً لكل ملابساتها ، وما سيطرأ على المسلمين من شدة بسببها ، فهل هذا الوصف للشدة أيام الدجال سيزيد الأمر تعقيداً،وإذا كان الأمر كذلك فلم أسهب النبي عليه السلام في تلك التفاصيل .

وللإجابة على هذا الإشكال أقول مستعيناً بالله ﷻ : فتنة الدجال تختلف عن غيرها من الفتن فهي أعظم فتنة تمر بها البشرية عبر رحلتها على الأرض ، وما من نبي إلا وأنذر أمته هذه الفتنة ، ونظراً لخطورة فتنة الدجال ، وخطورة أسلحته من الشهوات والشبهات تطلب الأمر أن يكون المسلم على بينة من تفاصيل هذه الفتنة حتى لا يقع فيها ، ويلحظ على أكثر تفاصيل فتنة الدجال أنها عنيت ببيان بعض الشبهات التي يثيرها الدجال ، والتدابير الواقية من الوقوع فيها ، وهذا الأمر كان جلياً في كل تفاصيل هذه الفتنة ، فعندما يقتل الدجال رجلاً ويحييه بإذن الله ﷻ استدراجاً للقلوب الضعيفة ، نرى أن هذا الرجل قد واجه هذه الفتنة بما علم من تفاصيل نبوية لفتنة الدجال فيقول للدجال عندما يقول له من ربك : « ربي الله ، وأنت عدو الله ، والله ما كنت بعدُ أشد بصيرة بك مني اليوم . » [ابن ماجة (١٣٦٠/٢)] والسؤال من أين جاءت هذه المعرفة بما تضمنت من نور البصيرة ،لابد إنها من سنة النبي بينت كل= = تفاصيل هذه الفتنة بما يدفع عن المؤمنين شبهات الدجال وشهواته ، إذا طبيعة هذه الفتنة ، وطبيعة هدفها المتمثل بإفساد إيمان المؤمن بإثارة الشبهات حوله ، وبث الشهوات أمامه كانت وراء إسهاب النبي عليه السلام في تفاصيلها ليكون المؤمن على بينة من أمره ويتقي شر الدجال بما علم من رسول الله ﷺ ، إذا طبيعة هذه الفتنة تتطلب أن يكون المؤمن على اتصال مستمر بالوحي .

أما غيرها من الفتن التي تبرز مراحل الانحدار ، وسطوة أهل الباطل على الأمة ، كفتنة المسلمين مع اليهود في عصرنا الحاضر ، فالأمر لا يتطلب وصف الواقع بقدر ما يتطلب بيان لحظة الخلاص منه .

- بالرغم من أن الأسباب السابقة لها وجاهتها في بيان الدوافع التي كانت وراء اقتصار النبي ﷺ على ذكر معركة النهاية بيننا وبين اليهود دون الخوض في التفاصيل السابقة لها ، إلا أن هناك سبباً هاماً لا يمكن أن نغفله قد يكون وراء ذلك ، وهو أن من أبرز صفات الحبيب المصطفى ﷺ أنه بشرى للمؤمنين ، وقد ذكر الله هذه الصفة للنبي ﷺ في عدة مواضع في كتابه العزيز ، فالنبي ﷺ هو البشير وهو المبشر ، بل هو البشرى بعينها ، ومن مقتضيات هذا الوصف أن لا تقتصر بشارة النبي ﷺ لما أعد الله للمؤمنين في الجنة بل تتعداه لكل بشرى تخصهم في حياتهم الدنيا عبر مجريات التاريخ ، والمتتبع لمنهج النبي ﷺ يرى أنه كان يبشر الصحابة بخيري الدنيا و الآخرة ، خاصة في اللحظات العصيبة ، وفي أحلك الظروف التي مرت بهم ، فما من لحظة عصيبة ألمت بالمسلمين الأوائل ، وما من موقف أليم تعرض له الصحابة إلا رافقته بشرى من النبي ﷺ ، إما بالنصر أو بقرب العزة و التمكين لهم في الأرض وذلك بالإضافة إلى ما أعد الله للمسلمين من كرامة في الآخرة ، والغرض من هذا المنهج التي اتبعه النبي ﷺ هو رفع همة المسلمين ومعنوياتهم ، وغرس الأمل في قلوبهم ، فهم أهل الحق في الأرض وعاقبة الخير لا بد ستكون لهم ، ويترتب على رفع همة المسلمين أن تزداد ثقتهم بالله سبحانه وتعالى ، ويرتقي يقينهم بخالقهم ، فلا يداخلهم الخور أو الهزيمة النفسية جراء لحظة عصيبة ، أو واقع أليم يعايشونه ، وبعدت في مخيلتهم بسببه النصرة ، أو غابت عنهم بشائر الفرج، فتأتي البشرى لتبين لهم بأنهم وإن قل الناصر لهم في الأرض ، فإن عين الله ترعاهم ، وإن نصرته لهم ليست ببعيدة عنهم ، وإن اشتدت ظلمة الظلم على المسلمين في الأرض حتى غابت الرؤية الجلية عنهم ،فإن وراء هذه الظلمات شمساً مشرقةً وفجراً جديداً يحمل في ثناياه كل معاني الخير والبركة والعزة للمسلمين .

والمتتبع لسيرة النبي عليه السلام يرى هذا المنهج جلياً في جميع مراحله أذكر على ذلك ثلاثة أمثلة من مراحل مختلفة لسيرة النبي عليه السلام يتضح فيها هذا المنهج .

المثال الأول :

- عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا . أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا . قَالَ : ﴿ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١)

الحديث السابق يمثل مرحلة من أشد مراحل الدعوة الإسلامية صعوبةً ؛ حيث كان المسلمون يلاقون التعذيب والتكذيب والحصار الاقتصادي من جميع قريش ، وكانوا لا يرون بسبب الشدة التي هم فيها فرجاً قريباً ، وهم على صبرهم وثقتهم بالله ما كان منهم إلا أن يأتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه الدعاء لهم بالنصر ، وكان الأمر بالنسبة إليهم لا يزداد إلا شدة ، وفي تلك اللحظات التي كان ضعف المسلمين في أشده بحيث لا يلتمسون لحظة أمان واحدة في قريش ، ما كان من نبي البشرى إلا أن بشرهم بالنصر والتمكين ليس على قريش فحسب ، بل في جميع الجزيرة العربية حيث سينتشر الأمن والإيمان ، ويلحظ على هذه البشرى أنها صدرت من النبي عليه السلام في أحلك الظروف التي مرت بالمسلمين ، والغرض من تلك البشرى في تلك الظروف المريرة ، بث روح الأمل في قلوب الصحابة ورفع معنوياتهم ، وغرس الثقة في قلوبهم ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى أراد النبي عليه السلام أن يبين للصحابة ، ولمن خلفهم من أمة الإسلام عبر مجريات التاريخ أن الغلبة لا بد أن تكون حليفة المؤمنين ، وعاقبة الخير لا محالة للمتقين ، ولكن مقتضيات الابتلاء والاختبار من الله سبحانه وتعالى تتطلب أن تمحص القلوب ليميز الله بين الخبيث والطيب ، فالنصر في كل جولة من جولات الصراع لابد أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ، باب علامات النبوة [انظر البخاري مع الفتح (٦/٧١٦)]

للمؤمن ، ولكن المؤمن يستعجل هذا النصر أحيانا ،ولا يصبر على ابتلاء الله سبحانه وتعالى .

المثال الثاني : كيف بك إذا لبست سواري كسرى ومنطقته وتاجه .

هذه الكلمات قالها النبي عليه السلام لسراقة بن مالك عندما طارد النبي عليه السلام طمعاً في جائزة قريش ، وذلك في طريق الهجرة ، والشاهد في هذه الكلمات ما تضمنته من بشرى عظيمة قد لا تتصور ، فالنبي عليه السلام وهو مطارَد من قريش لا يبشر بالنصر على قريش فحسب ، بل ما هو أبعد من ذلك وهو الأنتصار والتمكين على أعظم دولة في زمانه بل يبشر بأن هذا النصر سيكون قريباً من المسلمين وسينال منه سراقة سواري ملك الفرس ،وبالفعل تم النصر على كسرى ، ودعا عمر ﷺ سراقة وألبسه سواري كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له : ارفع يديك ، وقل الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسهما رجلاً أعرابياً من بني مدلج .[(١)]

فالنبي عليه السلام في لحظات الهجرة الصعبة ، وهو مطارد يتخفى من قريش يبشر بنصر قريب وعظيم على أعظم دولة في زمانه ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وضوح الرؤية أمام النبي عليه السلام ، ومدى ثقته بالله ﷻ ، وعلى مدى عنايته برفع معنويات صحابته الكرام خاصة في الظروف الصعبة .

المثال الثالث :

في غزوة الأحزاب وقد جيشت أكثر جيوش الجزيرة العربية ، كان المسلمون في أشد الحاجة لما يرفع معنوياتهم ، وبالفعل عندما نزل رسول الله ﷺ لكي يرفع صخرة اعترضت على المسلمين في الخندق ، ولمعت الصخرة ثلاث مرات ، فقال ﷺ يحدث أصحابه عن السنا المنقدح بين حديد المعول وحدة الصخر : الأولى أضاء الله لي قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأخبرني جبريل عليه السلام بان أمتي ظاهرة عليها ، وفي الثانية

---

(١) انظر ابن الأثير : أسد الغابة (١٩٨/٢)

أضاء القصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرني جبريل عليه السلام بأن أمتي ظاهرة عليها ، وفي الثالثة أضاء لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل عليه السلام بأن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا فاستبشر المسلمون .(١)

هذه البشرى العظيمة بفتح أعظم بلاد ذلك الزمان كانت من النبي عليه السلام في لحظات أحكم عرب الجزيرة قبضتهم على المسلمين من كل مكان ، وبلغت الشدة ذروها على المسلمين ، ووصف الله عز وجل حال المسلمين بقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴾ (٢)

فهذه حال المسلمين ، وهم أحوج ما يكون لما يشد أزرهم ، ويرفع همتهم ، ويبشرهم بنصر يُنصر فيه المسلمون على قريش ومن تحزب معها ، وبالفعل جاءت البشرى بين يدي الغزوة ، ولكنها لم تكن بشرى بالنصر على قريش فقط ، بل أبعد من ذلك ، وكأن لسان حال النبي عليه السلام يخاطب المسلمين قائلاً لهم : لا يهولنّكم ما ترونه من قريش والأحزاب ، فإنكم بإذن الله ﷻ ستنتصرون عليهم ، وتنتصرون على من هو أعظم منهم ، بل ستملكون بلاد أعظم دول عصركم ، لأن هذا وعد الله سبحانه وتعالى لأهل الحق ، وما هي إلا ساعة صبر .

هذا هو منهج الرسول الكريم عليه السلام مع صحابته الكرام في اللحظات الصعبة التي تمر بالمسلمين ، وإذا كان الصحابة بحاجة لما يرفع معنوياهم ، ويشد أزرهم بالرغم من وجود النبي عليه السلام بين أيديهم ، ووحي السماء يتترل عليهم ، فنحن مع انقطاع وحي السماء بموت الرسول عليه السلام ، وغياب شخصه الكريم عنا ، وبعدنا في القرون عن الرعيل الأول وخير القرون أحوج منهم لما يرفع معنوياتنا ويشد أزرنا ، وهذا ما كان

---

(١) انظر ابن هشام : السيرة النبوية (١٠٩/٣) ؛ الغزالي : فقه السيرة (٣١٧)

(٢) الأحزاب : الآية ١٠

من النبي ﷺ من مبشرات للأمة الإسلامية عبر القرون المختلفة لعل من أهمها البشرى بالانتصار على اليهود .

وكذلك هذا المنهج الذي اتبعه النبي ﷺ مع أمته يفسر لنا السبب في تركه لكل هذه الصفحات المظلمة التي يعايشها المسلمون مع اليهود في العصر الحاضر ، وقفزه مباشرة للحديث عن لحظة الخلاص منهم و النصرة الإلهية للمسلمين عليهم ، فإنما أراد النبي البشير ﷺ منا ألا يداخلنا اليأس من روح الله ونصرته ، وألا ننخدع بانتفاش الباطل وقوته في الأرض ، وألا نستعظم قوة اليهود في الأرض لدرجة تجعلنا نستسلم للأمر الواقع ، ونستبعد معه نصرة الله ، فهو لا يريدنا أن نرى أمام أعيننا إلا لحظة الخلاص ، خاصة في اللحظة التي يدعى فيها الجميع أنه لا خلاص ، ويريد أن لا يلمع في عيوننا إلا بريق النصر خاصة في اللحظات التي يبرق فيها نيران مدافع ورشاشات اليهود لطمس كل بريق أمل في عيوننا .

فالمسلم في ظل هذه الظروف المريرة تحت سطوة سيف اليهود ومن والاهم ، عندما يقلب صفحات الواقع الذي يعيشه سواء السياسية أو العسكرية ، أو الاقتصادية ، أو غيرها ، فيراها جميعها تملي عليه أن يستسلم للواقع ، و يستبعد أي نصرة على الكيان اليهودي فيرضخ لسطوة يهود وفسادهم في الأرض ، ويموت في وحل الهزيمة النفسية ، **ثم يأتي ويقلب صفحات الوحي** ، فما يرى أمامه إلا البشرى من الحبيب ﷺ بالنصر على اليهود ، والتمكين في الأرض ، هذا النصر والتمكين الذي سيشاركه فيه الشجر والحجر ، عندها تدب الحياة في المسلم من جديد ، ويستعيد ثقته بدينه أولاً ، ثم ثقته بنفسه كحامل للواء أعظم رسالة عرفتها البشرية ، فيتحرك من جديد ليترجم معاني هذه الرسالة في الأرض ، وقد استنار بنور الله سبحانه وتعالى ، ترافقه بشرى النبي ، وبدر الغلبة والتمكين له ولرسالته عبر ظلمة ظلم اليهود وأعوانهم في الأرض .

إذا رفع همة المسلمين بتبشيرهم بالنصر كان وراء اقتصار النبي على ذكر معركة

الخلاص مع اليهود ، دون أن ينوه لما يسبقها من صفحات مظلمة ، حتى لا يرى المسلم أمام عينه إلا البشرى بالنصر فلا يستسلم لوطأة الواقع الأليم الذي يعيشه .

الوقفة الرابعة: حديث الشجر والحجر والإعجاز النبوي .

تمثل هذه الأحاديث التي تكلمت عن هذه المعركة جانبا من جوانب الإعجاز النبوي للنبي عليه السلام ودليل من دلائل صدق نبوته ، لم يتضح للمسلمين إلا في عصرنا الحاضر ، وبيان هذا الجانب الإعجازي يتضح في أنه لو تناول هذه الأحاديث أحد العلماء المسلمين قبل مائة عام مثلاً ، وقيل له إن دلالة هذه الأحاديث تشير إلى أنه سيكون هناك تواجد وقوة لليهود في الأرض المقدسة ينتهي بمعركة ينتصر فيها المسلمون ، فإنه سيرى تحقق ذلك بعيداً جداً ، أو إنه سيتحير بين عدة أسئلة تدور في ذهنه منها: من أين سيتجمع اليهود في هذه الأرض ونحن لا نرى لهم أي وجود أو تواجد فيها ؟ ومن الذي سيهيجهم للقدوم لهذه البلاد ؟ ومن أين سيستمدون قوهم وسطوهم ؟ وكيف سيتمكنون من إذلال المسلمين وفرض سيطرهم عليهم ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة ، أما الآن ونحن نعايش وجود دولة يهود وسطوهم أصبح الأمر بالنسبة لنا حقيقة لا يلابسها شك ، وهذا مصداق لما أخبر به النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ، فهذه الأحاديث تتكلم عن نبوءة تحققت في زماننا .

وهذا التصور ينسحب على باقي العلامات المستقبلية التي نحار في تصور المراد بها ؛ أو أحياناً نعمل بها سيف التأويل لعدم تصورنا وقوعها بالهيئة التي أخبر بها النبي ﷺ ، ويكفي القول هنا إن الأيام كفيلة لترينا أو تري من بعدنا مصداقية كل حدث أخبر به النبي ﷺ ، وعلى الوجه المراد ، وأن ما يستعظمه البعض قبل مائة عام أضحى حقيقة لا يختلف فيها اثنان ، وما نستعظمه في زماننا ؛ فالأيام القادمة كفيلة بإبرازه في ثوب الواقع حقيقةً لا يماري فيها أحد ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١)

---

(١) النجم: الآيات ٣-٤

الفصل الخامس : الفتن

ويتضمن المباحث السبعة التالية :

المبحث الأول : تعريف الفتن

المبحث الثاني : تحذير النبي ﷺ من قرب الفتن

المبحث الثالث : فتن الشهوات

المبحث الرابع : فتن الشبهات

المبحث الخامس: كثرة الفتن وتتابعها على الأمة

المبحث السادس: الفتن العظام .

المبحث السابع : موقف المسلم من الفتن

المبحث الأول
تعريـــف الفـــتـــن

الفتن : جمع فتنة ، وأصل كلمة فتنة مأخوذ من قول العرب فتنت الذهب والفضة في النار ؛ أي إذا أحرقتهما فيها لتمييز الرديء من الجيد منهما ، وبالتالي أصل الكلمة هو الإحراق بغرض التمييز والاختبار والامتحان لتخليص الشوائب، وتمييز الجيد من الرديء .

وهذه المعاني جاء ذكرها في كتاب الله ﷻ

المعنى الأول : الإحراق . جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ﴾ (١) ؛ أي يحرقون . ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .﴾ (٢) ؛ أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود

المعنى الثاني :الامتحان والاختبار . دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . ﴾ (٣) ؛ أي أحسب الناس أن يتركوا دون اختبار وتمحيص في أموالهم وأنفسهم ليتميز صادق الإيمان عن غيره .

ومنه قوله تعالى في حق المنافقين : ﴿ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ. ﴾ (٤) معناه يختبرون بالدعاء إلى الجهاد فلا يستجيبون .

ومنه قوله تعالى على لسان هاروت وماروت : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ. ﴾ (٥) أي إنما نحن اختبار وابتلاء لكم .

المعنى الثالث : الخلوص من الشوائب من خلال الابتلاء . دل عليه قوله ﷻ

---

(١) الذاريات

(٢) البروج: الآية ١٠

(٣) العنكبوت: الآية ٢

(٤) التوبة: من الآية١٢٦

(٥)البقرة: من الآية١٠٢

لموسى عليه السلام : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونا. ﴾ (١) ؛ أي ابتليناك بالشدائد والمحن وأخلصناك لمقام الرسالة إخلاصاً

هذا المعنى الأصلي ولوازمه لكلمة فتنة ، أما من المعاني المجازية لكلمة الفتنة فهي :

١- **الضلال والإثم و الميل عن الحق** : لذا يقال عن الشيطان فتان لأنه يميل بالناس عن طريق الحق بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي ، والفاتن : المضل عن الحق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ .﴾ (٢) أي لا تقدرون أن تميلوا عن الحق إلا من قدر الله ﷻ له ذلك وكان من أهل الجحيم .

أما كون الفتنة بمعنى الإثم فيدل عليه قوله تعالى على لسان المنافقين قولهم لرسول الله ﷺ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي. ﴾ (٣) أي اسمح لي بعدم الخروج معك لقتال بني الأصفر - أي الروم - حتى لا أضل بسبب بناهم فأقع في الإثم .

٢- **الكفر** : يدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ. ﴾ (٤) والمراد بالفتنة هنا الكفر .

٣- **الجنون والميل عن إعتدال العقل** : ومنه قـوله تعالى ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ . ﴾ (٥) أي المجنون الذي خرج عن طور الصواب .

٤- **الإعجاب بالشيء أو الوله الشديد وما يترتب عليه من فجور .**

يقال : افتتن الرجل بالمرأة إذا أعجب بها وتعلق بها تعلقاً عجيباً ، ويقال : فتن إلى النساء إذا أراد الفجور بهن .

---

(١) طـه: من الآية٤٠

(٢) الصافات: الآية ١٦٢

(٣) التوبة: من الآية٤٩

(٤) البقرة: من الآية١٩١

(٥) القلم: الآية ٦

٥- **القتل ، واختلاف الناس في الآراء :** ومنه قوله ﷻ : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُم . ﴾ (١) أي على خوف من فرعون أن يقتلهم .

ومنه قول النبي لصحابته : ﴿ إني أرى الفتن خلال بيوتكم . ﴾ فالمراد بالفتن هنا ما يقع بين الصحابة من اختلافات يترتب عليها حروب وحصول قتل بينهم .

نظرة تحليلية لمعاني الفتنة لغوياً :

يلحظ من معاني كلمة فتنة أن أصلها اللغوي يطلق على المحن والابتلاءات التي تعرض للناس بقصد اختبارهم ، وهي بمعناها الأصلي ترادف معنى الامتحان والاختبار ؛ إلا أنها كثر استخدامها للدلالة على الاختبار بالمكروه ، ثم كثر استخدامها بمعنى الإثم والقتل والكفر والإمالة عن الحق .

يقول ابن الأعرابي : « الفتنة :الاختبار . والفتنة : المحنة ، والفتنة : المال والفتنة : الأولاد والفتنة : الكفر ، و الفتنة : اختلاف الناس بالآراء . » (٢)

ويقول ابن حجر نقلاً عن غيره : « أصل الفتنة الاختبار ، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه ، ثم أطلقت على كل مكروه ، أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك . » (٣)

ويقول سعيد حوى : « الفتنة في اصطلاح الشارع تطلق على الصراعات الداخلية غير المبصرة بين المسلمين كما تطلق على نشر الآراء الشاذة ، وتطلق على الاضطهاد الذي يسلطه الكافرون أو الظالمون على المؤمنين ، كما تطلق على الفوضى وعلى الخوض بلا تبين في المعارك السياسية والعصبيات والهجوم والتهجم بسببها ، وتطلق على ما يفتن الإنسان في دينه من مال أو جاه أو خواطر باطنة أو اتجاهات باطلة ويدخل في اسم الفتنة التحريش بين الناس والتفريق بين المتحابين .» (٤)

---

(١) يونس: من الآية٨٣

(٢) ابن منظور : لسان العرب (٣١٧/١٣ وما بعدها)

(٣) ابن حجر : فتح الباري (٥/١٣)

(٤) حوى : الأساس في السنة ، قسم العقائد (٥٢٣/١)

وعليه يمكن أن يقال أن معنى الفتنة ما يعرض للناس من محن وممحصات من خارج الأمة أو داخلها ، على مستوى الأفراد والجماعات والعصبيات سواء كانت الفتن متعلقة بالشهوات أو الشبهات بما يترتب عليه ضلال البعض وميلهم عن طريق الحق أو اختلاف قلوبهم وما ينتج عن ذلك من وقوع القتل بينهم أو وقوعهم في الإثم أو الضلال أو الخروج من دين الله إلى الكفر .

تنبيه :

نلحظ من خلال تعريف الفتنة ؛ أنه يختلف المراد بها حسب دلائل الحال ، والسياق أو المناسبة التي سيق النص لأجلها ، وهذا المعنى لا بد من ملاحظته خلال حديثنا عن الفتن .

المبحث الثاني
تحذير النبي ﷺ من قرب الفتن وموطنها

وهذا المبحث تضمن مطلبين ، وذلك على النحو التالي :

المطلب الأول : تحذير النبي ﷺ من قرب الفتن

📖 - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتِ : ﴿ اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ . ﴾ (١)

شرح غريب الحديث :

أنزل : المراد بالإنزال هنا إعـــلام الملائكة للنبي ﷺ بما قُدر من فتن ستقع فيها الأمة ، أو أن النبي ﷺ أوحي إليه في نومه ذاك بما سيقع بعده من الفتن فعبر عنه بالإنزال

الخزائن : أي ما سيفتح على المسلمين من خزائن كسرى وقيصر ، وما يترتب على ذلك من فتن . وقد يكون المراد بفتح الخزائن ما يترل من الفتن فتكون تأكيداً للعبارة السابقة .

صواحبات الحجر : أراد النبي ﷺ أزواجه، وإنما خصهن بالإيقاظ لأهن حاضرات حينئذ.

شرح الحديث :

- الحديث فيه إشارة إلى قرب الفتن ورؤية النبي ﷺ لها وتعجبه من كثرها أو عظم خطرها ، فبدأ بأقرب الناس إليه وهن نسائه لإيقاظهن للصلاة في جوف الليل لتكون صلاقمن جنة لهن من هذه الفتن التي ستعرض للصحابة ، وفي الحديث إشارة إلى أن الصلاة في جوف الليل من العواصم من الفتن .

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم ١١٥ [فتح الباري (١/٢٥٣)]

- يقول ابن حجر : « وفي الحديث استحباب الإسراع إلى الصلاة عند خشية الشر كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وأمر من رأى في منامه ما يكره أن يصلي... وفيه التسبيح عند رؤية الأشياء المهولة ، وفيه تحذير العالم من يأخذ عنه من كل شيء يتوقع حصوله ، والإرشاد إلى ما يدفع ذلك المحذور » (١)

- عن أُسَامَةَ بن زيد رضي الله عنه قَالَ : أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ : ﴿ هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى ؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ . ﴾ (٢)

شرح غريب الحديث :

أرى : يحتمل أن تكون بمعنى العلم ، أو أن الفتن قد مثلت له فرآها رأي العين ، كما مثلت له الجنة والنار .

أشرف : نظر من مكان مرتفع

أطم : جمعها آطام وهي الحصون التي تبنى من الحجارة .

مواقع القطر : مواضع سقوط المطر ، شبه سقوط الفتن وتواليها بسقوط المطر في الكثرة والعموم .

شرح :

- يحذر النبي ﷺ صحابته الكرام من الفتن القريبة منهم ، وبدأ تحذيره بصيغة استفهام ، وورد في رواية أن الصحابة قالوا للرسول ﷺ : لا ؛ أي لا نرى ما تراه ، ثم بين لهم النبي ﷺ ما كشف الله له أو ما أعلمه من فتن مستقبلية ستحل في مدينتهم وتعمها وشبه نزولها بالمطر للدلالة على عموم هذه الفتن وانتشارها ، وهذا ما وقع كما أخبر النبي ﷺ فقد بدأت الفتنة بالمدينة بمقتل عثمان رضي الله عنه ثم

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (١/٢٥٥)

(٢) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٧٨ [فتح الباري (٤/١١٣)]

عمت البلاد بعدها .

- هذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة ؛ ووجه الإعجاز فيه الإخبار بأن الفتن ستتوالى على الصحابة فهي كالمطر ، وهي خلال البيوت ؛ أي سيكون لكل بيت نصيب منها وإن قل ، وتخصيص كون بداية الفتن في المدينة ، وهذا ما حصل ؛ حيث كان مقتل عثمان ﷺ الشرارة الأولى لتلك الفتن ، يقول ابن حجر : « وإنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب قتل عثمان ، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولد عنه . ثم أن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمرائه ، ثم عليه بتوليته لهم ، وأول ما نشأ ذلك من العراق وهي من جهة المشرق فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتي أن الفتنة من قبل المشرق. » (١)

- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال ، حدثني زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ قَالَ كَذَا كَانَ يَقُولُ الْجُرَيْرِيُّ فَقَالَ مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا قَالَ فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ قَالَ : مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ فَقَالَ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ فَقَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ قَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ قَالَ : تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . ﴾ (٢)

---

(١) فتح الباري (١٦/١٣)

(٢) أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها برقم ٢٨٦٩ [مسلم بشرح النووي (١٩٣/٩)] .

شرح :

في الحديث درس عملي للاستجارة بالله من عظائم الأمور ،بدأها النبي ﷺ بأقرب هذه العظائم وهي عذاب القبر وفتنته ، ولعل سياق القصة كان وراء البدء به ، و لم يقتصر النبي ﷺ عليه ، بل نبه الصحابة للاستعاذة بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وفي هذا إشارة إلى أن مجموع الفتن لا يكون ظاهراً للجميع بل هناك فتن باطنة قد يقع فيها الإنسان دون إدراك منه أو تمييز لها ، وهذا يتفق مع كون الفتنة يلتبس فيها الحق بالباطل والخير بالشر ، بل قد تدخل على قلب الإنسان من باب الخير .

ثم نبه الصحابة للاستجارة من فتنة الدجال ، وهذا من باب عطف الخاص على العام ، وتخصيص هذه الفتنة عن غيرها لعظم خطرها وشموله .

📖 - عَنْ أَنَسٍ ﷺ أن الصحابة سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ الْمَسْأَلَةَ فَغَضِبَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ ﴿ لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي فَإِذَا رَجُلٌ كَانَ إِذَا لَاحَى الرِّجَالَ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَنْ أَبِي ؟ قَالَ : حُذَافَةُ . ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ : رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

أحفوه : أي ألحوا عليه في المسألة .

لاحي : خاصم

شرح :

في الحديث إشارة إلى أن أكثر أسئلة الصحابة في ذلك المقام كان في الغيبيات والأمور المستقبلية ، يرشد إلى ذلك تعوذ عمر ﷺ من الفتن ، ويؤكد ذلك رواية

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات برقم ٦٣٦٢ ، [فتح الباري (١٧٧/١١)] ؛ ومسلم في الفضائل ٢٣٥٩ [مسلم بشرح النووي (١١٠/٨)]

البخاري أن الرسول ﷺ قال : ما رأيت كالخير والشر كاليوم قط .

كذلك في الحديث إشارة إلى ضرورة التعوذ من الفتن .

- عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: ايْمُ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا . ﴾ (١)

شرح الغريب :

إيم الله : أحد أشكال القسم بالله

فواها : المراد بها في الحديث التعجب ؛ أي كأنه قال ما أحسن وما أطيب من ابتلي فصبر على البلاء .

شرح :

١- الحديث فيه إشارة إلى ضرورة تجنب الفتن وعدم التعرض إليها ؛ واعتبره النبي ﷺ عنوان سعادة صاحبه ، فالملابس للفتنة والمتعرض لها لا بد سيصيبه من غبارها ؛ لذا كان تجنبها من أصلها أسلم ، وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر ثلاث مرات ليعزز فكرة الحذر من الفتن وتوخي تجنبها .

٢- أحياناً يحاول الإنسان تجنب الفتن ألا أن الفتن تدركه مع هربه منها ، وأحياناً يدخل البعض في غمارها فيباشرها ، أو يسعى فيها ظاناً أنه سيسلم من لذغاتها ، فتصيبه الفتن ببلاءاتها ، فإن صبر الإنسان على الابتلاء ، وثبت على اعتصامه بالدين ، فهذا الإنسان محط إعجاب رسول الله ﷺ .

٣- والمعلوم أن كل أمر أُشبه على المسلم ، ولم يستبن فيه الحق من الباطل فهو من الفتن الواجب اجتنابها ، خاصة إذا ترتب على هذا الأمر فرقة أو اختلاف قلوب

---

(١)أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٣ [عون المعبود (٣٤٤/١١)] ، والحديث حسن [انظر العدوي : الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم (٢٣٨)]

أو الخوض في الدماء ، أو يكون للسان فيها وقع أشد من السيف في إثارة النفوس وتهييجها .

- عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ . ﴾ (١)

شرح :

١- هذا الحديث فيه بشارة لأمة محمد ﷺ باختصاصها من بين سائر الأمم بعناية الله ورحمته ، يدل على ذلك قول النبي ﷺ هذه قبل قوله أمة مرحومة ، وجانب الرحمة لهذه الأمة أنها تبتلى ببلايا تكون كفارة لها على ذنوبها في الدنيا ؛ أي أن هذه الأمة تتميز عن غيرها بتعجيل عقوبات الذنوب الموجبة للنار في الدنيا ، لتطُهر منها ، و مــن أنواع البلايا المكفرة للذنوب الفتن والزلازل و القتل كما بين الحديث .

٢- هناك إشكال في الحديث وهو أن مقتضاه يشير إلى أنه لن يدخل النار أحد من أمة محمد ﷺ مع أنه ثبت أن أفراد من الأمة يدخلون النار بسبب معاصيهم ، و يمكن دفع هذا الإشكال بأن المراد بالأمة هنا أصحاب رسول الله ﷺ على وجه الخصوص يدل على ذلك قول النبي ﷺ أمتي هذه ؛ أي الموجودون الآن أو قرنه ، أو يراد به جماعة من الأمة لم تأت ، أو يراد به من كان من الأمة على مثل ذنوب الصحابة دون من غير وبدل منها ؛ أي الفرقة الناجية من السبعين فرقة فهذه إن كان في أفرادها بعض الذنوب ؛ تأتي المصائب والفتن كفارات لها .

٣- الحديث فيه إشارة إلى أن الأمة سيكثر فيها الفتن والمصائب ، وواقع الأمة يشهد لذلك منذ الرعيل الأول - أي زمان فتنة مقتل عثمان - إلى عصرنا

---

(١)أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم برقم ٤٢٥٨ [عون المعبود (١١/ ٣٥٨ ، والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٣٧٢ ، وقال صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٤٩١)]

الحاضر ، بل نلحظ أن الفتن والمصائب قد أحكمت قبضتها على الأمة في زماننا حتى أصبحت موطناً لها من دون الأمم ، بل أصبحت هذه الأمة وتعاليم دينها هي المتهم الوحيد في عالمنا ، ولعل هذا المعنى يشير إليه الأثر الوارد عن أبي الجلد : « ليصيبن أهل الإسلام البلاء والناس حولهم يرتعون ،حتى إن المسلم ليرجع يهودياً أو نصرانياً من الجهد . » (١) .

٤- الحديث يبث روح الطمأنينة في قلوب المخلصين ويدفع عن قلوبهم الشك ؛ إذ قد يضطرب البعض عندما يرى ما أصاب الأمة من دون الأمم من فتن أو بلاءات ، أو ما يلحق الصالحين من الأمة على وجه الخصوص من مصائب ، فيظن أن هذه عقوبة ما بعدها يوم القيامة يكون أشد منها ؛ فجاءت الإشارة في الحديث لدفع هذا التوهم من القلب ، وإثبات خلافه وهو أن ما يصيب الأمة في الدنيا ما هو إلا عنوان من عناوين الرحمة بها بتعجيل عقوبة بعض الذنوب في الدنياً ، وهذا المعنى دل عليه القرآن في مواضع عدة ، و أشار إليه النبي ﷺ عندما رأى عمر ﷺ يبكي لحال النبي ﷺ عندما أثر في جنبه الحصير وهو رسول الله ﷺ وكسرى وقيصر يتنعمون في الثمار والأنهار ، فقال له :﴿ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا . قُلْتُ : بَلَى ﴾ (٢)

(١)ابن حماد : الفتن (٢١)

(٢)أخرجه ابن ماجة في الزهد برقم ٤١٥٣ [السنن (١٣٩٠/٢)]

المطلب الثاني : موطن الفتن ومنبع خروجها

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَقَالَ: ﴿ هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا ، إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ. ﴾ (١)

- عن سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قال : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَسْأَلَكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ وَأَرْكَبَكُمْ لِلْكَبِيرَةِ سَمِعْتُ أَبِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ وَإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَأً فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ (وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

قرنا الشيطان : مثنى قرن ، و قد جاء في بعض الأحاديث مفرداً ، وفي بعضها جذل الشيطان ، وقد اختلف في المراد به على أقاويل شتى ، ويطمئن قلبي إلى أن المراد به حبائل الشيطان التي يصطاد بها قلوب الناس ، ويكون المراد بالحبائل هنا أعوان الشيطان الذين يرتكز أكثرهم في جهة الشرق عموماً ، والذي حملني على هذا المعنى أن من معاني القرن ما يفتل منه الحبل أو الشعر ، ومن معانيه حبائل الصياد التي يفتلها ليصطاد بها ، وبالتالي يكون المقصود بقرني الشيطان شيعته أو جمعه من الكفار الذين يغريهم بإضلال الناس . (٣)

---

(١)أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم ٣٢٧٩ [البخاري مع الفتح (٣٨٧/٦)] ؛ ومسلم في الفتن برقم ٢٩٠٥ [مسلم بشرح النووي (٢٢٨/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٠٥ [مسلم بشرح النووي (٢٢٨/٩)]

(٣)راجع : ابن منظور : لسان العرب (٣٣٤/١٣) ؛ ابن حجر : فتح الباري (٥١/١٣) ؛ النووي : شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٤) ؛ العدوي : الصحيح المسند (٨٨)

شرح :

١- الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن منبع الفتن المضلة هي الشرق وعلى وجه الخصوص العراق ، والناظر في تاريخ الأمة يرى أن أكثر فتن المسلمين إضافة إلى فتنة مقتل عثمان ﷺ كان منبعها من العراق ، ثم انتشرت في باقي البلاد ، وجهة الشرق على وجه الخصوص ، بل المتتبع لتاريخ الفرق المارقة في الإسلام يجد أن منشأ أكثرها كان في العراق .

٢- في الحديث إشارة إلى استهانة أهل العراق بالدماء ، ومنشأ استهانتهم تأويلاتهم الفاسدة التي استباحوا فيها دماء بعضهم البعض .

- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ مِنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الْفِتَنُ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَالْجَفَاءُ وَغِلَظُ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

الفدادين : جمع فداد، واختلف في المراد به على ثلاثة أقوال : الأول : هو البقر الذي يحرث عليه ، والثاني : هو آلة الحرث ، الثالث : هم أصحاب الإبل الكثيرة من المائتين إلى ألف ، والمقصود بها في الحديث أنهم أصحاب الأموال الكثيرة والجمالون الذين يشتغلون بمعالجة بما هم فيه من أموال ولا يلتفتون لأمور دينهم ، وذلك يفضي إلى قساوة قلوبهم .

أهل الوبر : أهل البادية ؛ والعرب تقول عن أهل الحضر أهل مدر ، وعن أهل البادية أهل وبر

ربيعة ومضر : قبيلتان عربيتان لهما بطون وأفخاذ كثيرة تنسبان إلى ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان،وإلى هاتين القبيلتين تنسب أكثر القبائل العربية ، أو جلها

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ، برقم ٣٤٩٨ [البخاري مع الفتح (٦/ ٦٠٨)]

- عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ مُضَرَ لَا تَدَعُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ عَبْدًا صَالِحًا إِلَّا فَتَنَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ حَتَّى يُدْرِكَهَا اللَّهُ بِجُنُودٍ مِنْ عِبَادِهِ فَيُذِلَّهَا حَتَّى لَا تَمْنَعَ ذَنَبَ تَلْعَةٍ . ﴾ (١)

- قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه :﴿ وَاللَّهِ لَا تَدَعُ مُضَرُ عَبْدًا لِلَّهِ مُؤْمِنًا إِلَّا فَتَنُوهُ أَوْ قَتَلُوهُ أَوْ يَضْرِبُهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ حَتَّى لَا يَمْنَعُوا ذَنَبَ تَلْعَةٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَتَقُولُ هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ وَأَنْتَ رَجُلٌ مِنْ مُضَرَ قَالَ : لَا أَقُولُ إِلَّا مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . ﴾ (٢)

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفِي نَجْدِنَا قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفِي نَجْدِنَا فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

نجدنا : نجد هي كل ما ارتفع من الأرض كما يقال لما انخفض منها الغور ، والمعلوم أن المدينة هي جزء من تهامة التي تعتبر غوراً بالنسبة للجهة الشرقية .

- عن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أَتَتْنِي الْمَلَائِكَةُ فَحَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَى الشَّامِ أَلَا فَالْإِيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ . ﴾ (٤)

---

(١)أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار ؛ والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٤٤٩ ، و صححه وأقره الذهبي . [المستدرك (٥١٦/٤)]

(٢)أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار ؛ والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٤٥١ ، و صححه وأقره الذهبي . [المستدرك (٥١٧/٤)]

(٣)أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٩٤ [البخاري مع الفتح (٤٩/١٣)]

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٥٥٤ ، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي [المستدرك (٥٥٥/٤)]

شرح المعنى العام للأحاديث السابقة :

١- يتضح من الأحاديث السابقة أن موطن الفتن وحبائل الشيطان وأنصاره هي جهة الشرق على وجه الخصوص ، و المتتبع للتاريخ الإسلامي يجد أن أكثر الفتن كانت من هذه الجهة ، وما زالت هذه الجهة تترا علينا بالفتن إلى أن يكون آخرها فتنة الدجال لعنه الله سبحانه وتعالى .

٢- يلحظ من الأحاديث أنها أشارت بالبركة إلى ثلاثة مواطن وهي الحجاز والشام واليمن ، وخصت الشام بأنها موطن الإيمان عند اشتداد الفتن ووقوعها .

٣- لا تعني الأحاديث السابقة أن غير الشرق لا تكون فيه فتن ، وغاية ما تدل عليه أن غالبية الفتن تكون من جهة الشرق ، وأن تمكن الشيطان في إثارة الفتن فيها أكثر من غيرها ؛ حيث يجد له أعواناً كثر من شياطين الإنس فيها ، وهم قرون الشيطان .

٤- يلحظ في حديث أبي مسعود أنه ربط بين الفتنة في جهة الشرق ، وبين غلظة قلوب ربيعة ومضر ، وانشغالهم في دنياهم على حساب دينهم ، وكأن الحديث يشير إلى أحد أهم أسباب إثارة الفتن ، وهو الانشغال في الدنيا وتعظيمها وطلبها مقابل الإعراض عن الدين وتعاليمه ، وكذلك قسوة القلوب وغلظها ، وهذان الأمران كانا فتيل الفتن في بني إسرائيل ووقوده ، وسيكونان كـــذلك في أمة محمد ﷺ .

٥- نلحظ من حديثي حذيفة أنهما دلا على أن مضر ستكون مشعلاً من مشاعل الفتن بالأرض ، وسيكون فيها ، أو في أحياء منها من يلاحق المؤمنين إما بفتنهم أو بقتلهم إلى أن يأتي أمر الله سبحانه وتعالى بإطفاء شعلتهم ورد كيدهم .

٦- الأحاديث السابقة تعتبر من أعلام نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع ما أشار إليه النبي ﷺ على الوجه الذي قال .

المبحث الثالث
فتـــن الشـــهـــوات

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (٢)

- عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَكُونُ خَلْفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ مُؤْمِنٌ وَمُنَافِقٌ وَفَاجِرٌ قَالَ بَشِيرٌ فَقُلْتُ لِلْوَلِيدِ مَا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ فَقَالَ الْمُنَافِقُ كَافِرٌ بِهِ وَالْفَاجِرُ يَتَأَكَّلُ بِهِ وَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِهِ . ﴾ (٣)

المعلوم أن الشيطان يدخل على قلب الإنسان من بابين هما الشهوات أو الشبهات ، والشهوات هي الباب الأيسر على الشيطان للولوج من خلاله إلى قلب المؤمن ، ويعبر عن الشهوات بالدنيا (۞) والتعلق بها ؛ لأن التعلق بها معناه الركون إلى شهواتها وطلبها ، وطلب الشهوات مدعاة للإعراض عن الآخرة ؛ لذا جاء الربط في القرآن بين تضييع الصلاة واتباع الشهوات ، وهذا للتلازم بينهما .

---

(١) آل عمران:١٤

(٢) مريم:٥٩

(٣) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٦٤٣ ، وصححه ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٩٠)]

۞ الصحيح أن فتنة الدنيا على وجه العموم تشمل الشهوات والشبهات ، إلا أن حال تعلق الإنسان بالدنيا إنما يكون في جانب الشهوات ، و يترتب على رتعه في الشهوات الوقوع في مصيدة الشبهات ، فمبدأ الأمر في الشهوات، واستحكامه يكون في الشبهات .

ووفق ترتيب سورة آل عمران ، فإن أشد شهوات الدنيا إغواءً ، أو شمولاً في التأثير النساء ، ثم البنين ، ثم المال وما يتعلق به من منصب وجاه .

والحديث عن أبي سعيد يشير إلى أن الأمة ستبتلى بالشهوات بعد ستين سنة ؛ فإن كان من البعثة ، فيراد به مرحلة ملك يزيد من بني أمية ، وما بعدها ، وهي إمارة الستين التي كان يتعوذ منها أبو هريرة ﷺ .

المطلب الأول : فتـنـة الدنـيا

منشأ فتنة الدنيا غفلة الأمة أو أفراد منها عن عظمة الآخرة ، فلا يرى المسلم أمام عينيه إلا تنافس الناس على حطام الدنيا ، فإن دخل في مضمارهم أصابته لوثتها فأعمت قلبه عن الآخرة وركن إليها ، والركون إليها معناه حرمان المسلم من أخص خصائص إيمانه ، فيصبح صورة بلا معنى ، فلا يطلب بأعماله حتى الدينية منها إلا حطام الدنيا وزينتها ؛ ويكون بذلك قد خرج من مضمار الآخرة وأهلها من حيث لا يدرك ، وكيف يدرك من غرته الدنيا وزين له الشيطان حطامها ، و جعل ثمرات دينه أماني يتمناها دون أن ينالها فيكون ممن قال عنه الله ﷻ : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ (١) .

أولاً : الشر قد يكون في مكمن الخير ، وهنا الخطر .

📖 - عن عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيَّ قال : قال رسول الله ﷺ عندما جاء أبو عبيدة بجزية البحرين : ﴿ أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ . ﴾ (٢)

(١) الكهف : الآية ١٠٤

(٢) أخرجه البخاري في الجزية برقم ٣١٥٨

إشارة :

الحديث تضمن تحذيراً للأمة من انبساط الدنيا على المؤمنين ، ودلالته واضحة في أن انبساطها يترتب عليه المنافسة المفضية للهلاك ، وهي سنة ربانية في كل أمة تنفتح على الدنيا وتتنافس عليها ، ومن تتبع تاريخ الأمة خاصة في المرحلتين الأموية والعباسية وما بعدها علم كم أُزهقت أرواح لأجل الدنيا وزينتها وطمعاً في الملك الزائف .

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا ، فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا ، وَثَنَّى بِالْأُخْرَى فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ فَقَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا ؟ أَوَخَيْرٌ هُوَ ثَلَاثًا إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ كُلَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴾ (١)

شرح :

الحديث فيه إشارة واضحة مع التمثيل إلى أن التوسع في الدنيا ، والخروج بها من دائرة الحاجات إلى دائرة الترف والشهوات سبب أكيد للهلاك ، وهذا المعنى أكد عليه القرآن الكريم كثيراً ؛ حيث ربط بين حصول الترف ، وبين وقوع العقاب ، وفيه إشارة إلى أن الترف سبب موجب للعقاب .

- عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٨٤٢ [البخاري مع الفتح (٥٧/٦)]

كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ . ﴾ (١)

شرح :

- أحياناً يظن المؤمن أن إعراض الدنيا عنه باب شر قد فتح عليه ، وهذا وهم أو هاجس شيطاني يقع به المؤمن من حيث لا يعلم ، بل الشر الحقيقي هو في إقبال الدنيا عليه وتزينها وفتنها له ، أما إعراضها عنه ففي الغالب أنه باب من أبواب العناية الإلهية بهذا المؤمن ، وقد يكون في قدر الله سبحانه وتعالى أنه إذا فتحت عليه أبواب الدنيا فُتن .
- يتضح من الحديث أن إعراض الدنيا عن البعض إنما هو وسيلة حمية علاجية لبعض القلوب من باب المحبة الإلهية لهم ؛ لأنهم محط نظر الله وعنايته .

ثانياً : فتنة الدنيا لا يسلم منها أحد .

📖 - عَنْ وَبَرَةَ قَالَ : « سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما : أَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَقَدْ أَحْرَمْتُ بِالْحَجِّ ؟ فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ قَالَ إِنِّي رَأَيْتُ ابْنَ فُلَانٍ يَكْرَهُهُ وَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ رَأَيْنَاهُ قَدْ فَتَنَتْهُ الدُّنْيَا ، فَقَالَ وَأَيُّنَا أَوْ أَيُّكُمْ لَمْ تَفْتِنْهُ الدُّنْيَا ؟ ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَلَّمَ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ وَطَافَ بِالْبَيْتِ وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَسُنَّةُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ مِنْ سُنَّةِ فُلَانٍ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا . » (٢)

أقول :

- المراد بابن فلان الذي أفتى بالكراهة ابن عباس رضي الله عنهما ، وزعم الرجل بأنه فتنته الدنيا ، وذلك لأن ابن عباس قبل بأن يكون والي على البصرة ، والولاية محل الخطر والفتنة .
- قول ابن عمر أيكم لم تفتنه الدنيا من باب التواضع ، وحسن الأدب خاصة عندما رأي من البعض أنهم يعرضون بحبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ، فكأنه يقول

---

(١) أخرجه الترمذي في الطب برقم ٢١٠٧ ، وقال : هذا حسن غريب [تحفة الأحوذي (١٨٩/٦)]

(٢) أخرجه مسلم في الحج برقم ١٢٣٣ [مسلم بشرح النووي (٤٥٢/٤)]

للسائل بأن ما تحذره من ابن عباس رضي الله عنهما قد وقع فيه الجميع ، ولكلٍ نصيب من فتنة الدنيا ، وبشكل يغاير الآخر .

ثالثاً : طلب الدنيا والإعراض عن الآخرة بوابة الفتن العظمى .

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَبِي يَغْتَرُّونَ ؟ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا .﴾ (١)

- عَنْ كَعْبٍ قَالَ : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ نَعْتَ قَوْمٍ يَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ وَيَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الْعِبَادَةِ وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَيَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ فَبِي يَغْتَرُّونَ ؟ أَوْ إِيَّايَ يُخَادِعُونَ ؟ فَحَلَفْتُ بِي لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ . ﴾ (٢)

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: لَقَدْ خَلَقْتُ خَلْقًا أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ فَبِي حَلَفْتُ لَأُتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا فَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ ؟ ﴾ (٣)

ملاحظة :

هذا الحديث في كل رواياته ضعف إلا أنها يجبر بعضها بعضاً ؛ وقد حسن الترمذي حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ونقل المنذري تحسين الترمذي وأقره على ذلك ؛ لذا أقل أحوال هذه الأحاديث أنها من باب الحسن لغيره ، أو الضعيف المنجبر .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد برقم ٢٥١٥ [الترمذي مع تحفة الأحوذي (٨٦/٧)] قال الألباني : ضعيف جداً [سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٤٠٤] ومتن الحديث له شواهد كثيرة

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة برقم ٣٠١ [السنن (١٠٢/١)]

(٣)أخرجه الترمذي في الزهد برقم ٢٥١٦ ، وقال عنه : حسن غريب [الترمذي مع تحفة الأحوذي (٨٦/٧)] قال الألباني : ضعيف

الشرح :

- الأصل في هذه الأمة أنها أمة آخرة ، وصلاح الدنيا في حقها إنما يكون نتيجة لصلاح الآخرة في قلوبهم وسلوكهم ؛ أي صلاح الدنيا مترتب على صلاح الآخرة في فكر الأمة وسلوكها ، فإذا ابتليت الأمة بمن لا يهتم إلا بصلاح الدنيا ولو كان ذلك على حساب خراب الآخرة ، ويسوق صلاح الدنيا على أنه هو عين صلاح الآخرة ، فهذه هي الطامة الكبرى والفتنة العظمى ، وهي المرادة من الأحاديث السابقة التي تتحدث عن فساد طريقة تفكير الفئة المؤثرة في المجتمع .
- مجموع هذه الأحاديث يشير إلى نوعية من الناس يظهرون النسك والزهادة وطيب الكلام ومعسوله ، وهم في حقيقتهم طلاب دنيا، هي همهم الأكبر ، و معبودهم الأول ، ظاهرهم يخالف باطنهم ، وقلوبهم تخالف ألسنتهم ، يطلبون الدنيا بعمل الآخرة .
- هذه الفئة من الخلق هي سبب فتنة في المجتمع ؛ وأي فتنة أعظم من أن يكون نساك الأمة في الظاهر ، أو طلاب الآخرة في نظر الناس هم أنفسهم عباد الدنيا ؛ وأي توجيه سليم ستناله العامة من أمثال هؤلاء .
- بينت الأحاديث أن وجود مثل هذه الفئة في المجتمع هو سبب وقوعها في فتنة مضلة لا يستبين فيها الحق من الباطل ، ولا الخطأ من الصواب ، ولشدتها وسوادها يصبح أولى الناس في استبانة الحق في حيرة من أمره .
- يندرج تحت هذه الفئة المسببة للفتنة كل من تعلم علوم الآخرة لآجل الدنيا ، وهم كثر في زماننا ، ولهم نصيب فيما ابتليت به الأمة من فتن .
- وجه افتتان الأمة بسبب هؤلاء يرجع إلى أن الأصل بهذه الفئة أن توجه الناس توجيها سليماً يترتب عليه صلاح الآخرة والدنيا ، وهذه الفئة محرومة من حظ الآخرة ؛ لذا تكون توجيهاتهم كلها لإصلاح دنياهم ودنيا الناس على حساب الآخرة ، وباسم إصلاح الآخرة .

- يشعر الكثيرون في زماننا بأنهم في حيرة من أمرهم ؛ حيث لا يستبين لهم وجه الحق في كثير من الأمور ؛ خاصة وأن سوق الفتاوى المتناقضة عبر وسائل الإعلام وغيرها قد شتت فكر الكثيرين ، وهذه هي عين الفتنة .

المطلب الثاني : فتنة النساء

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (١) **أقول :**

هذه الآية تشير إلى أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل ، فهي تنشأ في الزينة والحلية ، وهي موطن الجمال والشهوة ، ولا مجال لها كالرجل في القتال والحروب ، واختلاف المرأة في طبيعتها له الأثر في اختلاف وظيفتها في الحياة عن الرجل بما يتناسب وفطرتها التي جبلت عليها .

- عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ . ﴾ (٢)

أقول :

الحديث صريح في بيان عظم فتنة النساء ، ومدى ضررها وأثرها على الرجال ، وقد عبر عنها النبي ﷺ بأنها أضر فتنة على الرجال .

وقد انتبه أعداء الأمة لهذا المعنى ، وعلموا أن من أعظم مداخلهم لدب الخور والوهن في أمة الإسلام ، هو الدخول عليهم من باب المرأة ؛ لذا افتعلوا تلك المعركة المختلقة المسماة تحرير المرأة ، أو حقوق المرأة ، وأنفقوا على هذه المعركة ملايين

---

(١) الزخرف:١٨

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة ، حديث رقم ٥٠٩٦ [البخاري مع الفتح (٩/ ٤١)] ؛ ومسلم في الرقاق برقم ٢٧٤٠ [مسلم بشرح النووي (٩/٥٤)]

الدولارات ، وما زالوا ينفقون ، والهدف من هذه المعركة ليس تحرير المرأة في المجتمعات الإسلامية ، فهي في ظل الإسلام قد نالت أعلى درجات الحرية ، وأسمى معانيها ، تلك الحرية الممزوجة بالكرامة والعفة والفضيلة .

إنما مقصدهم من تلك المعركة هو حرية الوصول للمرأة المصونة بتعاليم الإسلام ، واستغلالها لتكون سهماً من سهام إبليس ، وجندياً من جنوده ، أو بعبارة أخرى تحرير المرأة من عفتها وكرامتها وحيائها ، وتحويلها لسلعة شيطانية وقد نالوا مآربهم فيما يسعون إلا من رحم الله ، و كانت الفتنة ، وأصبحت المرأة الأسير الأول لها ، والخاسر الأوفى حظاً فيها ، وأي خسارة أعظم من أن تخسر المرأة عفتها وأنوثتها ، وتحيد عن فطرتها التي جبلت عليها ، وتصبح داعية الشيطان بعد أن كانت داعية للرحمن ، و تنال حظها من اللعن في الدنيا والحرمان في الآخرة . (۞)

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ . ﴾ (١)

أقول :

الحديث فيها إشارتان :

الأولى : عظم فتنة النساء ؛ حيث جعلها النبي مساوية لفتنة الدنيا بأكملها .

الثانية : أنها فتنة مهلكة ومدمرة وحبل شيطاني مكين ، ابتُليت به أمة الرسالة قبلنا وهم بنو إسرائيل ، فكان هلاكهم بسببها ، وابتُليت بها الأمة الخاتمة ، وما زالت تبتلى ، ونسأل الله السلامة .

(۞) راجع في هذا الباب :

- قطب : واقعنا المعاصر ، فقرة : قضية تحرير المرأة (٢٥٠ وما بعدها)
- أبو زيد : حراسة الفضيلة ، فقرة : كشف دعاة المرأة إلى الرذيلة (١١٧ وما بعدها)

(١) أخرجه مسلم في الرقاق برقم ٢٧٤٢ [مسلم بشرح النووي (٩/٥٥)]

🕮 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا . ﴾ (١)

شرح

- الحديث يشير إلى صنفين من أصناف النار من أمة محمد ﷺ لم يرهما النبي في زمانه ، وإنما يكونان في العصور اللاحقة ، أحد هذين الصنفين هو : النساء الكاسيات العاريات ، والمراد بهذا الاصطلاح أنها كاسية من حيث وجود الملابس عليها في عرف الناس ، ولكنها تعتبر عارية بالنسبة للمفهوم الشرعي لكسوة المرأة ، إما لرقة ملابسها ، أو لضيقها ، أو لعدم سترها كامل العورة ، وإما لشفافية الملابس بحيث يرى ما تحتها ..إلخ
- هذه المعاني التي ذكرت هي ما ابتليت به نساء أكثر المسلمين في زماننا هذا ، بل الحديث يصدق في أعلى درجاته في عصرنا الحاضر ، وهو دليل من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع الوصف الذي ذكر بحيث لو أردنا أن نعبر عن واقع كثير من النساء في عصرنا ، فلن نجد أوفق ولا أخصر ، ولا أشمل من تلك العبارات النبوية .
- جاء التعبير النبوي بتقديم لفظة مميلات على مائلات ، وهذا وجه الفتنة ، لأن خطورة فتنة المرأة في أنها فتنة متعدية ومؤثرة بالغير ، وسريعة التأثير كسرعة النار في الهشيم ، فهذه النساء بالوصف الذي ذكر النبي ﷺ مميلات لقلوب العباد عن الحق والفضيلة وصراط النجاة ، و قد جاءت لفظة مميلات مطلقة غير مقيدة ليتصور من خلالها كل أشكال الإمالة فهن مميلات لقلوب الرجال بفتنتهم ، ومميلات لغيرهن من النساء ليقتدين بهن ، ومميلات للدعاة للانشغال بفتنتهم عن الفتن والأخطار الخارجية بالأمة .. إلخ .

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة برقم ٢١٢٨ [مسلم بشرح النووي (٣٢٦/٧)]

- قد يورد البعض هنا إشكالا فيقول : إن دلالة مميلات تكفي للدلالة على أُهن مائلات ؛ لأن الذي يتحرك لإضلال الغير وحرفِه عن طريق الحق لا بد وأن يكون في نفسه ضالاً منحرفاً ، وإلا كيف يضل الغير من كان مهتدياً في نفسه ؛ لذا لا داعي للفظة مائلات بعد مميلات ؛ لأنها داخلة في المعنى .

أقول : قد يتوهم البعض هذا الإشكال ، ويعتبر أن كلمة مائلات لم تفد معنًى زائداً ، وهذا فهم خاطئ ، فقد يكون الإنسان مهتدياً في ذاته ، ولكنه يكون سبب فتنة للغير دون قصد أو لجهل منه ، فجاءت كلمة مائلات للإشارة إلى نوعية من النساء المغرضات اللواتي يقصدن إضلال الغير ، فهن سلعة شيطانية صورة ومعنى ، أو بعبارة أخرى هؤلاء النسوة قد تربين تربية منحرفة ، ويسعين لنشر هذه التربية في الغير ، وقد يضاف معنى آخر لكلمة مائلات للإشارة إلى طبيعة حركتهن المتكسرة في الطرقات بقصد الإثارة والإغواء .

- جاء في أوصاف هؤلاء النسوة بأن رؤوسهن كأسنمة البخت ؛ أي كأسنمة الإبل ، وذلك كناية على أُهن يعظمن شعورهن بشكل واضح إما بزيادة عصابة عليه أو بباروكة أو ببعض أشكال موضات الشعر فيشبهن بتضخيمهن لرؤوسهن أسنمة الإبل .

- من المعاني التي ذكرها الإمام النووي رحمه الله : « قيل معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها .. وقيل مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن ، وقيل مائلات يمشطن المشطة المائلة ، وهي مشطة البغايا ، مميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة . » (١)

أقول :

ما ذكر النووي رحمه الله من معاني يحتمله الحديث لإطلاق لفظة ما ئلات مميلات ، ولعله يشير في المعاني الأخيرة لما نعهده في زماننا فيما يعرف باسم (الكوافير) .

- الحديث فيه إشارة إلى عظم جرم هؤلاء النسوة ، وضخامة الوزر الذي يحتملنه على

---

(١) النووي : شرح مسلم (٣٢٦/٧)

ظهورهن لدرجة أهن لا يحرمن من دخول الجنة فقط ، بل يحرمن من شم ريحها ، وذلك للمبالغة في بيان مدى عظم ما ارتكبن .

- عن عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ﴿ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ . ﴾ (١)

شرح :

- يتضح أن هذا الحديث كسابقه إلا أن فيه زيادات منها : بيان أن هذا سيكون في آخر الأمة ، ودلالة الواقع تشير إلى أن هذا زمانه ، وفي هذا دلالة على أننا في المرحلة الأخيرة من مراحل أمة محمد ﷺ .
- الحديث وصف رجال هؤلاء النسوة بأهم أشباه رجال ؛ فهم رجال في الصورة ، أما في الأفعال فإن كل معاني الرجولة بريئة منهم ، أو بعبارة أخرى فإن أخص خصائص الرجولة القوامة ، وهؤلاء فقدوا قوامتهم على نسوقم فحقيق بهم أن يُنفوا من سجل الرجولة .
- الحديث يبين أهم من رواد المساجد ، وفيه إشارة إلى أن الدين في تلك المرحلة يفقد روحه ؛ حيث تبقى صورة العبادة دون أن يترتب عليها أثر في مناحي الحياة الأخرى ، وفيه بيان أن تعاليم الإسلام تتقوقع في المساجد ، وتقتصر على الجانب التعبدي دون الأخلاقي أو الاجتماعي .
- جاء وصف رؤوس النسوة بأهن كأسنمة البخت العجاف ، بزيادة عجاف ؛ أي الإبل الضعيفة ، ويراد بهذا الوصف هنا بيان مدى قبحهن ، وشؤمهن على أهلهن .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ٧١٠٢ [المسند (٢/٢٩٩)] قال الألباني : صحيح [السلسلة الصحيحة ، المجلد السادس ١ ، حديث رقم : ٢٦٨٣] وقال في موضع آخر : حديث حسن ، رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم [صحيح الترغيب والترهيب ، المجلد الثاني ، كتاب اللباس والزينة]

- في الحديث زيادة ، وهي جواز لعن هذا الصنف من النسوة ، وأن لعنهن ليس فيه اعتداء ؛ لأنهن في حقيقتهن ملعونات ، فأشبه لعنهن لعن إبليس نفسه .
- في الحديث بيان أن هذه الأصناف لا تستحق التكريم ؛ حيث خرجوا بأفعالهم من دائرته ؛ لذا أليق بهؤلاء النسوة أن يخرجن من دائرة الحرائر إلى دائرة الإماء والخدم للغير ، فهذا أليق بهن ، والمانع من ذلك أن هذه الأمة هي خاتمة الأمم .

لطيفة :

ارتبط الحجاب في عرف العرب بالعفة ، واعتبروه شعار الحرة دون الأمة ، ومم يستطرف ذكره هنا أن الشاعر النميري عندما أنشد عند الحجاج قوله

يخمرن أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل معتجرات

قال الحجاج : **وهكذا المرأة الحرة المسلمة** . (١)

لذا نلحظ أن النبي ﷺ عندما رأى من بعض نساء أمته في آخر الزمان السفور والعري ، ذكر بأن هؤلاء النساء الأولى بهن ألا يكن حرائر ، بل إماء عند الأمم الأخرى ، فهذا أليق بهن لتزعهن شعار الحرائر .

كلمة إجمالية عن بعض جوانب فتنة النساء :

- يتضح مما سبق بعض جوانب فتنة النساء ، ولعل من الجوانب الأخرى لهذه الفتنة ما نراه من مزاحمة المرأة للرجل في وظيفته للحياة ، وما رافقه من مزاحمة في وسائل المواصلات ، وما ترتب على ذلك من اختلاط مذموم في الشرع على مستوى كافة المؤسسات .
- ومن جوانب فتنة المرأة غياب شخصية الرجل ، وانقياده لها وما يترتب على ذلك من ضياع لأعظم الحقوق كحقوق الوالدين كما ورد في بعض الآثار أن الرجل يطيع زوجته ، ويعق أمه ، وكذلك سعة التفويض الذي يعطيه المجتمع للمرأة وما يترتب عليه من خراب للبنة الأولى في المجتمع وهي الأسرة .

---

(١) أبو زيد : حراسة الفضيلة (٧١)

- كذلك من جوانب فتنة النساء ما نراه الآن عبر وسائل الإعلام أو عبر الانترنت من استخدام مهين للمرأة كسلعة مشتهاة للإغواء والإغراء .

ملاحظة :

ما ذكرته سابقاً إنما يخص جانب فتنة النساء ، ويصدق على شريحة معينة في المجتمع مُستَغَلة للفساد والإفساد ، أما النظرة العامة للمرأة المسلمة القائمة على أمر الله سبحانه وتعالى فهي نظرة التكريم والإعجاب بالتضحيات التي تتميز بها في جوانب عديدة من الحياة ، وهي شقيقة الرجل في الوظيفة الدينية ، وفي الذوذ عن حوض الإسلام ، بل لا أجانب الصواب إن قلت بأن هناك مواقف للمرأة المسلمة في زماننا تستحق أن تسطر بحروف من نور ، ويعجز عنها عظماء الرجال وحقيق ببعض هذه التضحيات أن تكون علما يؤتم به في الأمة بأسرها ، فالمرأة شعلة إن اتقدت في الخير كانت مناراً يهتدى به ، وإن استغلت في الشر احترقت وأحرقت .

المطلب الثالث : فتنة المال

أولاً : فتنة الأمة في المال :

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)

أقول :

وجه الافتتان بهما ، لأنهما سبب في إلهاء الإنسان عن القيام بواجباته الدينية ، وتشغل البال عن القيام بالطاعة .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (٢)

أقول :

الآية تشير إلى فتنة العجل التي وقعت بها بنو إسرائيل ، وهم إلى يومنا هذا واقعون في لوثة عبادة العجل ، فتوجهاتهم لعبادة المال واستخدامه في الشر واضحة في زماننا ؛ إلا أن عجل الذهب قد تحول إلى سبائك ذهب تعبد من دون الله .

- عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ . ﴾ (٣)

وفي أثر عن حذيفة : « **لكل أمة عجل ، وعجل أمتي الدراهم والدنانير.** » (٤)

أقول :

هذان الأثران يشيران إلى أن أمة محمد ﷺ أو بعض منها سيقع في فتنة العجل

---

(١) الأنفال:٢٨

(٢) طـه:٩٠

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة المال ، حديث رقم ٢٤٣٩ وقال عنه : حسن صحيح غريب [تحفة الأحوذي (٦٢٩/٦)] قال ابن حجر : « أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم وصححوه [فتح الباري (٢٥٨/١١)]

(٤) ذكره الهندي عن حذيفة وعزاه للديلمي برقم ٦٢٥٩ [كنز العمال (٢٢٣/٣)]

ولكن بشكل آخر .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ. ﴾ (١)

يقول ابن حجر : « عبد الدينار ؛ أي طالبه الحريص على جمعه ، القائم على حفظه فكأنه لذلك خادمه ، وعبده .. قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا يجد خلاصاً .. جعله عبدا لهما – أي الدرهم والدينار – لشغفه وحرصه ، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه (إياك نعبد) فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً .» (٢)

شـــرح إجمالي :

هذه الآثار واضحة بأن من أعظم الفتن التي تبتلى بها الأمة المال ، وما يترتب عليه من ترف ولهو ، وتنافس وتحاسد ، ثم اقتتال ، ويشمل المال أيضا المنصب والجاه اللذين يعتبران وسيلة من وسائل تحصيله ، وكما أن فتنة بني إسرائيل كانت في عجل الذهب الذي عبدوه ، وترتب على ذلك كفارة عظيمة من الاقتتال الداخلي ، كذلك وقعت أمة محمد ﷺ بعجل من نوع آخر وهو المال الذي لأجله والى بعضهم بعضاً ولأجله عادى بعضهم بعضاً ، وأصبح معياراً للرضى والسخط ، ومبدأ النوايا المتوجهة للأعمال ؛ حتى أصبحت الدنيا تطلب بأعمال الآخرة ،وهذه نوع عبادة للمال، وتفريغ الهمة لأجله .

ثانياً : الأسباب الداعية للوقوع في فتنة المال ، والنتائج المترتبة :

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ تَتَنَافَسُونَ ، ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو ، برقم ٢٨٨٦ ، ٢٨٨٧ [البخاري مع الفتح (٩٥/٦)]

(٢) فتح الباري (٢٥٩/١١)

تَتَحَاسَدُونَ ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِـينِ الْمُهَاجِرِينَ ، فَتَجْعَـلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَـابِ بَعْـضٍ. ﴾ (١)

شرح :

- بين الحديث أن فتح فارس والروم وانتقال كنوزهما للمسلمين مدعاة لوقوع التنافس بين المسلمين عليهما ، وهذا هو مبدأ الشر ، وتحول الفكر ، فالأمة الإسلامية في بداية عهدها تربت على التنافس على الآخرة ، والإعراض عن الدنيا ، فإذا انقلبت الموازين ، وتوجهت القلوب نحو الدنيا ، والدنيا لا تتسع لرغبات كل الناس ، أو لقضاء شهواتهم عندها يقعون في التحاسد .
- التحاسد نتيجة لازمة لتشوف الناس للدنيا وطلبهم لها ، والذي يحرك الحسد عند الناس أن الدنيا لا تتسع لكل رغبات جميع الناس ، إنما هي دار حاجات لا دار شهوات ، وهنا يتحرك التمني لزوال النعمة عن الغير في القلوب ، ويتوجه السلوك لتحقيق ذلك .

والنتيجة اللازمة للحسد ذهاب الإيمان ؛ لأنهما لا يجتمعان في قلب رجل ، ويترتب على ذلك التدابر والبغضاء ، وهذه هي عين الفتنة .

- والتدابر يترتب عليه الاقتتال الداخلي ، وهي كفارة العجل التي لزمت على بني إسرائيل ، ومن هنا نرى أن المال والافتتان به قد أدخل المسلمين لجميع صور الفتنة وأشكالها .

ثالثاً : متى يعتبر الفقر والغنى فتنة يتعوذ منهما الإنسان .

- كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ : ﴿ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَعْنِـي فِتْنَةَ الدَّجَّـالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ

(١) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٦٢ [مسلم بشرح النووي (٢٨٥/٩)]

الْقَبْرِ . ﴾ (١)وفي رواية ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ . ﴾ (٢)

شرح :

- المعلوم أن الفقر والغنى هما من قدر الله سبحانه وتعالى الذي قسم الأرزاق والآجال ، والفقر قيده الصبر ،والغنى قيده الشكر، وبالصبر والشكر يحفظ الإنسان من لوثة الفتنة في حالي الفقر والغنى .
- الغنى والفقر لا يوصفان بالذم والمدح في ذاتهما ، وإنما في الحالة التي تعلقت بهما ، والدرجة التي وصل بهما صاحبهما ، فإذا وصل الفقر لدرجة أنست صاحبها مقام عبوديته لله سبحانه وتعالى ، وانشغل في الرزق مع الإعراض عن الطاعة ، فهذا هو الحد المذموم الذي تعوذ منه النبي ﷺ ، وكذلك الغنى إذا تجاوز الحد ، وكان سببا في طغيان صاحبه وكفرانه لنعمة الله ، عندها يكون فتنة لصاحبه ، وسبب في بواره ، فقلة المال المنسية لصاحبها الطاعة وكثرته المطغية له هما وجها الفتنة في المال ، ومن الفقر المنبسي والغنى المطغي كان يتعوذ النبي ﷺ ، والفقر المنسي ورد في أثر أن النبي ﷺ قد تعوذ منه مُقرِنا له بالكفر .
- نقل ابن حجر عن الغزالي قوله : « فتنة الغنى الحرص على جمع المال وحبه حتى يكسبه من غير حله ، ومنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه ، وفتنة الفقر يراد به الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ، ولا ورع حتى يتورط صاحبه بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة ، ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب ، ولا أي حالة تورط . » (٣)

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ، باب التعوذ من عذاب القبر برقم ٦٣٦٥ [البخاري مع الفتح (١١/١٧٨)]

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ، باب التعوذ من فتنة الفقر برقم ٦٣٧٦ [البخاري مع الفتح (١١/١٨٥)]

(٣) فتح الباري (١١/١٨١)

رابعاً : من فتن المال أكله من غير حله .

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ. ﴾ (١)

شرح :

- الملاحظ من الحديث أنه يشير إلى علامة من علامات الساعة ، وهي عدم مبالاة الناس في جانب الأموال ؛ حيث يحرصون على تحصيله دون النظر إلى الطريقة ، سواء كانت حلالاً أم حراماً ، ولعل هذه النفسية هي التي ساعدت وعززت وجود البنوك الربوية بذلك الشكل الواسع في مجتمعاتنا ، حتى أصبحت التجارة الربوية هي الأكثر رواجاً في بلاد المسلمين .
- يضاف إلي ذلك أشكال عدة للكسب الحرام في مجتمعاتنا مع الاستهانة القلبية في حرمتها منها الغش في البيوع ، والحلف الكاذب ، والرشوة ، والنجش ، والمتاجرة بالمحرمات .

خامساً : خير المال في الفتن .

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (٢) وفي رواية ﴿ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ الْغَنَمُ فِيهِ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ أَوْ سَعَفَ الْجِبَالِ فِي مَوَاقِعِ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

<u>شعف الجبال</u> : رءوس الجبال .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب قول الله: لا تأكلوا الربا ، حديث رقم ٢٠٨٣ [البخاري مع الفتح (٣٦٦/٤)]

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٨٨ [البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٤)]

(٣) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٣٦٠٠ [فتح الباري (٧٠٧/٦)]

مواقع القطر : مواضع النبت .

شرح :

الحديث يشير إلى فساد حال الناس وتمكن الفتن منهم ، وتغلغل الحرام في أموالهم ؛ بحيث لا يسلم أحدهم من لوثة حرام في ماله ، كما ورد في أثر أنه سيأتي زمان من لم يأكل فيه الربا ناله من غباره ، والملاحظ في زماننا أن زمام اقتصاد الشعوب الإسلامية وتجارها ووظائفها كله ارتبط بالبنوك الربوية ؛ يضاف إلى ذلك أن أكثر الوظائف والمصالح المالية في كثير من البلدان الإسلامية قد ارتبطت بفلسفات وأهداف دخيلة على المجتمع الإسلامي ، وتتعارض في أغلب الأحيان مع تعاليم الإسلام ؛ وهذه الوظائف لا ينالها أو يرتقي فيها إلا كل موالٍ أو مهادن أو متملق ، أو بعبارة أخرى أصبح هناك ثمناً لتقلد هذه الوظائف أو تحصيل تلك المصالح ، وفي الغالب يكون هذا الثمن على حساب دين المسلم .

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من معاملات الناس الحرة قد دخل فيها أشكال من الغبن والنجش والرشاوى لتسيير مصالحهم، أو بعبارة أخرى غمست لقمة الحلال ببهار الحرام .

ومن هذا الوجه يمكن أن نفهم العلاقة بين هذا الحديث والحديث السابق ؛ حيث لا يبالي المرء بجانب الحلال والحرام في الأموال مما يشير إلى غلبة الحرام في المجتمعات .

ولا أعلم هل هذا زمان هذه الحديث أم يشير إلى أزمنة لاحقة يستحكم فيها الحرام في سائر معاملات الناس المالية ؛ بحيث لا ينجو حقاً فيها إلا من اتخذ بعض الأغنام ، وسار فيها نحو الجبال حيث الكلأ المباح ليستطيع أن يضمن حقاً لقمة الحلال .

المطلب الرابع : فتن المحبوبات

المعلوم أن الإنسان جبل على حب بعض الأمور كالأهل والمال والعشيرة ، وحب هذه الأشياء أمر طبيعي في النفس البشرية شرط ألا يزيد الميل إليها في قلب المؤمن على حب الله سبحانه وتعالى ؛ بحيث يقدمها على أمر الله ويؤثرها عليه ، وإلا تحولت هذه

المحبة من محبة طبيعية إلى محبة شركية ، وهذا هو وجه الفتنة بالمحبوبات ، ودخولها في باب الشهوات معلوم .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١)

أقول :

هذه الآية واضحة في بيان أصول المحبوبات الثمانية ، وفيها بيان أن تقديمها على أمر الله سبحانه وتعالى يترتب عليه ثلاث عقوبات : الحرمان من الهداية ، والتربص المتضمن للوعيد ، والوصف بالفسق .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

أقول :

وجه الافتتان بالمال والولد يكون من خلال الانشغال بهما بما فيه إلهاء عن دين الله سبحانه وتعالى ، كذلك محبة الولد والميل إليه قد يحمل البعض للوقوع في الكسب الحرام .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣)

أقول :

هذه الآية نزلت في هجرة الصحابة ؛ حيث ثبطت بعض النساء أزواجهن عن القيام بتلك الفريضة العظيمة ، وهذه هي وجه العداوة بين الرجل وزوجه وولده ؛ حيث

---

(١) التوبة:٢٤

(٢) الأنفال:٢٨

(٣) التغابن:١٤

أن حبه لهما يغلب على القيام بأمر الله سبحانه وتعالى حال التعارض بينهما .

- عن حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : ﴿ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ ؟ قُلْتُ : أَنَا كَمَا قَالَهُ . قَالَ : إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ قُلْتُ : فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ... ﴾ (١)

أقول :

- الحديث صريح بأن الرجل يفتن في أهله وولده ، ووجه الافتتان بهما وضحته سابقاً ، وكذلك في الحديث بيان أن هذه الفتنة يكاد لا يخلو من الوقوع بها أحد ؛ وقد ورد عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة ، وقرأ قوله تعالى : « أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » (٢)
- في الحديث إشارة إلى أن هذه الفتنة من الفتن الهينة التي يقع بها الإنسان ، وهي أشبه بالصغائر التي تكفرها الصلاة والصيام .
- قال الزين بن المنير : « الفتنة بالأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار حتى في أولادهن ، ومن جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن . وبالمال : يقع بالاشتغال به عن العبادة أو بحبسه عن إخراج حق الله ، والفتنة بالأولاد : تقع بالميل الطبيعي للولد وإيثاره على كل أحد ، والفتنة بالجار تقع بالحسد والمفاخرة والمزاحمة في الحقوق . » (٣) وما ذكر الزين جانب من أسباب الفتن بالأهل والولد والمال .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) الشوكاني : فتح القدير (٣٠٢/٢)

(٣) ابن حجر : فتح الباري (٧٠٠/٦)

المطلب الخامس فتن السلاطين

فتن السلاطين تدخل في باب الشهوات والشبهات ؛ إلا أنني آثرت وضعها في باب الشهوات ؛ لأن غريزة التملك ، و السعي نحو الملك والسلطان يدخل في باب الشهوات ، وكذلك الخوف على ضياع الملك،والحرص على دوامه يدخل في هذا الباب .

يضاف إلى ذلك أن الملوك يستخـــدمون باب الشهوات في الغالب لتوطيد ملكهم .

أولاً : فتن الملوك أشد الفتن على الأمة :

📖 – عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ . ﴾ (١)

📖 – عن أبي ذر ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يَقُولُ : ﴿ غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَّالِ فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنَ الدَّجَّالِ قَالَ الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ . ﴾ (٢)

أقول :

الأثران يشيران إلى مدى خطورة فتنة الملوك ، حيث ذكرها النبي ﷺ في الحديث الأول بصيغة الاختصاص للإشارة إلى أنها الفتنة الحقيقية التي ستقع فيها الأمة ، أو أنها أكثر ما يفتتن بها الأمة ، وفي الحديث الثاني جعلها أعظم من فتنة الدجال ، ولعل خوف النبي ﷺ على أمته من فتنة الأئمة المضلين أكثر من فتنة الدجال ؛ لأن فتنة الدجال تكون أكثر وضوحاً ، وينتبه لها أهل العلم على وجه الخصوص ، ويستبينوا أمرها، وهي فتنة قصيرة تمر بالأمة عبر مرحلة من مراحلها .

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ،باب ما جاء في الأئمة المضلين برقم ٢٣٣٠ ، وقال عنه حديث حسن صحيح [الترمذي مع تحفة الأحوذي (٤٨٣/٦)] .

(٢) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢١٣٥٤ [المسند (١٧٤/٥)]

أما فتنة الأئمة المضلين فهي أكثر خفاءً على أهل العلم ، بحيث يقع عدد منهم في شباكها ، ويترتب على ذلك وقوع العامة أيضاً ، ومن ناحية أخرى هي ملازمة للأمة في أكثر مراحلها ؛ لذا تخوف منها النبي ﷺ أكثر مما تخوف من فتنة الدجال ، وفيه إشارة إلى كثرة ما تحصده هذه الفتنة قديماً وحديثاً .

ثانياً : طرق أبواب الملوك من أسباب الفتن .

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال : ﴿ مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ ﴾ (١) وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : ﴿ وَمَنْ لَزِمَ السُّلْطَانَ افْتُتِنَ ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ دُنُوًّا إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا . ﴾ (٢)

شرح :

- هذان الأثران يبرزان أن تزلف السلاطين والتقرب منهم ، أو طرق أبوابهم سبب فتنة ، ووجه الافتتان في ذلك أنه إذا وافق السلطان فيما يأتيه وداهنه خاطر بدينه ، وإن خالفه خاطر بدنياه ، وهذا المعني يرشد إليه هذا الأثر عن عبد الرحمن بن بشير الإنصاري حيث قال : « أتى رجل فنادى ابن مسعود فأكب عليه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن متى أضل ؟ قال : « إذا كان عليك أمراء إذا أطعتهم أدخلوك النار وإذا عصيتهم قتلوك . » (٣)
- الحديث يشير إلى إتيان السلاطين من غير ضرورة أو حاجة ، وإنما طمعاً في الدنيا و حطامها ، لذا الحديث لا يشمل الدخول على السلطان في باب الدعوة لله سبحانه

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٥٧ ، وقال : هذا حديث حسن غريب [الترمذي مع تحفة الأحوذي (٦/ ٥٣٢)] ؛ وأبو داود في الصيد ، باب في إتباع الصيد برقم ٢٨٤٢ [أبو داود مع عون المعبود (٦١/٨)] ؛ والنسائي في الذبائح والصيد ، باب إتباع الصيد [سنن النسائي (١٩٥/٧)] ؛ وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٨٥٨ [المسند (٤٩٢/٢)]

(٢) أخرجه أبو داود في الصيد ، باب إتباع الصيد برقم ٢٨٤٣ [أبو داود مع عون المعبود (٦١/٨)]

(٣) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٤٢٤ ، وقال : موقوف صحيح ، وأقره الذهبي .[المستدرك (٥٠٨/٤)]

وتعالى لأن هذا النوع يدخل في باب أفضل الجهاد إذا رافقه كلمة الحق في وجه سلطان جائر .

- يلاحظ من الأثر الثاني أن السلامة في ظل فساد الحال العام في عدم غشيان الملوك والتزلف لهم ، والدنو من مجالسهم ، لما في ذلك من فساد للدين ؛ حيث لن ينال أحد من السلطان شيئاً من دنياه حتى ينال السلطان من دينه .

ثالثاً : أعطيات السلطان واستئثاره وحاشيته بالمال العام جانب من الفتنة .

- عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا قَالَ ﴿ : سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث يشير إلى طرف من فتن السلاطين ؛ حيث يؤثرون بالمال العام حاشيتهم دون الناس ، ويشمل ذلك أيضاً الأعطيات والوظائف ، والحديث فيه إشارة إلى موقف المسلم من هذه الفتن وهو الصبر على ذلك ، والثبات على الدين إلى أن نلقى النبي ﷺ على الحوض .

- عن الأحنف بن قيس قال : ﴿ كنت بالمدينة فإذا أنا برجل يفر الناس منه حين يرونه ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ . قلت : لما يفر الناس منك ؟ قال : أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم رسول الله ﷺ . قلت : إن أعطياتنا قد ارتفعت اليوم وبلغت ، هل تخاف علينا شيئاً ؟ قال : أما اليوم فلا ، ولكنها يوشك أن تكون أثمان دينكم ، فإذا كانت أثمان دينكم فدعوها وإياكم . ﴾ (٢)

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٥٩١ ، وقال : صحيح الإسناد . وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٦٧)]

أقول :

- في الأثر إشارة إلى فتنتي المال والسلطان ؛ حيث تستخدم الأعطيات للموافقين للملوك على ظلمهم ، فيضيع الدين بذلك ، ويكون ثمن أعطية السلطان أو هبته ضياع دين الآخذ ، وهذا يتصور حال فساد الملوك .
- قول أبو ذر (أما اليوم فلا) فيه إشارة إلى أن أعطيات الملوك في عهده كانت نزيهة ، ويراد بها الصالح العام ، وقوله يوشك أن تكون أثمان دينكم ، إشارة إلى أن ضياع الدين بسبب هبات الملوك قريب ، وهذا حصل في زمن ملوك بني أمية ، واتضحت صورنه في العهد العباسي .

رابعاً : أعوان السلطان في فتنته .

🕮 – عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَرَى قَوْمًا فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ يَغْدُونَ فِي غَضَبِ اللَّهِ وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللَّهِ .﴾ (١)

🕮 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا . ﴾ (٢)

🕮 – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قد رأينا من كل شيء قاله لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أنه قال : ﴿ يقال لرجال يوم القيامة اطرحوا سياطكم وادخلوا جهنم . ﴾ (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٥٧٧ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي [المستدرك (٥٦٢/٤)

- عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا خازنا . ﴾ (١)

أقول :

- في الأحاديث السابقة إشارة إلى بعض أعوان السلاطين الذين يسومون الناس سوء العذاب ، ويضربون جلودهم بالسياط تحقيقاً لرغبة السلطان ، وتثبيتاً لملكه ، وهذه المرحلة يشهد لأولها عهد يزيد بن معاوية ، ومرحلة الحجاج .
- هذا الصنف من أعوان السلاطين ممن يعذبون الناس مما لم يعهد مثله في العهد النبوي ؛ لذا بين النبي ﷺ أنه صنف سيأتي لاحقاً مما لم يرَ مثله .
- قول النبي ﷺ يغدون في غضب الله ويروحون في سخطه إشارة إلى أن اللعنة تلازمهم صباح مساء ما داموا في عملهم هذا الذي يعزز الظلم ، ولما يترتب عليه عملهم من تكميم للأفواه والخنوع للباطل .
- الحديث الأخير فيه تحذير لأفراد الأمة من إعانة الظالم على ظلمه بأي شكل من الأشكال ، وفي الحديث إشارة لما يعرف به الأمراء الظلمة من غيرهم ، وهي أن يقربوا الشرار ، ليكونوا بطانة لهم .

خامساً : موقف المسلم من فتن السلطان .

- عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : « سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ : ﴿ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه في باب طاعة الأئمة برقم ٤٥٨٦ [صحيح ابن حبان (١٠ / ٤٤٦)] قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند من أحاديث الفتن (٢٠٠)]

حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ (١)

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ قَالُوا أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ . قَالَ : لَا مَا صَلَّوْا . ﴾ (٢)

- عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ،وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ. ﴾ (٣)

- عن أبي ذر ﷺ قال رسول الله ﷺ : : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا فَإِنْ صَلَّيْتَ لِوَقْتِهَا كَانَتْ لَكَ نَافِلَةً وَإِلَّا كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ . ﴾ (٤)

أقول :

هذه مجموعة أحاديث تبين أهم معالم الهدي النبوي بخصوص فتنة السلاطين ؛ معالم النجاة منها ، ويمكن تفصيل هذه المعالم على النحو التالي :

المعلم الأول : عدم تصديق السلاطين بكذبهم ، وممارائهم في باطلهم .

المعلم الثاني : عدم إعانتهم على ظلم الآخرين أياً كان شكل هذه الإعانة .

المعلم الثالث : عدم الرضى أو المتابعة للسلطان على منكراته .

المعلم الرابع : الاقتصار في الإنكار عليه باللسان على أن يكون هذا الإنكار بالحكمة ، ولا يؤدي إلى جر بلاء أو فتن أعظم من الأمر المراد إنكاره .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٤٦ [مسلم بشرح النووي (٤٤٦/٦)]

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٥٤ [مسلم بشرح النووي (٤٥٣/٦)]

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ، برقم ٢٣٦٠ وقال : صحيح غريب [الترمذي مع التحفة (٥٣٧/٦)] ؛ وأحمد في مسند الكوفيين من حديث النعمان بن بشير برقم ١٨٣٨٤ بنحو هذا المتن [المسند (٤/ ٣٢٨)]

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة برقم ٦٤٨ [مسلم بشرح النووي (٣/ ١٤٣)]

المعلم الخامس : الصبر على ظلم السلطان ، وعدم الانجرار وراء الدعاوي الداعية إلى منابذته بالسيف مهما كانت درجة ظلمه .

- هذه أبرز معالم النجاة التي بينها النبي ﷺ إذا ابتليت الأمة بسلاطين ظلمة ، لعل أهمها وأكثرها إشكالاً في نظر البعض هو الأخير ، حيث يتعجب البعض قائلاً : ما دام السلطان ظالماً ، وما دام ظلمه ظاهر للجميع ، فلم لا نخرج عليه وننابذه بالسيف ؛ لأن تركه يفضي إلى زيادة ظلمه وتجاسره على الأمة،وهذا يترتب عليه شرور كثيرة .

وهذا التساؤل أكثر ما يقع فيه الشباب ، ويجاب على ذلك بأمرين :

الأمر الأول : إن النبي ﷺ قد حدد أفضل الجهاد في ظل جور الأئمة والسلاطين ، وهو كلمة الحق في وجه سلطان جائر ، وبالتالي حدد وجه الإنكار على السلاطين .

الأمر الثاني : لم يرد أي ترخيص من النبي ﷺ في الخروج على السلاطين ، أو منابذتهم بالسيف مهما كان ظلمه .

ووجه الحكمة في ذلك أن الخروج على السلطان ومنابذته بالسيف في الغالب يفضي إلى منكر أعظم من الأمر المراد إنكاره على السلطان ، وفي الغالب يفتح على أفراد الأمة باباً من الاقتتال الداخلي والفرقة والشرذمة ، وما يترتب على ذلك من شرور جمة لا يحمد عقباها .

وهذا يؤدي بنا إلى توجيه المسألة بشكل آخر وهو لو سلمنا جدلاً بأن ترك السلطان الظالم دون منابذته بالسيف أو تقويمه وبطانته الظالمة بالقوة هو الأسلم للأمة ، إلا أن ذلك يؤدي إلى تجاسره في الظلم ،وبالتالي استسلام الأمة للظلم وتعزيز وجوده ، و هذا شر وقعنا به بسبب عدم منابذته بالسيف ، وكذلك الاقتصار في هذه الحالة على الإنكار باللسان قد لا يترتب عليه الثمرة المرجوة ، بل قد يؤدي إلى تسلط السلطان على هؤلاء المنكرين وتعذيبهم وقتلهم.

نعم قد يكون في ذلك شر ؛ إلا أن الشر المترتب نتيجة الخروج المسلح على الوالي يؤدي في الغالب إلى شر أعظم مما ذكرنا ؛ و الأصل أن تسلم الأمة من الوقوع فيه بأي حال من الأحوال ، ووفقا للتوجيه الذي ذكرته للمسألة نحن أمام شرين ، لا محيد لنا إلا ارتكاب أحدهما :

- إما منابذة الحاكم بالسلاح بما يترتب عليه سفك الدم والفرقة واستغلال بعض المارقين وأصحاب الكيد لهذا الاقتتال الداخلي لتذكيته في الأمة .
- وإما الصبر على الحاكم وظلمه ، والاقتصار على الدعوة باللسان مع بقاء لحمة الأمة ، وقد لا تؤثر الكلمة أو تغير من منكرات السلطان .

طبعاً أخف هذين الشرين هو الثاني ، وهو عين ما قصده الهدي النبوي بعدم فتح باب المنابذة بالسيف مع السلاطين مهما كان ظلمهم ، ويقتصر المقام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعلى الإنكار باللسان في هذه الحالة ، وتجنب الخوض بالسلاح مهما كانت الظروف .

و هو عين الحكمة المبنية على فقه الموازنة ، والأصل في المسلم أن ينتبه إلى أن الشريعة كلها مبنية على ارتكاب أخف الضررين ، وهذا المعنى أشار إليه ابن تيمية بقوله : : « إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح و تكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها ، ودفـــع أعظـــم المفسدتين باحتمال أدناها .» (١)

فهذا هو الميزان المعتبر في جميع ما يستجد على المسلم ؛ خاصة هذه المسألة التي يتضح فيها هذا الميزان في الأحاديث الكثيرة التي يوصي بها النبي ﷺ بالصبر على الظلم ومعالجته بالوسيلة الأمثل وهو كلمة الحق ، وعدم الانجرار نحو المواجهة المسلحة .

ومن نظر إلى تاريخ الأمة يجد دائـــماً أن استخدام السيف في الإنكار على الوالي

---

(١) ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم ، دار إحياء الكتب العربي (٤٨/٢٠) وسيشار إليه : (ابن تيمية : **مجموع فتاوى ابن تيمية**)

كانت نتائجه وخيمة في الأغلب ، و من عهد عثمان ﷺ إلى معركة الجمل التي أثرت في صلب الأمة ، ثم بعد ذلك صفين وحروب الخوارج المنكرين على علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ثم معركة الحسين ﷺ التي استشهد فيها .. إلخ (۞)

فمن تتبع كل هذه المعارك الداخلية يستطيع أن يستبصر الحكمة وراء منع الإنكار المسلح على الوالي الظالم ، بل يرى فيها كلها أن المنابذين بالسيف والخارجين على السلطان بالسلاح بغرض التغيير كانوا بفعلهم ينقلون الأمة إلى الأسوأ .

يقول ابن قيم الجوزية : « إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله ، فإنه لا يسوغ إنكاره ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر .. ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته ، فتولد منه ما هو أكبر منه ، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ، ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام وعز عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك – مع قدرته – خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر ، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه . » (١)

حكمة الرسول هارون ﷺ .

المعلوم أن موسى عندما ذهب إلى لقاء ربه وقعت الفتنة في قومه فعبدوا العجل على يد السامري ، فدعاهم النبي هارون إلى ترك الكفر ، والعودة للعهد فلم ينصاعوا

(۞) راجع في الفصل الأول هذه المعارك ، وانظر كيف نقلت الأمة من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض ، وكيف أن بدايتها كان إنكاراً على أمور وهمية كما حصل مع عثمان ، فانتهى الأمر بالأمة لأن تقع فريسة في يد الحجاج وزياد بن أبيه ومسلم بن عقبة .

(١) ابن القيم : إعلام الموقعين (٣/١٥)

لأمره ، فاقتصر النبي هارون ﷺ على التغيير باللسان ، ولم يغير باليد بالرغم من أنه كان نائب موسى على قومه .

وعندما عاد موسى ، ورأى عبادة العجل في قومه غضب على أخيه عدم استخدام القوة في التغيير ، فبين النبي هارون لأخيه وجه الحكمة من عدم استخدامه للحكمة بقوله : إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل .

فقد علم هارون عليه السلام بأنه لضعف صولته على بني إسرائيل لو أراد أن ينكر عليهم بالقوة لترتب على ذلك شر وشرذمة واقتتال في داخل البيت الإسرائيلي ، و آثر أن يصبر ويترك الأمر مع بقاء لحمة البيت الإسرائيلي إلى أن يأتي ولي الأمر ، ومن يملك التغيير بالقوة دون أن يترتب على إنكاره منكر أشد منه ، وهذه هي عين الموازنة الحكيمة بالرغم من أن المنكر كان في أعلى درجاته،وهو عبادة عجل من دون الله سبحانه وتعالى .

فهذه القصة لها دلالاتها ، وقد وقعت مع نبي مرسل ، وليت شباب الأمة أن يعوا ما فيها من عبر ودلالات هم أحوج إليها في ظل اختلال موازين الفهم .

أما ما يتعجله بعض الشباب ، فهو مبني على نظرة سطحية غافلة عن استبصار العواقب .

ويبقى التساؤل ، وهو أن الصبر على الوالي يجعله يتمادى ، وهذا يجاب عليه بأن الصبر المقصود في الحديث فقط يخص جانب الضيم والأثرة والحرمان الذي يقع على الناس ، أما في الجوانب الدعوية بجميع أشكالها للوالي وبطانته ، فالمجال مفتوح بأوسع أبوابه ، وأهله في أعلى درجات الجهاد ؛ ويرتجى حصول تغيير إيجابي به ، إذا توفرت النوايا الحسنة ، والهمة التي لا تبتغي إلا وجه الله ، ولو لم يكن لهذا الأسلوب أثره المبارك لما نصح به رسول الله ﷺ، وجعل أهله في أعلى الدرجات ، وهذا هو وجه الحكمة من اختيار النبي ﷺ لهذه الطريق دون غيرها ، **وما يعقلها إلا العالمون** .

المبحث الرابع
فتـــــن الشبـــــهات

فتن الشبهات هي الجانب الثاني من الفتن ، ويراد بها كل ما يثار حول الرسالة والمرسل والرسول ووعد الآخرة من شكوك تجعل المسلم في حيرة من أمره يضاف إليها اختلاط الحق بالباطل في تفاصيل الرسالة مع واقع المسلمين بحيث لا يستبين المسلم وجه الحق فيما يعرض له ، ومن هذا الوجه يمكن القول أن فتن الشبهات هي الأخطر على قلب المسلم .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . ﴾ (١)

أقول :

هذه الآية فيها إشارة إلى فتن الشبهات التي يقع فيها الإنسان ، و تصويرها التمثيلي في الآية له دلالاته ، فالواقع في فتن الشبهات يشبه الغريق في بحر لجي متلاطم الأمواج ، متراكم الظلمات لدرجة أن هذا الغريق لا يستطيع رؤية يده لشدة الظلمات ، ومن حرم رؤية يده التي هي بضع من جسده ، فكيف سيبصر طريق النجاة .

كذلك الآية أرشدت إلى أنه من استنار بغير نور الله سبحانه وتعالى فهذا مثاله ، ومن أراد النجاة فليس له إلا الاستنارة بنور الله سبحانه وتعالى ، ونور الله في الأرض هو كتابه وسنة نبيه .

يقول ابن القيم : « أصحاب مثل الظلمات المتراكمة هم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع ،

---

(١) النور: ٤٠

وظلمة النفوس ؛ حيث لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا جاهلين ، وظلمة إتباع الغي والهوى ، فحالهم كحال من كان في بحر لج ، لا ساحل له ، وقد غشيه موج ، ومن فوق ذلك الموج موج ، ومن فوقه سحاب مظلم .» (١)

هذه الآية أصدق مثال على فتن الشبهات ، أما عن تفصيل هذه الفتن فأرى أن أقصره في مطلبين ، وذلك على النحو التالي :

المطلب الأول : فتن كقطع الليل المظلم

تضمنت بعض أحاديث الفتن إشارة إلى نوع من الفتن كقطع الليل المظلم ، وهذا النوع من الفتن أمكن إدراجه في باب الشهوات أو الشبهات أو فيهما جميعاً ، إلا أنني آثرت إدراجه هنا للمناسبة ؛ **حيث إن الشبهة** في حقيقتها تعمي بصيرة المؤمن ، وتجعله في حيرة من أمره ، وعدم استبانة لطريق الآخرة ، وهذا يوافق توصيف هذه الفتن بقطع الليل المظلم التي تمنع الواقع فيها من رؤية الأمور على حقيقتها كما يحرم السائر في الليل المظلم من رؤية طريقه .

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ أَوْ قَالَ عَلَى الشَّوْكِ . ﴾ (٢)

أقول :

- الحديث فيه إشارة إلى قرب الفتن الموصوفة بأنها كقطع الليل المظلم من عهد الصحابة ، وفي الحديث بيان أن أكثر من يذوق ويلاتها هم العرب؛ لذا جاء تحذيرهم

---

(١) ابن القيم : التفسير القيم (٣٨٧)

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١١٨ [مسلم بشرح النووي (٣٧٥/١) . وأحمد في مسند المكثرين برقم ٩٠٩٦ واللفظ له [المسند (٥١٦/٢)]

منها على وجه الخصوص .

- خطورة هذه الفتن يكمن في عدم استبانه الحق من الباطل فيها ؛ لذا لا يحفظ الخائض فيها إيمانه سواء باللسان أو السنان مقدار نصف يوم ؛ بل يكون في حالة ذبذبة بين الإيمان والكفر بحيث يصبح مؤمنا ، ولا يأتي عليه المساء إلا وقد خرج من ربقة الإيمان إلى دائرة الكفر .
- من أوجه وقوع المسلم بدائرة الكفر كما بينت بعض الآثار أنه في الصباح يرى عصمة دم أخيه المسلم ، ثم يقع في شبهة تجعله يستبيح دمه أو ماله أو عرضه ، والمعلوم أن من وصف مسلماً بالكفر ، فقد باء به أحدهما ، وقتال المسلم واستباحة دمه أيضا كفر كما صرحت بعض الأحاديث ، وهو من باب الكفر العملي إن كان يقاتله دون اعتقاد منه باستباحة دمه ، وإلا دخل في باب الكفر الاعتقادي إن كان يرى حل سفك دمه .
- في الحديث إشارة إلى تمكن الدنيا و الشهوات من قلوب أهل ذلك الزمان ؛ لدرجة أن أي عرض من الدنيا ولو كان قليلاً يكون أكثر إغراءً لتلك القلوب من دين الله سبحانه وتعالى ؛ لذا يباع الدين والإيمان بأبخس الأثمان .
- في الحديث إشارة إلى أن هذه الفتن على وجه الخصوص يكون فيها السواد الأعظم من الناس من طلاب الدنيا ، بل تكون الدنيا وشهواتها هي معيار القبول عندهم ، ويكون نصير الحق ضعيفاً في ذلك الزمان ؛ لذا يشتد على المؤمن الحفاظ على ثوابت الدين في قلبه وسلوكه ، فيشبه قبضه على دينه بالقابض على الجمر ، أو على الشوك ، وكلاهما مر ، والسبب في ذلك أن أهل ثوابت الإيمان في ذلك الزمان يكونون في مواجهة تيار جارف حولهم يتنافى مع ثوابتهم ، وهذه الحال لا تكون إلا إذا كان أغلب الناس في حال رقة من دينهم وإيمانهم .
- هذا الحديث وأشباهه دليل من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقعت هذه الفتن وما زالت تشتد ، ومن تتبع تاريخ الأمة وفتن القرامطة والباطنية على وجه العموم

كالفاطمية والنصيرية و بعض فتن العباسيين وقتالهم على الملك ، وما وقع في عهد الأمويين كوقعة الحرة و كربلاء وغيرها يرى مصداق قول الرسول ﷺ ، وما زالت هذه الفتن على أشدها ، ولعلها في زماننا أكثر وضوحاً مما سبقه .

— عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ : قال النَّبيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ثُمَّ يُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلَاقَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَسِيرٍ أَوْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا . ﴾

قَالَ الْحَسَنُ -رحمه الله - : وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ صُوَرًا وَلَا عُقُولَ أَجْسَامًا وَلَا أَحْلَامَ فَرَاشَ نَارٍ وَذِبَّانَ طَمَعٍ يَغْدُونَ بِدِرْهَمَيْنِ وَيَرُوحُونَ بِدِرْهَمَيْنِ يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بِثَمَنِ الْعَنْزِ .(١)

أقول :

رحم الله الحسن البصري لقد كان في زمانه يباع الدين بثمن العتر ، أما في زماننا فهو يباع بلا ثمن ، بل البعض يبيع دينه لدنيا غيره ، وقد لا يحصل ذيل العتر في تجارته الخاسرة ، و شر الناس من باع دينه لدنيا خيره كما صرحت بعض الآثار .

— عن أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ : يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، قَالُوا : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

أحلاس : جمع حلس وهو ما يبسط تحت الثياب فلا تزال ملقاة تحتها ، وقيل الحلس هو الكساء على ظهر البعير تحت القتب والبرذعة ، والمراد من قول النبي ﷺ هنا ؛ أي كونوا ملازمين لبيوتكم والتزموا سكوتكم كيلا تقعوا في الفتنة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٤٣٤ [المسند (٤/٣٣٤)]

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم في باب النهي عن السعي في الفتنة ، برقم ٤٢٤٢ [سنن أبي داود مع عون المعبود (١١/ ٣٤٣)]

شرح :

- لعل في الحديث إشارة إلى تلك الفتن التي وقعت في الدولة الأموية والعباسية ، أو لتلك التي وقعت في أواخر الخلافة الراشدة ، ويحتمل الأمر عمومها لتنسحب على كل فتنة يستباح فيها دماء المسلمين أو أموالهم ، وفي الحديث إرشاد للمسلم في تجنب الفتن وعدم الاستهانة في أمرها وأن يحبس يده ولسانه وسعيه فيها ؛ بل يعتكف في بيته عند هيجانها ؛ ليضمن سلامة دينه .
- هذه الفتن التي تستباح فيها الدماء ، وتتقلب فيها القلوب بين الكفر والإسلام لا بد أن تكون من فتن الشبهات التي تخيم على القلوب فلا يُستبان للواقع فيها الحق من الباطل ؛ لذا الأسلم في تلك الحالة تجنبها ، ولزوم البيت ؛ خاصة في الفتن التي يراق فيها دماء المسلمين .

- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَتَكُونُ فِتَنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا إِلَّا مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ بِالْعِلْمِ . » (١)

شرح :

- الحديث فيه إشارة إلى ضرورة العلم وأهميته في تجنيب المسلم آثار الفتن وويلاتها على القلوب .
- لعل من أهم العلوم التي تحفظ المسلم في الفتن هو علم الفتن وعلامات الساعة ، والتي يستبين المؤمن من خلالها طريقه ؛ فلا يخوض بما يخوض به الناس ، ومعرفة الشر وأسبابه ودوافعه حفاظة للمؤمن من الوقوع فيه ؛ لذا كانت أكثر أسئلة حذيفة رضي الله عنه عن الشر الذي ستقع به الأمة مخافة أن يقع به .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٣٩٥٤، وقال محققه : في الزوائد : إسناده ضعيف [سنن ابن ماجة (١٣٠٥/٢)]

المطلب الثاني : فتن الشياطين

فتن الشياطين تتضمن جانب الشهوات والشبهات ؛ إلا أنها أقرب لباب الشبهات ؛ لأن الوقوع في الشهوات إنما يكون في البداية محصلة لشبهة إبليسية تتضمن تزيينا للدنيا في قلب المؤمن ، وتغييبا لحضور الآخرة عنده ، و توجيها نحو ظاهر الحياة الدنيا بإثارة الشبهات نحو الغيبيات ، فإذا استمكنت هذه الشبهات بدايةً في قلب المؤمن انصرف إلي الدنيا وشهواتها ، وآثر العاجل على الآجل .

ومن ناحية أخرى يهدف الشيطان بعد ولوغ الإنسان في الشهوات إيقاعه في الشبهات ؛ لأنها غاية ما يسمو إليه ، وهي هدفه الأوحد ، والعناصر العظمى التي يرنو الشيطان لتحقيقها من خلال فتنة الشبهات أربعة ، وهي إثارة الشكوك في قلب المسلم نحو الرسالة والمرسل والرسول ووعد الآخرة .

📖 - عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » (١)

أقول :

- هذا الحديث فيه بيان إلى طبيعة قدرات الشيطان في البيئة الإسلامية التي تشربت تعاليم التوحيد ، وعلى وجه الخصوص جزيرة العرب ، فغاية قدرة الشيطان هو من خلال إثارة العداوة و البغضاء والتفرقة بين المسلمين .
- في الحديث إشارة إلى أهمية الصلاة في لجم صولة الشيطان ؛ حيث أن يأس الشيطان من عبادة الناس لها مقصور في حالة كونهم من أهل الصلاة .
- تحرش الشيطان في المسلمين يكون بإثارة الشبهات الموهنة لطبيعة علاقة المسلم بأخيه المسلم ، وطبيعة نظرته للدنيا ، وتوهين استعداده للآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم في باب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٨١٢ [مسلم بشرح النووي (١٥١/٩)]

🕮 - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً . ﴾ (١)

🕮 - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ! قَالَ : ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ :مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ .قَالَ : فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ ! قَالَ : الْأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ : فَيَلْتَزِمُهُ. ﴾ (٢)

أقول :

- هذان الحديثان يشيران إلى تلك الحرب الخفية المنظمة التي يثيرها العدو الأول للإنسان ، وفيهما بيان إلى مركز هذه الحرب وهو البحر .
- يتضمن الحديثان إشارة عجيبة إلى أن هناك دراسات تقويمية وإرشادية (أو إغوائية) يقوم بها إبليس لعنه الله لمناهج الإغواء التي يقوم بها جنوده ، وفيهما إشارة إلى أن بعوث الشيطان أشبه بسرايا الحرب التي ترسل لتحقيق مهمة مخصوصة ثم العودة إلى مركز القيادة .
- هذان الحديثان يبرزان طبيعة العلاقة بين الفتن الداخلية التي تتعرض لها الأمة ، وبين فتن إبليس ؛ حيث يستغل الشيطان شدة وطأة الفتن ليعمقها ويجذرها في المجتمع الإسلامي .
- الحديث الثاني يشير إلى أعظم الفتن في نظر إبليس وهو هدم الأسرة المسلمة التي تعتبر النواة للمجتمع ، وهذه الفتنة العظمى كما نلاحظ التفت إلى خطورتها شياطين الإنس و الجن ، و كل منهما يوطئ للآخر تعزيز وقوعها بين المسلمين ؛ لذا لا نعجب من اهتمام المجتمعات الغربية بحقوق المرأة و حريتها في بلادنا .

---

(١) أخرجه مسلم في باب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٨١٣ [مسلم بشرح النووي (١٥١/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في باب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٨١٢ [مسلم بشرح النووي (١٥١/٩)]

📖 – عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ . ﴾ (١)

أقول :

- ذكرت هذا الحديث لبيان بعض أشكال فتن الشيطان في باب الشبهات ، وهو من خلال حث الإنسان إلى الاسترسال في بعض الأسئلة المفضية في النهاية إلى كفر صاحبها ، وأي فتنة أعظم من خروج الإنسان من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر.
- الحديث أصل في تنبيه المسلم من كل الوساوس الشيطانية التي ترد على شكل خواطر واستفهامات على قلب المؤمن ، والتي تضمن شبهات في الدين سواء على مستوى العقيدة أو التعاليم العامة .
- الحديث تضمن علاجاً لتلك الشبهات الشيطانية التي ترد على قلب المؤمن ، وهو عدم الاسترسال بها ؛ لأن الاسترسال بها يعززها ، ولا يزيد الإنسان إلا حيرة ، وهذا باب مهم في الوقاية من كل فتن الشبهات ، بعدم ملاحقتها ، والتوغل فيها ، سواء كانت هذه الشبهات بفعل شياطين الجن على شكل خواطر ، أو بفعل شياطين الإنس .

📖 – عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ . ﴾ (٢)

أقول :

هذا جانب من فتن الشبهات التي يتآزر فيها شياطين الإنس والجن من خلال خلط الحق بالباطل ، والكذب بالصدق .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده برقم ٣٢٧٦ [البخاري مع الفتح (٣٨٧/٦)]

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم ٣٢٧٦ [البخاري مع الفتح (٣٨٩/٦)]

المبحث الخامس
تتابــع الفــتن وكثــرتها

- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ﴾ (١)

شرح الغريب :

أشربها : دخلت فيه دخولاً تاماً   **مجخيا** : مائلاً منكوساً

مربادا : شيء من بياض بسيط يخالط السواد ، أو لون بين السواد والغبرة ، أو هو أسود فيه كدورة

الصفا : الحجر الأملس الذي لا يعلق فيه شيئاً   **النكتة** : الأثر أو النقطة

شرح :

- هذه الحديث فيه إشارة إلى كثرة الفتن التي تعصف بقلوب المسلمين ، وقد شبه النبي ﷺ كثرتها وتتابعها ، بأعواد الحصير التي تُعطى للنساج ، فالنساج إذا وضع عوداً ناوله غيره عوداً آخر ، وهكذا حتى يتم صنع الحصير ، وكذلك الفتن تعرض على القلوب متتابعة كل واحدة تسلم للأخرى كما تعرض العيدان على النساج ، أو هو يشير إلى تتابع الفتن وتلازمها كأعواد الحصير المتراصة مع بعضها البعض .
- الحديث أشار إلى أثر هذه الفتن على القلوب التي بها صلاح الإنسان أو فساده ، وقد قسم أثرها بالنسبة إلى تقبل القلوب لها أو إنكارها إلى نوعين :

النوع الأول :

قلوب تتأثر بالفتن تدريجياً حتى تتغــلغل في جميع نواحيها ، أو حتى تتشربها

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٤٤ [مسلم بشرح النووي (٤٠٨/١)]

لدرجة لا يبقى فيها مكان للإيمان ، وهذا وصفها النبي ﷺ بوصفين : الأول تصبح قلوب سوداء مع بياض خفيف ، والثاني : تصبح هذه القلوب منكسة ؛ أي مائلة لا تقبل الحق ، ولا يعلق بها خير أو حكمة مثلها مثل الإناء المنكوس الذي لا يقبل دخول الماء فيه ؛ لذا تتحول هذه القلوب إلى أوعية غير مهيأة تماماً لقبول أي شيء من الحق ، بل تحرم هذه القلوب التمييز بين الحق والباطل ، وإذا وافقت أمراً فيه حق فإنما توافقه لأنه يتناسب مع هواها فقط ، لا لكونه حقاً .

و معنى الحديث هنا أن صاحب هذا القلب يتابع هواه ، ويخوض في الفتن ، أو يقع فيها سواء كانت فتن أموال أو نساء أو شبهات أو شهوات أو دماء ، فيتأثر فيها ، ويرتكب المعاصي فيدخل في قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة ، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام ، وأصبح قلبه مغلفاً عن قبول الحق أو القول به أو التأثر فيه .

النوع الثاني :

القلوب التي تنكر الفتن ، وهذه القلوب وصفها النبي ﷺ بأنها تصبح محصنة من الفتن لا تتأثر بها ؛ لذا تصبح بيضاء إشارة إلى النور الذي يغمرها ، وتستبين من خلاله الحق من الباطل ، ولا يقتصر أمر هذه القلوب على البياض أو النور ، بل تصبح شبيهة بالصفا ، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق فيه شيء من الغبار ، ولا يحمل شيئاً فوقه دخيلاً عليه ؛ أي أن هذه القلوب بعد ذلك لا تتأثر بالفتن ، ولا يعلق فيها شيء من غبارها .

📖 - عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي

يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

يرقق : أي يصير بعضها رقيقاً أي خفيف الأثر لعظم ما بعده ، وقيل معناه يشبه بعضها بعض ، وقيل معناه يسوق بعضها إلى بعض بتحسينه وتسويله .

شرح :

– هذا الحديث يشر إلى أن هذه الأمة ستبتلى بفتن كثيرة وأمور وبلايا ، والمتتبع لحال الأمة في عصرنا يجد مصداقية كلام رسول الله ﷺ .

– في الحديث إشارة إلى تتابع الفتن المهلكة ، حيث وصفها النبي ﷺ بأنها يرقق بعضها بعضاً إشارة إلى تتابعها ، وتعلق بعضها ببعض ، وفي الغالب أن الفتن المقصودة هنا هي فتن الدماء ؛ والحديث يشير إلى أنها تأخذ منحى تصاعدياً ؛ بحيث تكون الفتنة التالية أشد من سابقاتها ، وهذا واضح من قول المؤمن عن الفتنة الأولى أنها مهلكته ثم إذا انقضت وجاءت التي بعدها ، جزم أكثر بالهلاك ؛ لذا يقول من باب التأكيد هذه هذه .

– الحديث بين مسلك النجاة بثلاث أمور : الأول هو المحافظة على الإيمان ، وقد ذكر الحديث أهم معلمين من معالمه وهما الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الفتن أول ما تعصف إنما تعصف بأصول الإيمان في قلوب الناس ، وتحولهم إلى الشرك أو تضعف في قلوبهم التوجه نحو الآخرة ، وتعزز فيها طلب الدنيا .

أما الثاني فهو معاملة الناس بالحسنى ، أما الثالث فهو طاعة إمامه في الحق بعدما يبايعه ، فلا يسعى للخيانة أو الفرقة .

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ إِذَا تُرِكَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ تُرِكَتِ السُّنَّةُ قَالُوا : وَمَتَى ذَاكَ ؟

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٤٤ [مسلم بشرح النووي (٤٢٢/٦)]

قَالَ : إِذَا ذَهَبَتْ عُلَمَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ جُهَلَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ » (١)

شرح :

هذا الأثر يشير إلى إحدى الفتن طويلة الأمد ، والتي ستصيب الأمة ويترتب عليها تغير معالم الرسالة و دلالات الهدي النبوي في قلوب الناس وهم يحسبون أنهم على الحق وحقيقتهم أنهم أبعد ما يكونون عنه ، حيث يألفون لطول أمدهم ما هم فيه من ضلالات ويظنون لغفلتهم وجهلهم أنهم على الحق .

كذلك الأثر يشير إلى أن هذه الفتنة طويلة الأمد إنما تحصل إذا توفرت أسبابها ، وهي كثرة الجهال وقلة العلماء والفقهاء في الأمة إضافة إلى كثرة الأمراء مما يشير إلى تفرق الأمة ، وهؤلاء مع كثرتهم ليس فيهم مؤتمن على الأمة .

والملاحظ في الأثر أن البدع والضلالات تأخذ شكلاً شرعياً بين الناس ؛ بحيث إذا ترك منها شيء أنكروا ذلك بزعمهم أنه تركت السنة ، وهذا من شدة إلباس الحق بالباطل ، وهو عين ما وقعت به بنو إسرائيل .

📖 - عن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ ؟ قَالَ : يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ ثُمَّ لِيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة برقم ١٨٥ [سنن الدارمي (١/٧٥)] ؛ والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٥٧٠ ، وقال عنه الذهبي : صحيح على شرط الشيخين [المستدرك (٤/٥٦٠)]

فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي قَالَ يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث ـــ وغيره كثير ـــ يشير إلى فتن الدماء التي تقع بين أفراد الأمة لأجل الدنيا وحطامها ، ودلائله تشير إلى أن أكثر الفرق المتناحرة فيها هم من دعاة النار ؛ لذا الأسلم فيها الاعتزال باللسان واليد ، وعدم الخوض فيها أو الاقتراب من أُوارُها ؛ لذا يرغب النبي ﷺ في هذه الحالة الاستثنائية أن ينشغل الإنسان برعاية أمواله سواء كانت زراعة أو رعي أو نحوه .

و بين النبي ﷺ أن أحوال الناس مع هذه الفتن متغايرة ، فالبعض يكونون وقودها الذي به تشتعل ، والبعض يكون كالهواء الذي يزيد من اشتعالها ، وبعضهم يكون بعيداً عنها ، وهو أفضلهم ؛ لذا ذكر النبي ﷺ أن القاعد فيها خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ؛ أي كل ما كان الإنسان بعيداً عن أتونها كلما كان أكثر نجاة ؛ وكلما كف لسانه ويده كلما كان أقرب للخلاص من شرها .

وقد عبر النبي ﷺ عند هذه الفتنة بصيغة المفرد للإشارة إلى أنها فتنة مخصوصة ، ودلالات السياق تشير إلى أنه ليس مقصوداً بها ما حصل بين الصحابة ، وإنما يراد بها فتنة أخرى ، ويحتمل أنه يراد بها فتنة الدهيماء العمياء المطبقة ، ولعل الحديث يشير إلى مرحلة الهرج التي يكون القاتل والمقتول في النار لأن الاقتتال فيه يكون لحطام الدنيا ، والهرج بدأت إرهاصاته منذ الخلافة العباسية إلى يومنا هذا ، ولعله في ازدياد نسأل الله السلامة .

في الحديث إشارة إلى ضرورة عدم الاشتراك في هذا الاقتتال مهما كانت النتيجة ، وفي حالة إكراه إنسان على الخوض في غمارها مع أحد الصفين فليكن سلبياً مدافعاً وليس مهاجماً حتى يتم له النجاة .

📖 - عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ تَكُونُ فِتَنٌ عَلَى

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٧ [مسلم بشرح النووي (٢٠٨/٩)]

أَبْوَابِهَا دُعَاةٌ إِلَى النَّارِ فَأَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْبَعَ أَحَدًا مِنْهُمْ . » (١)

شرح :

هذا الحديث هو شرح لطبيعة المرحلة التي يفضل فيها اعتزال الفرق وعدم متابعتها ، وعدم السعي معها كما بين الحديث السابق ، وهي كون أكثر الفرق من دعاة النار ، وسيأتي بيان زمان هذه المرحلة في الحديث التالي ، وفي ظني أن الفتنة المذكورة في حديث أبي بكرة السابق يراد بها تلك المرحلة .

- عن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷺ قال « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ . قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ . قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! صِفْهُمْ لَنَا فَقَالَ : هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا . قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ . قَالَ : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ » (٢)

وفي رواية : « أَرَأَيْتَ هَذَا الْخَيْرَ الَّذِي أَعْطَانَا اللَّهُ أَيَكُونُ بَعْدَهُ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ قَالَ نَعَمْ . قُلْتُ : فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : السَّيْفُ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَاذَا يَكُونُ ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلَّهِ خَلِيفَةٌ فِي الْأَرْضِ فَضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ

(١) أخرجه ابن ماجة بهذا اللفظ في الفتن والملاحم برقم ٣٩٨١ [سنن ابن ماجة (٢/١٣١٧)] ، وله أصل عند البخاري ومسلم بلفظ آخر كما في الحديث الذي يليه .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧٠٨٤ [البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٨)]

فَأَطِعْهُ وَإِلَّا فَمُتْ ﴾ (١)

وفي رواية ﴿ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ ؟ قَالَ : فِتْنَةٌ وَشَرٌّ . قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ ؟ قَالَ : يَا حُذَيْفَةُ تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ . قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ ؟ قَالَ : هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ فِيهَا أَوْ فِيهِمْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْهُدْنَةُ عَلَى الدَّخَنِ مَا هِيَ قَالَ لَا تَرْجِعُ قُلُوبُ أَقْوَامٍ عَلَى الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ : فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ النَّارِ فَإِنْ تَمُتْ يَا حُذَيْفَةُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ ﴾

شرح الغريب :

دخن : الحقد وقيل الدغل ، وقيل فساد القلوب ، و أصل الدخن أن يكون في لون الدابة كدورة ومراده هنا أن القلوب لا يصفو بعضها لبعض .

جلدتنا : أي من قومنا ومن أهل لساننا وملتنا وفيه إشارة إلى أنهم من العرب

عض أصل الشجرة : كناية عن مكابدة المشقة في ترك تلك الجماعات كقولهم فلان يعض على الحجارة .

جماعة على أقذاء : القذى ما يقع في العين من أذى ، والمراد هنا أن الجماعة الحاصلة قد اجتمعت على أهواء مختلفة أو عيوب مؤتلفة .

جذل : جذع الشجرة أو فرع منها .

شرح :

- هذا الحديث من أهم الأحاديث الدالة على تقلب الشر والخير في حق الأمة ، ويراد بالشر الأول ما وقع من مقتل عثمان وما جر إليه من فتن بعد ذلك ، أما الخير الذي فيه دخن ، فهو من الهدنة وما ترتب عليها بعد ذلك من أمراء بني أمية إلى قريب من عهدنا ؛ حيث تركت كثير من السنن وورد في أثر أنه يكون بعدي أئمة يهتدون

(١) أخرجه أبو داود في الفتن برقم ٤٢٢٥ [عون المعبود (٣١٢/١١)]

بهداي ولا يستنون بسنتي . وهذا إشارة إلى حصول تغيير واضح عما كان عليه الرعيل الأول ؛ لذا عقب النبي ﷺ بقوله تعرف منهم وتنكر ؛ أي تعرف من أعمالهم بعض ما يوافق هدي رسول الله ونهج الرعيل الأول ، والبعض الآخر تنكره لأنه من الضلالات والبدع ، ويلاحظ في الحديث أنه أشار إلى أن اجتماع الناس بعد الفتنة لا يكون على صورته قبل الفتنة ، بل هو اجتماع مع اختلاف في القلوب ، أي هي جماعة في الصورة لا المعنى ، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ جماعة على أقذاء فيهم .

- جاءت الإشارة إلى الشر الثاني وهو من داخل الأمة وعلى يد أبنائه الذين يتنصلون من دين الله سبحانه وتعالى ويتفرقون إلى شيع وأحزاب يجمعها جميعا نهج واحد وهو الدعوة إلى النار مما يدل على أنها من فرق الضلالة تطلب الدنيا والملك وليس للإسلام نصيب فيها ، ويلحظ أن هذا الشر إنما يقع بعد الفتنة العمياء الصماء ، وهذا الوصف نفسه ذكر عن فتنة الدهيماء مما يشير إلى أن حقيقة هذا الشر إنما تتضح عند وقوع هذه الفتنة .
- بين النبي أن العاصم في مرحلة تفرق الأمة وتغير توجهاتها عما كان عليه الرعيل الأول هو بملازمة جماعة المسلمين وإمامهم حتى لو كان فيه جور ؛ فإن لم يكن للمسلمين إمام أو جماعة يعرفون بها ، عندها ليعتزل جميع تلك الفرق ، وليكابد في هذا الاعتزال فالمكابدة في الاعتزال خير من تكثير سواد تلك الفرق أو موافقتها في دعواها للنار .
- نلحظ في إحدى روايات الحديث أنه نسب الإمام أو الخليفة لله بقوله ﷺ : « إِنْ كَانَ لِلَّهِ خَلِيفَةٌ فِي الْأَرْضِ فَضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَأَطِعْهُ » مما يشير إلى أن الخليفة الذي يلزم طاعته وعدم الخروج عليه هو الخليفة القائم على رعاية دين الله سبحانه وتعالى وحفظ معالمه بين الرعية ، وإن كان في هذا الخليفة جور أو ظلم ، فهذا لا يقدح في ضرورة الصبر عليه وطاعته في طاعة الله .

المبحث السادس
الفتـــن العـظـــام

📖 - – عن حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ قال : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ : مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ قَالَ حُذَيْفَةُ فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي . » (١)

شرح :

- هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى سعة إطلاع حذيفة في الفتن ، ويتضح من الأثر أن النبي ﷺ كان يسهب الحديث بخصوص الفتن ، لدرجة أنه لم يترك ذكر الفتن الصغار التي شبهها حذيفة برياح الصيف ، وذلك إشارة إلى سرعة تقلبها وزوالها ، سواء كانت هذه الفتن كبيرة أو صغيرة إلا أنها محدودة الزمن وإن كانت شديدة الأثر .
- الحديث السابق فيه تصريح من حذيفة بأن النبي ﷺ كان يعد الفتن الواقعة في الأمة ، ويصنفها ، وهذا إشارة واضحة إلى أن الرعيل الأول كان عندهم وضوح رؤية بخصوص الفتن التي تعصف في الأمة إلى قيام الساعة .
- ذكر الحديث فتن ثلاث عظام هن أخطر ما تبتلى به الأمة ، وقد وصفهن رسول الله ﷺ بأهن لا يكدن يذرن شيئاً ، وذلك إشارة إلى عموم الهلاك بالأنفس والأموال فيهن ، وهؤلاء الفتن الثلاث العظام يختلفن عن الفتن الكبار المشبهات برياح الصيف ؛ فقد تكون الفتنة كبيرة أو شـديدة الأثر ، إلا أن الهلاك بها لا يعم ، وكـذلك زمانهـا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي (٢١٤/٩)]

لا يطول ، أما الفتن العظام فظاهر الحال يشير إلى عمومهن في حق الأمة مع طول بقائهن ، وعمق النتائج والآثار المترتبة عليهن ، وهذا واضح في الفتنة التي تموج موج البحر ، والتي بدأت بمقتل عثمان ، فهذه الفتنة تتميز بطول أمدها ، وعمق أثرها ، ويكفي القول أن أثرها يمتد في الأمة إلى يومنا هذا .

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَرْبَعُ فِتَنٍ فِي آخِرِهَا الْفَنَاءُ . » (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى الفتن العظام ، وجاء بيان أنهن أربع فتن ، والحديث السابق أشار إلى ثلاث فتن ، ولا تعارض بينهن ، وفي ظني أن الحديث الذي أشار إلى ثلاث فتن لم يذكر الفتنة التي تموج موج البحر ، وكأن حذيفة ﷺ قد اعتبرها فتنة منفردة ؛ حيث كان الحديث عنها يتعلق بالرعيل الأول ، وله حديث يختص بذكرها ؛ لذا اقتصر في حديثه على الفتن العظام اللاتي يأتين بعدها في حق الأمة ، واللواتي يتميزن بأن الهلاك بهن عام ، أما في حديث عبد الله فسياقه يشير إلى أنه يخبر عن عدد الفتن العظام الكائنة في الأمة ؛ لذا أمكن اعتبار الرابعة هي التي تموج موج البحر ، أو أن الرابعة هي الدجال ، ويعزز القول الأول عدة آثار منها :عن حذيفة بن اليمان ﷺقال : « في الإسلام أربع فتن تسلمهم الرابعة إلى الدجال » (٢) وعن أبي هريرة « أربع فتن تأتي الفتنة الأولى فيستحل فيها الدماء والثانية يستحل فيها الدماء والأموال والثالثة يستحل فيها الدماء والأموال والفروج والرابعة عمياء مظلمة تمور مور البحر تنتشر حتى لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته » (٣) وفي أثر عن أبي هريرة يشير إلى مدة بقاء الفتنة الرابعة مما

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٢٣ [عون المعبود (١١/ ٣٠٧)] ؛ وابن ابي شيبة برقم ٣٧٥٦٨ [المصنف (٥٠٣/٧)] ؛ وفي رواية أبي داود مجهول إلا أن للحديث عدة شواهد .

(٢) ابن حماد : الفتن برقم ٧٩ (٢٩)

(٣) ابن حماد : الفتن برقم ٨٨ (٣٢)

يشير إلى أنها غير فتن الدجال حيث يقول « تدوم الفتنة الرابعة إثنا عشر عاما تنجلي حين تنجلي وقد أحسرت الفرات عن جبل من ذهب فيقتل عليه من كل تسعة سبعة » (١) وهذا صريح في كونها غير فتنة الدجال .

ويعزز القول الأخير بأن الرابعة هي الدجال أثر عن عمران بن حصين فيه : « تكون أربع فتن : الأولى يستحل فيها الدم . والثانية يستحل فيها الدم والمال ، والثالثة يستحل فيها الدم والمال والفرج ، والرابعة الدجال » (٢)

خلاصة القول هناك اختلاف بين الصحابة في المراد بالفتن الأربع ، وإن كان أكثرهم يتفق على أن المهلكات هي أربع .

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قال : ﴿ كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ ؟ قَالَ: هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي وَلَيْسَ مِنِّي وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ ، ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِكٍ عَلَى ضِلَعٍ ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

الأحلاس : جمع حلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، شبه هذه الفتنة بالحلس لدوامها وطول لبثها وملازمتها للناس ؛ أو هي الكساء الذي

---

(١) ابن حماد : الفتن برقم ٩٢٢ (٢٣٣)

(٢) ابن حماد : الفتن برقم ٨٤ (٣٠)

(٣) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ، وأحمد في مسند المكثرين برقم ٦١٧٣ [المسند (٢/ ١٨١)] ؛ والحاكم في الفتن برقم ٨٤٤١ ، و قال عنه صحيح الإسناد وأقره الذهبي [المستدرك (٥١٣/٤)]

يوضع في البيوت تحت حر الثياب ،ويكون المراد بذلك أن هذه الفتن سوداء مهلكة لا يسلم منها إلا من لازم بيته .

السراء : المراد بالسراء النعماء التي تسر الناس من الصحة والرخاء ، و من معاني السراء أيضاً البطحاء ؛ أي فتنة الصحراء (١)

ورك على ضلع : مثل يراد به بيان عدم المناسبة أو الثبات والاستقامة بين أمرين لكونهما غير متجانسين ؛ أي أن هذا الرجل الذي اصطلحوا عليه غير خليق بالولاية ، ولا يتناسب لها كما أن الورك لثقله لا يثبت على الضلع ، ولا يستقيم عليه لاختلاف ما بينهما ، والمراد به في الحديث أن الناس يصطلحون على أمر واه أو رجل غير أهل للولاية أو غير خليق بالحكم لقلة علمه وخفة عقله ، أو لأسباب أخرى .

الدهيماء : أي المظلمة ، وهي تصغير دهماء ، والدهماء : السوداء ، والتصغير هنا يراد به التعظيم ، وقيل أن المراد بالدهماء الفتنة الداهية ، ومن اسماء الدهيماء أيضاً الدهيم ، والدهيم اسم ناقة كان قد غزا عليها سبعة إخوة فقتلوا عن آخرهم ، وحملوا عليها حتى رجعت بهم ، فصارت مثلاً في كل داهية .

شرح :

هذا الحديث يعتبر العمدة في بيان الفتن العظام التي تعصف في الأمة الإسلامية ، والحديث يشير إلى ثلاث فتن عظام ، والملاحظ أن الأولى لا تنطبق من جميع الوجوه على الفتنة التي تموج موج البحر ، والتي سبق بيان المراد بها في الفصل الأول، وهذا يشير إلى أن الفتن الثلاث العظام غيرها . وتفصيل المراد بهذه الفتن على النحو التالي :

الفتنة الأولى : فتنة الأحلاس .

لاحظنا من التعريف اللغوي لكلمة الأحلاس ، أنها تتضمن معنى الملازمة والدوام ، وهذا يجعلنا نتصور المراد بفتنة الأحلاس أنها الفتنة التي تبرز تشيع الأمة إلى فرق ، وإذاقة

---

(١) ابن منظور : لسان العرب (٤/ ٣٦٢ وما بعدها)

بعضهم بأس بعض ، وهي الفتنة الأطول عمراً في حق الأمة ، بدأت إرهاصاتها في أواخر عهد الصحابة ، وبدأت تتجذر في الأمة ، وهي من عصر لآخر ومن موقع لآخر ما بين اشتعال أو انحسار إلا أنها في غالب الأحوال موجودة في الأمة .

ويعزز هذا التصور أن النبي ﷺ قد بين المراد بها بأنها هرب وحرب ، ويؤكد ما ذكرت أن الباس الأمة لشيع ، وإذاقة بعضهم بأس بعض هي العقوبة الوحيدة في الأمة التي سأل النبي ربه برفعها عن أمته فلم يُستجب له فيها لأنها من القدر الحتمي في حقها ، وفي ظني أن هذه الفتنة طويلة الأمد والملازمة للأمة قد بدأت بعد الفتوحات الإسلامية ، وهذه المرحلة يشير إليها هذا الأثر عَنْ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ الْخُزَاعِيِّ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِلْإِسْلَامِ مِنْ مُنْتَهَى ؟ قَالَ النبي ﷺ : « أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ الْعَرَبِ أَوْ الْعُجْمِ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ قَالَ : ثُمَّ مَهْ ؟ قَالَ : ثُمَّ تَقَعُ الْفِتَنُ كَأَنَّهَا الظُّلَلُ قَالَ : كَلَّا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . قَالَ : بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ثُمَّ تَعُودُونَ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا (✿) يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » (١)

هذا هو تصوري عن فتنة الأحلاس ومداها في الأمة ، ووفق المعنى الثاني لكلمة الحلس ، وهو الكساء الملقى في أرضية البيوت تحت حر الثياب يمكن القول أن النجاة من هذه الفتنة المتعلقة بالدماء هو ملازمة البيت ، وعدم مشاركة القوم .

الفتنة الثانية : فتنة السراء .

- هذه الفتنة يتضح من معاني ألفاظها أنها إما تتعلق بحالة النعيم والترف التي تقع فيها الأمة في بعض مراحلها أو أن سبب اشتعالها هو الطمع في الدنيا ونعيمها والتوسعة فيه ؛ أو أنها تحكي فتنة مؤثرة على الأمـــة جميعاً ويكون موطنها الأول البطحاء

(✿) الأساود هي نوع من الأفاعي التي تنتصب عند هجومها على الفريسة ، والمراد بها في الحديث بيان شراسة الاقتتال الداخلي الواقع في الأمة .

(١) أخرجه أحمد في برقم ١٥٩٢٣ [المسند (٣/ ٥٨٠)] ؛ وابن حبان برقم ٥٩٥٦ [صحيح ابن حبان (١٣/ ٢٨٧)] ؛ والحاكم في الفتن برقم ٨٤٠٣ ، وقال : صحيح الإسناد [المستدرك (٤/٥٠٨)] قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني بأسانيد و أحدها رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٧/٣٠٥)]

(الصحراء) ، ووفقاً للرأي الأخير لا بد أن يكون لهذه الفتنة أثر مفصلي يخص الأمة جميعاً ، وينقلها من مرحلة سياسية إلى أخرى ، وفي الغالب إلى الأسوأ .

- الملاحظ أن هذه الفتنة قد ارتبطت بشخص من أهل بيت النبي ﷺ ؛ أي هو سبب إشعالها في الأمة ، والحديث يشير إلى أن هذا الرجل الذي أشعلها قد استغل كونه من أهل بيت النبي ﷺ ليجذب تعاطف الناس معه في حربه أو فتنته التي أوقدها ، وهذا الاستغلال يرشد إليه قول النبي ﷺ « يزعم أنه مني »

- نفي النبي ﷺ أن هذا الرجل ليس منه ليس معناه أنه ليس من أهل بيت النبي ﷺ ، بل هو من باب قول الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (١) لذا عقب النبي ﷺ بعد نفيه لكون هذا الرجل منه بقوله : « إنما أوليائي المتقون » أي أهل بيتي الذين ينتسبون لي حقاً هم أهل التقوى والصلاح منهم ؛ لذا النفي المقصود إنما هو من هذا الوجه ، أما من حيث النسب فهو من أهـــل بيت النبي ﷺ كما صرح النبي ﷺ في بداية حديثه عن هذه الفتنة .

- يظهر من سياق هذه الفتنة أنها متعلقة بجانب سياسي يتعلق بالأمة ؛ لذا كان من نتائجها أن الناس يصطلحون على رجل يقودهم ، وهذا الرجل لا يتناسب أبداً للولاية كما لا يستقيم الضلع على الورك ، وهذا المثل يشير إلى التنافي الحاصل بين هذا الوالي ورعيته ، وقد يكون هذا إشارة إلى بداية عهد الحكومات الجبرية التي تكون بعد الملك العضود ، والذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية .

- في ظني أن فتنة السراء أو البطحاء قد وقعت من عقود كثيرة مضت ، أو من قرابة قرن ، ولها علاقة كما ذكرت بتغير جوهري في النظام السياسي من مرحلة الملك العضود إلى مرحلة الحكومات الجبرية ذات التوجهات المنافية لطبيعة رسالة الأمة .

---

(١) هود:٤٦

الفتنة الثالثة : فتنة الدهيماء .

- تعتبر فتنة الدهيماء هي الأخطر في الفتن الثلاث ، وهي الممهدة لخروج الدجال ، ودلائل السياق تشير إلى أنها من الفتن العامة التي تبتلى بها الأمة ، وهي بذلك الأشبه بفتنة الدجال ، فالمعلوم أنه ما من فتنة في الأرض إلا وتمهد لخروج الدجال ، وآخر الفتن الممهدة هي الدهيماء ؛ لذا بتصور أن تكون قريبة منها من حيث التأثير على الأمة ، ومن حيث المواصفات .
- يلحظ في الحديث أنه ذكر أهم مواصفات هذه الفتنة ، وهي على النحو التالي :

١- **فتنة عامة** : أي تعم المسلمين جميعاً ؛ بحيث يذوق من نيرها الجميع ، أو تعم الأرض كاملة ، وهذا العموم عبر عنه النبي ﷺ بقوله « لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً » .

٢- **فتنة متجددة طويلة الأمد** : أي أن هذه الفتنة تطول على الأمة ؛ بحيث لا يتصور متى نهايتها ، وعلى العكس كلما خبت شدتها ، وتصور البعض أن نهايتها قد اقتربت تجددت من جديد ، وبشكل أوسع مما كانت عليه ، وهذا عبر عنه النبي ﷺ بقوله : « فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ » .

٣- **فتنة ممحصة ترتكز على الشهوات والشبهات** : هذه الفتنة سوداء مظلمة يجول فيها شياطين الإنس والجن ويصولون مستخدمين كل حبائلهم الشيطانية على مستوى استغلال الشهوات أو بث الشبهات ، وهي فتنة واسعة التأثير على القلوب ، بل مؤثرة في نظرة الناس للحقائق مما يعزز أن للإعلام دوراً واسعاً فيها ، وكما ورد عن النبي ﷺ « إن من البيان لسحراً » ؛ لذا يستخدم البيان واللسان فيها من خلال الإعلام بأقصى درجاته ليسحر قلوب الناس وأعينهم فيروا الحق باطلاً والباطل حقاً ، وهذا عبر عنه النبي ﷺ بقوله : « يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا »

٤- **فتنة الحصاد والغربلة والتمييز** : الملاحظ من سياق الحديث أن هذه الفتنة لا تنتهي إلا وقد حصدت الكثيرين من ضعاف الإيمان ، والمتذبذبين بحيث لا يبقى خارجها ،

أو خارج تأثيرها إلا قلة من أهل الإيمان الذين زادهم الفتنة خلوصاً واستخلاصاً لله ؛ فثبتوا في الميدان على أنهم طائفة الحق ؛ بحيث يميزون بمعتقدهم و توجهاتهم وصفاتهم وسلوكهم عمن حولهم ، وهذا المعنى عبر عنه النبي ﷺ بقوله « حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ » وهذا التعبير يشير إلى أن الناس قبل الدهيماء لا يمكن التمييز بين مؤمنهم ومنافقهم ، بل كان حال الناس وتصرفاتهم تتراوح بين الأمرين ، أما بعدها فقد حصل الخلوص والاستخلاص الكامل إلى فتتين: الأولى هي فئة الإيمان المحض بحيث لا يوجد فيهم منافق ، وفئة النفاق المحض الذي لا إيمان فيه ؛ وهذا لا يتصور إلا إذا كانت الشدائد في آخر هذه الفتنة بأعلى الدرجات ؛ وهذا ما يجعل الكثيرون يختارون طريق النفاق المحض لأنه يحقق لهم مآربهم الدنيوية التي كانوا يرتعون فيها قبل هذه الفتنة .

٥- <u>**الفتنة الأقرب لفتنة الدجال في المواصفات والتوقيت :**</u> وهذا يرشد إليه قول النبي ﷺ : « فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ » حيث يتضح من العبارة السابقة أن النبي ﷺ قد ربط بين زمان هذه الفتنة وبين خروج الدجال ، هذا من ناحية التوقيت لها ، أما من حيث المواصفات ، فهذا استنتاج عقلي لازم يقتضيه السياق ؛ إذ يتصور أن الفتنة الأقرب للدجال في الزمان تكون أشبه بها من حيث المواصفات ، ولعل أهم مواصفات فتنة الدجال أنه يمتلك قدرات خارقة مؤثرة ومهيمنة على الكرة الأرضية ، وأنه يدعي الربوبية والألوهية وهذا ناتج عن قدرته التي لا تضاهى في ذلك الزمان ، والأمر الثالث أنه نصب نفسه في الأرض لملاحقة أهل الله ومطاردتهم وبث الشبهات حولهم ، والتضييق على من يساندهم ؛ لذا القرية التي لا تتبعه تحاصر اقتصادياً وتصبح محلاً ، والقرية التي تؤمن به وتسانده يغدق عليها من عطاياه ؛ فالدجال ليس له إلا شعار واحد إما معي وإما علي .

اجتهادات المؤلف في بيان زمان وقوع فتنة الدهيماء .

– في ظني أن هذه الفتنة قد بدأت في الأمة من سنوات ، وقد تكون بدايتها مرتبطة مع بداية انتفاضة الأقصى ، وقد يتساءل البعض ما وجه الربط بين انتفاضة الأقصى وبين فتنة الدهيماء ؟ أقول تحصل هذا الفهم من عدة قرائن ، وذلك على النحو التالي :

القرينة الأولى : طبيعة انتفاضة الأقصى وارتباطها في معلم هام لجميع المسلمين :

فالمعلوم أن هذه الانتفاضة على وجه الخصوص قد ارتبطت بمعلم هام للمسلمين جميعاً ، وهو المسجد الأقصى نفسه ، والمؤامرات التي تحاك لهدمه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذه الانتفاضة قام بها أهل الشام ، والشام عقر دار المسلمين ؛ أي قلب الأمة الإسلامية جميعاً ؛ وهي أرض مقدسة وأهلها أهل رباط ، وفي بعض الآثار أنهم ميزان الخير والشر في الأرض ، وإذا ذهب الخير من أهل الشام فلا خير في الأمة .

هذا بخصوص موقع وقوع الانتفاضة والأسباب المهيجة لاندلاعها ، أما عن طبيعتها فالملاحظ عليها أنها الأكثر تأثيراً في العالم بأسره ، وصراعها الداخلي قد أخذ المساحة الأوسع في نشرات الأخبار على مدى سنوات ، بل أصبحت موطن اهتمام أكثر الدول خاصة العظمى ، وهذا واضح معلوم .

أما وجه العلاقة بينها وبين فتنة الدهيماء ، أو وجه الربط بين الانتفاضة والفتنة ، فهذا واضح من عدة نواحي أولها : أنها ارتبطت بمعلم هام لجميع المسلمين ، وهناك تقصير واضح في نصرة أهلها على مستوى الشعوب والحكام ، و شعار الأكثرين : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا على شاشات التلفاز مشاهدون ، وهذا وجه من الفتنة أو لطماتها.

أما الناحية الثانية فتتعلق بطبيعة هذه الانتفاضة على وجه الخصوص ، فالمعلوم أنه لأجل إيقافها عقدت عدة مؤتمرات ، وكان كل مؤتمر يخرج على الأمة بفتنة جديدة ، ويغرقها بدوامة أوسع ، ويجهض على معنوياتها ، وكانت نهاية كل مؤتمر مشعرة بأن هذه

الانتفاضة قد انتهت ، ويفاجأ الجميع بأنها تتجدد بشكل أوسع « كلما قيل انقضت تمادت » « لا يرقعونها من ناحية إلا انفتقت من ناحية أخرى . » ، بل هذه الانتفاضة والتي أعقبها تخاذل عام على مستوى الأمة أوقع بعض أفراد في الأمة في ردة فعل عنيفة وهذا شكل من الفتنة ، وأعقبها اختلاف حاد بين المسلمين في تصور فقه المرحلة ، وهذه فتنة ، وفتح الباب على مصراعيه في تمادي الصراع وتوسعه في عدة مواقع ، فمن فلسطين إلى نيويورك إلى أفغانستان إلى العراق إلى حرب شاملة على الإرهاب .. وهلم جرا

فالمعلوم أن كل هذه الأحداث قد ارتبطت بانتفاضة الأقصى ، بغض النظر عن كونها قد ارتبطت بها ارتباطاً حقيقياً أو مفتعلاً ، وأعقب ذلك توظيف الإعلام بأعلى الدرجات مغيراً للحقائق أو متلاعباً بها أو فاتحاً لأبواب الاختلاف الفكري ، وسيق العلماء والمفكرون لها سوقاً كل يدلي بدلوه ، ووقع كثير من الناس في حبال الشبهات ففي الصباح يؤيدون ، وفي المساء يعارضون ، وهذا وجه من الفتنة .

هذه الحقيقة التي عايشناها ، وارتباط انتفاضة الأقصى بكثير من الأحداث العالمية التي تمس كل مسلم على وجه الأرض ، وكثرة التناقضات الفكرية .. كل هذه الأمور لو قارناها بفتنة الدهيماء لوجدنا أنفسنا أمام محصلة واحدة بمسميات مختلفة .

القرينة الثانية : الآثار المتعددة المعينة على فهم وجه العلاقة بين انتفاضة الأقصى وفتنة الدهيماء .

هذه بعض الآثار الواردة بعضها مرفوع وبعضها عن صحابة أو تابعين قد تعزز ما ذكرت من وجه العلاقة بين الأمرين ، وهذه الآثار إنما استأنس بها في هذا المقام دون الجزم بمعطياتها .

المجموعة الأولى من الآثار :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **تأتيكم بعدي أربع فتن الأولى يستحل فيها الدماء . والثانية : يستحل فيها الدماء والأموال**

والثالثة : يستحل فيها الدماء والأموال والفروج . والرابعة : صماء عمياء مطبقة تمور مور الموج في البحر حتى لا يجد أحد من الناس منها ملجأ – وفي رواية لا يبقى بيت من العرب والعجم إلا ملأته ذلا وخوفا – تطيف بالشام ، وتغشى العراق ، وتخبط الجزيرة بيدها ورجلها ، وتعرك الأمة فيها بالبلاء عرك الأديم ثم لا يستطيع أحد من الناس يقول فيها مه مه ثم لا يعرفونها من ناحية إلا انفتقت من ناحية أخرى ﴾ (١)

وفي رواية : ﴿ .. فالرابعة منها الصماء العمياء المطبقة تعرك الأمة فيها بالبلاء عرك الأديم حتى ينكر فيها المعروف ويعرف فيها المنكر تموت فيها قلوبهم كما تموت أبدانهم . ﴾ (٢) وفي رواية : ﴿ في الفتنة الثالثة فتنة الدهيم ويقاتل الرجل فيها لا يدري على حق يقاتل أم على باطل ﴾ (٣)

أقول :

الشاهد في هذا الأثر أن هذه الفتنة أول ما تطيف إلا بالشام ؛ أي أن بدايتها أو طيفها الأول يكون بالشام ، ثم تغشى العراق مما يشير إلى أن البلاء في العراق يكون أعظم بكثير ، أما الجزيرة العربية فإن هذه الفتنة تخبطها بيدها ورجلها ؛ أي أن للجزيرة نصيباً منها إلا أنه أخف حدة من العراق ، إنما هي خبطة أو خبطتان .

كذلك في الأثر إشارة إلى إنه لا يجد إنسان منها ملجأ في الأرض ، والمتتبع لحرب الإرهاب المصطنعة في كل العالم اليوم يفهم دلالات هذه العبارة .

وهذا الوصف الدقيق لفتنة الدهيماء أليس هو عين ما تعيشه الأمة اليوم بصورته الكاملة .

---

(١) ابن حماد : الفتن برقم ٨٧ ، ٦٥١ [الفتن (٣١) (١٥٩)]

(٢) ابن حماد : الفتن برقم ١٢٥ وإسناده حسن [الفتن (٣٩)]

(٣) ابن حماد : الفتن برقم ١٠٦ [الفتن (٣٦)]

المجموعة الثانية من الآثار :

عن أبن مسعود رضى الله عنه قال : « كل فتنة شوى حتى تكون بالشام فإذا كانت بالشام فهي الصليم وهي المظلمة » (١) و عن كعب قال : « لا تزال الفتنة مؤامر بها ما لم تبدو من الشام » « الغربية هي العمياء » (٢) و عن أبي العالية قال : « أيها الناس لا تعدوا الفتن شيئا حتى تأتي من قبل الشام وهي العمياء » (٣)

« وعن عصمة بن قيس السلمي صاحب رسول الله ﷺ أنه كان يتعوذ من فتنة المشرق قيل له فكيف فتنة المغرب ؟ قال : تلك أعظم وأعظم . وفي رواية أخرى ، أنه كان يتعوذ في صلاته من فتنة المغرب » (٤)

أقول :

مجموع هذه الآثار يشير إلى أن الفتنة العمياء منبعها من الشام الذي يكنى في عرف العرب قديما بالغرب ؛ لذا قولهم الفتنة الغربية أي الفتنة الخارجة من جهة الشام ، والفتنة الشرقية الفتنة الخارجة من جهة العراق أو نجد أو إيران ونحوها . والمعلوم أن الفتنة العمياء هي عينها فتنة الدهيماء ، ويكون الشاهد من مجموع هذه الآثار أن كثيراً من السلف الصالح كانوا يرون أن فتنة الدهيماء منبعها من الشام .

المجموعة الثالثة من الآثار :

📖 - عن سعيد بن المسيب قال : « تكون بالشام فتنة كلما سكنت من جانب طمت من جانب فلا تتناهى حتى ينادي مناد من السماء إن أميركم فلان . » (٥)

---

(١) ابن حماد برقم ٦٣٦ ، و إسناده ضعيف [الفتن (١٥٦)]

(٢) ابن حماد برقم ٦٣٨ [الفتن (١٥٦)]

(٣) ابن حماد : الفتن برقم ٦٣٧ [الفتن (١٥٦)]

(٤) أورده الهيثمي وقال : أخرجه الطبراني ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٧/٢٢٠)]

(٥) ابن حماد برقم ٦٤٩ [الفتن ١٥٨)]

عن كعب يقول : « إذا ثارت فتنة فلسطين فردد في الشام تردد الماء في القربة ثم تتجلي حين تنجلي وأنتم قليل نادمون . » (١) « عن ابن سيرين أنه كان إذا جلس قال : هل جاءكم شيء من قبل خراسان هل جاءكم شيء من قبل الشام » (٢) وعنه أيضاً بنفس السند الساق « أما لبنات العلاء بن زياد من يخرجهن من الشام فإنا كنا نتحدث أنه يكون بالشام فتنة » (٣)

أقول :

الشاهد في الأثر الأول عن ابن المسيب أنه تحدث عن فتنة بالشام وذكر لها وصفاً مطابقاً لفتنة الدهيماء ، أما الأثر الثاني عن كعب فحددها بأنها في فلسطين وبنفس الوصف المذكور في فتنة الدهيماء ، وأما الأثر الثالث عن ابن سيرين فقد ربط فيه ابن سيرين بين الشام وخراسان وكأن هناك علاقة واضحة عنده بين حدثين يقعان في الشام وخراسان ؛ لذا يستفسر دائماً عن هذين الموقعين بالذات ،والسياق يشير إلى أن لهذين الحدثين علاقة بفتنة معينة ، وقد حددها في الأثر الرابع عنه ؛ حيث صرح بأن هناك فتنة بالشام، والملاحظ في عصرنا أن هناك علاقة بين حدث هام في الشام (انتفاضة الأقصى) وحدث هام في خراسان (الحرب ضد أفغانستان) ، والمعلوم أن لهذين الحدثين أثراً واضحاً على عموم العالم الإسلامي .

---

(١) ابن حماد : الفتن برقم ٦٥١ ، وإسناده ضعيف [الفتن (١٥٨)]

(٢) ابن حماد : الفتن برقم ٦٥٢ ، قال محققه إسناده حسن [الفتن (١٥٩)]

(٣) أخرجه ابن حماد بنفس السند السابق ، ويحمل نفس الرقم

المبحث السابع
موقف المسلم من الفتن

هذا الموضوع الحساس يحتاج تفصيله إلى مجلد كامل ، وطبيعة منهج الكتاب هنا لا يسمح في التفصيل به ؛ لذا سأقتصر على بيان العناوين العامة التي ينبغي أن يلتفت لها المؤمن ويحتاط من خلال الأخذ بها لكي تتحقق له النجاة حال وقوع الفتن ، وسأعرض صفحاً عن الجوانب الوقائية التي تدخل في صلب الموضوع لكن سبق ذكرها خلال الفصول السابقة ؛ حيث أبرزت – مثلاً – موقف المسلم من فتن السلاطين ، وموقفه في حال وقوع الهرج والاقتتال الداخلي ، وغير ذلك .

ويعتبر هذا المبحث من أهم مباحث هذا الفصل ؛ لأنه يمثل جانباً وقائياً عملياً للأمة حال عصف الفتن بها ، ويمكن تفصيل أبرز معالم النجاة من الفتن والعواصم من الفتن على النحو التالي :

أولاً : الاعتصام بالكتاب والسنة .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١)

شرح الغريب :

اعتصموا : الاعتصام هو افتعال من عصم ، ويراد به هنا طلب الأشياء التي بها يحفظ الإنسان .

حبل الله : الحبل هو الرباط ، أو السبب الذي يتوصل به إلى البغية والحاجة ، أما حبل الله فقد اختلف في المراد به على عدة أقوال منها : العهد والأمان ؛ أي تمسكوا بعهد الله الذي به تأمنون من عذابه ، وقيل حبل الله هو القرآن ، وقد جاءت

---

(١) آل عمران:١٠٣

بعض الآثار الدالة على ذلك منها : ﴿ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وقيل حبل الله الإسلام ، وقيل حبل الله هو الجماعة ن وقيل حبل الله هو الاعتصام بالإخلاص لله وحده .

- عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في خطبة الوداع : ﴿ .. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ ﴾ (١)

- عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ﴿ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

النواجذ : الأنياب ، وقيل الأضراس ، ويراد بذكرها هنا التأكيد على التمسك الشديد بسنة النبي ﷺ

شرح إجمالي للآية والأحاديث .

- الملاحظ من الآية أنها أشارت إلى أعظم حافظ للمسلم وعاصم له من الفتن والضلالات والفرقة المذمومة ومن عذاب الله يوم القيامة ، إلا وهو الاعتصام بحبل الله سواء كان المقصود بحبل الله عهده أو كتابه أو دينه أو إخلاص العبودية له أو الجماعة ، فهذه معاني متقاربة ، ولا يتصور حصول واحد دون حصول الآخر ، وقد بينت الآية أن الاعتصام بحبل الله سبحانه وتعالى سبب للألفة والنعمة والنجاة من النار ؛ لذا هو من أعظم الأسباب الحافظة للمسلم من الفتن ، ولعل أهم معلم من معالم حبل الله

(١) أخرجه مسلم في الحج برقم ١٢١٨ [مسلم بشرح النووي (٤٠٩/٤)]

(٢) أخرجه الترمذي في العلم برقم ٢٨١٥ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٣٨/٧)]

هو كتابه العظيم ، وقد جاء ذكره في الأحاديث أنه حبل الله ؛ حيث ورد عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قوله ﴿ إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنْ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا . ﴾ (١) فالحديث يشير صراحة إلى أن الكتاب هو حبل الله ، والتمسك به هو العاصم من الضلالات والفتن .

– لاحظنا من معاني حبل الله التمسك بكتابه والمحافظة على عهده بإخلاص التوحيد له ، لذا الاعتصام بحبل الله يتحقق بأمرين ذكرهما ابن القيم بقوله : « فالاعتصام به نوعان : اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولَجإٍ وعياذ ، وإسلام النفس إليه ، والاستسلام له سبحانه .والثاني : اعتصام بوحيه . وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم ، ومعقولاتهم ، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم . فمن لم يكن كذلك فهو مُنْسَلٌ من هذا الاعتصام . فالدين كله بالاعتصام به وبحبله ، علماً وعملاً ، وإخلاصاً واستعانةً ، ومتابعة واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة » (٢)

– يلاحظ في حديث العرباض أن النبي ﷺ قد أشار إلى وقوع البدع والمحدثات والاختلافات الكثيرة بين المسلمين ، وقد بين الحديث أنه لا نجاة للمسلم من الضلالة إلا بتمسكه بسنة رسول الله ﷺ وبهدي خلفائه الراشدين ؛ لأن كلا الأمرين يتحقق بهما معلم جادة الصواب والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكبها إلا ضال .

– لا بد للمسلم عند تعامله مع الكتاب والسنة أن يفرق بين الخلاف المذموم

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب مناقب أهل البيت برقم ٣٨٧٦ ، وقال حديث حسن غريب .[تحفة الأحوذي (٢٨٩/١٠)]

(٢) مدارج السالكين (

والاختلاف المقبول ؛ فالأمور القطعية و مسلمات العقيدة لا مجال للاختلاف فيهما ، وأي اختلاف فيها يعتبر فاصلاً بين الإيمان والكفر ، أما الاختلاف في القضايا الفقهية العملية الداخلة في مدار الاجتهاد ؛ فهذا له مسوغاته ؛ لذا لا يجعل اختلاف الرأي فيه مدعاة للفرقة بين المسلمين ، ولينتبه المسلم إلى أن اجتماع كلمة المسلمين هي في أعلى أولويات الأمة ؛ لذا قرنت الآية الكريمة بين أمرين ، الأول : الأمر بالاعتصام الذي به تتحقق الألفة والثاني : النهي عن التفرق ؛ وهذا يوجب على المسلمين دائماً أن يعززوا جانب اجتماع كلمة الأمة وما يحقق الألفة بينهم بتضييق دائرة الاختلاف ما أمكن ، يضاف إلى ذلك عدم جعل الاختلافات التي تدخل في دائرة الاجتهاد مجالاً للفرقة بينهم ، وهذا يذكرني بموقف الخوارج ؛ حيث إنهم كانوا أكثر الناس ادعاءً بتمسكهم بالكتاب ، وبالرغم من ذلك وقعوا بالضلالة والزيغ الذي أحل دمائهم ، والسبب في ذلك هو سوء فهمهم لكتاب الله سبحانه وتعالى، وعدم تمييزهم لخفة عقولهم بين المواطن التي يجوز الاختلاف فيها والتي لا يجوز فيها ؛ لذا يمكن القول أن الاعتصام بالكتاب والسنة نجاة لأصحابه إذا التزموا قواعد الفهم السليمة لهما بعيداً عن التعمق المذموم و التنطع المفضيين إلى تذكية الخلاف والفرقة ، وهذا يبرز لنا عنصراً أصيلاً لا غنى عنه من عناصر الأخذ بالكتاب والسنة ، وهو ضرورة العلم و طلبه واحترام أهله العاملين به ؛ خاصة سلفنا الصالح في خير القرون ، وعلى وجه الخصوص الصحابة و علماء التابعين لأنهم كانوا أولى الناس بفهم كتاب الله سبحانه وتعالى لقرب عهدهم برسول الله ﷺ ولحسن فهمهم لمراده .

الخلاصة :

يعتبر الاعتصام بالكتاب والسنة من أعظم واجبات المسلم ، وبهما تتحقق الهداية والعصمة من الله سبحانه وتعالى ، وهذا الواجب يتأكد تجاه الفتن والممحصات والابتلاءات ؛ لأن من تمسك بحبل الله المتين وتحصن بحصنه الحصين لا محالة سيعصم من عواصف الفتن التي تهيج حوله ، فكتاب الله وسنة نبيه هما حبل النجاة في بحر الفتن

الهائج ، وهما نور الهداية والإرشاد في ظلمته الحالكة .

ثانياً : الوسطية والاعتدال .

الوسطية والاعتدال هما حبل النجاة الثاني من الفتن ، والضابط الأول الذي به يتحقق الفهم الحقيقي المنجي حال الاعتصام بالكتاب والسنة ؛ وبدونهما يقع المسلم إما في التفريط في بعض أشكال اعتصامه بكتاب الله ، أو يقع في الغلو والإفراط في فهمه وسلوكه ومعتقداته ، وكلا الطرفين مذمومان ، ومذكيان لنار الفتنة ، ومهلكان للواقع بهما .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) شرح :

- هذه الآية جاءت في معرض المدح لأمة الإسلام خير الأمم ، وقد أبرزت أهم وصفٍ لها استحقت عليه هذا المدح ، وهي كونها أمة وسطاً ، والوسطية في الآية يراد بها عدة معاني منها الكمال والحسن والفضل ، ومنها الاعتدال والقصد والعدل ، ومنها الوسط بمعناه الحسي ؛ أي أنها تتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وهذه المعاني متقاربة ، أو متلازمة من حيث السبب والنتيجة ؛ فالتوسط بين الغلو والتفريط هو عين الكمال والحسن ، وهو حقيقة القصد والاعتدال .

- الوسطية التي تميزت بها هذه الأمة هي من المعاني العامة التي تشمل كل نواحي الدين ، فالاعتدال سمة للتشريع الإسلامي بأكمله ؛ حيث نلمس الوسطية في الاعتقاد ، فلا غلو فيه كما غلت النصارى ، ولا تفريط فيه كما فرط اليهود ، وكذلك الوسطية في العبادات المبنية على قاعدة رفع الحرج ، وتجنب الغلو فيها كما كان حال النصارى برهبانيتهم أو التفريط فيه كما حصل اليهود بتقديسهم الجانب المادي أو الدنيوي حتى في

---

(١) البقرة:١٤٣

نصوصهم التوراتية لا نجد للوعد أو الوعيد ذكراً إلا فيما يتعلق بالدنيا فقط ؛ وكذلك نلمس الوسطية في الجانب الاقتصادي للأمة ؛ فلا إلغاء لشخصية الفرد وحقه في التملك لصالح الجماعة ، ولا إطلاق العنان له في التملك على حساب الآخرين .

- المتتبع لكل نواحي التشريع الإسلامي يجد الوسطية هي المعيار له في التصورات والأخلاق والقيم والموازين والمعتقدات والمعاملات والأفكار .

- لذا المحافظة على الوسطية والاعتدال في المجتمع حماية له من الشروخ ، ووقاية له من الفتن ، والناظر لحال الأمة يجد أن غياب معلم الوسطية فيها أو في بعضها هو الذي أحدث الشرخ الأكبر فيها ، وهو الذي فتح عليها باب التفرق والتشيع لأحزاب متناحرة ، وهو الذي ذكى نار الفتنة فيها إلى يومنا هذا ، والمعلوم أن منبت كل الفرق الإسلامية على مر العصور إنما نشأ عن الغلو في الفكر والسلوك أو التكفير أو التأويل ، وهذه المظاهر الثلاثة إنما وقعت في الأمة بسبب غياب معلم الوسطية فيها .

- المعلوم أن الفتن تشتد وتترعرع إذا كانت الأمة جافية عن معلم الوسطية ، ومتجهة نحو الغلو أو الإفراط ؛ والغلو يراد به أن الأمة تتجه نحو الالتزام بالأحكام الشرعية لكنها تتجاوز الحد فيها ؛ أي هو عبارة عن مبالغة في الإلتزام بالدين ، وهذه المبالغة توقع صاحبها إما بالتشدد في الحكم على الآخرين من خلال تكفيرهم أو تفسيقهم ، أو يقف صاحبها موقف المادح الغالي لمن ينتمي إليهم ، وهذا ما وقعت فيه الخوارج والشيعة ؛ حيث غالت الخوارج حتى كفرت وفسقت كبار الصحابة ، وكذا الشيعة غالت في آل البيت حتى أوصلتهم لمقام أعلى من مقام النبوة ، وغالت في حكمها على المخالف من الصحابة حتى كفرهم ولعنتهم ، و أحيانا يكون الغلو بإلزام النفس بما لم يوجبه الله عز وجل ، أو بتحريم كثير من الطيبات ، أو بترك الحلال والمباحات وهذا ما وقعت به كثير من الفرق الصوفية ، والغلو في الغالب ينشأ عنه إباحة للدم والمال والنفس بين الفرق .

- الحكم على عمل ما بأنه غلو أو أن هذا المرء من الغلاة باب خطير هو من اختصاص العلماء الذين يدركون حدود العمل بتبحرهم في العلوم والعقائد و معرفتهم حدودها ؛

لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ؛ فقد يكون العمل مشروعاً ويوصف صاحبه بالغلو ، وها نحن نرى الكثيرين من المتمسكين بكتاب الله وسنة نبيه يوصفون بالغلو ، كذلك الوسطية في مجتمعنا المعاصر أخذت دلالات متعددة ومعاني فضفاضة لا تتفق ومراد الشارع الحكيم ؛ لذا المعيار في الحكم على الأعمال هو الكتاب والسنة وليست الأهواء والأعراف والتقاليد والعقول .

- يلحظ في عصرنا أن كثيرا من الجماعات المنتسبة للعمل الإسلامي والتي تبدأ عملها الديني أو الرسالي بجهود مباركة ؛ إلا أنها تغفل خلال رحلتها عن معلم الوسطية ؛ ويتغلغل فيها الغلو الذي ينقلها من الفكر الرسالي إلى الفكر الحزبي الضيق والمتهم للغير أو المغالي في الولاء للحزب على حساب الولاء لله سبحانه وتعالى ، وهذا يعزز معاني الفتنة والفرقة في المجتمع ، والأحرى بهذه الجماعات أن ترتقي بفكرها ليتسع لكل أفراد الأمة .

الخلاصة :

الاعتدال والوسطية هما عنوان رسالة الإسلام ، وبغيابهما تقع الأمة في الشرذمة والفرقة وما يترتب على ذلك من فتن داخلية بين المسلمين ، لذا الانتباه لهذا المعلم والاجتهاد على تحقيقه على مستوى الفرد والجماعة من خلال فهم حدوده ومعالمه ، وتعزيز تطبيقه في المجتمع يعتبر من أعظم العواصم من الفتن .

كذلك يجتهد المسلم على أن يكون معتدلاً في فكره ومعتقده وسلوكه ونظرته للغير وانتصافه للحق أينما كان ؛ فبذلك يعصم نفسه من أن يكون وقوداً للفتنة ، ويحفظ دينه من أن يحترق بنارها .

ثالثا : التثبت والروية وعدم التسرع في إصدار الأحكام .

📖 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيراً﴾ (١)

📖 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٢)

شرح :

- هاتان الآيتان صريحتان في ضرورة التثبت وعدم التسرع سواء على مستوى إصدار الأحكام على الأفراد كما في الآية الأولى ، أو على مستوى الأخبار أو الشائعات كما في الآية الثانية ، وقد بينت الآيتان أن عدم الأخذ بهذا الهدي يترتب عليه إما الوقوع في الندم من خلال إيذاء من لا يستحق الإيذاء كما بينت الآية الثانية ، أو أن دافع عدم التثبت هو الحصول على مغنم دنيوي وغياب المعيار الديني والرسالي من القلوب .
- المعلوم حال وقوع الفتن ، خاصة فتن الشبهات والدماء أنه تكثر الشائعات المهيجة للفتن ، وتعزب العقول وتتعجل في إصدارها الأحكام ، وتنطلق الألسنة دون ضوابط ؛ ويكون للسان أثرٌ أشد من السيف في تذكية الفتن وإضرامها كما صرحت بعض الآثار ؛ لذا الأسلم للمسلم والعاصم له من الوقوع في الفتنة أن ينتبه للسانه ، ويتروى في أحكامه ، فلا يصدر حكماً إلا عن بينة ، ولا يتتبع الشبهات ، بل كل ما تطرق إليه أي شكل من أشكال الشبهة فليتوقف في الحكم عليه ، أو السعي فيه .
- أشارت الأحاديث السابقة إلى فتن يصبح فيها الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، والملاحظ أن أهم سبب في تذبذب الرجل فيها بين الكفر والإيمان في فترة وجيزة هو عدم تثبته ، وتسرعه في إصدار الأحكام ؛ لذا في الصباح تجده يحرم دم أخيه المسلم وفي المساء يقع في استحلاله ، ويكون نهبة للشائعات يرددها دون وعي ، وقد يكون ترديد جزء منها سبباً في وقوع صاحبه في سخط الله

(١) النساء:٩٤

(٢) الحجرات:٦

، فكلمة واحدة كفيلة بُهلاك صاحبها لما ثبت أن الرجل يقول الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به سبعين خريفاً في نار جهنم .

- لاحظنا في الفصل الأول خلال حديثي عن فتنة الخوارج أن بدايتها قد رآها النبي في شخص ذي الخويصرة الذي قدم على النبي ﷺ و قال له : اعدل ، وهذا اتهام لنبي الأمة بأنه ظالم ، ففي هذا الموقف بالذات بين النبي ﷺ أنه يخرج من عقب هذا الرجل من عرفوا بعد ذلك بالخوارج ، والشاهد في القصة هنا أن هذه العقلية المتسرعة في الأحكام والاتهام يليق بنسلها أو عقبها أن يكونوا من الفرق المارقة المنتسبة للإسلام ؛ لذا التسرع في الأحكام وعدم التثبت من الأقوال هو عين الوقوع في الفتنة ، بل هو عين الوقوع في الفرقة والاقتتال الداخلي الذي يعقبه الندم في الأمة ؛فلينتبه المسلم حال بروك الفتن في أرضه من لسانه أو التسرع في إصدار أحكامه لئلا يحشر مع ذي الخويصرة وأتباعه .

<u>لطيفة :</u>

📖 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ (١)

المعلوم أن الكلام ينقسم إلى أربعة أقسام إما فاحش أو أفحش أو حسن أو أحسن ، والله سبحانه وتعالى قد ندبنا إلى القسم الرابع وهو الأحسن ، وتذييل الأمر بقوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ » يكاد يكون تعليلاً لما سبق مما يشير إلى أن كلامنا إذا نزل عن هذا المستوى الرفيع (الكلام الأحسن) فذلك يعطي الشيطان فرصة للنزغ أو التحريش بيننا ، فتأمل هذا وانظر حال أكثر الخلق إذ يبقى كلامهم دائراً بين القبيح والأقبح ، والفاحش والأفحش والمباح ، ونادراً ما يرتقي لدرجة الحسن مع أن الكلام الحسن يمكّن للشيطان أن ينزغ بين أهله ما لم يرتقوا إلى الكلام الأحسن . (٢)

---

(١) الاسراء : ٥٣

(٢) انظر حوى : المستخلص (٣٨٠)

ولعل هذه الآية تبرز لنا خطورة اللسان ، وضرورة تخير الكلام الذي لا يفتح للشيطان مجالاً بيننا ، وذلك بالارتقاء إلى الكلام الأحسن ، وهو الكلام الذي يؤلف ويجمع القلوب على توحيد الله ، ويوجهها من التطلع إلى حطام الدنيا إلى التنافس على عظيم الجزاء في الآخرة ، وما أصعبه من مقام !

رابعاً : الصبر واليقين .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

شرح :

- المعلوم أن الفتن بمجملها تدور بين الشهوات والشبهات كما بينت سابقاً ؛ لذا أعظم عاصم لنا منها هو بالتسلح بالأسلحة التي تقينا بريق الشهوات وظلمة الشبهات ، وقد أرشدتنا الآية السابقة إلى العلاج الوقائي الأنجع وهو الصبر الذي به ندفع الشهوات ، واليقين الذي به نصد الشبهات ، فبهما الخلاص والنجاة بإذن الله من حمأة الفتن ولهيبها ؛ لذا صرحت الآية بأن توفر هذين الأمرين هو مناط العزة والولاية والنصر في الأرض ، وهذا يقتضي من المؤمن أن ينتبه لهذا العلاج ويعزز معانيه وروافده في قلبه ، ويستعين بالوسائل العلمية والروحية المغذية والممكنة له في حياته .
- الفتن إما شهوات تستميل قلب المؤمن فلا يصبر على تركها فيخوض في غمارها ، وذلك كفتن النساء والأموال والسلطان ، وإما شبهات تثار حوله فيضعف إيمانه وبصيرته فتتغلغل في قلبه ، وذلك كفتن الدماء والفتن المبنية على تزيين الشيطان للمنكر والباطل ، أو تقبيح صورة الحق وتشويهه ، والآية أرشدتنا إلى سبيل النجاة من الأمرين فالشهوات قيدها الصبر ، والشبهات قيدها اليقين .
- فتن الشهوات والشبهات تبلغ ذروتها في عهد الدجال ، فالقرى التي لا تتبعه تحاصر اقتصادياً وتصبح قحطاً و محلاً ، والذين يؤمنون به يرتعون في حطام الدنيا وهنا يأتي

---

(١) السجدة:٢٤

دور الصبر ، ويتضح في عهد الدجال أنه يعتمد على الشبهات والسحر بأعلى الدرجات فهو يحيي ويميت وتنزل الأمطار بأمره إلى غير ذلك من الشبهات التي تسخر له من باب الاستدراج ، وهذه قيدها اليقين والذي نراه واضحاً في الرجل الذي واجه الدجال فقطعه الدجال نصفين ثم أحياه فما ازداد هذا الرجل إلا بصيرة ويقيناً فلم يسلط عليه بعد ذلك .

خامساً : الترخيص في العزلة في الفتن وضرورة تجنب الحرام والإكثار من العبادة .

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (١) وفي رواية ﴿ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ الْغَنَمُ فِيهِ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ أَوْ سَعَفَ الْجِبَالِ فِي مَوَاقِعِ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . ﴾ (٢)

- عن أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ يَكُونُ الْمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيْرًا مِنَ الْجَالِسِ وَالْجَالِسُ خَيْرًا مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ خَيْرًا مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي خَيْرًا مِنَ السَّاعِي قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُنِي قَالَ مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ قَالَ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَلْيَعْمِدْ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَضْرِبْ بِحَدِّهِ عَلَى حَرَّةٍ ثُمَّ لِيَنْجُ مَا اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ . ﴾ (٣)

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَت : ﴿ اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

(٣) سبق تخريجه

الْحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ . ﴾ (١)

- عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ . ﴾ (٢)

هذه الأحاديث سبق شرحها في مواطن متعددة من الكتاب ، وهي تبرز بعض العواصم من الفتن كضرورة العزلة في الفتن خاصة فتن الدماء ، وضرورة توخي الحلال في الرزق إضافة إلى أهمية العبادة خصوصاً قيام الليل عند طروق الفتن .

سادساً : كف اليد في الفتنة .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ أَفْلَحَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ ﴾ (٣)

- عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ : أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي قَالَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي وَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي قَالَ : كُنْ كَابْنِ آدَمَ . ﴾ (٤)

شرح :

هذان الحديثان – وغيرهما كثير – صريحان في ضرورة انتباه المسلم في الفتن بعدم السعي فيها ، وعدم استباحة دم أخيه المسلم بأي حال إلا الحالات التي استثناها الشرع الكريم ؛ لذا علق الحديث الأول الفلاح على كف اليد في الفتنة ، وهذا يشمل جميع

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٣٠ [عون المعبود (٣١٩/١١)] ؛ قال العدوي : صحيح [المسند الصحيح (٢٧٢)]

(٤) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٩٠ ، وقال عنه : حديث حسن [تحفة الأحوذي (٤٣٦/٦)] ؛ قال العدوي : إسناده صحيح [المسند الصحيح (٢٧٣)]

أحوالها ، ولئن يلقى العبد ربه مقتولاً خير من أن يلقاه قاتلاً ، طبعاً هذا في حالة عدم كونه في غمار الفتنة وحريص على قتل صاحبه ، بل من تتبع أحكام دفع الصائل في الشريعة يجد أنها أجازت للمسلم حال الصيال عليه أو على ماله أو على عرضه بأن يدافع عن نفسه حتى لو أدى ذلك إلى قتل الصائل ، وهذا الحكم العام لا ينطبق على الصيال على النفس في الفتنة ؛ حيث دلت أكثر النصوص الشرعية أنه في تلك الحالة بالذات الأفضل للمسلم أن يكف يده ويكون كخيري بن آدم ؛ أي في هذه الحالة بالذات فليلق الله مقتولاً لا قاتلاً .

الفصل السادس : المبشـــرات

ويتضمن المباحث الستة التالية

المبحث الأول : علامات الساعة تعزز البشارة وتدفع اليأس

المبحث الثاني : النبي محمد رسول البشارة

المبحث الثالث : بريق الأمل من رحم المعاناة والألم

المبحث الرابع : الطائفة المنصورة وجهودها

المبحث الخامس : ترادف المجددين في الأمة على مر القرون

المبحث السادس : الوعد بالخلافة الراشدة

المبحث الأول
علامات الساعة تعزز البشارة وتدفع اليأس

الملاحظ من الفصول السابقة أنها تشير إلى تغير حال الأمة من الناحية الدينية والاجتماعية والسياسية والنفسية عما كان عليه الرعيل الأول ، وأكثر النصوص تشير إلى انتكاسة تصيب المسلمين في دينهم بما يفضي أيضاً إلى ضياع دنياهم ، وهي تحكي واقعاً نعيشه الآن بصورته المأساوية .

لذا قد يرى البعض أن طرحها يفضي إلى اليأس ، أو الشعور بالعجز ، وهذا فهم سقيم لطبيعة العلامات والغرض من إيرادها ، بل على العكس إن معرفتنا لهذه العلامات التي تصور واقعنا بصورة كاملة يتضمن البشارة لنا من بعض الوجوه ، منها :

الوجه الأول :

علمُنا بأن ما نعيشه من واقع أليم سبق أن وصفه الرسول الكريم بدقة يعزز فينا الشعور بالانتماء للدين ، وعدم الشعور بالانقطاع عن الوحي ، وهذا ما يحاول أعداء الله سبحانه وتعالى أن يبثوه في قلوبنا ؛ حيث يعززون فكرة أن الأديان خدعة وأن الواقع تغير والأصل في الإنسان أن يشق طريقه في الحياة دون النظر إلى الوراء .

فهذه المعاني يحاول أعداء الله بثها بيننا على اعتبار أن هذا العصر هو قفزة جديدة للبشرية لم يسبق للإنسان القديم تصور وقوعها ؛ لذا تأتي علامات الساعة لتبرز لنا أن هذه المرحلة ليست بدعاً من الزمان ، وهي مرحلة معلومة سبق أن بينها الوحي ليبرز لنا مجريات صراع الحق والباطل في آخر الزمان ، وهذه الصورة لعلامات الساعة والتي تتضمن تحذيرات وتوجيهات للمسلم في تلك المرحلة هي عين البشرى ، وتعزز عند المسلم الرؤية السليمة للواقع بانحرافاته وطرق السلامة منه .

الوجه الثاني :

ذكر العلامات مقرونة بتوجيهات نبوية للنجاة ، أو ذكر الداء مقروناً بالدواء الشافي والعلاج الوافي هو عين البشرى للأمة ؛ لأن وضع شفاء لشيء هو نوع بشارة بالشفاء منه .

الوجه الثالث :

توصيف دقيق للواقع وموقف الوحي من تفاصيل هذا الواقع يخرج المسلم من حيرته ؛ حيث يكون عنده تصور مفصل من الوحي لكل جزئية تعرض عليه ؛ وبذا لا تختلط عنده الأوراق ، ولا تتداخل عنده التصورات كما حصل مع الأمم السابقة ؛ لذا يمكن اعتبار علامات الساعة بمثابة أنبياء متكررين في الأمة كما كان عند بني إسرائيل ؛ حيث كان يتعاقب عليهم الأنبياء مبرزين مواطن الخلل ومنهج النجاة لكل مرحلة .

الوجه الرابع :

الملاحظ على علامات الساعة أنها لم تقتصر على توصيف الواقع فقط ، بل تضمنت العلاج من ناحية ومن ناحية أخرى تضمنت كثيراً من المبشرات الدالة على أن هذا الواقع سيتغير ؛ بحيث تكون العاقبة للمتقين ، وهذه المبشرات تبث الأمل في نفس المؤمن وتعزز عنده الصبر ، وتحرك فيه كوامن الاستعداد للتغيير من هذا الواقع الأليم .

الوجه الخامس :

العلامات التي تصف حال الأمة و تشير إلى ما ستمر به إنما هو امتداد طبيعي لمجريات صراع الحق والباطل وسننه منذ بداية البشرية ؛ أي هي مرحلة طبيعية من هذا الوجه بالذات يتفق وطبيعة الحياة الدنيا حيث إنها مزرعة للآخرة ، ودار للمحن والابتلاءات والاختبارات ؛ لذا لا يتصور بقاء أمة على حالها الذي كانت عليه مع نبيها ، بل يتغير الحال بعده ؛ ليأخذ الابتلاء والاختبار صوراً جديدة ، وهذا المعنى أشار إليه النبي

ﷺ بقوله : ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ﴾ (١)

فهذا الحديث يشير إلى أن تغير الحال عما كان عليه النبي وصحابته هو سنة عامة منذ خلقت البشرية ، و بسببها تتجدد صور الاختبار والابتلاء الذي يميز المحق من المبطل ، وأهل الجنة من أهل النار ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢)﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣)

إذا سنن الابتلاء والاختبار تقتضي هذا التغير ، والأمم السابقة كان لها حظ عظيم من هذه الابتلاءات ، لكن ابتلاءات هذه الأمة مهما بلغت هي أهون من الأمم السابقة في عدة أمور منها :

١- إنها مهما بلغت في صنوف المحن والابتلاءات هي أهون من ابتلاءات الفئة المؤمنة في الأمم السابقة التي كان ينشر الرجل المؤمن فيها بالمنشار من مفرق رأسه إلى رجليه أو يفرق ما دون لحمه و عظمه لا يثنيه ذلك عن دين الله ، ومنهم من خُدت له الأخاديد وأحرق بالنار وإلا كيف سيستحق المؤمن الجنة وبالمقابل يكون غيره في النار ، وهذا الشكل من التعذيب لم يقع لأفراد الأمة بصورته ، بل هو أخف من ذلك ، ولم أسمع في علامات الساعة من نشر بمنشار إلا الرجل الذي يواجه الدجال ، وبالرغم من حصوله له إلا أنه

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ٥٠ [مسلم بشرح النووي (٢٦٨/١)]

(٢) العنكبوت:٢

(٣) البقرة:٢١٤

نال به ثلاثة أمور ، الأول : درجة أعظم الشهداء على الأرض ، والثاني : حرمان الدجال من التسلط عليه بعد ذلك بنصرة خاصة من الرحمن ؛ و الثالث : عجل له الدجال بدخول الجنة عندما ألقاه في ناره الوهمية (❁) .

٢- إن هذا التغير لا يصل لدرجته المطبقة الشاملة كما حصل مع الأمم السابقة ؛ حيث تمر مرحلة تُحَرَّف فيها معالم الدين ، وتختلط فيها الضلالات ، أما أمة الإسلام فقد حفظ الله سبحانه وتعالى لها كتابها إلى يوم القيامة ، وسخر من يحفظ لها هدي رسولها عبر القرون ، ويسر بقاء طائفة على الحق منصورة إلى يوم القيامة ، ويسر لها من يجدد لها دينها عبر القرون ، وخصها بخصائص كثيرة دون الأمم كحصول المغفرة والتجاوز عن الخطأ والنسيان ومضاعفة الحسنات ، وخفف عنها التكاليف مقارنة بالأمم السابقة ، وأراد الله لها اليسر وكره لها العسر ، وعفا لها عن حديث النفس والوساوس والهواجس ، وجعل في مقومات دينها وعباداتها ما يجدد فيها الإيمان بصورة دائمة .

٣- هذه الابتلاءات والاختبارات وتغير الحال مع الأمة هو عنوان رحمة بها ، يرشد إلى ذلك قول رسول الله ﷺ : ﴿ أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ ﴾ (١) فهذه الفتن والبلايا في حق أمة محمد إنما سيقت عليها من باب الكفارة والتنقية ودفع بلاء الآخرة عنها .

٤- الحكمة من هذه الابتلاءات والفتن إضافة للتمحيص والاختبار التزكية والترقية لأهل الله بنيلهم أعلى الدرجات يوم القيامة ؛ لذا تضاعف لهم الأجور ؛ حيث يكون أجر الصابر في أيام الصبر بخمسين من أجر الصحابة ،

(❁) راجع قصته العجيبة في فصل الدجال

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٥٨ [عون المعبود (٣٥٨/١١)] وفي إسناده المسعودي وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود استشهد به البخاري ، وتكلم فيه غير واحد [عون المعبود (٣٦٠/١١)] ؛ وصححه الحاكم برقم ٧٦٤٩ وأقره الذهبي [المستدرك (٢٨٣/٤)]

واستحق أهل ذلك الزمان أن يوصفوا بأنهم أخوة النبي ﷺ بينما الذين رافقوه استحقوا لقب الصحبة فقط ، واستحق العشرة فوارس الذين يستطلعون خبر الدجال لقب خير الفوارس ، بل كرمت خيولهم لأجلهم كما سيتضح .

المبحث الثاني
النبي محمد ﷺ رسول البشارة

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١)﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٣) - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا . ﴾ (٤)

هذه الآيات والحديث – وغيرها كثير – تدل صراحة على أن أبرز صفات الرسول الكريم هو أنه رسول البشارة ، وأن البشارة تسبق الإنذار ، وهذا منهج واضح في سيرته ﷺ ، فقد كان في أحلك الظروف يبشر صحابته بالنصر والتمكين والسناء والرفعة ، والقصص على ذلك كثيرة منها تبشير الصحابة وهم يعذبون بمكة بالنصر وحصول الأمن ، ووعد سراقة رضي الله عنه وهو يطارد رسول الله ﷺ بسواري كسرى ، وتبشير الصحابة بالنصر على الدول العظمى عند حفر الخندق ، وتبشير عدي بن حاتم عندما جاء رجل يشكي الفاقة وقطع الطريق بحصول الأمن والرخاء ، والنصر على دول ذلك الزمان .

والمتتبع لمنهج النبي ﷺ في طرح علامات الساعة والملاحم ، يجد للبشرى النصيب الأوفى ، بل هناك جوانب عدة كان يترك النبي فيها كل مجريات الصراع ، ويقتصر على جانب البشارة فيها ، ومن ذلك .

---

(١) البقرة:١١٩

(٢) سبأ:٢٨

(٣) فاطر:٢٤

(٤) أخرجه البخاري في العلم برقم ٦٩ [البخاري مع الفتح (١/١٩٦)]

- أعرض النبي ﷺ عن ذكر كل مجريات الصراع بين اليهود وبين المسلمين ، واقتصر فقط على ذكر لحظة النصر والتمكين ، وذلك عندما يسلط أهل الحق عليهم و يتكلم الشجر والحجر .
- أعرض النبي ﷺ عن الحديث عن كثير من جولات الصراع بيننا وبين الروم ، و اقتصر في الغالب على ذكر ملاحم النصر فقط ، منها الملحمة الكبرى ، ومنها فتح القسطنينية ، ومنها فتح رومية.
- في العلامات التي تشير إلى الشدائد كان النبي ﷺ يبرز هذه الشدائد مبشراً بعظم أجر الصابرين فيها ؛ حيث بين أن أجر الصابر في أيام الصبر بخمسين من أجر الصحابة ، والذي يقتله الدجال من طائفة الحق هو أعظم الناس شهادة عند الله .
- نلحظ في كثير من الأحاديث إشارة إلى العزة والتمكين والرخاء لأهل الإسلام في آخر الزمان بشكل لم تعهده البشرية أبداً ، وهذا من البشارة للأمة بأن خير العاقبة لها في الدنيا كما هي لها في الآخرة .
- من المبشرات التي ذكرها النبي ﷺ بقاء الطائفة المنصورة و وترادف المجددين على الأمة والذين يختمون بالمجدد الأكبر المهدي ﷺ ، وكذلك بنزول كلمة الله عيسى ﷺ عليهم لنصرهم وإبطال الملل الأخرى .
- من المبشرات لهذه الأمة أنها الأقل عملاً مقارنة بالأمم السابقة ، والأكثر أجراً عند الله .
- من المبشرات لهذه الأمة أن الخيرية باقية فيها إلى يوم القيامة ، وأنهم شهداء الله في الأرض .
- من المبشرات للأمة أنهم الآخرون في الأمم الأولون في دخول الجنة بعد الأنبياء يوم القيامة .

- من المبشرات للأمة أن أهل الشام يكونون محط نظر الله و الملائكة باسطة أجنحتها عليهم ، والله سبحانه وتعالى قد تكفل بهم وبنصرهم على أعدائهم ، وأنهم في رباط إلى يوم القيامة .
- من المبشرات لهذه الأمة ما ورد من أحاديث دالة على دخول الإسلام كل بيت وعمومه الخافقين وإعطاء أهله الكنزين الأحمر والأبيض ، بل البشارة بالنصر والتمكين هي رديفهم في كل حقبة من الزمان إلى يوم القيامة ، يقول الرسول ﷺ : ﴿ بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ . ﴾ (١) فهذا الحديث يتضمن بشارة وتحذيراً ، البشارة بالعزة والتمكين ما بقيت الأمة على العهد ، وحافظت على معالم رسالتها ، وتحذير لها من غياب معلم الآخرة في قلوبها ؛ لأنه معيار القبول .

إذا هذا هو منهج النبي الكريم في طرح الأمور المستقبلية ، والبشارة فيها تغلب الإنذار في أغلب صفحاتها .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢١٢٨١ [المسند (١٦١/٥)] ؛ والحاكم برقم ٧٨٦٢ ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [المستدرك ٣٤٦/٤] قال الهيثمي : رواه أحمد وابنه من طرق ورجال احمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠)] قال الضياء المقدسي : إسناده حسن [الأحاديث المختارة (٣٥٨/٣)]

المبحث الثالث

بريق الأمل من رَحِم المعاناة والألم

الملاحظ أن الصفحة التاريخية التي تعيشها الأمة هي من أحلك صفحاتها ؛ حيث نلحظ التردي والانتكاسة في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والدينية ، وهي التي صرحت بها العلامات في الفصول السابقة ، وهذه الانتكاسة التي بدأت منذ ردح من الزمان يصفها محمد صديق رحمه الله بقوله : « قد أحاطت هذا الزمان وأهله فتن كثيرة لا تحصى، خصوصا ذهاب دولة الإسلام، وحكومة الإيمان، وغربة الدين، وفشو البدع والمضلين، وقلة العلم، وكثرة الجهل، وإيثار الخلق على الحق، والعاجلة على الآجلة، وترك الغزو ، والقنوع بما في أيدي الناس، والانهماك في أمر المعاش، والإعراض عن المعاد، وكثرة التحاسد ، والمفاسد التي أسرت أفراح القلوب، وشقت قلوب المؤمنين قبل الجيوب، فأصبحوا في حال يعدون المنايا أمانيا، ويرون لضعف الدين ووهن اليقين الموت طبيبا شافيا، إذا عثرت خيول الفتن والنقم، وولت جنود الدعة والنعم، وصارت الدنيا كلها آفات وبلايا، وكم في الزوايا من رزايا . » (١)

فإذا كان هذا وصف زمان محمد صديق القنوجي (❁) فإن زماننا أفصح في الدلالة عليه من ناحية ؛ حيث اكتملت فيه أصاف الفتن والعلامات .

ومن ناحية أخرى فإن عصرنا هذا أقرب للفرج والبشارة من أي وقت مضى ، ودلائل الحال تشير إلى ذلك .

فهذا النفق المظلم الذي دخلت فيه الأمة بسبب تهاونها قد اقترب من نهايته ، والأمة التي **ذاقت مرارة البعد عن تعاليمها قد تاقت للعودة إليها** كما يشهد لذلك الواقع .

---

(١) القنوجي : الإذاعة (١٩٢)

(❁) توفي محمد صديق القنوجي سنة ١٣٠٧ هـ

وحتى يتضح الأمر أقول :

- المتتبع للتاريخ يجد أن الحقبة الاستعمارية الماضية قد خلفت جيلاً متنصلاً من دين الله سبحانه وتعالى وتعاليمه الحقة ، ومنبهراً بالحضارة الغربية ، ومتتبعاً لكل آثارها ، وشعر الغرب أنهم تم لهم ما يريدون بإدخال العملاق الإسلامي الذي طالما أزعجهم وأقلقهم في سبات عميق ، وحتى يحكموا القبضة على المسلمين ، هيئوا التركيبة السياسية والاجتماعية في جميع بلاد المسلمين لتبقى على ولائها للغرب من ناحية ، ولتحقق حالة التخلف والهوان في الأمة بحيث تبقى بلاد المسلمين البقرة الحلوب للغرب ، ويؤمن جانبها من خلال تبعيتها الكاملة للغرب وحضارته .
- هذه المرحلة التي نعيش في مخلفاتها ، ونعاني من نيرها ، لم تستمر بقدر الله سبحانه وتعالى وفق ما يريد أعداء الله ، بل رافقتها صحوة حقيقية للأمة ظهرت معالمها منذ الثمانينات ، و هذه الصحوة التي اجتهدت بعلاج الجرح الغائر في جسد الأمة قد تم لها بعض العلاج وما زالت في فورتها إلى يومنا هذا إلا أنها لم ترتق بالأمة للدرجة المطلوبة ، فالأمة أشبهت بإنسان قد أصيب بغيبوبة مطبقة وسكرة شاملة ، وهذا الإنسان عندما يبدأ يستيقظ فإن الرؤية في البداية تكون ضعيفة والخطوات مترنحة ، ويحتاج إلى أمد حتى تكتمل صحوته فيرى الأمور على حقيقتها ، وتزداد لديه القدرة في التمييز بين الحقائق والأوهام والحق والباطل والأصيل من الدخيل ، وقد بدأت الصحوة ابتداءً بالدفاع عن الإسلام الذي هوجم من الغرب ومستشرقيه ومتغربي الأمة هجمة شرسة ، وانتقلت الصحوة بعد ذلك من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الثقة بتعاليم الإسلام ، وضرورة نشرها في الأرض لينعم بها كل إنسان ، ثم بدأت الصحوة في كشف عوار الحضارة الغربية وما جلبته للعالم من دمار على البشرية وانحدار بالإنسانية بأخص خصائصها .

- واستيقظ الغرب وانتبهوا فجأة وإذا بالإسلام الذي ظنوا أنهم قد أخمدوا جذوته قد بدأ من جديد يتقد في قلوب أهله ، والأمة التي ظنوا أنها اندرست وأصبحت معلماً من الماضي قد عادت نبتة تشتد وتغور جذورها في عمق الأرض وتتآزر أغصانها وترتفع إلى أعالي السماء لتظلل كل بقاع الأرض ؛ إنها أمة محمد التي ضرب الله سبحانه وتعالى بها الأمثال بقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (١)
- فزرع الأمة يستغلظ ، وكلما استغلظ كلما زادت الهجمة الشرسة عليه ، وكلما استمكن الغيظ عند أعداء الله الذين فوجئوا بتعاليم الإسلام تغزو ديارهم الخاوية من أي تعاليم تحفظ للإنسان إنسانيته ؛ لذا تغيرت معالم الحرب وتآزرت قوى الشر لمواجهة الإسلام في كل الأرض ، بل تناسى أعداء الأمس عداواتهم ليتفقوا في حربهم على العدو الجديد الصاعد الذي يهدد غطرستهم وكبريائهم وشهواتهم في الأرض .
- وبدأت مواجهة جديدة شاملة للدين الإسلامي تهدف إلى تشويه معالمه وملاحقة أهله ، أو بعبارة أخرى بدأت مواجهة الحق والباطل في كل الأرض ، وذلك بقدر الله سبحانه وتعالى ، وهذه المواجهة لا بد أن تنتهي بنصرة أهل الحق ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (٢) فالذي يقدر المواجهة ويستدرج لها أهل

---

(١) الفتح:٢٩

(٢) الأنبياء:١٨

الباطل هو الله سبحانه وتعالى ، والحكمة من ذلك هو القضاء على الباطل بضربة قاتلة على دماغه ، لأن الباطل زبد هائج لا خير فيه ، فهو جفاء والجفاء لا محالة زائل ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١)

- وهنا قد يسأل سائل : ما دامت المواجهة قد بدأت ، فلم تأخر النصر على الأمة ؟ ويجاب على ذلك بأن السبب ليس في قوة أهل الباطل لأنها مهما عظمت فهي خيوط عنكبوت إنما المشكلة في الأمة التي لم ترتق للدرجة المطلوبة للنصر وفق سنن الله سبحانه وتعالى في نصر أمة ما أو دمارها ؛ لذا قد يتأخر النصر لأن الأمة تمر في مرحلة الاصطناع ، هي أشبه بمرحلة الفتون التي تعرض لها موسى ﷺ قبل قيـــــامه بأعباء الرسالة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (٢)فهذه الفتون كان يراد بها اصطناع موسى ﷺ ليقوم بحمل الأمانة على الوجه المطلوب ، وكذلك أمة محمد ﷺ تمر بفتون كثيرة في هذه المرحلة بالذات ، وهذا من باب الاصطناع ؛ لذا قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تنضج وتكتمل معالم الرسالة فيها ، فعلاقتها مع الله تحتم عليها أخذ الدين بقوة من جميع جوانبه ، وقد يتأخر النصر حتى تستنفر كل الطاقات الكامنة في الأمة ، وقد يتأخر النصر حتى تتهيأ النفوس لحمل الرسالة بكل أعبائها ، وقد يتأخر النصر لأن الأمة لم تتجرد التجرد الكامل في بذلها وعطائها لله ، وقد يتأخر النصر لأن أهم معالم الرسالة لم تتضح عند رعيل منها كإحقاق الحق والعدل في الأرض والزهد في الدنيا والإقبال الحقيقي على الآخرة ، وقد يتأخر النصر حتى تجرب

---

(١) الرعد:١٧

(٢) طـــه:٤٠، ٤١

الأمة كل طاقاتها وتستنفد كل قواها لتعلم علم اليقين أن النصر كله هو من عند الله سبحانه وتعالى ، وقد يتأخر النصر حتى تنكشف حقيقة الباطل بكل صوره لئلا يكون له أنصار في الأمة بعد هزيمته ، فهذه أبرز أسباب تأخر النصر في الأمة ، بل الحمد لله كله أنه لم يأت للمسلمين نصر جزئي سريع وهين ، لأن الذي يأتي هيناً سريعاً يسهل فقدانه وضياعه ، بل تأخر النصر في هذه المرحلة بالذات مع وجود تضحيات لهو عين البشارة للأمة بأن ما ينتظرها في المستقبل ليس نصراً وهمياً أو جزئياً ، بل نصراً مؤزراً تقر به عين كل مسلم في الأرض . (١)

ملاحظات المؤلف حول طبيعة المرحلة الحالية وعلاقتها بالبشارة بالنصر والتمكين :

قد يكون فيما ذكرت سابقاً ما يوضح لنا طبيعة المرحلة الحالية ، لكن أضيف لها بعض ملاحظاتي المبنية على قراءة الواقع ممزوجاً بقراءة قرآنية للسنن الربانية ، وذلك على النحو التالي :

الملاحظة الأولى :

إفلاس أهل الباطل من الناحية الروحية بشكل لم تعهده البشرية ؛ حيث أفلست أهم ديانتين فيه [اليهودية والنصرانية] في إشباع الجانب الروحي لأبنائهم ، والجانب الروحي جزء أصيل في الطبيعة الإنسانية وإغفاله يمثل ضياعاً أكيداً لأهم معلم من معالم البشرية ، ويترتب عليه خواء وعطش شديد لا يسد رمقه إلا رسالة حق ارتبطت بسبب من السماء وهذه الرسالة غير متجسدة إلا في الإسلام .

بل أضيف هنا إلى أن الأمر في الغرب لم يقتصر على الإفلاس الروحي بل تعداه إلى الاستغلال من قبل المؤسستين الدينيتين هناك ، فاليهودية أصبح همها السيطرة واستغلال الأميين من غيرهم كما تزعم في توصيف الأمم غيرها ؛ لذا نجدهم أكثر الناس استغلالاً للغرب بإغراقه في وحل الموبقات والمنكرات فهم أصحاب البنوك الربوية

---

(١) انظر العفاني : المبشرات بالنصر والتمكين (٦٨ وما بعدها)

والملاهي الليلية ودور القمار ونوادي العراة ، بل يتفننون بإغراق الغرب في الفاحشة والرذيلة والمخدرات والجريمة ، وهذا معلوم والواقع يشهد له .

والديانة النصرانية في أكثر محافل الغرب قد تتبعت خطا اليهود بتيسير المنكر وتسهيل الفاحشة ، والتهوين من أثرها ، وتشريعها في المجتمع ، وشعارها [لا تُؤَثِّمني] أي افعلوا ما شئتم في الأرض ولا أثم عليكم لأن المسيح قد حمل كل آثامكم .

فهذه حال الديانتين هناك ، وترتب على ذلك حصول الخواء الروحي بما يشمله من وقوع الكثيرين باليأس والحيرة والغم والضياع ، والعطش الشديد لكل مسحة حق في الأرض .

وهذه مزرعة خصبة للمسلمين ليزرعوا فيها تعاليمهم ؛ لذا بدأ الغرب بالشعور بالخطر ؛ لأن الإسلام في بلادهم بدأ يحصد هذه النفوس التائهة ، وهذا هو سبب هذه الحرب الحالية المبنية على مكر أممي واسع ، لذا افتعلوا عنواناً جديداً لها هو الحرب على الإرهاب ، ومقصدها هو حسر هذا الامتداد غير الطبيعي لتعاليم الإسلام في بلادهم .

فالحرب لا يراد بها كما يزعمون محاصرة زمرة متطرفة من المسلمين هنا أو هناك ، بل يراد بها من الدرجة الأولى حسر الإسلام من التغلغل في مجتمعاتهم ؛ لذا نجد أن الحرب اتخذت عدة أشكال منها تشويه تعاليم الإسلام ، والتنفير من أهله ، والتضييق على نشاطه حتى السلمي منه ، وافتعال أحداث تشوه صورة أهل الإسلام وبثها في مجتمعاتهم ، ثم تعداها إلى المجتمعات الشرقية بهدف تغيير معالم الإسلام قسراً أو سلماً أو مكراً في مهده من خلال حرب إعلامية واسعة على تعاليم الإسلام بطريقة ممنهجة ، و من خلال بث كثير من الأفكار الدخيلة لتمتزج مع تعاليم الإسلام [حقوق إنسان – مدنية – عولمة – ديمقراطية – تحرير المرأة وحقوقها ، إطلاق العنان للحريات]، وبذلك ابتدأت المواجهة الصريحة مع رسالة الإسلام على مستوى الأرض جميعاً ، وفي ظني أن الغرب قد استدرجوا لها من حيث لا يعلمون ، وحاكوا مؤامرهم بأدهى الوسائل وأبلغها مكراً ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا

مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (١)وأنفقوا الأموال الطائلة لتحقيق مآربهم وللصد عن سبيل الله ولإعادة المارد الإسلامي إلى قمقمه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢) وبالغوا في كيدهم وجهدهم وسحرهم وهجموا هجمتهم الشرسة و دخلوا مضمار الصراع مع رسالة لها ولأهلها كفالة وحصانة سماوية ... هذه الهجمة التي استدرجوا لها تبشر بإذن الله بنصر قريب للحق وأهله ؛ لأن حسن الخاتمة في أي صراع هي حليفهم ، وما هي إلا لحظة قبض على الجمر ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) والمواجهة مع دين الله سبحانه وتعالى دائماً محسومة لصالح دين الحق،وهذا وعد إلهي ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤)

الملاحظة الثانية :

الناظر للعالم الغربي يجد أن كل معاني الهلاك قد تجسدت فيه ؛بحيث تحول على أصحابه جحيماً دون جحيم الآخرة ، فالشذوذ والدعارة والقمار والجريمة و تفكك الأسرة ، وعموم الجهل ، و استمكان الشهوات ، إضافة للكفر المطبق .. إلخ .

ومن تتبع حال المجتمعات الغربية بلغة الأرقام والإحصائيات فإنه سيصيبه الذهول لما وصلت إليه من ضياع لكل معاني الحياة الإنسانية (✿) ، ويصل إلى قناعة أن تلك الأمم لا محالة تتجه نحو الانهيار بسرعة مذهلة إضافة إلى تحقق كل سنن الهلاك فيها .

---

(١) إبراهيم:٤٦

(٢) الأنفال:٣٦

(٣) هود:٤٩

(٤) المجادلة ٢١

(✿) انظر كتاب العفاني : المبشرات بالنصر والتمكين (١٨٢ – ٢٧٠) حيث يتضمن إحصائيات متعددة تبرز حال الجريمة والموبقات في المجتمعات الغربية ، وتضمن أيضاً شهادات من كبار المفكرين الغربيين ممن يدقون ناقوس الخطر وينذرون قرب الانهيار لتلك المجتمعات بسبب ما تضمنته من عوامل مهلكة للأمم . وأسوق هنا بعض الإحصائيات العجيبة : هناك قرابة العشرين مليون شاذ جنسياً في أمريكيا ، هناك حالة إعلان وافتخار في كثير من عظماء الدول = =

فهذه الشعوب تهلك يومياً بسبب استشراء الفساد فيها ؛ حتى أصبح كل فرد فيها يعيش خوفاً إما من القتل أو السرقة أو الاغتصاب ، أو نتائج الإدمان أو الأمراض السرية الخطيرة كالإيدز السيلان والهربس وغيرها ، إضافة إلى القلق والخواء الروحي والاكتئاب النفسي ، والانفصام الروحي إلى غير ذلك .

وهي كذلك ليست بعيدة عن عذاب رباني ماحق لها لتحقق كل سنن الهلاك فيها ، والتي اكتملت حالياً بإعلانها الحرب على رسالة الحق في الأرض ، وعن تنصلها من بعض معاني الخير التي كانت تشوب مجتمعاتها كالعدالة والمساواة ، وذلك بسنها لقوانين جديدة تقيـــد معاني الخير القليلة الموجودة في بلادهم لتكتمل بذلك كل معاني الهلاك فيهم .

فهذه حال أعداء الله من الداخل ، والناظر لحالهم بعين التوسم و البصيرة يرى أنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون ويهرولون نحو الهاوية دون أن يشعرون ، ويتقحمون النار وهم غافلون .. لاهون .. ساخرون .. فرحون ، ولا أعلم هل أقول يا بشرى أم يا حسرة على العباد ، أم يا أسفا على ما حل بالعالم الغربي من انحطاط وضياع لكل معاني الإنسانية ، ويا لوعةً على أمم بأكملها طُمست بصيرتها ، وغُيبت معالم إنسانيتها ، و دُق ناقوس فنائها دون أن تهتدي ، أو ترعوي ، أو تنتبه في ليلتها الأخيرة أنها قريبة من صبح هلاكها ﴿ إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب . ﴾ (١)

الغربية على أنهم شاذون جنسياً ، وكثير من الحكومات قد اعترفت به كحق إنساني ، يصل عدد الذين يتعاطون المخدرات في أمريكيا قرابة ٩٧ مليون نسمة ، هناك قرابة ٢ مليون مشرد في نيويورك وبعض المدن الأمريكية ، أباحت كثير من الكنائس الغربية الزنا واللواط ، وفي بعض الكنائس يتم قران الرجل على الرجل على يد القسيس ، في عام ٨١ ولد في فرنسا نحو ١٠٠ ألف طفل من أمهات عازبات ، في أمريكيا بلغت نسبة الحبالى من تلميذات المدارس إلى ٤٨% حسب إحصاء في مدينة دنفر عاصمة كولورادو ، هناك قرابة المليون أمريكي مصاب بالسيلان وذلك سنة ٧٥م ، يوجد قرابة العشرين مليون أمريكي مصاب بالقوباء وهي مرض تناسلي خطير ، أكثر من ٢٥٠٠٠ جريمة قتل تحصل سنوياً في أمريكيا ، نسبة واحد من كل سبعة أمريكيين قد تعرض للاعتداء الجنسي في طفولته ، ٦٠ % من الشعب الأمريكي كانوا ضحية للجريمة في حياتهم .

(١) هود : جزء من الآية ٨١

الملاحظة الثالثة :

العالم الإسلامي يعيش مرحلة غربلة وتمحيص وتمييز بين أهل الحق والباطل فيه ، وتتضمن هذه المرحلة أيضاً حالة تنقية وتزكية وتضحيات شبيهة بتضحيات الرعيل الأول ، إضافة إلى موجة عارمة نحو التوجه للإسلام وتعاليمه بالرغم من الحرب الشرسة عليه ، وهذا أيضاً يبشر بالخلاص .

الخلاصة :

هذه العوامل المتفاعلة مع بعضها البعض تنذر بقرب الخلاص ؛ فهناك صحوة إسلامية حقيقية تسير نحو الكمال في ظل إفلاس عالمي على مستوى القيم والأخلاق والتعاليم ، وهناك أعداء لدين الله ينخر الفساد في مجتمعاهم وتتجسد فيهم كل عوامل الهلاك باعتراف مفكريهم وفلاسفتهم ، وهناك استدراج لأهل الباطل لمواجهة رسالة الحق في الأرض في مرحلة استبد بها الغرور والاستكبار والغفلة والثقة بالنفس عند أهل الباطل ، وهناك حالة استيئاس عند أهل الحق من أي نصرة متوقعة من ناحية الأرض وأهلها ، وهناك لحظة الحسم بين صراع الحق والباطل ... يومئذٍ : ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) أما من حولهم من الأمم ف ﴿ لا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

---

(١)الروم: الآيتان ٥-٦

(٢) الرعد:٣١

المبحث الرابع
الطائفة المنصورة وجهودها

📖 - عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ » (١)

وفي رواية أخرى عن معاوية ﷺ: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاس . » (٢)

شرح :

هذه الأحاديث فيها إشارة واضحة على بقاء طائفة من أهل الحق قائمين على دين الله سبحانه وتعالى حتى يأتي أمر الله ، و قد اختلف العلماء في المراد بأمر الله هنا : بعضهم فسره بالريح التي تقبض أرواح المؤمنين بين يدي الساعة ، والبعض فسر أمر الله بأنه خروج المهدي عليه السلام .

📖 - عن جَابرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . » (٣)

📖 - عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ . » (٤)

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٩٢٠ [مسلم بشرح النووي (٦٥/٧)]

(٢) أخرجه البخاري الاعتصام برقم ٧٣١٢ [البخاري مع الفتح (٣٠٦/١٣)]

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٠٣٧ [مسلم بشرح النووي (٦٦/٧)]

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٩٢٢ [مسلم بشرح النووي (٦٦/٧)]

أقول :

العصابة في اللغة هي ما بين العشرة إلى الأربعين ، أو كل جماعة رجال وخيل بفرسانها ، أو هي الجماعة المستكفية بنفسها في أمر من الأمور . (١)

📖 - عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ . ﴾ (٢)

يقول الإمام النووي : « **قال علي المديني : المراد بأهل الغرب العرب ، والمراد بالغرب الدلو الكبير لاختصاصهم بها غالباً ، وقال آخرون : المراد به الغرب من الأرض ، وقال معاذ ﷺ : هم بالشام ، وجاء في حديث آخر هم ببيت المقدس ، وما وراء ذلك ، وقيل المراد بأهل الغرب أهل الشدة والجلد ، وغرب كل شيء حده .** » (٣)

📖 - عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ **في كل قرن من أمتي سابقون** ﴾ (٤)

شرح إجمالي :

١- هذه بعض الأحاديث الواردة في الطائفة المنصورة التي بشر النبي ﷺ ، وهي تعتبر من أعظم المبشرات لهذه الأمـــة التي لن تعدم الخير على مر الدهور إلى قيام الساعة ؛ وهذا ما حرمت منه الأمم السابقة التي كان يداخلها التحريف في كتبها وتعاليمها ، ويترتب عليه الانحراف في أتباعها .

٢- اختلف العلماء في المراد بهذه الطائفة ، فقد ورد عن الإمام البخاري وغيره أنهم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل هم أهل الحديث ، وصيغة بعض الأحاديث تشير إلى ما هو أوسع من هذين القولين ، وفي ظني أن الطائفة المنصورة تشمل كل مؤمن موحد قائم على أمر الله في ثغره سواء كان قيامه يقتضي الأخذ

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب (١/٦٠٥ وما بعدها)

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٩٢٥ [مسلم بشرح النووي (٧/٦٦)]

(٣) النووي : شرح مسلم (٧/ ٦٨)

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي [نوادر الأصول (١/ ٣٦٩)] وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٢٦٧ .

بالسنان أو التفوه باللسان ، أو بغير ذلك يقول الإمام النووي : « **يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض .** » (١) وهذا كلام جميل من الإمام النووي استوعب فيه كل من كان من أهل نصرة للدين وترغيم لكيد الكفرة والمنافقين .

٣- جاء في بعض زيادات الأحاديث عند الإمام أحمد بأن الطائفة المنصورة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس ، وهذه الرواية فيها ضعف ، وتحمل على ما يكون بين يدي المهدي والدجال في آخر الزمان وليس على إطلاقها كما صرح ابن حجر . (٢) أو لعل الرواية مع رواية مسلم عن أهل الغرب يراد بها أن الشام ستبقى موطنا لصراع الحق والباطل إلى يوم القيامة ؛ حيث ستكون مطمع الديانات السابقة لكونها الأرض المقدسة ، وهي في كل جولاتها وصولاتها لن تعدم من أهل حق يدافعون عن دين الله سبحانه وتعالى رغم خذلان من حولهم لهم .

٤- في بعض الأحاديث إشارة إلى أن أهل الحق القائمين على مقتضيات الرسالة و سنامها الأعظم يكونون قلة في ظل سواد أعظم شغلتهم الدنيا وشهواتها ؛ لذا جاء التعبير عنهم بأنهم عصابة ، والعصابة في الغالب جماعة قليلة ، قد لا تزيد على الأربعين ، وهذا لا يعني أن الأرض بأكملها لا يكون فيها إلا عصابة من المسلمين ، بل يحتمل الأمر أن يكون في كل ثغر عصابة من المسلمين تذود عن حوض الإسلام .

---

(١) النووي : شرح مسلم (٦٨/٧)

(٢) ابن حجر : فتح الباري (٣٠٧/١٣)

٥- المراد بظهور هذه العصابة أو الطائفة على الناس غلبتهم عليهم سواء كانت هذه الغلبة في الحجة والبيان ، أو كانت في ترغيم أهل الباطل بالسنان ودفع كيدهم ، وحسر قوهم لئلا يستمكنوا من أهل الإسلام ، وهناك قول بأن المراد بالظهور هو اشتهارهم بين الناس . (١)

(١) العدوي : الصحيح المسند (٣٥٩)

المبحث الخامس
ترادف المجددين للأمة على مر القرون

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا . » (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير على أن الأمة لن تعدم ممن يجدد لها دينها على رأس كل قرن سواء كان المقصود برأس القرن نهايته أو بدايته ، ولفظة من تفيد العموم ؛ لذا يحتمل أن يكون أكثر من مجدد على رأس كل قرن ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بالأمة ؛ حيث تُبَث فيها الروح في كل فترة وجيزة في حال اندرست بعض معالم الرسالة فيها ، ومن تتبع تاريخ الأمة يجد مصداقية هذا الحديث حيث لم يعدم عصر من العصور من هؤلاء العظماء الذين يحيون في قلوب الناس معالم الوحيين .
- ذكر أبادي عن صاحب مجالس الأبرار قوله : « ولا يعلم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه ، إذ المجدد للدين لا بد أن يكون عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة قاصرا للسنة ، قامعا للبدعة ، وأن يعم علمه أهل زمانه ، وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام العلماء فيه غالبا ، واندراس السنن وظهور البدع ، فيحتاج حينئذ إلى تجديد الدين ، فيأتي الله تعالى من الخلق بعوض من السلف إما واحدا أو متعددا » (٢)

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٠ [عون المعبود (٣٨٥/١١)] ؛ والحاكم برقم ٨٥٩٢ [المستدرك (٤/ ٥٦٧)] وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٨٧٤ .

(٢) عون المعبود (١١/ ٣٩١)

- ليس المقصود بالتجديد هنا التغيير والتبديل ، بل يراد به إحياء المعاني الأصيلة التي كان عليها الرعيل الأول ، أي إحياء السنن وإماتة البدع والمستحدثات التي تطرأ على الأمم يقول العلقمي : « معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما . » (١)
- رحلة المجددين عبر العصور تنتهي بالمجدد الأعظم للأمة وهو الإمام المهدي ؛ حيث يكون التجديد في عهده على أكمل صورة ، وأقربها شبهاً بمرحلة الرسول الأعظم .

(١) عون المعبود (١١/ ٣٨٦)

المبحث السادس
الوعد بالخلافة الراشدة

- عن حُذَيْفَة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ . ﴾ (١)

شرح :

- هذه الحديث فيه إشارة إلى تقلبات الأمة السياسية عبر التاريخ ؛ حيث بدأت بحكم النبوة التي انتهت بوفاة رسول الله ﷺ ، ثم الخلافة الراشدة التي انتهت بعام الجماعة عند تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه ، والملك العاض الذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية والله أعلم ، والأمة الآن في مرحلة الحكومة الجبرية التي لا يعلم متى انتهاؤها ، والحديث صريح في أنه لا يكون بعد الحكومة الجبرية إلا الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ، وهذا وعد من الله للأمة في آخر الزمان ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) وهذا الوعد لمّا يتحقق بعد ، لكنه آتٍ لا محالة ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٣) فالله عزيز ، ومن مقتضيات عزته رفعة أهله وترغيم أعدائه وإذلالهم وهذا هو وجه انتقامه ، ومترتبات عزة الله المتعلقة بوعده ستكون في آخر الزمان عامة عموم الأرض

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٤٣٦ [المسند (٣٣٤/٤)] وإسناد أحمد لا بأس به .

(٢) الصف:٩

(٣) إبراهيم:٤٧

جميعاً ، ويصدق فيها قول رسول الله ﷺ : ﴿ لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ ﴾ (١) فوعد الله ودلائل الحال ومجريات الصراع ، وإرهاصات الواقع وتداول الأمم تدل على أننا من أهله بإذن الله ، وما هي إلا ساعة صبر .

– الحديث السابق يتضمن في طياته البشرى للأمة بأن ما هي عليه من ظلم و جبرية لن يدوم حاله ، بل يخلفه الخير بأعلى درجاته ؛ حيث تعود الخلافة الراشدة من جديد للأمة ، وكذلك يتضمن الحديث حثاً للأمة للسعي لإقامة الخلافة الراشدة في الأرض ، فكما كانت الخلافة الراشدة الأولى نتيجة لجهد عظيم وتضحيات عظمى ، فكذلك الخلافة الراشدة الثانية .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الشاميين برقم ١٦٩٥٩ [المسند (١٢٨/٤)] ؛ والحاكم من طريق أخرى برقم ٨٣٢٤ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين [المستدرك (٤٧٦/٤)] ؛ قال الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (١٤/٦)]

الباب الثاني : علامات الساعة الكبرى

ويتضمن الفصول السبعة التالية

الفصل الأول : الآيات العظام
الفصل الثاني : الحدث الكوني وعلاقته بآية الدخان
الفصل الثالث : المهدي المنتظر
الفصل الرابع : الدجال
الفصل الخامس : مرحلة عيسى ﷺ
الفصل السادس : يأجوج ومأجوج
الفصل السابع : علامات نهاية البشرية

الفصل الأول : الآيات العظام

ويتضمن المباحث الثلاثة التالية

المبحث الأول : عدد العلامات الكبرى وترتيبها

المبحث الثاني : سرعة تتابع الآيات العظام

المبحث الثالث : إشكالات وردود بخصوص العلامات العظام

المبحث الأول
عدد العلامات الكبرى وترتيبها

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ مَا تَذَاكَرُونَ ؟ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ . ﴾ (١)

📖 - عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ فَاطَّلَعَ إِلَيْنَا فَقَالَ مَا تَذْكُرُونَ قُلْنَا السَّاعَةَ قَالَ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ . قَالَ شُعْبَةُ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ رُفَيْعٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ مِثْلَ ذَلِكَ لَا يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ و قَالَ أَحَدُهُمَا فِي الْعَاشِرَةِ نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ و قَالَ الْآخَرُ وَرِيحٌ تُلْقِي النَّاسَ فِي الْبَحْرِ . ﴾ (٢)

وفي رواية ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَالدَّابَّةَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ فَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ ..وَزَادَ فِيهِ :الدَّجَّالَ .. وَالْعَاشِرَةُ إِمَّا رِيحٌ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٠١ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٥)] .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٩٠١ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٥)]

تَطْرَحُهُمْ فِي الْبَحْرِ وَإِمَّا نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (١)

شرح :

- هذا الحديث برواياته الثلاث يشير إلى الآيات العظام التي تكون بين يدي الساعة ، ودلائل السياق تشير إلى أنها مذكورة على سبيل الجمع لا الترتيب ؛ بدليل أن هناك تقديما وتأخيراً بين هذه العلامات في الروايات الثلاث ، كذلك المعلوم أن نزول عيسى عليه السلام يكون قبل يأجوج ومأجوج ، وقبل الدابة وطلوع الشمس من مغربها .
- وصف هذه العلامات بالآيات إشارة إلى عظمها ، وهذا وجه لتسميتها بالعلامات الكبرى ، كذلك كلمة « آية » فيها إشارة إلى أن تلك العلامات تقع على غير المعهود ؛ أي أن وقوعها يحصل على سبيل الإعجاز على خلاف نواميس الأرض ، وهذا واضح فيها جميعاً ، فخروج دابة من الأرض تكلم الناس ، أو طلوع الشمس من مغربها ، أو خروج نار تطرد الناس إلى أرض المحشر .. كل هذه الأمور خارقة لنواميس الكون وغير معهود وقوع مثلها بين البشر ؛ لذا سميت هذه العلامات بالآيات ؛ لما فيها من جانب إعجازي خارق للعادة ، وبالتالي من الخطأ أن يتصور البعض وقوعها بشكل معهود ، أو يستبعد وقوعها قياساً على الواقع،فهذه العلامات على وجه الخصوص لا تخضع بجملتها للقياسات العقلية أو المنطقية .
- نلحظ في بعض الكتب أنها تعتبر خروج المهدي من العلامات الكبرى ، وهذا القول ليس عليه دليل نستأنس به ، ووفق التوجيه السابق بأن العلامات الكبرى هي آيات على سبيل الإعجاز يمكن القول أن خروج المهدي ليس ضمنها ؛ لأن خروجه ليس فيه خارق للعادة ، لكن الدلائل المتضافرة تشير إلى أن خروج

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٢٧٤ ، ٢٢٧٧، ٢٢٧٨ وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤١٣/٦ وما بعدها)]

المهدي ﷺ يكون ملابساً لوقوع العلامات الكبرى ، أو مندرجاً فيها ؛ أو أن بعضها يقع إما قبيل خروجه أو خلال عهده ، كعلامة الدخان أو الدجال أو نزول عيسى ، أو خسف جزيرة العرب (*) ، فهذه العلامات الأربع يحتمل كونها حاصلة إما قبيل خروجه أو في عهده ؛ لذا إدراجه في باب العلامات الكبرى يكون من باب المجاورة والتلازم بين الأحداث .

- يتضح من سياق الحديث أنه لم يذكر هذه الأحداث على سبيل الترتيب ، إلا إنه يمكن تصور أول العلامات وآخرها ، أو يمكن تصور التلازم بين بعض هذه العلامات بما يفهم منها طبيعة الترتيب بينها ، وهذا يتحصل من خلال دلائل وقرائن أخرى خارج سياق الحديث ، ووفقاً للتصور العام الذي تحصل لدي من خلال قرائن عدة يمكن القول أن آخر هذه العلامات جزماً هو النار التي تخرج من اليمن ، وفي حديث آخر الريح التي تقبض أرواح المؤمنين ، وقبلها علامتان وهما طلوع الشمس من مغربها ودابة الأرض ، يبقى سبع علامات منها ثلاث علامات ثبت التلازم بينها ، وهي الدجال ثم نزول عيسى ثم يأجوج ومأجوج ، وهذا الترتيب أشارت إليه أحاديث أخرى كما سيتضح ، أما العلامات الأربع الباقية وهي الخسوف الثلاثة والدخان فهي غير معلومة الترتيب على سبيل الجزم ، لكن هناك قرينة تعزز كون الخسوف الثلاثة كلها قبل الدجال على اعتبار أن الخسف الثالث (خسف جزيرة العرب) هو نفسه الخسف الذي يكون علامة من علامات خروج المهدي ودليل من دلائل صدقه .
- وفقاً للترتيب السابق يمكن القول أن الترتيب المنطقي للعلامات هو كالتالي : ١- خسف المشرق ٢- خسف المغرب ٣- خسف جزيرة العرب الذي يكون بين

(*) سنلاحظ في الفصول القادمة وجه الترابط بين الأحداث العظام ، وخروج المهدي ، فخسفا المشرق والمغرب ممهدان لخروجه ، وخسف جزيرة العرب دليل من دلائل خروجه ، والدخان يحتمل أن يكون قبيل خروجه ، أما الدجال فيحتمل أن يكون خروجه في أواخر عهد المهدي ، وهناك قرائن تعزز أن نزول عيسى ﷺ إنما يكون في عهد المهدي ﷺ .

يدي خروج المهدي ٤- الدجال ٥- نزول عيسى بن مريم ٦- يأجوج ومأجوج ٧- طلوع الشمس من مغربها ٨- الدابة التي تكلم الناس ٩- النار التي تخرج من قعر عدن ، أو الريح التي تلقي الناس في البحر .

- الترتيب السابق هو الترتيب المنطقي الذي تحصل لدي من خلال الاستعانة بقرائن متعددة ستتضح خلال الفصول اللاحقة ، وتبقى علامة واحدة يكتنفها بعض الغموض ، وهي علامة الدخان ، وهذه العلامة أيضاً يترجح لدي أنها هي العلامة الأولى في العلامات الكبرى ، وباقي العلامات تحدث تباعاً بعدها ، وهناك احتمال أن تكون بعد خسفي المشرق والمغرب ، وقبل خسف جزيرة العرب ، ووفقاً لهذا الاحتمال يكون ترتيبها الثالث في العلامات .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الْأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ . » (١)

شرح :

- هذا الحديث يشير إلى معلم هام من معالم دراسة علامات الساعة ،وهو ضرورة الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح قبل أن تفاجئ الإنسان ، فيندم بعد فوات الأوان ، وهذا المعلم أكدت عليه أحاديث كثيرة تبدأ بكلمة « بادروا » بل هذا هو المقصد الأساس من ذكر علامات الساعة ، وفي الحديث إشارة إلى أن هذه العظائم تقع فجأة دون إرهاصات واضحة قبلها مما يتطلب الأمر أن يكون المسلم دائماً في حالة استعداد حتى لا يفاجأ بها ،فالأمر بالمبادرة هنا يقتضي المسارعة بالتوبة والحث على الأعمال الصالحة ، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها ، والمتتبع لحال الرعيل الأول يجد أن هذا الدرس قد أخذ موطنه في قلوبهم ، وكان لسان حالهم الاستعداد والترقب في كل لحظة خشية طروق هذه العظائم ، عن النَّضْرِ قَالَ :

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٧ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٧٧)]

« كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى عَهْدِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : فَأَتَيْتُ أَنَسًا فَقُلْتُ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ! هَلْ كَانَ يُصِيبُكُمْ مِثْلُ هَذَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ! إِنْ كَانَتْ الرِّيحُ لَتَشْتَدُّ فَنُبَادِرُ الْمَسْجِدَ مَخَافَةَ الْقِيَامَةِ . » (١) فهذا الأثر يشير صراحة إلى درجة التربية الإيمانية والاستعداد النفسي الرائع المترقب لقيام الساعة أو علاماتها العظام عند الرعيل الأول ، بل الحديث الأول عن حذيفة الأسدي يدل على أن هذا الترقب وهذه المخاوف قد بلغت مداها ؛ لدرجة أن الرسول ﷺ قد حاول يطمئنهم بأن القيامة لن تقع إلا بعد عشر علامات ، وخلاصة القول أنه إذا كان هذا حال الصحابة واستعدادهم مع بعد عهدهم ، فكيف يكون حالنا مع قرب عهدنا من الساعة أو إرهاصاتها العظمى .

- الملاحظ أن الحديث قد أنث لفظة « ستاً » وذلك إشارة إلى أنها من الدواهي والمصائب العظام .
- هذا الحديث تضمن أربعاً من علامات الساعة العظام ، وهي الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، وجاء في أحاديث أخرى أن حصول أي واحدة من هؤلاء لا ينفع بعده توبة نفس أو إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل ، وطلب المبادرة إشارة إلى قرب هذه الأمور الأربعة ، وإشارة أيضاً إلى أنها تأتي على حين غفلة .
- المقصود بأمر العامة ، هو قيام الساعة نفسها ، أما خاصة أحدكم أو خويصة أحدكم فيراد بها الموت ، ومن مات قامت قيامته .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم ١١٨٤ [عون المعبود (٤/ ٦٠)]

المبحث الثاني
سرعة تتابع الآيات العظام

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ ﷺ : ﴿ الْآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ فَإِنْ يُقْطَعْ السِّلْكُ يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا ﴾ (١)

- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ خروج الآيات بعضها على بعض يتتابعن كما تتتابع الخرز ﴾ (٢)

شرح :

- الأحاديث السابقة فيها إشارة إلى تتابع الآيات العظام ، وسيتضح خلال الفصول السابقة مدى هذا التتابع ؛ حيث سنرى أن الخسوف الثلاثة والدخان والدجال وعيسى ﷺ ويأجوج ومأجوج مترتبة على بعضها البعض ، ثم بعد ذلك مباشرة يكون طلوع الشمس من مغربها ، وعلى إثرها أو في نفس اليوم يكون خروج الدابة ، وبعد ذلك بوقت قصير تكون النار الحاشرة آخر الآيات العظام .
- خلال تتبعي للأحداث أرى أن هذه العلامات كلها تحدث في قرن واحد تنتهي بعده الدنيا .
- ورد في أثر أن الآيات الثلاثة الأخيرة [طلوع الشمس والدابة والنار الحاشرة] تقع كلها خلال ستة أشهر ، وفي رواية ثمانية أشهر .
- توصيف الحديث بأن الآيات كخرزات في سلك إذا انقطع السلك تتابعت في الوقوع إشارة إلى سرعة وقوع هذه الآيات وتعلق بعضها ببعض .

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٧٠٥٨ [المسند (٢٩٣/٢)] ؛ والحاكم عن أنس برقم ٨٦٣٩ ؛ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٥٨٩/٤)]

(٢) اخرجه ابن حبان برقم ١٨٨٢ [موارد الظمآن (٤٦٥/١)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٤٤٥)]

المبحث الثالث
إشكالات وردود بخصوص العلامات العظام

المطلب الأول : إشكال في فهم آية الدخان

هناك إشكال واضح في فهم المراد بآية الدخان المذكورة في القرآن أو المذكورة في السنة كعلامة من علامات الساعة الكبرى ، فالبعض يسقطها على حدث يكون يوم القيامة نفسها ، والبعض يرى أن آية الدخان في القرآن الكريم قد حصلت في العهد المكي ، لذا لزم بيان هذا الإشكال،وتوجيه الراجح في ظني بخصوصه ، وذلك على النحو التالي .

- يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (١) شرح :

هذه الآيات اختلف في تأويلها علماء التفسير ، فبعضهم يرى أنها وقعت في العهد المكي حيث دعا النبي ﷺ على كفار قريش بأن يصابوا بسنين قحط كسنين يوسف عليه السلام ، وقد وقع ذلك ، وكان لشدة القحط يرون السماء غبراء كأن الدخان يلفها .

وبعض المفسرين يرى أن آية الدخان قادمة ، وهي من علامات الساعة ، وما ذكرته الآيات توصيف لهذه الآية ، وفي ظني هذا الرأي أرجح ، ويتفق مع ما ثبت عن النبي ﷺ من إخباره عن عشر علامات كبرى للساعة : إحداها ، وفي ترتيب الحديث أولها الدخان ، مما يؤكد أن آية الدخان لم تقع كما يرى البعض . (٢)

والذي يعزز عندي هـذا الرأي أنه أوفق في حمـل الكلام على حقيقته ، وعدم

---

(١) الدخان:الآيات ١٠ -١٥

(٢) انظر البروسوي : تنوير الأذهان (٢٦/٤ وما بعدها)

العدول عنه إلى المجاز ، فالآية تشير إلى أن السماء تأتي بدخان مبين ؛ أي واضح لا يشك أو يلتبس في اعتباره دخاناً اثنان ، وهذا الدخان تم وصفه بأنه يغشى الناس ، أي يحيطهم من جميع الجوانب ، وليس شيئاً يتخيله الرائي كما في قحط قريش ، وعبرت الآيات عن هذا الدخان بأنه عذاب أليم ، وهذه المعاني بهذا التوصيف لم تقع لأهل قريش ؛ لذا عمد بعض المفسرين إلى حمل تلك المعاني من باب المجاز ، واعتبر الغبار في سنة القحط دخان ، أو ما يراه الجائع في السماء كأنه غمامة من السحاب ..إلخ .

وفي ظني هذه المعاني بعيدة بهذا الشكل ، فسياق الآية وألفاظها ودلالاتها تتضمن قرائن عدة تدل على أن المقصود بها أمر عظيم مهلك ، وما وقعت به قريش أهون من ذلك بكثير .

وجمعاً بين الآراء يمكن القول أن الآية تشير إلى ما أصاب قريش من باب المجاز ، وتدل على علامة عظمى بين يدي الساعة من باب الحقيقة يقول أبو الخطاب ابن دحية : « والذي يقتضيه النظر الصحيح حمل ذلك على قضيتين : إحداهما وقعت وكانت ، والأخرى ستقع وستكون ، فأما التي كانت فالتي كانوا يرون فيها كهيأة دخان ، وهي غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور آيات التي هي من أشراط الساعة ، ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . » فيكشف عنهم ثم يعودون إلى الكفر وكلام ابن مسعود ﷺ لم يسنده إلى رسول الله ﷺ إنما هو من تفسيره ، وقد جاء النص عن رسول الله ﷺ بخلافه . » (١)

📖 - عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ فَقَالَ يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ فَفَزِعْنَا ، فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَغَضِبَ فَجَلَسَ ، فَقَالَ : « مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ مِنْ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ لَا أَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنْ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمْ

(١) القرطبي : التذكرة (٧٤١)

النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا ، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ فَقَرَأَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ إِلَى قَوْلِهِ عَائِدُونَ ، أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الْآخِرَةِ إِذَا جَاءَ ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ وَ لِزَامًا يَوْمَ بَدْرٍ الم غُلِبَتْ الرُّومُ إِلَى سَيَغْلِبُونَ وَالرُّومُ قَدْ مَضَى » (١)

📖 - عن ابن مسعود ﷺ قال : « خمس قد مضين : الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر . » (٢)

شرح :

هذان الأثران يدلان على أن ابن مسعود ﷺ يرى أن آية الدخان المذكورة في القرآن قد وقعت ، وقد فسرها بأن المراد بها القحط الذي أصاب قريش ، واعتبر قول القائل بأن المراد بها الزكام الذي يكون يوم القيامة باطلاً ، ووجه بطلانه عند ابن مسعود في قول الله سبحانه وتعالى « إنا كاشفوا العذاب قليلاً » ؛ فالآية صريحة بأن العذاب سيكشف عنهم ، بينما قول القائل مقصود به دخان يكون يوم القيامة ، ومحال أن يكشف الله عنهم العذاب يوم القيامة .

فاستدلال ابن مسعود ﷺ من باب دلالة الاقتضاء ؛ أي أن الآية التي صرحت بأن العذاب سيكشف ، و أن الكفار سيعودون لكفرهم يستلزم القول ببطلان أن يكون هذا الدخان يوم القيامة ، بل لا بد أن يكون في دار التكليف قبل القيامة .

وهذا الاستدلال له وجاهته ؛ لكن جزم ابن مسعود ﷺ بأن آية الدخان قد وقعت فضعيف من عدة وجوه ذكرتها سابقاً عند شرحي لآية الدخان (✽) ، وهذا ما عليه

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم ٤٧٧٤ [البخاري مع الفتح (٣٧٢/٨)]

(٢) انظر الأثرين عند ابن كثير في تفسيره (٢٦٢/٤)

(✽) ذكر القرطبي أنه قد روي عن ابن مسعود أيضاً بأن هناك دخانين أحدهما قد مضى ، والآخر سيأتي كعلامة عظمى من علامات الساعة .

أكثر العلماء ، والقرينة واضحة ، وهي أن النبي ﷺ قد أخبر بأن آية الدخان هي واحدة من عشر علامات بين يدي الساعة ؛ مما يعني صراحة أنها لم تقع بعد .

خلاصة القول في آية الدخان :

- القول بأن آية الدخان وقعت ضعيف من عدة وجوه ، وإن أمكن القول به ، فيكون من باب المجاز على اعتبار أن هذه الآية على حقيقتها لم تقع ، وإنما تكون بين يدي الساعة كعلامة عظمى من علاماتها .
- القول بان آية الدخان تكون يوم القيامة نفسه أيضاً ضعيف لا يتفق مع كون هذه العلامة من إرهاصات يوم القيامة ، ولا يتفق أيضاً مع سياق الآية القرآنية ، ولا مع حديث العلامات العشر .
- المحصلة هي أن هناك علامة كبرى من علامات الساعة هي علامة الدخان ، وهي المقصودة حقيقة بالآية القرآنية في سورة الدخان ، وهي غير ما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه ، أو غيره ، وسيكون لنا اجتهاد في بيان المراد بها في فصل الحدث الكوني .

المطلب الثاني : إشكالات أخرى

الإشكال الأول :

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (١)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَمْ (يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) الْآيَةَ الدَّجَّالُ وَالدَّابَّةُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَوْ مِنْ مَغْرِبِهَا . »

وفي رواية « طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدُّخَانُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ . » (٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٧٠٣ [مسلم بشرح النووي (٢٤/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٥٨ [مسلم بشرح النووي (٤٣٣/١)] ؛ الترمذي في تفسير القرآن برقم ٥٠٦٧ ، وقال عنه : حسن صحيح غريب [تحفة الأحوذي ٤٤٩/٨)].

بيان وجه الإشكال :

الحديث الأول يشير إلى أن التوبة لا تقبل بعد طلوع الشمس من مغربها ، وثبت في حديث آخر أن باب التوبة يغلق مباشرة بعد طلوع الشمس من مغربها ، وهذا تصريح في الحديث بأن التوبة تقبل من العبد قبل طلوع الشمس .

أما في الحديثين الآخرين فقد ربط عدم نفع الإيمان أو التوبة بأربعة أمور وهي الدجال والدابة والدخان و طلوع الشمس من مغربها .

والمعلوم أن الدجال يكون قبل طلوع الشمس من مغربها ، ويحتمل أيضاً أن يكون الدخان كذلك ، أما الدابة فهي تكون في الغالب بعد طلوع الشمس من مغربها .

ووجه الإشكال هنا : كيف لا تنفع توبة ولا إيمان بعد خروج الدجال وهو قبل طلوع الشمس ، مع أن الحديث الأول قد صرح بأنها نافعة .

دفع الإشكال :

وهذا الإشكال يمكن دفعه بالقول أن الحديث الأول يشير إلى نهاية العالم حقيقة بطلوع الشمس من مغربها ، وفي هذه الحالة لا تنفع التوبة إلى قيام الساعة .

أما في الحديثين التاليين ففيهما إشارة إلى ضرورة المبادرة بالأعمال قبل وقوع هذه الأمور ؛ و من لم يكسب إيماناً قبل خروج الدجال ؛ فلا يتصور منه أن يحصله عند خروجه وخلال فتنته ؛ لأن فتنة الدجال فتنة حصاد لما تم زرعه قبل خروجه ، وهذا خاص في الملابس لفتنة الدجال والواقع فيها ، أما بعد ذلك فما يزال باب التوبة مفتوحاً لحين طلوع الشمس ، وهذا يقال أيضاً في علامة الدخان إذا كانت قبل طلوع الشمس .

أما بالنسبة للدابة فهي في الغالب تكون بعد طلوع الشمس ؛ حيث يكون باب التوبة مغلقاً ؛ لذا لا إشكال فيها .

الإشكال الثاني :

- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ : مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ قَالَ : فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ : ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ .. » (١)

بيان وجه الإشكال وطريقة دفعه :

هذا الحديث صريح بأن أول أشراط الساعة وقوعاً هو النار التي تحشر الناس ، وقد يتوهم البعض بأنها أول الأشراط العظام ، و ليس هذا صحيحاً بل هي آخر العلامات العشر ، كما جاء ذلك صريحاً في حديث حذيفة الأسدي السابق « وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » (٢)

ودفع الإشكال هنا بالقول إن سياق حديث ابن سلام يشير إلى أنه يسأل عن علامة قيام الساعة نفسها ، والتي يترتب عليها باقي علامات الفناء ، وهذه العلامة يعرفها اليهود من خلال كتبهم ، فجاءت الإجابة وفقاً للسؤال بأن أول هذه العلامات النار التي تحشر الناس نحو الشام ، ثم بعد ذلك تبدأ العلامات الأخرى المتتمة لفناء الكون .

أما حديث حذيفة الأسدي فهو يشير إلى الإرهاصات العظمى الدالة على قرب وقوع القيامة ، وليس عن علامات وقوعها ، فناسب الأمر ذكر بعض العلامات الكبرى البعيدة نسبياً عنها ، ثم ختمها بالعلامة المؤذنة بقيامها وهي النار الحاشرة ، وعليه يمكن القول أنه لا تعارض قطعاً بين الحديثين فأحدهما يشير إلى إرهاصات قرب الساعة ،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٢٩

(٢) سبق تخريجه

والآخر يشير إلى أول العلامات المؤذنة بقيامها ، ولا يمتنع أن تكون أخر علامة دالة على قرب الساعة هي أول علامة مؤذنة بقيامها .

الإشكال الثالث :

- عَنْ أَبِي زُرْعَةَ قَالَ : جَاءَ نَفَرٌ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ يُحَدِّثُ فِي الْآيَاتِ أَنَّ أَوَّلَهَا الدَّجَّالُ قَالَ فَانْصَرَفْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَمْ يَقُلْ شَيْئًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدَّابَّةُ عَلَى النَّاسِ ضُحًى فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ – وكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ – : وَأَظُنُّ أَوَّلَهُمَا خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . » (١)

بيان وجه الإشكال وطريقة دفعه :

هذا الحديث يشير إلى أن ابن عمرو رضي الله عنهما يرى أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدجال ، وسياقه يشير إلى أنه ينكر على مروان قوله أن أول الآيات هو الدجال ، ومستند ابن عمرو رضي الله عنهما حديث سمعه من رسول الله ﷺ .

والإشكال هنا أن هذا الحديث يشير إلى أن أول الآيات العظام هو طلوع الشمس من مغربها مع أن القرائن المتعددة والأحاديث المتضافرة تعزز أن هناك علامات كثيرة تسبق علامة طلوع الشمس كخروج الدجال مثلاً .

دفع الإشكال :

- لكي يتضح وجه دفع الإشكال لا بد من بيان طبيعة العلامات العشر ، فالملاحظ عليها أنها قسمان : القسم الأول يتضمن ممحصات ضمن دائرة الصراع بين الحق والباطل وهذه تشمل الخسوف الثلاثة والدجال والدخان ونزول عيسى بن مريم .

أما القسم الثاني فهو إيذان بقرب النهاية ، و يتضمن ثلاث علامات وهي طلوع الشمس الذي به يقفل باب التوبة ، والدابة التي تسوق الناس أو تسمهم على خراطيهم

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤١ [مسلم بشرح النووي (٢٦٨/٩)]

مؤذنة بنهاية صراع الحق والباطل على الأرض ، ثم يتخلل ذلك الريح الطيبة التي تقبض ما تبقى من أرواح المؤمنين ، ويبقى الشرار ، وهؤلاء تخرج عليهم النار التي تسوقهم إلى أرض المحشر مؤذنة بالنهاية .

ووفقاً لهذا التوجيه يمكن القول أنه لا تعارض بين فهم مروان وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، فمروان نظر إلى أول الآيات العشر وقوله يحتمل أنه اجتهاد منه ، أما عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، فيظهر من السياق أنه سمع أحاديث تخص القسم الثاني فقط فظن أنها شاملة للنوعين ؛ لذا أنكر على مروان ، وأشار إلى الحديث الذي سمعه ، وسياقه يشير إلى علامات القسم الثاني فقط .

والملاحظ من السياق أن هناك اجتهاداً منه في تقديم آية طلوع الشمس على الدابة ، لكن الذي يعنينا هنا هو أن الحديث الذي أورده عن رسول الله ﷺ لا يدل على أن طلوع الشمس قبل الدجال ، بل هذا كان فهماً منه للحديث ، وهو أشبه بالإشكال الثاني الذي ذكر أن أول الأشراط خروج النار الحاشرة .

لذا يمكن القول أنه لا تعارض ، وما ذكره ابن عمرو هو عبارة عن فهم منه لنص سمعه ، فظن أنه شامل للعلامات العشر ، وسياق النص لا يدل على شموله لجميعها ، بل يشير إلى العلامات الثلاثة الخاتمة فقط .

الفصل الثاني : الحدث الكوني وعلاقته بآية الدخان

ويتضمن المباحث الخمسة التالية

المبحث الأول : مقدمات هامة

المبحث الثاني : آية الدخان وعلاقتها بالدجال

المبحث الثالث : الإشارات النبوية المعززة لاحتمالية سقوط نيزك

المبحث الرابع : علامات يحتمل أن تكون مترتبة على وقوع نيزك

المبحث الخامس : قرائن متعددة تعزز احتمالية وقوع حدث كوني

المبحث الأول
مقدمـــات هامـــة

بالنظر لبعض علامات الساعة نجد أنها تشير إلى تغيرات مناخية ، وجيولوجية ، أو طبيعية غير معهودة بالنسبة لتصوراتنا ، وهذه العلامات قد تشير بمجموعها إلى وقوع حدث كوني عظيم يترتب عليه تغير جوهري بخصوص الأرض ، وهذا التغير لا تستبعده تصورات العلماء في عصرنا .

وهذه محاولة للربط بين ما يتصوره العلماء - خاصة علماء الفلك - وبين الأدلة القرآنية والحديثية (❁) وأرى أن أمهد لهذه المحاولة ببعض المقدمات التي ليس لها علاقة مباشرة بالموضوع إلا أنها تسهل علينا فهم الأدلة التفصيلية المتعلقة بالموضوع .

المقدمة الأولى : سقوط حجارة من السماء
شكل من أشكال العقوبات الربانية

أولاً : الرجم بالحجارة من السماء أحد أربعة أشكال من العذاب .

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أنه يملي للظالم فإذا أخذه ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وقد بينت كثير من الآيات القرآنية أشكالاً من هذه العقوبات ، لعل أهمها ما ترشد إليه الآية التالية :

- يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١)

فالآية الكريمة ذكرت أربعة أشكال للعقوبة الربانية ، وهي :

(❁) أود أن أشير هنا إلى أن هذا الفصل على وجه الخصوص يحتاج إلى دراسة متأنية عميقة بعيدة عن التسرع في إطلاق حكم ما عليه ناجم عن دراسة سطحية ، وكلي أمل أن يهتم أهل العلم الشرعي خاصةً في هذه الاستدلالات تمحيصاً وتحقيقاً وملاحقة لكي تكتمل صورة هذا الجانب العلمي الهام .

(١) العنكبوت: ٤٠

الحاصب : ويراد به حجارة من السماء مسومة للعذاب، وقد أصابت الحجارة قوم لوط .

الصيحة : ويقصد بها في الراجح صيحة تقع من جبريل أو أحد الملائكة تتقطع لها الأوتار والشرايين ، ثم الخمود النهائي إلى يوم القيامة ، وهذه الصيحة أصابت قوم ثمود ، وأصحاب القرية .

الغرق : وهذا الشكل من العذاب كان من نصيب قوم نوح في الطوفان ، وفرعون في البحر .

الخسف : وهذا العذاب أصاب الله سبحانه وتعالى به قارون .

هذه هي الأشكال الأربعة للعذاب ، وقد بدأت الآية بذكر التعذيب بالحجارة ، ولعل البداية به إشارة إلى شدته ، وإلا فالأولى الابتداء بالغرق لأن العذاب به لقوم نوح كان سابقاً لعذاب قوم لوط ، فالفائدة المتصورة من البداية به هو أن الآية بدأت بالأشد ثم الأخف .

ثانياً : الإشارات التي تتضمنها الآيات المبينة لعقوبة قوم لوط .

- قال الله سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ (١)
- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ (٢)
- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (٣)
- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ (٤)

---

(١) الذريات: الآيات ٣٠ -٣٤

(٢) الفرقان:٤٠

(٣) الشعراء:١٧٣

(٤) هود:٨٢

- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (١)

شرح الغريب :

سجيل : اختلف العلماء في المراد به فقالوا : هي حجارة كالمدر ؛ أي الطين المطبوخ ، أو هي من طين ، أو من صخر ، وأوجه الأقوال أن سجيل يراد به أن الحجارة مسجل عليها أسماء من تلقى عليهم ، أي أنها حجارة عذاب ، وهي هنا مرادفة لمعنى مسومة التي دلت عليها الآيات الأخر . (٢)

منضود : أي متراكم بعضه فوق بعض و مترادف في نزوله . (٣)

الحاصب : أصل معنى الحاصب أنها الريح الشديدة التي تحمل الحصى معها ، ويراد بها هنا تلك الحجارة الصغيرة السريعة المقذوفة من السماء . (٤)

شرح :

هذه الآيات الكريمة تعطينا وصفاً كاملاً لطريقة التعذيب بالحجارة من السماء ، يعنينا في هذا المقام عدة أمور منها : أنها حجارة من طين ، وهي مسومة ، أي معدة لتعذيب أناس معينين على وجه الخصوص ، وهم قوم لوط ، وأن هذه الحجارة قد سجل عليها أسماء من تقصدهم ، أي أن الرمي بالحجارة من السماء ليس طريقة عشوائية ، إنما هي عقوبة ربانية محددة سيقت بإحكام لمن يستحقونها .

ونلحظ من الآيات التي تعبر عن رمي قوم لوط بحجارة من صخر أو طين أو من حصى متراكم أنها عبرت عنه بمواضع أخرى بالمطر ، بل اكتفت في بعض الآيات بتسميته مطر السوء ، أو مطراً ثم عقبت عليه بقولها فساء مطر المنذرين .

---

(١) القمر:٣٤

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (٣٢٦/١١

(٣) المرجع السابق (٤٢٣)

(٤) المرجع السابق (٣٢٠/١)

ووجه مشابهتها بالمطر إشارة لأمرين هما جهة نزولها ، وهو السماء محل نزول المطر ، والثاني كناية على كثرتها وتتابعها بما يشبه المطر .

والملاحظ في كتاب الله سبحانه وتعالى أن كلمة مطر في الأغلب ذكرت للدلالة على الرمي بالحجارة والتعذيب كما أن كلمة ريح في أغلب الآيات إشارة للعذاب والرياح إشارة للرحمة .

المقدمة الثانية : التهديد بسقوط حجارة من السماء ما زال قائماً، ومن الجهل أن يستبعد الإنسان وقوعه .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (١)
- ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ (٢)

شرح :

الآيتان صريحتان في تهديد كفار البشرية بحجارة من السماء ، وقد جاء الاستفهام فيهما على وجه التوبيخ والتهديد ، أي كيف تأمنون وقوع حجارة عليكم من السماء كعقوبة لكم على كفركم ؟ وقد وقع مثل ذلك على أقوام سابقة ، والأصل فيكم ما دمتم وقعتم في موجبات العقاب أن تكونوا على حذر تام ، ووجل وترقب لوقوع حجارة من السماء عليكم ، والأمر ليس ببعيد عنكم ، وليس مستغرباً ، وما هي من الظالمين ببعيد .

---

(١) الملك:١٧

(٢) الاسراء:٦٨

المقدمة الثالثة : عقوبة الرجم بالحجارة من العقوبات المستقبلية الثابتة

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١)

- ذكر أبي بن كعب في تفسير الآية السابقة قوله : « هُنَّ أَرْبَعٌ وَكُلُّهُنَّ عَذَابٌ وَكُلُّهُنَّ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَمَضَتِ اثْنَتَانِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَأُلْبِسُوا شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ وَثِنْتَانِ وَاقِعَتَانِ لَا مَحَالَةَ الْخَسْفُ وَالرَّجْمُ . » (٢)

الشاهد في الآية والأثر الوارد عن أُبي بن كعب :

الأثر صريح بأن هذه العقوبات لم تذكر على سبيل التهديد ، بل فيها إشارة مستقبلية لما ستقع به الأمة ، وقد وقع منها اثنتان وهما التفرق بين الأمة والتشيع لأحزاب ، ثم وقوع القتال بين هذه الأحزاب والشيع ، وبقي اثنتان ، وهما الرجم من السماء إما بحاصب أو بكسف ، والزلازل والخسف ، وقد جاء التصريح في أحاديث عدة في علامات الساعة عن وقوع الخسف في الأمة ، أهمه ثلاثة خسوف عظمى ، في المشرق والمغرب وجزيرة العرب ، أما عن الحاصب أو الكسف فدلالة الأثر تشير إلى أنه لا محالة واقع ، ودلائل الحال وسياق الآية يعززان الربط بين العلامتين ، وقد يكون الخسف أحد آثار سقوط كسف من السماء .

- قال سبحانه وتعالى :﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ

---

(١) الأنعام:٦٥

(٢) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢١٢٨٥ [المسند (١٦٢/٥)] ، قال المقدسي : إسناده حسن [الأحاديث المختارة (٣٥٦/٣)]

فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (١)

شرح :

الآية ربطت وقوع كسف من السماء بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، والإشارة دالة على المستقبل ، والكسف قطعة من السماء ، والإشارة بالكسف هنا غير الإشارة بالحاصب ، فالكسف قطعة كبيرة أشبه بالنيزك ، أما الحاصب فهي حجارة صغيرة .

وعقبت الآية بعد ذكر الكسف بأن في ذلك علامة وبرهان لا يستفيد منه ، أو من التحذير منه إلا كل عبد تائب راجع إلى الله ، أو كل فقيه مطلع على أوجه التصريف الرباني وسننه في الكون

📖 - عن ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ﴿ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ فِي أُمَّتِي – الشَّكُّ مِنْهُ– خَسْفٌ أَوْ مَسْخٌ أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ . ﴾ (٢)وفي رواية : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ مَسْخٌ وَخَسْفٌ وَقَذْفٌ ﴾ وفي رواية ﴿ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ ﴾ (٣)

شرح :

الحديث يتضمن ثلاثة أشكال من العذاب حاصلة في أفراد من الأمة منها القذف وهو الرمي بالحجارة من السماء .

---

(١) سبأ:٩

(٢) أخرجه الترمذي في القدر حديث رقم ٢٠٧٨ ، وقال : حسن صحيح غريب [تحفة الأحوذي (٣٦٧/٦)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم . وابن حبان في صحيحه في التاريخ من حديث أبي هريرة برقم ٦٧٥٩ [صحيح ابن حبان (١٦٢/١٥)] قال الهيثمي : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٠٣/٧)]

(٣) انفرد بالروايتين ابن ماجة برقمي ٤٠٦٠ ، ٤٠٦٢ [ابن ماجة (١٣٥٠/٢)] والحديث يشهد لمتنه الرواية الأولى الصحيحة

المقدمة الرابعة : نظرة علماء الفلك لإمكانية سقوط كسف أو حاصب من السماء

هذه المقدمة لها علاقة بما توصل إليه علماء الفلك من تصورات مبنية على المشاهد أمام أعينهم حول إمكانية أو مدى احتمالية سقوط نيزك أو جرم سماوي نحو الأرض ، وقد استقيت هذه المعلومات من برنامج تلفزيوني علمي حديث جداً بعنوان : أخطار تهدد الأرض ، وكان عنوان الحلقة : نيازك مدمرة . (١)

وقد شارك في هذا البرنامج أبرز علماء الفلك في العصر الحاضر ، وأهمية هذا البرنامج تكمن في حداثته ، حيث أعد في سنوات ما بعد الألفين ، إضافة إلى ذلك أنه يبين لنا آخر النتائج والتصورات الحاصلة عند علماء الفلك ، وملخص الأفكار الهامة التي تضمنها هذا البرنامج أرصده في التالي :

- راقب الفلكيون ظاهرة غريبة قريبة من المشتري في عام ١٩٩٤م ، وعندما تم تحليل هذه الظاهرة وجدوها عبارة عن عشرين قطعة من نيزك متفتت ، تقترب من مجال المشترى ، وتم معاينة هذه الظاهرة من خلال توجيه المراصد والأقمار الصناعية نحوها لملاحظة ما يترتب عليها ، وتم تصوير ارتطام تلك القطع وما ترتب عليها من دمار و انفجارات ، تعادل فيه المنطقة المدمرة والمتأثرة حجم الأرض أو قريباً من ذلك .
- بدأ الفلكيون بعد معاينة هذه الظاهرة التفكير بجدية في احتمالية ضرب نيزك أو مذنب الكرة الأرضية .
- شاهد العلماء نيزك يسمى قراند تيتون يدخل مجال الأرض ، و بدأ بالاحتراق نتيجة احتكاكه بالغلاف الجوي ثم خرج من الغلاف مغيراً مساره .

(١) قناة الإخبارية ، برنامج أخطار تهدد الأرض ، عنوان الحلقة : نيازك مدمرة . ٢٦ / ٨/ ٢٠٠٤م ، الخميس ، الساعة السادسة والنصف بتوقيت القدس ، وقد أعيد هذا البرنامج عدة مرات في قناة المنارة ، وهي قناة علمية .

- خلال مراقبة سير نيزك كبير سماه العلماء (نيزك ١٩٩٨) ، وجد العلماء أن مساره يتجه نحو الأرض ، ووفق دراسة لسرعته ومساره توقع العلماء أن يضرب الكرة الأرضية سنة ٢٠٢٨م ، الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، ولوحظ بعد ذلك أن هذا النيزك قد غير مساره قليلاً .
- يذكر العلماء أنهم يرون قرابة الإثنا عشر نيزكاً خطراً يهدد الأرض سنوياً ، ومعدل النيازك المتوقع من كل واحد منها أن يضرب الكرة الأرضية هو ١٥٠٠ نيزكاً ، وهذا الرقم قابل للزيادة ، إضافة إلى ذلك أن هناك عشرين جسماً غير مكتشف ، أو ليس تحت الرصد يتوقع ارتطامها بالأرض ، يقول بعض علماء الفلك محللاً ظاهرة النيازك : يتوقع من بعض النيازك ارتطامها بالكرة الأرضية بعد ربع مليون سنة ، وبعضها يتوقع ارتطامه بعد أسبوع . وظاهرة النيازك ليس من السهل ضبط التصورات حولها ؛ إذ من الممكن أن نفاجأ في كل لحظة باقتراب نيزك من مجال الأرض ، ويتصور ارتطامه بها ، ويعقب عالم آخر بعد اجتماع فلكي ضم أكثر العلماء أنه من المحتم أن نصطدم بأحد النيازك .

تصورات العلماء للنتائج المترتبة على سقوط كسف أو نيزك على الأرض .

أ- ضرب نيزك بحجم ميل مربع لمدينة شيكاغو كفيل بتدميرها كاملاً مخلفاً حفرة عظيمة تحته ، ويترتب عليه التأثير القاتل والمدمر لمدن عدة حوله .

ب- بعد نزول النيزك يتوقع زيادة درجة الحرارة .

ت- يترتب على نزول النيزك هالة من الدخان عظيمة جداً تلف الكرة الأرضية ، وتحجب الشمس عنها ، ويستمر هذا الدخان مدة عام على الأقل .

ث- يترتب على ذلك القضاء على المزروعات والغطاء النباتي على الكرة الأرضية بكاملها ، إما بشكل كلي أو نسبي وهذا سينجم على أثره مجاعة غير متصور أبعادها ونتائجها .

ج- يذكر العلماء أن سقوط نيزك في العصور السحيقة كان سبباً في إنهاء الحياة على الأرض ، أو حياة الديناصورات في تلك الحقبة .

ح- يقول بعض العلماء أن نيزكاً واحداً كفيلاً بإنهاء الحياة البشرية .

خ- يرى بعض العلماء أن الساعات الأولى من نزول نيزك كفيل بقتل ملايين البشر .

أقول :

هذه أبرز تصورات علماء الفلك ، وقد بنوا هذه التصورات على ما لاحظوه من نتائج مدمرة عاينوها سنة ٩٤ م في المشترى ، وما وقع في المشتري ليس ببعيد عن الأرض في معتقدهم .

وهذه المعلومات التي ذكرتها مبنية على البحث العلمي البحت ، ولا علاقة لها بتصورات ومعتقدات سابقة ، وسنلحظ خلال مقارنتها مع ما ثبت عندنا مدى التطابق بين هذه التصورات ، وبين ما تورده علامات الساعة كما سيتضح .

خلاصة القول فيما سبق ذكره في هذا المبحث

١- سقوط كسف أو حجارة من الأحجار من السماء هو شكل من أشكال العذاب التي دل القرآن على وقوعه .

٢- من الأمم التي أخبر الله سبحانه وتعالى عن تعذيبهم بالحجارة قوم لوط .

٣- طبيعة الرجم من السماء ليس حالة عشوائية ، بل هي عقوبة ربانية تقع وفق المشيئة والحكمة الربانية .

٤- التهديد بإسقاط حجارة أو كسف من السماء ما زال قائماً ، وقد بينت الآيات أنه من الجهل الأمن من عدم وقوعه .

٥- جاء في بعض علامات الساعة ما يشير إلى وقوعه في حق بعض أفراد من الأمة .

٦- نلحظ من بعض الآيات أنها تربط بين سقوط الكسف من السماء وبين حالة من السحاب الأسود المتراكم ، وهو يطابق ما يذكره علماء الفلك من أن سقوط نيزك كفيل بإنشاء هالة من الدخان الكثيف يلف الكرة الأرضية ويحجب الشمس .

٧- نلحظ أن الأمن من احتمالية سقوط كسف أو حجارة ، والذي وقع به أهل الكفر استهجنته الآيات لأنهم استبعدوا خطراً قريباً منهم ومحدق بهم في كل لحظة ، وهذا الأمن من جهلهم ، ويلحظ أن أكثر الناس خوفاً من وقوعه ، ويتوقعونه في كل لحظة هم الفلكيون ، وذلك لما عاينوه من قرائن ومشاهدات تعزز وقوعه .

المبحث الثاني
آية الدخان وعلاقتها بالدجال
ونزول كسف من السماء

المعلوم أن الدخان والدجال علامتان من علامات الساعة الكبرى ، و هذا المبحث سيتضمن اجتهاداً في فهم المقصود بعلامة الدخان ، وذلك من خلال مدلولات الآيات القرآنية الدالة على هذه العلامة ، إضافة إلى بعض آثار السلف التي ترشد إلى علاقة بين هذه الآية ونزول كسف من السماء ؛ حيث سيتم من خلال مجموع القرائن في هذا المبحث إضافة للمقدمة الرابعة في المبحث السابق تصور المراد بهذه العلامة ووجه علاقتها بعلامة الدجال ، وطبعاً هذا الاجتهاد يفيد الاحتمال لا الجزم . وتفصيل ذلك في مطلبين على النحو التالي :

المطلب الأول : أهم المعاني التي تتضمنها آية الدخان ومدى علاقتها بكسف من السماء

- يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (١)

شرح :

هذه الآيات سبق بيان المراد بها في مبحث إشكالات وردود ؛ حيث وصلت هناك

---

(١) الدخان:الآيات ١٠ -١٥

إلى نتيجة إلى أن هذه الآية لم تقع بالصورة الحقيقية التي يدل عليها السياق ، والأغلب أنها علامة الدخان التي تعتبر إحدى العلامات العشر الكبار .

والذي يعنينا هنا هو بيان المحاور الهامة التي تضمنتها الآية وهي على النحو التالي :

المحور الأول : قول الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ فارتقب إشارة إلى أن هذه الآية حاصلة لا محالة .

المحور الثاني : وصف الدخان بأنه مبين ؛ أي واضح فيه إشارة إلى أن هذا الدخان حقيقي ، وليس أمراً يتخيله الرائي أنه دخان ، وإلا لو لم يكن حقيقياً لما صرحت بأنه مبين .

المحور الثالث : الآية تشير إلى أن مصدر هذا الدخان هو السماء ، أي يأتي من أعلى ، وليس بالضرورة أن يكون مصدر هذا الدخان من خارج الغلاف الجوي ، والمتتبع للأسلوب القرآني يجد أنه عندما يتحدث عن المطر ينسب نزوله إلى السماء ، مع أن المطر حقيقة تولد في الأرض ؛ إلا أنه لما كانت جهة إنزاله المعهودة من أعلى نسب للسماء .

المحور الثالث : يتضح من الآية أنها أشارت إلى أن هذا الدخان يغشى الناس ؛ والغشيان يتضمن عدة معاني منها الإتيان والتغطية والإفزاع (١) ؛ أي أن هذا الدخان يأتي الناس فيباشرونه بأعينهم ويغطيهم أو يغطي عليهم ، وهذه المعاني كلها تشير إلى أن هذا الدخان ظاهرة حقيقة ملابسة للناس بينهم أو فوقهم ، وتحجب عنهم الرؤية .

المحور الرابع : وصف هذا الدخان بأنه عذاب أليم إشارة واضحة إلى أنه عقوبة فظيعة تصيب الناس ، خاصة أن الواصف لهذا العذاب بأنه أليم هو الله سبحانه وتعالى .

المحور الخامس : دعوة الناس لله بكشف العذاب بدعوى أنهم مؤمنون فيه إشارة إلى أن هذا الحدث يكون جللاً ، ولا يجد الناس لهم مفراً منه إلا باللجوء إلى الله سبحانه

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب (١٢٦/١٥ وما بعدها)]

وتعالى ، فحالهم كحال أصحاب سفينة شارفت على الغرق ووجدوا أهم لا منجى لهم من الله إلا الله ، وسياق الآية يشير إلى أن إيمانهم يعتبر من باب الإيمان الاضطراري الذي يواكب الشدائد ، ويتلاشى بعدها .

المحور السادس : قول الله سبحانه وتعالى بأنه سيكشف العذاب قليلاً إشارة إلى أن هذا الحدث قريب من الساعة ، وهي البطشة الكبرى .

هذه أبرز المعاني التي أرشدت لها الآيات ، وهي تشير إلى دخان حقيقي واضح لا يشك اثنان في كونه دخاناً سيصيب الأرض ويغطي الرؤية على الناس ، وتتضح فيه معالم العقوبة العظمى ؛ لذا يلجأ الناس إلى الله ليكشف عنهم العذاب ، فتبين الآيات أن العذاب سينكشف قليلاً عنهم ، مما يشير إلى قرب هذا الحدث من يوم القيامة ، وهذه المعاني بهذا الوصف لم تقع بعد ، وإشارة الآيات تدل على أنها لا بد ستقع .

- قال الله ﷻ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

- عن عبد الله بن مليكة قال : « غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع النجم ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت . » (٢)

أقول :

هذا أثر صحيح عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه إشارات عظيمة أهمها أنه قرن بين طلوع النجم ذي الذنب وبين آية الدخان التي تعتبر من علامات الساعة، وقد تكون هذه الملازمة بين الأمرين دالة على طبيعة العلاقة بينهما ، أي أن طلوع الكوكب سبب في نشوء آية الدخان . وكذلك فيه إشارة إلى أن آية الدخان تدل على حدث مستقبلي ، وإلا لما فزع ابن عباس من مقولة خروج

---

(١) الدخان : الآية ١٠

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي [المستدرك (٥٠٦/٤)] ؛ وذكره ابن كثير بسنده في تفسيره ، وقال عنه : هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن . [التفسير (١٤٢/٤)] .

الكوكب ، **وكذلك في الحديث إشارة ضمنية بأن آية الدخان تكون قبل خروج الدجال ، وإلا لما فزع فقيه الأمة وحبرها من خروج النجم ذي الذنب لعلمه أن هناك أحداثاً لم تقع قبل هذه الآية كالدجال مثلاً** ، ففزعه فيه دلالة على أنه يتصور وقوع آية الدخان قبل خروج الدجال ، وهذا يتفق مع حديث العلامات العشر الذي ذكر الدخان قبل الدجال ، ويتفق مع اختبار النبي ﷺ لابن صياد بآية الدخان على اعتبار أنه الدجال .

وكذلك يتفق قول ابن عباس مع تصورات علماء الفلك ، وتوقعاتهم حصول هالة ضخمة من الدخان تلف الكرة الأرضية حال نزول نيزك على الأرض .

- عن علي بن عبد الله بن العباس قال: « **لا يخرج المهدي حتى تطلع مع الشمس آية.** » (١)

هذا الأثر الصحيح عن أحد السلف الصالح من التابعين ، وابن حبر الأمة يشير إلى أن من علامات خروج المهدي في آخر الزمان طلوع آية مع الشمس ، ومثل هذا القول ، و إن كان موقوفاً إلا أن له حكم المرفوع ، لأن مثل هذا القول المبني على قضية غيبية لا يتصور صدوره عن اجتهاد أو رأي ، فلا بد أن يكون مرجعه الوحي .

ولم يصرح الأثر عن طبيعة هذه الآية التي تطلع مع الشمس ، وجاء في بعض الآثار ما يستأنس به في توضيح المراد بهذه العلامة ، منها ما ورد عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال : « **إذا رأيتم علامة في السماء نار عظيمة من قبل المشرق تطلع ليالي فعندها فرج الناس ، وهي قدام المهدي** رضي الله عنه . » (٢) وعن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « **إذا رأيتم ناراً من قبل المشرق ثلاثة أيام أو سبعة فتوقعوا فرج آل محمد .** » (٣) وعن كعب قال : « **يطلع نجم من المشرق ، قبل خروج المهدي له ذنب**

---

(١) أخرجه عبد الرازق في مصنفه ، ونعيم في الفتن ، وقال عنه البستوي : **إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات** [البستوي : المهدي المنتظر (٢٢٠)]

(٢) عقد الدرر (١٠٦)

(٣) عقد الدرر (١٠٦)

يضيء . » (١) وعن كثير بن مرة الحضرمي قال : « آية الحدثان في رمضان علامة في السماء ، بدءها اختلاف في الناس ، فإن أدركتها فأكثر من الطعام ما استطعت . » (٢) وعن خالد بن معدان قال : « إنه ستبدو آية عمود من نار ، يطلع من قبل المشرق يراه أهل الأرض كلهم ، فمن أدرك ذلك فليعد لأهله طعام سنة . » (٣) وقال كعب عن الآية التي تظهر في السماء : « هو نجم يطلع من المشرق ، ويضيء لأهل الأرض كإضاءة القمر ليلة البدر . » (٤)

وعن كعب أيضاً : « ونجم يرى به يضيء كما يضيء القمر ، ثم يلتوي كما تلتوي الحية ، حتى يكاد رأساها يلتقيان .. والنجم الذي يرمي به شهاب ينقض من السماء ، معها صوت شديد حتى يقع في المشرق ، ويصيب الناس منه بلاء شديد . » (٥)

وجه الدلالة من مجموع الآثار :

هذه الآثار الواردة عن السلف الصالح سواء كانوا صحابة أو تابعين أو غيرهم إضافة إلى الأثرين الثابتين عن ابن عباس وابنه علي كلها تعزز ما ذكرنا من أن هناك رابطاً بين نجم (۞) يطرق الأرض وبين آية الدخان ، وبعضها يصرح بوقوعه ، وبعضها يصف حال هذا النجم قبل سقوطه بأنه يدور في فلك الأرض أو قريباً منها عدة أيام ، ويضيء

---

(١) عقد الدرر (١١١)

(٢) نعيم : الفتن (١٥٠) وإسناده فيه الوليد بن مسلم ، مدلس ، ولكنه عنعنه هنا

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) نعيم : الفتن (١٥٢) والأثر فيه انقطاع

(٥) نعيم : الفتن (١٦٢) وقال محققه إسناده حسن .

(۞) المعلوم أن كل شيء يضيء في السماء دون القمر يأخذ تسمية نجم في عرف العرب ، والمعلوم أن المذنب في حقيقته ليس نجماً وفقاً للتوصيف العلمي إلا أن العرب يسمونه نجماً ، أما التصنيفات المعهودة لدينا الآن والتي تميز بين المذنب والكوكب والنجم والنيزك فهي توصيفات معاصرة لم يعهدها العرب بهذا الشكل قديماً ؛ لذا يعمد في تفسير هذه الآثار وفق الإطلاق اللغوي للأشياء قديماً .

لقربه إضاءة شبيهة بإضاءة القمر ، وبعض هذه الآثار يشير إلى النتائج المدمرة التي تترتب على وقوعه على الأرض ؛ لدرجة أن بعضهم أشار إلى ضرورة تخزين الطعام لسنة كاملة ، وهذه الآثار بهذا التوصيف تتفق في مدلولاتها مع ما يتصوره علماء الفلك في حالة سقوط نيزك على الأرض .

📖 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ (١)

شرح :

هذه الآية وإن جاءت في معرض الرد على كفار قريش - كما يرى بعض علماء التفسير (٢) - ، وتتضمن تهديداً لهم ، إلا أن فيها إشارة عجيبة ، وهي الربط بين رؤية قطعة كبيرة من الحجارة ساقطة وبين السحاب الأسود الكثيف المتراكم ، وهذا المعنى أشار إليه علماء الفلك بقولهم : إن نزول نيزك على الأرض كفيل بخلق سحابة شديدة من الدخان المتراكم تحجب رؤية الشمس جزئياً أو كلياً ، وبذا نلحظ مدى الدقة العجيبة ومدى التوافق والمطابقة بين قول علماء الفلك ، وبين ما تذكره الآية على ما يترتب على سقوط كسف من السماء ، و كذلك ما تذكره الآية في سورة الدخان من أن الدخان يغشى الناس ؛ أي يغطي على أعينهم ، ويكون فيه عذاب أليم .

والآية بهذا التوصيف كأنها تشير إلى حدث ستقع فيه البشرية على وجه التحقيق ، ويقع منهم هذا القول ، وهذا ما لم يحصل مع كفار قريش .

والعجيب أن هذه الآية قد جاءت بعد خمسة عشر استفهاماً دالاً على تعنت الكفار وغطرستهم وغرورهم ، وتفننهم في الجحود والكفر ، وتحمل في طياتها غضب رباني على حالهم ، والأعجب من ذلك أن بعد هذه الآية بخمس آيات أقســم الله

(١) الطور:٤٤

(٢) انظر الشوكاني : فتح القدير (٥/١٠٠ وما بعدها)

سبحانه وتعالى بنجم يسقط ، أو بالنجم إذا هوى . (✽)

المطلب الثاني
وجه العلاقة بين الدجال وآية الدخان

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : مَا تَذَاكَرُونَ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا .. ﴾ (١)

(✽) من تأمل سورة النجم يجد فيها إشارات عجيبة :

الإشارة الأولى : ترتيبها بعد سورة الطور التي تحكي نزول كسف مبرزة أهم أثر يترتب على سقوطه

الإشارة الثانية : بداية السورة بقسم رباني ، وهذا القسم كان بنجم يسقط من السماء وصيغة الإفراد هنا فيها دلالة على حدث معين ، وليس على ظاهرة الشهب التي يتناسب معها القول والنجوم إذا هوت ليتفق مع نسق القسم القرآني كقوله تعالى والنجوم إذا طمست ، وإذا النجوم انكدرت ، ولا أقسم بمواقع النجوم .

الإشارة الثالثة : الغرض من القسم هو التأكيد على أن محمداً مرسل من ربه وأن ما ينطق به هو من الوحي وليس من الهوى ، وهذه الآيات نذكرها ونؤمن بها ، وخلاصة تصورنا لها أن الله أقسم بأحد مخلوقاته للتأكيد على صدق نبوة محمد ، لكن لو فرضنا نزول نيزك على الأرض ومثل هذا النيزك في عرف لغة العرب يطلق عليه نجم ، فماذا سيكون لسان حال المؤمنين أو مقالهم ، مباشرة سيقولون نحن أمام آية أخبر بها محمد ﷺ من خلال القرآن ، وهذا من دلائل نبوته ، وها هو النجم يهوي ؛ إذا هذا النبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؛إذا لا يتصور من المؤمنين حال سقوط هذا النجم إلا أن يرددوا نفس الكلمات التي جاءت بعد القسم .

الإشارة الثالثة : أعاد الله سبحانه وتعالى ذكر النجم عند حديثه عن عقوبات الأمم السابقة ، وبدأ بذكر عاد الأولى مما يوحي بأن هناك عاد أخرى من حيث المواصفات ستصيبها عقوبة ربانية .

الإشارة الرابعة : أنها ختمت بذكر الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة ؛ والآزفة معناها القريبة ، والعلماء على أن المراد بها يوم القيامة ، وفي ظني أنها إشارة إلى حدث جلل قبل القيامة وقريب منها ، وشبيه فيه من حيث التأثير ؛ لذا جاء تسميته هنا بالقريب .

الإشارة الخامسة : جاء بعد ذكر الآزفة التي ختمت بها سورة النجم مباشرة الإشارة إلى اقتراب الساعة ، وذلك في بداية سورة القمر

(١) سبق تخريجه

أقول :

هذا الحديث سبق شرحه ، والذي يعنينا هنا القول بأن هذا الحديث بكل رواياته لم تذكر فيه العلامات العشر على سبيل الترتيب إنما على سبيل الجمع فقط ، والملاحظ في هذه الرواية أنها بدأت بآية الدخان قبل الدجال ، ولكن لا يعول على ذلك هنا ، ويستفاد الترتيب بين هذه العلامات من قرائن أخرى ، والمهم ذكره هنا أن الدخان تعتبر علامة من علامات الساعة العظمى ، وهي حاصلة لا محالة قبل قيام الساعة .

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ﴿ ..ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أي لابن صائد - إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئَةً وَخَبَأَ لَهُ (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث هو أحد روايات عدة تبرز طبيعة الخطاب الذي كان بين النبي ﷺ وبين ابن صياد ، وقد أراد النبي ﷺ أن يستعلم حقيقة خبر ابن صياد ، هل هو الدجال أم لا ؟ والشاهد في هذا الحديث أن النبي ﷺ قد أضمر شيئاً وهو آية الدخان ، فعرفها ابن صائد .

والسؤال الذي يطرح هنا هو : ما سبب اختيار النبي ﷺ لهذه الآية على وجه الخصوص ؟ والوضع الطبيعي أن يخبئ النبي ﷺ خبيئة حسية كسهم أو قطعة قماش أو غيره ، فهذا هو الوضع المتصور للخبيئة ، لكن لاحظنا أن الخبيئة كانت الآية التي تتحدث عن مجيء الدخان من السماء .

ولعل في ذلك إشارة نبوية إلى أن من علامات خروج الدجال حصول آية الدخان قبله ، وقد تكون آية الدخان هي الممهدة لخروج الدجال ولها علاقة بالقحط

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ، برقم ٤٣٠٧ [عون المعبود (٤٨١/١١)] وصححه الألباني [سنن أبي داود للألباني ، حديث رقم ٤٣٢٩]

الذي يصيب الأرض ، ولها علاقة بتقارب الزمان قبل الدجال ، ثم تباعده في الأيام الثلاثة الأولى للدجال ، ولها علاقة بسنوات الزلازل الناتجة عن اضطراب غير معهود بحال الأرض ، وقد يكون لها علاقة بانتشار الهرج المترتب على القحط .

والمهم هنا معرفة أن هناك علاقة بين الدجال ، وآية الدخان ، وفي الأغلب أن العلاقة هي كون آية الدخان ممهدة لخروج الدجال ، وهذا هو وجه إضمار النبي ﷺ لهذه الآية بالذات لابن صياد . (✽)

📖 - عن سمرة بن جندب ﷺ عن رسول الله ﷺ في خطبته بعد كسوف الشمس حيث قال : ﴿ .. أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ رِجَالًا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ وَكُسُوفَ هَذَا الْقَمَرِ ، وَزَوَالَ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَطَالِعِهَا ، لِمَوْتِ رِجَالٍ عُظَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْتَبِرُ بِهَا عِبَادُهُ ، فَيَنْظُرُ مَنْ يُحْدِثُ لَهُ مِنْهُمْ تَوْبَةً ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ قُمْتُ أُصَلِّي مَا أَنْتُمْ لَاقُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ كَذَّابًا آخِرُهُمْ الْأَعْوَرُ الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى ... وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا وَحَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَلَى مَرَاتِبِهَا – وفي رواية الحاكم وابن أبي شيبة : عن مراسيها – ﴾ (١)

الشاهد في الحديث :

- هذا الحديث الذي ذكره النبي ﷺ في خطبة له بعد كسوف الشمس ، وجله يتحدث عن فتنة الدجال وتفاصيلها ، ويعنينا في هذا المقام آخره وهو أن الدجال لن يخرج إلا

(✽) تستطيع مراجعة المبحث الخاص بابن صياد ففيه تفصيل يعينك على فهم وجه الاستدلال الذي ذكرته هنا .

(١) أخرجه أحمد في أول مسند البصريين برقم ٢٠١٩٩ [المسند (٢٢/٥)] وابن أبي شيبة برقم ٣٧٥١٣ [المصنف (٤٩٦/٧)] ؛ والبيهقي برقم ٦١٥٤ [السنن الكبرى (٣٣٩/٣)] ؛ والطبراني في الكبير برقم ٦٧٩٩ [المعجم الكبير (١٩٢/٧)] ؛ والحاكم برقم ١٢٣٠ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [المستدرك (٤٧٨/١)] قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ثعلبة بن عباد ، وثقه ابن حبان [مجمع الزوائد (٣٤٢/٧)]

بعد أن يرى الناس أموراً عظيمة غير معهودة يعظم أثرها في الأمة ، وتكثر حولها الأسئلة ، أو البحث عن آثارة من علم النبوة ترشد إليها ، أو تخبر عنها ، وفي هذا إشارة إلى أنه يعظم على أفراد الأمة وقوع مثل هذه الأمور المهولة المزلزلة دون أن يكون لها ذكر في سنة النبي ﷺ ، ولعل الفتنة العظيمة التي تعيشها الأمة اليوم من هذا القبيل ؛ حيث حار كثير من العلماء في إيجاد توصيف أو تفصيل دقيق لها في السنة النبوية .

- كذلك في الحديث إشارة إلى زوال جبال عن أماكنها قبل الدجال ، وهذا يحتمل أمرين وفق تصوراتنا وهما :

الأمر الأول : زوال الجبال إشارة إلى عصرنا التكنولوجي .

قد يكون زوال هذه الجبال إشارة إلى المدنية المعاصرة وترسانتها التكنولوجية التي أزالت كثير من الجبال لإنشاء المدن وما شابه ذلك ، فالملاحظ أن هذا العصر هو أسهل العصور في إزالة الجبال ، وكذلك يلحظ أنه العصر الأوفى حظاً في إزالة كثير من الجبال التي كانت معالم راسخة من آلاف السنين .

الأمر الثاني : زوال الجبال نتيجة لحدث كوني يؤثر في توازن طبقات الأرض .

هذه الجبال تزول عن أماكنها نتيجة لتغيرات جيولوجية ضخمة تتعرض لها الأرض تؤثر في الجبال وتنسف بعضها أو تغير من معالمها .

ودلائل سياق الحديث يعزز كون الأمر الثاني هو الأرجح لسببين :

الأول : السياق أسند الزوال للجبال نفسها مما يعزز أنه ليس بفعل البشر .

الثاني : الحديث يشير إلى إرهاصات وتغيرات غير معهودة بين يدي الدجال ، فناسب ذلك أن تكون بغير فعل البشر .

خلاصـــة هذا المبحث

١- آية الدخان واقعة قبل قيام الساعة وهي أحد علاماتها العظام ، والآية القرآنية في سورة الدخان تدل على أنه دخان حقيقي واضح يطرق الناس ويغطي عليهم الرؤية ، ويصيبهم منه عذاب أليم ، وهذا العذاب يلجئهم إلى الإيمان الاضطراري،فيرفع الله عنهم العذاب مبيناً أن كشف العذاب لن يدوم طويلاً ، وكأن الأمر يتعلق بقيامة صغرى بين يدي القيامة الكبرى ، وهذه القيامة الصغرى تبدأ بالعلامات العظام للساعة ، والتي أولها الحدث الكوني المتعلق بآية الدخان ، ولعل هذه القيامة الصغرى هي نفسها الآزفة المذكورة بصورة النجم ، خاصة أن معنى الآزفة « القريبة » .

٢- الآية في سورة الطور تربط بين نزول كسف (نيزك أو ما شابه) من السماء وبين سحاب كثيف متراكم يتراءى للناس ، ودلائل الآية تشير إلى أنها أمر مستقبلي حاصل ؛ لأن الآية تحكي قول الناس عند رؤيته ، وبعد هذه الآية بخمس آيات تبدأ سورة النجم التي يقسم الله في بدايتها بنجم يسقط من السماء وتختم بذكر أزوف الآزفة أي القريبة .

٣- هناك عدة آثار عن السلف الصالح تربط بين آية الدخان وبين طروق نجم من السماء ، وبعضها يشير إلى أنه آية عظيمة مؤثرة بشكل كبير على الكرة الأرضية ، وأقوال السلف تتفق بصورة كاملة مع ما يذكره علماء الفلك عن نتائج سقوط نيزك .

٤- هناك علاقة واضحة بين علامتي الدخان والدجال ، ونجد هذا الارتباط من خلال لقاء النبي ﷺ لابن صياد وسؤاله على وجه الخصوص عن آية الدخان ، وكان الهدف من هذا اللقاء كشف حقيقة ابن صياد من حيث كونه الدجال أم لا .

٥- هناك آثار كثيرة تشير إلى تغيرات عظيمة تطرأ قبل خروج الدجال منها الآثر المذكور في هذا المبحث ، والذي يشير إلى تلك الأمور العظام دون تفصيل ، ثم يشير إلى زوال الجبال ، والأرجح أن زوال جبال يكون نتيجة حدث جلل يصيب الكرة الأرضية .

المبحث الثالث
الإشارات النبوية التفصيلية المعززة لاحتمالية سقوط كسف من السماء

هذا المبحث يتعلق بصورة مباشرة بالمبحث الأول ، خاصة في المقدمة الأولى والرابعة فيه ويتضمن بعض الأحاديث النبوية التي ذُكرت كإشارات مستقبلية وبالنظر لهذه الإشارات نجد أنها تتطابق فعلاً مع تصورات علماء الفلك للنتائج المترتبة على نزول نيزك .

الإشارة الأولى : القحط العظيم الذي سيصيب الأرض .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه قَالَ : ﴿ لَيْسَتِ السَّنَةُ - أي القحط - بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا ، ولَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وتُمْطَرُوا ولَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا ﴾ (١)

- عَنْ أنس ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سيأتي على الناس زمان تُمْطِرَ السَّمَاءُ مَطَراً ولَا تُنْبِتَ الْأَرْضُ . ﴾ (٢)

شرح

هذان الحديثان يعتبران من أقوى الأدلة على نزول كسف من السماء ، وهما يشيران إلى أمر ثبت علمياً أنه متوقع بعد نزوله .

ولكي يتضح لنا كيفية توجيه هذا الدليل أقول : إن الوضع الطبيعي أنه إذا توفرت سنن الإنبات وقوانينه حصل الإنبات ، ولكي يتم إنبات نبتة ما فهي بحاجة إلى ثاني أكسيد الكربون و ضوء وتربة وماء .

والتربة موجودة ، والمطر كما يشير الحديث حاصل ، ولكن دون أن تنبت الأرض ، إذا هناك سنة من السنتين الباقيتين قد عطلت ، بما يترتب عليه منع ظاهرة الإنبات ، والأرجح أنها حجب الضوء عن الأرض .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٠٤ [انظر مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٢٨)] ، وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٧٢٤ [المسند (٢/٤٧٦)

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٥٦٧ ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٥٩)]

يقول علماء الفلك أنه بعد نزول نيزك ترتفع هالة من الدخان الشديد تغطي الكرة الأرضية ، وتحجب عنها الشمس سنة كاملة على الأقل ، فيترتب على ذلك القضاء على الغطاء النباتي ، ومنع ظاهرة الإنبات إما بشكل كلي أو نسبي .

وهنا نلحظ مدى التطابق الشديد بين توصيف العلماء والهدي النبوي الدال على امتناع ظاهرة الإنبات بالرغم من نزول المطر ، وهذا الوضع هو الذي اعتبره النبي ﷺ السنَة أو القحط ، ولم يعتبر عدم نزول المطر نفسه هو القحط ، وهذا كلام عجيب فيه أسرار عجيبة جداً تدل على مدى الدقة النبوية في توصيف المستقبل .

وبالفعل ليست السنة أو القحط ألا نمطر ، لأن هذا حالة طبيعية بالكرة الأرضية تصيب مكاناً محدوداً لفترة محدودة ثم يكون المطر بعد ذلك ، أو على الأقل يبقى في الغالب جزء من الغطاء النباتي إما في المكان نفسه أو في الأماكن القريبة منه ، و هذا القحط الطبيعي لا يمنع من حصول الإغاثة ، فهذه ظاهرة طبيعية نسميها قحطاً من باب المجاز.

لكن القحط حقيقة هو بنزول المطر دون أن تنبت نبتة واحدة على الأرض ، فهذا هو القحط ، ولا قياس بين القحطين .

📖- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « **للدجال آيات معلومات إذا غارت العيون ونزفت الأنهار واصفر الريحان ، وانتقلت مذحج وهمدان من العراق فنزلت قنسرين فانتظروا الدجال غاديا أو رائحا .** » (١)

أقول :

هذه العلامات كلها تشير إلى حالة قحط غير معهودة ، وهي بين يدي الدجال ، وفيها إشارة إلى سنوات القحط الثلاث التي بين يدي خروج الدجال ، و هذا الأثر يعيننا على فهم المراد ببعض أسئلة الدجال لتميم ومن معه عن نخل بيسان وعن عين زغر ، فهو قد سألهم عن مواقع يعرفونها في بلادهم ، فأشار إلى غور المياه وانقطاع النبات فيها ،

(١) أخرجه الحاكم في الفتن ، وقال عنه : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤/٥٠٦)]

وهذا الأثر يوضح أن الأمر يكون عاماً ، يعصف بأماكن واسعة ، وهذه حالة غير طبيعة أو معهودة ستعصف بالأرض ، ولعلها تكون بعد آية الدخان .

كذلك في هذا الأثر إشارة عجيبة جداً **وهي اصفرار الريحان** ، وهذا له سببان إما قلة المياه ، وإما حجب الضوء عنه ، بما يترتب عليه ضعف عملية التمثيل أو البناء الضوئي ؛ وإذا كان السبب المقصود هو الثاني فذلك يعزز ما ذكرنا سابقاً من نتائج مترتبة على حجب الدخان لشعاع الشمس،ويكون شاهداً لحديثي أبي هريرة وأنس عن القحط .

الإشارة الثانية : حجارة مسومة من السماء شبيهة بحجارة قوم لوط عليه السلام .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُمْطَرَ النَّاسُ مَطَرًا لَا تُكِنُّ مِنْهُ بُيُوتُ الْمَدَرِ وَلَا تُكِنُّ مِنْهُ إِلَّا بُيُوتُ الشَّعَرِ . » (١)

شرح الغريب :

تُكِنّ : الكن وقاء كل شيء وستره ، والكن ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن . (٢)

شرح :

بيوت المدر هي البيوت المبنية من الحجارة المطبوخة ، ويراد بها هنا الحضر أو المدن ، أما بيوت الشعر فكناية عن تلك البيوت التي يتخذها البدو أو أصحاب البادية .

و الوضع الطبيعي المعهود أن بيوت المدر أو بيوت الطين والخرسانة أكثر حفظاً لأهلها من بيوت الشعر ، **وهذا أمر معلوم .**

لكن الغريب في هذا الحديث أنه أشار إلى مطر لا تحفظ منه بيوت المدن أو البيوت المصنوعة من الحجارة ، بينما تحفظ منه بيوت الشعر .

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٧٢٤٨ ؛ وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٧٧٠ ، وقال محققه : حديث صحيح [صحيح ابن حبان (١٧٤/١٥)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣١/٧)] وقال العدوي عن إسناد أحمد : إسناده حسن [المسند الصحيح (٤٢١)]

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب (٣٦٠/١٣)]

وهذا أمر غريب مخالف للمعهود والتجربة ، وقد تحار الأذهان في تصور المراد بالحديث ، فأي مطر هذا الذي لا تحفظ منه البيوت المبنية من الحجارة بينما تحفظ منه بيوت الشعر ؟

ولكي لا نحار في تأويل الحديث ، أقول في هذا الحديث إشارة عجيبة جداً تعزز ما ذكرت سابقاً من احتمالية سقوط حاصب من السماء .

وحتى يتضح لنا الأمر أقول : من تتبع سياق الآيات القرآنية يجد أن لفظة مطر بجميع تصريفاتها [أمطرناهم – مطراً – أُمطرت – أمطرنا] في أغلب الآيات لم تستخدم إلا للدلالة على الرجم بحجارة من السماء ،وأكثر ما ذكرت هذه اللفظة كان للدلالة على ما أصاب قوم لوط. (✽)

إذا هذه اللفظة القرآنية لا يراد بها المطر المعهود بالماء ؛ إنما يراد به الرجم بحجارة سماوية ، وهذه الحجارة جاء توصيفها كما في قصة قوم لوط بأنها مسومة ، أو من سجيل ، ومن معاني اللفظتين أن كل حجر مكتوب عليه أو مسجل عليه من يستحق به العقاب ، أو بعبارة أخرى هي حجارة موجهة بدقة من السماء ؛ بحيث لا تخطئ هدفها أبداً ، ولئن تصورنا بعض الدقة في التوجيه من البشر في عصرنا التكنولوجي بما يعرف بالصواريخ الذكية ، واستعظمنا قدرتهم، فكيف لو وجهت هذه الحجارة بقدرة الحكيم الخبير ؟

وعليه يمكن القول أن استخدام لفظة المطر للكناية على الرجم بحجارة من السماء ، هو تعبير قرآني ، فإذا أضفنا لذلك طبيعة الإمطار بالحجارة من السماء وأوصافها سهل علينا فهم المراد بالحديث .

فالحديث يشير إلى عقوبة ربانية تصيب المدن على وجه الخصوص ، وينجو منها أهل البوادي ، وسبب هذا التمييز معروف وهو أن هذه الحجارة هي عقوبة ربانية على معاصي معينة ، ودلالة الواقع تشير إلى أن المعاصي والترف والمهلكات الموجبة للعذاب

(✽) راجع المقدمة الأولى في المبحث الأول ففيها توصيف بالدليل لما أصاب قوم لوط .

موطنها المدن لا البوادي ، وهذا ملاحظ معلوم في زماننا ، ولا يماري فيه اثنان، وحال المدن خاصة الكبرى لا يخفى على أحد.

إذا الحديث يشير إلى مطر رباني مسوم [أي موجه بحكمة ، وليس ضربة عشوائية بفعل الطبيعة كما يزعم الماديون] من الحجارة يصيب الله سبحانه وتعالى به أهل الحضر والمدن على وجه الخصوص بسبب معاصيهم الموجبة للعذاب ، بينما هذا المطر لا ينال أهل البوادي لعدم توفر المعاصي الموجبة للعقوبة في حقهم . (✿)

ملاحظة :

ليس المراد من الحديث كما يتبادر فهمه للبعض أن هذا المطر الذي لا تحفظ منه بيوت الحجر وتحفظ منه بيوت الشعر أن المطر يترل على كلا النوعين ، بل فيه إشارة إلى أن الحافظ من هذا المطر هو الخروج من أرض الموبقات ، وبيوت المدر كناية عن المدن التي ستنتشر بها الموبقات وإشارة إليها ، أما بيوت الشعر فهو كناية عن البادية التي لا يصيب أهلها هذه الحجارة الماطرة والمسومة .

(✿) ما يذكر بخصوص الحجارة يقال بخصوص أي عقوبة ربانية ، ولعل موجة تسونامي التي عصفت جنوب شرق آسيا تصور لنا كيف يكون العذاب الموجه نحو أناس دون آخرين ، فهذه الموجة التي كانت سبب عذاب أو تنكيل بالبعض كانت نفسها سبب نجاة لغيرهم ؛ حيث رأينا عبر شاشات التلفاز كيف حملت هذه الموجة بعض الأطفال وألقت بهم فوق سطح المنازل أو الأشجار ، وكيف عصم الله اللاجئين للمسجد بينما دمر كل ما حولهم .

المبحث الرابع
علامات أخرى يحتمل أن تكون مترتبة على وقوع حدث كوني

هذه بعض العلامات المستقبلية التي لم يتم تحديد المراد بزمن وقوعها ، ولكن يتوقع أن يكون لها علاقة بالحدث الكوني ؛ خاصة أنها تتضمن قرائن عدة تعزز من كونها واقعة بعد أمر عظيم أو تغيرات غير معهودة بالكرة الأرضية .

العلامة الأولى : عودة الغطاء النباتي الكثيف لجزيرة العرب .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى تغيرات طبيعية جوهرية في الكرة الأرضية ،يترتب عليها تغير مناخ الأرض بشكل كلي ؛ إذ لا يتصور وفق فهمنا تصور تحول جزيرة العرب إلى مروج تجري بينها الأنهار إلا إذا كان هناك تغير جذري في المناخ ، والأمر وفق المعطيات المعاصرة غير مستبعد .

كذلك الحديث فيه دلالة على أن الجزيرة العربية في العصور الساحقة كانت مروجاً وأنهاراً ، وقرينة ذلك استخدام لفظة « تعود » الدالة على رجوع الشيء إلى سابق عهده الذي كان عليه ، ويعزز ذلك المعنى ما وجد في جزيرة العرب من بحيرات بترولية تحته ، والتي يرى العلماء أنها تكونت بسبب تحول مواد عضوية لحيوانات ونباتات مما يشير إلى وجودها بكثرة في ذلك المكان في الماضي .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة برقم ١٥٧ [مسلم بشرح النووي (٤/ ١١٦)]

ولفظة تعود تشير إلى ما ذكرت ، ولو كان المعنى غير ذلك لاستخدم النبي ﷺ كلمة تتحول الدالة على تغير شيء عن سابق عهده .

ورأيت لبعض الشراح خاصة المعاصرين من يرى أن هذه العلامة يراد بها ما نراه من كثرة الآبار ومن العمران الموجود في الجزيرة ، ويتعسف القول بتحليلات لا تسلم منها إسقاط الحديث على محاولات حكومات الجزيرة العربية لتحويل مجرى نهري من العراق أو غيرها أو جر جبل جليدي إلى الجزيرة العربية ..إلخ

والملاحظ أن هذه التحليلات متعسفة ، والحديث نفسه يتضمن قرينة مانعة من الأخذ بها ؛ إذ يتصور نتيجة لجر جبل جليدي أو تغير مجرى نهر أن تكون بعض المروج مع بعض الجداول في بعض المناطق ، لكن الحديث أشار إلى تحول أرض العرب بأكملها إلى مروج وأنهار (۞) ، وهذا السياق لا يتفق مع تلك التحليلات ، والذي حمل البعض عليها هو صعوبة تصورهم لأمر ألفوا غيره ؛ وهو تلك الصحراء القاحلة كيف تتحول إلى بساتين وأنهار .

وفي تصوري أن ما ألفه الإنسان من ثبات نسبي في المناخ والطبيعة ليس على إطلاقه ، وتاريخ الكرة الأرضية يشهد لتغيرات جوهرية وقعت بها فمن عصر جاف إلى عصر مطير إلى عصر جليدي ، وهذه التغيرات غير بعيدة عن الكرة الأرضية .

وأي تحول في مسار الكرة الأرضية ، أو انحراف مغناطيسي لها ، كفيل بإذابة القطبين ، وتغيير المدارات وخطوط العرض ، ومثل هذا التغير ليس مستبعداً ، فالأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، وما ألفه الإنسان لا يبقى على حاله ، و التنبؤات العلمية الصادرة

(۞) من نظر إلى سياق الحديث ومدلولات عباراته يعلم أن المراد به تحول كل الجزيرة العربية إلى مروج وأنهار ، فنص العبارة المذكورة « وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا » بجعل كلمة مروج تمييزاً لأرض العرب ، وهذا أسلوب يعرفه البلاغيون ، ولو كان المقصود به بعض المروج لكانت العبارة السابقة بشكل آخر ؛ أي لقال النبي ﷺ « تعود المروج والأنهار إلى جزيرة العرب » ولعل أقرب مثال توضيحي هو قول الله في حق زكريا : « واشتعل الرأس شيباً » فهذا التعبير يشير إلى أن الرأس كله تحول إلى الشيب ، وهي أبلغ في التعبير من القول « اشتعل شيب الرأس » التي تدل على حصول الشيب دون عمومه .

هنا وهناك لعلماء فلك أو مناخ أو طبيعة ، يتصورون مثل هذا الأمر .

وجه علاقة هذه العلامة بالحدث الكوني :

الحديث يشير إلى تغير غير معهود أو حتى غير متصور في ظل منظومة السنن الكونية الحالية ، لكنه يتصور حال تغير هذه المنظومة ، وتغير المنظومة كاملة لا بد أن يكون نتيجة لحدث جلل يعصف بالكرة الأرضية ويؤثر عليها على وجه العموم ، وهذا يبرز لنا وجه العلاقة بين هذه العلامة وبين الحدث الكوني ، حيث إن ضرب كسف للأرض كفيل بتغيير كل القوانين التي تحكم مناخها ، بما يترتب عليه تغير جذري في كل ما نعهده الآن ، و دخول الأرض في دورة مناخية جديدة لها سننها المغايرة عما سبق الحدث ، و من هذه التغيرات المترتبة على منظومة السنن الجديدة ما يقع للجزيرة العربية من عودة مناخها القديم المطير ، وما يترتب على ذلك من جريان الأنهار وانتشار الغطاء النباتي .

العلامة الثانية والثالثة : فناء كبير يعقبه اضطراب جيولوجي في صفائح الأرض

- عن عبد الله بن حوالة ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ﴿ يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ أَرْضَ الْمُقَدَّسَةِ فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ . ﴾ (١)

- عن سَلَمَةُ بْنُ نُفَيْلٍ السَّكُونِيُّ قَالَ : قال رسول الله ﷺ : ﴿.. بَلْ تَلْبَثُونَ حَتَّى تَقُولُوا مَتَى ؟ وَسَتَأْتُونَ أَفْنَادًا يُفْنِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَبَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مُوتَانٌ شَدِيدٌ وَبَعْدَهُ سَنَوَاتُ الزَّلَازِلِ . ﴾ (٢)

شرح :

هذا الحديثان يشيران إلى علامتين قد يكون لهما علاقة بنزول كسف من السماء ، وهما :

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

العلامة الأولى : الموت شديد :

الحديث فيه إشارة إلى حصول موت شديد في الأرض ، وقد عبر عنه الحديث بعبارة الموتان (*) الشديد بين يدي الساعة ، وهذا الوصف يتناسب مع ما ذكره علماء الفلك من توقعاتهم أن الساعات أو الأيام الأولى من نزول نيزك يترتب عليه موت ملايين البشر ، ثم يعقب ذلك أوبئة وقحط ومجاعة تأكل العدد الأكبر من البشرية ، وهذه الأوصاف تتفق من حيث المحصلة مع قول النبي ﷺ موتان شديد .

وهذا الموتان هو غير الموتان الذي جاء ذكره في حديث سابق ذكرته في الفصل الأول من الكتاب ؛ لأن الموتان السابق لم يوصف بكونه شديداً ، و صيغة الحديث السابق أنه خاص بأمة محمد ﷺ أو بالصحابة من الأمة على وجه الخصوص ، ومن أوصافه أنه يأخذهم كقعاص الغنم مما يشير إلى أنه وباء ، وقد سبق اعتباره دالاً على طاعون عمواس .

أما الموتان هنا ، فهو بين يدي الساعة ، وهو عام ، لا يخص أمة محمد ﷺ ، وشديد يهلك بسببه جمع عظيم ، و ارتبط بعلامة بعده مباشرة ، وهي سنوات الزلازل .

العلامة الثانية : سنوات الزلازل .

- هذه العلامة تتعلق مباشرة بأمرين : الأول : الموتان الشديد ؛ حيث تكون بعده مباشرة ، والثاني نزول الخلافة بيت المقدس ،حيث تكون إما مواكبة لها أو قبلها بقليل كما صرحت بعض الآثار أو خلالها كما صرح الحديث السابق ، وخلافة بيت المقدس لها علاقة بالعالمية الثانية للإسلام في عهد المهدي ﷺ .

(*) قد يظن البعض أن لفظة موتان تشير إلى المثنى ؛ أي حدثين يتضمنان موت شديد ، وبعضهم أسقط الحديث على الحربين العالميتين ، وهذا وهم منه ، فالموتان مفرد وليس جمع ، وهي لفظة مرادفة لكلمة الموت ، فالموت والموتان من أسماء الوفاة ، يقول ابن منظور : الموت والموتان ضد الحياة [لسان العرب (٩٠/٢)] ولو كان يراد بهذه اللفظة الإشارة إلى موتتين لجاءت الصفة بعدها بصيغة المثنى [موتان شديدان] ومجيئها بصيغة المفرد يدل صراحة على أنه يراد به موت شديد ؛ أي حدث واحد وليس اثنين ، لكن يلاحظ أن لفظة الموتان تستخدم في الأغلب للدلالة على الحالات التي يكثر فيها عدد الموتى بشكل لافت .

- المراد بسنوات الزلازل ، سنوات معينة تضطرب بها الأرض بصورة ملحوظة ، بحيث يصدق عليها هذا الوصف ، وهذه السنوات لم تأت بعد ، وفيها إشارة إلى اضطراب غير معهود في الكرة الأرضية ، وليس كما يدعي البعض من أننا نعيش الآن زلازل عدة يصدق فيها هذه العلامة ؛ لأن ما نعيشه ، وما عاشه أسلافنا في السابق من زلازل هي حالة طبيعية في الكرة الأرضية ، لا يصدق فيها القول أنها غير معهودة ، وطبعاً حديثي من اعتبار الزلازل حالة طبيعة لا يعني نفي كونها رجفات عذاب ، إنما قصدي أن هذه الظاهرة في عصرنا لم تأخذ شكلاً غير معهود يصدق فيه الوصف بأنها سنوات زلازل .

والمعنى الطبيعي المتبادر لنا من قول الرسول ﷺ هو أن هناك سنوات مخصوصة تكون الأرض فيها غير مستقرة بأهلها ؛ بحيث يكثر اهتزازها ، و تزلزلها بشكل غير معهود ، والسؤال الذي يطرح هنا : **ما هو الحدث الذي سيؤثر على الكرة الأرضية أو صفائحها الصخرية** .

- الملاحظ من الحديث الأول أن هناك علاقة بين الزلازل والأمور العظام ، وبين نزول الخلافة بيت المقدس ، وفي الأحاديث السابقة كان هناك ربط بين خروج المهدي وعلامة في السماء ، مما يشير إلى أن هناك علاقة بين الأمور الثلاثة السابقة ، ويكون الترتيب ، نزول كسف من السماء يخل بجيولوجيا الأرض ويؤثر على صفائحها الصخرية ، موتان عظيم ، تغير في حال البشرية وموازين القوى ، انتشار القحط والهرج ، خروج المهدي ، نزول الخلافة بيت المقدس ، تزلزل الأرض واضطرابها ويعزز ما ذكرت هذا الشاهد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزَلَازِلَ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا . ﴾ (١)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين ، وفي أحد رواته مجهول ، وكذلك أخرجه الإمام أبو عمرو المقري في سننه ، وذكر لفظة زلزال بدل زلازل ؛ و أخرجه الحافظ أبو نعيم في صفة المهدي [انظر عقد الدرر (٦٢)]

فهذا الأثر يعزز ما ذكرت في الربط بين الزلازل وبين خروج المهدي ، ويكون المراد بنزول الخلافة بيت المقدس في سنوات الزلازل ما يكون في عهده ﷺ ، أما الاختلاف بين الناس فله علاقة بعلامة الهرج السابق بيانها والتي يشتد أوارها عند حسر الفرات .

العلامة الرابعة : تقارب الزمان .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ الْخُوصَةُ . ﴾ (١)

هذه العلامة سبق شرحها ، وخلصت هناك إلى نتيجة ، وهي أن تقارب الزمان على حقيقته ، وليس مجازياً (❁) ، مما يشير إشارة صريحة إلى أن هناك اضطراباً ملحوظاً سيطرأ على حركة الكرة الأرضية ، ويسرع فيها حالة الدوران .

و وفق مستجدات العلم يمكن تصور ذلك في حال اضطراب حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وهذا الاضطراب غير متزن أي لا يكون على نسق واحد ، فتسرع الأرض في دورانها حول نفسها ، وتسرع أيضا في دورانها حول الشمس ، فبدلاً من أن تدور الكرة الأرضية حول الشمس ،مرة كل اثنا عشر شهراً ، تقضي هذه المسافة في شهر واحد .

وفي ظني أن النبي ﷺ ذكر هذه النسب للتقريب وليس للتحديد ؛ أي أراد النبي ﷺ أن يبين للصحابة تغير النسب الزمنية للوقت ، فجاء بمثال يقرب المعنى ، حيث قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين برقم ، والحديث إسناده حسن و له شاهد عند الترمذي عن أنس ﷺ [العدوي : الصحيح المسند (٤١٧)] و صححه الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٣٣٢ ، وفي صحيح الجامع الصغير المجلد الثاني برقم ٧٤٢٢

(❁) راجع الفصل الثاني من الباب الأول حيث فصلت هناك القول في هذه العلامة وذكرت كل الاحتمالات التي ذكرها العلماء في تصورهم لها ، وناقشت كل هذه الاحتمالات مبيناً القرائن الدالة على سبب ترجيحي لكون هذه العلامة على حقيقتها .

السنة كالشهر والشهر كالأسبوع ..إلخ

وإذا ربطنا هذه العلامة بما يقع في زمن الدجال ؛حيث يكون يومه الأول كسنة ويومه الثاني كشهر أصبح عندنا تصور إلى أن آخر مراحل اضطراب الكرة الأرضية يكون في عهد الدجال ؛ أي أن الكرة الأرضية في بادئ الأمر ونتيجة لأمر كوني تسرع في دورانها حول نفسها وفي دورانها حول الشمس ، ثم تأخذ بالبطء في دورانها حول نفسها ، فتكمل دورتها الأولى في سنة كاملة (*) ، و دورتها الثانية في شهر ، ثم تبدأ في العودة التدريجية لوضعها الطبيعي ، وتبدأ بالاتزان .

علاقة تقارب الزمان بالحدث الكوني .

الحقيقة أنه ليست لدي قرائن قوية تبرز طبيعة المرحلة الزمنية لهذه العلامة ؛ إلا أن هناك قرائن محتملة تعزز من ارتباط هذه العلامة بحقبة الحدث الكوني ، لعل أهم هذه القرائن هي طبيعة هذه العلامة ؛ حيث إن لها علاقة بتغير جوهري بحركة الأرض ، وهذا لا يتصور إلا إذا كان هناك حدث عظيم جوهري أثر فيها .

والقرينة الثانية هي أن هذه العلامة تشير إلى تقارب الزمان ، وفي مرحلة الدجال أشار النبي ﷺ على تباعد الزمان ، وتضمن الحديث الخاص بذلك عن الدجال على قرائن تؤكد على أن تباعد الزمان على حقيقته ، والمعلوم أن آية الدخان وآية الدجال من الآيات العشر والعلامات العظام ، وقد سبق بيان التلازم بينهما ؛ حيث وصلت إلى نتيجة وهي أن الدجال يكون بعد آية الدخان ، والمعلوم أن أول مرحلة الدجال تتميز بتباعد الزمان مما يشير إلى أن هناك اضطراباً في حركة الأرض ، وهذا يعزز أن يكون قبل خروج الدجال تقارب الزمان لنفس السبب الذي أثر على حركة الأرض .

(*) قد يقول البعض أن اليوم كسنة ليس على حقيقته ؛ بل هو كناية عن شدة هذا اليوم ، وهذا التصور ضعيف لوجود شاهد في الحديث ، وهو استفسار الصحابة عن طبيعة العبادة في هذا اليوم ، فقال النبي ﷺ : اقدروا له قدره . مما يدل صراحة على أن الطول الزمني لهذا اليوم هو سنة حقيقية . وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخاص عن الدجال .

العلامة الخامسة : حسر الفرات عن جبل من ذهب :

- عن الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ قَالَ : كُنْتُ وَاقِفًا مَعَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فَقَالَ : لَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا قُلْتُ : أَجَلْ ! قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ : لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ . قَالَ : فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ .﴾(١)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ (٣)

شرح :

أولاً : المعنى العام المتبادر لحسر الفرات :

- الفرات نهر معروف في العراق ، وهذا النهر له نصيب في علامة من العلامات الهامة للساعة ، وكما بين الحديث أن الفرات سينحسر ماؤه ، و الحسر في أصل اللغة الانكشاف ، وإذا استخدم مع الماء أو البحر يراد به أن الماء نضب حتى بدا ما تحته من الأرض . (٤)

أما كلمة جبل فهي في لغة العرب اسم لكل وتد من أوتاد الأرض عظم وطال

---

(١)أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٥ [مسلم بشرح النووي (٢١٨/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٤[مسلم بشرح النووي (٢١٧/٩)]

(٣) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١١٩ [البخاري مع الفتح (٨٤/١٣)] ومسلم في الفتن برقم ٢٨٩٤ [مسلم بشرح النووي (٢١٧/٩)]

(٤) ابن منظور : لسان العرب (١٨٨/٤)

من الأعلام أما ما صغر وانفرد فهو من الأكم والقور . (١)

يُفهم من معنى كلمتي الحسر والجبل وفق السياق أمران :

الأمر الأول :

الفرات ، هذا النهر العظيم سينضب ماؤه بصورة غير معهودة لدرجة أن الطين يبدو في قاعه ، أو يكاد أن يبدو فيظهر للناس بعد انكشاف الماء كنز كبير جداً من الذهب وصفه النبي ﷺ بالجبل من باب الكناية الدالة على كثرته ، ومن معاني مادة جبل الكثرة ، وبالتالي تكون لفظة جبل هنا من باب المعنى المجازي ،ولا يراد بها جبل حقيقي يبرز له قمة وارتفاع على وجه الأرض .

الأمر الثاني :

يراد بالحسر هنا المعنى الأصلي وهو الانكشاف ، وليس نضوب الماء ، بل الذي يحصل هو تحرك في طبقات الأرض يترتب عليها بروز جبل عظيم من الذهب في وسط ماء الفرات ، وهذا الوجه من الفهم يتفق والمعنى الحقيقي لكلمة الحسر والجبل .

وكلا المعنيين السابقين يحتمله سياق الحديث ، ولكل قرائن دالة عليه .

ثانياً : آراء المعاصرين في حسر الفرات.

اختلفت تصورات المحدثين في المراد بالجبل والمقصود بالحسر ، أبينها في التالي :

١- المراد بجبل الذهب البترول :

يرى بعض المعاصرين أن جبل الذهب يراد به البترول ، ومقصود الحديث وفق تصورهم أن الفرات يكشف عن بحيرة عظيمة من البترول ، وهذا احتمال بعيد جداً للأسباب التالية :

أ- لفظة جبل الدالة على كنز الفرات لا يتناسب استخدامها للدلالة على مادة سائلة كالبترول حتى من الناحية المجازية ، والأولى منها كلمة بحر ، أو بحيرة .

ب- سياق الحديث الذي استخدم لفظة الانحسار للنهر تشير إلى أن هناك علاقة بين

---

(١) ابن منظور : لسان العرب (٩٦/١١)

نضوب الماء وانكشاف جبل الذهب ، وهذا السياق لا يتناسب وطبيعة اكتشاف البترول الذي يمكن معرفته والتنقيب عنه في أعماق البحار ، فلا تحتاج معرفته واكتشافه نضوب الماء وانحساره .

ت- الواقع يشهد لضعف هذا الاحتمال ، فسياق الحديث يشير إلى كتر عظيم يتبدى في نهر الفرات يقتتل عليه الناس مما يعزز خصوصية هذا الكتر في هذا المكان من ناحية ، ومن ناحية أخرى دلالة السياق تشير إلى عدم وجود كنوز شبيهة به في أماكن أخرى وإلا لما اجتمع الناس عليه بخصوصه ، أما البترول فقد تم اكتشافه في أماكن عدة وبكميات كبيرة في الجزيرة العربية والعراق ، وبالتالي اكتشافه في نهر الفرات لا يعطيه خصوصية مميزة مهيجة للاقتتال عليه .

ث- دلائل السياق تشير إلى مرحلة مغايرة لما نحن عليه الآن ، فعصرنا تنوعت فيه الكنوز وأهمها البترول الذي يكنى بالذهب الأسود ؛ لذا وجود جبل من ذهب مهما كان حجمه في عصرنا لا يعتبر اكتشافاً مميزاً ، فاكتشافه أشبه بعصرنا باكتشاف حقل بترول في موضع ما ؛ لذا أتصور أن مرحلة ظهور جبل الذهب سيكون في مرحلة يعز فيها الذهب ، ويقل المال ؛ بحيث يكون ظهوره مهيجاً لمقتلة عظيمة بين الناس ، ولعله يكون في مرحلة شدة وقحط ونضوب في الخيرات .

ج- سياق الحديث يشير إلى أن كل واحد يستطيع أن يأخذ منه ، وذلك في قول الرسول ﷺ : « فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا » فكل فرد يحضر عند هذا الكتر يستطيع أن يأخذ منه ، وهذا متصور في الذهب الحقيقي ، أما في البترول فالأمر صعب إذ إخراجه بما يحقق الانتفاع منه يحتاج إلى دول وشركات ضخمة ، وهذه قرينة قوية صارفة .

٢- المقصود بحسر الفرات :

يحاول بعض المعاصرين إسقاط هذا الحديث على عصرنا مبيناً أن انحسار الفرات قد بدأ في عصرنا من خلال بناء السدود عليه في تركيا مما يقلل وصول الماء في مجراه في العراق ، ويظن أن الأمر إن زاد عما هو عليه فسيترتب عليه انحسار الفرات .

وفي ظني أن هذا تعسف في حمل الحديث على غير محمله ، فالسدود لن تمنع الماء بالكلية ، وإن كانت تقلل منه ، ودلالة سياق الحديث تشير إلى نضوب ملحوظ في نهر الفرات لدرجة أن الطين ينكشف من تحت الماء ، وهذا غير ملاحظ في زماننا ، وغير متصور بفعل السدود في المستقبل القريب .

ثالثاً : تصور الباحث للمراد بحسر الفرات وطبيعة جبل الذهب وزمانه .

في ظني أن حسر الفرات يكون في مرحلة لاحقة تغيب فيها العقول ويكثر الهرج ، وينتشر القحط ويقل المطر ، وهي نفس المرحلة التي سبق الحديث عنها بعد آية الدخان مباشرة ، وقبل خروج المهدي والدجال بعده ، فالمعلوم أن من علامات خروج الدجال كما بينت الأحاديث السابقة نزف الأنهار أي نضوب مائها ، فهذه المرحلة تتناسب مع مسألة حسر الفرات ، فإذا كانت الأنهار على وجه العموم قد نضب ماؤها ، فكذلك الفرات ، ولكنه يتميز عن غيره بأنه لحظة انحساره يكشف عن جبل من ذهب .

ويحتمل الأمر أيضاً كما بينت سابقاً بأنه تضطرب الصفائح الأرضية وتحصل إنكسارات فيها بعد سقوط الكسف ، فيكون من نتائج ذلك بروز جبل حقيقي في ماء الفرات ، ويكون هذا الجبل من الذهب ، ويحتمل أن تتوافق هذه الانكسارات مع نضوب الماء ، والأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى يصرفه كيفما يشاء

والاحتمال الأخير وارد جدا ، وبروزه بهذا الشكل على وجه الماء يكون أكثر تهييجاً للمقتلة العظيمة التي تحصل عنده .

ما علاقة حسر الفرات بالحدث الكوني ؟

قد يتساءل البعض قائلاً : **أليس من التعسف هنا ربط حسر الفرات بآية الدخان ونزول كسف من السماء** ، خاصة أنه لم يرد في سياق الأحاديث الدالة على حسر الفرات أي قرينة تربط بين الأمرين ، فما هو مستندك في الربط بين الأمرين ؟

نعم هذا تساؤل قد يطرح ، وله وجاهته ، لكن طرحه متصور إذا نُظر إلى حسر الفرات كعلامة جزئية بمعزل عن باقي العلامات ، أما إذا نُظر إلى مجموع الأدلة وسياقها ، فقد تظهر لنا قرائن عدة تعزز الربط بين كل هذه الأحداث ؛ لذا أرى أن أسوق هنا بعض القرائن المعززة لما ذكرت ، وهي لا ترتقي بعملية الربط لدرجة الجزم بها ، إنما تدخل المسألة في حيز الاحتمال الراجح في ظني .

القرينة الأولى :

من نظر إلى سياق الحديث يجد أنه لا يصدق على عصرنا ، وليس قريباً من معطيات العصر وأنظمته ، فسياق الحديث يشير إلى ظهور جبل من ذهب يقتتل عليه الناس ؛ أي ظهوره ليس في عهد الدول التي نعيشها ، بل في مرحلة فوضوية ، يملك فيها كل إنسان أن يأتي الجبل ويأخذ منه ، أما في عرف الدول الحالية فإن اكتشاف أي كتر أو معدن يترتب عليه تأميم الدولة لهذا الكتر وحراسته ، واستخراجه ، والوضع الطبيعي في عرف الدول عند اكتشاف أي معدن أن عيون الناس لا تطمع حتى في التفكير به ، وهذا أمر معلوم .

وهذا العرف الدولي المعاصر لا يتناسب وسياق الحديث الذي يشير إلى مرحلة فوضوية ، يتصور فيها كل إنسان أنه يملك أن ينفرد بهذا الكتر ، أو ينال منه النصيب الأكبر ، وهذه القرينة معززة لكون حسر الفرات لن يكون في ظل الأعراف الدولية المعاصرة ، بل ستكون هناك حالة استثنائية فوضوية تمر بها البلاد على وجه العموم .

القرينة الثانية :

حسر الفرات بهذا الشكل الذي يشير إليه الحديث لم يعهد في الفرات على مر الدهور ، فهو نهر أصيل جاري طول العام ، وماؤه في الغالب غزير ، و الحديث يشير إلى نضوبه ؛ إذا لا بد من تغير مناخي جوهري يؤثر به ، ولاحظنا خلال البحث أن هناك قرائن عدة تربط بين ثلاثة أمور وهي القحط وآية الدخان وخروج الدجال ، وهذه المرحلة من القحط مناسبة لوقوع هذا الترف أو النضوب في ماء الفرات ، وتتفق مع المرحلة الفوضوية الممهدة لخروج الدجال .

القرينة الثالثة :

جاء في حديث أبي هريرة السابق و المتفق عليه أن الفرات يحسر عن كتر بدل جبل ، وورد في رواية عن ابن ماجة الربط بين الاقتتال على كتر وبين خروج المهدي ، فعن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمُ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ . ﴾ (١)

فسياق الحديث السابق يشير إلى أن الاقتتال على كتر ما ممهد لخروج المهدي ، وقد جاء التعبير النبوي بصيغة الإضافة الدالة على العهد « كترکم » ؛ أي هذا الكتر المعهود لديكم والذي سبق إخباركم عنه .

وخلال تتبعي لعلامات الساعة لم أجد تصريحاً نبوياً عن كتر يقتتل عليه إلا كتر الفرات ، أما كتر الكعبة فالذي يستخرجه هو ذو السويقتين الحبشي الذي يهدم الكعبة .

يفهم مما سبق أن الاحتمال قوي في كون الكتر المشار إليه هو كتر الفرات نفسه ، وإذا كان كذلك فيمكننا اعتبار الحديث قرينة قوية في تحديد زمن حسر الفرات

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨٤ [السنن (١٣٦٧/٢)] ، والحاكم في الفتن [المستدرك (٤٦٣/٤)] ، وقال عنه ابن كثير : تفرد به ابن ماجة . وهذا إسناد قوي صحيح . وصححه البستوي في رسالته [البستوي : المهدي المنتظر (١٩٢)]

وهو عند ظهور المهدي ، والذي يكون أيضاً قبل خروج الدجال .

وقد أشار ابن حجر إلى هذا الاحتمال بعد ذكره للحديث حيث قال : « فهذا إن كان المراد بالكنز فيه – أي في حديث ابن ماجة – هو الكنز الذي في حديث الباب – أي كنز الفرات – دل على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي ، وذلك قبل نزول عيسى ﷺ . » (١)

القرينة الرابعة :

– عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ قال : ﴿ كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ ؟ قَالَ : هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي ، وَلَيْسَ مِنِّي وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ . ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِكٍ عَلَى ضِلَعٍ ، ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً ، فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ . ﴾ (٢)

هذا الحديث فيه إشارة إلى ثلاث فتن عظام تحل بالأمة ، وهي فتنة الأحلاس وفتنة السراء ، وفتنة الدهيماء ، والحديث صريح بأن فتنة الدهيماء هي أقرب الفتن من الدجال وموطئة لخروجه ، فإذا أضفنا لهن الفتنة التي تموج موج البحر ، وهي من الفتن العظام ، أصبح لدينا أربع فتن عظام تصيب الأمة الإسلامية ، وورد عن حذيفة ﷺ الإشارة إلى الفتن الأربع بقوله : « وليكونن فيكم أيتها الأمة أربع فتن الرقطاء والمظلمة ، وفلانة وفلانة ، ولتسلمنكم الرابعة إلى الدجال . » (٣)

(١) ابن حجر : فتح الباري (٨٧/١٣)

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن ، حديث رقم ٤٢٢٤) ، وعقب آبادي على الحديث بقوله : « والحديث سكت عنه المنذري ، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي [انظر آبادي : عون المعبود (٣٠٨/١١ وما بعدها)

(٣) أخرجه نعيم في الفتن برقم ١٠٣ [الفتن (٣٥)] و ابن أبي شيبة في موضعين (٤٩٦/٧) (٤٨٧/٧)

والذي يعنينا هنا الفتنة الرابعة وهي الدهيماء التي تكون بين يدي الدجال ، ففي هذه الفتنة أو في آخرها يقع حسر الفرات ، فقد ورد عن أبي هريرة أنه قال : « تدوم الفتنة الرابعة اثنا عشر عاماً ، وتنجلي حين تنجلي ، وقد انحسر الفرات عن جبل من ذهب . » (١)

وفي أثر آخر عن حذيفة ﷺ قال : « الفتن ثلاث تسوقهم الرابعة إلى الدجال التي ترمي بالرضف والتي ترمي بالنشف . » (٢)

هذه بعض الآثار الواردة عن الصحابة وفي أثر أبي هريرة ربط بين حسر الفرات و آخر الفتنة الرابعة الممهدة للدجال ، أما في أثر حذيفة فقد جاء التصريح بأن الفتنة الرابعة تتميز بأنها ترمي بالرضف ، والرضف الحجارة التي حميت بالشمس ، أو الحجارة المحماة على النار ، أو هي الحجارة التي يوقد عليها حتى تصير لهباً (٣)

أما النشف فهي حجارة سود كأنها أحرقت بالنار (٤) ، ويفهم من ذلك أن الفتنة الرابعة يكون فيها رمي حجارة ملتهبة كبيرة ، أو سوداء محترقة صغيرة (۞) ، وفي نهايتها يكون حسر الفرات .

يتحصل لنا من مجموع الآثار والأحاديث أن الفتنة الرابعة ، وهي الدهيماء يكون خلالها رمي بالحجارة من السماء ، وفي نهايتها يكون حسر الفرات الذي يعقبه خروج المهدي مباشرة ، ثم بعد ذلك يكون خروج الدجال .

ومن خلال القرائن الأربعة السابقة يتضح لنا وجه الربط بين حسر الفرات ، والحدث الكوني الذي يعصف بالكرة الأرضية ، يكفي القول بأن هذه القرائن كلها تعزز

---

(١) أخرج هذا الأثر نعيم برقم ٩٢٢ [الفتن (٢٣٣)]

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٧١٣٢ [المصنف (٤٥٠/٧)] والحاكم نحوه في الفتن برقم ٨٤٣٥ ، وقال عنه : صحيح على شرط الشيخين [المستدرك (٥١١/٤)] ؛ و نعيم برقم ٩٠ [الفتن (٣٢)]

(٣) ابن منظور : لسان العرب (١٢١/٩)

(٤) ابن منظور : لسان العرب (٣٢٩/٩)

(۞) يحتمل الأثر المعنى المجازي ، فيراد بالنشف الفتن الصغار التي لا تؤثر على الإيمان كثيراً ، أما الرضف فيراد بها الفتن القاتلة المؤثرة على الإيمان .

قولنا بأن حسر الفرات يكون في نفس المرحلة الزمنية التي يتصور فيها نزول الكسف وآية الدخان وخروج المهدي والدجال بعده .

العلامة السادسة : الخسوف العظمى .

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : مَا تَذَاكَرُونَ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ . » (١)

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : مَا تَذَاكَرُونَ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : « إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ » (٢)

- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صُحَارٍ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْسَفَ بِقَبَائِلَ فَيُقَالُ مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ . » قَالَ فَعَرَفْتُ حِينَ قَالَ قَبَائِلَ أَنَّهَا الْعَرَبُ لِأَنَّ الْعَجَمَ تُنْسَبُ إِلَى قُرَاهَا) (٣)

- عن عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ قَالَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه أحمد في مسند المكيين برقم ١٥٥٢٦، ورجاله ثقات [المسند (٥٨٦/٣)]

يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ . ﴾ (١)

📖 -عن عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ : ﴿ عَبَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَامِهِ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ ! فَقَالَ : الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ قَالَ نَعَمْ فِيهِمْ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ ﴾ (٢)

شرح :

- الحديث الأول والثاني يشيران إلى ثلاثة خسوف عظيمة إحداها بالمشرق والآخر بالمغرب والثالث بجزيرة العرب ، في الرواية الأولى جاء ذكر الخسوف في آخر العلامات وفي الرواية الثانية جاء ذكر الخسوف أول العلامات مما يشير إلى أنها لم تذكر على سبيل الترتيب كما بينت سابقاً .
- تعتبر الخسوف الثلاثة من الآيات العظام ؛ أي لا يراد بها ما نراه من زلازل معهودة تقع هنا أو هناك ، بل يراد بها أحداثاً عظاما جوهرية تؤثر على جوهر الصراع في الأرض ، وإلا لما حسن ذكرها هنا في العلامات الكبرى ، بل لفظة آية تشير إلى أن هذه الخسوف ستكون من باب الأمور غير المعهودة أو المتوقعة .
- وبالرغم من تسليمنا من أن تلك العلامات ليست مذكورة في الحديث على سبيل الترتيب ، إلا أن الخسوف الثلاثة هنا في أغلب الظن مرتبة ترتيباً زمنياً لأنها تمثل علامة واحدة ، فيكون الخسف الأول بالمشرق ثم يعقبه خسف في المغرب ثم يكون خسف الجزيرة العربية .
- جاء في أحاديث أخرى وصفٌ لخسف عظيم يلحق بجيش يغزو الكعبة ، ودلائل السياق تشير إلى أن هذا الجيش الذي يخسف به هو الجيش الذي يقصد قتال المهدي

(١) أخرجه البخاري في البيوع برقم ٢١١٨ [البخاري مع الفتح (٣٩٧/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٨٨٤ [مسلم بشرح النووي (٢٠٥/٩)]

عندما يلوذ بالكعبة ، ويكون مبعثه من الشام ، فيقع به الخسف العظيم ، و يعتبر هذا الخسف من علامات المهدي الجلية ، والراجح في ظني أن الخسف الذي في جزيرة العرب في عهد المهدي ﷺ هو الخسف الثالث في الآيات العظام ، وهذا احتمال قوي .

- وفق هذا الاحتمال الذي أرجحه يكون عندنا تصور للمرحلة الزمنية التي يكون فيها الخسف الثالث والأخير وهي مرحلة خروج المهدي ، وقبل خروج الدجال ، وإذا اعتبرنا كما دللت سابقاً أن آية الدخان قبل الدجال وموطئة له وعلامة من علامات قرب خروجه ، إذا يحتمل الأمر أن يكون الخسفان الآخران إما قبل آية الدخان ، أو بعدها ؛ بحيث يكونا أثراً من آثار آية الدخان التي سبق الربط بينها وبين نزول كسف من السماء ، واستأنس لما ذكرت بما ورد عن كعب أنه قال : « .. والنجم الذي يرمي به شهاب ينقض من السماء ، معها صوت شديد حتى يقع في المشرق ، ويصيب الناس منه بلاء شديد . (١)

فالأثر الوارد عن كعب يربط بين صوت شديد وسقوط كسف من السماء في المشرق ، وما يترتب على ذلك من بلاء شديد،ولعل الخسف المشرقي مترتب على سقوط هذا الكسف .

العلامة السابعة : خروج أهل المدينة .

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَتَعَجَّلَتْ رِجَالٌ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِتْنَا مَعَهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ سَأَلَ عَنْهُمْ فَقِيلَ تَعَجَّلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ : ﴿ تَعَجَّلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَالنِّسَاءِ أَمَا إِنَّهُمْ سَيَدَعُونَهَا أَحْسَنَ مَا كَانَتْ ثُمَّ قَالَ : لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ جَبَلِ الْوِرَاقِ تُضِيءُ مِنْهَا أَعْنَاقُ

(١) أخرجه نعيم بن حماد برقم ٦٢١ ، وقال محققه إسناده حسن[الفتن (١٥٢)]

الْإِبِلِ بِرُوكًا بِبُصْرَى كَضَوْءِ النَّهَارِ . ﴾ (١)

📖 - عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ : قال : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمَدِينَةِ : ﴿ لَتَتْرُكَنَّهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ مُذَلَّلَةً لِلْعَوَافِي يَعْنِي السِّبَاعَ وَالطَّيْرَ . ﴾ (٢)

📖 - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَوْ مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا أَوْ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ يَعْنِي مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ . ﴾ (٣)

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: ﴿ لَتُتْرَكَنَّ الْمَدِينَةُ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَتْ حَتَّى يَدْخُلَ الْكَلْبُ أَوِ الذِّئْبُ فَيُغَذِّي عَلَى بَعْضِ سَوَارِي الْمَسْجِدِ أَوْ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَلِمَنْ تَكُونُ الثِّمَارُ ذَلِكَ الزَّمَانَ ؟ قَالَ : لِلْعَوَافِي الطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ . ﴾ (٤)

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ . » (٥)

شرح :

- هذه الأحاديث الخمسة تتحدث عن خراب المدينة ، وهناك أحاديث أخرى تتحدث عن مثل هذا الخراب سيأتي الحديث عنها في موضع مستقل ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الأنصار برقم ٢١٣٤٧ [المسند (١٧٣/٥)] ، والحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٣٦٦ ، وقال صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [المستدرك (٤٨٩/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في الحج برقم ١٣٨٩ [مسلم بشرح النووي (١٥٢/٥)]

(٣) أخرجه البخاري في فضائل المدينة برقم ١٨٧٤ [البخاري مع الفتح (١٩٧/٤)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٣ واللفظ له [عون المعبود (٤٠٠/١١)]

(٤) أخرجه مالك في الموطأ برقم ١٣٨١ ، وقال ابن حجر : أخرجه معن بن عيسى في الموطأ عن مالك ، ورواه جماعة من الثقات خارج الموطأ [فتح الباري (١٠٨/٤)]

(٥) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩١ [مسلم بشرح النووي (٢١٤/٩)]

والذي وصلت له بعد البحث أن ترك المدينة إنما يقع عدة مرات ، وليس مرة واحدة ، وهذه الأحاديث تشير إلى أحد هذه الخرجات .

- الشاهد في الأحاديث السابقة أن أهل المدينة سيتركون المدينة وهي أينع ما تكون ، وهذا الترك لا بد أن يكون وراءه سبب قاهر ، وقد جاء في بعض روايات الأحاديث عن أبي هريرة أن الذي يخرج أهل المدينة أمراء السوء ، وهذا التوضيح إنما هو لأحد الخرجات ، وقد حصل مثله في عهد يزيد في وقعة الحرة .
- في حديث معاذ بن جبل ﷺ جاء الربط بين أمرين وهما : أن خراب المدينة له علاقة زمنية بعمران بيت المقدس ، وعمران بيت المقدس كما يدل عليه سياق الحديث يراد به نزول الخلافة في عهد المهدي ﷺ ، لارتباط العمران بخروج الملحمة ، وهذا يكون في آخر الزمان .
- في حديث أبي ذر إشارة إلى أن خروج أهل المدينة ناجم عن خروج نار عظيمة من جبل الوراق باليمن تضيء أعناق الإبل في الشام ، وذلك كناية عن عظم هذه النار .
- حديث حذيفة الأخير فيه دلالة على أن هذا الخروج لا يراد به ما يقع عند فناء الدنيا ، إنما هو حدث مستقل يطرأ على المدينة المنورة .

محصلة الأحاديث السابقة :

- خروج أهل المدينة وهي أينع ما تكون ؛ ويكون الخروج شامل لكل أهلها ، لدرجة أن ما يبقى فيها من ثمار يكون من نصيب العوافي والسباع ، ويخلو المسجد النبوي من أهله فتسرح فيه الكلاب والذئاب وتبول حتى على المنبر ، وهذا لا يتصور إلا عند حصول ظرف قاهر يمنع أهل المدينة من البقاء فيها منعاً باتاً

- هذا الخروج يقع بعد نزول الخلافة بيت المقدس قبل الملحمة العظمى ، وبالتالي جاء تحديد وقت هذا الخروج ، فلا يراد به ما وقع على أيدي أمراء السوء كما حصل في وقعة الحرة (۞) ولا يراد به ما يقع في اللحظات الأخيرة للدنيا عند الحشر كما صرحت الأحاديث لبعض الخرجات ، وحديث حذيفة الأخير قرينة واضحة في أن هذا الخروج لا يراد به الخروج النهائي عند فناء الدنيا . و إنما يراد به هنا تلك الخرجة التي تكون عند بداية نزول الخلافة ، وقبيل الملحمة العظمى ، والتي دل عليها حديث معاذ ﷺ ، وهذا التوقيت بالذات يجعلنا نربط بينه وبين الأحاديث التي ربطت بين نزول الخلافة بيت المقدس وسنوات الزلازل والأمور العظام ، وما يقع في المدينة هو أحد هذه الأمور العظام .
- جاء التصريح في أحد الآثار بخروج نار من جبل الوراق ، ودلائل السياق تشير إلى أن هناك علاقة بين خروج أهل المدينة وبين تلك الحمم التي يقذفها هذا الجبل ، أو غيره من الفوهات البركانية حول المدينة المنورة وجاءت الإشارة إلى عظم تلك الحمم لدرجة أن لهيبها يضيء ليل بادية الشام ، وهذه الثورة البركانية الهائلة بهذا الشكل غير معهودة حتى في الجبال البركانية النشطة ، فكيف بمنطقة بركانية خامدة كتلك القريبة من اليمن .

(۞) هناك عدة قرائن في سياق الأحاديث تجعلنا لا نتصور خروج الناس بسبب أمراء السوء ، منها : أن الخراب يقع بعد عمران بيت المقدس بالخلافة ، وهذا يجعلنا نستبعد فكرة أمراء السوء في تلك المرحلة بالذات ، ومنها : **أن طبيعة الوصف للترك الشامل** لا يمكن تصور وقوعه على يد أمراء السوء ، ومهما كان ظلمهم ، فلن يصل لدرجة تخلو به بلد من كل أهلها بهذا الشكل ، بل على الأقل يبقى في البلد بعض الظلمة أو اللصوص لينتفعون من خيراتها وثمارها ، أما تركها بهذا الشكل للذئاب ، فلا بد أن يكون وراءه حدث طبيعي قاهر فوق قدرة البشر ألجأ جميع البشر للخروج منها ، وقد جاء التصريح في بعض الأحاديث بكون هذا الحدث هو الحمم التي تخرج من جبل الوراق وتقذف بها نحو المدينة وغيرها .

ملاحظة :

يشير الدكتور زغلول النجار أن المدينة المنورة محاطة بحوالي ٧٠٠ فوهة بركانية سجلت ما لا يقل عن ٣٠٠ هزة أرضية خلال سنة واحدة مما يؤكد أنها لا تزال نشطة ، وبالتالي لا بد لها أن تفور في يوم من الأيام ، وحتمية العلم تؤكد ذلك . (١)

و الذي أشار إليه د زغلول يقرب لنا تصور ما ذكرت من احتمالية ثورة بركانية عاصفة تؤثر على كامل المدينة المنورة وتكون سبباً في نزوح أهلها عنها .

ما علاقة خروج أهل المدينة بالحدث الكوني ؟

قد يسأل سائل هنا : لو اقتنعنا بأن خروج أهل المدينة بسبب ثورة بركانية في جبل الوراق باليمن ، أو نتيجة ثورات بركانية حول المدينة المنورة ، فما وجه علاقته بنزول كسف من السماء ، أو بالحدث الكوني ؟

وهذا التساؤل يمكن الإجابة عليه ببساطة ، ومن تتبع مجموع الأحاديث في هذا المبحث والمرحلة الزمنية التي تنتمي إليه لعلم وجه العلاقة بينها جميعا .

ولكي يتضح الأمر أقول : هذه الثورة البركانية غير معهودة ، وزمانها له علاقة بسنوات الزلازل والبلايا العظام ، وقد تكون له علاقة بالتغيرات غير المعهودة التي تقع بالجزيرة العربية فتحولها إلى مروج وأنهار .

فمجموع تلك الأدلة تشير إلى تغير غير طبيعي في جيولوجيا الأرض ، ومناخها ، وهنا يطرح تساؤل : ما الذي سيصيب الأرض في تلك المرحلة بالذات ويجعلها مضطربة بهذا الشكل ؟

طبعاً الإجابة هي وقوع حدث غير معهود يؤثر على الكرة الأرضية بأجمعها ، ومن ضمنها الزلازل والبراكين ، ووقوع كسف على الأرض ، وما يترتب على ذلك من قوة تدميرية تفوق المئة ألف قنبلة نووية ، و قد يوقع مثل هذا التدمير اضطراباً في جوف الأرض ولابتها .

---

(١) صحيفة دنيا الوطن الالكترونية بتاريخ ٢٩ / ١/ ٢٠٠٥ م www.alwatanvoice.com

والرابط القوي أو القرينة القوية - في ظني - المعززة لهذا الفهم هو أن كل تلك الأحاديث المذكورة في هذا الباب تمثل نفس المرحلة الزمنية مما يوحي بأن هناك علاقة واحدة تربط بينها ، **وخلاصة القول إن خروج أهل المدينة إن لم يكن له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحدث الكوني كأحد نتائجه يكفي القول هنا أن الخروج يكون في نفس المرحلة الزمنية .**

تساؤل آخر :

لقد ربطت في هذا المبحث بين مرحلة المهدي وبين الدخان وبين الدجال ، وجعلتها تمثل مرحلة واحدة متتالية ، الدخان ، ثم الخلافة المقدسة ، ثم الملحمة ثم الدجال ، وجاء الربط هنا بين خراب المدينة فيما بين نزول الخلافة بيت المقدس والملحمة العظمى ، أي أن خروج أهل المدينة قريب جداً من خروج الدجال ، والمعلوم أنه ثبت في أحاديث كثيرة أن الدجال عندما يخرج تكون المدينة عامرة بأهلها ، وهذا يتعارض مع ما ذكرت هنا من أن المدينة في تلك المرحلة تكون خالية من أهلها ، فكيف يمكن دفع التعارض بين الأمرين ، وكيف يمكن تصور خروج أهل المدينة منها ، وعمرانها بهم في نفس المرحلة الزمنية ؟

والإجابة على هذا الإشكال بسيطة ، وهي متعلقة في كيفية تعامل البشرية مع الأحداث الطبيعية من ناحية ، وطبيعة المدة الزمنية بين الملحمة وخروج الدجال .

فالمعلوم أنه عند ثوران بركان أو حدوث زلزال أو إعصار أو غيره فإن الناس ترحل عن مكان الحدث ما دام الخطر يتهدده ، فإذا زال الخطر رجعوا إلى مدنهم وقراهم ، وما سيقع للمدينة لا يتصور دوامه مدة طويلة جداً ، وأقصى حالاته سنة أو سنتان ، وذلك في حالة كون ثورة هذا البركان غير طبيعية .

وعلى هذا الاعتبار يمكن القول أن الأحاديث التي تشير إلى ترك المدينة يراد بها تلك المرحلة ، ثم بعد ذلك يعود أهلها إليها ، ودوافع العودة إليها قوية جداً لخصوصيتها الدينية .

و قد ثبت في أحاديث أخرى أن المدة بين الملحمة وخروج الدجال سبع سنوات ، وترك المدينة يكون قبل خروج الملحمة ، إذا هناك على الأقل ثمان سنوات بين الحدثين ، وهي مدة كافية لعمران المدينة من جديد .

كذلك يعزز ما ذكرت أن بعض الآثار جاءت صريحة في الربط بين الخروج من المدينة وبين فتنة الدجال مما يعزز كونها في مرحلة واحدة بحيث يكون الخروج أولاً لسبب قاهر ثم تكون فتنة الدجال ، ومن هذه الآثار ما ذكره محجن بن الأذرع أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِي فَصَعَدَ عَلَى أُحُد فَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ ﴿ وَيْلُ أُمِّهَا قَرْيَةً يَدَعُهَا أَهْلُهَا خَيْرَ مَا تَكُونُ أَوْ كَأَخْيَرِ مَا تَكُونُ فَيَأْتِيهَا الدَّجَّالُ فَيَجِدُ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا مَلَكًا مُصْلِتًا جَنَاحَيْهِ فَلَا يَدْخُلُهَا ﴾ (١)

فهذا الأثر يعتبر فيصلاً في المسألة وفيه ربط زمني واضح بين خروج أهل المدينة ، وبين حصار الدجال لها بعد ذلك .

(١) أخرجه أحمد برقم ١٩٠٠٠ [المسند (٤١٣/٤)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح خلا رجاء بن حيوة وقد وثقه ابن حبان [مجمع الزوائد (٣٠٨/٣)] ؛ والحديث له طريق آخر عند الطبراني قال عنه الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٠٩/٣)]

المبحث الخامس
قرائن متعددة تعزز احتمالية
وقوع حدث كوني

هذا المبحث ضمنته ثلاث قرائن : إحداهما تشير صراحة إلى أن أنظمة الحرب في مرحلة الملاحم العظمى تكون تقليدية مما يؤكد على أن هذه الحضارة بتكنولوجيتها إلى زوال ، والثانية لها علاقة بترول عيسى ﷺ من خلال نبوءة ذكرها العهد الجديد في الكتاب المقدس لدى النصارى ، وهي تصف طبيعة المرحلة التي يترل فيها ، وتتفق تماماً مع ما ذكرت ، و الثالثة قراءة قرآنية للسنن الربانية في إهلاك الأمم مقارنة مع واقعنا المعاصر ، وتفصيل ذلك على النحو التالي :

القرينة الأولى : أنظمة الحرب ووسائله في علامات الملاحم وأحاديث العلامات .

المعلوم أننا نعيش في عصر العلم والتكنولوجيا ، وهذا العصر اختلفت فيه أشكال المدنية عن العصور السابقة بشكل ملحوظ ، و أهم اختلاف يعنينا هنا هو وسائل القتال التي اختلفت بشكل جوهري ، بحيث أصبحت وسائل القتال القديمة لا ذكر لها في موسوعة القتال في عصرنا .

والملاحظ على أكثر علامات الساعة التي تتحدث عن مرحلة المهدي والدجال والملحمة العظمى أنها استخدمت العبارات الدالة على وسائل القتال القديمة كالسيف والرمح والخيل وغيرها ، وهذه الوسائل القتالية التي عبرت عنها الأحاديث النبوية بما يخص مرحلة مستقبلية هل هي معاني مجازية دالة على وسائل قتال كل عصر ، أم هي على حقيقتها ؟ والرأي الأخير يستلزم القول بفناء تكنولوجيا العصر ، ويتفرع على هذه القول تساؤل آخر وهو هل يكون فناء هذه المنظومة التكنولوجية المعاصرة بفعل البشر أم لأسباب أخرى ؟

هذا يتطلب منا النظر في النصوص نظرة تأملية ، ونرى هل يمكن حملها على المجاز ، أم لا ، وإذا كنا لا تستطيع حملها على المجاز ، واعتبرناها على حقيقتها ، فهل هذا مؤشر على بعد وقوعها كما يتصور البعض ، هذا نستطيع أن نفصله من خلال دراسة النصوص النبوية ، وتوجيه القول في العلاقة بينها وبين الحدث الكوني وذلك من خلال البندين التاليين :

البند الأول : النصوص الدالة على أنظمة الحرب ووسائله في أحاديث الملاحم .

- عَنْ يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى : إِلَّا يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ . قَالَ فَقَعَدَ ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلَا يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ . ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ ، فَقَالَ : عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ . قُلْتُ:الرُّومَ تَعْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً إِمَّا قَالَ : لَا يُرَى مِثْلُهَا وَإِمَّا قَالَ : لَمْ يُرَ مِثْلُهَا حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا فَيَتَعَادُّ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنِّي لَأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ

وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الأثر يتحدث عن الملحمة العظمى التي تكون بين المسلمين وبين الروم ، والملاحظ على هذه المعركة عدة أمور يرشد إليها السياق :

- قوله في الحديث **أنهم يقتتلون حتى يحجز بينهم الليل** إشارة قوية إلى أن نظام القتال سيكون على الطريقة القديمة التي يكون لليل أثر واضح في إيقاف القتال ، أما مع وسائل القتال المعاصرة والتكنولوجيا الحربية فليس لليل أي أثر في منع القتال ، بل على العكس الحروب المعاصرة يعتبر فيها الليل أفضل من النهار مما يدل دلالة واضحة على أن القتال يكون بصورته القديمة التي لا ينفع فيها القتال إلا في النهار ، وهذا دليل واضح في أن من استخدم معول التأويل في النصوص في اعتبار أن السيف في الأحاديث للدلالة على البندقية والخيل على الدبابة لم يوفق في ذلك ؛ لأن الكلام هنا لا يحتمل التأويل ، و إلا كيف نؤول حرباً يحجز الليل فيها بين الجيشين في ظل أجهزة الليزر المعاصرة والتكنولوجيا الحديثة التي لا تفرق بين ليل ولا نهار ؛ إذاً هذا الحديث يتضمن قرينة قوية دالة على فناء تكنولوجيا العصر وعودة البشرية إلى أنظمة القتال القديمة .
- في الحديث إشارة إلى الفوارس العشرة مع تصريح النبي ﷺ بمعرفته لأسمائهم وألوان خيولهم ، والأصل أن تحمل الخيول على حقيقتها وهذا يتناسب مع ذكر ألوانها ، إضافة إلى أن وصف الراكبين عليها بأنهم فوارس ، يقتضي أن يكون تحته فرس فهذا الوصف لا يتناسب إلا لذلك ، أما القول

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٩٩[انظر مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٢٢)]

بأن المراد بالخيول الدبابات ونحوها ، فهذا تأويل فاسد (۞) دل سياق الحديث على فساده ، لتضمنه على قرينة معززة للمعنى الحقيقي ، وهي كون أنظمة الحرب تقليدية .

📖 - - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ . فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَا وَاللَّهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا فَيُقَاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث يتضمن عدة وسائل للقتال على نسق الحروب القديمة ونهجها ، وهذا واضح في عدة أمور منها :

١- القتال هنا على الطريقة التقليدية القديمة [نظام الصفوف و اصطفاف الجيشين للقتال] وهذا لا يكون إلا في الحروب القديمة التي يستخدم فيها السيف ،

(۞) الأصل في الكلام أن يحمل على ظاهره ، و تأويل أي نص لا بد له من ضرورة تلجئ إليه لأن الأخذ بالظواهر أسلم ، والضرورة المبيحة لنقل اللفظ من معناه الظاهري إلى غيره هي وجود مانع حقيقي يمنع من حمل النص على ظاهره ، إضافة إلى وجود قرائن مؤيدة للمعنى المؤول دون الحقيقي ، والملاحظ في مسألتنا هنا أنه لا مانع من حمل النص على ظاهره والقرائن المتعددة تؤيد المعنى الحقيقي دون المؤول ، بل المانع الوحيد في نظر الذي يدعيه البعض هو استبعاد تصور فناء التكنولوجيا المعاصرة لأن العلم تراكمي ، وهذا مانع وهمي سيتم مناقشته .

(١) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٧ [مسلم بشرح النووي (٢١٩/٩)]

أما الحروب في المفهوم التكنولوجي فلا يلزم فيها مثل هذا الإجراء .

٢- التصريح بكلمة تعليق السيوف على الزيتون على حقيقته ، ولو كان المقصود به وسائل حربية أخرى لكان الأولى ذكر كلمة الأسلحة بدلاً من كلمة السيوف ، وكلمة السلاح كلمة عربية وقرآنية ، مما يدل على أن السيوف هنا مقصودة لذاتها لأنها الوسيلة الحقيقية في الملحمة .

٣- الإشارة للحربة التي مع سيدنا عيسى ﷺ ، وهي من وسائل القتال القديمة .

فهذه الدلالات كلها تشير إلى أن أسلوب القتال من أساليب الحروب القديمة وليست الحديثة ، وهذه الدلالة لا تحتمل التأويل كما يرى البعض ؛ حيث أنه لو أمكن تأويل السيف والحربة ، فليس من السهل تأويل فكرة اصطفاف الصفوف للقتال الدال على أن المعركة من المعارك التي يلتحم بها الجنود مع بعضهم البعض كما هو معهود في الحروب القديمة ، وهو ما لا تحتمله الحروب التكنولوجية المعاصرة .

📖 – عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث صريح في أن الخيل المعهودة معقود في نواصيها الخير ، والمعلوم أن هذا الخير المقصود في الحديث هو في استخدامها بالقتال ، وهذا صريح في نهاية الحديث بقول النبي ﷺ الأجر والمغنم الدال على الجهاد .

والشاهد في الحديث قول النبي ﷺ **إلى يوم القيامة** ، مما يشير إلى عودة استخدامها في الحروب ، وإلا فما قيمة هذه العبارة إذا كان استخدام الخيل في الحروب سيستبدل نهائياً بغيره من الوسائل قبل يوم القيامة ، ولاكتفى النبي ﷺ بذكر فائدة الخيل فقط دون ذكر هذه العبارة .

بل هذا الحديث فيه لفتة نبوية عجـــيبة ، وهي أن الحالة التي عايشناها في

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير برقم ٢٨٥٢ [البخاري مع الفتح (٦/٦٦)]

وسائل القتال المعاصرة ليست دائمة ، بل هي تمثل مرحلة طارئة ستنتهي معها ويرجع الأمر إلى سابق عهده في استخدام الوسائل القديمة في القتال ومن ضمنها الخيل .

ولو لم يكن هذا مراداً لما كان هناك حكمة في إيراد النبي ﷺ لهذا الكلام وتأكيد بقائه إلي يوم القيامة .

والمعلوم أن الوسائل القتالية المعاصرة لم تكن معهودة قبل قرن من الزمان ، ومدة بقائها المستقبلية مجهولة ، وقد تكون قصيرة جداً ، **مما يعزز أنها حالة استثنائية طارئة ضمن حالة عامة تقليدية على مدى البشرية .**

📖 - جاء في حديث أبي أمامة الطويل عن الدجال : ﴿ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام افْتَحُوا الْبَابَ ، فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَــهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُــودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ ﴾ (١)

أقول :

الحديث صريح في أن سلاح اليهود يكون السيف المحلى ، ولو كان غير ذلك من الأسلحة المعاصرة لا ستخدم النبي ﷺ كلمة سلاح بدل كلمة السيف ، وكما ذكرت سابقاً أن سياق بعض الأحاديث لا يحتمل تأويل السيف بالأسلحة المعاصرة ؛ لأنها تضمنت إشارات صريحة على أن أنظمة الحرب تنطبق على الأسلوب القديم لا التكنولوجي الحديث .

📖 - عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَعُمُّونَ الْأَرْضَ وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَمُرُّونَ بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَهُ حَتَّى مَا يَذَرُونَ فِيهِ شَيْئًا فَيَمُرُّ آخِرُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : لَقَدْ كَانَ بِهَذَا الْمَكَانِ مَرَّةً مَاءٌ وَيَظْهَرُونَ عَلَى الْأَرْضِ

---

(١)أخرجه ابن ماجة بطوله برقم ٤٠٧٧ [السنن (٢/١٣٥٩)] ؛ وأبو داود مختصراً برقم ٤٣٠٠ ، وقال شارحه : « أما إسناد المؤلف حديث أبي أمامة فصحيح ، ورواته كلهم ثقات [عون المعبود (١١/٤٤٩ وما بعدها)] .

فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ وَلَنُنَازِلَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَهُزُّ حَرْبَتَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدَّمِ . ﴾ (١)

📖 - عن النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ ﷺ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سَيُوقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَنُشَّابِهِمْ وَأَتْرِسَتِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ ﴾ (٢)

شرح :

هذان الحديثان صريحا الدلالة بما لا يحتمل التأويل أن الأسلحة في زمن ياجوج ومأجوج هي نفس الأسلحة التقليدية القديمة ؛ حيث جاء في الحديث الأول ذكر الحراب ، وهي الرماح ، وفي الأثر الثاني ذكر النشاب والقسي والأترسة ، وقد صرح الأثر الثاني بأن المسلمين سيوقدون من أسلحة يأجوج ومأجوج سبع سنوات مما يدل صراحة على أنها من الخشب ، وهذا الوصف يتفق مع الأسلحة القديمة .

الخلاصـــة

يتضح من الأحاديث السابقة أنها تدل صراحة على أن الحروب في الملاحم وبعدها تكون وفق الأساليب القديمة وأسلحتها ؛ لذا جاء ذكر الخيل والسيوف والرماح والحرب فيها ، وهذه الوسائل لا يمكن تأويلها وحملها على الوسائل الحديث لأن الأحاديث نفسها صرحت بأن أنظمة الحرب نفسها تكون تقليدية لا يصلح فيها القتال بالليل ، وتكون الجيوش بنظام الصفوف التي يتلاحم من خلالها الجيشان ، وهذه الأنظمة لا يمكن تصور وجودها إلا إذا كان المستخدم فيها وسائل القتال القديمة فقط ، ويعزز ذلك كله أن النبي ﷺ صرح بأن استخدام الخيل في الجهاد سيبقى إلى يوم القيامة مما يؤكد على أننا الآن في مرحلة استثنائية قصيرة أعفيت منها الخيل في الحروب ، لكنها ستعود لتكون الفيصل في المعارك المستقبلية .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٩ [السنن(١٣٦٣/٢)]؛قال العدوي : حسن [الصحيح المسند (٥٣٤)]

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٦ [السنن (١٣٥٩/٢)]؛قال العدوي : صحيح[الصحيح المسند (٥٣٨)]

البند الثاني : توجيه القول في أنظمة الحرب وعلاقتها بالحدث الكوني .

يلحظ مما سبق أن الأحاديث الدالة على ملاحم آخر الزمان كلها تشير إلى أن الأسلوب المتبع فيها هو أنظمة الحرب القديمة ووسائلها ، وهي لا تحتمل التأويل كما يظن البعض ، وهذا يُخلصنا إلى نتيجة حتمية وهي : **إن الوسائل الحربية المعاصرة لا محالة ستؤول إلى فناء** .

وهذا أمر يستبعده البعض لأن العلم والمعرفة تراكمية ، والأصل في الإنسان أن يزداد تطوراً ، وليس من السهل من الناحية العقلية تصور العودة للوراء خاصة من الناحية العلمية والتكنولوجية ؛ لذا عمد هؤلاء إلى سلاح التأويل في النصوص النبوية ، وكما ذكرت سابقاً أن هذه النصوص تضمنت في طياها ما يمنع هذا التأويل ويبطله ، والقرينة التي اعتمدها هؤلاء في تأويلهم ما ظنوه مسلمة في أن هذا التطور ليس من السهل اندثاره من ذاكرة البشرية .

والبعض الآخر يرى أن معاني النصوص على حقيقته ؛ لكنه يجد في نفس الوقت أن ذلك قرينة إلى أن بيننا وبين هذه الملاحم العظمى قرون ، والذي دفعهم إلى هذا الفهم هو نفس المسلمة السابقة ، وهي عدم تصورهم اندثار كل هذا التطور والتكنولوجيا بسهولة ، بل يحتاج الأمر لقرون لتصوره .

أما من رأى قرب وقوع الحدث فقد ربطه أيضاً بسبب بشري ؛ حيث تصور هؤلاء قيام حرب عالمية ثالثة تكون مدمرة ، ويترتب عليها فناء كل أسلحة العصر .

والحق في ظني بخصوص هذه المسألة أن أنظمة الحرب في الملاحم المذكورة أنظمة قديمة ، و هذه الوسائل التي ذكرها من أوتي جوامع الكلم ، ورأى ما هو كائن إلى يوم القيامة من خلال الوحي الرباني يعتبر أكبر قرينة على ما ذكرته بأن هناك حدثاً كونياً مهولاً سيعصف بالكرة الأرضية يؤثر على كل أنظمتها أو قوانينها التي استمدت من خلالها المدنية الحديثة القدرة التكنولوجية المعاصرة ، والمعلوم أن أي اختلال في الغلاف الجوي له آثاره على الاتصالات وعلى الطيران ..إلخ

فهذه القوانين التي درسها الإنسان واستطاع من خلالها الاستفادة من الثبات النسبي فيها في عصرنا في كثير من مخترعاته قد يطرأ عليها تغير مفاجئ يخل بها جميعاً .

فإذا صادف الأمر حدثاً كونياً مهولاً تضطرب معه الأرض ، وتحدث معه المجاعات والأوبئة وتتغير الأولويات ، و تغيب من خلاله مدنيات مع أسرارها بأكملها ، فعندها يسهل علينا تصور الدواعي والأسباب التي تعيد الحروب إلى سابق عهدها .

وما يراه البعض يحتاج إلى قرون قد لا يحتاج في بادئ الأمر إلى ساعات حاسمة مغيرة لكل ما نحن عليه ؛ لذا لا يُستبعد حدوثه في كل لحظة كما يرى بعض أهل الاختصاص .

وما أقوله ليس ضرباً من الخيال ، بل مثل هذا الانهيار التكنولوجي والمدني المعاصر لا يغيب عن مخيلة كثير من علماء العصر ، بل تصوره في أفهامهم أكثر من تخيلنا له .

ومن درس طبيعة الأنظمة المعقدة التي تحكم الكرة الأرضية ، ومدى ترابطها مع بعضها لدرجة أن حدثاً قد يراه البعض بسيطاً يقع في ناحية منها يكون له الأثر على أنظمة كثيرة في الكرة الأرضية ، فمثل هذه الدراسة لأنظمة الكرة الأرضية والتي يعيها العلماء جيداً تجعل تصورنا للأمر وتوابعه المدمرة أكثر تقبلاً .

وحتى يتضح الأمر أقول : ظاهرة بسيطة في عصرنا تسمى ظاهرة الانحباس الحراري (الدفيئة) يرى فيها العلماء المتخصصون آثاراً مدمرة قد تنهي الحياة المدنية المعاصرة ، ويربطون بينها وبين حصول أعاصير مدمرة وأوبئة قاتلة ، ومجاعات وقحط ، وحروب طاحنة ، وتغير بيئي ومناخي وغرق مدن ، بل دول بأكملها تحت الماء ، واختلال في كثير من القوانين التي تحكم الكرة الأرضية .

و الإنسان البسيط منا قد يصعب عليه الربط بين كل ما ذكرت وبين ظاهرة الانحباس الحراري ، ولكن العلماء المتخصصين نظراً لفهمهم مدى تعقد الظواهر الطبيعية والمناخية وترابطها يجدون تفسيراً واضحاً لكل تصوراتهم هذه .

فإذا كانت هذه تصورات العلماء المستقبلية لظاهرة بسيطة كظاهرة الانحباس الحراري ، فكيف تكون تصوراقم لو سقط على الأرض نيزك ضخم قوته التدميرية والحرارية تعادل مئة ألف قنبلة نووية ؟

فمثل هذا الحدث الكوني الضخم يصعب حتى على البشرية تصور كل توابعه ، والقول بقدرته على إنهاء كل أشكال المدنية المعاصرة يعتبر من أسهل التوقعات وأقربها للواقع في تصورات أهل الاختصاص . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

خلاصة القول :

الآثار النبوية التي تتحدث عن ملاحم مستقبلية تشير صراحة إلى أن أنظمة القتال ووسائله فيها هو الأنظمة القديمة مما يدل على أن المدنية الحديثة بكل صورها حتماً إلى فناء ، وهذه قرينة قوية دالة على أن هناك حدثاً عظيماً غير معهود سيصيب الكرة الأرضية ، وهذا الحدث سيؤثر عليها بالكلية . ولا يتصور فناء المدنية الحديثة نتيجة لأحداث بسيطة كالزلازل والبراكين وغيرها ، ولا حتى عن طريق الحروب العظمى ، فمثل هذه الأمور قد تخل بالقدرة العلمية والتكنولوجية ، ولكنها لا تؤدي إلى فنائها ، وهذا ملاحظ بعد الحربين العالميتين .

القرينة الثانية : توصيف عيسى ﷺ لمرحلـــة نزوله كما وردت في الإنـجيل .

هذه القرينة هي الوحيدة في كتابي بأكمله التي أذكر فيها بعض الإسرائيليات ، وبالرغم من دراستي التي أزعم أنها واسعة لكتب الديانات السابقة خاصة في كل ما يتعلق بالإشارات المستقبلية إلا أنني وجدت في الكتاب والسنة ما يشفي الغليل في فهم كل ملابسات الفتن والملاحم وعلامات الساعة فاقتصرت عليها في كتابي ، وهذا هو الأصل لأنها المصادر الأصيلة المعتبرة لدينا ، أما باقي المصادر خاصة كتب الديانات السابقة فقد

(١) النحل: من الآية٤٣

ثبت لدينا أنها قد حرفت ؛ لذا لا نسلم من الخلل والزلل خلال التعاطي معها ، وهذا ما حذا بي إلى ترك كثير من الاستشهادات حتى التي توافق شرعنا .

لكن في هذا الفصل بالذات نظراً لغموضه وتعلقه بمرحلة الدجال التي يليها نزول عيسى ﷺ رأيت أن أذكر بعض النصوص الواردة في الإنجيل التي تحكي طبيعة تلك المرحلة ، وأذكرها هنا في باب القرائن فقط استئناساً ومحاكمة وليس استشهاداً ، خاصة في خبر ورد في الكتب السابقة لا يتعارض مع ما تدل عليه الأدلة في شرعنا ، وهذا الوجه جائز في رواية الإسرائيليات ، ويدخل تحت باب « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . » (۞)

فقد ورد في الإنجيل أن عيسى ﷺ أخبر حواريه عن مرحلة نزوله ، فطلبوا منه الأمارات الدالة على ذلك وهذه النصوص الواردة في ذلك : « تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين ، قل لنا : متى يكون هذا وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : انظروا لا يضلكم أحد . فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب .. وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن ، لكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع ، حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي ، وحينئذ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضاً ويبغضون بعضهم بعضاً ، ويقوم أنبياء كذبة

(۞) الإسرائيليات تشمل كتب الأمم السابقة ؛ أي كتب اليهود والنصارى ، وإنما سميت إسرائيليات من باب التغليب ، وهي ثلاثة أقسام : الأول ما ثبت في شرعنا صحته ، وهذا القسم يجوز روايته والاستشهاد به وكذلك لإقامة الحجة عليهم من كتبهم ، القسم الثاني : ما ثبت في شرعنا أنه كذب كمطعنهم في الأنبياء ونحوه ، وهذا لا تجوز روايته ، القسم الثالث : ما لم يثبت لدينا كذبه أو صدقه أو ما هو مسكوت عنه في شرعنا ، وهذا القسم تجوز روايته دون تكذيب أو تصديق له .يقول ابن كثير : « ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب .. فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه أو الاعتماد عليه . » [البداية والنهاية (٦/١)] . قال الشافعي : من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم . » [فتح الباري (٥٧٥/٦)] والمسألة التي طرحتها في القرينة هنا إما تدخل في القسم الأول أو الثالث ، والقسمان يجوز الرواية فيهما .

كثيرون ويضلون كثيرين .. فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس ليفهم القارئ ، فحينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال ... وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت ؛ لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون ، ولو لم تقصَّر تلك الأيام لم يخلص جسد . ولكن لأجل المختارين تُقَصَّر تلك الأيام .. وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء .. وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان . » (١)

هذا النص الأول في إنجيل متى وكرر نفس الموضوع في إنجيل مرقس وإنجيل لوقا ، مع بعض الاختلافات الهامة أذكرها هنا .

« وتكون زلازل عظيمة في أماكن ومجاعات وأوبئة ، وتكون مخاوف وعلامات عظيمة من السماء ، وقبل هذا يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم ويسلمونكم إلى مجامع وسجون وتساقون أمام ملوك وولاة .. وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم ، وعلى الأرض كرب . أمم بحيرة . البحر والأمواج تضج ، والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة لأن قوات السماء تتزعزع . » (٢)

« .. ومتى رأيتم رجسة الخراب التي قال عنها النبي دانيال قائمة حيث لا ينبغي ..وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ؛ لأنه يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله إلى الآن ولن يكون ، ولو لم يقصر الرب تلك الأيام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين الذين اختارهم الله قصر الأيام .. أما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه ونجوم السماء تتساقط . » (٣)

---

(١) إنجيل متى ، الإصحاح الرابع والعشرون [الكتاب المقدس ، العهد الجديد (٤٤)]

(٢)إنجيل لوقا ، الإصحاح الثالث والعشرون [الكتاب المقدس ، العهد الجديد (١٣٥ وما بعدها)]

(٣) إنجيل مرقس ، الإصحاح الثالث عشر [الكتاب المقدس ، العهد الجديد (٨٠ وما بعدها)]

هذه أبرز النصوص التي تطرقت إلى مرحلة نزول عيسى ﷺ ، و لكي نفهمها جيداً أشير هنا إلى أن الخطاب هنا موجه للحواريين ، وهم مسلمو تلك المرحلة ، أما الخطاب المستقبلي فسيكون لمن هو على شاكلتهم من مسلمي مرحلة النزول ، وهم أتباع محمد عليه السلام .

محاكمة النصوص السابقة ومقارنتها مع ما ثبت في شرعنا :

الواضح من سياق النصوص السابقة أنها تحكي إرهاصات المرحلة التي تسبق نزول عيسى ﷺ وعلاماتها ، ولعل أعم العلامات التي ذكرها عيسى ﷺ :

١- **خروج أدعياء النبوة** [أنبياء كذبة ومسحاء كذبة] ، وهذه العلامة أخبر النبي محمد ﷺ عنها أنها من علامات الساعة ، وذكر ثلاثين دعياً للنبوة يكون آخرهم المسيح الدجال ، لكن أضيف هنا أن هذه العلامة من عيسى ﷺ قد يكون فيها إشارة إلى المدرسة الإنجيلية الأصولية ذات الإمكانات الهائلة و القنوات التبشيرية التلفزيونية المليونية التي يعج بها الغرب ، والمعلوم أن هؤلاء قد اخضعوا تعاليم الدين المسيحي إلى المآرب السياسية والمصالح الشخصية فأضلوا الكثيرين ولهم صولات وجولات كثيرة في التأثير على الرأي العام وعلى توجهات الشعوب حسب مآربهم .

٢- **زلازل عظيمة ومجاعات وأوبئة** : وهذا ذكرت في النصوص السابقة الثلاثة ، وفي بعضها جاءت الإشارة إلى زلازل في أماكن ، مما يشير إلى عدم عمومها ، وهذه العلامة عبر عنها نبينا محمد ﷺ بصيغتين الأولى : كثرة الزلازل ، وسنوات الزلازل ، ثم بالخسوف الثلاثة التي تكون في أماكن مخصوصة ، وما دام النص الإنجيلي يخبر عن مرحلة عودة عيسى ﷺ إذا يراد بها علامة لم تأت بعد كما ذكرت سابقاً وهي سنوات الزلازل ، أو الخسوف الثلاثة[خسف المشرق – خسف المغرب – خسف جزيرة العرب] .

٣- **تسلط أهل الباطل على أهل الحق** . وهذه عبرت عنها النصوص السابقة بعدة أشكال منها . « وقبل هذا يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم ويسلمونكم إلى مجامع وسجون وتساقون أمام ملوك وولاة » « حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم

وتكونون مبغضين من جميع الأمم » وهذه العلامة عبر عنها نبينا محمد بأشكال متعددة منها : هلاك الوعول ومنها ائتمان الخائن وتخوين الأمين ومنها رفعة الأشرار ، ومنها خذلان الطائفة المنصورة ، ومنها ما ورد عن المرحلة التي تسبق خروج المهدي والتي ينتشر فيها الظلم لدرجة أن من يقول الله الله يقتل ، ومنها تسلط الأمم على أمة محمد ﷺ ، لكن العلامة هنا تشير إلى شكل تآمري واسع على أهل الحق في ذلك الزمان .

٤- **رجسة الخراب** : وهذه علامة لم تذكر في نصوصنا الشرعية والمراد بها والله أعلم قيام هيكل اليهود ، وجاءت الإشارة في بعض النصوص إلى قيام رجسة الخراب في المكان المقدس **حيث لا ينبغي لها** مما يشير إلى أنها وإن كان الهدف من قيامها ديني إلا أنه ليس لله ؛ لذا استحق كلمة الرجس التي هي صنو النجس .

٥- **علامات كونية تسبق نزول عيسى** ﷺ : وهذه جاء التعبير عنها بعدة أشكال : « فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه ونجوم السماء تتساقط » « وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء » « وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم » « وتكون مخاوف وعلامات عظيمة من السماء » هذا أبرز العلامات الفلكية الحاصلة قبل نزول عيسى ﷺ ، وهي تعبر بشكل جيد عما ذكرته سابقاً ، فظلام الشمس وعدم إعطاء القمر لضوئه كناية عن الحجاب الذي يحجبهما عن الأرض ، وهو آية الدخان ، أو الدخان المتولد والمستقر في الغلاف الجوي بسبب نزول كسف. أما النجوم التي تتساقط فهي كناية عن الكسف الساقط أو الحاصب المسوم ، والنص السابق يربط بين علامات عظيمة في السماء وبين مخاوف على الأرض ، وبينت النصوص أن هناك مخاوف عظيمة بين الناس لما يتوقعونه من نتائج خطيرة لهذه العلامات ، وفيها إشارة إلى تيقنهم بأن ما يقع بهم هو غضب رباني ترتب عليه تسلط جنود السماء عليهم ، وهذا عبرت عنه النصوص بقولها « والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة لأن قوات السماء تتزعزع . » ولاحظ أن النص استخدم كلمة يغشى ، وهي نفس الكلمة التي جاء ذكرها في آية

الدخان ، كذلك حالة الانتظار هنا فيها دلالة على أن علامات السماء تظهر أولاً ثم بعد برهة من الزمان تسقط على المسكونة ، وهذا يتفق مع الآثار التي ذكرهًا سابقاً من ظهور النجم (النيزك) ثم بعد ذلك سقوطه في المشرق .

٦- **تقارب الزمان** : وهذه العلامة عبر عنها النص الإنجيلي بعدة عبارات منها : « **ولو لم يقصر الرب تلك الأيام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين الذين اختارهم الله قصر الأيام** » « **ولو لم تقصَّر تلك الأيام لم يخلص جسد . ولكن لأجل المختارين تُقَصَّر تلك الأيام** » وهذه العلامة أخبر عنها نبينا محمد ﷺ في عدة أحاديث ذكرهًا في موضعين من الكتاب ، أحدهما هذا الفصل إلا أن النص هنا فيه ثلاث إشارات عجيبة :

الأولى : فيه تأكيد على أن تقارب الزمان على حقيقته .

والثانية : تقارب الزمان له علاقة بمرحلة الحدث الكوني أو العلامات التي في السماء ؟

والثالثة: فيه بيان للحكمة من حصول هذه العلامة وهو أن بسببها ينجو الكثيرين من أهل الأرض بقوله « **ولو لم يقصر الرب تلك الأيام لم يخلص جسد** » وأن هذه العلامة سيقت أصالة من باب الرحمة الربانية والعصمة الإلهية لأهل الله في الأرض ، أو أولياء الله في الأرض ، أو المختارون وهي من باب « لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » (١)

٧- **كرب ــ حيرة ــ أمواج ثائرة .** وهذه العلامة عبر عنها النص الإنجيلي « **وعلى الأرض كرب . أمم بحيرة . البحر والأمواج تضج** » أما وجود الكرب والحيرة فهذه عبرت عنها الأحاديث النبوية كثيراً وفي مناسبات عدة ، وأي حيرة أعظم من أن يتقلب الإنسان بين النقيضين خلال ساعات « يصبح مؤمنا ويمسي كافراً » وأي كرب أشد من أيام الصبر التي يكون القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر ، أو يتمرغ فيه الرجل على القبر متمنياً الموت وغابطاً أهل القبور ، لكن يلاحظ في النص السابق أنه أشار إلى علامة بحرية لها علاقة بالعقوبة وهي الأمواج الثائرة ، والواقع يشهد لهذه العلامة ، **وموجة**

(١)هود:٤٣

تسونامي الأخيرة كانت آية من الآيات ، ولعله يكون بعدها موجات بحرية وأعاصير عاصفة أخرى نسأل الله السلامة .

٨- **علامة ابن الإنسان :** ، وهذه العلامة ذكرتها النصوص السابقة بعد أحداث أرضية وسماوية متعددة كذهاب ضوء الشمس والقمر ، وتساقط النجوم ، وجاء التعبير عن هذه العلامة بالتالي : « وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان . » ؛ أي بعد هذه الأحداث تظهر هذه العلامة ، ودلالتها تشير إلى إنسان يخرج في آخر الزمان وتكون هناك بعض العلامات الدالة عليه ، وهي من الخوارق ، أو من إرهاصات خروجه ، وهذا النص يحتمل أمرين :

الأمر الأول :

يحتمل أن يكون المقصود بذلك هو الدجال الذي حذر منه كل الأنبياء ومن ضمنهم عيسى ﷺ ؛ لذا مع هذه الأحداث تبدأ إرهاصات خروجه وعلاماتها ، ووصفه بابن الإنسان يراد به هنا بيان حقيقته ، وكذبه في ادعائه للربوبية .

الأمر الثاني :

يحتمل أن يكون المقصود بذلك هو المهدي ﷺ الذي يكون خروجه في تلك المرحلة ؛ وجاء النص ليشير إلى علامة تظهر عند خروجه ، وهذه العلامة هي المقصودة في الأثر الوارد عن علي بن عبد الله بن العباس حيث قال: « **لا يخرج المهدي حتى تطلع مع الشمس آية.** » (١)

ويحتمل أن تكون العلامة أيضاً الخسف الذي يقع في جزيرة العرب في الجيش الذي يقصد قتال المهدي ، فهذا الحدث هو من أكبر دلائل مصداقية خروج المهدي ﷺ .

---

(١) أخرجه عبد الرازق في مصنفه ، ونعيم في الفتن ، وقال عنه البستوي : **إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات** [البستوي : المهدي المنتظر (٢٢٠)]

القرينة الثالثة : السنن الربانية في إهلاك الأمم .

القرآن الكريم منهاج الأمة الخالد ونبراس الحق ، ونور القلوب في استلهام مجريات الصراع بين الحق والباطل ، وقد تضمن سنناً ثابتة للنصر أو الهزيمة ، للبقاء أو الهلاك ، وهذه السنن المنثورة في القرآن الكريم ضمن سياقات محددة تشير بوضوح إلى أن هناك قانوناً ربانياً عاماً مبنياً على أسباب ونتائج - وفق قدر الله - وهذا القانون يتحدد من خلاله بقاء أمة أو هلاكها ، وهذا القانون شأنه شأن القوانين الطبيعية الأخرى التي قدرها الله سبحانه وتعالى في الكون بحيث يترتب على وقوع السبب حصول النتيجة المترتبة عليه ، بل السنن الربانية في إهلاك الأمم أكثر ثباتاً من القوانين الطبيعية في الكون ، والذي دل على كونها أكثر ثباتاً هو الذي قدرها ، وهو الله سبحانه وتعالى .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (١) ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (٣) ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً، اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (٤)

فالآيات تشير صراحة إلى هذا القانون الإلهي المقدر والمبني على السبب والنتيجة في تصريف الأمم وهلاكها والآيات واضحة الدلالة على ثبات هذه السنن ، وهذا المعنى أشار إليه محمد الغزالي بقوله : « .. والأساس أن القرآن نبه فعلاً إلى أنه كما توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلاً عند المائة ، ودرجة التجمد

---

(١) الأحزاب:٦٢

(٢) الفتح:٢٣

(٣) الاسراء:٧٧

(٤) فاطر:٤٢، ٤٣

عند الصفر ، أو تجعل للغازات ضغوطاً معينة .. كذلك الأمر في الحضارات البشرية ، وانهيارات الأمم وانتصاراتها : إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل .. سنن الله في المجتمعات هي صور أخرى مكملة أو امتداد طبيعي لسننه في العلوم التطبيقية .. ليس هناك فوضى في الكون من ناحية البناء العلمي له ، ومن ناحية الانطلاق الحضاري ، سنن قائمة بيقين ، وسنن ثابتة . » (١)

كلام الغزالي صريح ، ولا يحتاج إلى تعقيب ، والآيات السابقة دلالتها واضحة على أن الأمم - من حيث الزوال أو البقاء - تحكمها قوانين ربانية ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ما دامت السماوات والأرض ، ولئن كان الغرب أوفق منا في اكتشاف قوانين الطبيعة وتوظيفها في الحياة من خلال التأمل في آيات الله المنظورة ، فنحن أولى منه في اكتشاف قوانين السماء في صراع الحق والباطل من خلال التأمل في آيات الله المقروءة والدالة على هذه القوانين ، وهذا باب عظيم غفلنا عنه ، ولا يتسع مجال البحث هنا لملاحقته ؛ لأن هذا الموضوع لوحده يحتاج إلى مجلد ضخم ، لذا سأقتصر هنا على بعض الإشارات التي سأخلص منها إلى نتيجة تعتبر قرينة دالة على وقوع حدث كوني هائل يعصف الكرة الأرضية .

١- السنن الربانية المهلكة . (۞)

---

(١) الغزالي : كيف نتعامل مع القرآن (٥٣ وما بعدها)

(۞) هذه بعض الآيات الدالة على بعض السنن المهلكة : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً ﴾ [الكهف:٥٩] ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الاسراء: ١٦]﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١٨]﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل:٢٦] ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . ﴾ [يونس ٢٤] ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ، فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . ﴾ [الشعراء : ٥٢-٥٩]﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت الآية ١٥]

خلال استقراء قمت به لكتاب الله والسنن المبثوثة فيه مقارنة بواقعنا المعاصر وجدت أن أكثر هذه السنن قد تجسدت في العالم بما يوحي بقرب عقوبة ربانية تتناسب و طبيعة الجرم ، ولعل أهم السنن الربانية المهلكة والمذكورة في القرآن هي الظلم ، وهو مشاهد في عصرنا بشكل واضح وبكامل صوره سواء كان الكفر بعينه أو الظلم الاجتماعي أو الظلم الاقتصادي أو الظلم لأهل الله سبحانه وتعالى في الأرض بإثارة الشبهات حولهم وبث الشهوات بينهم ، أو بتعذيبهم أو تكذيبهم أو حصارهم اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً أو بالمكر بهم وملاحقتهم .

ومن هذه السنن أيضاً الاستكبار والعلو في الأرض والنموذج العادي والفرعوني لحظة هلاكهما موجودان في عصرنا وهناك من نرى لسان حاله يقول : من أشد منا قوة ، ومن يرى أن أهل الله سبحانه وتعالى في الأرض شرذمة قليلون ، وهناك من يرسل إلى المدائن بل إلى الدول ليحشر كل طاقاته وجيوشه للكيد بالإسلام وأهله ، وهناك من يرى استخدام القوة بأبشع صورها مع كل من يثبت على دينه ، ويتمثل منطق فرعون القائل : سنقتل أبنائهم ، ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

ومن هذه السنن الكيد لأهل الله من خلال التآمر عليهم ، وهذا واضح في عصرنا ، ومكرهم لا تزول منه الرجال فقط بل تزول منه الجبال ، سواء كان مكراً بالقرآن نفسه أو بالسنة أو بمدارس القرآن أو بالمناهج الدينية حتى لو كانت تتضمن قصوراً ، أو بتعاليم الإسلام وثوابته من خلال ملاحقة المرأة العفيفة والكيد بها ومصادرة فكرها التليد ، وبث الأفكار المسمومة في ذهنها باسم تحرير المرأة أو حقوقها .

ومن السنن المهلكة أيضاً تحرك المترفين في الأرض ليفسدوا فيها فساداً موجباً للعقاب ، وهذا ملاحظ في عصرنا حيث يؤمر المترفون أمراً بأن يكون لهم نصيب في الإفساد من خلال الفضائيات الخاصة وأماكن اللهو و وعروض الأزياء وغيرها .

ومن هذه السنن أيضاً تزين الأرض التي يترتب عليها ثقة الإنسان العمياء بنفسه وسيطرة الوساوس الشيطانية عليه بأنه قادر علي كل شيء ، فهو يملك أن يتحكم

بعناصر الطبيعة حوله كيفما يشاء ، بل هو قادر لأن يتحكم في الأجنة قبل خروجها من بطونها ، وفي النبات قبل بروزه من الأرض .

ومن السنن المهلكة انتشار الفاحشة والموبقات في الأرض ؛ حيث لم تعهد البشرية انتشاراً للفاحشة والإعلان بها عبر أجهزة التلفاز والفضائيات والانترنت كما نعهد في عصرنا .

ومن السنن المهلكة أيضاً فتح باب المواجهة بين الحق والباطل ، وهذا ملاحظ حتى أصبح المستهدف الوحيد في الأرض هو المسلم و دينه وكتابه ، بل استُدرج كل ملوك الأرض وتناسوا كل خلافاتهم واتفقوا على حرب واحدة لأول مرة على مستوى الكرة الأرضية بأكملها .

٢- الإنذارات التي تسبق الهلاك .

هذه بعض السنن المهلكة ، وهناك كثير من الآيات القرآنية الدالية عليها ، ويلحظ أن تجسدها في المجتمع المعاصر قد رافقه بعض الإنذارات الربانية الخفيفة التي تعتبر إرهاصاً بين يدي العذاب الأليم ، وإشارة إلى قربه ، فالمعلوم أنه قبل نزول العذاب المحق تأتي بعض الإنذارات الربانية من باب الرأفة والرحمة ، وهذه أشار إليها الله سبحانه وتعالى في سورة النحل حيث قال : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) فهذه الآية فيها إشارة عجيبة وهي أن حكمة الله سبحانه وتعالى تقتضي أحياناً أن يأخذ القوى الكافرة العظمى على تخوف ؛ والمراد بالتخوف الإنقاص من قدرتها تدريجياً سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية في الغالب أو من الناحية العسكرية والنفسية ، وذلك من خلال تسليط جنود الله التي لا يعلمها إلا هو عليها ، وإنذارات التخوف هذه ملاحظة في عصرنا ، ولكي يتم فهم المراد بها أسوق نموذجاً قرآنياً دالاً عليها وقع مع قوة عظمى في الماضي ، وهي دولة فرعون التي أرسل الله سبحانه وتعالى عليها بعض الآيات كإنذار قبل العقوبة الماحقة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا

---

(١) النحل:٤٧

عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ (١) فهذه الآيات ابتلي بها قوم فرعون ، وكانت بمثابة إنذار لهم ، وهذه الإنذارات أو الآيات نراها بأم أعيننا تصيب القوى العظمى وغيرها من دول الكفر أو الظلم ، فالأعاصير المتكررة وموجات الجفاف ، والأمراض الماحقة في الزراعة والحيوان والطير والإنسان ، فالعالم ابتلي بالإيدز ، و الغرب ابتلي بجنون البقر ، والشرق بأنفلونزا الطيور ، والأمراض الثلاثة السابقة في الإنسان والطير والحيوان تعتبر من باب الآيات حقاً فنحن في عصر العلم ، وعصر الثقة العمياء للإنسان بقدراته ، وبالرغم من ذلك هناك من الأمراض المهلكة التي أعجزت البشرية وحارت في فهم أسرارها ، وأثقلت ميزانية الدول بتكاليف باهظة ، وهذا هو معنى قول الله « يأخذهم على تخوف » .

وهذا يهيج سؤالاً في هذا المقام وهو ماذا ستؤثر تلك الأمراض على الدول العظمى الظالمة ؟ ولماذا لم يكن هناك عقوبة رادعة قوية لهم على كفرهم وضلالهم .

وللإجابة على هذا السؤال أقول :كم سيؤثر القمل على دولة عظمى كدولة فرعون ؟ وبالرغم من ذلك اعتبره القرآن آية من الآيات لما فيه من تنغيص لحياة أهل الباطل وإنذار لهم .

وهذه سنة ربانية تساق دائماً قبل العذاب ووجه الحكمة فيها أن طبيعة العذاب الرباني أنه شامل وممحق و أليم ومباغت ، لذا ناسب الأمر أن يكون له بعض الإرهاصات المحذرة من باب الرأفة والرحمة كما صرحت الآية في سورة النحل .

لذا الأعاصير تأخذ جانباً من اقتصاد الدول العظمى وتنغص عليها حياتها التي ترنو إليها ، وكذلك جنون البقر والإيدز وغيره من الأمراض لها نصيب فإن لم يكن لهذه الإنذارات صدى في قلوب هؤلاء ، وازدادوا غروراً وعنجهية ، عندها يرتفع مستوى الإنذار إلى درجة أعلى ليعصف بموجة قاتلة مسومة في متنفس المترفين في الأرض ، وفي لحظات يأكل البحر قرابة النصف مليون إنسان في مناطق السياحة والترف في شواطئ

---

(١) الأعراف:١٣٣

جنوب شرق آسياً ، والحكمة من ذلك هو « لعلهم يرجعون – لعلهم ينتبهون إلى أن هناك قوة حقيقية مهيمنة على الكون كله وبيدها مقاليد كل شيء » فإن لم يحصل الارتداع ، عندها يصدق فيهم قول الله سبحانه وتعالى « وما ظلمناهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون . » ويكونون أقرب شيء من سطوة ربانية عظمى مباغتة لهم ، ومن حكمة الله أن سطوة العقاب تأتي لحظة فرح وثقة واستهزاء بأهل الحق وشعور بالقدرة المطلقة وإحساس بالأمن . (❁)

٣- توجيه القول في قرينة السنن الربانية ووجه علاقتها بالحدث الكوني .

أعلمُ أن هذه القرينة بالذات تعتبر أكثر القرائن غموضاً لتعلقها بأسرار السنن الربانية في تصريف الصراع بين الحق والباطل ، وهي كما ذكرت تحتاج إلى مجلد ضخم لتجليتها وتوضيحها ؛ لذا أفتح المجال للقارئ الحبيب لكي يتدبر الآيات التي تبرز تلك السنن وليقارنها بالواقع المعاصر ، وليدرك في أي المراحل نحن منها ، وليعلم القارئ أن آيات الله واضحة وصريحة لكن تحتاج لدراسة استقرائية تأملية يستطيع أهل الفهم من خلالها معرفة طبيعة هذه المرحلة ، وتصور نوعية العقوبة المتوقعة للأرض .

وهذه القرينة في ظني بالرغم من غموضها إلا أنها أقوى القرائن على حدوث حدث كوني يعصف بالكرة الأرضية جميعاً ، وهذا أوضحه في العناصر التالية :

١- الملاحظ أن كل سنن الهلاك موجودة في عصرنا وبشكل صارخ قد يغفل الكثيرون عن الانتباه له .

٢- يلاحظ أن أهل الباطل على وجه الكرة الأرضية كلهم قد استدرجوا للصراع مع أهل الإسلام أو الدين الإسلامي بجميع معالمه على وجه الخصوص ، وهذا أمر

(❁) راجع الآيات التي تحكي اللحظات الأخيرة لقوم نوح عليه السلام ، حيث كانت مليئة بالاستهزاء من نوح الذي يبني سفينته في الصحراء ، أما آخر ليلة في قوم لوط عليه السلام فكانت ليلة فرح عظيم واستبشار بهؤلاء الغلمان الذين حلوا ضيوفاً على لوط عليه السلام ، أما اللحظة الأخيرة لقوم عاد فكانت تلك الغيوم التي تبشر بمطر عظيم بعد القحط الذي أصابهم .

غريب وفيه إشارات عجيبة .

٣- نلاحظ أن تضييق الخناق الوحيد في الكرة الأرضية كلها هو فقط على المسلم على وجه الخصوص .

٤- يلحظ أن أكـــثر المؤتمرات والمؤامرات في الأرض هي للكيد بأهل الإسلام ودينهم .

٥- يلحظ أن العالم كله متواطئ ومشارك في جرائم تشريد وقتل وتضييق على المسلمين في الأرض .

٦- يلاحظ أن أهل الترف أيضاً قد دخلوا مضمار الشر بأوسع أبوابه لإشاعة الفاحشة والمنكرات في الأرض كلها ، وما زالت جهودهم بازدياد .

٧- يلاحظ أن الكرة الأرضية في العصر الحاضر قد اختلفت عن الماضي حيث أشبهت القرية الكونية أكثر من كونها أراضي مترامية الأطراف ، وأصبحت الأمراض القلبية والروحية متشابهة ومتجذرة في أكثر مناطقها .

٨- يلاحظ أن إنذارات الهلاك والتي يأخذ بعضها شكل الآيات قد عمت الكرة الأرضية كلها وبنسب متفاوتة مما يوحي بقرب العقوبة وعمومها .

المحصـــلة

الملاحظ على الكرة الأرضية كلها أنها أصبحت كتلة واحدة تتضمن معاصي متشابهة ، ومكر واحد وحرب واحدة ومستهدف وحيد وإنذارات متشابهة ، وهذا لأول مرة بهذا الشكل في كامل الكرة الأرضية بما يوحي أن العقوبة ستكون واحدة للجميع ولكن بنسب متفاوتة ، وتكون هذه العقوبة متنفساً للدين الإسلامي لينطلق في عالميته الثانية .

ونموذج عهد نوح عليه السلام في أول البشرية يشهد لذلك فلما كان الصراع واحداً على الأرض ناسب الأمر أن تكون العقوبة شاملة بالطوفان .

وفي آخر البشرية في عصرنا لما تحولت الصراعات الأرضية إلى صراع واحد موجه نحو أهل الرسالة في الأرض ناسب ذلك أن تكون العقوبة أشبه بطوفان قوم نوح ، ولكن بشكل آخر ، وهو آية الدخان لتنهي صفحة بالية من البشرية وتفتح أخرى ممهدة للعالمية الثانية للإسلام وليست منشئة لها .

الفصل الثالث : المهدي المنتظر

ويتضمن المباحث السبعة التالية

المبحث الأول : ظاهرة المهدي حقيقة أم وهم

المبحث الثاني : نسب المهدي ﷺ واسمه

المبحث الثالث : صفات المهدي الخلقية

المبحث الرابع : الإرهاصات الممهدة لخروج المهدي ﷺ

المبحث الخامس : بيعة المهدي والخسف الذي يتبعها

المبحث السادس : الملاحم بين المهدي وبين الروم

المبحث السابع : مدة بقاء المهدي والخير الذي يكون في زمانه

توطئة :

المهدي ﷺ رجل صالح من عترة النبي ﷺ ومن ذرية سبطه الحسن ﷺ في الراجح ، يخرجه الله سبحانه وتعالى في آخر الزمان حال انتشار الظلم والجور في الأرض ، فيجدد الله سبحانه وتعالى به الملة ، ويملأ الأرض في عهده قسطاً وعدلاً ، يملك سبع سنين أو تسع ، ويصدق في حقه القول بأنه المجدد الأعظم للأمة في آخر الزمان .

وقد ورد في خروج المهدي أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الضعيف ومنها الموضوع ، واختلفت الآراء في حقيقة خروجه ووقته ، ووقف البعض منها موقف المنكر المستريب ، والبعض غلا في توصيفها ، والبعض استغلها لتحقيق مآرب خاصة ، ولعل ظاهرة المهدي ﷺ هي أكثر ظاهرة في علامات الساعة قد اختلط فيها الغث بالسمين ، وذلك لتعلقها من جانب بالفتن والملاحم ، وتعلقها من جانب آخر بالفضائل التي للشيعة خصوصاً شغف بها ،وتعلقها أيضاً بوعد الخلاص للأمة مما يشجع عند البعض استغلالها .

فهذه المتعلقات الثلاثة عززت دواعي الوضع والمبالغة والكذب في هذه الظاهرة ، حتى غابت معالمها الحقيقية عند الكثيرين .

ومن هنا تأتي خطورة هذا الفصل ، وضرورة التفصيل فيه ليستبين الرشاد من الغي بخصوص هذه الظاهرة .

المبحث الأول
ظاهرة المهدي حقيقة أم وهم

ظاهرة المهدي اختلط فيها الحق والباطل والغث والسمين ، وغاب تبيان معالم الحق فيها عند البعض مما حذا بهم لإنكارها من أصلها ، و اعتبروها من الأوهام أو العقائد الدخيلة على المسلمين .

وهذا الرأي مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون بخروج رجل من أهل بيت النبي ﷺ في آخر الزمان يكون في عهده الرخاء والعدل .

ولتفنيد المسألة أرى أن أطرح رأي المنكرين وشبهاتهم والردود عليها ، ثم أخلص لبيان رأي أكثر علمائنا فيها .

المطلب الأول : المنكرون لظاهرة المهدي

اشتهر عن البعض إنكار أصل ظاهرة المهدي ، و المنكرون في غالبهم :

١- إما أنه يرى أن المقصود بالمهدي عيسى ﷺ .

٢- وإما يكون قليل البضاعة في صنعة الحديث .

٣- وإما يكون من المدرسة العقلانية قديماً وحديثاً ممن حكمت العقل في الشرع

٤- وإما يكون ممن تأثر بدراسات المستشرقين ومناهجهم .

٥- أو قد يكون الإنكار من باب ردة الفعل لما يراه من اختلاط هذه الظاهرة ببعض الأوهام .

وأياً كان سبب الإنكار أو داعيه ، أو أرضيته الثقافية ، الأولى في هذا المقام ذكر بعض نقول المنكرين ، وبيان شبهاتهم ، وتفنيدها ، ليتضح الأمر للقارئ بخصوص هذه المسألة ، وأرى أن أقسم هذا المبحث إلى قسمين وذلك على النحو التالي :

القسم الأول: شخصيات علمية هامة أنكرت ظاهرة المهدي

أتناول من هذه الشخصيات ما ورد عن مجاهد والحسن البصري وما أُثر عن ابن خلدون ومحمد رضا من إنكار لظاهرة المهدي .

أولاً : مجاهد والحسن البصري وظاهرة المهدي :

ورد عن مجاهد والحسن البصري أنهما يريان أن المهدي هو عيسى بن مريم ، وما ورد عنهما إنما وصل من طرق ضعيفة لا يعتد بها . (١)

و على اعتبار صحة ورود هذا الرأي عنهما ، فإن مرجعه أثر أخرجه ابن ماجة وفيه « .. وَلَا الْمَهْدِيُّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. » (٢) وهذا الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال عقبه : « إنما ذكرت هذا الحديث تعجباً ، لا محتجاً به . » (٣)

والحديث ضعفه البيهقي ، وقال عنه الذهبي في الميزان منكر ، وقال الصنعاني : موضوع وممن ضعفه أيضاً الآبري والقرطبي .

وعلى فرض صحة الأثر ، فليس فيه ما ينفي خروج المهدي من عترة النبي ﷺ ؛لأن الأخبار الكثيرة الواردة عن وصف المهدي واسمه واسم أبيه واضحة وصريحة بأن المهدي غير عيسى عليه السلام .

وغاية ما فيه أنه أثبت أنه لا مهدي كامل معصوم إلا عيسى ﷺ ؛ أي أن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ﷺ ، بحيث يصح أن يقال لا مهدي في الحقيقة سواه ، وإن كان غيره مهدياً .

يقول ابن كثير : « هذا الحديث – فيما يظهر ببادئ الرأي – مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهدي غير عيسى ﷺ ، وعند التأمل لا ينافيها ، بل

---

(١) البستوي : المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الضعيفة (٣٢)

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٣٩ [السنن (٢/١٣٤٠)]

(٣) المستدرك (٤/٤٤١)

يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ﷺ ، ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهدياً أيضاً . » (١)

إذا محصلة هذه الشبهة هو أن ورود هذا الرأي عن مجاهد والحسن البصري ورد بطرق ضعيفة مما يعزز احتمالية أنه منسوب لهما كذباً ، وعلى فرض صحة وروده عنهما ، فهو اجتهاد منشؤه حديث ضعيف السند محتمل الدلالة .

ثانياً : ابن خلدون وظاهرة المهدي :

يعتبر ابن خلدون المؤرخ المشهور من المنكرين لظاهرة المهدي ، واعتمد في إنكاره على منهج النقد لدى المحدثين ، حيث عرض أحاديث المهدي ، وفند أسانيدها ، وخلص إلى نتيجة أنها لا تصلح لإثبات هذه الظاهرة ، ورأيه يظهره هذا التعقيب الذي ذكره بعد مناقشته للأحاديث ، حيث يقول : « فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي ، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل ، أو الأقل منه » وقال أيضاً : « فإن صح ظهور هذا المهدي ، فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم (أي من الفاطميين القاطنين في الحجاز وغيرها) ويؤلف الله بين قلوبهم حتى تتم له شوكة وعصبية . » (٢)

هذا مجمل رأي ابن خلدون ، ويتضح منه أنه لا يجزم بتكذيب الظاهرة ، وإنما غاية رأيه أنه يشك فيها ، ونظراً لشهرة ابن خلدون نقل كثير من العلماء رأيه ، إما للرد عليه أو الأخذ به .

شبهة ابن خلدون والرد عليها :

يلحظ من كلام ابن خلدون أن تشككه مرجعه كون الأحاديث الواردة في المهدي رضي الله عنه أغلبها ضعيفة ، أو لم تسلم من مقال في أحد رواتها ، واستند في رأيه على أن رواة أحاديث المهدي أغلبهم مجروحون ، والقاعدة في أصول الحديث أن الجرح مقدم على

---

(١) النهاية في الفتن (٤٠)

(٢) ابن خلدون : المقدمة (٣٢٢)

التعديل . (١)

الرد على شبهة ابن خلدون :

١- يلحظ من كلام ابن خلدون أنه لم يسلم في نظره من أحاديث المهدي إلا القليل ، والقليل الذي ثبت عنده كافي لإثبات أصل الظاهرة ، فلا وجه لإنكارها ، وما لم يسلم عنده ، قد سلم عند غيره من أهل الدراية والرواية في علم الحديث

٢- يعتبر ابن خلدون من المؤرخين ، وهو قليل الدراية والرواية في علم الحديث ؛ لذا قوله في هذا الشأن المتعلق بالحديث النبوي ليس حجة ، بل الحجة قول أصحاب هذا الشأن من علماء الحديث ، كأمثال أبي داود والترمذي والحاكم و الهيثمي و ابن حجر العسقلاني وابن حبان وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والقرطبي و السيوطي والسخاوي وأحمد شاكر وغيرهم من أساطين علم الحديث ، وكلهم مثبتون لهذه الظاهرة ، بل لم أعهد - في حدود دراستي - من علماء الحديث الذين يعتد بهم من أنكر ظاهرة المهدي .

٣- استناد ابن خلدون إلى قاعدة « الجرح مقدم على التعديل » هكذا بدون ضوابط ليس صحيحاً ، بل أخطأ في توظيف هذه القاعدة أو فهم مراد علماء الحديث بها ، فكلام أهل الحديث ليس على إطلاقه ، وليس كل جرح في راوٍ للحديث معتبرٌ عندهم ، بل الأمر مقيد بأنه لا بد أن يكون الجرح مفسراً حتى يتمكن الباحث من النظر فيه ، هل هو جرح حقيقة أم لا،ولو استخدم الأمر على إطلاقه لكان ذلك كفيلاً برد الكثير من الأحاديث الصحيحة .

يقول أحمد شاكر عن ابن خلدون : « لم يحسن قول المحدثين الجرح مقدم على التعديل،ولو اطلع على أقوالهم وفقهها ما قال شيئاً مما قال..» (٢)

ويقول العباد في معرض رده على ابن خلدون : « إنه لو حصل التردد في

---

(١) ابن خلدون : المقدمة (٣١٢)

(٢) مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر (١٩٧/٥)

أمر المهدي من رجل له خبرة بالحديث لاعتبر ذلك زللاً منه ، فكيف إذا كان من الإخباريين الذين هم ليسوا من أهل الاختصاص . » (١)

ثالثاً – السيد محمد رشيد رضا وظاهرة المهدي .

يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله : « وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر والجمع بين الروايات أعسر ، والمنكرون لها أكثر ، والشبهة فيها أظهر ، لذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحيهما . » (٢)

ويقول : « ولأجل ذلك كثر الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأحبار جولة واسعة في تلفيق تلك الأخبار . » (٣)

شبهة الإمام محمد رشيد رضا :

يتضح من الكلام السابق أن رضا – رحمه الله – يشكك بظاهرة المهدي للأسباب التالية:

- أحاديث المهدي بينها تعارض شديد يصعب معه الجمع بين الروايات .
- كثرة المنكرين والمشككين في الظاهرة .
- شبهة الوضع والتلفيق في هذه الظاهرة قوية جداً ، ويرجح رضا أنها من تلفيقات كعب الأحبار
- عدم إخراج الشيخين شيئاً من أحاديث المهدي في صحيحيهما قرينة قوية على عدم ثبوت شيء منها عندهما .

هذه مجمل عناصر الشبهة التي أوردها السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ، ويمكن مناقشتها على النحو التالي :

---

(١) العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (٥٦)

(٢) رضا : تفسير المنار (٩/٩٩٤)

(٣) رضا : تفسير المنار (٩ /١٠٥)

- اعتبار أن التعارض الشديد بين روايات أحاديث المهدي كفيل بدفعها جميعاً ، اعتبار مردود ، لأسباب منها :

١ - إن غيره من أهل هذا الاختصاص (الحديث وعلومه) الذين يُشهد لهم في هذا العلم لم يروا في هذا التعارض ما يجعل الظاهرة مختلقة ، بل نظروا إليه أنه تعارض ظاهري أمكن الجمع بين رواياته أو الترجيح بينها .

٢ - من تضلع في علم الحديث وجد أن علماء هذا الشأن لهم منهج دقيق في التعامل مع الروايات المتعارضة في ظاهر الأمر ، بحيث إن أمكن الجمع بين الروايات المتعارضة في ظاهرها بوجه من وجوه الجمع تحتمله النصوص جمعوا بينها ، وإلا عمدوا إلى ترجيح رواية على أخرى وفق منهج دقيق لديهم، و لم يعهد عنهم إنكار مجموع الأدلة أو الروايات ، ولو سلكوا في تعاملهم مع السنة مسلك محمد رضا لأدى ذلك إلى دفع كثير من النصوص والأصول وإنكار ثبوتها ، بما يفضي إلى اضطراب منهج التعامل مع السنة من أصله . (١)

٣- يرى محمد رضا أن كثرة المنكرين للظاهرة كفيل بدفعها ، وهذه دعوى لا نسلم له بها ، والأصل أن يبين لنا من هم الكثيرون الذين يقصدهم (✽) .

هل هم من أهل الحديث مثلاً ، ومن تتبع رأي أكثر علماء الحديث يجد أنهم يقرون بهذه الظاهرة ويجزمون بها .

وإذا لم يكونوا من أهل الحديث ، فكيف يرى رأيهم معتبراً في شيء ليس من اختصاصهم ، ولا في حدود علمهم ، وكيف يحكمهم فيما هو خارج عن مبلغ علمهم ، بل يمكن القول أن اعتبار كل من يعتد به في علم الحديث لأصل الظاهرة - كما سيتضح - كفيل بدفع كل الأوهام المشككة لها .

٣ - اعتبار أن شبهة الوضع القوية في ظاهرة المهدي كفيلة بالتشكيك بها اعتبار مردود

---

(١) انظر السوسوة : منهج التوفيق والترجيح (١٣٥ -٢٧٣)

(✽) أظن أنه يقصد بعض المتأخرين من العقلانيين في عهده

وهو عبارة عن تعميم بلا دليل ، صحيح أن هناك دواعي للوضع خاصة في ظاهرة المهدي ، ووضع الأحاديث في أمر من الأمور أو فضيلة من الفضائل ليس ذريعة لإنكارها ، والمعلوم أن دواعي بيان فضائل الإمام علي ﷺ هي من أشد الدواعي للتزيد والكذب ، وهذا حاصل من الرافضة الذين يغلون فيه ، فهل لمثل هذه الدواعي القوية أن تجعلنا ننكر فضيلة الإمام علي ﷺ ، وقس على ذلك .

والصحيح في هذه المسألة القول بأن قوة الدواعي للوضع في ظاهرة المهدي تجعل العلماء أكثر احتياطاً في التعامل مع الروايات الواردة ، وليس إنكار ما ثبت عندهم صدق ثبوته .

يضاف إلى ذلك أن لمعرفة الوضع في الحديث منهج دقيق عند العلماء يعمد إليه عند تحكيم النصوص ، وعند تحكيم هذا المنهج في جمع من الأحاديث تبين لهم الموضوع من المرفوع والثابت من الدخيل ، فإما نحكم أهل الشأن في المسألة أو نطلق أحكاماً عامة ليس لها مستند أو دليل .

وكذلك اعتبار رضا أن أحاديث المهدي من تلفيقات كعب الأحبار ليس له مستند ولا دليل ، والعبرة في الشرع ليس بالدعاوى وإنما بأدلتها ، بل الدراسة والتمحيص تكذب هذه الدعوى ، يقول الدكتور البستوي في دراسته الحديثية القيمة : « **كل ما صح عندي من الأحاديث والآثار ليست فيها رواية واحدة لكعب الأحبار ، ولا رويت عن طريقه .** » (١) .

كذلك تجريح كعب الأحبار واتهامه بالتلفيق ليس له مستند يطمئن القلب إليه ، والحق أن كعباً ثقة في دينه وعدالته ، وقد روى عنه ابن عباس وأبو هريرة على جلالة قدرهما ، فاتهام كعب رحمه الله هو اتهام لهذين الصحابيين الجليلين ؛ إذ كيف يأخذان علمهما من ملفق أو كذاب .

كذلك روى أصحاب الصحاح لكعب فقـــد روى له الإمام مسلم والترمذي

(١) البستوي : المهدي المنتظر (٣٧٧)

والنسائي وأبو داود ، وهذا دليل على أن كعباً كان ثقة عند هؤلاء جميعاً .

وقد رد الدكتور الذهبي على محمد رضا اتهامه لكعب بقوله : « كما أننا لا نقر الشيخ – يقصد محمد رضا – على هذا الاتهام البليغ لكعب ووهب ، ولا على رميهما بالكذب ، ولا على ادعاء عزوهما إلى التوراة وغيرها ما ليس فيها ، كما أنّا لا نقره على اتهامه لعلماء الجرح والتعديل الذين طهروا لنا السنة وأزاحوا عنها ما لصق بها من الموضوعات . » (١)

٥- عدم إخراج مسلم والبخاري شيئاً من أحاديث المهدي يشكك في مصداقيتها ، وهذا كلام مردود لأسباب ذكرها الدكتور البستوي أذكرها هنا مع بعض التصرف :

أ- الشيخان لم يحيطا بجميع الأحاديث الصحيحة ، ولم يدعيا ذلك .

ب- هناك كثير من الأحاديث الصحيحة موجودة في غير الصحيحين ، وقسم منها في باب العقائد ، فهل عدم وجودها في الصحيحين كفيل بالتشكيك فيهما ، طبعا هذا لم يقله أحد من علماء الحديث ، ولم يدعه البخاري و مسلم .

ت- هناك أحاديث غير صريحة أخرجها الإمام مسلم ، و فسرها كثير من العلماء بأنه يراد بها المهدي لقرائن عدة ، وبذلك لا تسلم دعوى أن صاحبي الصحيحين لم يخرجا شيئاً من أحاديث المهدي .

القسم الثاني : شبهات حول ظاهرة المهدي

هذه المطلب تتمة للمطلب السابق إلا أنه يقتصر على ذكر الشبهات الأخرى التي يثيرها بعض المنكرين المعاصرين ومناقشتها ، وتفصيل ذلك على النحو التالي :

الشبهة الأولى : عقيدة المهدية دخيلة على الإسلام مستوحاة من عقيدة المخلص في الديانات الأخرى .

وصاحب هذه الشبهة هو سعد محمد حسن صاحب كتاب المهدية في الإسلام ، حيث يقول في كتابه : « لقد كانت عقيدة المخلص هذه – أكبر الظن – من أهم

---

(١) الذهبي : التفسير والمفسرون (١٨٩/١)

العوامل التي خلقت عقيدة المهدي في المجتمع الإسلامي ، فحيكت هذه على غرار تلك ، أما حاكتها فهم الشيعة على يد ابن السوداء اليهودي المتمسلم الغالي في تشيعه الموهوم . » (١)

ويقول أيضاً : « ونحن لا نشك في أن عقيدة العامة من أهل السنة ، بل وكثير من الخاصة إنما هي أثر شيعي تسرب إليهم فعملت فيه العقلية السنية بالصقل والتهذيب . أما القــول بعــودة المسيح فهو دون ريب من آثار المسيحية في الإسلام . » (٢)

وهذا الكلام في ظاهره الدفاع عن الإسلام ، وفي باطنه الطعن في معلمين من معالمه ، وهما المهدي ونزول عيسى ﷺ ، بل فيه الطعن بمصداقية أهم و أصح كتابين بعد كتاب الله سبحانه وتعالى وهما صحيحا البخاري ومسلم الذين أخرجا أحاديث نزول عيسى ﷺ في نهاية عهد الدجال ، ويتفرع على كلامه التشكيك في ظاهرة الدجال ، فإذا تم التشكيك بكل ما ثبت لدينا من أحاديث صحيحة صريحة بنزول عيسى وقتاله للدجال ، فماذا تبقى لدينا لكي لا يدخله معول التشكيك .

ومثل هذا الكلام يعتبر من السهام المسمومة التي يراد من خلالها الطعن في مصداقية السنة ، ومرجعية الرجل ليست علمية من قريب ولا بعيد ، بل هي خاطرة ودعوى ادعاها ، واعتبرها غير مشكوك بها ، واعتبرها الحاكم على منهج علمائنا العلمي في دراسة السند والمتن الذي لا عبرة له عند هذا الكاتب ، وللأسف يصوغ الكاتب دعواه العريضة بصيغة يقينية و كأن ما يدعيه هو من المسلمات .

تفنيد الشبهة .

– القول بأن عقيدة المهدي دخلت على المسلمين من فكرة المخلص ، هي دعوى ادعاها المؤلف دون أن يذكر دليلاً واحداً عليها ، أو قرينة تعززها ؛ و دعوى عارية عن الدليل

---

(١) البستوي : المهدي المنتظر (٣٦) نقلاً عن كتاب المهدية في الإسلام ص (٤٤)

(٢) البستوي : المهدي المنتظر (٣٦) نقلاً عن كتاب المهدية في الإسلام ص (١٧٤)

قرينة قوية على بطلانها ؛ إذ لو وجد المؤلف دليلاً على ما يقول لتشبث به ، خاصة أنه بدعواه يخالف السواد الأعظم قديماً وحديثاً .

– زَعمُ المؤلفِ يُشعِر بأن فكرة خروج رجل مخلّص لأمة من الأمم هي عقيدة وهمية يتعلق بها الضعفاء تسلية لأنفسهم دون أن يكون لها وجود في أرض الواقع ، وهذا خطأ فاحش يشهد لفحشه التاريخ والنصوص الثابتة ، فبنو إسرائيل كانوا يؤمنون بخروج مخلص يخلصهم من بطش فرعون ، وجاء القرآن ليبين بعد ذكر بطش فرعون لبني إسرائيل أن الله قد أرسل لهم موسى ليخلصهم من فرعون وجنوده من باب المنة الإلهية ؛ لذا ما المانع أن يأتي للأمة في كل عهد من يجدد دين الله سبحانه وتعالى فيها إلى أن يختم ذلك بمجدد أعظم كالمهدي ، هل هذا يتنافى مع سنن الله سبحانه وتعالى لكي نعتبره فاصلاً في المسألة ؟ بل المتتبع للسنن الإلهية كما بينها القرآن يجد أنها تشهد لفكرة المهدي ﷺ ، فبنو إسرائيل لم يخل دهرهم من الأنبياء المترادفين عليهم ، و كذلك قصة طالوت تشهد لمسألتنا هنا .

فهذه سنن الله سبحانه وتعالى ، بل رسالة محمد ﷺ إنما جاءت لتخليص البشرية وتحريرهم من عبادة العباد لبعضهم البعض وما يترتب على ذلك من ظلم اجتماعي واقتصادي ، وكذلك إمداد الأمة بالملهمين والربانيين والمجددين يأتي لنفس الغرض ، و خروج المهدي ونزول عيسى ﷺ في آخر الزمان يعتبران من مقتضيات رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة ، وتخليصاً لها من ظلم ذلك الزمان ، وهذا ما يستكثره علينا هذا الكاتب ، أو يستعظم وقوعه لهذه الأمة .

وغاية القول هنا أن هذا الكاتب هو من متتبعي آثار المستشرقين ، ومن حاملي معولهم في الطعن بالمسلمات باسم الموضوعية والتثبت وقد ذكر مثل كلامه كل من المستشرق اليهودي المجري جولدتسيهر والمستشرق دونلسن . (١)

---

(١) انظر البستوي : المهدي المنتظر (٣٨-٣٩)

الشبهة الثانية : فكرة المهدي رمز لانتصار الحق .

وصاحب هذه الشبهة هو الأستاذ محمد أبو عبية حيث يقول : « إن ما جاء من الأحاديث في شأن المهدي ونزول عيسى بن مريم والدجال إنما هو رمز لانتصار الحق . » (١)

الملاحظ من النص السابق أن صاحبه يرى الأحاديث الواردة بشأن المهدي وعيسى والدجال ليست على حقيقتها ؛ أي ليس لها وجود على أرض الواقع ، بل هي تحمل معاني رمزية ، فكل صاحب حق هو المهدي وكل طاغوت من أهل الباطل هو الدجال ، وصراع الحق والباطل هو عبارة عن صراع المهدي وعيسى مع الدجال .

إذا هو أخرج النصوص من حقيقتها لتشمل من باب الرمزية كل رءوس صراع الحق والباطل ، وهذا التأويل بين فساده ، بل هو أشد فحشاً من تأويل الفرق الباطنية ، ولو أعمل سيف التأويل بهذا الشكل في كافة النصوص لما بقي نص على حقيقته ، وما يقال عن المهدي وعيسى ﷺ يمكن أن يقال على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وبالتالي يفتح الباب للقول بأن كل قصص الأنبياء ليست على حقيقتها ، بل هي قصص رمزية تحكي صراع الحق والباطل ، وليس لها رصيد من الواقع .

وهذا القول ليس إنكاراً فقط لظاهرة المهدي ، بل هو باب لتكذيب لكل ما ورد عن مجريات الصراع بين الحق والباطل وشخوصهما .

و هذه الشبهة السقيمة يمكن أن يرد عليها بالقول أن الأصل في الكلام هو الحقيقة ، وأن إخراجه من المعنى الحقيقي إلى غيره لا بد له من ضوابط وشروط كثيرة ذكرها العلماء ، وهذا الشبهة تصنف ضمن التأويل العشوائي الذي لا يستند إلى أي برهان ؛ لذا هي أقرب للشطحات منها إلى التأويل .

---

(١) انظر البستوي : المهدي المنتظر (٣٨)

المطلب الثاني : المثبتون لظاهرة المهدي

لاحظنا في المطلب السابق أن دائرة إنكار ظاهرة المهدي تعتبر ضيقة جداً ، وأهلها ليسوا من أهل الاختصاص ، وبالمقابل نجد أن جل أهل الاختصاص يثبتون الظاهرة ، بل لم يرد في حدود علمي أن أحداً من أهل الصنعة الحديثية ينكر ظاهرة المهدي ، وكون بعض أهل الحديث لم يخرج أحاديث المهدي لا يعني أنهم ينكرونها ؛ ويلحظ أن أغلب علماء الحديث قد خرجوا أحاديث المهدي ﷺ وتخريجهم لهذه الأحاديث هو إشارة واضحة إلى أنهم يرون ثبوتها ويعتقدون ذلك .

أولاً : علماء الحديث وظاهرة المهدي :

من تتبع كتب الحديث يجد أن أكثرها قد خرج للمهدي بعض الأحاديث ، أو أفرد له باباً خاصاً في كتابه ، وممن خرج في كتابه أحاديث للمهدي ﷺ أصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي ، وكذلك الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وابن أبي شيبة في مصنفه ونعيم بن حماد في كتاب الفتن والدارقطني في الإفراد والطبراني في معاجمه الثلاثة وأبو يعلى في مسنده ، والبزار في مسنده ، وابن عساكر في تاريخه ، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن وابن جرير والبيهقي في دلائل النبوة وابن سعد في طبقاته وأبو عوانة وابن خزيمة في صحيحه وابن المنادي وعبد الرازق في مصنفه .

وممن اعتبر أحاديث المهدي أو رمز لصحة بعضها أو حققها أو صرح بثبوتها أو أفرد لها التصانيف أو أبواب خاصة : الهيثمي في مجمع الزوائد ، والسيوطي في الجامع الصغير أو في العرف الوردي ، وابن حجر العسقلاني والشوكاني وابن تيمية وابن كثير والقرطبي والبيهقي والقاضي عياض و المنذري و البوصيري وابن قيم الجوزية والسخاوي والذهبي في المنتقى وابن المنادي والزرقاني والمزي والمتقي الهندي والبرزنجي وابن حبان وابن الأثير والسندي والمناوي وأحمد شاكر والألباني وابن باز والأمين الشنقيطي .. إلخ

فهذا الجمع الكبير من علماء الحديث يشير إشارة واضحة إلى أن أصحاب الصنعة الحديثية يثبتون ظاهرة المهدي ، ولا يرونها دخيلة كما يزعم البعض ، بل توافر هذا

الحشد العظيم أو السواد الأعظم من العلماء الذين خرجوا أو ذكروا أحاديث المهدي ليدل دلالة صريحة لا تحتمل أدنى شك في أن المهدي حق .

ثانياً : ظاهرة المهدي ظاهرة قطعية واجب الاعتقاد بها .

من المسلم به عند أهل السنة والجماعة ثبوت خروج رجل من عترة النبي ﷺ في آخر الزمان ، يعم الرخاء على يديه .

والتسليم بأمر أو عدمه مرجعه إلى الأدلة ، والأدلة تشهد لهذا الأمر ، أو لأصل الفكرة لدرجة بلغت التواتر ، مما يرتقي بها إلى درجة القطعيات .

وأنا عندما أقول أن ظاهرة المهدي بلغت حد التواتر ، أقصد فقط أصل الفكرة، وهي خروج رجل من أهل بيت النبي ﷺ في آخر الزمان يكون صلاح حال الأمة على يديه ، أما تفاصيل الظاهرة فهي ظنية بحسب دليلها .

واعتبار الظاهرة من المسلمات هو ما عليه أكثر علماء المسلمين .

١- يقول أبو الحسين الآبري في كتابه مناقب الشافعي : « قد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي ، وأنه من أهل بيته ، وأنه يملك سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلاً . » (١)

٢- وقد نقل كلام الآبري السابق وارتضاه كثير من أئمتنا منهم ،الإمام القرطبي ، والإمام أبو الحجاج المزي ، والإمام ابن قيم الجوزية ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والإمام السخاوي ، والإمام السيوطي ، والإمام ابن حجر الهيتمي المكي ، والبرزنجي والزرقاني . (٢)

٣- يقول العلامة محمد السفاريني : « وقد كثرت بخروجه – يعني المهدي – الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء أهل السنة

---

(١) القرطبي : التذكرة (٧٠١)

(٢) انظر البستوي : المهدي المنتظر (٤٠ وما بعدها) ؛ العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (٢٠)

حتى عد من معتقداتهم . » (١)

٤- يقول الإمام الشوكاني : « والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن و الضعيف المنجبر ، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة ، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول . » (٢)

٥- يقول صديق حسن القنوجي : « والأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً تبلغ حد التواتر . » (٣)

٦- يقول محمد بن رسول البرزنجي : « قد علمت أن أحاديث وجود المهدي ، وخروجه آخر الزمان ، وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة بلغت حد التواتر ، فلا معنى لإنكارها . » (٤)

٧- يقول محمد جعفر الكتاني : : « والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة . » (٥)

إذا يمكن القول أن ظاهرة المهدي من مسلمات العقيدة دل على ذلك الآثار المتعددة، وإنكار هذه الظاهرة أو الطعن بها أو تكذيب كل أحاديثها ، أو اعتبارها دخيلة على المسلـــمين هو بمثابة اتهام لكل هذا الحشد الهائل الجليل من علمائنا في الماضي والحاضر .

---

(١) العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (٢٠) نقلا عن كتاب السفاريني : لوامع الأنوار البهية .

(٢) انظر القنوجي : الإذاعة (١١٣) ؛ حوى : الأساس في السنة قسم العقائد (١٠٢١/٢) نقلاً عن كتاب الشوكاني : التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح؛العباد: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (٢١) .

(٣) القنوجي : الإذاعة (١١٢)

(٤) البرزنجي : الإشاعة (١٩٨)

(٥) انظر حوى : الأساس في السنة قسم العقائد (٢/ ١٠٢١) نقلاً عن كتاب الكتاني : نظم المتناثر من الحديث المتواتر .

المبحث الثاني
نسب المهدي ﷺ واسمه

📖 - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

عترتي : العترة : ولد الرجل لصلبه ، وقد يكون العترة الأقرباء وبني العمومة ، وعترة الرجل أخص أقاربه ، و عترة النبي ﷺ بنو عبد المطلب ، أو هم الذين حُرم عليهم أخذ الزكاة والصدقات من أهل البيت . (٢)

📖 - عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ . ﴾ (٣)

شرح :

هذه الأحاديث صريحة في أن المهدي من آل البيت ، وجاء التخصيص في بعضها أنه من ولد فاطمة رضي الله عنها ، وبالتالي ينحصر نسب المهدي في الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وجاء في بعض الآثار ما يعزز كونه من ولد الحسن ﷺ ، ولا يمتنع أن يكون له ولادة من جهة الحسين بأن تكون إحدى أمهاته حسينية ، وذلك عبر قرون من التزاوج والتناسب ، وقد ورد أثر عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه نَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ فَقَالَ :

---

(١) أخرجه أبو داود في المهدي برقم ٤٢٦٤ [عون المعبود (٣٧٣/١١)] ، وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨٦ [سنن ابن ماجة (١٣٦٨/٢)] قال البستوي : إسناده حسن ، وقد نقل تصحيح الألباني له في الجامع الصغير [البستوي : المهدي المنتظر (٢٠٣)]

(٢) انظر آبادي : عون المعبود (٣٧٣/١١)

(٣) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨٥ [السنن (١٣٦٧/٢)] ؛ وأحمد في مسند العشرة المبشرين في الجنة برقم ٦٤٧ [المسند (١٠٥/١)] ، وقال عنه أحمد شاكر إسناده صحيح ، وصححه الألباني ، وقال البستوي : إسناده حسن انظر البستوي : المهدي المنتظر (١٥٦)]

« إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشْبِهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشْبِهُهُ فِي الْخَلْقِ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةً يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا . » (١)

فهذا الأثر فيه تصريح بأن المهدي رضي الله عنه من ولد الحسن رضي الله عنه ، وقد ذكر بعض العلماء توجيها لطيفاً لكونه من ولد الحسن مفاده أن الحسن ترك الخلافة لأجل الله سبحانه وتعالى ، ولأجل حقن دماء المسلمين ، فأعقبه الله من ذريته من يقوم بخلافة العدل في آخر الزمان ، وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك شيئاً لله عوضه الله سبحانه وتعالى خيراً منه ، وهذا بخلاف الحسين الذي حرص على الخلافة،وقاتل عليها و لم يظفر بها . (٢)

وما عليه أكثر علمائنا كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وغيرهم أنهم يرجحون كونه من ولد الحسن رضي الله عنه ، وهذا بخلاف الشيعة الذين يجزمون على أنه من ولد الحسين رضي الله عنه .

و قد جاء في بعض الآثار أن المهدي رضي الله عنه من ولد العباس ، وهذه الآثار كلها ضعيفة ، والأحاديث الدالة على أنه من ولد فاطمة أرجح و أصح ، ويمكن القول أنه يجوز أن يكون له ولادة من جهة العباس ؛ بحيث تكون أحد أمهاته عباسية .

المقصود بقول النبي ﷺ عن المهدي « يصلحه الله في ليلة »

نلحظ في حديث علي رضي الله عنه إشارة نبوية إلى أن المهدي يصلحه الله في ليلة ، وهذا يحتمل أمرين :

الأول : إن الإصلاح هنا يراد به عصمة المهدي من بعض الذنوب أو الصغائر التي لا تتناسب ومقام الإمامة العظمى التي سيقوم بأمرها ، وقد ورد في بعض الآثار أن المهدي يتوب من ذنب ، وصيغة النكرة للذنب فيها معنى الستر وفيها إشارة إلى أن هذا الذنب ليس من الكبائر ؛ لذا نُكِّر تقليلاً له .

الثاني : الإصلاح يراد به تهيئة المهدي رضي الله عنه للقيام بأعباء قيادة أمة والإمامة العظمى ،

---

(١) أخرجه أبو داود في المهدي برقم ٤٢٦٩ ، والأثر فيه انقطاع كما صرح المنذري [عون المعبود (٣٨١/١١)]

(٢) انظر العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (٤٠) وعزا هذا القول لابن القيم في المنار المنيف .

فالإنسان قد يكون صالحاً في نفسه ، لكنه لا يكون كفؤاً لإصلاح أمة أو قيادتها ، وهذا معلوم فإن قيادة أمة يتطلب مؤهلات كثيرة ، خاصة إذا كانت هذه الأمة غارقة في الفتن والمتاهات والضلالات وتسلط الغير عليها ، ففي مثل هذه الحالة لا تحتاج الأمة إنساناً صالحاً فقط ليرشدها سبيل النجاة مما هي فيه فقط ، بل تحتاج قائداً ملهماً تتوفر فيه كل مؤهلات القيادة لكي يستنقذها مما هي فيه ؛ لذا المراد بالإصلاح هنا تأهيل المهدي بكل مؤهلات القيادة التي تتناسب ومقام الإمامة العظمى للأمة ، وهذا يذكرني بموقف النبي ﷺ مع أبي ذر عندما طلب منه أن يستعمله في الإمارة ونحوها ، فقال النبي ﷺ لأبي ذر : إنك امرؤ ضعيف يا أبا ذر ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة .

فوصف النبي ﷺ لأبي ذر بأنه ضعيف لا يراد به الانتقاص من صلاح أبي ذر وأمانته وقوة إيمانه ، فهذا معلوم وقوة إيمان أبي ذر ﷺ وصلابته في الحق وصلاحه معلوم ، فالنبي ﷺ نفسه قد أشار إلى ذلك بقوله أنه ما أضلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر ، وفي رواية أن أبا ذر يمشي في الأرض بزهد عيسى ﷺ .

إذا ليس المراد بضعف أبي ذر ﷺ في الحديث عدم صلاحه أو قلة إيمانه أو ارتكابه للمعاصي ، إنما المراد به ضعف مؤهلات الإمارة عند أبي ذر ﷺ ؛ لذا الأولى له ألا يتقلدها .

ومحصلة ما ذكرت أن صلاح المهدي لا يعني بالضرورة كونه قبل تلك الليلة صاحب معاصي ، بل يراد به تأهيله بمؤهلات الإمامة العظمى ، فالإصلاح هنا يراد به التزكية والترقية في الصفات ، لا رفع المعاصي وتنحيتها ، وهو من باب قول الله لموسى ﷺ « واصطنعتك لنفسي » .

وفي ظني أن الأمر الثاني هو الراجح في حق المهدي ﷺ ، ويعززه قول الإمام علي عن المهدي ﷺ أنه يشبه النبي ﷺ في الخُلق ، وفي رواية أنه لم تلبسه فتنة مما

يؤكد أن المراد بالإصلاح هو التأهيل والتهيئة لقيادة الأمة ، وذلك بتبصيره بمواطن الخلل في الأمة وطرق العلاج والمنهج الحكيم للخروج من الفتن التي عصفت بها ووسائل تجديد معاني الإيمان فيها ، والقدرة على تأليف القلوب ، والاستبصار بمعالم الرسالة كاملة لكي يعززها في أتباعه ..إلخ

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ – قَالَ زَائِدَةُ فِي حَدِيثِهِ – لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ثُمَّ اتَّفَقُوا حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا . ﴾ (١)

وفي رواية أبي داود : ﴿ لَا تَذْهَبُ أَوْ لَا تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي ﴾ (٢)

شرح :

١- جاء في الأحاديث السابقة تصريح بأن اسمه يواطئ اسم النبي ﷺ ، والمواطأة يراد بها المشابهة ، وذُكر في بعض الروايات أن اسمه محمد ، وبعضها أحمد ، أما عن اسم أبيه فهو عبد الله كاسم أب النبي ﷺ ، وفي بعض الآثار أن كنيته أيضاً أبو عبد الله .

٢- في الحديث إشارة إلى أن خروج المهدي حق ، وجزء من قدر الله في الأرض قبل فنائها ؛ لذا جاء التعبير عن ذلك بقول النبي ﷺ ، لو لم يبق في الدنيا إلا يوم لطول الله هذا اليوم ، وهذا التعبير يراد به الجزم والتأكيد على أن خروج المهدي لا محالة واقع قبل انقضاء الدنيا .

(١) أخرجه أبو داود في المهدي ٤٢٦٢ [عون المعبود (٣٦٩/١١)] والترمذي في الفتن ، برقم ٢٣٣٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٨٦/٦)]

(٢) أخرجه أبو داود في تتمة للحديث السابق [عون المعبود (٣٧١/١١)] والترمذي في المهدي برقم ٢٣٣١ ، وقال في الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة و أبي هريرة [تحفة الأحوذي (٤٨٤/٦)]

المبحث الثالث
صفات المهدي الخَلقية

🕮 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

أجلى : الجبهة الجلواء أي الواسعة ، وأجلى الجبهة ؛ أي خفيف شعر ما بين الترعتين من الصدغين ، أوالذي انحسر شعره عن جبهته ، والمراد به هنا انحسار الشعر عن الجبهة ، وهو دون الصلع ، و يرى بعض علماء اللغة أن الشعر إذا انحسر عن نصف الرأس ونحوه فهو أجلى . (٢)

أقنى : القنا من صفات الأنف ، ويراد به طول الأنف مع دقة طرفة ، وحدب في وسطه .

شرح :

١- الحديث السابق أشار إلى أهم صفتين يعرف بهما الإمام المهدي ﷺ ، وهما انحسار الشعر عن الجبهة إلى قريب من وسط الرأس ، وهو دون الصلع ، ويصدق في حق صاحب هذا الوصف أن يقال أن جبهته جلواء أي واسعة ، وكذلك أنفه طويل مع دقة في طرفه وحدب في وسطه .

٢- هذان الوصفان هما أهم ما يميز شخصية المهدي ﷺ الخارجية عن غيره ؛ لذا جاء التصريح بهذين الوصفين في عدة أحاديث ؛ حتى يعرف بهما .

---

(١) أخرجه أبو داود في المهدي برقم ٤٢٦٥ [عون المعبود (٣٧٥/١١)] ، ونقل البستوي عن ابن القيم أنه قال: رواه أبو داود بإسناد جيد ، و ذكر أن الألباني حسنه ، وقال عقب ذلك : حسن لشواهده . [البستوي : المهدي المنتظر (١٧٥)]

(٢) ابن منظور : لسان العرب (١٥١/١٤) .

٣- ذكر السلمي في كتابه عقد الدرر عدة آثار تشير إلى أوصاف زائدة للإمام المهدي ، ألخص هذه الأوصاف في النقاط التالية :

وصف الأسنان : أ- (**أفرق الثنايا**): أي أن أسنانه الأمامية فيها تفلج وتباعد .

ب- (**براق الثنايا**) : أي أسنانه بيضاء لها بريق .

وصف اللون والجسم : (**اللون لون عربي والجسم جسم إسرائيلي**) : أي لونه أسود (**شاب مربوع**) أي ليس بالطويل ولا القصير

وصف الوجه و الخد : (**حسن الوجه**) ، ويعلو وجهه نور كأنه كوكب ذري . (**كث اللحية**) وفي أثر أن لحيته سوداء (**في خده الأيمن خال أسود**) ، وهو الشامة البارزة .

وصف العينين والحاجبين : (**أبلج أعين**) : الأبلج هو الذي وَضُح ما بين حاجبيه فلم يقترنا ، أي أن الحاجبين ليسا كثيفين ومقترنين . والأعين هو صاحب العين الواسعة (**أكحل العينين**) أي جفونه سوداء من غير كحل .

أوصاف أخرى : (**ضخم البطن**) (**أذبل الفخذين**) (**بفخذه الأيمن شامة**) (**في كتفه علامة النبوة**) (١)

أقول :

هذه مجمل أوصاف المهدي الخلقية ، أهمها ما صرحت به الأحاديث الصحيحة وهي كونه أجلى الجبهة أقنى الأنف ، والمتتبع للأوصاف المذكورة ويقارنها بأوصاف النبي عليه السلام ، وأوصاف الإمام علي ﷺ يجد أنها لا تخرج عن وصفهما بشيء ، ولعل من الأوصاف التي طابق بها جده الإمام علي ﷺ ضخامة البطن و جلاء الجبهة ، ومما وافق به

(١) انظر الآثار الواردة في هذه الأوصاف عند السلمي : عقد الدرر (٣٣ وما بعدها) وقد أعرضت عن ذكرها لضعفها .

صفات جده النبي ﷺ كونه أفرق الثنايا و مربوع الجسم ، وأبلج أعين ، وأكحل العينين وأذبل الفخذين ، ويمكن القول أن وصف المهدي هو مزيج من وصفي جديه النبي عليه السلام والإمام علي رضي الله عنه .

المبحث الرابع
الإرهاصات الممهدة لخروج المهدي ﷺ

أولاً : انتشار الظلم في كل الأرض .

ورد في أحاديث كثيرة أن المهدي ﷺ يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً ، و في هذا إشارة إلى أن المرحلة التي تسبق خروج المهدي يكون الظلم قد بلغ مداه في الأرض ، وقد جاءت لفظة الأرض مطلقة للعموم ؛ أي أن الظلم يعم الأرض جميعاً مما يعزز أن يكون المهدي بعد أحد الفتن العظمى التي يهلك بسببها الكثير ، وتكون معززة للظلم في الأرض ، والقرائن تشير إلى أن المهدي يكون بعد فتنة الدهيماء وهي أعظم الفتن على الأرض قبل فتنة الدجال .

طبعاً هذا لا يعني أن الأرض في ذلك الزمان تكون خالية من أهل الحق والعدل ، بل يكونون ، بدليل حديث الطائفة المنصورة ، لكن يغلب الظلم على أكثر أهل الأرض .

ولعل تلك المرحلة تتسارع فيها وتيرة الظلم حتى تعم ؛ بحيث يصدق في حقها قول النبي ﷺ : ما من يوم إلا والذي بعده شر منه . فيكون انتشار الشر بازدياد ،و تأتي الرغبة عند الكثيرين للخلاص مما هم فيه ، بل انتشار الظلم بالشكل المذكور في الأحاديث يعزز فضيلة العدل وقيمته في قلوب الناس ، ويقوي رغبتهم في تحقيقه مهما كان الثمن غالياً (✽) ؛ لذا يزداد الشوق لنصرة من يخرجهم من هذا الظلم ، ويقوى الاستعداد لحمل أعباء الرسالة والحرص عليها خالصة لوجه الله ، ولعل ذلك يفسر لنا بعض الروايات التي تشير إلى تشرب الناس حب المهدي ﷺ ، ويكثرون ذكره قبل خروجه ، وذلك لما يعلمون أنه في خروجه خلاصهم مما هم فيه من ظلم .

(✽) هذه الظروف التي تسبق خروج المهدي يكون لها الأثر الكبير في بناء شخصيات متكاملة حريصة على تحقيق العدل الذي يعتبر أهم معالم رسالة الإسلام ، بل كل الرسالات ، والمعلوم أن عمر الفاروق ﷺ كان عنواناً للعدل في زمانه ، ولعل كونه من قبيلة بني عدي التي لقيت الضيم من بعض القبائل القوية في مكة الأثر الواضح في تعزيز فضيلة العدل عند عمر ﷺ فالذي يذوق مرارة الظلم هو أكثر الناس تذوقاً لحلاوة العدل .

وقد ورد في بعض الآثار توصيف لبعض أشكال الظلم قبل خروج المهدي ﷺ منها القتل ، وانقطاع الطرق وكثرة الفتن وهذه بعض الآثار الدالة على ذلك :

- عن ابن سيرين – رحمه الله – قال: « لا يخرج المهدي حتى يقتل من كل تسعة سبعة » (١)

وهذا الأثر يتفق و القول بأن آخر فتنة الدهيماء يكون انحسار الفرات عن جبل من ذهب يقتتل لأجله الناس فيقتل من كل تسعة سبعة .

- عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « إذا انقطعت التجارات والطرق وكثرت الفتن ، خرج سبعة رجال علماء من أفق شتى على غير ميعاد يبايع لكل رجل منهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا حتى يجتمعوا بمكة ، فيلتقي السبعة ، فيقول بعضهم لبعض ما جاء بكم ، فيقولون جئنا في طلب هذا الرجل الذي ينبغي أن تهدأ على يديه هذه الفتن .. » (٢)

وهذا الأثر فيه إشارتان : الأولى : فيه بيان لبعض أشكال الظلم قبل خروج المهدي ، والثانية : فيه إشارة إلى أن بعض أهل العلم من الأمة يهديهم الله سبحانه وتعالى إلى وقت خروج المهدي ﷺ ، ويتحركون لهذا الأمر العظيم الذي فيه إنقاذ للأمة ، وهذا الأمر ليس ببعيد فكما أهدى الله سبحانه وتعالى بعض أهل الكتاب من يهود ونصارى كيهود المدينة و بحيرا الراهب إلى زمن خروج النبي ﷺ ، فمن باب أولى أن ترزق الأمة من أهل العلم بالكتاب والسنة ممن يعلمون زمان خروج المهدي ﷺ ، وهذا يعتبر أيضاً أحد الممهدات لخروج المهدي ﷺ .

تنبيه :

طبعاً ما ذكرته من استحكام الظلم قبل خروج المهدي ﷺ ليس ذريعة عند بعض المتواكلين للقول أنه ما دام انتشار الظلم وطغيانه وعمـــومه ممهداً للمهدي ، فلنترك

(١) أخرجه نعيم بن حماد برقم ٩١٢ ، وإسناده حسن [الفتن ٢٣١]

(٢) أخرجه نعيم بن حماد برقم ٩٤٩ [الفتن (٢٤١)]

الحبل على غاربه لنعجل من ظهوره .

فهذه الشبهة لا تستقيم بأي وجه لعدة أسباب منها :

- إن الأخذ على يد الظالم جزء من عقيدة المسلم ، وترك هذه الفريضة تضييع واستهانة بعنصر أصيل من الدين .
- كذلك لا يعلم متى خروج المهدي ﷺ على وجه العموم هل هو في زماننا ، أو في غيره ، لذا ترك فريضة حاضرة للتعلق بقضية غيبية غير معلوم زمانها هو بمثابة تضييع للشريعة وتخاذل في حمل تكاليفها ، ومن لم ينشغل بالفرض العاجل يتصور منه تضييع الفرض الآجل ؛ لذا لا أتصور ممن يحمل هذه العقلية أن يكون له حظ في نصرة المهدي ﷺ حال خروجه .
- يعتبر دفع الظلم ورد المظالم عذر يقدمه العبد بين يدي الله سبحانه وتعالى ، و إلا شمله العقاب وعمته الفتنة .

لهذه الأسباب وغيرها يمكن القول أن هذه الشبهة هي من مداخل الشيطان على قلوب البعض ليبث فيهم الانهزام والسلبية ؛ لذا لا يقال أن المهدي يخرج في عهد ركود ونوم لأهل الحق الذين ينتظرون خروجه ، بل على العكس تكون التضحيات قبل خروج المهدي ﷺ من الطائفة المنصورة في أعلى درجاتها بالرغم من استحكام الظلم ، ويكون خروج المهدي ﷺ بمثابة الهدية والجزاء لهؤلاء الذين يستحقون وعد الله سبحانه وتعالى بالاستخلاف في الأرض .

ثانياً : فتنة الدهيماء (العمياء) . (✽)

تعتبر فتنة الدهيماء آخر الفتن العظام قبل الدجال ، وهي الممهدة لخروج الدجال كما جاء التصريح في آخر الحديث « **فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ – أي فتنة الدهيماء – فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ .** » (١)

(✽) راجع فصل الفتن في الباب الأول ففيه تفصيل عن فتنة الدهيماء

(١) سبق تخريجه

وهي أيضاً ممهدة لخروج المهدي ﷺ ؛ حيث إن خروجه يكون قبل الدجال ؛ أي أن خروجه يكون في آخر فتنة الدهيماء ويستمر لما بعد نزول عيسى ﷺ الذي يقتل الدجال ، وهذا المعنى يعتبر من اللازم العقلي الذي تقتضيه مجموع الروايات ، وقد ورد في بعض الآثار الربط بين فتنة الدهيماء وبين خروج المهدي ﷺ ، أو بين حسر الفرات الذي يكون في فتنة الدهيماء أو آخرها وبين خروج المهدي ومن هذه الآثار ما ورد عن الإمام علي حيث قال « ستكون فتنة يحصل الناس منها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام وسبوا ظلمتهم فإن فيهم الأبدال وسيرسل الله إليهم سيبا من السماء فيغرقهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم ثم يبعث الله عند ذلك رجلا من عترة الرسول ﷺ في اثني عشر ألفا إن قلوا وخمسة عشرة ألفا إن كثروا إمارتهم أو علامتهم أمت أمت على ثلاث رايات يقاتلهم أهل سبع رايات ليس من صاحب راية إلا وهو يطمع بالملك فيقتتلون ويهزمون ثم يظهر الهاشمي فيرد الله إلى الناس إلفتهم ونعمتهم فيكونون على ذلك حتى يخرج الدجال . » (١) .

و عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ . ﴾ (٢) هذا الحديث يربط بين خروج المهدي وبين مقتلة عظيمة على كتر الفرات كما سأبين .

وفي أثر آخر عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « الفتنة الرابعة عمياء مظلمة تمور مور البحر لا يبقى بيت من العرب والعجم إلا ملأته ذلا وخوفا تطيف بالشام

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦٥٨ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي [المستدرك (٤/٥٩٦)] قال البستوي : إسناده صحيح [البستوي : المهدي المنتظر (٣٤٥)]

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨٤ [السنن (٢/١٣٦٧)] ، والحاكم في الفتن [المستدرك (٤/٤٦٣)] ، وقال عنه ابن كثير : تفرد به ابن ماجة . وهذا إسناد قوي صحيح ؛ والحديث صححه البستوي [البستوي : المهدي المنتظر (١٩٢)]

وتغشى بالعراق وتخبط بالجزيرة بيدها ورجلها تعرك الأمة فيها عرك الأديم ويشتد فيها البلاء حتى ينكر فيها المعروف ويعرف فيها المنكر لا يستطيع أحد يقول مه مه ولا يرقعونها من ناحية إلا تفتقت من ناحية يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ولا ينجو منها إلا من دعا كدعاء الغرق في البحر تدوم إثنى عشر عاما تنجلي حين تنجلي وقد إنحسرت الفرات عن جبل من ذهب فيقتلون عليها حتى تقتل من كل تسعة سبعة . » (١)

فهذا الأثر عن أبي هريرة ﷺ – بالرغم من ضعفه – فيه إشارة إلى وجه العلاقة بين فتنة الدهيماء وبين حسر الفرات وبين خروج المهدي ﷺ ، ويعززه آثار كثيرة أعرضت عن ذكرها هنا ، ومن رام الاستزادة فعليه بالمستدرك للحاكم والفتن لنعيم بن حماد و عقد الدرر للسلمي .

و يمكن القول أن فتنة الدهيماء أو العمياء إرهاص من الإرهاصات الدالة على قرب خروج المهدي ﷺ .

وفتنة الدهيماء كما جاء وصفها أنها فتنة عامة لا تترك مسلماً إلا لطمته ، وأنها ممحصة تميز بين المؤمن والمنافق .

وكونها ممهدة للدجال يشير إلى أنها شبيهة بفتنته ، وإن كانت أقل منها في الدرجة، ولعل هذا يفسر لنا سبب امتلاء الأرض ظلماً وجوراً ؛ أي يكون انتشار الظلم بهذا الشكل غير المعهود نتيجة من نتائج تلك الفتنة العظيمة .

ثالثا: قتل النفس الزكية .

🕮 - عن مجاهد قال حدثني فلان رجل من أصحاب النبي ﷺ : « أن المهدي لا يخرج حتى تقتل النفس الزكية فإذا قتلت النفس الزكية غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض ، فأتى الناس المهدي ، فزفوه كما تزف العروس إلى زوجها ليلة عرسها ، وهو يملأ الأرض قسطا وعدلا وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء

---

(١) سبق تخريجه

مطرها وتنعم أمتي في ولايته نعمة لم تنعمها قط » (١)

شرح :

- هذا الأثر الصحيح موقوف على أحد الصحابة ، ومثل هذه الأحاديث الموقوفة لا يمكن صدورها عن اجتهاد من الصحابي ﷺ لتعلقها بالغيبيات ؛ لذا يأخذ حكم المرفوع ، وفيه إشارة إلى إرهاص من إرهاصات خروج المهدي وهو قتل رجل صالح جاء التعريف به بأنه النفس الزكية ، وهذا وصف وليس اسم في الغالب ، وغاية ما يحمله من معاني أن هذا الرجل الصالح الذي يقتل له ذمة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى ؛ فيغضب الله سبحانه وتعالى لموته ، ويغضب لغضبه أهل السماء والأرض ، فقصة هذا الرجل أشبه بقصة صاحب يس الذي ورد ذكره في القرآن ؛ حيث نزل العذاب كرامة له ونكاية بقاتليه ، وذلك بعد قتله مباشرة كما تشير الآيات في سورة يس .
- هذا الإرهاص قد لا يدركه أهل الأرض بوضوح لعدم علمهم بالمراد منه ؛ حيث لم يأت التصريح بحقيقة هذه الشخصية الموصوفة بالنفس الزكية التي يعتبر قتلها موجباً لنزول العذاب ، ثم النصرة لأهل الحق في الأرض بخروج المهدي ، وكما ذكرت عبارة النفس الزكية هنا هي من باب التوصيف وليس العلمية ، وهي أشبه بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾ (٢) ، وذكر النبي ﷺ للصفة دون التعيين للشخصية له حكمته بخصوص ذلك الرجل ، وطبيعة المرحلة ونظرة الناس لهذه الشخصية ، لكن ذكر النبي ﷺ لهذه الحادثة بالذات لها فوائدها التي قد ينتبه لها أهل العلم في وقتها ؛ حيث يملكون تعيين المراد بتلك الشخصية عبر قرائن وشواهد وأحداث متلاحقة ، وإلا لو لم يكن هناك تصور لحدوث هذا الفائدة لأصبح ذكر

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٧٦٥٣ [المصنف (٥١٤/٧)] قال البستوي : إسناده صحيح [البستوي : المهدي المنتظر (٢١٤)]

(٢) الكهف: من الآية٧٤

هذه القضية مما لا فائدة به للأمة أو لأهل العلم منها ؛ حيث يكون الأمر كله بالنسبة لهم في طي الغيب الذي لم يدرك أي طرف من أطرافه .

- الملاحظ في الأثر السابق أن قتل النفس الزكية يترتب عليه غضب الله ونقمته على قاتليه أو المتآمرين عليه ، مما يشير إلى وقوع عقوبات ربانية قبل خروج المهدي ، وهذه العقوبات تصيب الذين قتلوا أو تآمروا على ولي من أولياء الله في الأرض ، ولعل حصول هذه العقوبة تنبه الناس إلى كون الرجل المقتول في ذلك الزمان هو النفس الزكية المقصودة ، ثم يكون بعد ذلك خروج المهدي ﷺ .
- يشار هنا إلى أن النفس الزكية المقصودة هنا ليست هي محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية والذي خرج على العباسيين ، فقتلوه هو وأخوه إبراهيم ، ولعل تلقبه بهذا اللقب هو من باب التيمن والطمع بأن يكون هو المقصود ، وورد أنه لقب أيضاً بالمهدي . قال ابن كثير : « تلقب بالمهدي طمعاً أن يكون هو المذكور في الأحاديث ، فلم يكن به ، ولا تم له ما رجاه ، ولا ما تمناه ، فإنا لله ! » (١)

رابعاً : وقوع أحداث طبيعية وكونية عظيمة .

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : مَا تَذَاكَرُونَ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : ﴿ **إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ .** ﴾ (٢)

شرح :

هذا الحديث يشير إلى العلامات الكبرى للساعة ، وقد سبق شرحه ، والشاهد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (٨٤/١٠)

(٢) سبق تخريجه .

فيه هنا أن عيسى ﷺ يترل في الراجح في عهد المهدي ﷺ ليقتل الدجال ، وفي هذا دلالة صريحة على أن المهدي يكون في مرحلة هذه الآيات العظام ، وقد سبق أن بينت في فصل الحدث الكوني بعض الأحداث المتوقع حصولها قبل الدجال ، واعتبرت أن آية الدخان تكون قبله ، وهي التي يترتب عليها تغيير جوهري في الأرض على وجه العموم ويرتبط بها زلازل وخسوف ورجم من السماء وقحط وشدة في الأرض ، وهذه الأحداث على وجه العموم تكون ممهدة لخروج المهدي .

📖 - عن عبد الله بن حوالة ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ﴿ يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ أَرْضَ الْمُقَدَّسَةِ فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث صريح في الربط بين بعض الأحداث العظام وبين نزول الخلافة بيت المقدس ، والغريب أن الحديث لم يعتبر أن الزلازل والبلابل من الأمور العظام مما يشير إلى أن المقصود بها أشياء أعظم من الزلازل ، وقد سبق التفصيل في ذلك في الحدث الكوني فليرجع إليه ، والشاهد هنا أن نزول الخلافة بيت المقدس إشارة إلى عهد المهدي ﷺ مما يشير إلى أن هناك أحداثاً عظيمة تكون ممهدة لخروجه .

📖 - عن أبي سعيد الخدري ﷺ حيث قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزَلَازِلَ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا . ﴾ (٢)

شرح :

هذا الحديث صريح في الربط بين خروج المهدي وبين وقوع بعض الأحداث الطبيعية كالزلازل ، وبين الاختلاف الذي يكون بين الناس والذي يبلغ أوجه عند حسر

---

(١) سبق تخريجه

(٢)أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٣٣٢ [المسند (٤٦/٣)] قال الهيثمي : رواه أحمد بأسانيد وأبو يعلى باختصار كثير ، ورجالهما ثقات [مجمع الزوائد (٣١٤/٧)]

الفرات عن جبل من ذهب ، وهذه كلها ممهدات لخروج المهدي .

- عن علي بن عبد الله بن العباس قال: « **لا يخرج المهدي حتى تطلع مع الشمس آية.** » (١)

شرح :

هذا الأثر عن ابن حبر الأمة يشير إلى أن هناك علامة فلكية تظهر عند خروج المهدي كمذنب ونحوه ، وقد سبق التفصيل في المراد بهذه العلامة في فصل الحدث الكوني، فراجعه .

خامساً : الطائفة المنصورة وجهودها :

- عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ ﴾ (٢)

وفي رواية أخرى عن معاوية ﷺ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ. ﴾ (٣)

شرح :

هذه الأحاديث وغيرها كثير فيها إشارة واضحة على بقاء طائفة من أهل الحق قائمين على دين الله سبحانه وتعالى حتى يأتي أمر الله ، و قد اختلف العلماء في المراد بأمر الله في الحديث إلى قولين :

القول الأول : المراد بأمر الله الريح التي تقبض أرواح المؤمنين بين يدي الساعة .

القول الثاني : المراد بأمر الله خروج المهدي عليه السلام أو نزول عيسى ﷺ .

والقول الثاني هو الذي أرجحه ويؤيده بعض الآثار منها قول رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ

---

(١) أخرجه عبد الرازق في مصنفه ، ونعيم في الفتن ، وقال عنه البستوي : **إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات** [البستوي : المهدي المنتظر (٢٢٠)]

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٩٢٠ [مسلم بشرح النووي (٦٥/٧)]

(٣) أخرجه البخاري الاعتصام برقم ٧٣١٢ [البخاري مع الفتح (٣٠٦/١٣)]

آخِرُهُمْ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ ﴾ (١) . وقوله ﷺ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام ﴾ (٢)

فالأثر الأول يشير إلى أن آخرهم يقاتل الدجال ، مما يدل على أن أمر الله قبل ذلك ، وهو المهدي ﷺ ، والحديث الثاني صريح الدلالة في الربط بين أمر الله ونزول عيسى ﷺ ، فإما أن يكون أمر الله هو نزول عيسى ﷺ أو خروج المهدي قبله .

كذلك أحاديث الطائفة المنصورة تشير إلى أنها تكون في حالة جهاد إلى أن يأتي أمر الله ، وبعد عيسى ﷺ لا يكون جهاد فالمعلوم أنه بعد نزوله والقضاء على الدجال وشيعته يكون خروج يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لا يقاتلهم المسلمون لعدم القدرة عليهم ، وبعد القضاء عليهم لا يبقى كافراً على وجه الأرض ، ثم بعد ذلك تأتي علامات النهاية ، والتي منها الريح .

ووفقاً لما ذكرت تكون الطائفة المنصورة هي من أعظم الممهدات لخروج المهدي ﷺ ، ومن تتبع الجانب التفصيلي في سيرة المهدي يجد أن المهدي لم يؤسس أنصاره ابتداءً ، بل الأنصار هم الذين يخرجون المهدي ويبايعونه ، وفي رواية أن البيعة تأتيه هنية وهو في بيته مما يشير إلى أن هناك ممهدين لخروج المهدي ﷺ من علماء ومجتهدين وغيرهم ، وهؤلاء هم الطائفة المنصورة التي تتضافر جهودها في آخر الزمان ، لتجتمع تحت قيادة المهدي من جميع أصقاع الأرض ، كذلك من تتبع بعض الروايات التي تشير إلى خروج ألوية من قبل المشرق فيها خليفة الله المهدي ﷺ يعلم أن المراد بها جزء من الطائفة المنصورة التي تمهد له قبل خروجه ؛ والطائفة المنصورة سواء كان المقصود بها العلماء أو المجاهدين أو طلاب العلم ، أو الدعاة أو غيرهم فإن جهودها و عطاءها في آخر الزمان يرتقي إلى أعلى الدرجات بما يمهد لاستحقاق العزة والنصر والتمكين فيساقون إلى أهم

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٤٦٧ [عون المعبود (١٦٣/٧)] ؛ وأحمد برقم ١٩٩٤٣ [المسند (٥٣٤/٤)] ؛ والحاكم برقم ٢٣٩٢ / وقال : صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٨١/٢)]

(٢) أخرجه أحمد برقم ١٩٨٧٤ [المسند (٥٢٤/٤)]

عناصره وهو القيادة الملهمة وهو المهدي ﷺ ، وكلما ارتقت هذه الجهود و واتضحت فيها معالم رسالة الإسلام كلما كان ذلك إيذان بقرب خروجه .

سادساً: حسر الفرات عن جبل من ذهب .

- عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمُ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ . ﴾ (١)

وفي رواية : ﴿ إذا أقبلت الراياتُ السودُ من خراسان فائتوها فإنَّ فيها خليفةُ اللهِ المهدي . ﴾ (٢)

أقول :

يتضح من الحديث أن هناك صراعاً حول كنز ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله « كنزكم » ؛ أي الكنز المعهود الذي أبلغتكم عنه ، وقد ذكر بعض علماء الحديث أن المراد بهذا الكنز كنز الكعبة ، ولعل القائلين بهذا القول قد استندوا إلي قول رَسُول اللَّه ﷺ : ﴿ يُبَايَعُ لِرَجُلٍ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ ثُمَّ تَأْتِي الْحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا وَهُمِ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ . ﴾ (٣)

فهذا الأثر يشير إلى كنز الكعبة ، وفيه إشارة إلى أن الذي يستخرجه هم الحبشة بعد هدمه ؛ لذا أرى أن هذا القول بعيد .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) هذه الرواية أخرجها أبو الفتح الأزدي وعقب عليها البستوي بقوله : « الإسناد صالح للاستشهاد ولا سيما وأن متنه قد ورد من طريق آخر عن ثوبان بسند حسن ، وبذلك يصبح هذا الحديث حسناً لغيره . » [البستوي : المهدي المنتظر (١٦٢)]

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٧٩٢٩ [المسند (٢/ ٣٩٠)] قال البستوي بعد ذكره لتصحيح الألباني وأحمد شاكر له : إسناده صحيح [البستوي (٢٩٧)]

بل يترجح في ظني أنه كتر الفرات الذي يفاجأ به الناس في آخر فتنة الدهيماء ، والذي يرجح عندي هذا القول بعض الآثار الأخرى التي ربطت بين حسر الفرات والاقتتال عليه وبين خروج المهدي ، وكذلك الصيغة التي عبر عنها النبي ﷺ تشير إلى أن هذا الكتر معهود ذكره لدى الصحابة ، وفي حدود علمي أن الكتر المعهود الذي أبلغ عنه النبي ﷺ وذكر اقتتال الناس عليه هو كتر الفرات فقط ، أما كتر الكعبة فقد جاءت الإشارة إلى استخراجه بعد هدمها ، يضاف إلى ذلك أن هذا الاقتتال الذي هو جزء من قدر الله سبحانه وتعالى يهلك به كثير من أهل الدنيا من جهة الشرق ، وهذا يمهد لمرحلة المهدي ؛ حيث سيمكن لأهل المشرق من الطائفة المنصورة تحركاتهم نحو الغرب ، أو نحو إيلياء .

فتكون تحركاتهم في مرحلة أكلت الحرب الدنيوية أكثر قوة العراق والشام ، وهذا يمهد لانتصارهم على البقية الباقية .

ومن نظر إلى سياق مجموع الأحاديث الواردة في هذا الشأن يتحصل له هذا الجمع بين الروايات ويتصور طبيعة المرحلة الممهدة لخروج المهدي ﷺ

كذلك في الحديث السابق إشارة نبوية إلى ضرورة نصرة أصحاب الرايات السود القادمة من خراسان ، وجاءت الإشارة إلى أن فيها خليفة الله المهدي ﷺ ، ولعل هذا يتعارض ظاهرياً مع الأحاديث المثبتة أن المهدي يكون بالجزيرة ثم يتوجه ناحية الشام ، ويمكن دفع هذا التعارض بأن هذا القول من النبي ﷺ من باب الكناية بتقدير محذوف ، أي أن بها <u>نصرة</u> خليفة الله المهدي ﷺ ، وجاءت هذه الكناية من باب التشجيع وعدم الإحجام عن نصرة هذه الرايات .

فائدة :

جاء تعبير النبي ﷺ بضرورة إتيان هذه الرايات والالتحاق بها ولو حبواً على الثلج ، وفي ذلك ثلاث فوائد :

الأولى : الترغيب في الالتحاق بالجيش مهما كانت الظروف .

الثانية : قد يكون بداية تحرك هذه الرايات نحو المغرب وإيلياء في فصل الشتاء؛حيث تكون الثلوج .

الثالثة : الترغيب للالتحاق بهذا الجيش ينصب على أهل البلاد الباردة من سكان الجبال في شمال خراسان و غيرها من المناطق القريبة من هذا الجيش .

فيتحصل بذلك تصور للمرحلة التي يمكّن فيها للمهدي فبعد الخسف الحاصل في جزيرة العرب يبدأ الصالحون من أهل العراق والشام ، وغيرها من البلاد بالتحرك نحو جيش المهدي ﷺ في مكة الذي يبدأ بالتوجه نحو الشام ، وفي نفس الوقت يبدأ تحرك جيش المشرق من أصحاب الرايات السود والتحاق أهل الإسلام به في المناطق العجمية والشمالية نحو الشام وإيلياء ، و يتم الالتقاء في دمشق التي تكون معقل المسلمين في الملاحم كما سيتضح .

خلاصة القول في الإرهاصات الممهدة :

- يتضح مما سبق أن هناك كثيراً من العوامل البشرية والطبيعية التي تتفاعل مع بعضها قبل خروج المهدي ﷺ ، فهناك فتنة الدهيماء المظلمة التي تعم الأرض ويترتب عليها انتشار الظلم وعمومه في الأرض ، وهناك حسر الفرات عن جبل من ذهب ليكتمل به أحد العوامل المهلكة لكثير من أصحاب الشهوات والممهدة لخلو الساحة الشرقية أمام جزء من الطائفة المنصورة من جهة الشرق ، وهناك جهود لعلماء وغيرهم من الطائفة المنصورة تكتمل صورته بمعرفة المهدي بأوصافه ومبايعته ، مما يشير إلى أن هناك إعداداً مسبقاً عند الطائفة المنصورة علمياً ونفسياً للقيام بأعباء المهمة العظمى في آخر الزمان بإعادة العدل في الأرض ، وتحقيق معالم رسالة الإسلام في جميع المعمورة ، وهناك أحداث عظام طبيعية وكونية تمهد لخروج المهدي وتهيئ له الظروف المؤاتية للقيام بأعباء الرسالة ، وهناك حاجة ملحة عند الكثيرين للخلاص مما هم فيه من ظلم ، والاستعداد للتضحية القصوى لنشر الحق في الأرض ، كذلك هناك علامات سماوية كالتي أخبر عنها ابن حبر الأمة و أرضية كخسف الجيش الذي يقصد المهدي ،

وتكون هذه العلامات بمثابة دلائل على صدق إمامة المهدي ؛ وطبعاً الحاجة لهذه العلامات تكون ملحة للطائفة المنصورة في ذلك الزمان الذي يسبقه كثير من أدعياء المهدية ، والذي تكثر فيه الشكوك ، فتكون هذه العلامات من مقتضيات رحمة الله بالأمة ؛ حيث تَوَفَّر فيها الاستعداد الكامل لحمل الرسالة ؛ لذا ينصب لها العلامات والدلائل المؤازرة والمؤكدة على صدق إمامة المهدي ﷺ ، وهي من باب قول النبي صموئيل لبني إسرائيل في حق طالوت : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ . » (١) والأمة في آخر الزمان أحوج من بني إسرائيل لآيات متضمنة للسكينة والطمأنينة لقلوبهم في الدلالة على صدق إمامة المهدي ﷺ .

(١) البقرة:٢٤٨

المبحث الخامس
بيعة المهدي والخسف الذي يتبعها

📖 - عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : عَبَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي مَنَامه فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه ! صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ ! فَقَالَ : ﴿ الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْت بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْت حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ . قَالَ نَعَمْ فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

المستبصر : هو المستبين لذلك الأمر -أي غزو الكعبة بمن فيها - القاصد له عمداً

المجبور : هو المكره على المسير مع الجيش

ابن السبيل : أي سالك الطريق الذي يقدّر الله سبحانه وتعالى اجتماعه مع الجيش ساعة الخسف بالرغم أنه ليس من الجيش . (٢)

📖 - عَنْ عُبَيْدِ اللَّه ابْنِ الْقِبْطِيَّة قَالَ : دَخَلَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبْدُ اللَّه بْنُ صَفْوَانَ وَأَنَا مَعَهُمَا عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَسَأَلَاهَا عَنِ الْجَيْشِ الَّذي يُخْسَفُ بِه وَكَانَ ذَلكَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، فَقَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْت فَيُبْعَثُ إِلَيْه بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ منَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه ! فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا ؟ قَالَ : يُخْسَفُ بِه مَعَهُمْ وَلَكنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى نِيَّتِه ﴾ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : هِيَ بَيْدَاءُ الْمَدينَة ، قَالَ : فَلَقِيتُ أَبَا جَعْفَرٍ فَقُلْتُ إِنَّهَا إِنَّمَا قَالَتْ بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ أَبُو

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٤ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٠٥)]

(٢) النووي : شرح مسلم (٩/٢٠٦)

جَعْفَرٍ : كَلَّا وَاللَّه إِنَّهَا لَبَيْدَاءُ الْمَدِينَة (١)

– عن حَفْصَة رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَت النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَيَؤُمَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ فَلَا يَبْقَى إِلَّا الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ . ﴾ (٢)

وفي رواية : ﴿ سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ يَعْنِي الْكَعْبَةَ قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ ﴾ (٣)

– عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي إِذِ احْتَفَزَ جَالِسًا وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا شَأْنُكَ يَا رَسُولَ اللَّه تَسْتَرْجِعُ ؟ قَالَ : ﴿ جَيْشٌ مِنْ أُمَّتِي يَجِيئُونَ مِنْ قِبَلِ الشَّامِ يَؤُمُّونَ الْبَيْتَ لِرَجُلٍ يَمْنَعُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ خُسِفَ بِهِمْ وَمَصَادِرُهُمْ شَتَّى .. ﴾ (٤)

– عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ ، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا إِلَى مَكَّةَ ، فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ ، فَيُبَايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، وَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَيُخْسَفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالُ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَيُبَايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثًا فَيَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَالْخَيْبَةُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَيُلْقِي الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ فِي الْأَرْضِ ، فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ ، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٢[مسلم بشرح النووي (٢٠٤/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٣ [مسلم بشرح النووي (٢٠٤/٩)]

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٨٨٣ [مسلم بشرح النووي (٢٠٥/٩)]

(٤) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٦٧٤٦ [المسند (٣٤٩/٦)] والحديث له شواهد في الصحيح .

(٥) أخرجه أبو داود في المهدي برقم ٤٣٦٦ [عون المعبود (٣٧٥/١١)] ؛ وأحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٦٧٤٥ [المسند (٣٤٩/٦)] والحاكم في الفتن بإسنادين برقم ٨٣٢٣ ، ٨٣٢٤ ، وقد سكت عن أحد الإسناد ين وصحح الآخر [المستدرك (٤/ ٤٧٨)]

📖 – عن محمد بن الحنفية قال : « كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي رضي الله عنه : هيهات ثم عقد بيده سبعا فقال ذاك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل فيجمع الله تعالى له قوما قزع كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم لا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد يدخل فيهم على عدة أصحاب بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال بن الحنفية : أتريده ؟ قلت : نعم . قال : إنه يخرج من بين هذين الخشبتين . قلت : لا جرم والله لا أريهما حتى أموت فمات بها يعني مكة حرسها الله تعالى . » (١)

📖 – عن تبيع قال : « سيعوذ بمكة عائذ فيقتل ثم يمكث الناس برهة من دهرهم ثم يعوذ آخر فإن أدركته فلا تغزونه فإنه جيش الخسف » (٢)

شرح :

هذه أهم النصوص التي تتحدث عن بيعة المهدي ﷺ ، وما يتبع ذلك من أحداث ، ولنا مع هذه النصوص عدة وقفات :

الوقفة الأولى :

يتضح من بعض الأحاديث – خاصة حديث أم سلمة – أن بداية التحرك لبيعة المهدي تكون بعد موت خليفة ، وقد جاءت اللفظة غير معرفة (نكرة) مما يشير إلى أن هناك مُلك في ذلك الزمان يقوم على التوارث واستخلاف الملوك لبعضهم لبعض ، وليس المراد بهذه الكلمة خليفة المسلمين جميعاً ؛ إذ لو كان كذلك لجاءت كلمة خليفة معرفة بأل (الخليفة) للدلالة على الخليفة المعهود للمسلمين .

كذلك يتضح من نفس الرواية أن التحرك الذي يحصل في مكة يتبعه تحرك جيش من الشام للنيل به ، مما يشير إلى أن هناك نوع ولاية للشام على الجزيرة العربية ، وهذا

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦٥٩ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وسكت عن الذهبي [المستدرك ٥٩٦/٤] قال البستوي : إسناده حسن [البستوي : المهدي المنتظر (٢٠٨)]

(٢) أخرجه نعيم برقم ٨٨٩ ، وقال محقق الكتاب إسناده حسن [الفتن (٢٢٦)]

يوحي بأن الخريطة السياسية التي نعهدها في زماننا ستتغير ، ولا تبقى على حالها .

كذلك في الحديث إشارة إلى أن الناس يقعون في تهارج واختلاف شديد بعد موت ذلك الخليفة ، وهذا التهارج يصل إلى المدينة المنورة ، فيهرب منها الإمام المهدي ﷺ ، وهذا يُظهر لنا أنه يكون حريصاً على اجتناب الفتن ، وقد ورد في بعض الآثار أن من أوصافه أنه لم تلبسه فتنة . كذلك يشير الأمر إلى أنه ليس من طلاب الملك ، ولا ممن يسعون له ؛ أي أن المهدي يكون خارج الأضواء، ويعزز هذا الرأي أنه ورد في رواية أنه يبايَع وهو كاره للأمر ، وفي روايات أخرى تشير إلى أنه يهرب من الناس عدة مرات قبل أن يبايع .

ويتضح من نفس الرواية أن هناك تحركات من بعض أفراد الأمة ممن اجتباهم الله ، ويريد أهل هذه التحركات إخراج الأمة مما هي فيه من اختلاف وتهارج ، ويتنسمون في نفس المرحلة خروج الرجل الموعود به والمنتظر ؛ وهذا يشير إلى أنهم أهل علم بالكتاب والسنة ممن رزقوا البصيرة في تعيين وقت خروجه وصفاته ، وقد جاء في رواية أم سلمة أنهم من أهل مكة ، وفي رواية أخرى أنهم علماء من أقطار شتى يجتمعون على غير ميعاد بينهم ، ويتفقون على أوصاف محددة ، ويجدّون في البحث عنها ، ووقوع هذا الأمر ليس بغريب ، ولن تعدم الأمة في أصعب ظروفها من الهداية لهذا الأمر العظيم ، بل تساق إليه تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى ، وليس اجتماعهم بأغرب من اجتماع موسى بالرجل اللدني عند مجمع البحرين ، ولا بأغرب من خروج سلمان الفارسي من معبد النار في فارس والتقائه بالنبي ﷺ ، ولا بخروج تميم من لجج البحر بعد أغرب رحلة في الحياة واجتماعه برسول الله ﷺ .

الوقفة الثانية :

يتضح من رواية الإمام علي أن المهدي يخرج في مرحلة تكون الحرب على دين الله سبحانه وتعالى على أشدها لدرجة أن من يقول الله الله يقتل ، و يعزز هذا الأثر ما ورد

من انتشار الظلم والجور في الأرض ، وأعظم الجور هو بمحاربة أهل الله سبحانه وتعالى في الأرض .

الوقفة الثالثة :

يتضح من أكثر الروايات أن بداية خروج المهدي ﷺ ومعرفته يكون عند بيعته بين الركن والمقام ، أما قبل ذلك فيكون رجلاً مغموراً ، وهذا لا يتعارض إلا ظاهرياً مع الحديث الوارد بأن الرايات السود التي تخرج من خراسان فيها خليفة الله المهدي ﷺ ؛ لأنه يمكن حمل تلك الرواية على أن هذا الجيش الذي يخرج من خراسان فيه الأنصار والممهدون لتمكين خليفة الله المهدي في الأرض وقد سبق بيان ذلك .

الوقفة الرابعة :

يتضح من الروايات أن الذين يبايعون المهدي - ويقال أن عددهم الأولي كعدة أهل بدر - يلجئون إلى البيت الحرام بقصد المنعة والأمان على أنفسهم بحرم الله سبحانه وتعالى ،ويلحظ أن هؤلاء عند بداية بيعتهم لا يكونون من أهل المنعة والسلاح والعدة ، بل يكونون مجردين من السلاح والمنعة ، مما يشير إلى أن هذه البيعة قد وقعت دون إعداد مسبق ، أو حساب للنتائج المترتبة عليها ، ويحتمل الأمر أنهم يكونون على بينة من أمرهم لدرجة يقينية تعزز عندهم أن هناك نصرة ربانية خاصة لهم كما أخبر النبي ﷺ ؛ لذا لم يلتفتوا للنتائج ، و لم يعدوا العدة لها ، وإنما لجئوا إلى بيت الله وفي كنفه ، وكذلك يمكن استنباط فائدة في غاية الأهمية ، وهي أن هؤلاء هم أصحاب رسالة ، وليسوا أصحاب أغراض سياسية أو مآرب شخصية ؛ وهم أولى الناس في احترام تعاليم الإسلام وقدسية البلد الحرام ؛ لذا يحرصون على عدم استحلال البيت أو جعله ساحة للقتال ، وهذا الالتزام المبدئي عندهم كان سبباً في أن يتوكل صاحب البيت بعقاب المعتدين على بيته بخسف الأرض من تحتهم .

ويتضح أن هذه البيعة يكون لها ضجتها في الأرض حتى يحرك لأجلها جيش من الشام يتضمن ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم المستبصرون ، وهم علية القوم ممن يحادون الله ورسوله ، ويجتهدون لتبكيت أهل الله في الأرض أينما كانوا ، والصنف الثاني

: المجبورون على السير مع الجيش حسب أنظمة ذلك الزمان ، وهؤلاء هم الكارهون لغزو بيت الله الحرام . والصنف الثالث : عابرو السبيل ممن يقدر الله سبحانه وتعالى أن يكونوا قريبين من هذا الجيش ساعة الخسف .

ويتضح من الروايات أن هذا الخسف يحصل في بيداء المدينة بعد ذي الحليفة (آبار علي) ، أي قبل وصولهم لمكة بقرابة الثلاثمائة وخمسين ميلاً أو يزيد .

ويتضح أن هذا الخسف ينالهم جميعاً ، وفي روايات لا ينجو إلا من يخبر عن الجيش ، وفي روايات أن الناجي من الخسف يخرج بصورة مشوهة .

ويتضح من مجموع أحاديث أن هذا الخسف هو الخسف الثالث المقصود في الآيات العظام العشر بعد خسفي المشرق والمغرب .

وكذلك يعتبر هذا الخسف هو العلامة الأقوى في الدلالة على أن العائذين بالبيت هم المهدي وأنصاره كما أخبر رسول الله ﷺ ؛ لذا يتحرك أهل الله خاصة من الشام ومن العراق نحو مكة لبيعة المهدي ، وبذلك تتم البيعة ، وتكتمل البذرة الأولى لجيش العالمية الثانية للإسلام في آخر الزمان ، ولا ننسى أنه يكون للمهدي أيضاً أنصار من جهة المشرق يتحركون صوب إيلياء ويمهدون له الإمامة في نفس الوقت .

الوقفة الخامسة : غنيمة كلب .

الملاحظ في حديث أم سلمة أنه أشار إلى وقعة تقع بين المهدي ﷺ وأنصاره من جهة وبين رجل قرشي أخواله من قبيلة كلب ، وهذه الوقعة تعتبر أولى الملاحم التي يخوضها المهدي ﷺ ، ويتضح من سياق الحديث أن المعركة عظيمة ومفصلية ، ولعله يترتب عليها انتقال ملك المهدي للشام أو تكون ممهدة لذلك ، ويتضح أيضاً أنه يترتب عليها بعد انتصار المهدي ﷺ غنائم كثيرة تنالها الطائفة المنصورة من المعركة ؛ لذا جاء الترغيب في خوض هذه المعركة والمشاركة فيها بقول النبي ﷺ « الخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب . »

وقد أشار الحديث إلى أن الإسلام يلقي بجرانه في الأرض للدلالة على التمكين الذي يحظى به المهدي بعد ذلك حتى يعم الإسلام الأرض .

المبحث السادس
الملاحم بين المهدي وبين الروم

اتضح لنا مما سبق أن هناك تحركين رئيسين لجيش الإسلام في عصر المهدي ﷺ، أحدهما يتحرك من الجزيرة نحو الشام ، وتكون معركة فاصلة بين أنصار المهدي ومركز القوة في الشام والتي عرفت ببعث كلب ، ثم يمهد للمهدي ﷺ أمر الشام ، وينتقل إلى دمشق ، وفي نفس الوقت يصل جيش الرايات السود ليلتقي مع المهدي ﷺ ، وكون التقاء الجيشين ليس عليه دليل صريح ، وإنما سياق الأحاديث وبعض الإشارات في بعض الآثار تدل على ذلك ، وعندها تبدأ الملاحم العظمى في آخر الزمان بعد أن اكتمل جيش المهدي من اليمن وكوفان وهم لحمته الأولى ثم المبايعون من عصائب العراق وأبدال الشام ونجائب مصر ، ثم الرايات السود من خراسان والعجم .

وكون الملاحم أنها مع المهدي نستشفه من عدة قرائن سأبينها في مواضعها بإذن الله سبحانه وتعالى .

أولاً : الهدنة بين الروم وبين المسلمين :

📖- عن عَوْفَ بْنَ مَالِك ﷺ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ : ﴿ اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي ،ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ... ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث فيه إشارات عجيبة ، وفيه ربط بين ملاحم العالمية الأولى للإسلام في عهد النبي ﷺ و الخلفاء الراشدين وما وراء ذلك من استفاضة للمال ، وبين ملاحم

---

(١)سبق تخريجه

العالمية الثانية للإسلام والتي تبدأ إرهاصاتها بالفتنة والهدنة وغدر الروم في عهد المهدي ﷺ ، وهذا من روائع الكلم وبدائع الأسرار في الهدي النبوي ، ومن الوقفات الهامة التي نقفها مع هذا الحديث في هذا الموضع ما يلي :

الوقفة الأولى : الفتنة التي تدخل كل بيت .

دلائل الحديث الظاهرية وتفسيرات المعاصرين تشير إلى أن هذه الفتنة هي وسائل الإعلام التي دخلت كل بيت يضاف إليها الانترنت ، وفي ظني أن هذه الوسائل هي بعض عناصر الفتنة وليست الفتنة بعينها ، لعدة أسباب منها :

١- هناك مطابقة بين هذه الفتنة وفتنة الدهيماء ووجه المطابقة أن الدهيماء لا تترك مسلماً إلا لطمته ، و الفتنة المذكورة هنا تدخل كل بيت ، مما يشير إلى العموم في كلا الفتنتين .

٢- سياق الحديث هنا يشير إلى أمور عامة مفصلية بين يدي الساعة فناسب القول هنا أن المراد بالفتنة التي تدخل كل بيت فتنة الدهيماء العظمى والموطئة لفتنة الدجال .

٣- ذكر الهدنة بعدها يتناسب مع ما ذكرنا من أن فتنة الدهيماء موطئة للمهدي الذي يكون في عهده الهدنة مع الروم .

٤- القول بأن المراد بالفتنة وسائل الإعلام لا يتعارض مع ما ذكرنا ، بل هو تخصيص لما ذكرنا ، والأوفق أنها فتنة عظيمة تكون إحدى حبائلها وسائل الأعلام التي يستخدمها أهل الباطل في غزو قلوب الناس وبيوتهم ، وفي لطم كل مسلم وهو في داخل بيته ، أما أمر هذه الفتنة فهو أعظم من كون المراد بها وسائل الإعلام فقط ، بل هي منظومة ضخمة لأهل الباطل تقترب قدراتها من قدرات الدجال في بث الشهوات وإثارة الشبهات بين أفراد الأمة ، وهذا الفهم لا ينطبق إلا على فتنة الدهيماء ، والفائدة الزائدة في هذا الحديث أنه ذكر الفتنة متضمنة لأحد وسائلها الهامة .

الوقفة الثانية : جيش بني الأصفر .

يراد ببني الأصفر في عرف اللغة الروم ، والملاحظ في الحديث أنه أشار إلى هدنة هنا دون ذكر أسبابها التي قد صرحت بها أحاديث أخرى ، ولكن يستفاد من هذا الحديث أنه يعقب الفتنة غدر من الروم ، ثم جمع لجيش قوامه تسعمائة وستون ألفاً ، والإشارة إلى أن هذا الجيش يكون تحت ثمانين غاية (❁) قد يوحي بأن المنظومة الدولية المعهودة حالياً بالأمم بالمتحدة سيكون إما لها بقاء ، أو أنه يستعاض بها غيرها ، ولعله يكون تحالفاً أوروبياً في ذلك الزمان .

ثانياً : معقل المسلمين في الملاحم :

📖 – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ . ﴾ (١)

📖 – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْغُوطَةُ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ . ﴾ (٢)

📖 – عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمُ الشَّامُ فَإِذَا خُيِّرْتُمُ الْمَنَازِلَ فِيهَا فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ فَإِنَّهَا

(❁) الغاية : يراد بها هنا الراية والعلم ، ولعل النبي ﷺ قد استخدم كلمة غاية بدلاً من كلمة راية للدلالة على أن لكل دولة أو راية مشاركة في تلك الحرب غاية خاصة بها كما نرى في تحالفات هذا الزمان أو كما نلحظ الآن في تلك الحرب التحالفية على العراق ، فقد جمعت قوات من جميع أنحاء العالم ، ولكل قوة غاية خاصة بها من هذا التجمع يختلف عن غيرها ، وإن كان يجمعهم جميعاً المصالح المادية المشتركة .

(١)أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٧ ، وقد عقب عليه صاحب عون المعبود بقول يحي بن معين وقد ذكروا عنده أحاديث ممن ملاحم الروم ، فقال يحي : « ليس من حديث الشاميين أصح من حديث صدقة بن خالد عن النبي ﷺ معقل المسلمين أيام الملاحم دمشق . [عون المعبود (١١/ ٤٠٦)] قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٣٤٠)]

(٢) أخرجه أحمد برقم ٢١٧٨٣ ، وإسناده حسن [المسند (٥/٢٣٥)]

مَعْقِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَلَاحِمِ وَفُسْطَاطُهَا مِنْهَا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الْغُوطَةُ ﴾ (١)

شرح :

- هذه الأحاديث فيها إشارة واضحة إلى أن معقل المسلمين من الملاحم في دمشق ، والمعلوم أن عاصمة المهدي عند هجمة الدجال تكون بيت المقدس ، وهنا يطرح تساؤل هام ، وهو ما الذي يمنع المهدي ابتداءً عند دخول الشام من أن يذهب إلى عاصمة الخلافة (بيت المقدس) ؟ لعل هناك مانعاً قوياً ، ولعل هناك عدواً يمنع المسلمين من دخول بيت المقدس ؛ حيث يتركز هذا العدو فيها ، وإلا لو لم يكن هناك مانع من عدو ونحوه لاختار المهدي ابتداءً الذهاب لبيت المقدس .
- الإشارة السابقة قد تبرز لنا طبيعة أول الملاحم التي يخوضها المهدي في الشام وهي تحرير بيت المقدس من العدو الجاثم عليها ، ولو ربطنا بين هذه الأحاديث وبين الأحاديث التي تشير إلى قتال اليهود وكلام الشجر والحجر لأصبح عندنا تصور كامل لكل تفاصيل المرحلة ، والذي سأصيغه في الفقرة التالية .
- يتضح مما سبق أن المهدي ﷺ يتخذ بداية دمشق عاصمة له لأن اليهود يتمركزون في فلسطين ويمنعونه من بيت المقدس ، ودلائل الحال تشير أن لليهود شوكة قوية في تلك المرحلة ، ولكن في هذه المرحلة تكون نواة الدولة الإسلامية في بداية قوتها ، و تتفق مصالح المسلمين مع الروم في القضاء على هذا العدو ، فتكون الهدنة بينهم ، وهذا ما سيتضح من الأحاديث التالية .

ثالثاً : أسباب الهدنة بين المسلمين والروم ونتائجها .

📖 - عن ذِي مِخْبَرٍ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال : ﴿ سَتُصَالِحُونَ - وفي رواية ستصالحكم - الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ فَتُنْصَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ١٧٤٨٢ [المسند (١٩٨/٤)] والحديث في إسناده ضعيف ، لكن له شواهد ترقيه لدرجه الحسن لغيره

تُلُول فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ فَيَقُولُ غَلَبَ الصَّلِيبُ فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَدُقُّهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ ﴾ (١)

أقول :

الحديث يشير إلى سبب الهدنة بين المسلمين والروم ؛ وهي وجود عدو مشترك للطرفين ، وهذا العدو كما صرحت الرواية من وراء المسلمين ، وحسب ما بيناه سابقاً أن مقر الخلافة في الملاحم هو دمشق ، وذكرنا أن دلائل السياق تشير إلى أن المهدي ﷺ في بداية الأمر لا يقصد بيت المقدس لمانع ما .

ولو كان يقدر على ذلك لاختارها مقراً للخلافة من بادئ الأمر ، وهنا يطرح تساؤل من هذا العدو الذي من وراء المسلمين ؟ في ظني والله أعلم أنه دولة إسرائيل ، ووفق هذا الظن تحمل الأحاديث الواردة في قتال المسلمين لليهود في آخر الزمان على تلك المعركة .

وقد يعترض البعض على هذا الفهم ، ويظنه من باب التعسف أو تحميل الأحاديث أكثر مما تحتمل .

أقول هذا فهم تحصل لدي من عدة أحاديث ، وتؤيده قرائن عدة عندي ، ولم أجد مانعاً شرعياً لهذا الفهم ، ويبقى في دائرة الاجتهاد الذي يحتمل الخطأ ، ولكي يتضح هذا الفهم أذكر القرائن المعززة لهذا الفهم ، ثم أناقش بعض الموانع المتخيلة عند البعض ، وذلك على النحو التالي :

القرينة الأولى : لماذا اختار المهدي ﷺ دمشق لتكون معقلاً له في الملاحم ، وما الذي يمنعه من اختيار بيت المقدس مع العلم أنها العاصمة الحقيقية لخلافته .

القرينة الثانية : يتضح من عدة أحاديث أن عاصمة المسلمين في زمن الدجال تكون بيت المقدس ، والدجال يكون بعد الملاحم مباشرة ؛ وهذا يترتب عليه نتيجة لازمة عنه وهي أنه في ذلك الوقت لا يكون وجود لدولة إسرائيل ؛ إذ

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧١ [عون المعبود (٣٩٧/١١)] ؛ وابن ماجة في في الفتن برقم ٤٠٨٩ ، وقال محققه : إسناده حسن [السنن (١٣٦٩/٢)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٢٣٩)]

لو كانت لما استطاع المهدي أن يجعل عقر دار الإسلام بيت المقدس ، والسؤال الذي يطرح : أين ذهبت دولة إسرائيل ، وفي أي الملاحم انتهت صولتها ، ليس هناك ذكر لملحمة قريبة من دمشق ، ولعدو من وراء المسلمين إلا الملحمة المذكورة في الحديث السابق ، فتحمل عليها .

القرينة الثالثة : المعلوم أن المهدي سينطلق من الشام نحو تركيا والقسطنطينية ، لكن هناك عدو من وراءه ، ولا يصدق هذا الوصف إلا إذا اعتبرنا أن إسرائيل في ذلك الزمان يكون لها بقايا وجود وكيان وقوة .

القرينة الرابعة : جاء ذكر لمرج ذي تلول مما يشير إلى أن قفول الجيش يكون نحو أرض سهلة مليئة بالزرع و حولها تلال وهذا الوصف يكثر مثله في الشام كسهل مجدو وسهل البقاع وغيرها من سهول الشام والتي يظهر فيها بعض التلال .وهذا المعنى يشير إلى أن أرض المعركة قريبة من الشام .

القرينة الخامسة : يتضح من الأحاديث التالية أن الروم يجمعون جيشهم في الملحمة قريب من حمص في الأعماق أو دابق ، وذلك بعد غدرهم الوارد في الحديث السابق ، وهذا يشير إلى أن مجريات الملحمة السابقة بين المسلمين والروم من جهة وبين عدو المسلمين من ورائهم وبين الملحمة العظمى بين الروم وبين المسلمين في نفس البقعة أو قريب منها

أما ما نقرأه في بعض الكتب المعاصرة أن العدو المقصود هنا هو الصين وروسيا (۞) أو غيرهم في جهة المشرق ، فالسياق هنا في الحديث ودلائل ألفاظه لا تسعفهم في هذا

(۞) ما دمنا قد حددنا وقت هذه الهدنة يأتي تساؤل ما المصلحة التي يراها المهدي ﷺ في قتال الصين وروسيا ؛ كذلك دلائل سياق بعض الأحاديث تشير إلى أن جيش المشرق (الرايات السود) يتجه من المشرق نحو إيلياء ، وفي ذلك دلالة على أن الملاحم تكون قريبة من الشام ، مما يعزز القول أن جهة الشرق في تلك المرحلة بالذات لا تحتوي على عدو محتمل للمسلمين . كذلك لا يتصور من المهدي في مرحلة كون عاصمته الأولى لدولته الناشئة (دمشق) أن يحالف الروم لتحقيق مصالحهم نحو الصين أو إيران ، بل المتصور أن له مصلحة عظمى في هذا التحالف لتحقيق النفوذ الكامل على بلاد الشام .

الزعم ، بل الأولى حمل تلك الملاحم على أنها كلها في الشام ، الملحمة الأولى تكون تحالف إسلامي رومي ضد اليهود ، والملحمة الثانية وهي العظمى تكون بين المسلمين والروم ينتصر فيها المسلمون ، ويتوجهون بعدها نحو القسطنطينية .

كذلك أشير إلى أن القائلين بأن المراد بالعدو هنا الصين وروسيا وإيران إنما تأثروا بالمدرسية الإنجيلية الأصولية ، وبما أفرزته من أفكار دينية مشوهة ممزوجة باستراتيجية عسكرية بخصوص معركة الهرمجدون ؛ حيث اعتبرت هذه المدرسة أن عدو النصارى في تلك المعركة يقدم من روسيا وإيران وما نحوها . (۞)والمؤلفون المعاصرون نقلوا هذه الفكرة دون تمحيص ، فلا داعي لتكرارها أو اعتمادها ، والمعلوم أن المدرسة الإنجيلية تسعف الساسة من الناحية الدينية في ربط العدو الاستراتيجي بالفكر الديني لتسويق تلك الاستراتيجيات .

هذه أبرز القرائن التي أراها تعزز ظني في المسألة ، والكلام يحتمل غيره ، ومن قرأ فقرة كلام الشجر والحجر في هذا الكتاب والتي تضمنت الحديث عن قتال اليهود في آخر الزمان قد يتحصل عنده قرائن أخرى تعزز ما ذكرت .

أما المانع الوحيد الذي قد يذكره البعض فهو عدم تصور وقوع تحالف إسلامي مسيحي ضد اليهود خاصة أننا نجد في عصرنا نقيضه تماما ، وهو تحالف يهودي نصراني ضد المسلمين .

وهذا المانع إنما يتصور حال قراءة الواقع المعاصر ودلائل الأحداث القريبة المتصلة به ، أما من نظر لطبيعة العلاقة بين الدول والمصالح التي تربطها ، وكيف يتحول صديق الأمس إلى عدو اليوم لاختلاف المصالح فإنه يسهل عليه تصور هذا التغير في العلاقات بين النصارى واليهود ، وقد عايشنا دول كانت بمثابة عدو الأمس وصديق اليوم كروسيا في

(۞) انظر ما كتبته عند مناقشتي لكتاب الهرمجدون في كتابي : كتب في ميزان الشرع (٦٤ وما بعدها) فهو يسعفك في فهم الأسباب الداعية لبعض المؤلفين لذكر الصين وإيران وروسيا كعدو محتمل للمسلمين والروم في مرحلة الهدنة ، وسيتضح لك كيف أن بعض كتابنا قد انخدعوا بفكرة الهرمجدون وبدءوا يسوّقون لإستراتيجية الغرب الممزوجة بالفكر التوراتي ويصبغونها بالصبغة الإسلامية .

عهد الشيوعية التي كانت فيما يظهر لنا العدو الأول لأمريكيا ، واليوم أصبحت حليفاً لها في بعض الحروب أو دواعي الحروب كالحرب على الإرهاب مثلاً .

فالعلاقات بين الدول تحكمها المصالح ، والمعلوم أن زرع الكيان اليهودي في بلاد فلسطين كان يمثل مصلحة عظمى للدول الاستعمارية كإنجلترا وفرنسا ، وهذه المصلحة قد تتغير في المستقبل ويتحول وجود هذه الدولة اليهودية عبئاً على الروم في أوروبا ، وتهدد مصالحها في الشرق الأوسط ؛ حيث يتحول حارس دول أوروبا ، وحامي مصالحها في الشرق الأوسط (إسرائيل) إلى غول يبتلع كل مصالحها في المنطقة .

والملاحظ أن إرهاصات تغير المصالح قد بدأت تلوح في أيامنا الحالية (*) ، وقد تتجذر في المستقبل بما يحدث شرخاً حقيقياً في العلاقات وتضارباً حقيقياً في المصالح .

والملاحظ أنه في ظل دولة المهدي الناشئة يتصور أن يقوم الغرب بعقد تحالف معها للقضاء على هذا الغول الجاثم في الشرق الأوسط ، والذي بدأ يهدد مصالح الروم في المنطقة في بلاد الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية .

ويتضح من سياق الحديث السابق أن الروم في تحالفهم مع المسلمين أنهم لا يشعرون بخطورتهم ، بل يدخلون في التحالف كتكتيك مرحلي لطالما استخدموه في معاركهم منذ الثورة العربية للقضاء على الدولة العثمانية ؛ حيث تحالفوا مع عرب الجزيرة

(*) المتتبع للدراسات السياسية حالياً يجد أن إسرائيل بالفعل قد أصبحت عبئاً على أوربا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، بدأت تستولي على مناطق نفوذها تدريجياً ابتداءً من الأردن التي تمثل منطقة نفوذ لإنجلترا ثم العراق ، وتحاول السيطرة على مناطق نفوذ فرنسا في أفريقيا (موريتانيا – المغرب – وغيرها من دول أفريقيا) وكذلك تحاول أن تتغلغل في أريتريا وجنوب السودان ، وغيرها من المناطق ، ولها مطامع اقتصادية في دول الخليج الذي يعتبر في الماضي منطقة نفوذ للإنجليز ، وهكذا تحول الحارس لمصالح أوروبا في الشرق الأوسط إلى مستأثر بها لوحده دون حلفائه القدماء ؛ وهذه بداية تعارض المصالح بين أوروبا وبين إسرائيل ، يضاف إلى ذلك ما نراه من تغلغل قوي ونافذ في نفس دول أوروبا لدرجة أنه بدأ يؤثر على سياستها الداخلية كما هو حاصل في فرنسا وغيرها ، فهذه الأسباب كلها تعزز ما ذكرناه من أن أوروبا قد تجد نفسها في مرحلة ما أنها بحاجة للتخلص من هذه الدولة لتأمن على مصالحها في الوسط العربي ، لذا جاء في بعض روايات الحديث [ستصالحكم الروم] مما يشير إلى أن للروم مصلحة قوية في تلك المصالحة ، وهي عندهم من باب مصالحة عدو صغير لدفع عدو عظيم لهم ، وهذا أمر معلوم في العلاقات الدولية ، ولعل الأحداث المستقبلية تكون مهيئة لذلك الأمر ، حال تغير موازين القوى .

وغيرها للقضاء على الدولة العثمانية ، وبعد ذلك تم لهم السيطرة على حلفائهم العرب وعلى أراضيهم .

لذا يتصور أن يخوضوا نفس اللعبة في التحالف مع الدولة الناشئة للقضاء على عدو مشترك ، وهذا واضح من سياق الحديث ؛ حيث يقول النصراني غلب الصليب ، مما يشير أن معطيات المعركة ديني ، وله علاقة بحرب بين أديان من ناحية ، ومن ناحية أخرى يظهر الحديث غرور الغرب واعتباره دائماً أنه المحرك للحروب والمهيمن على نتائجها ، أما من يشاركه في الحرب من الحلفاء فهم أداء ووسيلة لتحقيق أطماعهم ؛ ويكون عندها تلك الحادثة البسيطة في ماهيتها و العظيمة في دلالتها ؛ حيث يقوم مسلم فيدق رأس النصراني غضباً لله سبحانه وتعالى ، فهذه الحادثة البسيطة جاءت كإشارة قوية للروم أن المعركة ليست كما يتصورون ، وأن حليفهم الإسلامي ليس شبيهاً بحلفائهم من المسلمين في الماضي ، فالمسلم هنا في هذه المعركة ليس أداة أو ذنباً لتحقيق مصالح دولة استعمارية على حساب دولة أخرى .

وهذه القصة على بساطتها ؛ إلا أن إشارتها القوية الدالة على استقلالية قرار جيش المسلمين قد وصلت إلى الروم كالصاعقة ، فانتبهوا لهذا التغير غير المتوقع لحليفهم القديم الجديد ، هذا الحليف الذي طالما استغلوه لتحقيق مصالحهم ؛ لذا وحتى لا تخرج حدود اللعبة عن الدور المرسوم لها ، وحتى لا يخرج هذا الجيش الناشئ من قمقمه ، ويصبح صاحب قرار مستقل ومؤثر في العالم ، تتحرك الروم في حشد كل ما تستطيع من جيوش لحصد هذا الجيش في مهده ، عندها يبدأ الغرب وبسرعة في إعداد جيش الملحمة (المليون جندي) حتى لا يخرج الأمر عن السيطرة .

هذا هو فهمي لحديث الهدنة ، و قد يستهجن البعض هذا الفهم ، ومن تأمل في مجموع النصوص وحدد طبيعة المرحلة قد يستحسنه .

رابعاً : الملحمة العظمى .

📖 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَ الْمَلْحَمَةِ وَفَتْحِ الْمَدِينَةِ سِتُّ سِنِينَ وَيَخْرُجُ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ فِي السَّابِعَةِ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث فيه إشارة واضحة محدِّدة لزمن الملحمة العظمى بين المسلمين والروم ؛ حيث اعتبر الحديث المدة بين الملحمة وفتح المدينة - أي القسطنطينية - ست سنوات ، والدجال يخرج في السابعة ، ومدة الدجال أربعون يوماً تعادل سنة وشهرين وسبعة أيام ؛ وعلى فرض خروجه في بداية السنة السابعة يكون تكون نهايته في بداية السنة الثامنة من الملحمة العظمى في الشام .

ويحتمل في ظني أن المراد بخروجه في السنة السابعة بالنسبة لأهل الشام في ذلك الوقت لأنهم هم الذين يمثلون بيضة المسلمين وقتذاك ، فيكون هذا الحديث بمثابة إرشاد وبيان بالنسبة لهم ، فهم الذين يواجهون الملحمة ويفتتحون القسطنطينية ، ويخرج عليهم الدجال في الشام في السنة السابعة ؛ أي يباغتهم هناك في آخر أيامه ، وهذا الفهم يعززه سياق هذا الحديث من باب دلالة الاقتضاء وسياق الحديث التالي من باب دلالة العبارة .

📖 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ . فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَا وَاللَّهِ : لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ

---

(١)أخرجه أبو داود في الملاحم ، برقم ٤٢٧٥ ، و قال أبو داود : هذا الحديث أصح من حديث عيسى . يقصد حديث معاذ الذي سيأتي ذكره في مبحث الدجال [عون المعبود (٤٠٢/١١)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٩٣ [السنن (١٣٧٠/٢)]

الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ ، فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ . ﴾ (١)

شرح :

- هذا النص جاء فيه تحديد موقع الملحمة وهو دابق أو الأعماق وهما موضعان في شمال الشام ، وهي منطقة حلب في سوريا .
- المراد بالمدينة هنا ليس المدينة المنورة ، بل معقل المسلمين حينذاك وهي دمشق التي يجتمع فيها خير أهل الأرض من عرب ومن عجم ، واللفظ هنا مجمل وتفسره أحاديث أخرى ودلائل السياق وهذا معلوم في اللغة .
- قول النبي ﷺ فإذا تصافوا فيه إشارة إلى أن أنظمة الحرب في الملحمة الكبرى تكون تقليدية شبيهة بالحروب القديمة ، وإلا الحروب المعاصرة ليس فيه نظام القتال عبر الصفوف ، وسنلحظ في الحديث التالي ما يعزز ذلك .
- يلحظ من سياق الحديث أن الروم لها مطلب قبل الحرب ، وهو أشبه بالمطالب التي نعهدها في عصرنا عند افتعال الحروب من قبلهم ، ومطلبهم مبني على الاستفراد ببعض المسلمين ممن كانت لهم نكاية وكيد بالروم ؛ حيث قالت الروم : « خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ . فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَا وَاللَّهِ » وفي رواية « سُبُوا منا » ولهاتين الروايتين معنيان عند العلماء وأشار النووي أن كليهما صواب :

فعلي رواية المبني للمعلوم « سَبَوْا » ، أي أعطونا هؤلاء الذين هاجمونا وسبوا من رجالنا أو من جمعنا سبياً ورهائن لكي نقاتلهم ، فلأجلهم نحن جمعنا الجموع ، وجيشنا الجيوش ، ووفاؤكم بهذا المطلب ينهي الحرب بيننا .

(١) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٧[مسلم بشرح النووي (٩/ ٢١٩)]

ووفق هذه الرواية يتصور أن هناك عصائب من المسلمين في تلك المرحلة قد قامت بعد غدر الروم بالهجوم على بقايا الروم وقامت بأخذ رهائن منهم أو سبياً .

وعلى رواية المبني للمجهول « سُبُوا » أشار النووي إلى أنهم في البداية تم أخذهم رهائن وسبي من الروم ثم أسلم هؤلاء الرهائن وبدءوا يهجمون على فلول الروم ويقاتلونهم، فجاء الروم ليطلبوا بني جلدتهم الذين تحولوا في نظرهم إلى خونة يكيدون لهم.

وفي ظني أن الرواية الأولى أرجح ، وبها يتفق السياق ، وفيها إشارة إلى وجود بعض كتائب المسلمين التي استباحت الروم قتلاً وأسراً وكيداً فأراد الروم أن يتمكنوا من هذه الفئة بالذات لما يرون فيها من الخطر عليهم ، ومثل هذا المطلب معلوم في زماننا .

ويلحظ من نص الحديث وعلى كلا الروايتين أن إجابة المسلمين على هذا المطلب بالنفي قائلين لا نخلي بينكم وبين إخواننا ؛ أي لا نسلم مسلماً لكافر لكي ينال منه ، وهذا الإجابة تفتحُ بوابة الملحمة العظمى .

- يلحظ من الحديث أن جيش المسلمين في تلك المرحلة لا يخلو من المنافقين ، فهو أشبه بجيش المسلمين في غزوة أحد ؛ حيث كان ثلث الجيش من المنافقين والمنتفعين الذين انسحبوا من الجيش في أصعب الظروف ، وهذا الواقع نفسه يتكرر ؛ حيث يكون ثلث جيش المهدي من المنافقين ، فهؤلاء ينسحبون من الجيش متمثلين قول أسلافهم الذي يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (١)

وهؤلاء الثلث الذين ينهزمون ـ ينسحبون - من جيش المهدي رضي الله عنه لا يتوب الله سبحانه وتعالى عليهم أبداً ، وهم أشد الناس نفاقاً عند الله يوم القيامة .

- يتضح من هذه المعركة أنها تضمنت وصفاً عجيباً ؛ حيث اعتبرت الثلث الذي يستشهد أعظم الشهداء عند الله سبحانه وتعالى ، والثلث الذي ينسحب لا يتوب الله

(١) آل عمران:١٦٧

عليه أبداً ، وكأن الشمس قد خرجت في حقهم من المغرب ، والثلث الذي ينتصر لا يتعرض لفتنة بعد ذلك أبداً بمعنى أنه لا يفتن بعد ذلك ، وهذا التوصيف العجيب فيه إشارة إلى أن هذه المعركة مصيرية ومفصلية بالنسبة للمسلمين ، وهي ممحصة للإيمان في نفس الوقت ، كذلك فيها إشارة إلى عظم هذه المعركة وشدها على المسلمين ؛ بحيث يصدق في هؤلاء وصف الأُحُديين ، الذين قال عنهم النبي ﷺ عند تحركه لوقعة حمراء الأسد لا يتبعني إلا أُحُدي - نسبة إلى غزوة أحد - ؛ فمن ثبت على إيمانه في أحد أحرى أن يثبت بعدها .

- في الحديث إشارة إلى تحديد الوقت الذي تقع فيه الملحمة الكبرى ، وهو قبيل الدجال بقليل ؛ حيث وضح الحديث أن الذين ينتصرون في الملحمة العظمى يتوجهون إلى القسطنطينية ، وبعد فتحها يأتيهم خبر الدجال ، وعند رجوعهم للشام يخرج الدجال عليهم في تلك المرحلة ، وفي السياق ما يشير إلى أنهم حال هجومهم على القسطنطينية أو بعيد الملحمة بقليل يكون الدجال قد خرج ، إلا أنه يكون بعيداً عن الشام ، فالشام بالنسبة لفتنة الدجال تكون في آخر مراحلها ، وهناك يقتل ، ولكن الذي جعلهم يرجعون إلى الشام بسرعة هو الخبر الذي أشيع ، ويقال ـــ أنه كذبه من الشيطان ـــ أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ؛ أي أنه أصبح بين أولادهم ونسائهم في الشام ، وهذا هو الوجه الكاذب في الخبر ، وعندما رجعوا للشام وجدوا الدجال قد بدأ يطرقها من ناحية الجنوب ؛ أي من ناحية المدينة المنورة .

المهم هنا معرفة توقيت الملحمة العظمى . وهي قبيل خروج الدجال ، **وهذا دليل قوي على أن الملحمة العظمى تكون في عهد المهدي ﷺ ، ويشهد لذلك الحديث اللاحق.**

🕮 -عَنْ يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إِلَّا يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ قَالَ فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : « إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلَا يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ ،

فَقَالَ : عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ قُلْتُ : الرُّومَ تَعْنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ ، نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُ اللَّهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً إِمَّا قَالَ : لَا يُرَى مِثْلُهَا . وَإِمَّا قَالَ : لَمْ يُرَ مِثْلُهَا . حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا ، فَيَتَعَادُّ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ، فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي لَأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ » (١)

شرح :

- هذا الحديث فيه بيان مدى عِظَم الملحمة العظمى التي تكون بين الروم وبين المسلمين في الشام ؛ حيث بين الحديث أن هذه الملحمة لم ير مثلها ؛ أي في الماضي ، ولا يرى مثلها ؛ أي في مستقبل المسلمين ، كذلك في الحديث إشارة إلى سعة ساحة المعركة والتي عبر عنها بقوله : « حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا » وفي ذلك إشارة إلى كثرة الموتى وانتشارهم في مكان واسع ، والمعلوم أن مثل ذلك ينشر الأوبئة ؛ لدرجة أن الطائر الذي يمر عليهم لا يستطيع أن

(١) أخرجه مسلم في الفتن والملاحم برقم ٢٨٩٩[مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٢٢)]

يخرج من دائرة ساحة المعركة لسعتها حتى يموت ، ويرى البعض أن في ذلك إشارة إلى استخدام أسلحة دمار شامل ، وهذا محتمل إلى أنه لا يكون في ظني من الأسلحة النووية ، لكن يحتمل بعض بقايا الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية .

وبالرغم من أن هذا الاحتمال وارد إلا أنني لا أرجحه لعدة اعتبارات وقرائن ، وقد ذكرت بعضها عند حديثي عن كتاب الهرمجدون فليرجع إليه . (١)

وما دام هذا الاحتمال مرجوحاً - في ظني - إذاً يقتصر على ما رجحته سابقاً بأن هذه العبارة من باب الكناية للدلالة على سعة ساحة المعركة وكثرة القتلى والجثث فيها .

كذلك الحديث تضمن إشارة إلى كثرة القتلى بما يصدق فيه القول بأنه يقتل ما يعادل ٩٩٪ « **فَيَتَعَادُّ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ** » وهذا الكلام لا يحمل على الملحمة العظمى فقط ؛ حيث بين الحديث السابق أن القتلى من جيش المسلمين يكون بنسبة ٥٠٪ فقط (هذا بخصوص الثلثين الذين يخوضون المعركة فقط) بل يحمل قول ابن مسعود على سلسلة الأحداث المتلاحقة منذ حسر الفرات مروراً بغنيمة كلب و الملحمة العظمى و فتح القسطنطينية وانتهاءً بالدجال لعنه الله ، ففي ظل هذه الأحداث المتلاحقة بأي غنيمة يفرح المسلمون .

- قول ابن مسعود ﷺ ، وتكون عند ذاكم ردة شديدة لعله إشارة إلى ما صرح به الحديث السابق من انسحاب ثلث الجيش الذي يعتبر أشد الناس نفاقاً ، ولعله يحتمل إشارة إلى ما هو أوسع من ذلك من انضمام عدد من القبائل العربية إلى صف الروم في المعركة بسبب رؤيتهم لكفتهم الراجحة في العدة والعدد ، ولعله إشارة إلى بعض من لم يستطيبون الدخول في المعركة ورأوا تسليم تلك العصائب التي سبت من الروم إلى الروم ، وكل هذه الاحتمالات واردة .
- في حديث ابن مسعود إشارة إلى طبيعة أنظمة الحرب وقتذاك ، فهي حروب تقليدية

(١) انظر للمؤلف : كتب في ميزان الشرع (٦٥ وما بعدها)

شبيهة بالحروب القديمة ؛ ولعل أقوى الدلائل على ذلك قوله ثم يحجز بينهم الليل ، وهذا لا يتصور في ظل الحروب الحديثة التي لا تفرق بين ليل ولا نهار بفضل التطور التكنولوجي ، وكذلك جاءت الإشارة إلى فوارس وخيول مما يعزز ما ذكرنا .

- جاء في الأثر السابق ذكر للطليعة التي تستكشف خبر الدجال ، وجاء تحديد عددها وطبيعتها ، فهم عشرة فوارس ، وهم خير فرسان الأرض في ذلك الزمان ، ثم جاءت الإشارة من النبي ﷺ بأنه يعرف أسمائهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم ، ولا أعلم الحكمة من هذا التحديد هنا بالرغم من أن الحديث قد أشار إلى معرفة النبي ﷺ الدقيقة بكل ما يخصهم ولكنه لم يصرح بما يعلم ، ولعل حكمة ذلك تظهر لأهلها في زمانها ، وإن كان الحديث يحمل معاني كثيرة منها : أن أحداث الساعة المستقبلية كانت واضحة أمام مخيلة النبي ﷺ كأنه يراها رأي العيان ؛ لدرجة أن تلك اللقطة التي تصف الطليعة جاء النبي ﷺ ليشير إليها وكأنها أمام عينه ، و أنه يعرف هؤلاء معرفة جيدة لدرجة أنه يعرف ألوان خيولهم .

وفي الحديث أيضاً إشارة إلى دليل من دلائل النبوة المستقبلية حين وقوع هذا الحدث ، ويرى هؤلاء العشرة أنفسهم قد تم اختيارهم طليعة لكشف حقيقة خبر الدجال ، ففي تلك اللحظة يصدق في حقهم قولنا صدق رسول الله حيث وقع ما أخبر على الوجه الذي قال ، وفيه أيضاً طمأنة للجيش كله بطليعته أنه على الحق ، وأنه محط نظر الله سبحانه وتعالى .

كذلك في الحديث ترغيب لكل الجيش ليحرص على الخوض في الشدائد ، ويكون في المقدمة ، فيطمع كل فرد منهم أن يكون في هذه الطليعة التي اختارت لنفسها الاستعداد لمواجهة أكبر فتنة في الأرض .

والإشارة إلى ألوان خيولهم هو غاية في التكريم من رسول الله ﷺ لهم ، وهو

أشبه بتكريم الله سبحانه وتعالى للسبعة الذين أووا إلى الكهف ؛ حيث ذكر مع قصتهم تكريماً لهم ما كان من كلبهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (١)

فحقيق بهذا الكلب الذي رافق خير الناس في زمانه أن يذكر معهم ، وحقيق بالخيول التي يعتليها خير الفوارس في آخر الزمان أن تنال حظاً من توصيف سيد المرسلين .

---

(١) الكهف: من الآية١٨

المبحث السابع
مدة بقاء المهدي وطبيعة عهده

هذا المبحث فيه بعض الإشكالات من التعارض الظاهري بين بعض النصوص ؛ لذا أقوم بذكر هذه النصوص مع بيان الإشكالات المحتمل تصورها ، وأقوم بتوجيه أوجه الجمع بينها ، والله أعلم بوجه الصواب فيها :

أولاً : عمر المهدي ﷺ عند توليه الأمر .

- عن السميط (❁) قال : « **اسمه اسم نبي وهو ابن إحدى أو اثنين وخمسين يقوم على الناس سبع سنين ، وربما قال ثمان سنين .** » (١)

أقول :

هذا الأثر الوارد عن أحد التابعين هو أصح الآثار الدالة على عمر المهدي عند توليه الأمر في مكة ، وفيه تصريح بأن عمره وقتذاك يكون إما واحد وخمسين وإما اثنين وخمسين ، وعلى الروايات القائلة بأنه يملك سبع أو ثمان أو تسع سنين تكون وفاته قريب من سن الستين .

وعلى هذه الرواية يشبه الحدث المرحلة المدنية من وقعة بدر سنة ٢ هـ إلى وفاة النبي ﷺ ، سواء في المدة أو في بعض تفاصيل الأحداث ، فقد بدأت نواة لدولة الإسلامية الثانية بالمبايعين الذين ورد في بعض الآثار أن عدهم تكون كعدة أهل بدر ، وقد عاش النبي ﷺ بعد وقعة بدر بين السبع والثماني سنوات حتى تم التمكين في الأرض الذي أكمله خلفاؤه بعده .

وهناك آثار ضعيفة أخرى تشير إلى أن عمر المهدي ﷺ عند توليه الأمر يكون أربعين سنة ، وبعضها أشار إلى أنه يبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين . (٢)

(❁) السميط : هو بن عمير السدوسي البصري ، وهو تابعي روى عن أنس بن مالك وأبي موسى الأشعري

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في سننه برقم ٥٨٥ [الداني : السنن الواردة في الفتن (٥/١٠٦٤)] وقال البستوي عن هذا الأثر المقطوع : وهذا الإسناد صحيح إلى السميط [البستوي : المهدي المنتظر (٢٢٨)]

(٢) البستوي : الموسوعة في أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة (١٤٣) (١٦٥) (١٦٧)

ولعل أوجه الآراء الأول ، ويحتمل أن يكون عند توليه الأمر ابن أربعين ، فهذه السن هي بداية سن الكهولة الممزوجة بالحكمة مع بقاء عود الشباب وحيويته وهي زمن مبعث جده النبي محمد ﷺ .

ثانياً : مدة بقاء المهدي رضي الله عنه .

- عن أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ يَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدٌ الشَّاكُّ قَالَ : قُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ سِنِينَ قَالَ فَيَجِيءُ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي أَعْطِنِي قَالَ : فَيَحْثِي لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ ﴾ (١)

- عن أَبي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ يَكُونُ مِنْ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ فَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ أَوْ قَصُرَ عُمْرُهُ عَاشَ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا . ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا ، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ . ﴾ (٣)

- عن ابن سيرين قال : « المهدي من هذه الأمة وهو الذي يؤم عيسى ابن مريم » (٤)

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٣٣ ، وقال عنه : هذا حديث حسن [تحفة الأحوذي (٤٨٧/٦)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨٣ [السنن (١٣٦٦/٢)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٢١٨ [المسند (٣٣/٣) وقال عنه البستوي : حسن لشواهده [البستوي : المهدي المنتظر (١٧٩)]

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٧٦٤٩ [المصنف (٥١٣/٧)] قال البستوي : إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات [البستوي : المهدي المنتظر (٢٢٠)]

أقول :

هذه الآثار متقاربة المعنى ويفسر بعضها بعضاً ، وفيها إشارة واضحة إلى أن مدة بقاء المهدي بعد بيعته من سبع إلى تسع سنين ، ويتضح من الروايات أنها تكون سنين خير وعدل بين الناس .

ثلاثة إشكالات تضمنتها الأحاديث السابقة

الإشكال الأول :

يتضح من الآثار السابقة أن مدة بقاء أو عيش المهدي ﷺ من ٧-٩ سنوات ، وقد ورد في بعض الآثار أن الذي يؤم بعيسى ﷺ في مرحلة الدجال هو المهدي ﷺ ، ولو حسبنا السنوات من البيعة في مكة إلى خروج الدجال لوجدناها تزيد على العشر سنوات ، ففي البداية تكون البيعة ، ثم تكون وقعة كلب ، ثم بعد ذلك يتوجه المهدي إلى دمشق لتكون عقر دار المسلمين قبل الملاحم ، وتكون الهدنة ، والله أعلم مدة الهدنة ، ثم المعركة التحالفية المشتركة ، ثم غدر الروم ، وقدومهم للملحمة العظمى ، وورد في بعض الآثار أن مدة تجييش جيش الملحمة يستغرق تسعة شهور ، أي قرابة السنة ، ثم بين الملحمة وبين فتح القسطنطينية ست سنوات ، ثم يخرج الدجال في السابعة ، ففي مثل هذه الأحداث المتلاحقة لا يتصور أن تنقضي في أقل من عشر سنوات ؛ إذ فقط منذ استعداد الروم للملحة إلى خروج الدجال ثماني سنوات ، وهذا وجه الإشكال ؛ لذا كيف يتصور أن مدة بقاء المهدي فقط من ٧-٩ سنوات وأنه هو الذي يؤم بعيسى ﷺ في آخر مرحلة الدجال .

ويمكن دفع هذا الإشكال بعدة وجوه منها :

الوجه الأول :

إن هذه الآثار تشير إلى مدة ملك المهدي ﷺ ملكاً مستقراً ؛ أي أنها تشير إلى فترة الرخاء الذي يعيشها الناس مع المهدي ﷺ بعد الحروب ، وليس المراد بها كل المدة التي

يقضيها المهدي من البيعة إلى ما بعد مرحلة الدجال ، ويعزز هذا الوجه أنه في بعض روايات الحديث جاءت الإشارة إلى مدة ملك المهدي ﷺ ، وحقيقة ملك المهدي لا تتضح إلا بعد الملاحم ، وكذلك جاء الربط بين تلك السنوات وانتشار العدل وعموم الرخاء مما يشير إلى أن المراد بها مدة استقرار الملك الذي يتضح به العدل وتظهر من خلاله بوادر الرخاء ، وإلا فالمراحل الأولى من بيعة المهدي إلى نزول عيسى ﷺ تعتبر مراحل فتن وملاحم وشدائد فقط .

وكذلك يعزز هذا الرأي ما ورد في بعض الآثار الضعيفة أن المهدي يكون إحدى أو اثنتين وعشرين عاماً . (١) حيث عبر بلفظة يكون إشارة إلى كل مدته منها سبع سنوات ملك مستقر ورخاء ، وكذلك أورد السلمي عدة آثار تشير إلى مدة غير الذي ذكرت فأورد عن علي ﷺ أثراً بأن المهدي يلي أمر الناس ثلاثين أو أربعين سنة ، وعن دينار بن دينار قال : « بقاء المهدي أربعون سنة » ، وعن محمد بن الحنفية قال: « يملك أربعين سنة تكون هدنة الروم على يديه في تسع سنين بقين من خلافته » وعن أرطأة أن المهدي يعيش أربعين سنة ، وعن الحسين بن علي أن المهدي يملك تسعة عشر سنة وأشهراً . (٢)

فهذه الآثار المختلفة واردة ، ويلحظ فيها اختلاف واضح في مدة بقاء المهدي ﷺ ، ووجه الجمع بين أحدها وبين الأحاديث الصحيحة السابقة بأن مدة المهدي أكثر من تسع سنوات ، لكن المدة التي يستقر فيها ملكه ويعم الرخاء والعدل فيها هي من ٧-٩ سنوات .

الوجه الثاني :

قد تكون هذه هي مدة بقاء المهدي حقيقة ، وتكون وفاته قبل الدجال ، ويكمل مسيرته خليفته ، وقد أشارت بعض الآثار إلى هذا المعنى ، أما بالنسبة للرخاء الذي يعيشه

---

(١) البستوي : الموسوعة (١٩٢)

(٢) السلمي : عقد الدرر (٢٣٨ وما بعدها)

الناس أو العدل الذي يعم الأرض في زمانه ، فبوادره تتضح بعد غنيمة كلب وبعد غنيمة الحرب التحالفية التي جاء فيها تسلمون وتغنمون ، وكذلك غنائم الملحمة العظمى ، يضاف إلى ذلك ما يقع بين يدي المهدي من كنوز الفرات وغيرها وهذا محتمل ، ففي تلك المرحلة يظهر العدل والرخاء بالنسبة للمسلمين ، ويعطي لهم الخليفة من تلك الكنوز الكثيرة التي غنمها ، بما يصدق في حقه أنه ملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فالعدل هو بإعادة تطبيق شرع الله في كل ما يملكه ، وما يترتب على ذلك من وفور البركات عليهم من السماء .

وعلى هذا القول يمكن اعتبار أن الذي يؤم بعيسى ﷺ ليس هو المهدي ﵁ بل خليفته (❁) ، والحديث العمدة في هذا الباب هو عن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صلِّ بنا ، فيقول : لا إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة . ﴾ (١)

فالأمير المهدي هنا ليس محمد بن عبد الله ﵁ ، بل خليفته ، ويكون ذكر كلمة المهدي هنا من باب الوصف لا العلمية ، وهذا وارد في كل خليفة راشد فإنه يصدق أن يسمى الأمير المهدي ، ويشهد لهذا الفهم قول النبي ﷺ في حق الخلفاء الراشدين : ﴿ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ . ﴾ (٢)

فعمر ﵁ الله عنه يصدق فيه وصف الأمير المهدي وكذلك خليفة المهدي ﵁ يصدق فيه وصف الأمير المهدي ، وهذا وجه من الجمع بين النصوص محتمل ؛ ويعزز هذا الفهم أن عبارة النص هنا جاءت على غير المعهود ؛ حيث لم يقل : فيقول المهدي على ما هو متعارف عليه في أكثر النصوص ، بل قال : فيقول أميرهم المهدي ، وفي رواية فيكون

(❁) سبق أن بينت أنه قد يكون القحطاني الذي ورد ذكره في أحاديث صحيحة

(١) ذكر هذا الأثر الدكتور عبد العليم البستوي ، وعزاه إلى نعيم بن حماد في أخبار المهدي ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده ، ونقل عن ابن القيم حكمه على الحديث بقوله : هذا إسناد جيد ، وعقب على ذلك بقوله : إسناده صحيح [البستوي : المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة (١٨٠ وما بعدها)

(٢) أخرجه الترمذي في العلم برقم ٢٨١٥ ، وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٤٣٨/٧)]

عليهم رجل صالح ، فمثل هذه الصيغة قد يراد بها غير المهدي والله أعلم ، ويكون وصف المهدي للأمير هنا للإشارة إلى صلاحه ، ولا يراد بها العلمية التي يقصد بها الشخصية المعروفة .

أما الأثر الذي أوردته عن ابن سيرين وفيه تصريح منه بأن المهدي هو الذي يؤم بعيسى ﷺ ، فيحتمل أنه اجتهاد منه أو فهم له تحصل عنده من الحديث السابق .

الإشكال الثاني :

والإشكال الثاني مبني على الأول ؛ حيث إن القول بأن كل مدة المهدي تكون ٧-٩ سنوات ، وفيها يعم الرخاء لا يتفق وسياق المرحلة الأولى والتي يتصور أنها تمتد أكثر من عشر سنوات ، وهي كما يتضح كلها فتن وحروب ، فأين الرخاء المقصود في الأحاديث .

ويمكن توجيه الرد على هذا الإشكال بما ذكرت سابقاً ؛ حيث أن هناك احتمالين ، الأول : إن الأحاديث السابقة تحمل على مدة استقرار ملك المهدي فقط وليس كامل مدته ، وفي تلك المرحلة يكون العدل والرخاء . والاحتمال الثاني : في حال حمل تلك المدة على كامل مرحلة المهدي ﷺ منذ البيعة إلى وفاته ، فيكون المقصود بها أنه في زمانه وببركة جهده تبدأ عودة العدل إلى جميع الأرض سواء على يديه أو على يدي خلفائه الذين يكملون مسيرته ، فهذا كله ثمرة من ثمرات جهده ، كما أن إظهار الدين في الأرض كلها ، والذي يحدث في زمن المهدي يصدق القول أنه ثمرة من ثمرات الرسول الأعظم محمد ﷺ .

أما بخصوص العطاء فهذا يتصور حدوثه في نفس مرحلة الحروب وفي لحظات السلم التي تتخللها ، وكما هو واضح أن الغنائم التي يحصل عليها المهدي ﷺ تكون كثيرة خاصة بعد غنيمة كلب والملحمة العظمى والحرب التحالفية ، فيصدق القول أنه في تلك المرحلة يقوم بإعطاء الرعية بشكل ملفت كما توضح الأحاديث ، وتصدق في حقه صورة من صور إتباع جده الرسول الأعظم كما تروي السنن عنه منها حديث أَبِي

سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ : ﴿ إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ﴾ (١)

فهذه سنة القائد الأول للأمة ؛ حيث لا يدخر شيئاً عنده إلا أعطاه لرعيته ، و أولى الناس بهذه السنة حفيده المهدي ﷺ ، فيتصور أنه لا يبقي شيئاً من هذه الغنائم إلا ويوزعها فيصدق في حقه الوصف المذكور في الأحاديث .

الإشكال الثالث :

يتضح من الأحاديث السابقة أنها تشير إلى أن مدة المهدي ﷺ من ٧-٩ سنوات ، وهذه مدة قصيرة نسبياً ، فكيف يستطيع المهدي في هذه المدة القصيرة أن يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً ، مع العلم أن الرسول الأعظم قد مكث ثلاثاً وعشرين سنة ، و لم تملأ الأرض في عهده عدلاً ، وإن مهدت لذلك ، وهذا يشكك من الناحية المنطقية في مصداقية الأحاديث السابقة ، بل فيه تقديم لجهد المهدي على جهد سيد المرسلين .

وهذا يجاب عليه بإذن الله من عدة وجوه :

الوجه الأول :

يحتمل أن مدة تملك المهدي ملكاً مستقراً هو هذه السنوات أما مدته الفعلية فهي أكثر من ذلك كما بينت سابقاً .

الوجه الثاني :

على فرض كون هذه مدته الحقيقية ، فلا يمتنع عقلاً ولا شرعاً أن يقدر الله سبحانه وتعالى على يديه صلاح الأرض بهذه المدة القصيرة ، ولا يشترط أن يعم العدل في الأرض في عهده ، بل يعم الأرض بجهده الذي يكمله خلفاؤه ، كذلك من تتبع الإرهاصات الخاصة بالمهدي ﷺ يجد أنها قد مهدت بشكل واضح له لتحقيق العدل في الأرض بأسرع وقت ، يضاف إلى ذلك أن هناك اختلافاً جوهرياً بين المرحلة النبوية ومرحلة المهدي ،

(١) أخرجه البخاري في الزكاة برقم ١٤٦٩ [فتح الباري (٣٩٢/٣)]

ففي المرحلة النبوية تم تأسيس الأنصار الذين يحملون عبء الرسالة من عدم ، بينما في مرحلة المهدي فالجيل القرآني قد أُسس قبل خروج المهدي وارتقى عبر ممحصات عدة ، بل هذا الجيل هو الذي استخرج المهدي وبايعه ، إذا هناك فرق بين دعوة بدأت بواحد ، ودعوة بدأت برعيل متكامل مهيأ لحمل أعباء الرسالة ؛ لذا أشبهت مرحلة المهدي مرحلة طالوت الذي وجد الجيش أمامه ، فدخل به بعض الممحصات للغربلة ، ثم تم له النصر .

وهي أشبه في بعض الجوانب بمرحلة عمر بن عبد العزيز الذي ملأ الأرض عدلاً في سنتين فقط ، مع العلم أن كثيراً من أشكال الجور كانت قبل خلافته .

إذا لا يمتنع شرعاً ولا عقلاً حصول ذلك ، وإذا قدر الله أمراً هيأ له أسبابه ، فمحمد ﷺ مضى بدعوته ثلاثاً وعشرين سنة فتم له نشر دعوته عالمياً إلى يومنا هذا وآمن به الأحمر والأبيض والأسود ، ونوح عليه السلام استمر في دعوته ألف عام إلا خمسين ولم يؤمن معه إلا قليل ، ولكل زمان ظروفه وممهداته ، ويحكم ذلك كله قدر الله النافذ ، وما علينا إلا التسليم لقضائه مؤمنين بأن ما أخبر به نبينا محمد ﷺ هو الحق ولا يجوز تقديم تصوراتنا العقلية القاصرة عليه .

أما القول بأن في ذلك تعظيماً أو تقديماً لجهد المهدي على جهد النبي ﷺ ففهم خاطئ قد يقع به البعض ، لأن هذا الغصن الفارع (المهدي والطائفة المنصورة معه) ما هو إلا من تلك الشجرة العظيمة (محمد ﷺ) فهي التي تمده وتغذيه ؛ لذا لا تنسب حقيقة الفضل إلا للشجرة ، وإن كان للغصن نوع فضل فمرده إلى أصله في الحقيقة ؛ لذا ما من جهد للحق في الأرض إلى قيام الساعة إلا هو ثمرة من ثمرات النبي ﷺ وفي صحيفته ، بل لا أجانب الصواب إن قلت أن هذا العدل الذي سيملأ الأرض كلها هو في صحيفة أبي بكر الصديق الذي يعتبر أحد أتباع النبي ﷺ فضلاً عن كونه ثمرة من ثمرات الحبيب المصطفى ، وهذا معنى قول النبي ﷺ في حق أبي بكر بأن إيمانه لو وزن بالأمة جميعاً لرجح إيمانه على إيمانها ، فإن كان لأبي بكر كل هذا الفضل على العالمية الثانية للإسلام في عهد المهدي بكيف برسول الله ﷺ ومن نظر إلى قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدي

ودين الحق ليظهره على الدين كله » ففي بعض التفاسير أن تحقيق هذه الآية على الأرض الواقع لم يقع في العهد النبوي ، وإنما يكون في عهد المهدي وعيسى عليه السلام ، لكن نلحظ في الآية أن الله سبحانه وتعالى لم ينسب لهم الفضل بذلك في الآية بل نسبه لصاحبه الحقيقي ومؤسس بذرته في الأرض وهو الحبيب محمد ﷺ .

طبيعة مرحلة حكم المهدي ﷺ :

📖 – قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١)

📖 – قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٢)

أقول :

الآية الأولى تشير إلى طبيعة كل الرسالات السابقة حيث بينت الآية قضية كلية ، وهي أنه ما من كتاب أنزل وما من رسول أرسل إلا ليقوم الناس بالقسط ؛ أي لأجل إحقاق العدل في الأرض ، والذي لا يمكن تصور تحقيقه إلا بتحكيم كامل لشرع الله سبحانه وتعالى .

أما الآية الثانية فقد جاءت بعد ذكر لسير الأنبياء السابقين ، وفيها توجيه لرسول الله ﷺ بأن هؤلاء هم أئمة الهدى في الأرض قبلك ، بسننتهم وهداهم اقتدِ ، ومن سننتهم كما وضحت الآية الأولى تقرير العدل وتحقيقه في الأرض .

ووجه الربط بين الآيتين وموضوعنا هنا هو أن أهم صفة صرحت فيها الأحاديث في مرحلة المهدي ﷺ أنه يملأ الأرض عدلاً ؛ أي أن أهم إنجاز من إنجازاته هو تحقيق العدل في الأرض ، وهذه الخاصية كما بينت الآية هي المقصد الأول لبعثة الرسل وإنزال الكتب السماوية ؛ لذا لا غرابة من تأكيد الأحاديث على هذا المقصد بالذات ، وكذلك الآية الثانية تشير إلى ضرورة الإقتداء بأئمة الهدى من قبلنا من أنبياء ورسل ، والمهدي

---

(١) الحديد: من الآية٢٥

(٢) الأنعام: من الآية٩٠

الذي أخذ وصف الهداية حتى أصبح يعرف به على وجه العلمية هو الأولى بالاقتداء في هديهم في إقرار العدل في الأرض .

📖 – قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١)

أقول :

هذه الآية الكريمة تشير إلى سنة ربانية ، ونتيجة حتمية مبنية على مقدمة ، وهي أن الإيمان والتقوى لا محالة يترتب عليه عموم البركة والرخاء في الأرض ، وهذا يفسر لنا سبب الرخاء الذي يكون في عهد المهدي بعد إحقاق العدل ، والعدل المراد هنا ليست صفة خلقية فقط بل هو مقصد عام يرادف معنى تطبيق الشريعة بكل تفاصيلها ؛ لأن الشريعة كلها عدل ، وكل قصور في تطبيق جانب منها نوع من الجور يقع فيه أهل الأرض .

📖 – عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ يَكُونُ مِنْ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ فَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ أَوْ قَصُرَ عُمْرُهُ عَاشَ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا . ﴾ (٢)

📖 – عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطى المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا ﴾ (٣)

📖 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزَلَازِلَ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ

(١) الأعراف: من الآية٩٦

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٤٩٠ [المسند (٣/٦٤)] ؛ و الحاكم في الفتن برقم ٨٦٧٣ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي [المستدرك (٤/٦٠١)] ونقل البستوي تصحيح الألباني له ثم عقب على ذلك بقوله : إسناده صحيح [البستوي : المهدي المنتظر (١٦٥)]

جَوْرًا وَظُلْمًا يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الْأَرْضِ يَقْسِمُ الْمَالَ صِحَاحًا فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مَا صِحَاحًا ؟ قَالَ : بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ . قَالَ : وَيَمْلَأُ اللَّهُ قُلُوبَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ غِنًى وَيَسَعُهُمْ عَدْلُهُ حَتَّى يَأْمُرَ مُنَادِيًا فَيُنَادِي فَيَقُولُ : مَنْ لَهُ فِي مَالٍ حَاجَةٌ ؟ فَمَا يَقُومُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلٌ فَيَقُولُ ائْتِ السَّدَّانَ يَعْنِي الْخَازِنَ فَقُلْ لَهُ إِنَّ الْمَهْدِيَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تُعْطِيَنِي مَالًا فَيَقُولُ لَهُ احْثِ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ وَأَبْرَزَهُ نَدِمَ فَيَقُولُ كُنْتُ أَجْشَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ نَفْسًا أَوَعَجَزَ عَنِّي مَا وَسِعَهُمْ قَالَ : فَيَرُدُّهُ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّا لَا نَأْخُذُ شَيْئًا أَعْطَيْنَاهُ فَيَكُونُ كَذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُ أَوْ قَالَ ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَهُ . ﴾ (١)

أقول :

هذه بعض الآثار الدالة على طبيعة مرحلة المهدي ﷺ ، وقد سبق ورود غيرها وهي تشير إلى حالة رخاء غير معهودة على مدار البشرية كلها ، وكأنها تتكلم عن جنة مصغرة على الأرض ، ولي مع هذه النصوص بعض الوقفات التأملية :

الوقفة الأولى :

على فرضية أن مدة استقرار ملك المهدي هي ٧-٩ سنوات ، وهي السنوات التي يكون فيها هذا الرخاء العظيم ، وعلى فرضية أن هذه المدة تبدأ بعد انتهاء الملاحم كلها أي بعد الدجال ، فيتصور أن مدة الرخاء هذه هي نفس المدة التي يكون فيها عيسى ﷺ ؛ لذا بعض الأحاديث نسبت هذه المرحلة من الرخاء لعيسى ﷺ كما سيأتي وبعضها نسبها للمهدي ﷺ ، ولا تعارض بين الأمرين ، فلكليهما الفضل في ذلك ، والنبي العظيم ﷺ نوع من أسلوبه لينال الفضل كل أصحابه ؛ لذا في موطن عزاه لعيسى ﷺ وفي موطن آخر عزاه للمهدي .

والفرضيتان اللتان صدرت بهما هذه الوقفة قويتـــان جداً ؛ ويعززهما الرواية

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٣٣٢ [المسند (٤٦/٣)] قال الهيثمي : رواه أحمد بأسانيد وأبو يعلى باختصار كثير ، ورجالهما ثقات [مجمع الزوائد (٣١٤/٧)]

الأخيرة عن أبي سعيد الخدري ، والتي جاء فيها أنه لا خير في الحياة أو العيش بعد تلك المدة ، وهي (٧-٩) سنوات ، والمعلوم أن عيسى ﷺ في أرجح الاحتمالات يعيش ٧ سنوات ، فتكون وفاقهما متقاربة ، و تنتهي مرحلة الكمال في الرخاء (✿) ، بما يصدق معه القول أنه لا خير في الحياة بعدهما ؛ لأن النقص بعد ذلك سيعتري حياة المسلمين تدريجياً إلى أن ينتهي بالريح التي تقبض الأرواح المؤمنة .

الوقفة الثانية :

قد يُطرح تساؤل هنا ، وهو لماذا خصت هذه المرحلة بالذات بهذا الشكل غير المعهود من الرخاء ، ويجاب على ذلك بأن الغُرم بالغُنم ، وكذلك الغُنم بالغُرم أو الأجر على قدر المشقة ، فعلى قدر التضحيات تكون البركات ، وهذه المرحلة بالذات هي من أصعب مراحل صراع الحق والباطل على وجه البسيطة كما صرح النبي ﷺ في عدة أحاديث ففيها الملاحم العظام خاصة الملحمة الكبرى التي لم ير وفي رواية لن يرى مثلها ، وفيها فتنة الدجال أعظم فتنة على وجه الأرض ، وتلك المرحلة هي مزيج من الخوف المفزع والجوع الموبق والممحصات المهلكة والعطاءات المترادفة والتضحيات المتتابعة من أهل الحق ؛ لذا هم أحق بعد هذه الجولات المتكررة في أشد مرحلة يمر بها صراع الحق والباطل أن يعجل لهم بعض البشرى بأن ينالوا جزءً من بركات تضحياقم في حياقم الدنيا .

يضاق إلى ذلك أن الدنيا تضيق على المؤمن من باب الحمية رحمة به ومن باب الابتلاء تمحيصاً لإيمانه ، وهؤلاء قد استُخلِصوا لله وأخلصوا العمل لوجهه الكريم وصدقوا

(✿) المعلوم أن مرحلة الخليفتين أبي بكر وعمر قد ازدادت قوة الدين في الأرض وانتشر في عدة أماكن ، ولكن لا يعني ذلك أن الدين قد زاد في كماله بعد وفاة المصطفى ، بل على العكس بمجرد وفاة النبي ﷺ دخل المسلمون في مرحلة الانتقاص التدريجي في دينهم الكامل الذي بلغ قمة هرم الكمال في السنة العاشرة ، وهذا المعنى انتبه له عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » فبكى وقال ما اكتمل شيء إلا دخله النقصان بعد ذلك . وهذا شبيه بقول النبي ﷺ لا خير في العيش بعده أي المهدي مما يدل على أنه بموته يبدأ الرخاء الكامل في النقصان تدريجياً .

في الامتحان ، فخرجوا من الملحمة العظمى بحصانة ربانية لهم بعدم افتتانهم بعد ذلك ، وخرجوا من فتنة الدجال بأعلى درجات الصبر واليقين ؛ لذا لا ضير في التوسعة عليهم من باب البشرى التي لا يشوبها افتتان .

يضاف إلى ذلك أن تلك المرحلة اقتضت سنة ربانية ، وهي أن من بذل الموت وهبت له الحياة من أعرض عن الدنيا جاءته راغمة تحت قدميه ، وهذا ما حصل لهؤلاء العظماء فقد جاءهم الدنيا راغمة تحت أقدامهم وهم في أعلى درجات الزهد فيها ؛ لذا نلحظ منهم الإعراض عن أخذ المال المبارك الحلال من يد المهدي ﷺ ، وما ذلك إلا لزهدهم ، بل من وصف نفسه بأنه أجشع أمة محمد ﷺ كما في حديث أبي سعيد لو كان في زماننا لكان آية في الزهد .

الوقفة الثالثة :

نلحظ من الأحاديث السابقة أن هناك تلازماً بين السنن الكونية أو الطبيعية وبين حال البشر من حيث الفساد أو الصلاح ، فالذي خبث لا يخرج إلا نكداً ، وانتشار الفساد في البر والبحر هو نتيجة حتمية لمعاصي البشر ، والإيمان والتقوى سبب مباشر لنيل بركات السماء والأرض ، وانتشار العدل سبب لعموم الرخاء ؛ لذا ازدانت الأرض وتزينت وأخرجت أطيب بركاتها في عهد العدل والقسط والاحتكام لدين الله في الأرض .

الفصل الرابع : الدجال

ويتضمن قسمين

القسم الأول : ابن صياد وقصة تميم . ويتضمن مبحثين

المبحث الأول : ظاهرة ابن صياد

المبحث الثاني : قصة تميم والجساسة

القسم الثاني : دراسة تفصيلية لظاهرة الدجال . ويتضمن خمسة مباحث

المبحث الأول : خطورة فتنة الدجال وتعوذ النبي ﷺ منها .

المبحث الثاني : أوصاف الدجال ، وعلامات خروجه .

المبحث الثالث : طبيعة فتنة المسيح الدجال .

المبحث الرابع : نهاية فتنة المسيح الدجال .

المبحث الخامس : المطولات من أحاديث الدجال

توطئـــة :

- تواترت الأحاديث الدالة على خروج رجل في آخر الزمان يعرف بالدجال ، وهذا الرجل تكون فتنته هي أعظم فتنة عرفتها البشرية ، وتوافق فتنته بعض الخوارق التي تؤتى له من باب الاستدراج للنفوس الضعيفة ، وتدوم فتنته في الأرض أربعون يوماً : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع ، وباقي أيامه كسائر الأيام . ينقل النووي عن القاضي بخصوص أحاديث فتنة الدجال قوله : « هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده ، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى في إحياء الميت الذي يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه ، و جنته وناره ونهريه واتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر فتمطر ، و الأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كل ذلك بقدرة الله ومشيئته ، ثم يعجزه الله سبحانه وتعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ويبطل أمره ويقتله عيسى ﷺ ، ويثبت الله الذين آمنوا ، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافاً للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم أنه صحيح الوجود ، ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء ، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة ، فيكون ما معه كالتصديق له ، و إنما يدعي الإلهية ، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي بين عينيه . » أ . هـ (١)

- ذهب بعض أهل العصر إلى مقولة غريبة ، فأول أحاديث الدجال تأويلاً فاسداً لا يستقيم ، واعتبر أن المراد بها ليس شخصاً بعينه بل المقصود بها الحضارة الغربية ، لأنها

---

(١) النووي : شرح صحيح مسلم (٢٥٧/٩)

حضارة عوراء لا تعتمد إلا على الجانب المادي فقط ، وهذا تأويل فاسد يكفر من يعتقده ؛ لأن النصوص على صراحتها لا تحتمله ، وهي نصوص متواترة والإجماع منعقد على أنه يراد بها شخص بعينه .

ولو استخدم معول التأويل في النصوص على هذه الشاكلة لما بقى نص على ظاهره ، ومن نظر إلى تاريخ الفرق - خاصة الفرق الباطنية - يجد أن أهم أسباب وقوعها في الكفر هو اعتمادها مثل هذه التأويلات الفاسدة التي أخرجت النصوص عن طبيعتها .

هذا ومن ينظر إلى مجموع أحاديث الدجال يعلم علم اليقين أن مثل هذه التأويلات لا تستقيم بحال ، وتخالف صريح المنقول .

- من تتبع النصوص الواردة في المسيح الدجال يجد أننا أمام قسمين :

القسم الأول : لا يترتب على معرفة دقائقه نتيجة عملية واضحة .

ويشمل ظاهرة ابن صياد وقصة تميم الداري ، وهذا القسم في فهمه إشكالات كثيرة ، وقد أشكل على الكثير من العلماء فانقسموا إلى عدة آراء ما بين مرجح لبعض النصوص على غيرها كالبخاري الذي رجح أحاديث ابن صياد على أحاديث الجساسة ، فلم يخرج أحاديثها ، وبين من حاول الجمع بين الأحاديث كالنووي وابن حجر مع اختلاف بينهم في طريقة الجمع .

وهذا القسم لا يعنينا إلا من وجه واحد ، وهو محاولة فهم بعض النصوص النبوية الواردة ، أو فهم بعض المواقف الحاصلة من الصحابة الكرام ، أما في حياتنا العملية فلا أثر كبير له .

وبالرغم من طبيعة هذا القسم إلا أنني آثرت التوسع فيه لأسباب عدة منها : محاولة فهم الظاهرة بشكل تكاملي ، و إقفال الباب على البعض في استغلال النصوص في غير موضعها ، يضاف إلى ذلك فهم جزء من الهدي النبوي المخـــرج في الصحاح و الذي أشكل على البعض فهمه .

القسم الثاني : ما يخص ظاهرة خروج الدجال وطبيعة فتنته .

وهذا القسم هو الذي يعنينا من الناحية العملية مع ظاهرة الدجال ، والأصل في كل مسلم أن يكون على دراية به و بملابساته ؛ ليكون محصنا من الناحية العلمية فيما يخص أعظم فتنة على وجه الأرض ، وليكون أهلاً لاحترام الهدي النبوي في التحذير من هذه الفتنة .

القسم الأول : ابن صياد وقصة تميم

وهذا القسم سأتناوله في مبحثين ، وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول
ظـــاهرة ابن صـــياد

تعتبر ظاهرة ابن صياد ظاهرة غريبة جداً عايشها الرسول والصحابة الكرام ، وقد أقسم عدد من كبار الصحابة على أنه المسيح الدجال الذي حذر منه الرسول الكريم ، وكان يرى جمع كثير منهم أنه كذلك ، وهذا الأمر يستوقفنا لتحليل هذه الظاهرة و إبراز وجه الغرابة فيها بشيء من التفصيل ، وذلك في المطالب الثلاثة التالية :

المطلب الأول : ابن صياد في عهد النبي ﷺ

- ورد عن أبي ذر ﷺ أنه قال : « لَأَنْ أَحْلِفَ عَشْرَ مِرَارٍ أَنَّ ابْنَ صَائِدٍ هُوَ الدَّجَّالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ مَرَّةً وَاحِدَةً أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ . قَالَ : ﴿ وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنِي إِلَى أُمِّهِ قَالَ : سَلْهَا كَمْ حَمَلَتْ بِهِ ؟ قَالَ فَأَتَيْتُهَا فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ : حَمَلْتُ بِهِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ؟ قَالَ : ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَيْهَا فَقَالَ : سَلْهَا عَنْ صَيْحَتِهِ حِينَ وَقَعَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَيْهَا فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ : صَاحَ صَيْحَةَ الصَّبِيِّ ابْنِ شَهْرٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبْئًا قَالَ خَبَأْتَ لِي خَطْمَ شَاةٍ عَفْرَاءَ وَالدُّخَانَ قَالَ : فَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ الدُّخَانَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَقَالَ : الدُّخُ الدُّخُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اخْسَأْ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ . ﴾ (١)

شرح :

- موافقة حال ابن صائد للأمارات التي سأل عنها النبي ﷺ ، وسؤال النبي ﷺ عن إمارات محددة لا بد أن يكون مرجعه الوحي وله علاقة واضحة بأمارات الدجال ، ولكن الكلام يحتمل أن يراد به دجال من الدجاجلة وليس الدجال الأكبر .

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٢١٣٧٧ [المسند ١٧٧/٥] قال ابن حجر : سنده صحيح [فتح الباري (٣٤١/١٣)]

- جزم أبي ذر في أن ابن صياد هو الدجال ، وعدم تورعه من القسم بذلك تسع مرات مع تورعه من القسم بأنه ليس الدجال ولو مرة واحدة ، يدل على أنه قد حصل له من الدلائل التي عاينها مع رسول الله ﷺ ما يؤكد على ذلك منها ما ذكر ، ولعل أبا ذر رأى من سياق الحدث وتفاعل الرسول معه ما يؤكد ذلك .
- يلحظ من الحديث أن النبي ﷺ كان مهتماً بظاهرة ابن صائد اهتماماً خاصاً ، ومعنياً بتتبع تفاصيلها ، ويدل السياق على أن طبيعة أسئلة النبي ﷺ عن أشياء مخصوصة لأم ابن صياد إنما مرجعه الوحي .

- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَمْكُثُ أَبُو الدَّجَّالِ وَأُمُّهُ ثَلَاثِينَ عَامًا لَا يُولَدُ لَهُمَا وَلَدٌ ، ثُمَّ يُولَدُ لَهُمَا غُلَامٌ أَعْوَرُ أَضَرُّ شَيْءٍ ، وَأَقَلُّهُ مَنْفَعَةً ، تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، ثُمَّ نَعَتَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَوَيْهِ فَقَالَ : أَبُوهُ طِوَالٌ ضَرْبُ اللَّحْمِ كَأَنَّ أَنْفَهُ مِنْقَارٌ ، وَأُمُّهُ فِرْضَاخِيَّةٌ طَوِيلَةُ الْيَدَيْنِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ : فَسَمِعْنَا بِمَوْلُودٍ فِي الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ ، فَذَهَبْتُ أَنَا وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَبَوَيْهِ ، فَإِذَا نَعْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمَا فَقُلْنَا هَلْ لَكُمَا وَلَدٌ فَقَالَا : مَكَثْنَا ثَلَاثِينَ عَامًا لَا يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ ، ثُمَّ وُلِدَ لَنَا غُلَامٌ أَعْوَرُ أَضَرُّ شَيْءٍ وَأَقَلُّهُ مَنْفَعَةً تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ ، قَالَ فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمَا فَإِذَا هُوَ مُنْجَدِلٌ فِي الشَّمْسِ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ وَلَهُ هَمْهَمَةٌ فَتَكَشَّفَ عَنْ رَأْسِهِ فَقَالَ : مَا قُلْتُمَا . قُلْنَا : وَهَلْ سَمِعْتَ مَا قُلْنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي . ﴾

وفي رواية الإمام أحمد ﴿ ..فَقَالَ أَبُوهُ – أي الدجال – رَجُلٌ طُوَالٌ مُضْطَرِبُ اللَّحْمِ طَوِيلُ الْأَنْفِ كَأَنَّ أَنْفَهُ مِنْقَارٌ وَأُمُّهُ امْرَأَةٌ فِرْضَاخِيَّةٌ عَظِيمَةُ الثَّدْيَيْنِ . ﴾ (١)

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٥٠ ، وقال عنه : حسن غريب [تحفة الأحوذي (٦/ ٥٢٢)] ، وأحمد في مسند البصريين عن نفيع بن الحارث برقم ٢٠٤٤٣ [المسند (٥/٥١)] يقول ابن حجر : و الحديث تفرد به علي بن زيد بن جدعان ، وهو ليس بالقوي [فتح الباري (١٣/ ٣٣٨)] ؛ وضعفه الألباني [سنن الترمذي بتحقيق الألباني ، حديث رقم ٢٢٤٨]

شرح الغريب :

طوال : شديد الطول . ضرب اللحم : خفيف اللحم

فرضاخية : ضخمة . منجدل : ملقى على الجدالة ، وهي الأرض

همهمة :كلام غير مفهوم .

شرح :

- الأثر فيه إشارة عجيبة ، وهي أن النبي ﷺ قد تحدث عن بعض أوصاف الدجال وأوصاف والديه ، وقد وجدت هذه الأوصاف بصورة مطابقة في ابن صياد ووالديه ، ولكن ليس في الحديث دلالة على أنه الدجال صاحب الفتنة العظمى ، و إن كان الحديث يعزز هذا الرأي ، ولكنه يحتمل أن النبي ﷺ قد أُبلغ عن أوصاف دجال من الدجالين فنعتها النبي ﷺ لصحابته ، ثم تبين أن المراد منها ابن صياد ، وعلى هذا الاحتمال يكون الوصف في الحديث لا يراد به الدجال الأكبر .
- يتضح من حال ابن صياد أنها تخالف حال البشر الأسوياء في الشكل والمضمون ، وهذا واضح من كونه تنام عيناه و لا ينام قلبه ، وهذا الأمر مخالف لطبيعة البشر ، وهي خارقة من خوارق ابن صياد العديدة .
- دلالة الحديث تشير إلى أن أبا بكرة - راوي الحديث بعدما سمع عن الدجال وأوصافه سمع بمولود في المدينة عند اليهود له نفس الأوصاف وكلمة مولود تشير إلى قرب ولادته ، فيكون مقتضى الحديث أنه ولد إما في السنة الثانية أو الثالثة من الهجرة ، وهذا المقتضى يتعارض مع حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي سيأتي ، والذي يدل على أن النبي ﷺ قد ذهب إلى ابن صياد وقد قارب الحلم ؛ أي البلوغ ، مما يدل على أنه ولد إما في بداية العهد النبوي ، أو قبله بقليل وهو ما أرجحه ؛ إذ كيف يكون ولد في هذا الوقت ، وقد ثبت أن النبي التقى مع ابن صياد وقد قارب البلوغ والمعلوم أن مدة النبي ﷺ في المدينة كانت عشر سنوات تقريباً .

والراجح عندي في هذه المسألة هو حديث ابن عمر رضي الله عنهما التالي ؛ فإنه قد رواه مسلم في صحيحه ، أما حديث أبي بكرة فهو وإن اعتبره الترمذي حديثاً حسناً إلا أن فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ليس بالقوي كما صرح ابن حجر وغيره ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إسلام أبي بكرة وقدومه للمدينة كان في سنة الفتح ؛ أي سنة ثماني للهجرة ، فكيف يكون قد التقى بابن صياد وهو قريب ولادة ، وفي نفس الوقت التقى به النبي ﷺ في نفس المدة وهو قد قارب البلوغ .

لذا ترجح روايات مسلم عن ابن عمر على حديث أبي بكرة ﷺ عند الترمذي وأحمد ، وهناك وجه للجمع بين الحديثين وهو أن قول أبي بكرة بأنه سمع بمولود عند اليهود لا يراد به قرب الولادة ، بل للدلالة على حصول ولد عندهم بهذه الأوصاف.

ويعزز هذا الاحتمال أمرين :

الأمر الأول :

إن أبا بكرة عندما ذهب لابن صياد حصل بينهم كلام مما يدل على أن ابن صياد كان كبيراً نوعا ما ، وإلا لا يتصور مثل هذا الكلام من قريب ولادة .

الأمر الثاني :

لاحظنا من سياق الحديث أن أم ابن صياد عندما سئلت عن ابنها قد أخبرت بأنها وُلِدَ لها غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة ، ومعرفة الأم لوضع ابنها بأنه أقله منفعة لا يتأتى وهو قريب ولادة ، إذ لا يتصور منه النفع في ذلك الوقت ، لكن إذا كبر الولد وبدأ الأهل يطلبون منه بعض الأشياء عندها يتضح لهم إذا كان كبير نفع أو قليله ، وهذا لا يتصور إلا إذا قارب الولد البلوغ ، ففي مثل هذه السن يرجى نفعه ؛ لذا كانت زيارة أبي بكرة له في السنة الثامنة ، وهو قريب من البلوغ ، وهذا الوجه محتمل ، وبه يمكن الجمع بين الأحاديث .

- عن ابنَ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا : ﴿ أَنَّ عُمَرَ ﷺ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ : تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ . فَنظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ . فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَرَفَضَهُ ، وَقَالَ : آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ . فَقَالَ لَهُ : مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ خُلِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا . فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ : هُوَ الدُّخُّ فَقَالَ : اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ . فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ ، وَقَالَ سَالِمٌ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا يَقُولُ انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِن ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا ، قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ يَعْنِي فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا رَمْزَةٌ أَوْ زَمْرَةٌ ، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ : يَا صَافِ -وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ - هَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ .﴾ (١)

وفي رواية قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لابن صائد : ﴿ مَا تَرَى قَالَ أَرَى عَرْشًا فَوْقَ الْمَاءِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ فَوْقَ الْبَحْرِ قَالَ فَمَا تَرَى قَالَ أَرَى صَادِقًا وَكَاذِبِينَ أَوْ صَادِقِينَ وَكَاذِبًا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لُبِسَ عَلَيْهِ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز برقم ١٣٥٤ – ١٣٥٥ [البخاري مع الفتح (٢٥٨/٣-٢٥٩)] ؛ ومسلم في الفتن برقم ٢٩٣٠ واللفظ له [مسلم بشرح النووي (٢٤٥/٩)]

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن ، حديث رقم ٢٣٤٩ ، وقال : حديث حسن [تحفة الأحوذي (٥٢١/٦)] وصححه الألباني [سنن الترمذي للألباني حديث رقم ٢٢٤٧

وفي رواية : ﴿ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أي لابن صائد - إِنِّي قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئَةً وَخَبَأَ لَهُ (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَـاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) قَالَ : ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ . ﴾ (١)

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : ﴿ قَالَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ قَالَ الْغُلَامُ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا مَرَّتَيْنِ .﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِ صَائِدٍ : ﴿ مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ قَالَ دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ صَدَقْتَ . ﴾ (٣)

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ قَالَ : ذُكِرَ ابْنُ صَيَّادٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ ؓ : ﴿ إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا كَلَّمَهُ ﴾(٤)

شرح :

هذه الأحاديث برواياتها المتعددة والحديث الذي سبقه يتطلب منا بعض الوقفات المعينة على فهم ظاهرة ابن صياد وعلاقتها بالدجال الأكبر .

الوقفة الأولى : ظاهرة ابن صياد وعلاقتها بالدجال الأكبر .

لكي تتضح لنا حقيقة ظاهرة ابن صياد ، ولكي لا تختلط علينا الأوراق في فهم علاقتها بظاهرة الدجال الأكبر أرى أن أرتب فهمي لمدلولات سياق روايات هذه الأحاديث والحديث الذي يسبقه على النحو التالي :

- يتضح من سياق هذا الحديث والذي سبقه أن النبي ﷺ قد أُخبر عن طريق الوحي بأن

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ، برقم ٤٣٠٧ [عون المعبود (٤٨١/١١)] وصححه الألباني [سنن أبي داود للألباني ، حديث رقم ٤٣٢٩]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار ٢٣٨٥٨ [المسند (٥٢٩/٥)] والحديث له أصل في البخاري ومسلم

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٢٨[انظر مسلم بشرح النووي (٢٤٤/٩)] ؛ وأحمد برقم ١١٠٠٨ [المسند (٥/٣)]

(٤) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٣٤٤

هنالك فتنة عظيمة تكون على يد الدجال هي أعظم فتنة على وجه الأرض ، لكن كان الوحي مجملاً في بيان حقيقة الدجال و اقتصرت على بيان صفاته ؛ أي لم يكن النبي ﷺ يعلمه على وجه الخصوص ، أو يعلم وقت خروجه ، فأخبر صحابته الكرام عنها بصيغة مجملة ، وكان من سياق بعض الأحاديث الواردة عن الدجال ما يشير إلى قرب خروجه ، منها ما ورد عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ : ﴿ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَقَالَ غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

فهذا الحديث يشير إلى أن النبي ﷺ لم يكن يعلم عند ذكر هذا الحديث وقت خروجه ، وسياقه يشير إلى أن النبي ﷺ كان يرى قرب خروجه حتى قال بعض الصحابة « حتى ظنناه في طائفة النخل » ، وبالتالي كان عدد من الصحابة يرون أن خروجه قريب جداً .

- يضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ أُخبر عن طريق الوحي عن أوصاف أحد الدجالين وطبيعة ميلاده وأبويه كما يتضح من الحديث الأول ، فأخبر صحابته بذلك ، فعندما رأوا هذه الأوصاف تنطبق على ابن صياد جاءوا إلى النبي ﷺ وأخبروه به ، وأخبروه ببعض أعاجيبه ؛ فأراد النبي ﷺ أن يعلم خبره ، ودلالة الحديث تشير إلى أن النبي ﷺ كان متوقفاً في الحكم عليه ؛ أي لم يكن عند النبي ﷺ بيان من الوحي أن ابن صياد هو الدجال الأكبر بعينه أم هو دجال من الدجالين ، ودلالة الحديث على ذلك واضحة عندما طلب عمرﷺ من النبي ﷺ أن يقتل ابن صياد فقال له الرسول ﷺ : إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله ، والدلالة واضحة بأن

النبي ﷺ لم يقطع بأنه الدجال أو غيره ، وسنلحظ أن توقف النبي ﷺ عن الجزم بحقيقة ابن صياد سيكون له أثره على عمر بن الخطاب ﷺ؛ وعلى رأيه في شأن ابن صياد .

- يتلخص مما سبق تصور طبيعة الحديث النبوي عن الدجال مقارنة مع تطور مجريات الأحداث ، ففي بداية العهد المدني كان الكلام عن الدجال عاما مجملاً مع تصور قرب خروجه - وافق الكلام عن الدجال الحديث عن ميلاد دجال لأبوين لهما أوصاف محددة - مطابقة الأوصاف التي ذكرها النبي على ابن صياد - تَعَرُّف بعض الصحابة على ابن صياد وغرائبه مما أكد لديهم كونه الدجال الذي يعنيه النبي ﷺ في أحاديثه - تبليغ النبي ﷺ بخبر ابن صياد وعجائبه - تحرك النبي ﷺ لمعرفة حقيقة ابن صياد وتوقفه في الحكم عليه مما يدل إلى أنه ليس هناك قول فصل من الوحي فيما يخص ابن صياد هل هو الدجال الأكبر أم غيره وإن كانت قرائن حاله محتملة للأمر - وقوع قصة تميم و إقرار النبي ﷺ لها مما يشير إلى أن الدجال الأكبر ليس هو ابن صياد ، وإنما هو دجال من الدجالين - تعيين الوحي للنبي ﷺ عن إمارات ومكان خروج الدجال .

هذا في ظني هو بيان لتدرج الإرشاد النبوي عن ظاهرة الدجال من الإجمال إلى التفصيل وتداخل ظاهرة ابن صياد معها ، ومن نظر نظرة متفحصة لمجموع الأحاديث السابقة يحصل له هذا التصور التدريجي لهذه الظاهرة ، لكن سنلحظ أن ظاهرة ابن صياد ستبقى محافظة على قرائن قوية معززة لكونه الدجال الأكبر بالرغم من ورود قصة تميم عن الدجال الذي رآه ، وهذا يزيد من غرابة هذه الظاهرة .

الوقفة الثانية : غرابة ظاهرة ابن صياد :

من تتبع روايات الأحاديث السابقة يجد نفسه أمام ظاهرة غريبة جداً وقعت مع غلام صغير ويظهر من سياق الحديث أن غرائب ابن صياد كانت أكثر من ذلك ، ولعل النبي ﷺ قد سمع من صحابته الكثير ؛ لذا جـاء ليستبين أمره ، فكانت هذه الغرائب التي

رآها في لقاء واحد ، والتي يمكن إجمالها في التالي :

١- إخباره عن عرش إبليس في الماء .

٢- معرفته بعض ما يضمر النبي ﷺ فيما يخص آية الدخان

٣- إخباره عن تربة الجنة و إقرار النبي ﷺ له .

٤- زعمه أنه لا يمر على شيء إلا حدثه .

٥- إخباره عن صادق وكاذبين أو كاذب وصادقين ، وفي هذا الإخبار قال النبي ﷺ أنه لُبِّسَ عليه .

هذه بعض غرائب ابن صياد - و سيأتي بيان وقوع غيرها مع ابن صياد والصحابة - ولو نظرنا إليها لوجدنا أنها تعزز كون ابن صياد هو الدجال ؛ إلا أنها ليست جازمة في الدلالة ؛ لأنها عبارة عن حالة شيطانية من جنس الأحوال الشيطانية التي يقع فيها السحرة والكهان ؛ فرؤيته لعرش إبليس يدل على أنه له علاقة شيطانية خاصة تمكنه من رؤية أشياء مخصوصة ، ولعل الشيطان يكون في تلك الحالة قد تلبسه بالكامل ، وأعانه على تلك الرؤيا ، أما إخباره عن بعض ما يضمر النبي ﷺ بقوله : هو الدخ ، فواضح أنه من جنس ما يقع للكهان بفعل الشيطان ؛ لذا قال له النبي ﷺ مباشرة اخسأ فلن تعدو قدرك ؛ أي لن تجاوز قدرك وقدر الكهان أمثالك الذين يحفظون من إلقاء الشياطين كلمة من جمل كثيرة .

ومثل هذه الأحوال الشيطانية يتكرر مثلها على مر العصور ، و قد يزيد بعضهم عن قدرة ابن صياد إلا أنها واضحة في أنها حال شيطاني ، ومن هذه الأحوال ما كان يقع للأسود العنسي الذي ادعى النبوة ، فقد كانت تأتيه الشياطين تخبره ببعض الأمور المغيبة - وليست الغيبية - فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين كفره فقتلوه .

ومنهم الحارث الدمشقي الذي خرج زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكانت الشياطين تمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وكانت تخرج رجليه من القيد .

ومنهم من كانت تطير به الجن في الهواء وتنقله إلى أماكن بعيدة ، ومنهم من كان يكاشف بعض الحاضرين بما في قلبه ... إلخ (١)

و لعل الذي يميز هذه الأحوال الشيطانية عن بعض ما يحصل من كرامات للصالحين أن أحوالهم الشيطانية في الغالب تقترن بالمعاصي أو المنكرات أو ما يدل على أنهم من أولياء الشيطان، ووقوعها يكون من باب الاستدراج لأصحاب النفوس الضعيفة .

إذا يتضح لنا أن غرائب ابن صياد ليس فيها دلالة صريحة على أنه الدجال ، وإن كانت تعزز ذلك .

الوقفة الثالثة : لِمَ لَمْ يأذن النبي ﷺ لعمر ﷺ بقتل ابن صياد .

يتضح لنا من الأحاديث السابقة أن النبي ﷺ منع عمر ﷺ من قتل ابن صياد ، والسبب بينه النبي ﷺ بأن هناك احتمالين في ظاهرة ابن صياد :

الاحتمال الأول :

إما أن يكون ابن صياد هو الدجال الأكبر ، وفتنته لا محالة واقعة لأنها جزء من قضاء الله وقدره الحتمي ، وبالتالي لن يستطيع عمر ﷺ أن يسلط عليه بقتله .

الاحتمال الثاني :

هو أن لا يكون ابن صياد الدجال الأكبر ؛ لذا لا يكون في قتله خير لعمر ﷺ لأن ابن صياد غلام لم يبلغ الحلم بعد .

وهناك تعليل آخر بأن هناك مهادنة كانت بين يهود المدينة والنبي ﷺ ؛ فيكون في قتل ابن صياد وهو صبي من اليهود مدعاة لإثارة الفتنة ، وأرى أن التعليل الأخير بعيد ، خاصة إذا علمنا أن ظاهرة ابن صياد قد أثيرت في مراحل متأخرة من العهد المدني كما يتضح من سياق بعض الأحاديث ، وفي هذه المرحلة كانت قد انتهت كل المعاهدات بين النبي ﷺ وبين يهود المدينة ، والتي كان آخرها في السنة الخامسة بعد غزوة الخندق وغزوة بني قريظة .

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٨٣/١١ وما بعدها)

الوقفة الرابعة : لِمَ حرص النبي ﷺ على تتبع أحوال ابن صياد ومعرفة خبره .

كما ذكرت سابقاً أن أحوال ابن صياد قد شاع ذكرها في المدينة واختلط الفهم في توصيفها ؛ لذا وجد النبي ﷺ بصفته إمام الأمة ونبيها ضرورة في امتحان ابن صياد وكشف حاله للصحابة الكرام في أن ما يقع معه هو إما ضرب من ضروب الكهانة ، أو حال شيطانية رافقته ؛ وبالتالي يمكن تفسير حرص النبي ﷺ على معرفة حقيقة ابن صياد أنه من باب كشف أحوال من يُخاف مفسدته ، ويتوقع منه إثارة الفتن بين المسلمين .

إشكـــــــــال

لمـــاذا لم يحسم النبي ﷺ القول في حقيقة ابـــن صياد ليتضح أمره للصحابة ؟

📖 - عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي مُسَيْلِمَةَ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فيه شَيْئًا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ : « أَمَّا بَعْدُ : فَفِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ أَكْثَرْتُمْ فِيهِ وَإِنَّهُ كَذَّابٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَذَّابًا يَخْرُجُونَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَلْدَةٍ إِلَّا يَبْلُغُهَا رُعْبُ الْمَسِيحِ إِلَّا الْمَدِينَةَ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ الْمَسِيحِ . » (١)

الشاهد في الحديث :

الحديث يتكلم عن فتنة مسيلمة الكذاب ، والملاحظ من سياقه أن الصحابة أكثروا القول فيه ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن بين حقيقة هذا الرجل بأنه كذاب من ثلاثين كذاب آخرهم المسيح الدجال ، وهذا الحديث يبرز منهج النبي ﷺ في شأن هؤلاء الكذابين ، وهو بيان حقيقتهم لئلا يلتبس على الناس أمرهم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسند البصريين برقم ١٩٩١٥ ؛ وابن حبان في صحيحه في التاريخ برقم ٦٦٥٢ [ابن حبان (٢٩/١٥)] ؛ قال الهيثمي : أخرجه أحمد والطبراني ، وأحد أسانيد أحمد والطبراني رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣٢/٧)]

أما في قصة ابن صياد فقد ثبت أن النبي ﷺ قد توقف فيها ، ولم يقطع بكونه الدجال أو غيره ، ولم ينقل لنا عدول النبي ﷺ عن توقفه بخصوصه ، حتى بعد قدوم تميم ، مع أن المقام مقام بيان في أمر نال اهتماماً كبيراً من رسول الله ﷺ ، وأكثر الناس القول فيه .

بل دواعي بيان حقيقة ابن صياد أقوى من بيان حقيقة مسيلمة ، وذلك لسببين هامين :

السبب الأول :

ملاحظة النبي ﷺ للالتباس الشديد الذي وقع فيه كبار الصحابة في شأن ابن الصياد ، وسمع بنفسه قسم عمر ﷺ بالجزم في أنه الدجال ، وقد يكون هذا القسم وقع من غيره بحضرة النبي ﷺ ، ولاحظنا أيضاً موقف أبي ذر ، وسنلاحظ موقف حفصة وابن عمر رضي الله عنهما ، إذا أكثر الصحابة وأكابرهم لُبس عليهم الأمر بشأن ابن صياد ، وهذا مقام يستدعي البيان الشافي في حقه .

السبب الثاني :

المعلوم أن فتنة ابن صياد كانت في قلب المدينة ، ولها علاقة في أذهان الصحابة بأعظم فتنة على وجه الأرض ، والشبهات التي أثيرت حولها شغلت فكر الصحابة ، ونالت الكثير من حديثهم ، بينما فتنة مسيلمة فقد كانت بعيدة جداً عن ديار الصحابة .

والسؤال الذي يطرح هنا : **لم لم يفصل النبي ﷺ في القول بشأن ابن صائد ، كما فعل في قصة مسيلمة مع أن الدواعي لبيان القول الفصل بشأنه أهم من مسيلمة ؟**

وقد يجاب على ذلك بأن النبي ﷺ اكتفى في شأنه بما ورد في قصة تميم ، وهذا القول لا يسلم ؛ لأن النبي ﷺ وإن أقر تميم فيما حدث به عن الدجال الموجود في أحد الجزائر ؛ إلا أنه لم يرد عنه أي تصريح بنفي كون ابن صياد أنه الدجال ، وهذا أمر غريب ، خاصة أنه رأى من بعض أصحابه من يقسم بأنه الدجال وكان من حال النبي ﷺ التوقف في شأنه قبل ذلك .

أقول : منهج النبي ﷺ في ملاحقة أصحاب الفتن وبيان حقيقتهم ، يقتضي قولاً فصلاً بخصوص ابن صياد ، وعدم وجود قول فصل فيه يعتبر قرينة قوية مرجحة أن ابن صياد هو الدجال الأكبر .

وهذا القول يستدعي سؤالاً أخرَ ، **وهو ما دام ابن صياد هو الدجال الأكبر ، فلم لم يصدر من النبي ﷺ قولاً فصلاً موضحاً لحقيقته ؟**

ويجاب عن ذلك أن النبي ﷺ اكتفى هنا بالتلميح دون التصريح ، لعدم وجود فائدة ترجى من التصريح ، وحتى لا ينشغل الصحابة في فتنة ليسوا من أهلها أو زمانها ؛ بحيث يكون انشغالهم بما لا ترجى فائدته ، فتطلبت الحكمة النبوية الاقتصار على التلميح الذي فهم منه كبار الصحابة ، وأقرب الناس من النبي ﷺ حقيقة الدجال ؛ أما غيرهم فلا داعي لإشغالهم بذلك .

ويبقى تساؤل في غاية الأهمية : **وهو إذا كان ابن صياد هو الدجال ، فما هي حقيقة قصة تميم ؟** حيث إنها تقتضي القول أن الدجال الأكبر مغاير لابن صياد ، وقد أقر النبي ﷺ تميم في كل ما أخبر .

وهذا التساؤل غاية في الأهمية وبيانه يفصل القول في حقيقة ابن صياد ، والإجابة عليه مرتبطة بمعرفة حقيقة الدجال ، وهذا بيانه في موضع آخر بعد إتمام موقف الصحابة مع ابن صياد وبيان قصة تميم ثم بيان وجه الجمع بين كل ما ورد .

المطلب الثاني : ابن صياد والصحابة الكرام

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : « خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ قَالَ : فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ، وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ ، قَالَ : وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ . قَالَ : فَفَعَلَ . قَالَ : فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ فَقَالَ اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ فَقُلْتُ إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ وَاللَّبَنُ حَارٌّ مَا بِي إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ أَوْ قَالَ آخُذَ عَنْ يَدِهِ فَقَالَ : أَبَا سَعِيدٍ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ

بِشَجَرَةٍ ثُمَّ أَخْتَنِقَ ، مِمَّا يَقُولُ لِيَ النَّاسُ يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُوَ كَافِرٌ ؟ وَأَنَا مُسْلِمٌ . أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُوَ عَقِيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ ؟ وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ ثُمَّ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الْآنَ قَالَ قُلْتُ لَهُ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ !» (١)

شرح الغريب :

عس : القدح الكبير ، وجمعه عساس

وفي رواية قال ابن صائد لأبي سعيد ﷺ : « وَاللَّهِ مَا أَنَا بِالدَّجَّالِ وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَوْ شِئْتَ لَأَخْبَرْتُكَ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَاسْمِ أُمِّهِ وَاسْمِ الْقَرْيَةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا . » (٢)

وفي رواية قال ابن صائد : « وَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَكَانِهِ السَّاعَةَ » (٣)

أقول :

١- الآثار واضحة الدلالة في أن ابن صياد هو أحد الدجالين ، وله أحوال شيطانية ، وأنه غير معذور فيما يدعيه ، ففي اللحظة التي كاد فيها أبو سعيد ﷺ أن يعذره صرح بأنه يعرف مولد الدجال واسمه واسم والديه ومكان خروجه ، ولا نعلم هل كلامه من باب الدجل الذي يحاول تسويقه على الغير ؛ أم حصلت له هذه المعرفة من خلال تابعيه من الشياطين ، ولا نعلم دافعه من الحديث عن معرفته لمكان الدجال و اسمه ، هل هو استدراج لأبي سعيد لكي يستفهم منه - والصحابة كان عندهم تشوف

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢٧ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٤٤)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٧٥٥[المسند (٩٧/٣)] ، والحديث له أصل في صحيح مسلم

(٣)أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١١٣٩٦ [المسند (٥٣/٣)] ، والحديث له أصل في صحيح مسلم

وحرص لمعرفة كل شيء عن الدجال - أم هو إظهار لخوارقه وقدراته الخاصة ، أم هي غفوة كل دجال ليستبين من حوله حقيقة دجله ، أم هناك نوع اتصال بين دجال المدينة والدجال الأكبر كما أن هناك اتصالاً بين إبليس وأتباعه من سرايا الشياطين .

٢- يتضح من سياق القصة أن أكثر الصحابة كانوا يعتقدون أن ابن صياد هو الدجال ، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه لم يرد - في ظني - عن أي صحابي أنه كان يرى عكس ذلك ؛ أي إنه ليس الدجال ، وبالتالي نجد أنفسنا أمام جمع من الصحابة يعتقد ، بل بعضهم يقسم على أن ابن صياد هو الدجال ، ولم يصلنا - في حدود علمي- أي أثر منهم ينكر ذلك ، فأشبهت القضية الإجماع السكوتي من الصحابة الكرام .

٣- يلحظ من سياق قصة أبي سعيد الخدري أن ابن صائد كان يتفنن في الدجل على من حوله ، ويتصور من سياق القصة أن ذلك وقع إما في عهد أبي بكر ﷺ وإما في عهد عمر ﷺ ، والسؤال الذي يطرح الآن : **لماذا لم يقم أحد الخليفتين بتعزيره على ذلك** ؟ بالرغم من أن تصرفه يشيع الفتنة بين المسلمين ، ولئن لم يكن الدجال ، وثبت ذلك عند الخليفتين ، ووقع منه دجل ، فهناك دواعي لمعاقبته من قبل الحاكم المسلم ، ولئن كان هناك مانع من معاقبته في عهد النبي ﷺ كصغر سن ابن صائد أو بسبب وجود معاهدات بين المسلمين ويهود المدينة ، فهذه الموانع انتفت في عهد الخليفتين ، ومن تتبع المسألة يجد أنه لم يردنا أي شيء عن محاسبة ابن صائد على دجله ، وعدم وقوع هذه المحاسبة فيه دلالة على أن هناك سبباً قوياً غير معهود في امتناع الخليفتين عن ذلك مع انتفاء الموانع الظاهرة وتوفر الدواعي لذلك ، **فما هو هذا السبب** ؟

٤- المفارقات التي ذكرها ابن صياد بينه وبين الدجال الأكبر لها أهميتها في هذا المقام ، وهي مرجحة لكون ابن صياد ليس الدجال الأكبر ، لكنها غير جازمة ؛ لأن النبي ﷺ أخبر مثل هذه الأوصاف عن الدجال الأكبر بأنه لا يدخل مكة والمدينة ، وأنه لا يولد له ولد **حين خروجه** ، وهذا لا ينفي وقوعه قبل ذلك ، يقول ابن حجر : « أما

احتجاجاته - أي ابن صائد - بأنه مسلم إلى سائر ما ذكر ، فلا دلالة له على دعواه ؛ لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت خروجه آخر الزمان .» (١)

📖 - - قال أبو سعيد : « وَقِيلَ لَهُ : أبن صائد ! أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ ؛ أي الدجال قَالَ : فَقَالَ : لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ . » (٢)

أقول :

الأثر فيه إشارة إلى أن ابن صائد كان معجباً بشخصية الدجال ، ولا نعلم هل قال هذا الكلام بعد إسلامه أم قبل ؟ وإن كان دلالة سياق أحاديث أبي سعيد تدل على أنه قال ذلك بعد إسلامه مما يشكك بصورة واضحة في مصداقية ادعائه الإسلام .

ولعل إعجابه بشخصية الدجال ، وتمنيه أن يكون هو ، واستعداده وجرأته ليقول هذا الكلام بين جمع يرى الدجال بصورة منفرة جداً مما سمعوا عن حقيقته من رسول الله ، يوضح لنا سبب نفور من حوله منه .

كذلك يحتمل سياق هذا الحديث وسابقه أن يكون ابن صائد نفسه هو الدجال ، وقد استخدم أسلوب التلميح دون التصريح في الدلالة على ذلك ، لعلمه أن التصريح بشخصيته ليس هذا زمانه الذي يعيش به ، و كأنه هنا استخدم أسلوب التقية والمعاريض لإخفاء شخصيته .

📖 - عَنْ نَافِعٍ قَالَ : ﴿ لَقِيَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ابْنَ صَائِدٍ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ قَوْلًا أَغْضَبَهُ فَانْتَفَخَ حَتَّى مَلَأَ السِّكَّةَ فَدَخَلَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى حَفْصَةَ وَقَدْ بَلَغَهَا . فَقَالَتْ لَهُ : رَحِمَكَ اللَّهُ مَا أَرَدْتَ مِنِ ابْنِ صَائِدٍ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا . ﴾ (٣)

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٣٣٩/١٣)

(٢)أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢٧ [مسلم بشرح النووي (٢٤٣/٩]

(٣)أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٢ [مسلم بشرح النووي (٢٤٧/٩]

- عن ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ :﴿ كَانَ نَافِعٌ يَقُولُ ابْنُ صَيَّاد - أي هو الدجال - قَالَ : قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : لَقِيتُهُ مَرَّتَيْنِ ... فَلَقِيتُهُ لَقْيَةً أُخْرَى - أي ابن صياد – وَقَدْ نَفَرَتْ عَيْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ : مَتَى فَعَلَتْ عَيْنُكَ مَا أَرَى ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي قَالَ قُلْتُ : لَا تَدْرِي وَهِيَ فِي رَأْسِكَ ؟ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَلَقَهَا فِي عَصَاكَ هَذِهِ . قَالَ : فَنَخَرَ كَأَشَدِّ نَخِيرِ حِمَارٍ سَمِعْتُ ، قَالَ : فَزَعَمَ بَعْضُ أَصْحَابِي أَنِّي ضَرَبْتُهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعِي حَتَّى تَكَسَّرَتْ وَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَالَ : وَجَاءَ - أي ابن عمر - حَتَّى دَخَلَ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَحَدَّثَهَا فَقَالَتْ : مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ قَالَ - أي رسول الله - إِنَّ أَوَّلَ مَا يَبْعَثُهُ عَلَى النَّاسِ غَضَبٌ يَغْضَبُهُ . ﴾ (١)

أقول :

الأثران السابقان يشيران إلى بعض غرائب ابن صياد ، ومدى تأثيره النفسي والشعوري على من حوله ومن هذه الغرائب :

١- انتفاخه في الطريق أو الزقاق لدرجة أن ابن عمر رضي الله عنهما قال عنه أنه ملأ السكة ؛ أي الطريق .

٢- عدم معرفة ابن صائد كيف ذهبت عينه ، وهذا الأمر يعزز عندنا أن ابن صياد لم يكن يملك نفسه ، بل كان نهبة لتسلط الشياطين عليه من صغره

٣- عدم إحساس ابن عمر رضي الله عنهما بنفسه وهو يضرب ابن صياد ؛ فبالرغم من أنه كسر عصا عليه ؛ إلا أنه لم يشعر بذلك بل تشكك بقول من أخبره بأنه فعل ذلك مما يدل على أنه فقد الشعور بنفسه عندما كان يضربه ، والسؤال الذي يُطرح في هذا المقام : **كيف أثر ابن صائد على أحاسيس ابن عمر رضي الله عنهما** ؟ طبعاً هذا كان بفعل الشياطين التي وجدت في ابن صياد ثغرة تستطيع النفوذ من خلالها نحو البشر حوله .

٤- لاحظنا من قصة ابن عمر وحفصة رضي الله عنهما أنهما يريان أن ابن صائد هو

(١) أخرجه مسلم في الفتن و أشراط الساعة برقم ٢٩٣٢ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٤٧)]

الدجال ، بل ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أقسم على ذلك حيث قال : « وَاللَّهِ مَا أَشُكُّ أَنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ ابْنُ صَيَّادٍ . » (١) و صيغة رد حفصة يؤكد على ذلك ، بل سياق الحديث يشير إلى جزم حفصة رضي الله عنها بهذا الأمر ، وحفصة هي ابنة عمر ﷺ وزوجة الرسول ﷺ ؛ أي هي أقرب الناس من هذا الشأن وفهم ملابساته ودلالة سياق القصة تشير أن ما وقع مع ابن عمر كان بعد عهد النبي ﷺ

إذا نحن هنا أمام أقرب الناس من رسول الله ﷺ (حفص و عبدالله ابن عمر) ، وهما يجزمان بأن ابن صائد هو الدجال مما يؤكد أنه لم يرد عن النبي ﷺ حال حياته ما ينفي هذا التصور الذي اختمر في عقول النخبة من صحابته .

- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ : « رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ ابْنَ صَائِدٍ الدَّجَّالُ ، فَقُلْتُ : أَتَحْلِفُ بِاللَّهِ ؟ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُنْكِرْهُ ﷺ » (٢)

أقول :

١- قسم عمر ﷺ بأن ابن صياد هو الدجال ، وذلك على مسمع من رسول الله ﷺ ، وعدم إنكار النبي ﷺ ذلك عليه (❁) أمر عجيب ، والذي يستوقفني فيه ما عرف من ورع عمر ﷺ وتثبته من الحق ، فما الذي يدفعه للتأكيد بقسم على أمر مشكوك فيه ، **وما هي الأمارات التي رآها عمر ﷺ ولم نرها وجعلته كالمتيقن بأن ابن صياد هو الدجال** ؟ والمعلوم أن عمر هو ملهم هذه الأمة يضاف إلى ذلك أنه من أقرب الناس من رسول الله ﷺ وأعلمهم بمقتضيات

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠٨ [عون المعبود (٤٨٣/١١)] والأثر سكت عنه المنذري

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٢٩ [مسلم بشرح النووي (٢٤٥/٩)]

(❁) الحق في هذه المسألة أن عدم إنكار النبي ﷺ على عمر ﷺ فيما أقسم ليس فيه دلالة جازمة على أن ابن صياد هو الدجال ؛ لأن النبي ﷺ كان متوقفاً في الحكم بخصوص ابن صياد ، وبالتالي كان قسم عمر ﷺ على ما غلب على ظنه ، والقسم بغلبة الظن جائز ، ولا يشترط فيه اليقين .

خطابه ، يضاف إلى ذلك أنه هو الذي عاين مع رسول الله ﷺ ظاهرة ابن صياد ، ويتصور أنه قد عاين قصة تميم أو سمع عنها لأن النبي ﷺ نادى فيها للصلاة جامعة ، وبالرغم من ذلك لم يُنقل لنا عنه أنه عدل عن يمينه ، أو كفر عنها ، وأمر كهذا لا بد أن ينقل عنه كما نقل عنه ندمه على موقفه في الحديبية ، فلو تبين له أنه تعجل في القسم على أمر مظنون ، ثم ظهر له خلافه لنقل عنه ندمه على ذلك أو تكفيره عن اليمين ، ولعلم بذلك أقرب الناس إليه كابن عمر رضي الله عنهما وحفصة ، ولنقل ذلك عنهما ؛ لأن دواعي نقل مثل ذلك قوية . كذلك أليس غريباً هنا سكوت النبي ﷺ عندما سمع قسم عمر ، بل أشعر من سياق الخبر أن عمر ترجحت عنده من دلالات عدة استنبطها من حديث النبي أن ابن صياد هو الدجال ، فأراد أن يعزز هذه الدلالات فأقسم بحضرة النبي ﷺ ، ليرى ما يترتب على هذا القسم ، فعندما سكت النبي عن الإنكار عليه ترجح لديه أن ما فهمه من دلالات قد أصاب فيها ، بل يكفي في هذا المقام ما ورد عن أبي ذر حيث قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ يَقُولُ بِهِ ﴾ (١) فإذا كان لسان عمر ﷺ لسان حق ، وكلماته العادية كلـــمات حق ، بكيف إذا أقسم على هذه الكلمات التي تجري على لسانه . (❁)

(١) أخرجه أحمد برقم ٢١٥٩٧[المسند (٥/٢١١)]

(❁) أجاب البعض بأن حلف عمر بأن ابن صائد هو الدجال كان قبل أن يسمع قصة تميم وإخباره للنبي ﷺ عن الدجال الأكبر المسجون في إحدى الجزائر كما سيأتي ، ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور ، وأما جابر ﷺ فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي ﷺ .

لكن يرد على هذا القول بأن جابر ﷺ كان أحد رواة حديث تميم ، مما يدل على أنه على علم بها ، وقصة تميم لم تغير رأيه في اعتبار ابن صائد هو الدجال ، كذلك القول بأن عمر ﷺ لم يعد إلى الحلف المذكور ليس عليه دليل ، و كذلك عدم عودته للحلف ليس فيه دلالة على أنه غير رأيه ؛ لأنه اكتفى بقسمه الأول ، لكن لو ورد عدوله عن قسمه لكان فيصلاً في المسألة ، وهذا لم يرد .

٢- لا حظنا أن جابر ﷺ يقسم على ما أقسم عليه عمر رضي الله عنهما مما يدل على أن آخر عهده بعمر ﷺ هو بقائه على قسمه ، والغريب في الأمر أن أحد رواة حديث تميم كان جابر ﷺ وقد جاء فيه فيما رواه أبو سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ : ﴿ إِنَّهُ بَيْنَمَا أُنَاسٌ يَسِيرُونَ فِي الْبَحْرِ فَنَفِدَ طَعَامُهُمْ فَرُفِعَتْ لَهُمْ جَزِيرَةٌ فَخَرَجُوا يُرِيدُونَ الْخُبْزَ فَلَقِيَتْهُمُ الْجَسَّاسَةُ قُلْتُ لِأَبِي سَلَمَةَ وَمَا الْجَسَّاسَةُ قَالَ امْرَأَةٌ تَجُرُّ شَعْرَ جِلْدِهَا وَرَأْسِهَا قَالَتْ فِي هَذَا الْقَصْرِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَسَأَلَ عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ وَعَنْ عَيْنِ زُغَرَ قَالَ هُوَ الْمَسِيحُ فَقَالَ لِي ابْنُ أَبِي سَلَمَةَ إِنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ شَيْئًا مَا حَفِظْتُهُ قَالَ- أي أبو سلمة - : شَهِدَ جَابِرٌ أَنَّهُ هُوَ ابْنُ صَيَّادٍ قُلْتُ : فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ ، قَالَ : وَإِنْ مَاتَ . قُلْتُ : فَإِنَّهُ أَسْلَمَ . قَالَ : وَإِنْ أَسْلَمَ قُلْتُ : فَإِنَّهُ قَدْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ قَالَ : وَإِنْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ . ﴾ (١)

الشاهد في الحديث :

إصرار جابر ﷺ على أن ابن صياد هو الدجال بالرغم أنه يعلم قصة الجساسة وتميم ، وهو أحد رواتها ، والسؤال الذي يطرح هنا : **لما أصر جابر ﷺ على ذلك ؟ وما هي الأمارات التي علمها ، واطلع عليها وجعلته متأكداً من كون ابن صياد هو الدجال ؟ ولما لم يجد في قصة تميم ما يغير هذا الإصرار أو يضعفه ؟** بل لم يجد في الأمارات الأخرى كإسلام ابن صائد أو دخوله المدينة أو حتى موته ما يضعف هذا الرأي عنده واستمر على إصراره .

و في ظني أن هناك سراً في الأمر وكان جابر وعمر رضي الله عنهما على إطلاع على ذلك السر والله أعلم ، وإلا لما وجدنا من جابر

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠٦ [عون المعبود (١١/ ٤٧٦)] قال ابن حجر : أخرجه أبو داود بسند حسن [فتح الباري (١٣/ ٣٤٠)]

ﷺ مثل هذا الإصرار ، خاصة عند تطرق الاحتمال أو الشك في الأمر ، والمعهود عن الصحابة أنهم يتوقفون فيما لم يتبينوا من صحته.

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ في حديث طويل عن ابن صياد وفيه : ﴿ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ : ائْذَنْ لِي فَأَقْتُلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَسْتَ صَاحِبَهُ إِنَّمَا صَاحِبُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ وَإِنْ لَا يَكُنْ هُوَ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَقْتُلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ ،قَالَ جابر: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُشْفِقًا أَنَّهُ الدَّجَّالُ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث ذكرته استئناساً ، ولعله يوضح لنا بعض أسباب إصرار جابر وعمر رضي الله عنهما على أن ابن صائد هو الدجال ، فجابر ﷺ رأى استمرار إشفاق النبي ﷺ من كون ابن صائد هو الدجال ، ولم ير من رسول الله ﷺ ما يغير هذا الإشفاق ، وهذا الإشفاق هو آخر ما عهده جابر ﷺ من النبي ﷺ، وكلامه يدل على ذلك دلالة صريحة .

- عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : « فَقَدْنَا ابْنَ صَيَّادٍ يَوْمَ الْحَرَّةِ » (٢)

قال ابن حجر : « وهذا يضعف ما تقدم أنه مات بالمدينة ، وأنهم صلوا عليه وكشفوا عن وجهه . » (٣)

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٤٩٦٦ [المسند (٤٥٠/٣)] و إسناده لا بأس به .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣١٠ [عون المعبود (٤٨٤/١١)] وقال ابن حجر : سنده صحيح [فتح الباري (٨١/١٣)]

(٣) فتح الباري (٨١/١٣)

المبحث الثاني
قصة تميم والجساسة

- عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ رضي الله عنها قالت : ﴿ سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُنَادِي الصَّلَاةَ جَامِعَةً ، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ : لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ ! ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ! قَالَ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا ، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ .

فَقَالُوا : وَيْلَكِ مَا أَنْتِ ؟

فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ .

قَالُوا وَمَا الْجَسَّاسَةُ ؟

قَالَتْ : أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ.

قَالَ – أي تميم – : لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً .

قَالَ : فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ .

قُلْنَا : وَيْلَكَ مَا أَنْتَ ؟

قَالَ : قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي ، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ ؟

قَالُوا : نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ ، فَقُلْنَا : وَيْلَكِ مَا أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ ! قُلْنَا : وَمَا الْجَسَّاسَةُ ؟ قَالَت : اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا ، وَفَزِعْنَا مِنْهَا ، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً.

فَقَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ .

قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟

قَالَ : أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ ؟

قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ .

قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ .

قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟

قَالَ : هَلْ فِيهَا مَاءٌ ؟

قَالُوا : هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ .

قَالَ : أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ .

قَالُوا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟

قَالَ : هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ ؟

قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ ؟

قَالُوا : قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ .

قَالَ : أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ ؟

قُلْنَا : نَعَمْ .

قَالَ : كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ ؟
فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ .
قَالَ لَهُمْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ !
قُلْنَا : نَعَمْ .
قَالَ : أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي ، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ، فَأَخْرُجَ ، فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا ، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا ، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا ، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا .
قَالَتْ - أي فاطمة رواية الحديث - :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ - : هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ يَعْنِي الْمَدِينَةَ .
أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ ؟
فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ .
قال رسول الله ﷺ : فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ .
أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

أرفئوا : التجئوا

أقرُب : جمع قارب ، وهي السفن الصغيرة تكون مع الكبيرة ، يستخدمها البحارة لقضاء حوائجهم .

---

(١) أخرجه مسلم بطوله في الفتن برقم ٢٩٤٢ وقد اختصرت منه ما لا يخص موضوعنا [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٧٠)] .

أهلب : غليظ الشعر كثيره فرقنا : خفنا

الجساسة :من جس الخبر إذا تتبعه ،قيل سميت بذلك لتجسسها الأخبار للدجال .

صلتاً : مسلولاً . اغتلم : هاج وجاوز حده المعتاد

- عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ قَالَتْ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : ﴿ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ فَتَاهَتْ بِهِ سَفِينَتُهُ فَسَقَطَ إِلَى جَزِيرَةٍ فَخَرَجَ إِلَيْهَا يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَقِيَ إِنْسَانًا يَجُرُّ شَعَرَهُ ، وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ وَقَالَ فِيهِ : ثُمَّ قَالَ – أي الدجال – : أَمَا إِنَّهُ لَوْ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ قَدْ وَطِئْتُ الْبِلَادَ كُلَّهَا غَيْرَ طَيْبَةَ . فَأَخْرَجَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ فَحَدَّثَهُمْ قَالَ : هَذِهِ طَيْبَةُ وَذَاكَ الدَّجَّالُ . ﴾ (١)

- وفي رواية الترمذي عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَضَحِكَ فَقَالَ ﴿ إِنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ حَدَّثَنِي بِحَدِيثٍ فَفَرِحْتُ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ .

حَدَّثَنِي أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ رَكِبُوا سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ ، فَجَالَتْ بِهِمْ حَتَّى قَذَفَتْهُمْ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا هُمْ بِدَابَّةٍ لَبَّاسَةٍ نَاشِرَةٍ شَعْرَهَا .

فَقَالُوا مَا أَنْتِ ؟

قَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ .

قَالُوا: فَأَخْبِرِينَا .

قَالَتْ : لَا أُخْبِرُكُمْ وَلَا أَسْتَخْبِرُكُمْ ، وَلَكِنِ ائْتُوا أَقْصَى الْقَرْيَةِ فَإِنَّ ثَمَّ مَنْ يُخْبِرُكُمْ وَيَسْتَخْبِرُكُمْ ، فَأَتَيْنَا أَقْصَى الْقَرْيَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ بِسِلْسِلَةٍ

فَقَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ

قُلْنَا : مَلْأَى تَدْفُقُ .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنِ الْبُحَيْرَةِ .

قُلْنَا مَلْأَى تَدْفُقُ .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٢ [مسلم بشرح النووي (٢٧٢/٩)] .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ الَّذِي بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ هَلْ أَطْعَمَ ؟

قُلْنَا : نَعَمْ .

قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنِ النَّبِيِّ هَلْ بُعِثَ ؟

قُلْنَا : نَعَمْ .

قَالَ : أَخْبِرُونِي كَيْفَ النَّاسُ إِلَيْهِ ؟

قُلْنَا : سِرَاعٌ .

قَالَ : فَنَزَّى نَزْوَةً حَتَّى كَادَ .

قُلْنَا : فَمَا أَنْتَ ؟

قَالَ : أَنَا الدَّجَّالُ .

قال رسول الله ﷺ : وَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْأَمْصَارَ كُلَّهَا إِلَّا طَيْبَةَ وَطَيْبَةُ الْمَدِينَةُ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

لباسة : كثيرة اللباس ، وكنى بكثرة لباسها عن كثرة شعرها

فنزى نزوة حتى كاد : أي وثب وثبة حتى كاد أن يتخلص من وثاقه .

- وفي رواية أبي داود قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّهُ حَبَسَنِي حَدِيثٌ كَانَ يُحَدِّثُنِيهِ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ عَنْ رَجُلٍ كَانَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ فَإِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ تَجُرُّ شَعْرَهَا ...حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وَثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ﴾ (٢)

خلاصة القول فيما ورد في قصة تميم والجساسة

أولاً : قصة تميم ، وظاهرة ابن صياد .

حديث تميم بن أوس الداري هو الذي غير أنظار العلماء عن اعتبار ابن صائد هو

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٥٤ وقال عنه : حديث حسن صحيح غريب [تحفة الأحوذي (٥٢٩/٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠٤ [عون المعبود (١١/ ٤٧١)] وصححه الألباني [انظر سنن أبي داود للألباني ، حديث رقم ٤٣٢٦]

الدجال ؛ حيث قال ابن حجر في استبعاد كون ابن صياد الدجال : « وإلا فالجمع بينهم بعيد _ أي قصة تميم واعتبار أن ابن صياد الدجال – إذ كيف يلتئم أن يكون من كان أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم _ أي ابن صياد – ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله أن يكون في آخرها شيخاً مسجوناً في جزيرة من جزائر البحر موثقاً بالحديد يستفهم عن خبر النبي ﷺ . » (١)

كلام ابن حجر السابق صريح في أنه يعتبر الدجال الأكبر غير ابن صياد ؛ إلا أنه عاد بعدما ذكر أثراً عن البعض أنه رأى ابن صياد في أصبهان فقال : « و أقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال . أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقاً ، وأن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجئ المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها ، ولشدة التباس الأمر سلك البخاري مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن ابن عمر في ابن صياد ، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم . » (٢)

كلام ابن حجر يقرب إلى الأفهام تصور ظاهرة الدجال وعلاقتها بابن صياد ، و هي ظاهرة غامضة التبس أمرها على أكثر العلماء ؛ لدرجة أن البخاري لم يجد مسلكاً للخروج من الالتباس إلا بطريق الترجيح ، إلا أنه في ظني أن سبب التباس الأمر على كثير من العلماء في التوفيق بين الأمرين مرجعه إلى أنهم تعاملوا مع ظاهرة الدجال على أنها ظاهرة إنسية محضة ، مع أن دلائل الأحاديث تشير إلى خلاف ذلك ، ومن هذا الوجه يشكل الجمع بين الأحاديث ؛ أما لو تعاملوا مع الأحاديث على أن ظاهرة الدجال ظاهرة خاصة شبيهة بالظاهرة الإبليسية ، وهي مخالفة لعادات البشر ونواميسهم ، ففي مثل هذه الحالة لا يقع اللبس ويسهل الجمع بينها ، وهذا المعنى هو ما سأذكره في الملاحظة الثانية

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (١٣/٣٤٠)

(٢) المرجع السابق (١٣/٣٤٠)

ثانياً : حقيقة ظاهرة الدجال :

يلحظ من سياق حديث تميم ، وغيره من الأحاديث أننا أمام ظاهرة أقرب إلى الإبليسية منها إلى الظاهرة الإنسية ، وهذا واضح من السياق فالدجال هنا شيخ كبير مقيد في جزيرة ، وهو يخرج في آخر الزمان شاباً قططاً ، وميلاده مجهول، و عمره مجهول ، وقدراته خاصة وخارجة عن قدرات البشر (۞) ، و أسئلته عجيبة ، و مساعده أعجب وهو الجساسة ، فكل هذه العلامات تشير إلى أننا لسنا أمام ظاهرة بشرية ، إنما نحن مع ظاهرة أقرب إلى الجن والشياطين ، و قد نقل نعيم بن حماد عن جبير بن نفير ، وشريح بن يزيد والمقدام بن معدى كرب وعمرو بن الأسود وكثير بن مرة أهم قالوا عن الدجال : « ليس الدجال إنسانا،إنما هو شيطان في بعض جزائر اليمن،لا يُعلم من أوثقه.» (١)

وقال ابن حجر بعد ذكره للأثر الذي أورده نعيم : « ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . » (٢)

فهذا القول المنقول عن خمسة من الثقات يعزز القول بأننا أمام ظاهرة جديدة أشبه بالظاهرة الإبليسية من بعض الوجوه ، والأحاديث الأخرى تعزز ذلك ، و كذلك ورد أن بعض أتباع الدجال من الشياطين مما يوحي أن له قدرة على التخاطب معهم بطريقة مباشرة ، ولعل الدجال عنده قدرة تقمصية أو تشكلية كإبليس الذي جاء لقريش على شكل شيخ نجدي ، و ثبت مجيئه على هيئات عدة ؛ إلا أن مخالفته للظاهرة الإبليسية تتمثل في أن جسم الدجال يكون كثيفاً مرئياً في الغالب من أمره وذلك بخلاف إبليس .

وإذا اعتبرنا ذلك فيكون الجسد بالنسبة للدجال كالثوب إلى أن يخرج خرجته الأخيرة ، عندها يثبت على الهيئة التي وصفها رسول الله ﷺ .

(۞) سنلاحظ ذلك في البحث التفصيلي عن الدجال وقدراته ، خاصة الإحياء والإماتة وأمر السماء بالإمطار ، و سرعته العجيبة في مسح الأرض ، و مخاطبته للكنوز في الأرض ومتابعتها له ...إلخ

(١) نعيم بن حماد : الفتن (٣٧١)

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٣/٣٤٠)

وعلى هذا التأويل يسهل علينا تصور المراد بمجموع الأحاديث التي تكلمت عن الدجال وحتى عن ابن صياد الذي يحتمل معه أمرين :

الأمر الأول :

إنه حالة شيطانية كما ذكر ابن حجر قدرها الله سبحانه وتعالى في زمن النبوة ليستعلم عن خبر رسول الله سبحانه وتعالى ، وهي أشبه بالحالة الدجالية ؛ حيث اختفى إلى أن يأتي مناصراً للدجال أو أحد مستشاريه ، وهذا الرأي أراه ضعيفاً لكن النصوص تحتمله .

الأمر الثاني :

إن رحلة الدجال الأكبر ابتدأت بميلاد ابن صياد ؛ وهذا الجانب البشري فيه ، وكان ميلاده مع بداية الرسالة التي سيخرج في آخر الزمان ليغويها ؛ أي كان ابن صياد كالثوب بالنسبة للدجال ، ويحتمل أن ملابسة الدجال لابن صياد كانت في أوقات مخصوصة ليكون قريباً من نبي الأمة التي سيخرج لإغوائها وفتنها آخر الزمان ، وذلك ليتعرف على تعاليمها عن قرب ، فهو بذلك يكون أقدر على معرفة ما يفتنها .

أما دجال الجزيرة الذي رآه تميم فهو حالة شيطانية صرفة جاءت لتحكي حال الدجال وإرهاصات خروجه بشكل حسي ، وهذا واضح من خلال طبيعة الجساسة ، ويحتمل أن يكون الدجال في ذلك الوقت قد تقمص تلك الشخصية للدلالة على إرهاصات خروجه وجاء على هيئة شيخ كبير ، وفي آخر الزمان حين يخرج يأتي على هيئة شاب قطط .

والملاحظ أن النبي قد استخدم أسلوباً عجيباً في إقراره لقصة تميم حيث قال « فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ » « إِنَّهُ حَبَسَنِي حَدِيثٌ كَانَ يُحَدِّثُنِيهِ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ عَنْ رَجُلٍ كَانَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ » .

فهذه الصيغ لا تؤكد أنه الدجال ، إنما تؤكد على موافقة الكلام فقط من بعض الوجوه ، وصحيح أنه وردت إشارة في أحد الأحاديث تدل على أن النبي ﷺ قد صرح بأن الرجل الذي في الجزيرة هو الدجال ، وهذا أيضاً يقرب لنا ما ذكرنا من أننا أمام حالة غريبة لا نقيسها وفق تصوراتنا للبشر ، فالدجال الذي في الجزيرة شيخ كبير ، وعندما يخرج آخر الزمان يكون شاباً وهناك إشارات قوية من كبار الصحابة تعزز كون ابن صياد هو الدجال ، فهذه أحوال غير مستقرة للدجال تحصلت قبل خروجه لتكون عوناً له في فتنته .

وعلى القول الثاني يسهل علينا فهم عدة أمور :

١- وصف النبي ﷺ لميلاد الدجال وصفة والديه هو على حقيقته ، ويراد به ابن صياد ، فهو الميلاد الأولي للدجال .

٢- توقف النبي ﷺ في الفصل بشأن ابن صياد في بداية الأمر و إشفاقه لحين موته من ابن صياد ، واختيار آية الدخان التي لها علاقة بالدجال الأكبر كخبيئة امتحن فيها ابن صياد يعزز فكرة كون ابن صياد هو الدجال الأكبر ، ويشير إلى أن النبي تحصل لديه من عدة قرائن ما يؤكد على ذلك .

٣- قَسَمُ بعض الصحابة المقربين من رسول الله ﷺ على أن ابن صياد هو الدجال أيضاً على حقيقته ، ولا يتصور منهم إلا حال تأكدهم من ذلك .

٤- جزم عمر و أبي ذر وابن عمر وجابر وحفصة رضي الله عنهم بأن ابن صياد هو الدجال فيه إشارة إلى أن لديهم بعض الدلائل الخاصة القوية التي تحصلت عندهم من رسول الله تؤكد على أنه الدجال .

٥- نفور عين ابن صياد دون شعور منه وانتفاخه وإخباره بمغيبات كلها تعزز كونه الدجال الأكبر ، وهذه بداية إرهاصاته ، وتطور قدراته .

٦- إصرار جابر ﵁ على أن ابن صياد هو الدجال حتى لو مات أو أسلم فيه إشارة إلى أنه فهم أنه أمام ظاهرة مغايرة للبشر لها خصائصها التي تتميز بها ،

وفيه تأكيد على أن العلم الذي تحصل لديه عن ابن صياد بلغ درجة العلم القطعي الذي لا يحتمل غيره .

٧- حصول قصة تميم ، وتقمص الدجال لهيئة الشيخ الكبير فيها إنما جاءت بقدر الله لتوجيه أنظار عموم الصحابة عن ابن صياد ، وعدم ملاحقته أو الافتتان به في غير زمانه ؛ أما إسلام ابن صياد ودخوله المدينة فليس فيه دلالة على أنه ليس الدجال كما صرح ابن حجر لأن النبي ﷺ قال أنه لا يدخل المدينة في زمان فتنته ، وكذلك لا يتزوج في تلك المرحلة بالذات .

٨- إذا الروح الدجالية حلت في جسد ابن صياد من ميلاده لتكون قريبة من فهم طبيعة الرسالة التي ستغوي أفرادها في آخر الزمان ، وهذه الروح أيضاً حلت في جسد الشيخ الكبير الموثق في الجزيرة ، وهي التي تحل أو تتشكل على هيئة شاب قطط في آخر الزمان عند بداية الفتنة .

ووفق ما ذكرت أقول : قسم عمر وجابر وأبي ذر على أن ابن صياد هو الدجال في محله وجزم كبار الصحابة بذلك صحيح ، والقول بأن الشيخ الموثق في الجزيرة هو الدجال الأكبر أيضاً صحيح ، ولا تعارض بين هذه الأقوال كلها لأننا أمام ظاهرة مخالفة للبشر ، ومن الخطأ قياسها وفق عقولنا ونواميسنا . فنحن لسنا أمام ظاهرة إنسية لنقيس عليها بل نحن أمام ظاهرة خاصة خارقة قدرها الله سبحانه وتعالى لتمثل حلقة من حلقات صراع الحق والباطل في آخر الزمان .

وهذا أقرب وجه للجمع بين كل الأدلة وتصورها دون أي اضطراب في الفهم .

وقد يشكل هذا الاستنتاج على البعض فيقول ، لو كان الدجال الذي في الجزيرة هو بعينه الذي في المدينة ، فلم سأل تميم عن خبر رسول الله ﷺ .

وللإجابة على ذلك أقول : إن استخبار الدجال عن محمد ﷺ لا يدل على أنه لا يعلم خبره ، بل لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى لبيان بعض العلامات ، وذلك يقال عن

بقية أسئلته ، حيث كان يختمها بقوله يوشك أن يحصل كذا أو كذا ، مما يشير أنه يعلم خبرها .

محصلة هذا الجمع :

أقول : أعان الله هذه الأمة في آخر الزمان فإن قائد أعظم فتنة في الأرض والتي حذر منها كل الأنبياء كانت من حظ هذه الأمة ، وهذا القائد - بقدر الله - قد نبت في العاصمة الأولى لهذه الأمة وفي عهد نبيها ؛ وهذا يضيف له قدرة خاصة وخبرة متميزة في الإغواء لأنه تعرف عن قرب على معالم رسالة الحق كاملة ، وبالتالي يكون خبيراً في كل الجوانب المخلة بتلك التعاليم . (۞)

ثالثاً : جزيـــرة الدجـــال .

هذا العنوان لم أرغب في طرحه ؛ لأنه لا فائدة منه ترجى ؛ إلا أنني وجدت في طرحه حكمة دل عليها حديث رسول الله ﷺ رأيت أن أبينها .

فالمعلوم أن لخم وجذام [قبائل تميم ومن معه] في منطقة قريبة من البحر الأبيض ومن البحر الأحمر ، وهم أقرب إلى البحر الأحمر ، ودلالات الحال تشير إلى أن البحر الذي قصدوه هو البحر الأحمر إما من جهة خليج العقبة أو غيره ، والحديث يشير إلى أن سفينتهم لعب بها البحر شهراً ؛ أي تاهت في البحر شهراً ، وهذه المدة وفق الإمكانات القديمة تعطينا تصوراً إلى أقصى مدى يمكن أن تكون السفينة قد وصلته حال تلاعب البحر فيها ، وهو إما خليج عدن أو قبله بقليل ، أو تعدوه قليلاً في بحر العرب، والمعلوم أن ما قبل خليج عدن مئات بل آلاف من الجزر، مما يشير أن المقصود أحدها .

(۞) نلحظ أن أعداء الأمة في مرحلة من المراحل قد سلطوا أبناءهم لدراسة تعاليم الإسلام والدراسات الشرقية ، ليكونوا أقدر على فهم أبناءه ، وذلك بهدف التغلغل فيهم ومعرفة مداخلهم وطرق السيطرة عليهم ، وهذا ما يعرف بالاستشراق ، ووفق هذا التصور يمكن القول أن المستشرق الأول في الأرض هو الدجال ، فهو لم يقرأ الكتب ، بل عاين الرسالة بطريقة واقعية من بدايتها ، ولا نعلم هل كان له جولات أخرى عبر التاريخ الإسلامي أم لا .

ويعزز ذلك أن اليمن نفسها دخلتها النصرانية ، والجساسة وصفت المكان الذي فيه الدجال بأنه الدير ، والمعلوم أن الدير من معابد النصارى في الغالب ، وتميم كان نصرانياً ، و لم ينكر هذا القول من الجساسة .

ويعزز ذلك أيضاً أن النبي ﷺ قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ . ﴾ (١)

فالنبي الكريم حدد على وجه الإبهام بحرين يتوقع كون الدجال فيهما وهما بحر الشام وبحر اليمن ، ثم عدل عن ذلك وأكد أنه من قبل المشرق ، و لم يأت على ذكر بحر ؛ أي لم يقل بحر من قبل المشرق ، وفي هذا لطيفة عجيبة ، وهي وجه الحكمة من كلام النبي ﷺ -في ظني - وبيانها في التالي :

النبي ﷺ يعلم أنه لا فائدة من تعيين جزيرة الدجال أو البحث عنها ؛ فهو ظاهرة خاصة هي جزء من قدر الله سبحانه وتعالى ، وهي لا محالة واقعة ؛ لذا وافق سياق قصة تميم بالحديث عن بحرين مع أنه يسهل عليه تحديد البحر المقصود من خلال سؤال تميم عن أي بحر ركب ، ثم عدل عن ذلك بسرعة للحديث عن مكان خروج الدجال من ناحية المشرق،وقال : بل من قبل المشرق .

والحكمة من ذلك صرف أذهان المسلمين من ملاحقة الأمر في تتبع جزيرة الدجال أو الانشغال فيما لا ينفع ، ويكفي من سياق الحديث أن يعيشوا مع دليل من دلائل النبوة وهو موافقة كلام تميم لما أخبرهم به النبي ﷺ .

لذا سارع النبي ﷺ بالتأكيد على جهة الشرق دون ذكر بحر ، للإشارة إلى مكان خروجه ، فهذا الذي يعني المسلمين ، وليس المراد من ذلك كما يفهم البعض من أن النبي ﷺ قد تحير في مكانه ، بل المقصود من ذلك صرف أذهان الناس عما يشغلهم أو

(١) سبق تخريجه

يفتنهم دون جدوى ، وهذا من حكمة النبي ﷺ،وهي حكمة أجدر بكل داعي أن ينتبه لها ، فلا يشغل الناس حوله بما لا فائدة منه .

رابعاً : طلب الهداية سبب في حصولها ولو بعكس الأسباب :

- قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١)

- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢)

أحياناً يحار الإنسان في زمن الفتن ، وتتضارب الآراء الكثيرة التي يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتختلف الموازين في الحكم على الأمور ، ويقول أين المخرج ، وكيف السبيل إلى الهداية المنجية ؟

أقول : في قصة تميم توجيها لنا إلى أعظم سبب من أسباب الهداية ، وهو طلبها بصدق والاستعداد لمقتضيات هذا الطلب و مستلزماته ؛ فإذا وجد طلب الهداية في قلب الإنسان بحق مع الاستعداد له فإنه ستيسر له الهداية المنجية ، ولو بعكس الأسباب ، وسيكون على برهان من ربه ونور ، و لو كان الواقع حوله كله بخلاف ذلك .

وهذا الأمر نتعلمه من قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ، الذي كان سادناً من سدنة النار التي تعبد من دون الله ؛ أي كان في أبعد الأماكن عن الحق ، لكن عندما توفر عنده طلب الهداية وسعى لها ، كان من أهلها حتى أصبح كما قال النبي ﷺ : سلمان منا آل البيت .

وتميم الداري رضي الله عنه كان عنده طلب لمعرفة الحق و استعداد للسعي للهداية وسياق قصته إلى أن أسلم يدل على ذلك ؛ لذا كان صاحب أكبر فتنة على وجه الأرض سبباً في توجيهه للذهاب للنبي ﷺ ؛ أي كان الدجال سبباً لهدايته ، وهذا بعكس الأسباب ؛ إذ الأصل أن الدجال سبب في صرف الناس عن الهداية .

---

(١) محمد:١٧

(٢) القصص: من الآية٨٥

وعليه يمكن القول أن قصة الجساسة كانت سبباً لأمرين :

الأول : تعزيز الإيمان وتأكيد الهداية عند الصحابة الكرام ؛ حيث عايشوا دليلاً من دلائل نبوة محمد ﷺ يرويه أحد النصارى الذي جاء ليعلن إسلامه بعد معاينته لهذا الدليل .

الثاني : الاستعداد القبلي للإيمان عند تميم ﷺ ، وطلبه الهداية كان سبباً في تهيئة الأسباب الربانية له لحصول الهداية في حقه ، و توفير الأسباب الممهدة لذلك والمخالفة للحس والعقل ، وبما يتوافق مع عقليته ، فتميم عنده الاستعداد للهداية ، وسمع بالنبي ﷺ ، ولكنه لم ينتبه للأمر لبعد المسافة بينه وبين المدينة من ناحية ، ولعدم معاينته لدلائل معززة للإيمان لسطحية الأخبار الواردة له والمدللة على صدق نبوة محمد ﷺ .

لكن هذا الاستعداد القبلي عند تميم كان سبباً في تهيئة الظروف الممهدة للهداية في حقه ، والتي كانت عبارة عن قصة عجيبة مبدؤها التيه ومعاينة الموت في البحر ، ثم الالتقاء بالدجال ، ثم حديث الدجال معهم ، ثم تقدير الله سبحانه وتعالى في أن يجري على لسان الدجال ما كان سبباً في هداية تميم ﷺ ، منه قول الدجال في حق النبي ﷺ : « أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ » ، فهذه كلمات حق جرت على لسان صاحب أكبر فتنة على وجه الأرض ، وكانت سبباً في هداية تميم وحرصه في طلب المدينة والالتقاء بالنبي الكريم .

وهذه عبرة عظيمة لكل مسلم في زمن الفتن ، فلا يظنن المسلم أن الفتن سبباً في وأد الهداية ، وإن كانت سبباً في تمييز الحق من المبطل ، وبين أهل الحق وأدعيائه ، واعلم أنه إذا تواجد طلب حقيقي للهداية في داخلك وأسباب حصولها المكملة ، فإن عواصف الفتن الماحقة ستكون في حقك نسيماً عليلاً ، كما كانت الريح الصرصر العقيم على قوم عاد نسيماً عليلاً على هود عليه السلام وأتباعه ، واعلم أن الفتن أمرها بيد الله ، وشخوصها جزء من خلق الله ، وكلا الأمرين لا يملكان شيئاً ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

---

(١) الأعراف: من الآية٥٤

وقد ثبت في السنن أن صاحب طلب الهداية الحقيقي يخرج من الفتن بقلب أبيض لا تشوبه شائبة ، وكأن الفتن كانت سبباً في تخلية هذا القلب من الشوائب كما كان صاحب أعظم فتنة في الأرض سبباً في هداية تميم رضي الله عنه .

خامساً : الجساسة :

نلحظ من أحاديث تميم أن قصته اقترنت بما يعرف بالجساسة ، وقد اختلفت العبارات الدالة عليها في مجموع الأحاديث السابقة ، ولكي يتضح المراد بها أذكر هنا هذه العبارات ثم أعقب عليها :

- فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ .
- قَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ .
- لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً .
- فَلَقِيَ إِنْسَانًا يَجُرُّ شَعَرَهُ
- فَإِذَا هُمْ بِدَابَّةٍ لَبَّاسَةٍ - أي كثيرة الشعر - نَاشِرَةٍ شَعْرَهَا .
- فَإِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ تَجُرُّ شَعْرَهَا .

هذه أبرز العبارات الدالة على الجساسة ، ويلحظ في الأحاديث أنها هي التي أعلمتهم باسمها هذا ، والاسم له علاقة بوصف يبين طبيعة وظيفة هذه الدابة ، وهو تتبع الأخبار لصالح الدجال ، وقولها أنها الجساسة فيه دلالة أنها مؤنث ، وإلا لقالت أنا الجساس ، ويأتي تساؤل هنا : ما هي الجساسة ؟

دلائل العبارات تشير إلى أن تميماً ومن معه تحيروا في توصيف الجساسة ، فبالنظر إلى شعرها الكثيف الذي يُغيِّب معالم جسمها بحيث لا يعرف لها قُبُل من دُبُر جاء التعبير عنها بأنها دابة ، وبالنظر إلى حديثها معهم جاء التعبير عنها بأنها إنسان ، وبالنظر إلى صوتها ، و صيغ التأنيث في حديثهم معها وفي طبيعة اسمها جاء التعبير عنها بأنها امرأة ، وبالنظر إلى دلائل حالها المخالفة للبشر ، و تسميتها لرجل ينتظرهم في الدير جاء التعبير بالخوف من كونها شيطانة .

ولا أعلم ما وجه الربط بين كون تسميتها لرجل في الدير وبين الخوف من كونها شيطانة ، « لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً .» فصيغة العبارة شرطية ؛ أي أن الخوف من كونها شيطانة شرط مترتب على تسميتها لرجل ، وفي ظني تسميتها لرجل وهو الدجال ، وانتظاره لهم بالأشواق ، وما رافق ذلك من سياق حديثهم معها وملابساته أشعرهم أنها تملك قدرات تفوق الوضع الطبيعي للبشر ، فجاء الخوف من كونها شيطانة .

هذا مجمل الحديث عن الجساسة ، يتحصل منه القول أنها ظاهرة خاصة قد تكون من فصيل الجن ، ويبعد كونها من البشر ، وإن كان بعض ملامحها يشير إلى ذلك ؛ إلا أنه لا يؤكد عليه .

القسم الثاني : دراسة تفصيلية لظاهرة الدجال

وهذا القسم أتناوله في المباحث التالية :

المبحث الأول
خطورة فتنة الدجال وتعوذ النبي ﷺ منها

هذا المبحث يبرز مدى خطورة هذه الفتنة وعظمتها وإنذار النبي ﷺ لأمته منها ، وكذلك يوضح منهج النبي ﷺ في التعوذ من هذه الفتنة ، وذلك في المطالب الثلاثة التالية .

المطلب الأول : فتنة الدجال أعظم فتنة على وجه الأرض

📖 - عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . ﴾ (١)

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَأَنَا لَفِتْنَةُ بَعْضِكُمْ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَلَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِمَّا قَبْلَهَا إِلَّا نَجَا مِنْهَا وَمَا صُنِعَتْ فِتْنَةٌ مُنْذُ كَانَتِ الدُّنْيَا صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا لِفِتْنَةِ الدَّجَّالِ . ﴾ (٢)

أقول :

١- الأحاديث السابقة صريحة في عظم فتنة الدجال ، وكأن هذه الفتنة إشارة إلى نهاية الدنيا ؛ حيث تشبه الاختبار النهائي لأهل الأرض في زمان خروجه .

٢- الحديث الثاني فيه إشارة مهمة إلى أن فتنة الدجال تأتي بعد فتن عدة ، وقد صرحت بعض الأحاديث أن آخرها فتنة الدهيماء ، وهذه الفتن تكون قد غربلت الناس فظهر مؤمنهم من منافقهم ، فما يكون من فتنة الدجال إلا حصد ما خلفته

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٥ [مسلم بشرح النووي (٢٧٦/٩)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٣٣٦٦ [المسند (٤٥٤/٥)] ؛ وابن حبان في صحيحه برقم ٦٨٠٧ ، قال محققه : إسناده صحيح [ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢١٨/١٥)]

الفتن التي سبقته ، وفي هذا إشارة إلى ضرورة انتباه المؤمن من الفتن ، ولا يستصغرها ، أو يحقر شأنها ، فهي موطئة لفتنة الدجال ، يعزز ذلك ما جاء في الحديث : « لَأَنَا لَفِتْنَةُ بَعْضِكُمْ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وفي رواية مسلم : غير الدجال أخوفني عليكم . وفي رواية أحمد : لَغَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَى أُمَّتِي ، قَالَهَا ثَلَاثًا : قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُكَ عَلَى أُمَّتِكَ قَالَ أَئِمَّةً مُضِلِّينَ . » (١)

و عن حذيفة بن أسيد ﷺ قال : « ... إنا لغير الدجال أخوف علي وعليكم قال فقلنا ما هو يا أبا سريحة ؟ قال فتن كأنها قطع الليل المظلم قال : فقلنا : أي الناس فيها شر ؟ قال : كل خطيب مصقع وكل راكب موضع . قال فقلنا : أي الناس فيها خير قال : كل غني خفي قال أبو الطفيل الليثي : فقلت : ما أنا بالغني ولا بالخفي ؟ قال فكن كابن اللبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب . » (٢)

شرح الغريب :

خطيب مصقع : أي كل خطيب بليغ اللسان ، ويراد به الخطباء الذين يغيرون الحقائق ويزينون الباطل لأهوائهم أو لمصالح قادة الفتن مستعينين بما أوتوا من قوة بلاغة و تأثير في الناس .

راكب موضع : أي مسرع ، ويراد به من يخف ويسرع في الفتن ونصرة أهل الباطل .

غني خفي : أي كل غني النفس معتزل للناس

ابن لبون : ابن الناقة ذات اللبن ، وابن اللبون يكون صغيراً لا يمكن أن يركب لقتال ونحوه ، ولا يمكن أن يحلب فينتفع به ؛ لأنه صغير ، ومعنى كن كابن لبون : أي مثله في عدم الانتفاع به في أمر من أمور الفتن .

---

(١) سبق تخريج هذه الآثار

(٢) جزء من أثر طويل أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦١٢ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي ، والحديث موقوف يأخذ حكم المرفوع [المستدرك (٥٧٤/٤)]

المطلب الثاني : إنذار النبي ﷺ لأمته من فتنة المسيح الدجال .

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ : ﴿ إِنِّي لَأُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ . ﴾ (١)

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ وَقَالَ : ﴿ مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ثَلَاثًا إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ . ﴾ (٢) وفي رواية مسلم ﴿ كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِئَةٌ . ﴾ (٣)

أقول :

١- هذان الحديثان يدلان على خطورة فتنة الدجال ، فما من نبي من لدن نوح عليه السلام إلا أنذر أمته منه ، والسؤال الذي يطرح هنا : ما وجه إنذار نوح عليه السلام لأمته من الدجال بالرغم من أنه يخرج في آخر الزمان ؟

وهذا يجاب عنه بأن وقت خروجه كان خفياً على نوح عليه السلام ؛ أي أن نوحاً علم بفتنة الدجال و لم يعلم بوقت خروجه فأنذر أمته وكذلك سائر الأنبياء ، وهذا يعزز أن النبي ﷺ في بداية الأمر قد علم بفتنة الدجال ثم تبين له في آخر الأمر

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٢٧ [فتح الباري (١٣/٩٦)]

(٢) أخرجه البخاري في المغازي برقم ٤٤٠٢ [البخاري مع الفتح (٧/٧٠٩)] ؛ ومسلم في الفتن برقم ٢٩٣٣ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٣)]

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ١٦٩ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٢)]

وقت خروجه ؛ لذلك كان إنذار محمد ﷺ لأمته من الدجال أوفى وأكثر تفصيلاً من غيره لوقوع فتنته في أمته .

٢- المعلوم أن حجة الوداع كانت في آخر عهد النبي ﷺ ، وتضمنت ملخصاً عاماً لرسالة الإسلام وأبرز تعاليمه ، ومع كونها كذلك إلا أن النبي ﷺ لم يختصر الحديث عن الدجال فيها ، بل أطنب و أفاض في الحديث عنه ، وفي هذا إشارة إلى عظم هذه الفتنة وخطورتها ، و ويتضمن تنبيهاً لأمته للإفاضة في الحديث عنها والتحذير منها .وإذا كانت خطبة الوداع التي تعتبر ملخصاً لرسالة محمد ﷺ قد تضمنت إطناباً عن فتنة الدجال ، فمن باب أولى أن يطنب أتباعه في ذكرها ،والتحذير منها ، وليس كما يدعي البعض أن ذكر الدجال وفتنه من باب الملهاة للأمة وإشغال لها عن قضاياها ، بل على العكس ذكر فتنة الدجال يقي الأمة من الوقوع فيها من جانب ، ومن جانب آخر يعطيها تصوراً لطبيعة الفتن التي نعيشها قبل خروجه ، وذلك لارتباط الفتن بفتنة الدجال ؛ لذا لا بد أن يكون بعض ما نلابسه من فتن يطابق بعض أوصاف فتنة الدجال .

المطلب الثالث : تعوذ النبي ﷺ من فتنة الدجال

- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : ﴿ أن النبي ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ . ﴾ (١)

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رضي الله عنه ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ . ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان برقم ٨٣٢٣ [البخاري مع الفتح (٣٧١/٢)]

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٠٧ [البخاري مع الفتح (٢٣٩/٨)]

- عَنْ مُصْعَب كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَعْنِي فِتْنَةَ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. ﴾ (١)

- عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ : ﴿ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِيذُ فِي صَلَاتِهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ . ﴾ (٣)

أقول :

١- هذه الأحاديث برواياتها المتعددة تشير إلى أن النبي ﷺ قد جعل لفتنة الدجال نصيباً من استعاذته ، وفي هذا إشارة إلى عظم هذه الفتنة على وجه الخصوص ، وفيه إشارة إلى أن الاستجارة بالله سبحانه وتعالى من العظائم قبل وقوعها سبب في دفعها ، أو التقليل من أثرها ، والمعلوم أن الدعاء يدفع البلاء أو يخفف منه .

٢- يلحظ من بعض الأحاديث أنها دلت على سنة نبوية من سنن الصلاة وهي الاستعاذة من عظائم أربع ابتدأها النبي ﷺ بالتدريج ، وجعل أقربها من الإنسان فتنة المسيح الدجال التي يمكن أن يعيش الإنسان في غمرتها فجأة ، واختيار النبي ﷺ لذكر هذه الاستعاذة في خاتمة الصلاة يتناسب مع خطر هذه العظائم الأربعة من ضمنها فتنة الدجال ، فالصلاة صلة بين العبد وربه ، والأصل فيها أن تكون سبب نجاة لصاحبها مما يستقبله من عظائم ، فبدأ بالاستعاذة بأعظم الأمور وبأبعدها عن المؤمن وهي النار ثم تدرج في العظائم إلى أن انتهى إلى فتنة المسيح

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٦٥ [فتح الباري (١٧٨/١١)]

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٢٩ [فتح الباري (٩٧/١٣)]

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز برقم ١٣٧٧ [البخاري مع الفتح (٢٨٤/٣)]

الدجال ، وفي ذلك دلالة واضحة على أن النجاة من هذه الأمور الأربعة فوز وفلاح لصاحبها ، وفيها أيضاً إشارة إلى أن أعظم فتن الدنيا هي فتنة المسيح الدجال ، وإلا لو كان غيرها لذكره النبي ﷺ .

- عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال : ﴿ مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن فتنة الدجال لا تعدو كونها ممحصة أو محصِّلة لما في القلوب قبل أن تأتي ؛ لذا الذي يسلم من الفتن قبلها سيسلم منها ، والذي يقع فريسة للفتن قبلها لا محالة سيكون من أهل الوقوع بها ؛ وهذا هو وجه مشابهتها لفتنة القبور ، فالمعلوم أن المؤمن إذا عرضت عليه فتنة القبر ينجو منها وإذا سئل أجاب بما فيه نجاته ، أما المنافق أو المرتاب أو من لبسته الفتن في الدنيا ، فيحرم من الإجابة . وبالتالي من لم تحصده فتنة الدجال حصدته فتنة المحيا والممات أو فتنة القبور ، والعبرة بما كان عليه الإنسان قبل وقوع هذه الفتن ، فليحذر المؤمن .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء برقم ١٨٤ [فتح الباري (١/ ٣٤٦)]

المبحث الثاني
أوصاف الدجال ، وعلامات خروجه ومنشأ فتنته وطبيعة أتباعه

المطلب الأول : مجمل أوصاف الدجال

- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ . ﴾ (١)

وفي رواية مسلم : ﴿ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر أَيْ كَافِرٌ . ﴾ (٢)

وفي رواية أخرى : ﴿ الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ثُمَّ تَهَجَّاهَا ك ف ر يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ . ﴾ (٣)

- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ .. وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ . ﴾ (٤)

شرح الغريب :

ظفرة : جلدة تغشى البصر ، أو لحمة تنبت عند مآقي العيون .

- عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى جُفَالُ الشَّعَرِ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ . ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٣١

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٣ (١٠٢) [مسلم بشرح النووي (٢٥٣/٩)]

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٣ (١٠٣) [مسلم بشرح النووي (٢٥٣/٩)]

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٤ (١٠٥) [مسلم بشرح النووي (٢٥٣/٩)] ؛ وأحمد برقم ٢٣٣٤١ [المسند (٤٥١/٥)]

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٤ (١٠٤) [مسلم بشرح النووي (٢٥٣/٩)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧١ [السنن (١٣٥٣/٢)] ؛ وأحمد برقم ٢٣٣١٢ [المسند (٤٤٨/٥)]

شرح الغريب :

جفال : كثير

📖 - عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لَا تَعْقِلُوا إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ أَعْوَرُ مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلَا حَجْرَاءَ فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

أفحج : الفحج هو التباعد بين الساقين . حجراء : الغائرة

جعد : قصير متكتر الجسم ، ذو شعر خشن . ألبس : اختلط واستشكل

مطموس العين : ممسوح العين

📖 - عن عَبْد اللَّهِ رضي الله عنهما قال : ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَجِلُ الشَّعَرِ يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالُوا هَذَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطِطًا أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنٍ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

قطط : شديد جعودة الشعر أدم : أسمر

اللمة : ما وصل من الشعر إلى شحمة الأذن

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٨ [عون المعبود (٤٤٣/١١)] . قال المنذري : في إسناده بقية بن الوليد ، وفيه مقال [عون المعبود (٤٤٥/١١)] قال المقدسي : إسناده حسن [الأحاديث المختارة (٢٦٥/٨)]

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٤٠ [فتح الباري (٥٥٠/٦)]

وفي رواية : ﴿ .. ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ جَسِيمٌ أَحْمَرُ جَعْدُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ الْعَيْنِ كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ قَالُوا هَذَا الدَّجَّالُ أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

عنبة طافية : هي الحبة التي خرجت عن حد نبات أخواتها في العنقود ونتأت .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ .. وَأَمَّا مَسِيحُ الضَّلَالَةِ فَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ أَجْلَى الْجَبْهَةِ عَرِيضُ النَّحْرِ فِيهِ دَفَأٌ كَأَنَّهُ قَطَنُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَضُرُّنِي شَبَهُهُ قَالَ لَا أَنْتَ امْرُؤٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ امْرُؤٌ كَافِرٌ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

دفأ : انحناء

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قصة الإسراء قَالَ : .. وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامٍ وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّجَّالِ فَقَالَ أَقْمَرُ هِجَانًا - وفي رواية أزهر - هِجَانًا إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ. ﴾ (٣)

شرح الغريب :

أقمر : شديد البياض   هجان : أبيض

- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لَا تَعْقِلُوا إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ أَعْوَرُ

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٢٨ [فتح الباري (١٣/٩٧)]

(٢) أخرجه احمد في باقي مسند المكثرين برقم ٧٩٢٤ [المسند (٢/٣٨٩)]

(٣) أخرجه أحمد في مسند بني هاشم برقم ٣٥٤٥ [المسند (١/٤٨٥)] ، وابن حبان في التاريخ برقم ٦٧٩٦ ، وقال محققه : صحيح [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٥/ ٢٠٧)] والحديث أيضاً له شواهد في الصحيح عند البخاري ومسلم

مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلَا حَجْرَاءَ فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ . ﴾ (١)

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى وَعَيْنُهُ الْأُخْرَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ . ﴾ (٢)

- عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ أَنَّهُ ذَكَرَ الدَّجَّالَ عِنْدَهُ فَقَالَ عَيْنُهُ خَضْرَاءُ كَالزُّجَاجَةِ . ﴾ (٣)

- عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ بَعْدِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ حُبُكٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .. ﴾ (٤)

شرح الغريب :

حبك : جعد

مجمل أوصاف الدجال

اللون :

أزهر ؛ أي أبيض مشرب بالحمرة ، وفي بعض الأحاديث إشارة إلى شدة بياضه (**أقمر هجان**) وبعض الأحاديث أشارت إلى أنه أحمر ، واللون الأحمر يكون لشديد البياض ، والمعاني متقاربة .

الطول :

قصير ، وإذا مشى تتباعد ساقاه (أفحج) ، أي هو معيب في مشيه ، مع انحناء

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٨ [عون المعبود (١١/٤٤٣)] ؛ وأحمد في باقي مسند البصريين برقم ٢٢٨٣١ [المسند (٥/٣٨١)]

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٢٣ [فتح الباري (١٣/٩٦)] ، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة برقم ٦٠٣٤ ، واللفظ له

(٣) أخرجه احمد في مسند الأنصار برقم ٢١٢٠٤ [المسند (٥/١٥٠)] وابن حبان في التاريخ برقم ٦٧٩٥ ، وقال محققه : إسناده صحيح [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان [١٥/٢٠٦)]

(٤) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٣٢٢١ [المسند (٥/٤٣٥)]

في أعلى جسمه (الدفاء) .

الجســـم :

ممتلئ مكتنز اللحم ، والصدر واسع ضخم ؛ إذا الجسم ضخم بالرغم من قصر الدجال ، وعليه يحمل قول تميم في شأن الدجال أنه أعظم إنسان ؛ أي في الضخامة .

الوجـــه :

معالم وجه الدجال مشوهة للغاية ، فالعينان معيبتان : إحداها ممسوحة تماماً أو مطموسة تماما ، فلا هي بارزة ولا هي غائرة ، والعين الأخرى خارجة عن حدها بشكل قبيح كأنها حبة عنب خرجت عن عنقودها ، وهذه العين خضراء معيبة ؛ إذا للدجال عين واحدة معيبة جداً خارجة عن محجرها أما الأخرى فهي مطموسة تماماً ؛ أي لا يوجد عين ولا حاجب .

يضاف إلى ذلك هناك جلدة غليظة بارزة نبتت في مآقي عينه ، وهذا الجلدة فيها تدلي فوق العين هكذا مثل عرف الديك .

أما جبهته فواسعة ، ومكتوب بين عينيه (كفر) أو (ك ف ر) حسب تعدد الروايات ، وهذه الكتابة حقيقية ، ويلزم من ذلك أنها كالوشم أو كالوحم في اللحم وهذا أيضاً إضافة في تشوه الوجه .

أما الشعر فهو شديد الخشونة والتجعد كثير ومتفرق و قائم خلف الدجال كأنه أغصان شجر أو لفافات ملتوية وجاء في أوصاف رأس الدجال بأنها أشبه بالأصلة ، والأصلة هي الحية العظيمة ، والعرب تشبه الرأس الصغير الكثير الحركة برأس الحية . .

ويلحظ من الوصف السابق أننا أشبه ما نكون أمام سلالة مهجنة فاللون الأبيض أو الأحمر والعين الخضراء أشبه بالسلالة الأوروبية ، والشعر شديد الخشونة والتجعد أشبه بسلالة الزنوج ، و قصر القامة أشبه بسلالة وسط وشرق آسيا .

آراء العلماء في الكتابة الموجودة بين عيني الدجال :

يتضح من الأحاديث السابقة أن الدجال مكتوب بين عينيه كلمة (كفر) وهذه

الكلمة لا يراها أو يقرؤها إلا المؤمن ، وفي رواية كل من كره عمل الدجال وكفر به ، وهذا يصدق على المؤمن ، و سواء كان المؤمن يعرف القراءة والكتابة أم لا ، بينما يحرم من رؤيتها الكافر أو الشقي المتابع له ، فما هي حقيقة هذه الكتابة : هل هي معنوية غير ظاهرة ؟ ويؤيد ذلك أن المؤمن يقرؤها وهو لا يعرف الكتابة ، أم هي ظاهرة حقيقية في جلد الدجال ؟

يقول النووي : « الصحيح الذي عليه المحققون أن الكتابة المذكورة حقيقية جعلها الله علامة قاطعة بكذب الدجال ، فيظهر الله المؤمن عليها ، ويخفيها على من أراد شقاوته . » (١) ونقل عياض عن البعض أنه يرى أن الكتابة معنوية أو مجازية ، واستدل هؤلاء بما ورد بأن المسلم يقرؤها وهو لا يعرف الكتابة بينما لا يقرؤها أو يراها الكافر وهو يعرف الكتابة فدل ذلك على أن هذه الكتابة شيئاً مجازياً ليس له رسم ظاهر في جلد الدجال . وهذا المذهب ضعيف .

ويجاب على ما ذكروا بأن الكتابة حقيقية ، ولا يلزم من قول النبي ﷺ بأنه يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب أن تكون الكتابة غير حقيقية ، بل يقدر الله على غير الكاتب علم الإدراك الذي به يستبين المكتوب بين عيني الدجال بعين البصيرة ، ويحرم الكافر الإدراك في البصر لهذه الكلمة مع وجودها ، وذلك أن الإدراك بالبصر لا يكون إلا وفق المشيئة الإلهية ، والله سبحانه وتعالى يقدر ما يشاء ، وقد خرج النبي ﷺ بين ظهراني الكفار في الهجرة ، وعلى مرأى من عيوهم ، ولكن وقعت الغشاوة على عيوهم فلم يروه، وزمن الدجال زمن الخوارق؛ لذا يخص المؤمن بالقدرة على رؤية هذه الكلمة دون غيره (٢)

---

(١) النووي : شرح مسلم (٩/٤٥٢)

(٢) راجع : النووي : شرح صحيح مسلم (٩/٤٥٢) ؛ عون المعبود (١١/٤٤١)

المطلب الثاني : علامات خروج الدجال

يمكن إعطاء تصور إجمالي عن علامات خروج الدجال والتي تحدد لنا أيضاً زمانه وذلك على النحو التالي :

العلامة الأولى : فتح بلاد الروم (القسطنطينية وروميه) :

📖 - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَوْ مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا أَوْ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ يَعْنِي مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ . ﴾ (١)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ بَيْنَ الْمَلْحَمَةِ وَفَتْحِ الْمَدِينَةِ سِتُّ سِنِينَ وَيَخْرُجُ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ فِي السَّابِعَةِ . ﴾ (٢)

📖 - عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ الْمَلْحَمَةُ الْعُظْمَى وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ (٣)

شرح :

الحديث الأول يشير إلى أن المدة بين الملحمة وخروج الدجال سبع سنوات ، والحديث الثاني يشير إلى أن المدة سبعة أشهر ، والحديث الأول الذي يدل على أنها سبع سنوات أصح كما صرح أبو داود مخرج الحديث .

وحاول بعض العلماء أن يخرج من إشكال الجمع بين الحديثين - وكلامه محتمل - فقال بأن الحديث الأول يدل على أن المدة من بداية الملحمة الأولى إلى خروج الدجال

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٧٣ [عون المعبود (٤٠٠/١١)] وأحمد في مسند الأنصار برقم ٢٢٠٨٤ [المسند (٢٧٥/٥)]

(٢)أخرجه أبو داود في الملاحم ، برقم ٤٢٧٥ ، و قال أبو داود : هذا الحديث أصح من حديث عيسى . يقصد حديث معاذ الذي يليه [عون المعبود (٤٠٢/١١)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٩٣ [السنن (١٣٧٠/٢)]

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٣٩ وقال : هذا حديث حسن غريب [٤٩٦/٦] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٩٢ [السنن ٢/ ١٣٧٠] ؛ وأحمد في مسند الأنصار برقم ٢٢١٠٦ [المسند (٢٧٨/٥)]

سبع سنوات ، أما الحديث الثاني فدل على أن ما بين الملحمة وفتح القسطنطينية وخروج الدجال سبعة أشهر فتكون مدة الملحمة العظمى ست سنوات ، وبينها وبين فتح القسطنطينية وخروج الدجال سبعة أشهر من السنة السابعة . (١)

وهذا الكلام مع أنه محتمل ، إلا إنني أراه بعيداً ؛ لأن دلالات أحاديث الملحمة العظمى لا تشير إلى هذه المدة الطويلة ؛ لذا أرى أن نعدل إلى الترجيح هنا بين الروايتين باعتماد أصحها سنداً وأقواها في دلالة المتن ، وأقربها للواقع وهي مدة السبع سنوات .

- عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَتُقَاتِلُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ثُمَّ تُقَاتِلُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ثُمَّ تُقَاتِلُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ . » قَالَ جَابِرٌ : فَمَا يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ » (٢)

شرح :

الكلام هنا يحتمل أن المراد به ما وقع في العصر الأول في عهد الصحابة من قتال في جزيرة العرب والروم ، ويحتمل أن يراد به مرحلة البعث الثاني للأمة أو العالمية الثانية لها في زمن المهدي ﷺ ،والاحتمال الثاني في ظني أقوى ودلالات الأحاديث الأخرى تعززه .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ ، وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ : قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَقَ ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ ، قَالُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا ، قَالَ ثَوْرٌ : لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَيُفَرَّجُ لَهُمْ ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ فَقَالَ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ

---

(١) انظر عون المعبود (١١/٤٤٥)

(٢) أخرجه مسلم في الفتن ، [مسلم بشرح النووي (١٨/٢٦)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٩١ ، [السنن (٢/ ١٣٧٠)] وكلام جابر عند ابن ماجة ،وعند مسلم : قال نافع : يا جابر : لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم .

فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ . ﴾ (١)

أقول :

الحديث يشير إلى فتح مدينة القسطنطينية – كما صرحت بذلك أحاديث أخرى – وأنها تفتح بالتكبير مما يدل على أن أهل الحق في آخر الزمان يؤيدون بنصرات غيبية ، وهذا لا يكون إلا مع طائفة من الربانيين أهل اليقين والصبر ممن أخلصوا لله ، والملاحظ من الحديث أن الذي سيفتتحها من المسلمين هم من بني إسحق .

يقول النووي : « قال القاضي : كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحق ، قال : قال بعضهم : المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه ؛ لأنه إنما أراد العرب. » (٢)

وفي رأيي أن كونهم من بني إسحق أثبت مما نقله القاضي عن البعض بأنهم من بني إسماعيل ، والغريب أن هناك طائفة ضخمة من المسلمين في خراسان تزعم أنها من بني إسحق ، فقد يكونون هم المقصودون في الحديث ، وكذلك معلوم أن أهل خراسان هم من أنصار المهدي كما دلت الأحاديث ؛ لذا قد يكون غالب هذا الجيش منهم .

- جاء في حديث حفصة لأخيها ابن عمر عندما تعرض لابن صياد : ﴿ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :إِنَّمَا يَخْرُجُ - أي الدجال – مِنْ غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا . ﴾ (٣)

شرح :

هذا الأثر سبق أن ذكرته كاملاً مبرزاً مناسبة ذكره وهو ما حصل من ابن عمر رضي الله عنهما حينما أغضب ابن صياد وضربه ، فذكرت حفص رضي الله عنها مقولة النبي ﷺ بأن الدجال يخرج من غضبة يغضبها ، ومن تتبع سياق الأحداث التي ذكرتها في فصل المهدي علم أسباب هذه الغضبة ، والتي بدأت بالحرب التحالفية التي تم من

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٢٠ [مسلم بشرح النووي (٢٣٧/٩)]

(٢)النووي : شرح مسلم (٢٤٢/٩)

(٣) سبق تخريجه

خلالها القضاء على اليهود في فلسطين ، وهي مرحلة إساءة وجههم المذكورة في سورة الإسراء ، والمعلوم أن اليهود هم الذراع الأيمن للدجال .

ثم الملحمة العظمى التي تم فيها القضاء على شوكة النصارى وهم الذراع الأيسر للدجال ، ثم كان الهجوم على القسطنطينية ، وغزو الروم في عقر دارهم ، ففي ظل هذا الأحداث هاج غضب الدجال غضباً مؤذناً بخروجه وفق قدر الله سبحانه وتعالى ، وكأنه بركان يتململ مع الأحداث إلى أن دانت ساعة الصفر التي قدرها الله سبحانه وتعالى .

العلامة الثانية : حصول القحط .

📖 - عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها قَالَتْ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ : ﴿ إِذَا كَانَ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ بِثَلَاثِ سِنِينَ حَبَسَتِ السَّمَاءُ ثُلُثَ قَطْرِهَا، وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا ، فَإِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الثَّانِيَةُ ، حَبَسَتِ السَّمَاءُ ثُلُثَيْ قَطْرِهَا ، وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا ، فَإِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الثَّالِثَةُ حَبَسَتِ السَّمَاءُ قَطْرَهَا كُلَّهُ ، وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ ، فَلَا يَبْقَى ذُو خُفٍّ وَلَا ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَ.. ﴾ (١)

أقول :

الحديث يشير إلى تغيرات مناخية ملحوظة على مدى ثلاث سنوات ، بما يترتب عليه المحل والمجاعة ، وهذا يتناسب مع خروج الدجال وفتنته ، وهذه المرحلة تكون فيما بين الملحمة العظمى وفتح القسطنطينية ، حيث تبدأ الإرهاصات المعززة لفتنة الدجال بالظهور بشكل تدريجي .

والمعلوم أن هذه المرحلة هي مرحلة بناء العالمية الثانية للإسلام ، ويتضح من الآثار أن عملية البناء بعد بعض الانتصارات تتمخض عن بعض الشدائد من باب الابتلاء ، وهي أشبه بمرحلة طالوت التي نال الجيش فيها جهده وبلغ فيه العطش مداه قبل أن يبلغ النهر ليكتمل الابتلاء بالتضييق عليه بأمر رباني يحدد مستوى الشرب منه من باب الاختبار .

📖 - جاء في حديث تميم وسؤال الدجال لهم حيث قال : ﴿ أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسند القبائل برقم ٢٧٦٣٧ بإسناد لا بأس به يحتج بمثله [المسند (٤٧٦/٦)] .

بَيْسَانَ قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ ! قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ. قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ قُلْنَا عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ قَالَ هَلْ فِيهَا مَاءٌ قَالُوا هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ قَالَ أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ قَالَ أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ قَالُوا عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ قَالَ هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ قُلْنَا لَهُ نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا . ﴾ (١)

أقول :

هذا الحديث يشير إلى بعض علامات خروج الدجال ، وعامتها في بلاد فلسطين ، ولعل هذه العلامات لها علاقة بالجفاف الذي سيحل بالأرض حتى يستنفد ماء البحيرات كبحيرة طبرية ، ويستنفد المياه الجوفية كعين زغر ، ويؤثر على أكثر النبات تحملاً كنخل بيسان ، وذكر هذه العلامات على وجه الخصوص لتميم ﷺ ومن معه لأهم من أهل هذه الأماكن ، والحديث الذي سبقه يشير إلى أن حالة القحط تكون عامة .

كذلك هذه العلامات يعاينها أهل الشام على وجه الخصوص ، وهم في تلك المرحلة يمثلون بيضة المسلمين ورمز قوهم وعقر دارهم كما بينت في فصل المهدي .

العلامة الثالثة : فتنة الدهيماء .

📖 - جاء في حديث الفتن العظام عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وفيه عن رسول الله ﷺ : ﴿ ... ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً ، فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ . ﴾ (٢)

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ، وأحمد في مسند المكثرين برقم ٦١٧٣ [المسند (٢/ ١٨١)] والحاكم في الفتن برقم ٨٤٤١ ، و قال عنه صحيح الإسناد وأقره الذهبي [المستدرك (٥١٣/٤)]

أقول :

الحديث يشير إلى فتنة الدهيماء ، وهي الفتنة السوداء المظلمة التي تكون بين يدي خروج الدجال وعلامة من علاماته والموطئة لخروجه ، وهذه الفتنة تتميز عن غيرها من الفتن بأنها أشبه الفتن بفتنة الدجال مع فارق في الدرجة ، ولئن كان حظ فتنة الدجال في معيار الفتن هو ١٠٠٪ فإن حظ فتنة الدهيماء يكون ٩٠٪ ؛ لذا من أراد أن يعرف حقيقة هذه الفتنة ومعالمها فليدرس فتنة الدجال وحبائله واتباعه ، فإنه سيعيش مع نفس الوصف من الدجل والتلبيس على الناس والتضييق على عباد الله ، وسيكون أتباع هذه الفتنة وأنصارها هم طليعة أتباع فتنة الدجال ، طبعاً مع مراعاة الفارق في الدرجة بين الفتنتين .

وسبق أن بينت علاقة هذه الفتنة في نهايتها بحسر الفرات عن جبل من ذهب ، وكذلك علاقتها بآية الدخان وعلاقتها بخروج المهدي ، وهذه الأحداث مترابطة ومتصلة ومتشابكة ، فراجع هذا التفصيل في مواضعه .

العلامة الرابعة : وقوع أمور عظيمة قبل خروج الدجال .

📖 - عن سمرة بن جندب ﵁ عن رسول الله ﷺ في خطبته بعد كسوف الشمس ، حيث جاء فيها : ﴿ وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ كَذَّابًا آخِرُهُمْ الْأَعْوَرُ الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى ... وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا وَحَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَلَى مَرَاتِبِهَا .وفي رواية الحاكم وابن أبي شيبة:عن مراسيها ﴾ (١)

---

(١) أخرجه أحمد في أول مسند البصريين برقم ٢٠١٩٩ [المسند (٢٢/٥)] وابن أبي شيبة برقم ٣٧٥١٣ [المصنف (٤٩٦/٧)] ؛ والبيهقي برقم ٦١٥٤ [السنن الكبرى (٣٣٩/٣)] ؛ والطبراني في الكبير برقم ٦٧٩٩ [المعجم الكبير (١٩٢/٧)] ؛ والحاكم برقم ١٢٣٠ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [المستدرك ، (٤٧٨/١)] قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ثعلبة بن عباد ، وثقه ابن حبان [مجمع الزوائد (٣٤٢/٧)]

شرح :

هذا الحديث سبق شرحه في الحدث الكوني والشاهد فيه هنا هو أن خروج الدجال يسبقه بعض الأمور العظيمة التي تتأثر بها الأمة كلها ، بل يتحيرون متسائلين : هل هذه العظائم لها ذكر في هدي النبي ﷺ ؟ وهذا يشير إلى مدى خطورة ما سيقع والذي من بينها زوال الجبال ، وقد فصلت القول في تصوراتي لهذه العظائم في الحدث الكوني ، فراجعه ، وفي ظني أن إرهاصات هذه العظائم قد بدأت في عصرنا ، ونسأل الله السلامة .

العلامة الخامسة : اشتداد الفساد والجهل والبغضاء في الأرض .

📖 - عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : « لَمَّا فُتِحَتْ إِصْطَخْرُ نَادَى مُنَادٍ أَلَا إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ قَالَ فَلَقِيَهُمُ الصَّعْبُ بْنُ جَثَّامَةَ قَالَ : فَقَالَ : لَوْلَا مَا تَقُولُونَ لَأَخْبَرْتُكُمْ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَذْهَلَ النَّاسُ عَنْ ذِكْرِهِ وَحَتَّى تَتْرُكَ الْأَئِمَّةُ ذِكْرَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ . ﴾ (١)

📖 - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ .. ﴾ (٢)

📖 - عن أبي الطفيل قال : « كنت بالكوفة فقيل خرج الدجال قال فأتينا على حذيفة بن أسيد وهو يحدث فقلت : هذا الدجال قد خرج ! فقال : اجلس فجلست فأتى علي العريف فقال : هذا الدجال قد خرج وأهل الكوفة يطاعنونه ! قال : اجلس فجلست فنودي أنها كذبة صباغ . قال فقلنا : يا أبا سريحة ما أجلستنا إلا

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المدنيين ١٦٦٧٢ [المسند (٨٩/٤)] ؛ قال الهيثمي : رواه عبدالله بن أحمد من رواية بقية عن صفوان بن عمرو وهي صحيحة كما قال ابن معين وبقية رجاله ثقات [مجمع الزوائد (٣٣٥/٧)]

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٤٩٦٥ [المسند (٤٥٠/٣)] ، والحاكم في الفتن ، وقال : هو على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي [المستدرك ٥٣٠/٤)]

لأمر ، فحدثنا قال : إن الدجال لو خرج في زمانكم لرمته الصبيان بالخذف ولكن الدجال يخرج في بغض من الناس وخفة من الدين وسوء ذات بين .. ﴾ (١)

شرح :

- هذه الروايات تشير إلى طبيعة المرحلة التي يخرج فيها الدجال ، وهي انتشار الجهل وضعف الوازع الديني وانتشار البغضاء بين الناس ، وذهول الناس عن ذكر الدجال حتى الأئمة يتركون ذكره على المنابر ، أي أن مرحلة خروج الدجال هي حالة مطبقة من الغفلة والجهل الممزوجة بالفرقة والبغضاء بين الناس ، وهذا التوصيف لهذه المرحلة يفضي إلى إشكال واضح وهو القول بأن هذه المرحلة بهذا التوصيف لا تتناسب والقول بأن الدجال يخرج في مرحلة المهدي ﷺ ، أو في مرحلة الانتصارات العظمى للطائفة المنصورة في آخر الزمان لأن الطائفة المنصورة أو الفئة المؤمنة في ذلك الزمان تكون على بينة من أمر الله سبحانه وتعالى ؛ خاصة أنه قد ظهرت معالم المرحلة بصورة جلية لديهم ؛ لذا يتصور توقعهم لخروج الدجال في كل لحظة ، ويتصور الإكثار من ذكره لا العكس ، وهذه النتيجة اللازمة عن طبيعة المرحلة تتعارض كلياً مع ما وصفته الآثار السابقة .

وهذا الإشكال يمكن الإجابة عليه بالقول أن المراد بهذه الآثار عموم الناس وليس الطائفة المنصورة التي يكون كل جهدها في الشام ، بل يراد بها أهل المشرق على وجه العموم ، فتلك الساحة كما فُهم من خلال فصل المهدي تكون خالية حتى من بعض الطائفة المنصورة التي كانت متواجدة هناك ثم توجهت لمركز الصراع نحو الشام وإيلياء ، وخلفت وراءها هناك كل من حصدتهم فتنة الدهيماء ، وهؤلاء يتصور فيهم خفة الدين وانتشار البغضاء و إطباق الجهل وإدبار العلم ، والذهول عن ذكر الدجال ؛ إذا هذه الآثار تتكلم عن عموم الحال الذي يستثنى منه أهل الطائفة المنصورة المتركزة في ذلك الوقت فقط في الشام من الدرجة الأولى وفي الحرمين من الدرجة الثانية وهذا صرحت به بعض

(١) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦١٢ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي ، والحديث موقوف يأخذ حكم المرفوع [المستدرك (٥٧٤/٤)]

الأحاديث التي تبين طبيعة تحركات الدجال وتوجهه نحو مكة والمدينة ، فيحفظها الله بالملائكة ثم يتوجه إلى الشام ، وفي بعض الآثار تعجبت الصحابية أم شريك بنت أبي العكر من تلك الهجمة الشرسة وقالت : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ » فالمراد بالعرب هنا أهل الإسلام القائمين بأمر الله ، وقد بين النبي أن أكثرهم في بيت المقدس ، وهم قلة قياساً على عموم الأمة .

لذا الأحاديث السابقة تشير إلى عموم حال الأمة أو الناس ، يستثنى منهم القليل وهم الطائفة المنصورة في الشام فقط .

خلاصة القول في زمان خروج الدجال وعلاماته

١- أول علامات خروج الدجال فتنة الدهيماء التي تعصف بكل الأرض بما يشبه فتنة الدجال .

٢- تنتهي فتنة الدهيماء بالتمييز بين أهل الإيمان وأهل النفاق ، وأهل الإيمان ييسر لهم بتأييدات ربانية إقامة دولة الإسلام الثانية ، ويتصور هذا في زمن المهدي ﷺ ، فتجيش الجيوش ضده بما يمهد للملحمة العظمى .

٣- يتم القضاء على شوكة الروم في الملحمة العظمى، وتكون عاصمة المسلمين بيت المقدس .

٤- يتحرك المسلمون نحو القسطنطينية ليفتتحوها ، وذلك يكون بعد ست سنوات من بداية الملحمة العظمى ؛ حيث لا نعلم كم تستمر .

٥- في تلك الأثناء تطرأ تغيرات مناخية ملحوظة تستمر من السنة الرابعة من بداية الملحمة إلى السابعة .

٦- انتصار المسلمين في الملحمة العظمى وتوجههم لفتح القسطنطينية يمهد للمسلمين السيطرة على العالم كله و إقرار الحق والعدل في جميع الأرض فيغضب الدجال ، فيخرج في أثر غضبته لكي يقطع على المسلمين هدفهم المنشود .

المطلب الثالث : مكان خروج الدجال

- عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ الدَّجَّالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا خُرَاسَانُ يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ. ﴾(١)

شرح الغريب :

خراسان : بلاد معروفة واسعة بين بلاد ما وراء النهر وبلدان العراق ، وهي تشمل حالياً جزء كبير من شرق إيران وأفغانستان و وأجزاء من بعض الجمهوريات الإسلامية التي كانت جزء من الاتحاد السوفيتي سابقاً مثل أوزباكستان ، وطاجيكستان .

وجوههم كالمجان المطرقة : المجان هي التروس والمطرقة أي التي عليها جلد ملصق على ظهرها ، وهذا الوصف للوجوه موجود في طائفة الترك (التتر) والأوزبك .

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ التِّيجَانُ. ﴾ (٢)

- وجاء من كلام رسول الله ﷺ تعقيباً على ما أخبر به تميم : ﴿ أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ . ﴾ (٣)

أقول :

قول النبي ﷺ بعد ذكر المشرق كلمة (ما هو) لا يراد بها النفي ، بل هي زائدة ، والتكرار هنا للتأكيد على أن الدجال يخرج من جهة المشرق .

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٣٨ ، وقال عنه : حسن غريب [تحفة الأحوذي (٤٩٥/٦)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٢ [السنن (١٣٥٣/٢)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٤ [مسلم بشرح النووي (٢٧٦/٩)] ؛ وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٢٩٣١ واللفظ له .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة في حديث طويل برقم ٢٩٤٢ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٧١)]

📖 - عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ يخرج الدجال من ها هنا ، وأشار نحو المشرق . ﴾ (١)

قال ابن حبان بعد إخراجه لهذا الحديث : « قول أبي هريرة (وأشار نحو المشرق) أراد به البحرين لأن البحرين مشرق المدينة وخروج الدجال يكون من جزيرة من جزائرها لا من خراسان والدليل على صحة هذا أنه موثق في جزيرة من جزائر البحر على ما أخبر تميم الداري، وليس بخراسان بحر ولا جزيرة.» (٢)

شرح :

اعتبار ابن حبان أن الدجال يخرج من البحرين يتعارض مع ما ثبت في نصوص كثيرة من أن المقصد بجهة المشرق خراسان أو أصبهان ، و استدلاله بقصة تميم ليس في محله ؛ إذ إن المقصود بخروج الدجال مبدأ فتنته ، وليس مكان ميلاده أو مكان بقائه في الجزيرة ، وبالتالي ليس هناك تعارض بين حديث تميم والأحاديث التي تحدد مكان خروجه ، ويكون المقصود أن الدجال موثق حالياً في إحدى الجزر في البحر ، وعندما يأتي وعد الله يتحرك للمنطقة التي سيخرج منها بفتنته ويتحرك منها أتباعه ؛ كذلك القول أن الدجال في إحدى جزائر الخليج العربي قرب البحرين ليس في محله كما بينت سابقاً .

📖 - عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ : قال رَسُولُ ﷺ عن الدَّجَّال : ﴿ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

خلة بين الشام والعراق : أي خارج قبالة الشام والعراق ؛ أو في موضع بين الشام والعراق ، جاء في بعض الروايات للحديث حلة بالحاء المهملة ، وهي نفس المعنى ،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ٦٧٩٢ ، قال محققه : الحديث حسن [ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٥/ ٢٠٣)] ومتن الحديث له شواهد في الصحيح

(٢) صحيح ابن حبان (١٥/ ٢٠٣)

(٣) أخرجه مسلم في الفتن في حديث طويل برقم ٢٩٣٧ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٥٥)]

وجاء في كتاب العين أن الحلة موضع حزن وصخور ، وقد يراد به موضع مخصوص في بادية الشام من ناحية العراق ، والراجح أنها خلة ، ويقصد بها أنه خارج بين البلدين دون تحديد لجهة مقصودة .

خلاصة القول في مكان خروج الدجال

١- يتضح من الأحاديث السابقة أن الدجال يخرج من ناحية الشرق ، وهذا مما لا خلاف فيه ، إنما الخلاف ينصب على تعين جهة مخصوصة لخروجه .

٢- يتضح من بعض الأحاديث أنها عينت أن خروج الدجال من ناحية خراسان ، وهو إقليم كبير يتوزع حاليا في عدة دول ، وجاء في بعضها أنه يخرج من يهودية أصبهان ، وأصبهان في إيران ، لكن الرواية الراجحة أنه يتبعه من أصبهان سبعون ألفاً من يهودها ، و وفقاً للرواية الراجحة لا يلزم من إتباع يهود أصبهان للدجال أنه يخرج منها ، وعلى العموم تعتبر أصبهان قريبة أو ضمن إقليم خراسان ؛ لذا يكون ذكر أصبهان هنا من باب التخصيص .

٣- يتضح من شكل أتباع الدجال أن بداية خروجه سيكون قريباً من القومية الأوزبكية على وجه الخصوص ، وبالتالي إما يكون في شمال شرق إيران أو يكون في بداية خروجه في دولة أوزباكستان أو ما جاورها .

٤- جاء في بعض الروايات الصحيحة أن الدجال خارج في خلة بين الشام والعراق ، ولا تعارض بين هذا الحديث والأحاديث الأخرى ؛ إذ قد يكون له عدة خرجات بدايتها في أصبهان وخراسان ، ثم ينتقل ناحية الغرب فيتركز فيما بين العراق والشام .

المطلب الرابع : أتباع الدجال

أولا: اليهــود .

- عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمْ الطَّيَالِسَةُ ﴾ (١)

شرح الغريب :

الطيالسة : الطيلسان كساء غليظ مخطط .

شرح :

يلحظ من الأحاديث الصريحة بأن الدجال يتبعه من يهود أصبهان فقط سبعون ألفاً ، و هذا الحديث لا يدل على اقتصار أتباع الدجال من اليهود على السبعين ، بل هؤلاء هم شرارة الدجال الأولى في أول مخرجه ، وإذا كان أتباعه من أصبهان سبعين ألفاً ، فيتصور أن يكون أتباعه من غيرها أكثر بكثير ، وقد ورد في بعض الآثار أن عامة أتباع الدجال يكون من اليهود .

ومن تعرف على العقلية اليهودية يجد أنها أنسب العقليات إتباعاً للدجال ونصرة لفتنته ، فاليهود من بداية ديانتهم ، وهم يرفضون إلهاً يغيب عن أعينهم ؛ لذا طلبوا من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، وهم الذين طلبوا من موسى عليه السلام بعد نجاتهم من فرعون وخروجهم من البحر أن يجعل لهم آلهة يعكفون عليها ، وهم الذين وقعوا مباشرة في فتنة العجل بعد غياب قصير لموسى عليه السلام ، فهذه الوقائع في زمن نبيهم تدل على عقلية منحرفة مريضة لا تؤمن إلا في المشاهدات ، يضاف إلى ذلك أنها عقلية شهوانية مادية لا تترعرع إلا في ظلها ، ولا تؤمن إلا بها ، يضاف إلى ذلك أنها أكثر ملة في الملل حرفت في تعاليم الله سبحانه وتعالى وشوهت صورة الأنبياء ، بل تعدى الأمر إلى التجديف بالكفر صراحة بوصف الله سبحانه وتعالى بما لا يليق به .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٤ [مسلم بشرح النووي (٢٧٦/٩)]

فإذا أضفنا إلى ذلك أن اليهود ينتظرون مخلصاً لهم في آخر الزمان ، ويصفونه بأنه ملك السلام الذي بشروا به ، ناسب ذلك أن يكون مخلصهم هو الدجال بعينه ، وناسب ذلك أن يكون إلههم الذي كانت تتشوف نفوسهم إليه ؛ هذا الإله المادي الذي يرعى شهواتهم ، ويلاحق أهواءهم.

ثانياً : الفرق المارقة والخوارج .

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يَنْشَأُ نَشْءٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ قَالَ ابْنُ عُمَرَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، حَتَّى يَخْرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

تراقيهم : الترقوة العضم الذي بين أعلى الصدر والعاتق ، ويراد به هنا أن القرآن لا يصل إلى قلوبهم فيوعوه ، بل يقتصر على قراءة اللسان دون تعقل .

خرج قرن : أي ظهرت طائفة منهم .

- عن أبي برزة في حديث طويل عن الخوارج وفيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ كَأَنَّ هَذَا مِنْهُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ.﴾(٢)

شرح الغريب :

يمرقون : المروق الخروج سريعاً . **الرمية** : الهدف

سيماهم : أي علامتهم .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ١٧٤ ، وقال محققه : في الزوائد إسناده صحيح ، وقد احتج البخاري بجميع رواته [السنن (٦١/١)]

(٢) أخرجه النسائي في تحريم الدم [سنن النسائي (١٢٠/٧)] ؛ والحاكم برقم ٢٦٤٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم [المستدرك (١٦٠/٢)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد وفيه الأزرق بن قيس وثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٢٢٩/٦)]

شرح :

يتضح من الأحاديث السابقة أن بعض أتباع الدجال وشيعته هم بعض خوارج الأمة ، والحقيقة أن الخارجية تمثل عقلية منحرفة بمواصفات معينة أكثر ما هي جماعة معينة ، وقد بدأت ظاهرة الخارجية في زمن علي ﷺ ، وتم القضاء عليها ، إلا أنه لم يتم القضاء على العقلية المنحرفة التي تعتبر منبعاً للخوارج إلى زمن الدجال ، فالخارجية هي : وصف جامع لكل سفهاء الأحلام صغار الأسنان ممن لا يجدون في تعاليم الإسلام الحقة بغيتهم ، فيأخذون بظاهر الإسلام ، ويغلون في فهمه ويعمدون إلى دين الله فيؤولون النصوص ، ويعطلون ما شاءوا منها ، وينصبون أنفسهم للحرب على أهل الإسلام باسم الإسلام ، ويشهرون سيف التكفير في وجوههم ، وهذا وجه الخطر فيهم .

وهذه العقلية بهذه الأوصاف لم تقتصر على ظاهرة الخوارج في زمن علي ﷺ بل تشمل كل الفرق الضالة ، وكل الفرق الباطنية التي خرجت عن دين الله وتدعي بخروجها أنها تنصر هذا الدين ، والغاية التي تجمعها هو الاتفاق مع كل الملل حولها على مناصبة العداء للإسلام وأهله الصادقين من خلال نصوص الدين نفسه .

والملاحظ من الأحاديث أن أول أتباع الدجال من المارقين على الإسلام وخوارجه هم طائفة منهم من عراض الوجوه ، وقلنا هذا الوصف يتناسب مع العرقية الأوزبكية أو المغولية ، وهم أقرب الناس من الدجال عند خروجه من ناحية خراسان .

ثالثاً : أصحاب البدع والضلالات .

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا قَدَرَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُمْ وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِالدَّجَّالِ . ﴾ (١)

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة برقم ٤٦٦٧ [عون المعبود (٤٥٣/١٢)] قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي وهو ثقة.ويرى ابن القيم أن أحاديث أصحاب البدع لا يكاد يسلم أحدها من مقال ؛ أي أن طرقها أكثرها ضعيفة ، ويرى ابن حجر أن بعض طرق أحاديث القدرية وأنها مجوس الأمة يمكن اعتبار إسناده صحيحاً ، وذلك بعد تتبعه لبعض طرق الحديث [عون المعبود (٤٥٣/١٢)] .

أقول :

١ - المجوس هم عباد النار من الفرس ومن تابعهم ، وهم يقولون بوجود إله النور وإله الظلمة ؛ أي أنهم يثبتون فاعلين في الكون ، و كذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله و الشر إلى غيره ، وهم بذلك يثبتون فاعلين في الكون ، فأشبهوا بذلك المجوس ، ولمنطقة فارس صولات وجولات للقدرية .

٢ - هذا الحديث كما يتضح في الحاشية فيه مقال ؛ لكن لو نظرنا إلى الأحاديث الصحيحة الدالة على أن كل فتنة منذ خلقت الأرض تعتبر موطئة للدجال ، أمكن تصور أن كل أصحاب البدع والأهواء سيجدون في الدجال بغيتهم ، وبالتالي بقايا أصحاب البدع سيجمعهم الدجال تحت لوائه ، فهم من شيعته وعلى سنته ، أما عدوه الحقيقي فهم الطائفة القائمة على الحق .

٣ - الآثار أشارت إلى طائفة القدرية ، والأمر في ظني أوسع من ذلك ، ويشمل كل أصحاب البدع العقدية ، الذين ناصبوا أهل السنة والجماعة العداء ، وبدت البغضاء من أفواههم وما خفي في قلوبهم أعظم ، فهؤلاء يجدون بغيتهم في الدجال في إكمال حربهم على أهل السنة ، فالأهداف مشتركة والعدو واحد .

والغريب أن بعض هذه الطوائف كالجهمية والمعتزلة ، وغيرها تنكر وجود الدجال وهذه من الفتن الموطئة للدجال التي وقعوا فيها ، بالتالي لا حظ لهم من تحذير النبي ﷺ منه ؛ لذا هم أول من يقع في فتنته ؛ خاصة أنه قد غيبت من ذاكرتهم وجوده أو وقوع فتنته .

والغريب أيضاً أن أكثر أصحاب البدع العقدية والفرق الباطنية أصولها كلها موجودة في الشرق ، وهذا يعزز عندنا فهم قول النبي ﷺ أنه ما من فتنة إلا هي موطئة للدجال ، فتكون فتنهم كالمنهج التحضيري لفتنة الدجال .

رابعاً : النساء .

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّقَنَاةَ فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ . ﴾ (١)

شرح :

المعلوم أن المرأة تتميز بميل للشهوة ،وعدم ضبطها وتعقلها للأمور كالرجل ؛ إضافة إلى ضعف نفسيتها وعدم قدرتها على التحمل والصبر كالرجل ، لذا حذر النبي ﷺ من فتنة النساء ، وأعتبرها أعظم فتن أمة محمد ﷺ ، وهذا يفسر لنا تركيز أهل الباطل على المرأة ، وتزيين إفسادها بحجة تحريرها .

وبالتالي تعتبر فتنة النساء التي تقع فيها الأمة إحدى الفتن الموطئة والمعززة لفتنة الدجال ، فالنساء تعتبر إحدى حبائل الدجال ؛ لذا يكون ترغيبهن في إتباعه ، وتزيين طريقه المشبعة بالشهوات والترف أحد وسائل الدجال في إغوائهن ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك سطوة الدجال وتحكمه في خيرات الأرض ، وتلبيسه على الناس بأنه داعية تحرر ونصير المستضعفين كالمرأة في تحررها من الرجل ، فكل هذه العوامل تفسر لنا كثرة أتباع الدجال من النساء .

ولعل واقعنا المعاصر يشهد لما ذكرنا ، وما يشاهده المرء من الفتن التي تقودها النساء في زماننا ، وما تجده من تسهيلات من أهل الباطل للقيام بذلك ، يعطي تصوراً لما سيستجد في هذا الباب على يد الدجال .

خامساً : الشياطين .

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما : قَالَ : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ فِي الْبَحْرِ شَيَاطِينَ مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسند المكثرين من الصحابة برقم ٥٣٥٢ [المسند (٩٢/٢)] ؛ قال الهيثمي : في الصحيح بعضه ، رواه احمد والطبراني في الأوسط وفيه ابن إسحق وهو مدلس [مجمع الزوائد (٣٤٧/٧)]

قُرْآنًا . ﴾ (١)

الحديث السابق يشير إلى تحرر الشياطين من سجنها ووثاقها الذي أوثقها إياه سليمان عليه السلام ، وتفلتها على الناس ، وقراءها على الناس قرآناً ، ولا أعلم هل المقصود بكلمة قرآن هنا القرآن الكريم المعهود ، أو هو كتاب يتلى بما أشبه القرآن ، ودلالة الحديث تشير إلى أنها تكون بين الناس وقد تتجسد على شكل بشر للفتنة بينهم ، وأرى أن تحرر الشياطين يكون إما في زمن الدجال أو قبله بقليل ، وذلك للتمهيد لفتنته ، فتحررهم من السجن يناسب زمن تحرر الدجال من سجنه ، وورد في بعض الآثار أن الشياطين تسير في مقدمة الدجال تدعو لفتنته في القرى والأمصار التي يدخلها الدجال .

والقول بمساندة الشياطين بشكل غير معهود يتناسب مع عظم الفتنة وخطرها ؛ حيث تتحد طاقات إبليس الجن وإبليس الإنس في الكيد لأهل الحق في آخر الزمان ، وتتضافر جهود قوى الشر في الإنس والجن للانتصار في معركتهم العصماء .

سادساً : السحرة .

السحرة هم أخبث البشر وأعوان الشيطان وخدامه ، وإنما تتركز خدمتهم للشيطان لأجل الاستفادة من بعض قدراته للتلبيس على الناس واستغلالهم ؛ أي هي مهنة سوداء يمتهنها بعض خبيثي البشر ، وهذه الطائفة من البشر ليس لها مرجعية في سلوكها وعلومها إلا من خلال الطرق الشيطانية السوداء ، وأصدق وصف لهم أنهم عبدة الشيطان ؛ لذا تجد هذه الطائفة بغيتها في كبيرهم أو ساحرهم الدجال الذي يأتي بمخاريق عظيمة تفوق كل ما حصلوه أو تعلموه من خلال الشيطان ، ويرون من سحره ما يجعلهم عباداً له ؛ لذا نجدهم أحرص الناس على اتباعه ، والتعلم منه ، وأكثرهم إخلاصاً في الدعوة لفتنته والتلبيس على الناس ، وقد ورد في بعض الآثار أن السحرة يتبعون الدجال ، ويقدمون بين يديه دجلهم ، وينتشرون بين الناس للترويج له .

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة [مسلم بشرح النووي (٩٦/١)]

سابعاً : أصحاب الشهوات .

المعلوم أن فتنة الدجال هي العظمى ، وحبالها هي الشبهات والشهوات ، والأصناف التي ذكرتها سابقاً هم من أهل الوقوع في فتن الشهوات والشبهات جميعاً ؛ لذا نجد فيهم الإخلاص للدجال ؛ أي هم الصف الأول من الأتباع للدجال .

أما الصف الثاني فيكون من ضعيفي النفوس ممن وقعوا في حبال فتنة الشهوات ، وهؤلاء هم الأكثر في أتباع الدجال ، وجلهم ممن يرتع قبل فتنته في الشهوات دون تمييز بين الحلال والحرام ، أو هم عبدة الدرهم والدينار والعجل من أمة محمد ﷺ ، وهؤلاء لا يستطيعون الصبر على فتنة الدجال فيتبعونه مع علمهم بكفره ، وقد ورد في الأثر عن عبيد بن عمر الليثي قال : « يخرج الدجال فيتبعه ناس ، فيقولون نحن نشهد أنه كافر ، وإنما نتبعه لنأكل من طعامه ونرعى من الشجر ، فإذا نزل غضب الله نزل عليهم جميعاً . » (١)

كلـمة خـتام بخصوص أتباع الدجال

أسأل الله العظيم أن يجنبنا زمان الدجال وفتنته ، وكان الله في عون أهل الحق في ذلك الزمان ، بل كان الله في عون العالم بأسره مما يترتب على هذه الفتنة ، فإضافة إلى ما علمنا من قدرات الدجال فإن أعوانه هم رأس كل شر في العالم فكيف إذا اتحدوا في معركة واحدة وهدف واحد ، وماذا سنفعل في زمن تتفلت فيه الشياطين لتلبس على الناس وتتحرك السحرة بدجلها ، وينتشر الغلاة والخوارج بفكرهم ، ويستأسد الدعاة للبدع ، ويجدون نصرة لهم ، وحرباً على من خالفهم من الدجال ، وينتشر قراء القرآن على الطريقة الدجالية ، ويتكلم المتفيهقون بلسانه ، وتلقي النساء بفتنها لإماتة القلوب أو إفسادها ، ويكثر المتساقطون من عبدة الشهوات والأموال ، والمتزلفون للدجال المزينون لفتنه ، ويكون على رأس هؤلاء كلهم اليهود بما عرفوا فيه من تلبيس وخداع و تحريف وتلاعب بالحق ، وتزيين للباطل .

---

(١) أخرجه نعيم في الفتن برقم ١٣٢٦ [الفتن (٣٧٤)]

فلو تصورنا اجتماع العوامل السابقة في فتنة واحدة علمنا مدى خطورها ، وحق لمثل هذه الفتنة أن يتعوذ الإنسان من شرها في كل صلاة .

كذلك يلحظ مدى مشابهة فتنة الدجال بالفتنة المعاصرة التي وقعت فيها الأمة ؛ وهذا ما يعزز القول بأننا في هذه المرحلة نعيش فتنة الدهيماء .

المبحث الثالث
طبيعة فتنة المسيح الدجال

يلحظ من الأحاديث التي تضمنت فتنة المسيح الدجال أن بعضها يركز على جانب من جوانبها ، وهي أحاديث في الغالب قصيرة المتن ، وبعضها يتناول جوانب عدة من فتنة المسيح الدجال بما يشبه قصة متكاملة ، وهي المطولات من أحاديث الدجال ؛ لذا رأيت أن أخصص هذا المبحث والذي يليه للأحاديث التفصيلية القصيرة أو المجتزأة ، وأضمن كل حديث ترجمة تدل على معناه ، ثم أذكر في المبحث الأخير المطولات لكي يصبح عندنا تصور متكامل لطبيعة فتنته ، وتفصيل ذلك في المطالب التالية :

المطلب الأول : واقع الدجال لا يتناسب مع ادعائه الربوبية

- عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ وَمَشَى فِي الْأَسْوَاقِ يَعْنِي الدَّجَّالَ . » (١)

- عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « إِنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ ، وَهُوَ أَعْوَرُ عَيْنِ الشِّمَالِ ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ ، وَإِنَّهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ : أَنَا رَبُّكُمْ فَمَنْ قَالَ : أَنْتَ رَبِّي ، فَقَدْ فُتِنَ وَمَنْ قَالَ : رَبِّيَ اللَّهُ حَتَّى يَمُوتَ ، فَقَدْ عُصِمَ مِنْ فِتْنَتِهِ ، وَلَا فِتْنَةَ بَعْدَهُ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ ، فَيَلْبَثُ فِي الْأَرْضِ – أي الدجال – مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَجِيءُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَام مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مُصَدِّقًا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى مِلَّتِهِ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ ثُمَّ إِنَّمَا هُوَ قِيَامُ السَّاعَةِ . » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسند البصريين برقم ٢٠٠١٥ [المسند (٥٤٢/٤)] قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، وفي رجال أحمد علي بن زيد ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات [مجمع الزوائد (٢/٨)]

(٢) أخرجه أحمد بهذه السياقة في مسند البصريين برقم ٢٠١٧١ [المسند (١٨/٥)] قال أحمد رواه الطبراني وأحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣٦/٧)]

شرح :

- الحديث الأول يشير إلى أن الدجال يقع منه ما يقع من البشر ، وهو أكل الطعام والمشي في الأسواق ، وهذا يتنافى مع دعواه الربوبية ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك بقية صفات النقص الأخرى الواردة في حقه منها العلامة الفاصلة الواردة في الحديث الثاني وهي كونه أعورَ، تبين أنه بدعواه كاذب .
- مشي الدجال و أكله الطعام هنا يعزز كونه من البشر ، ولكنه ليس جازماً في الدلالة على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون حالة خاصة جمعت بين الإنس والجن ، وهناك أدلة كثيرة تشير إلى ذلك .
- الحديث الثاني يشير إلى بعض قدرات الدجال : كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وهذه القدرات الخاصة أعطيت للدجال من باب الاستدراج فقط ، ويحدث مثلها وإن كانت أقل في الدرجة مع كثير من أصحاب الأحوال الشيطانية ، أما بخصوص إحياء الموتى ، فهي في الغالب تخييلية مع الدجال كما سيتضح في بعض الأحاديث ، ويستعين بالجن والشياطين في تلبيسه على الناس بها ، أما الحالة الوحيدة التي يحيي الموتى فيها فهي قصة الرجل التي سترد علينا ، وهو الوحيد الذي يسلط عليه بهذا الشكل ويحييه ، وكما ذكرت ، كل ذلك يدخل في باب الاستدراج .
- غاية ما في قدرات الدجال إنما الغرض منها هو إغواء الناس ؛ لذا يربط بين هذه القدرات وبين دعوة الناس إلى الإيمان بربوبيته ؛ ويكفي أن يُفتن الإنسان أن يوافق الدجال في ادعائه الربوبية ، أما إذا ثبت الإنسان في هذا المقام فقد عصم من فتنة الدجال ، وإن كان الأمر ليس هينا كما سنلاحظ في الأحاديث القادمة .
- يلحظ في هذه الأحاديث أن الدجال يستخدم أسلوب إثارة الشبهات للتلبيس على الناس ، وفي مواطن أخرى سنلحظ أنه يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب

بخصوص الشهوات ، وكلا الأمرين هما سلاح الدجال في معركته ، وهما أسلحة إبليس وكل أباليس البشر منذ خلقت الأرض إلى قيام الساعة .

المطلب الثاني : فتنة الدجال فتنة عامة مرعبة

- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ . ﴾ (١)

- عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ قَالَ لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ . ﴾ (٢)

- عن جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال عن الدجال : ﴿ يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ كُلَّ مَنْهَلٍ لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ فَذَكَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَالطُّورَ وَالْمَدِينَةَ ﴾ (٣)

- عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ هَكَذَا قَالَ . ﴾ (٤)

- عن أُمُّ شَرِيكٍ رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ قَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: هُمْ قَلِيلٌ ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٧٩ [البخاري مع الفتح (١١٣/٤)]

(٢) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٨١ [البخاري مع الفتح (٤/ ١١٤)]

(٣) أخرجه بهذه السياقة أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٣١٥٣ [المسند (٤٢٧/٥)] .

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٧ ، قال شارحه : الحديث سكت عنه المنذري [عون المعبود (٤٤٢/١١)] ؛ وأحمد في مسند البصريين برقم ١٩٩٩٠ [المسند (٥٣٩/٤)]

(٥) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٥ [مسلم بشرح النووي (٢٧٦/٩)]

📖 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ﴿ يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّقَنَاةَ فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَلِّطُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُونَهُ وَيَقْتُلُونَ شِيعَتَهُ حَتَّى إِنَّ الْيَهُودِيَّ لَيَخْتَبِئُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَوِ الْحَجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرَةُ لِلْمُسْلِمِ هَذَا يَهُودِيٌّ تَحْتِي فَاقْتُلْهُ . ﴾ (١)

شرح :

- يلحظ من الأحاديث السابقة أن فتنة الدجال ليست فتنة هينة ، كما يتصور البعض بل هي أيام كالحات من الرعب والشبهات والإرهاب بكل معانيه ؛ عنوانها الأساسي هو قتل وتجويع كل من يخالفه ؛ لذا وصى النبي ﷺ بعدم الاستهانة بآثار هذه الفتنة على النفوس مهما كانت قوة إيمان الإنسان ، ونصيحة النبي ﷺ لكل من سمع بالدجال أن يجتهد في الابتعاد عنه مهما بلغ إيمان هذا الإنسان ؛ لأنه لا يأمن على نفسه من الفتنة .
- الأحاديث تشير إلى أن فتنة الدجال ستعم الأرض جميعاً ، حتى لا يبقى منهل في الأرض أو مكان إلا دخلته فتنته ، و دخلها سلطانه وسطوته ، فإذا علمنا أن أجهزة استخباراته ستكون من الشياطين والسحرة ، و كثير من المنتسبين لهذه الأمة ، عرفنا درجة خطورة فتنته .
- بينت الأحاديث السابقة المواطن المعصومة من فتنة الدجال ، وهي مواطن أربعة : المدينة و مكة وبيت المقدس وجبل الطور .
- نلحظ مدى المشابهة بين فتنة الدجال، وفتنة أمريكيا في عصرنا مما يوحي أن الأمر قريب ، أو يعزز القول بأننا الآن نخوض غمار فتنة الدهيماء ، وهي الأكثر شبهاً بفتنة الدجال.

---

(١) سبق تخريجه

المطلب الثالث : شبهات الدجال وشهواته

📖 - عن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ مَعَ الدَّجَّالِ إِذَا خَرَجَ مَاءً وَنَارًا ، فَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا النَّارُ ، فَمَاءٌ بَارِدٌ ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ ، فَنَارٌ تُحْرِقُ ،فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَى أَنَّهَا نَارٌ فَإِنَّهُ عَذْبٌ بَارِدٌ. ﴾

وفي رواية مسلم ﴿ لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ: أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالْآخَرُ ، رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا ، وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ ، فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ . ﴾ (١)

📖 - عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ : ﴿ إِذَا كَانَ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ بِثَلَاثِ سِنِينَ ، حَبَسَتِ السَّمَاءُ ثُلُثَ قَطْرِهَا وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا ، فَإِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الثَّانِيَةُ حَبَسَتِ السَّمَاءُ ثُلُثَيْ قَطْرِهَا ، وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا . فَإِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الثَّالِثَةُ حَبَسَتِ السَّمَاءُ قَطْرَهَا كُلَّهُ ،وَحَبَسَتِ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ ،فَلَا يَبْقَى ذُو خُفٍّ وَلَا ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَ ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ : لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ إِبِلَكَ ضِخَامًا ضُرُوعُهَا عِظَامًا أَسْنِمَتُهَا أَتَعْلَمُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ! فَتَمَثَّلُ لَهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى صُورَةِ إِبِلِهِ فَيَتْبَعُهُ ، وَيَقُولُ لِلرَّجُلِ : أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ أَبَاكَ وَابْنَكَ وَمَنْ تَعْرِفُ مِنْ أَهْلِكَ أَتَعْلَمُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ! فَيُمَثِّلُ لَهُ الشَّيَاطِينَ عَلَى صُوَرِهِمْ فَيَتْبَعُهُ ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَكَى أَهْلُ الْبَيْتِ ، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَبْكِي ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكُمْ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا ذَكَرْتَ مِنَ الدَّجَّالِ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَمَةَ أَهْلِي لَتَعْجِنُ عَجِينَهَا فَمَا تَبْلُغُ حَتَّى تَكَادَ تَفْتَتِنُ مِنَ الْجُوعِ ، فَكَيْفَ نَصْنَعُ يَوْمَئِذٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْفِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الطَّعَامِ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٥٠ [البخاري مع الفتح (٥٧٠/٦)] ؛ ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٣٥ [مسلم بشرح النووي (٢٤٥/٩)]

وَالشَّرَابِ يَوْمَئِذٍ التَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ ، ثُمَّ قَالَ : لَا تَبْكُوا فَإِنْ يَخْرُجِ الدَّجَّالُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ وَإِنْ يَخْرُجْ بَعْدِي فَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . ﴾ (١)

- الحديث يشير إلى تغيرات مناخية مهيئة لفتنة الدجال ، وهذه التغيرات يترتب عليها قحط شديد ومجاعات ؛ لدرجة تهلك فيها أكثر الحيوانات تحملاً وصبراً كالإبل ، وهذه الحال العظيمة تبرز لنا مدى الحال الصعبة التي سيمر بها المؤمنون ، فالمساومة مع الدجال ستكون ابتداءً على سد الرمق .
- الحديث يشير إلى دور الشياطين في الإغواء مع الدجال ، و أساليبهم في تسهيل فتنه ، وترويج دجله على الناس ، ولعل الحديث يشير إلى جانب واحد من أساليبهم اقتصر النبي ﷺ على ذكره بما تتضح معه باقي الصور المشابهة .
- في الحديث إشارة إلى جانب كبير من فتنة الدجال وهو السحر والتخييل والاستعانة بالجن والشياطين ، ولعل الشياطين في زمانه تكون أقدر على التمثل والتجسد من زماننا ، وكذلك في الحديث إشارة إلى طبيعة فتنة الدجال في كون المقصود منها حصول الغواية للناس لا نفعهم ، وإلا فهذا الأعرابي الذي يؤمن به ويسقط في الهاوية ماذا سيستفيد من تلك الإبل التي هي عبارة عن جن مجسدة ؟ !
- المراد من قول أسماء « إِنَّ أَمَةَ أَهْلِي لَتَعْجِنُ عَجِينَهَا فَمَا تَبْلُغُ حَتَّى تَكَادَ تَفَتَّتُ مِنَ الْجُوعِ » هو أن الإنسان لا يحتمل الصبر على الجوع مدة طويلة فذكرت مثالاً من واقعهم ، وهو أن المرأة لا تكاد تنتهي من العجين والصبر عليه حتى يخبز إلا أصابها الجوع ، وهي فترة قصيرة تقدر بالسويعات ، فكيف بالصبر على تلك السنوات الثلاث الشداد .

📖 - عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ قَالَ مَا سَأَلَ أَحَدٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُ قَالَ : ﴿ وَمَا يُنْصِبُكَ مِنْهُ إِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٢٧٦٤٨ [المسند (٤٧٨/٦)] قال الهيثمي : فيه شهر بن حوشب فيه ضعف وقد وثق [مجمع الزوائد (٣٤٥/٧)] و شهر بن حوشب صدوق كثير الإرسال ، والحديث له شواهد ومتابعات .

يَقُولُونَ إِنَّ مَعَهُ الطَّعَامَ وَالْأَنْهَارَ قَالَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . ﴾

وفي رواية:﴿ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَعَهُ جِبَالٌ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ وَنَهَرٌ مِنْ مَاءٍ ﴾ (١)

قد يتصور أن هناك تعارضاً بين هذا الحديث وسابقه ؛ حيث أثبت في الأول وجود الماء مع الدجال ، وهنا قال هو أهون على الله ﷺ من ذلك بما يشبه النفي من كون الدجال معه أنهار .

ويدفع هذا الإشكال بأن الدجال أهون على الله سبحانه وتعالى من أن يجري على يديه أنهاراً حقيقية أي صورة ومعنى ، أما ما يكون مع الدجال فإنه يُرى للرائي أنه ماء وليس ماءً على الحقيقة .

أو يراد به أنه أهون من أن يجعل ما يخلقه على يديه مضلاً للمؤمنين ، أو مشككاً لقلوب الموقنين ، بل ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويرتاب الذين في قلوبهم مرض .

أو يراد به أنه أهون من أن يجعل شيئاً من ذلك آية على صدقه ، ولا سيما أنه جعل فيه آية واضحة دالة على كفره بين عينه ، إضافة إلى العلامات الأخرى الدالة على نقصه ، وحدوثه . (٢)

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ فَلَهُ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً يَسِيحُهَا فِي الْأَرْضِ الْيَوْمُ مِنْهَا كَالسَّنَةِ وَالْيَوْمُ مِنْهَا كَالشَّهْرِ وَالْيَوْمُ مِنْهَا كَالْجُمُعَةِ ثُمَّ سَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ هَذِهِ وَلَهُ حِمَارٌ يَرْكَبُهُ عَرْضُ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا فَيَقُولُ لِلنَّاسِ أَنَا رَبُّكُمْ وَهُوَ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ك ف ر مُهَجَّاةٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٌ وَغَيْرُ كَاتِبٍ يَرِدُ كُلَّ مَاءٍ وَمَنْهَلٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَبْوَابِهَا وَمَعَهُ جِبَالٌ مِنْ خُبْزٍ وَالنَّاسُ فِي جَهْدٍ إِلَّا مَنْ تَبِعَهُ وَمَعَهُ نَهْرَانِ أَنَا أَعْلَمُ بِهِمَا مِنْهُ نَهَرٌ يَقُولُ الْجَنَّةُ وَنَهَرٌ يَقُولُ النَّارُ فَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي

---

(١) أخرج الروايتين مسلم في الفتن برقم ٢٩٣٩ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٦٦)]

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٣/ ٩٩)

يُسَمِّيهِ الْجَنَّةَ فَهُوَ النَّارُ وَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّارَ فَهُوَ الْجَنَّةُ وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ شَيَاطِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ وَمَعَهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ ﴾ (١)

- عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ : ﴿ ..فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ . ﴾ (٢)

شرح الغريب :

سارحتهم : السارحة هي الماشية ؛ سميت بذلك لأنها تسرح للمرعى

دراً : اللبن ، وإنما يكثر بالخصب وكثرة المرعى .

الممحل : الذي قد أجدبت أرضه ، وغلت أسعاره .

كيعاسيب النحل : اليعسوب أمير النحل ، والكلام فيه قلب والأصل كنحل اليعاسيب ، لأن النحل تتبع اليعسوب .

شرح :

- حرب الدجال هي حرب شهوات وشبهات ، وهي نفسها حرب إبليس لعنه الله ، والشهوات لا يمكن دفعها إلا بالصبر ، أما الشبهات فتدفع باليقين ؛ ومن حصل الصبر واليقين نجا من فتنة الدجال لعنه الله ، وكان أهلاً للإمامة في الأرض ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣)

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٤٩٦٥ [المسند (٣/٤٥٠)] ؛ والحاكم ، وقال : هو على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي [المستدرك ٤/٥٣٠]

(٢) جزء من حديث طويل سيأتي ، أخرجه مسلم في الفتن برقم [مسلم بشرح النووي (١٨/٦٣)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٩ [عون المعبود (١١/٤٤٥)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٥ [السنن (٢/١٣٥٦)]

(٣) السجدة:٢٤

- يلحظ من الأحاديث السابقة أن ما لدى الدجال من نار أو ماء ليس على حقيقته ، وهذا نوع من الشبهة لا ينفع معها إلا اليقين المخالف لما تشاهده العين ؛ فالنار التي تتأجج أمام عين الناس هي ماء بارد ؛ لذا من كان من أهل الإتباع والانتفاع بسنة رسول الله ﷺ سيكذب ما تراه عينه ، ويصدق ما أخبر به نبيه ﷺ ، ويتصرف بعين اليقين ، لا بعين المشاهدة ؛ فليغمض عين بصره ، وليفتح عين بصيرته ، وليقترب من النار ، وليشرب منها متيقناً بما أخبر به الرسول الكريم ، فستكون بإذن الله ماءً بارداً .

أما من بهره ما يراه ، وجمحت عنده عين البصر على عين البصيرة فطمستها ، وتعامل مع الواقع كما يراه ، وأراد أن يغترف من الماء ، ووقع في شبهة الدجال ، فهذا سينال الخسران .

و هذه الشبهة المذكورة في الأحاديث تدل دلالة واضحة أن الدجال لا يريد الخير للبشرية بقدر ما يريد إغوائها ، فمن يتبعه ومن يرضى به لا ينال منه خير الدنيا كما يتصور ، إذ ليس في القرب من الدجال إلا البوار ، و ماؤه نار ، و ليت الأمة تنتبه في عصرنا إلى أن ماء كل دجال قبل الدجال الأكبر هي أيضاً نار .

- حديث النواس بن سمعان الأخير يشير إلى مدى فتنة الشهوات التي يستغلها الدجال ، فأتباعه ينعمون قليلاً بنعم الدنيا الزائل ، ومن يعارض الدجال يضيق عليه بالأرزاق والنعم قليلاً ، أي فترة الفتنة ، ويفرض عليه عقوبات اقتصادية قاسية ، أقسى بكثير مما نعهده في زماننا ؛ وطبعاً كل ذلك بقدر من الله سبحانه وتعالى ، لحكم يقتضيها وترشد إليها الآيات التالية يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) فالإيمان الموجب للنعمة العظمى ، وهي الفوز بالجنة والنجاة من النار ليس مجرد دعوى باللسان فقط ، ولئن حصل هذا

---

(١) العنكبوت:٢

الادعاء ، فلا بد من اختباره ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (١) ، ولا بد لأهل الله سبحانه وتعالى أن يميزوا عن أهل الادعاء الكاذب ، فهذا من مقتضيات الاختبار ونتائجه ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

- الملاحظ على الدجال أنه لا يعرف المساومة ، فشعاره : **من ليس معنا فهو ضدنا** ؛ لذا لا نلحظ زمن فتنة الدجال إلا فريقين فقط : أتباع الدجال وهم الأكثر في الأرض ، والفئة المؤمنة الصادقة ، وهم قليل .

المطلب الرابع : قصة الرجل المؤمن الذي يقتله الدجال

- عن أَبِي سَعِيد ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَأْتِي الدَّجَّالُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ فَيَنْزِلُ بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ أَوْ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ .

فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَهُ .

فَيَقُولُ الدَّجَّالُ :أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الْأَمْرِ ؟

فَيَقُولُونَ - أي شيعة الدجال - : لَا .

فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ .

فَيَقُولُ - أي الرجل المؤمن - : وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ . ﴾ (٣)

شرح الغريب :

السباخ : جمع سَبَخة وهي الأرض الرملة التي لا تنبت لملوحتها ، وهذه الصفة خارج المدينة من غير جهة الحرة .

---

(١) المائدة: من الآية ٩٤

(٢) آل عمران:١٧

(٣) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١٣٢ [فتح الباري (١٣/ ١٠٩)]

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :﴿ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ : مَسَالِحُ الدَّجَّالِ .

فَيَقُولُونَ لَهُ : أَيْنَ تَعْمِدُ ؟

فَيَقُولُ : أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ .

فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟

فَيَقُولُ : مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ .

فَيَقُولُونَ : اقْتُلُوهُ .

فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ ؟

قَالَ – أي رسول الله – فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ .

فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رسول الله ﷺ : فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ ، فَيُشَبَّحُ .

فَيَقُولُ : خُذُوهُ وَشُجُّوهُ فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا .

قَالَ : فَيَقُولُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي ؟

قَالَ : فَيَقُولُ : أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ .

قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ .

قَالَ رسول الله ﷺ : ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ فَيَسْتَوِي قَائِمًا .

قَالَ ثُمَّ يَقُولُ : لَهُ أَتُؤْمِنُ بِي ؟

فَيَقُولُ : مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً .

قَالَ ثُمَّ يَقُولُ : – أي الرجل الصالح – يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

قَالَ رسول الله ﷺ : فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . ﴾ (١)

شرح :

- الأحاديث تشير إلى رجل يتسلط عليه الدجال لعنه الله سبحانه وتعالى ، وقد اختلف في كنه هذا الرجل : قيل هو الخضر ، وهذه دعوى ليس عليها برهان ، ومستند من زعم ذلك أثر ضعيف ، ومعرفة من هو الرجل ليست ذات أهمية ، ويكفي معرفة أن هذا الرجل هو أعظم الناس شهادة عند الله سبحانه وتعالى ، ووجه عظمة شهادته في أنه واجه بكلمة الحق أشد السلاطين جوراً على وجه البسيطة ، وهو الدجال لعنه الله سبحانه وتعالى ، وثباته على الحق وتبصره به مع توفر دواعي الشبهة القوية ، و استمراره على دعوة الحق حتى بعد تعذيب الدجال له ، والأجر على قدر المشقة .
- هذه الأحاديث تبين بعض المراد من قول النبي ﷺ عن الدجال هو أهون على الله من ذلك . فالدجال مع توفر كل فتن الشهوات والشبهات لديه ، ومع ما آوتي من قدرات ؛ إلا أنه مع كل ذلك لا يملك تغيير القلوب الممتلئة إيماناً أو يؤثر فيها ، وغاية تأثيره على ضعاف الإيمان ، وأهل الوقوع في الشهوات والشبهات قبل حصول فتنته ، أما أهل الإيمان فيزدادوا إيماناً ، وهذا يعزز القول بأن فتنة الدجال هي فتنة حصاد لا فتنة زرع ، بمعنى أن الفتن التي قبله تزرع ، وفتنة الدجال تحصد ، ومن كان من أهل الإيمان الحق قبل الدجال ، كان أيضاً من أهله بعد فتنة الدجال ، ومن كان من أهل الريبة ، أو ممن يعبدون الله على حرف ، فهؤلاء هم مطمع الدجال ، ومدار فتنته .
- الحديث الأول يشير إلى أن الدجال لا يملك الإحياء والإماتة بعد هذا الرجل قطعاً ، ورواية أبي أمامة الباهلي التي سأذكرها في المطولات تدل على أنه لا يسلط إلا على هذا الرجل .

أما بعض الروايات الأخرى التي تشير إلى قدرة الدجال على الإحياء ، فذلك

---

(١) أخرجه الشيخان ، وهو بهذا اللفظ عند مسلم برقم ٢٩٣٨ [مسلم بشرح النووي (٢٦٢/٩)]

يكون على وجه التخييل لا الحقيقة كما سيأتي بيانه .

- قد يسأل سائل : كيف يجوز أن يجري الله الخوارق التي هي بمثابة الآيات على يد كافر ، كإحياء الموتى مثلاً التي تعتبر آية عظيمة لم يؤيد بمثلها إلا الأنبياء ؟

ويجاب على ذلك بأنه يجريه على سبيل الفتنة والاستدراج ، والفرق بينه وبين ما يؤيد به الأنبياء واضح ؛ لأن الأنبياء أُيدوا بالآيات ودلالات حالهم تشهد أيضاً بصدق دعواهم النبوة ، أما الدجال فأيد بالخوارق ودلالة حاله تشهد بأنه كاذب في دعواه الربوبية لظهور الآفة في عينه والكفر المكتوب بينهما يضاف إلى ذلك وضوح النقص في ملامحه .

- ظاهر القصة يشير بوضوح إلى أن الرجل الذي يخرج إليه هو من أهل المدينة ، وجاء في بعض الروايات أن هذا الرجل يصر على الخروج للدجال لمواجهته وبيان كذبه بالرغم من أن أصحابه حاولوا منعه من ذلك مخافة أن يفتن .

- الحديث يبرز مدى أهمية العلم ومدى ضرورة معرفة ما أخبر به النبي ﷺ عن الفتن وعلامات الساعة ؛ وسياق القصة يوضح بصورة جلية أن سابق علم الرجل بما أخبر به النبي ﷺ عن الدجال وفتنه كان سبباً في ثباته واستنارة بصيرته بالرغم من شدة البلاء .

- القصة تشير بوضوح إلى أن المقصد من تقدير حصول فتنة الدجال هو الابتلاء والاختبار ، فإذا تبين نجاح المؤمن في الاختبار كانت فتنة الدجال عليه برداً وسلاماً ، وهذا واضح من السياق حيث ثبت الرجل المؤمن وصدق مع الله سبحانه وتعالى ، فترتب على ذلك انحسار سطوة الدجال وقدرته في حقه ، فلم يستطع أن يسلط عليه فيذبحه في المرة الثانية ، وغاية ما في الأمر أنه عجل له في دخوله الجنة .

المطلب الخامس : مدة فتنة الدجال

- عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، وفيه ﴿ .. قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ ؟

قَالَ ﷺ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ .

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ ؟

قَالَ ﷺ : لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ . ﴾ (١)

شرح

أولاً : أيام الدجال الثلاثة الأولى هل هي على حقيقتها ؟

يتضح من الحديث أن بقاء فتنة الدجال في الأرض أربعون يوماً ، لكن أيامه الثلاثة الأولى تختلف عن أيامنا الحالية كما يتضح من ظاهر اللفظ ، يقول النووي : « **قال العلماء هذا الحديث على ظاهره ، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور .** » (٢)

ومن نظر إلى سياق الحديث يرى أنه يشهد لهذا القول ؛ حيث ذكر النبي ﷺ أن باقي أيام الدجال كسائر أيامنا ، مما يشير أن طول هذه الأيام الثلاثة على حقيقته ، وكذلك تخصيص النبي ﷺ حكم الصلاة فيها بأحكام خاصة مبنية على التقدير يدل صراحة على أن الأمر على حقيقته ، نقل النووي عن القاضي وغيره قولهم : « **هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع ، قالوا : لولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام .** » (٣)

---

(١) جزء من حديث طويل سيأتي ، أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٣٧ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٥)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٩ [عون المعبود (١١/٤٤٥)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٥ [السنن (٢/١٣٥٦)]

(٢) النووي : شرح مسلم (٩/٢٦٠)

(٣) النووي : شرح مسلم (٩/٢٦٠)

رأي لسعيد حوى في أيام الدجال .

يرى سعيد حوى رحمه الله أن الثلاثة أيام الأولى لا تختلف عن باقي أيامنا ، وحمل اللفظ على المجاز ، واعتبر أنه يراد به الشدة ، أي أن اليوم يكون كالسنة في شدته على الناس ، وفي اليوم الثاني تخف الشدة على الناس حتى يصبح اليوم كالشهر ، وفي اليوم الثالث يمر على الناس لشدته كأسبوع .

واستدل على رأيه بأمرين :

الأول : ما ورد عن أبي أمامة الباهلي عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من حديث طويل ، وفيه : ﴿ وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَلَا يَبْلُغُ بَابَهَا الْآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقِصَارِ قَالَ تَقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ كَمَا تَقْدُرُونَهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطِّوَالِ ثُمَّ صَلُّوا ﴾ (١)

فالحديث يشير إلى أن مكثه في الأرض أربعين سنة ، وهذا يتعارض مع الأحاديث الدالة على أن مكثه أربعون يوماً مما يدل على أن الكلام ليس على حقيقته والمراد بالسنة في هذا الأثر اليوم الشديد ، وكذلك القول في الأيام الثلاثة الأولى ، فإنه تتناقص الشدة بعد الصدمة الأولى إلى أن تتلاشى بعد ثلاثة أيام .

الثاني : ما وصلت إليه العلوم في عصرنا تعزز عدم الأخذ بظاهر الحديث ؛ لأن القول بأن اليوم كسنة حقيقية كاملة يترتب عليه أن يقابله في نصف الكرة الأرضية ليل يوازيه ؛ لذا يُحمل الحديث على المجاز ، ويراد بالسنة هنا ليس الوقت ، وإنما في الشدة .

هذا مجمل رأي سعيد حوى وأدلته ، ويمكن أن يرد عليه بالتالي :

- الأثر الذي استند إليه سعيد حوى وإن كان رواته ثقات ؛ إلا أن الحديث الأول أرجح منه سنداً ، وأضبط متناً ؛ لذا يرجح على الأثر الثاني لتعذر الجمع بينهما ، أو

---

(١) أخرجه أبو داود مختصراً برقم ٤٣٠٠ ، وقال شارحه : « أما إسناد المؤلف حديث أبي أمامة فصحيح ، ورواته كلهم ثقات [عون المعبود (٤٤٩/١١ وما بعدها)] ؛ وابن ماجة برقم ٤٠٧٧ [السنن (١٣٥٩/٢)]

يحمل المقصود به على الأيام وليس السنوات ، وهذا واضح في نفس النص ؛ حيث عبر في آخره عن السنوات بأنها أيام طوال ، فيكون المقصود فيه ما دل عليه حديث النواس بن سمعان عند مسلم ، ويكون المراد بالتعبير عن تلك الأيام بالسنين نظراً لليوم الأول الذي يشبه في حقيقته سنة كاملة ، ووفق هذا التوجيه يكون الحديث شاهداً لنا على اعتبار اليوم الأول سنة حقيقية .

- وجه استدلال سعيد حوى بالأثر الوارد أن الدجال يمكث أربعين سنة لا يسلم ؛ لأن دلالة الحديث أن مدته أربعون سنة ، وحديث النواس بن سمعان أشار إلى أن مدته أربعون يوماً ، فبأي وجه يجمع بين الحديثين على أن المقصود بالثلاثة الأولى الشدة ، وهل الشدة كما يتضح من الأثر الذي ساقه تتحول في آخر الأيام سعادة وراحة لدرجة تجعل اليوم كأنه ساعة في سرعة انقضائه كما يتضح من السياق .
- الحديث الذي ساقه سعيد حوى فيه ما ينقض وجه استدلاله ؛ لأن النبي ﷺ قد خص الأيام القصار والطوال بأحكام لها بشأن الصلاة ، وهذا لا يتصور إلا إذا كان الأمر على حقيقته .
- واقع قصة الدجال يتنافى مع استدلال سعيد حوى باعتبار المراد بالأيام الطوال أنه كناية عن الشدة ، فالمتتبع لقصة الدجال يرى أن أشد أيامها هي الأواخر حيث يحصر الدجال المؤمنين في بقعة صغيرة من الأرض .
- أما استدلاله العقلي باعتبار أن مدلول الحديث لو أخذناه على حقيقته يتعارض مع ما وصل إليه علمنا عن حقيقة الكرة الأرضية ، فهذا استدلال غريب ، ولعل وجه الإشكال فيه أنه اعتبر المراد باليوم النهار فقط ، وهذا اعتبار لا برهان عليه .

بل الظاهر من الحديث أن اليوم يراد به الليل والنهار ، خاصة أنه هنا جاء مقابل ذكر الشهر والسنة ، ومن هنا لا يمتنع عقلاً أن يأتي يوماً بطول السنة ، بل العلم الحديث سهل لنا تصور ذلك ، فبدلاً من أن تدور الكرة الأرضية حول نفسها في

٢٤ ساعة تدور حول نفسها دورة واحدة مدة ٣٦٥ يوماً ، ومثل هذه الدورات الطويلة معهودة في كواكب أخرى .

بل الحديث الذي يتكلم عن أيام الدجال الطويلة يتناسق جداً مع الأحاديث الدالة على التغيرات المناخية التي تسبق خروجه من امتناع السماء من المطر ، والأرض من الإنبات مما يدل دلالة صريحة أن هناك تغيراً كونياً هائلاً يسبق خروج الدجال .

الراجـــح :

يتضح مما سبق أن مكث الدجال في الأرض أربعون يوماً منها ثلاثة أيام طوال يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع ، وهذه الأيام على حقيقتها .

ثانياً : معنى قول النبي ﷺ اقدروا له قدره .

أشار النووي إلى المقصود بالعبارة السابقة بقوله : « **إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر ، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر ، فصلوا العصر ، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذا العشاء والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب ، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم ، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في وقتها .** »

كلام النووي واضح ومقتضاه أن يصلي العبد في اليوم الأول ٥صلوات × ٣٦٥ = ١٨٢٥ صلاة فريضة ، ويصلي في اليوم الثاني ٥ × ٣٠ = ١٨٠ صلاة فريضة ، ويصلي في اليوم الثالث ٥× ٧ = ٣٥ صلاة فريضة ، ويكون تقدير ذلك وفق الأيام الطبيعية التي تكون قبل تلك الفتنة .

ثالثاً : لـــيل الدجـــال الطـــويل .

بعد مضي نهار اليوم الأول للدجال بفظائعه وجرائمه وشبهاته و أحداثه الدامية وإرهابه الذي لم يبلغ مثله إرهاب ، وتبدأ الشمس في المغيب لأطول فترة لها وهي ستة

أشهر ، يبدأ رعب هذا الليل الطويل من عسكر أجبر دكتاتور عرفته البشرية ، دكتاتور يدعي صراحة أنه إله ، وللإله معاملة عبيده كيفما شاء ، ولئن سمعنا عن ليالي هتلر وعسكره ومخابراته ، ولئن سمعنا بليالي غيره من الطواغيت وما كان يقع فيها من هتك للأعراض واستباحة للأموال والدماء ، وما يتضمنها من ترويع للآمنين ، فهو قليل بالنسبة لعهد الدجال ، الذي يجتمع حوله كل قساة القلوب من المجرمين والمارقين والحاقدين على كل ما هو حق أو من أهله على الأرض .

وهذا الليل يختلف كماً وكيفاً ونوعاً عن غيره من الليالي فأعان الله سبحانه وتعالى أهل الحق عليه ، ونسأل الله أن يجنبنا زمانه .

المطلب السادس : الفئة المؤمنة المتصدية للدجال

- عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَـاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ . ﴾ (١)

- عن عِكْرِمَةُ عن رجل من الصحابة عن النبي ﷺ قال لرجل نال من قبيلة تميم بسوء : ﴿ لَا تَقُلْ لِبَنِي تَمِيمٍ إِلَّا خَيْرًا فَإِنَّهُمْ أَطْوَلُ النَّاسِ رِمَاحًا عَلَى الدَّجَّالِ . ﴾ (٢)

وفي رواية لأبي هريرة ﷺ قَالَ : « مَا زِلْتُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مُنْذُ ثَلَاثٍ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِيهِمْ : ﴿ هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ .. ﴾ (٣)

- عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَعْدَ نُوحٍ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ الدَّجَّالَ قَوْمَهُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ فَوَصَفَهُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : لَعَلَّهُ سَيُدْرِكُهُ مَنْ قَدْ رَآنِي وَسَمِعَ كَلَامِي قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ قُلُوبُنَا يَوْمَئِذٍ ،

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه أحمد في مسند الشاميين ١٧٦٦٤ [المسند (٢٠٨/٤)] والحديث له أصل في البخاري ومسلم

(٣) أخرجه البخاري في العتق برقم ٢٥٤٣ [البخاري مع الفتح (٢٠٢/٥)]

أَمثَلُهَا الْيَوْمَ ؟ قَالَ : أَوْ خَيْرٌ . ﴾ (١)

شرح :

- الحديث الأول يشير إلى بقاء طائفة على الحق ما بقي الدين إلى أن يقاتل آخرهم الدجال ، وهذه الطائفة أشار لها النبي ﷺ بأنها في زمان الدجال تتركز في بيت المقدس وأكنافه ، وقد بين النبي ﷺ أن عددهم يكون قليلاً ، وذلك عندما سألته أم شريك بقولها : وأين العرب ؟ فقال النبي ﷺ : في بيت المقدس وهم قليل ، وقد جاء في بعض الروايات ذكر للعدد بأنهم اثنا عشر ألفاً من الرجال وسبعة آلاف امرأة فقط .
- الحديث الثاني يشير إلى قبيلة معينة يكون لها الحظ الأوفر في التصدي للدجال وعسكره وهم بنو تميم .
- الحديث الثالث يشير إلى أن من يتصدى للدجال في زمانه هم أهل إيمان حق ، أشبه ما يكونون بالرعيل الأول من الصحابة الكرام ، بل إشارة النبي ﷺ في الحديث تدل على أن قلوبهم قد تكون خير من قلوب الرعيل الأول ، وذلك بما ملئت من إيمان ويقين بالغيبات ، وصبر على الشدائد التي تتزلزل معها القلوب ؛ ولعل فضيلة هؤلاء تكون في أنهم لا يجدون على الحق أعواناً كما وجد أصحاب محمد ﷺ من عون السماء بالوحي الذي كان يتنزل بينهم .
- ولكرامة هذه الفئة المؤمنة الثابتة الصادقة تؤيد في آخر حربها مع الدجال بنزول نبي الله عيسى ﷺ من السماء لتأييدهم في حربهم ، ويؤيدون كذلك بتأييدات غيبية أخرى كما سيتضح .

---

(١)أخرجه أبو داود في الملاحم ؛ والترمذي في الفتن ،برقم ٢٣٣٦ وقال : هذا حديث حسن غريب [تحفة الأحوذي (٤٩٠/٦)] قال المنذري بعد نقل تحسين الترمذي : ذكر البخاري أن عبدالله بن سراقة لا يعرف له سماع من أبي عبيدة

- كذلك في الحديث إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يكن يعلم زمان خروج الدجال على وجه التحديد ، مما يعزز أن يكون هذا الحديث قد قيل في بداية العهد المدني أو في وسطه ، حيث كان خبر السماء بخصوص الدجال مجملاً .

المطلب السابع : العواصم من الدجال

أولاً : الأماكن المعصومة :

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ يَأْتِي الْمَسِيحُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ هِمَّتُهُ الْمَدِينَةُ حَتَّى يَنْزِلَ دُبُرَ أُحُدٍ ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ وَهُنَالِكَ يَهْلِكُ . ﴾

وفي رواية ﴿ حَتَّى يَنْزِلَ دَائِرَ أُحُدٍ ﴾ (١)

📖 - عَنْ مِحْجَنِ بْنِ الْأَدْرَعِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ : ﴿ يَوْمُ الْخَلَاصِ ، وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ ؟

يَوْمُ الْخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ ؟

يَوْمُ الْخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ ؟ ثَلَاثًا

فَقِيلَ لَهُ : وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ ؟

قَالَ : يَجِيءُ الدَّجَّالُ فَيَصْعَدُ أُحُدًا فَيَنْظُرُ الْمَدِينَةَ فَيَقُولُ : لِأَصْحَابِهِ أَتَرَوْنَ هَذَا الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ ! هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَدِينَةَ فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكًا مُصْلِتًا ، فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْحَرْفِ ، فَيَضْرِبُ رُوَاقَهُ ، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ وَلَا فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ فَذَلِكَ يَوْمُ الْخَلَاصِ . ﴾ (٢)

شرح :

- الحديث فيه إشارة عجيبة وهي أن المسجد النبوي الذي كان في عهد النبي ﷺ عند ذكره لهذا الكلام عبارة عن عريش من الجريد سيصبح أشبه بالقصر العظيم المنيف

---

(١) أخرجه مسلم في الحج برقم ١٣٨٠ [مسلم بشرح النووي (١٤٥/٥)]

(٢) أخرجه أحمد في مسند الكوفيين برقم ١٨٩٩٩ [المسند (٤١٣/٤)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٠٨/٣)]

ولونه يكون أبيضاً ، ومن ينظر إلى المسجد النبوي في عصرنا يجد مصداق كلام رسول الله ﷺ .

- الحديث يؤكد ما ذكرت أن آثار فتنة الدجال تكون على ذوي القلوب المريضة ، وهي من هذا الوجه ممحصة للقلوب ، و كاشفة لحقيقتها ، فقدوم الدجال نحو المدينة وحصاره لها ، ووقوع الرجفات الثلاثة - والله أعلم بحقيقتها - يحرك ذوي النفوس المريضة من أصحاب الشهوات والشبهات ، أو ممن يعبدون الله على حرف ، فيخرجون للدجال نصرة له ، وخروجهم خير للمؤمنين ؛ لذا سمى النبي ﷺ ذلك اليوم بيوم الخلاص ؛ أي خلاص المدينة من المنافقين، ولا يبقى فيها إلا الذهب الخالص الذي لا تزيده شدة النار إلا نقاوة وقوة و صفاءً .

📖 - عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقَالَ لِي مَا يُبْكِيكِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه ذَكَرْتُ الدَّجَّالَ فَبَكَيْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ يَخْرُجِ الدَّجَّالُ وَأَنَا حَيٌّ كَفَيْتُكُمُوهُ وَإِنْ يَخْرُجِ الدَّجَّالُ بَعْدِي فَإِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِي يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَدِينَةَ فَيَنْزِلَ نَاحِيَتَهَا وَلَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكَانِ فَيَخْرُجَ إِلَيْهِ شِرَارُ أَهْلِهَا حَتَّى الشَّامِ مَدِينَةٍ بِفِلَسْطِينَ بِبَابِ لُدٍّ . » (١)

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلَا الدَّجَّالُ . » (٢)

📖 - عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « قَالَ لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ

---

(١) أخرجه أحمد بهذا اللفظ في باقي مسند الأنصار برقم ٢٤٥٢١ [المسند (٨٤/٦)] ، قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الحضرمي بن لاحق ، وهو ثقة [مجمع الزوائد (٣٣٨/٧)] ومتن الحديث له شواهد في الصحيح عند مسلم

(٢) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٨٠ [البخاري مع الفتح (١١٤/٤)]

تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ . ﴾ (١)

- عن جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال عن الدجال : ﴿ يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ كُلَّ مَنْهَلٍ لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ فَذَكَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَالطُّورَ وَالْمَدِينَةَ ﴾ (٢)

شرح :

الأحاديث الخمسة الأولى تشير إلى أن الحرمين الشريفين هما من الأماكن المعصومة من الدجال ، والعصمة لا تقتصر على المسجدين فيهما بل تشمل جميع مكة والمدينة اللتين تحرسان من قبل الملائكة .

والحديث السادس أضاف موضعين آخرين وهما المسجد الأقصى والطور ، فهل تقتصر حراسة الملائكة على حدود المسجد الأقصى وجبل الطور ، ظاهر الحديث يشير إلى ذلك ، والمعلوم أن جيش المسلمين الذي يتصدى للدجال يكون في بيت المقدس .

ثانياً : آيات عاصمة :

- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ﴿ مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ - وفي رواية مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ - عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ . ﴾ (٣)

- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ مَنْ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ﴾ (٤)

أقول :

- يلحظ من الحديث الأول - وهو المشهور - أنه ذكر حفظ العشر آيات الأوائل ، و

---

(١) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٨١ [البخاري مع الفتح (١١٤/٤)]

(٢) أخرجه بهذه السياقة أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٣١٥٣ [المسند (٤٢٧/٥)] قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٤٢٧/٥)]

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين برقم ٨٠٩ [مسلم بشرح النووي (٣١٨/٩)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠١ [عون المعبود (٤٥١/١١)]

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن برقم ٣٠٤٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [تحفةالأحوذي (١٩٥/٨)]

عند الترمذي جاء من قرأ ثلاث آيات ، ويمكن الجمع بين الأمرين بعدة وجوه أرجحها عندي أن الحديث الأول اختص بالحفظ أما الحديث الثاني فاختص بالقراءة ، ويحتمل من قرأها في وجه الدجال ، يعزز ذلك قول الرسول ﷺ : ﴿ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ﴾ (١)

وعلى هذا الوجه تكون العصمة من الدجال بحفظ عشر آيات وتدبر معانيها ، فإذا تعرض صاحبها للدجال وواجهه فليقرأ الآيات الثلاثة الأُولى عليه .

– الحديث يشير إلى فضيلة سورة الكهف ، وضرورة حفظها وتدبرها ، خاصة أولها وآخرها .

واختيار سورة الكهف للعصمة من فتنة الدجال فيه عدة تأويلات :

التأويل الأول :

لما يتضمن أولها وآخرها من العجائب والآيات التي يحصل لمن تدبرها عدم الاغترار بفتنة الدجال .

التأويل الثاني :

بسبب ما ورد فيها من ذكر لقصة أصحاب الكهف ، وما حصل معهم من عجائب فمن وقف عليها لم يستغرب أمر الدجال ، ولم يهله أمره ، فلم يفتتن به ، وهذا القول يستند على حفظ السورة بأكملها ؛ لأن العشر الأوائل من سورة الكهف لا تستوعب قصة أهل الكهف ، بل تشرع في ذكرها ، أو ذكر عنوان القصة ، ولعل الشروع فيها يترتب عليه معرفتها بأكملها ويكون ذكر العشر الأوائل من السورة على جهة الاستدراج في حفظها بأكملها ، أو على الأقل إتمام حفظ قصة أهل الكهف فيها ، ويعزز هذا القول ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال

---

(١) سبق تخريجه

لم يسلط عليه أو لم يكن له عليه سبيل .» (١) و ما ورد أن من حفظ سورة الكهف ثم أدركه الدجال لم يسلط عليه . (٢)

التأويل الثالث :

إن هذا من خصائص سورة الكهف ؛ حيث إن لها نوراً خاصاً لا يستطيعه الدجال ، كما أن لآية الكرسي نوراً خاصاً يمنع الشيطان من الاقتراب من صاحبها ، وكما أن لخواتيم سورة البقرة نوراً يترتب عليه كفاية صاحبها من كل مكروه ليلته إذا قرأها قبل منامه .

ومثل هذه الخصوصية معلومة في كثير من النصوص ، فبعض الآيات لها أثر في موضع ما أكثر من غيرها كتأثير لبعض الآيات المخصوصة على السحر وغيرها على المس الشيطاني ، فللقرآن أسراره ، وتأثير سورة الكهف على الدجال من أسرار القرآن التي أطلعنا عليها نبيه .

ويعزز ما ذكرنا حديث النواس بن سمعان أن من أدرك الدجال فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، وفي هذا إشارة إلى خصوصية لهذه الآيات مؤثرة على الدجال وصارفة لكيده وموهنة لسطوته .

وكذلك يعزز القول بخصوصية سورة الكهف هذا الأثر الذي أورده الإمام أحمد عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ . ﴾ (٣)

فسورة الكهف لها نور خاص بها ، ونور سورة الكهف لا يستطيع الدجال اختراقه كما لا يستطيع اختراق المدينة المنورة .

---

(١) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٥٦٢ ، وقال عنه صحيح الإسناد [المستدرك (٥٧٧/٤)]

(٢) آبادي : عون المعبود (٤٥٣/١١)

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسند المكيين برقم ١٥٦٣٢ [المسند (٥٣٦/٣)] قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، وفي إسناد أحمد ابن لهيعة وهو ضعيف وقد يحسن [مجمع الزوائد (٥٢/٧)]

القول في التأويلات الثلاثة :

من نظر إلى التأويلات الثلاثة السابقة يجد أنها متقاربة ، وبعضها مترتب على الآخر ، فكون سورة الكهف لها خصوصية إنما يتصور لطبيعة المعاني المؤثرة في طياتها .

وحقيق على كل مسلم أن يتحصن بسورة الكهف حفظاً وتدبراً ويقيناً ؛ ليكون بذلك قد أعد سلاحه لمواجهة الفتنة العظمى .

ثالثا: العواصم العظمى : العلم والصبر واليقين .

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (١) وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

ذكرت سابقاً أماكن وآيات لها خصوصية عاصمة من فتنة الدجال ، لكن هذا لا يكفي ما لم يتوج برأس الأمر في تلك الفتنة ، وهو العلم والصبر واليقين ، صحيح أنك أخي المسلم قد تكون من قاطني الأماكن المعصومة كالمدينة المنورة مثلاً ، وصحيح أن الدجال لن يستطيع الدخول عليك في داخلها ، ولكن ما الذي يضمن لك أنك لن تخرج إليه بنفسك ، خاصة بعد الحصار الشديد والرجفات الثلاثة التي ترتجف بها المدينة .

فالموقع أو المكان لا يقدس أحداً ، إنما يقدسه عمله الذي قدمه ، فإن كنت من أهل العلم والإيمان والصبر واليقين ، فلا أثر للدجال عليك حتى لو قدر الله لك مواجهته بنفسك ، ولك عبرة في قصة الرجل الذي واجهه فما ازداد في هذه المواجهة –التي تضمنت عجائب عظمى – إلا إيماناً وتصديقاً ويأتي هنا تساؤل . ما الذي عصم هذا الرجل ؟ من تتبع قصته يرى أن ما عصمه هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : العلم بحقيقة هذه الفتنة ، وحدودها وطبيعتها ؛ لذا وجدنا أنه عندما رأى الآيات من الدجال،ما زاده ذلك إلا بصيرة وتصديقاً لما عهده من حديث رسول الله ﷺ .

---

(١) محمد:١٩

(٢) السجدة:٢٤

الأمر الثاني : الصبر ، فقد تعرض لبلاء عظيم ، فما كان منه إلا الصبر الذي أعقبه الدرجات العظمى عند الله سبحانه وتعالى .

الأمر الثالث : اليقين ، وهو رأس الأمر كله ووعاؤه الذي يحفظ به كل خير ، فهو العاصم للصبر والعلم من تخلل الخور والضعف والغفلة والتأويل ، فقد يعلم الرجل فتنة الدجال وحقيقتها ؛ إلا أنه يضعف أمام الشدائد ، وتغزو الشبهات قلبه ، فيقع في المصيدة ، وقد علمنا أن بعض أتباع الدجال يعلمون أنه الدجال ، ولكن حرموا الصبر على الشدائد ، وغاب عن قلوبهم نتائج اتباعه ، و غابت شمس اليقين بحقيقة الدنيا والآخرة عن سماء قلوبهم فوقعوا .

واليقين هو روح الإيمان ونوره الذي يتلألأ في قلب المؤمن ، وهو خير ما وقر في القلب ، ويظهر أثره في عموم حياة المؤمن ، وخصوصاً في زمن الدجال ، فعندما تشتد عليه الأمور من حصار وجوع وغيره ، يأته اليقين بالله سبحانه وتعالى ووعده من جنات النعيم ، ويقينه بما أخبر به رسوله فيمده بما يصبره على تلك الشدائد ، ويجنبه عواصف الشبهات .

ومن آثار اليقين وضوح رؤيا المؤمن في ذلك الزمان ، فيرى كل دلائل كذب الدجال ، خاصة كلمة الكفر بين عينيه ، ومن آثار اليقين نجاة المؤمن من خلال مخالفة المشاهد وتصديق ما أخبر به النبي ﷺ فيفر من ماء الدجال الخادع ، ويقتحم ناره التي ليست على حقيقتها .

المطلب الثامن : طعام المؤمنين في زمان الدجال

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. ﴾ (١)

(١) المائدة:١١٤

📖 - عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ جَهْدًا شَدِيدًا يَكُونُ بَيْنَ يَدَي الدَّجَّالِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : ﴿ يَا عَائِشَةُ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ . فَقُلْتُ : مَا يُجْزِئُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الطَّعَامِ ؟ قَالَ : مَا يُجْزِئُ الْمَلَائِكَةَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ قُلْتُ : فَأَيُّ الْمَالِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ ؟ قَالَ غُلَامٌ شَدِيدٌ يَسْقِي أَهْلَهُ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا طَعَامَ .﴾ (١)

📖 - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن طعام المؤمنين في زمن الدجال فقال : ﴿ طعام الملائكة . قالوا : وما طعام الملائكة ؟ قال : طعامهم منطقهم بالتسبيح والتقديس فمن كان منطقه يومئذ التسبيح والتقديس أذهب الله عنه الجوع فلم يخش جوعا . ﴾ (٢)

شرح :

- يتضح من الحديثين السابقين ، وغيره من الأحاديث (۞) أن المؤمنين لا يحرمون من عناية الله سبحانه وتعالى بهم ، فثباتهم على الحق وصبرهم عليه يثابون عليه خير الثواب ، باستغنائهم عما جبلوا عليه من طلب للطعام يسدون به رمقهم ، ويعتاضون به بطعام الملائكة وهو التسبيح .
- الحديثان السابقان يشهد لهما واقع الكرة الأرضية قبل وفي زمان الدجال ؛ حيث يعم القحط الأرض قبل الدجال ، ويعزز ذلك الدجال في حربه على المؤمنين ، فيشح الطعام في أيديهم ، فيجزئهم عنه التسبيح الذي يجعله الله سبحانه وتعالى كرامة لهم سبباً في دفع الجوع كالطعام ، والأمر كله لله سبحانه وتعالى .
- يتضح من الحديث الأول أن التسبيح يجزئ عن الطعام ، أما الشراب فنظراً لتوفر أسبابه بين أيديهم ببعض السعي ، فلا يعوضه التسبيح .

---

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار ٢٤٩٧٧ [المسند (١٤١٢/٦)] قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣٥/٧)]

(٢) أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٥٦١ ، وقال عنه : صحيح الإسناد على شرط مسلم [المستدرك (٥٧٧/٤)]

(۞) كحديث أبي أمامة الباهلي ، وأسماء بنت يزيد الذين سأذكرهما في المطولات

- هذه الكرامة توضح لنا معنى قول الرسول ﷺ عن الدجال أنه أهون من ذلك ؛ أي أحقر من أن يقهر المؤمنين بقطع أسباب الحياة عنهم ، وما يراه المفتونون به من قطع أسباب الحياة كالطعام عن المؤمنين ، عوضه الله سبحانه وتعالى لهم بأمر خفي عن الناس ، وهو حصول الشبع أو سد رمق الجوع بأمر غير مرئي للناس .

والذي أنزل مائدة من السماء على عيسى ﷺ وأتباعه في أول أمره قادر على أن يترل مائدة على أنصار ملة الحق ممن يستحقون نزول عيسى ﷺ في آخر أمره ، ولعل كون التأييد لأهل الحق في ذلك بطعام غير معهود فيه من الحكم الكثير ، منها : استدراج الدجال وأتباعه المفتونين به ؛ حيث يرون غروراً من أنفسهم أهم قادرون على كل شيء ، وهذا من تمام الفتنة بهم والمد في غيهم وطغياهم ، ومنها أن المؤمنين في ذلك يقع منهم ثبات غير معهود ، فناسب ذلك تأييد غير معهود ، ومنها أن المؤمنين في ذلك الوقت ناسب حالهم من الاستغناء عن الدجال وشهواته وطعامه ، أن يرزقوا صفة الاستغناء حقيقة عن أهم عناصر الحياة البشرية ، ومن يستغن يغنه الله ، ومنها أهم استحقوا وهم في شدهم وقيامهم على عمل الملائكة أن يكونوا مثلهم في الاستغناء عن الطعام .

المبحث الرابع
نهاية فتنة المسيح الدجال

أولاً : الحصار الشديد لبيت المقدس .

- ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (١)

- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢)

- عن ثَعْلَبَةُ بْنُ عَبَّادٍ الْعَبْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ شَهِدْتُ يَوْمًا خُطْبَةً لِسَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وفيه : ﴿ .. وَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ أَوْ قَالَ : سَوْفَ يَظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَّا الْحَرَمَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَإِنَّهُ يَحْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَيُزَلْزَلُونَ زِلْزَالًا شَدِيدًا ، ثُمَّ يُهْلِكُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجُنُودَهُ حَتَّى إِنَّ جِذْمَ الْحَائِطِ أَوْ قَالَ : أَصْلَ الْحَائِطِ وَأَصْلَ الشَّجَرَةِ لَيُنَادِي أَوْ قَالَ : يَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ أَوْ قَالَ : يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ أَوْ قَالَ : هَذَا كَافِرٌ تَعَالَ فَاقْتُلْهُ . قَالَ : وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا ؟ وَحَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَلَى مَرَاتِبِهَا ثُمَّ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ الْقَبْضُ . ﴾ (٣)

---

(١) الأحزاب:١١

(٢) البقرة:٢١٤

(٣) أخرجه أحمد في مسند البصريين برقم ٢٠١٩٩ [المسند (٢٢/٥)] ، وابن خزيمة في صحيحه برقم ١٣٩٧ [صحيح ابن خزيمة (٣٢٥/٢)] ؛ والحاكم برقم ١٢٣٠ ، وقال عنه : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [المستدرك (٤٧٩/١)] ؛ قال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح غير ثعلبة بن عباد ، وثقه ابن حبان [مجمع الزوائد (٣٤٢/٧)]

شرح الغريب :

جذم : أصل

الحائط : البستان ، وجذم الحائط أي أصل البستان .

ثانياً : نهاية الدجال وشيعته .

- عن مُجَمِّعَ ابْنَ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَقُولُ يَقْتُلُ ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُدٍّ . ﴾ (١)

- عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ .. وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ - أي الدجال - شَيَاطِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ ، وَمَعَهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ وَيَقْتُلُ نَفْسًا ثُمَّ يُحْيِيهَا فِيمَا يَرَى النَّاسُ لَا يُسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ النَّاسِ وَيَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ! هَلْ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ : فَيَفِرُّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى جَبَلِ الدُّخَانِ بِالشَّامِ ، فَيَأْتِيهِمْ فَيُحَاصِرُهُمْ فَيَشْتَدُّ حِصَارُهُمْ وَيُجْهِدُهُمْ جَهْدًا شَدِيدًا ، ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُنَادِي مِنَ السَّحَرِ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَبِيثِ ، فَيَقُولُونَ : هَذَا رَجُلٌ جِنِّيٌّ ، فَيَنْطَلِقُونَ فَإِذَا هُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، فَتُقَامُ الصَّلَاةُ فَيُقَالُ لَهُ : تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ فَيَقُولُ : لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ ، فَإِذَا صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ خَرَجُوا إِلَيْهِ . قَالَ فَحِينَ يَرَى الْكَذَّابُ يَنْمَاثُ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَيَمْشِي إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ وَالْحَجَرَ يُنَادِي يَا رُوحَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ فَلَا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ يَتْبَعُهُ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ ﴾ (٢)

شرح الغريب :

ينماث : يذوب

- عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن الرسول ﷺ من حديث طويل عن الدجال : ﴿ إِذْ

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن برقم ٢٣٤٥وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٥١٣/٦)]

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٤٩٦٥ [المسند (٤٥٠/٣)] ؛ والحاكم ، وقال : هو على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي [المستدرك ٥٣٠/٤)]

بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ... ﴾ (١)

📖 - عن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث طويل عن الدجال ، وفيه : ﴿ .. وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ ، فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ فَإِذَا انْصَرَفَ . قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام : افْتَحُوا الْبَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا ، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ ، فَيَقْتُلُهُ فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لَا حَجَرَ وَلَا شَجَرَ وَلَا حَائِطَ وَلَا دَابَّةَ إِلَّا الْغَرْقَدَةَ ، - فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ - إِلَّا قَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ .. ﴾ (٢)

📖 - عن حذيفة بن أسيد ﷺ قال : « فيرد كل منهل فتطوى له الأرض طي فروة الكبش حتى يأتي المدينة فيغلب على خارجها ويمنع داخلها ثم جبل إيلياء فيحاصر عصابة من المسلمين فيقول لهم الذين عليهم ما تنتظرون بهذا الطاغية أن تقاتلوه

(١)جزء من حديث طويل سيأتي ، أخرجه مسلم في الفتن [مسلم بشرح النووي (٦٣/١٨)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٢٩٩ [عون المعبود (٤٤٥/١١)] وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٥ [السنن (١٣٥٦/٢)]

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه ابن ماجة بطوله برقم ٤٠٧٧ [السنن (١٣٥٩/٢)] ؛ وأبو داود مختصراً برقم ٤٣٠٠ ، وقال شارحه : « أما إسناد المؤلف حديث أبي أمامة فصحيح ، ورواته كلهم ثقات [عون المعبود (٤٤٩/١١ وما بعدها)] .

حتى تلحقوا بالله أو يفتح لكم فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا فيصبحون ومعهم عيسى بن مريم فيقتل الدجال ويهزم أصحابه حتى أن الشجر والحجر والمدر يقول يا مؤمن هذا يهودي عندي فاقتله قال وفيه ثلاث علامات هو أعور وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن أمي وكاتب ولا يسخر له من المطايا إلا الحمار فهو رجس على رجس .. » (١)

شرح الغريب :

فروة الكبش : أي جلد الكبش ، وذلك كناية عن سرعة تحرك الدجال

جبل إيلياء : إيلياء مدينة بيت المقدس ، ويعني بجبلها جبل الدخان كما ورد ذكره في حديث جابر ، ويحتمل أن يراد به جبل الطور ، والله أعلم .

خلاصة القول في حصار بيت المقدس ونهاية الدجال .

- بعد حصار الدجال للمدينة وقد منعته الملائكة منها ، وحدوث الرجفات الثلاثة وخروج شرار المدينة ليتبعوا الدجال ، وهو يوم الخلاص ، يعلم الدجال أنه لا مجال له مع أهل المدينة المنورة ، فيبدأ بالتحرك نحو بيت المقدس الذي تتواجد فيه القوة الأكبر من المسلمين وإمامهم ، وطبعاً يكون عدد المسلمين بعد هذه الفتنة قليلاً جداً (۞) ، وفي طريقه لبيت المقدس يحصد الدجال من بقي في طريقه من قبائل ، ويتبعه شرار تلك البقاع إلى أن يصل إلى بيت المقدس ، وهناك يبدأ الحصار العظيم لأهل الحق .
- يلحظ من الأحاديث السابقة أن جل جيش الدجال من اليهود ، وذكرت بعض الأحاديث أن عددهم سبعون ألفاً ، وهو نفس العدد الذي كان معه حين خروجه من أصبهان ، والكلام هنا يحتمل أن يراد بالسبعين في المعركة الأخيرة الكثرة وليس الحصر في عدد معين ، وهذا معهود في كلام العرب ، ويحتمل أن عددهم حقيقة هو

(١) جزء من أثر طويل أخرجه الحاكم في الفتن برقم ٨٦١٢ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي ، والحديث موقوف يأخذ حكم المرفوع [المستدرك (٥٧٤/٤)]

(۞) ورد في بعض الآثار أنهم اثنا عشر ألفاً من الرجال وثمانية آلاف من النساء

سبعون ألفاً ، وهذا فيه إشارة عجيبة ، وهي أن غير يهود أصبهان قد حصدهم الملاحم قبل خروج الدجال ، وإلا لو كان لهم وجود في بقاع أخرى لوجدنا أن العدد الذي تحرك من بداية فتنة الدجال من المشرق والمصرح بأنهم سبعون سيزيد بصورة ملحوظة بعد سيطرة الدجال على جميع بقاع العالم ، ولما لم يرد أي أثر يشير إلى زيادة العدد ، دل ذلك على أن غير يهود أصبهان لا وجود لهم في زمن الدجال .

- التصريح بكون جند الدجال هم من اليهود لا ينفي وجود غيرهم من جنوده ، لكن فيه إشارة إلى أن القاعدة الصلبة البارزة من جند الدجال في هذه المعركة هم من اليهود ، ولعل استدراجهم لمعركة فلسطين بالذات له علاقة إما بوعد ملك السلام (الدجال) لهم بدولتهم في أرض الميعاد ، وإما هي نزعة انتقام لقريب عهدهم بزوال دولتهم فيها ، فيأتون ليستردوا ملكهم السليب .
- يتضح من الروايات المتعددة أن حال المؤمنين يكون شديداً جداً ، فهم في حصار وتجويع ، وخوف من هذا الرجل الطاغية الذي يشبه الجن في أفعاله ، وقد صرح بعض المؤمنين بأنه ـ أي الدجال – جني (۞) ورأوا من دلالات حالهم أنهم لا يقدرون عليه ، وفي بعض الروايات أنهم أرسلوا له طليعة فماتت جميعاً ؛ لذا وجدوا أن أسلم طريقة لهم هو التحصن في جبل الدخان كما في رواية ، وفي رواية أخرى جبل إيلياء ، ودلائل السياق تشير إلى أنهما جبل واحد ذكر مرة نسبة إلى الموقع ومرة بما يشتهر به عند الناس .
- تذكر بعض الروايات أن عيسى ﷺ يترل عند المنارة البيضاء شرق دمشق ، وبعضها يشير إلى أنه يترل عليهم في بيت المقدس أو في الجبل الذي يحاصرون فيه ، ومن تأمل الأحاديث ملياً يجد أنه لا تعارض بينها إذا تصور طبيعة المعركة ، فالدجال قد جاء

(۞) هذا يعزز ما ذكرته سابقاً من أن الدجال ليس بشرياً محضاً ، بل هو خلق مغاير للبشر ، وأقرب للجن في بعض قدراته ؛ لذا قياسه على الظاهرة البشرية يعتبر خطأً كما بينت في المبحث الخاص بابن صياد

للمسلمين من ناحية الجنوب أي من ناحية المدينة المنورة ؛ وأول مواجهة له مع المسلمين كانت في ناحية بيت المقدس ، وهذا طبعاً لا يعني أن غير بيت المقدس من الشام ليس فيه مسلمون ، خاصة ناحية دمشق التي كانت معقل المسلمين في الملاحم ، بل كان فيها مسلمون ، لكن ثغر المواجهة كان في بيت المقدس ، وببطن الأردن ، يؤيد ما ذكرت ما ورد في الأحاديث أنه يحاصر عصابة من المسلمين ، ووفقاً لهذا السياق نستطيع أن نقول بأن نزول عيسى ﷺ من السماء كان على المنارة البيضاء شرق دمشق ، حيث عاين أهلها ذلك النزول ، ومنها تحرك ناحية ثغر المسلمين الذي حوصروا فيه ، وفي أثر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما « فبينا هم تحت ضبابة من غمام إذ تكشف عنهم الضبابة مع الصبح ، فإذا بعيسى بن مريم بين ظهرانيهم . » (١) فهذا الأثر يعزز ما ذكرت ، وهذه العصابة فيها بيضة المسلمين وقوتهم وإمامهم ، وعندهم يرفض أن يؤم بالمسلمين ، ويتركها للإمام تكرمة لهذه الأمة ، وورد في الآثار السابقة أنه تكلم بينهم محرضاً لهم على الخروج على الدجال ، فلما انتبهوا للمتكلم وجدوه أنه عيسى ﷺ فعلموا أن الفرج قد جاء ، وأن عيسى ﷺ قد نزل من السماء ، أما لحظة نزوله من السماء فقد عاينها أهل دمشق بأنفسهم، على خلاف أهل ثغر بيت المقدس .

- الأحاديث واضحة الدلالة أن نزول عيسى ﷺ كان قبل صلاة الفجر ، وفي أثر عن أبي هريرة أنه ينزل بين أذانين (٢) ، ولا أعلم هل يراد به بين الأذان والإقامة ، أو يراد بين الأذان الأول والثاني عند الفجر ، وكلاهما محتمل وإن كان الأول أوجه في هذا المقام و يعززه السياق .
- في الأحاديث إشارة واضحة إلى أن نزول عيسى ﷺ كان في أحلك الظروف وأشدها على المسلمين حيث بلغ الحصار مداه منهم ، واستعدوا للقاء الدجال

(١) ابن حماد : الفتن (٣٨٨)

(٢) ابن حماد : الفتن (٣٨٨)

ومواجهته مهما كانت النتائج .

- الملاحظ أن تلك الفترة لا يؤيد بها المسلمون بعيسى ﷺ ، بل يؤيدون بكل مسبح حولهم من شجر وحجر فيتدخلون في المعركة للنيل من شيعة الدجال .
- تأييد المسلمين بعيسى عليه السلام وبالشجر والحجر كان بعد صدق المؤمنين وثباتهم على الدين ونجاحهم في الاختبار ، فناسب ذلك أن يؤيدوا تأييداً حقيقياً بالخوارق التي أبطلت خوارق وكيد وسطوة الدجال المزيفة .
- فتنة الدجال على عظمتها انتهت بأهون الأسباب ، وهو نفس واحد من عيسى ﷺ ذاب معه الدجال كما يذوب الملح ، وهذا مثل واضح على أن قوة الباطل مهما عظمت فهي خيوط عنكبوت .
- يتضح من حديث النواس بن سمعان أن عيسى ﷺ يأتي بعد نهاية المعركة إلى من عصمهم الله سبحانه وتعالى من الدجال ، فيمسح على وجوههم ويبلغهم بدرجاتهم في الجنة ، فكما أنه كان في زمان النبي محمد ﷺ من يمشي على الأرض وهو من أهل الجنة كذلك يختم بنفس الأمر بأن يمشي على الأرض من هو من أهل الجنة في عهد عيسى ﷺ ، وما بينهما من أمة محمد ﷺ فيوكل أمره إلى الله .

المبحث الخامس
المطولات من أحاديث الدجال

هذا المبحث آثرت أن أذكر فيه الأحاديث الطويلة المفصلة لفتنة الدجال وما قبلها وما بعدها ، وسأقتصر على شرح الأمور التي لم أذكرها سابقاً في المواطن التفصيلية ، وأقصد من ذكر هذه الأحاديث بقسم خاص أمرين .

الأول : هذه الأحاديث الطويلة تبين طبيعة فتنة الدجال بشكل تسلسلي ، وتصورها بشكل متكامل يعين على فهمها .

الثاني : هذه الأحاديث كنت قد اجتزأت منها - خاصة الحديثين الأولين - في المواطن التفصيلية بما يناسب كل مكان ؛ لذا رأيت هنا أن أذكرها حسب روايتها الطويلة ليلتئم في نظر القارئ مجموع الأجزاء التي اجتزأتها ، ولا يلتبس عليه الأمر إذا أراد أن يرجع إلى المصادر الأصلية .

📖 - -عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ : ﴿ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا .

فَقَالَ ﷺ : مَا شَأْنُكُمْ ؟

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ .

فَقَالَ ﷺ : غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ؟ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا !

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ ؟

قَالَ ﷺ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ .

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّه ! فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ ؟

قَالَ ﷺ : لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ .

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّه ! وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ ؟

قَالَ : كَالْغَيْث اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ... ﴾ (١)

شرح الغريب :

خفض فيه ورفع : معناه أن النبي ﷺ حقر الدجال بما وصفه من أوصاف النقص ، وعظم فتنته والمحنة التي يمر بها الناس في زمانه ، وقيل خفض صوته بعد طول كلام ليستريح ثم رفعه ، ويحتمل أن يراد به أن النبي ﷺ قرب زمان حدوث فتنته وباعد فيه ، ومن نظر لسياق الحديث يرى أنه يشهد لهذا الاحتمال .

كالغيث استدبرته الريح : مثال يشير إلى أن سرعته شديدة لا تدرك كما وكيفياً كما لا تدرك سرعة الغيث الذي تحركه العواصف كما وكيفاً .

فتروح عليهم سارحتهم : أي ترجع عليهم ماشيتهم ليلاً بعد خروجها للمرعى

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٧ [مسلم بشرح النووي (٢٥٥/٩)]

ذراً : جمع من الذروة ويراد به الأسنمة ؛ أي تعود الأسنمة ممدودة لكثرة الخير

أسبغه ضروعاً : كناية عن كثرة اللبن ، والضروع جمع ضرع وهو الثدي .

أمده خواصر : الخاصرة هي ما تحت الجنب ومدها كناية عن الامتلاء وكثرة الأكل .

ممحلين : المحل القحط

كيعاسيب النحل : اليعسوب أمير النحل ، والكلام فيه قلب والأصل كنحل اليعاسيب ، لأن النحل تتبع اليعسوب .

جزلتين : قطعتين

رمية الغرض : بقدر تحديد الهدف ، ويراد به هنا أن الدجال يقطعه قطعتين لا شك فيها كما يحصل عند السحرة ، أي بعد أن يقطعه قطعتين يجعل بينهما فراغاً بقدر ما يستطيع الرامي أن يرمي بينهما سهمه .

بين مهرودتين : أي لابس ثوبين مصبوغين ، وقيل هما شقتان والشقة نصف الملاءة .

جمان : حبات من الفضة تصنع كهيئة اللؤلؤ .

📖 - عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ ﷺ فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ وَحَذَّرَنَاهُ فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ أَنْ قَالَ : « إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لَا مَحَالَةَ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي فَكُلٌّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَيَعِيثُ يَمِينًا وَيَعِيثُ شِمَالًا . يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا فَإِنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي ، إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ثُمَّ يُثَنِّي فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ فَلْيَسْتَغِثْ بِاللَّهِ وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ الْكَهْفِ فَتَكُونَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتِ النَّارُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ : أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ

فَيَقُولَانِ : يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَقْتُلَهَا وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ ثُمَّ يَقُولَ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي ، فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ وَيَقُولُ لَهُ : الْخَبِيثُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَأَنْتَ عَدُوُّ اللَّهِ ، أَنْتَ الدَّجَّالُ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ بَعْدُ أَشَدَّ بَصِيرَةً بِكَ مِنِّي الْيَوْمَ قَالَ ﷺ : ذَلِكَ الرَّجُلُ أَرْفَعُ أُمَّتِي دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ ، قال : وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُكَذِّبُونَهُ فَلَا تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُصَدِّقُونَهُ فَيَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ ، وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ حَتَّى تَرُوحَ مَوَاشِيهِمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ وَأَعْظَمَهُ وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ وَأَدَرَّهُ ضُرُوعًا وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَطِئَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَا يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلَّا لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً ، حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الْأَحْمَرِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ فَتَنْفِي الْخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَلَاصِ فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي الْعَكَرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ . فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام افْتَحُوا الْبَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام : إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ ، فَيَقْتُلُهُ فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا حَجَرَ ، وَلَا شَجَرَ ، وَلَا حَائِطَ ، وَلَا دَابَّةَ – إِلَّا الْغَرْقَدَةَ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ – إِلَّا قَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ

اقْتُلْهُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَلَا يَبْلُغُ بَابَهَا الْآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقِصَارِ ؟ قَالَ : تَقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ كَمَا تَقْدُرُونَهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطِّوَالِ ؟ ثُمَّ صَلُّوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا يَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ ، وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي الْحَيَّةِ فَلَا تَضُرَّهُ ، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا ، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا ، وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلَأُ الْإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الْقِطْفِ مِنَ الْعِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا يُرْخِصُ الْفَرَسَ ؟ قَالَ : لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا قِيلَ لَهُ فَمَا يُغْلِي الثَّوْرَ؟ قَالَ : تُحْرَثُ الْأَرْضُ كُلُّهَا . وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِي الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ فَلَا تُقْطِرُ قَطْرَةً وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ قِيلَ : فَمَا يُعِيشُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ؟ قَالَ : التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ. ﴾

قَالَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمُحَارِبِيِّ : « يَنْبَغِي أَنْ يُدْفَعَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ حَتَّى يُعَلِّمَهُ

الصِّبْيَانَ فِي الْكُتَّابِ ﴾ (١)

شرح الغريب :

ذرأ : خلق

حجيج : الخصم الغالب في الحجة والبرهان .

سائمة : الدواب التي ترعى البراري ولا تعلف

أمده خواصر : كناية عن كثرة الامتلاء والأكل

أذره ضروعاً : كناية عن كثرة لبن الثدي

نقب : الطريق في الجبل ، وقيل الفرجة بين الجبلين

السبخة : الأرض المالحة التي لا تنبت .

الخبث : الأوساخ والشوائب .

الكير : آلة لنفخ النار وإشعالها .

القهقرى : الرجوع إلى الوراء

القسط : العدل

ويضع الجزية : أي يسقط ما يدفعه أهل الذمة للمسلمين ، والمراد به أنه لا يقبل أهل ذمة في زمانه .

الحمة : السم ، والمراد لذغة العقرب .

📖 عن سمرة بن جندب ﷺ عن رسول الله ﷺ في خطبته بعد كسوف الشمس حيث قال : ﴿ .. أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ رِجَالًا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ وَكُسُوفَ هَذَا الْقَمَرِ ، وَزَوَالَ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَطَالِعِهَا ، لِمَوْتِ رِجَالٍ عُظَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْتَبِرُ بِهَا عِبَادُهُ ، فَيَنْظُرُ مَنْ يُحْدِثُ لَهُ مِنْهُمْ تَوْبَةً ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ قُمْتُ أُصَلِّي مَا أَنْتُمْ لَاقُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ كَذَّابًا آخِرُهُمْ الْأَعْوَرُ الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى كَأَنَّهَا عَيْنُ أَبِي يَحْيَى ، لِشَيْخٍ حِينَئِذٍ مِنْ الْأَنْصَارِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا وَإِنَّه مَتَى يَخْرُجُ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَزْعُمُ أَنَّهُ اللَّهُ فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ صَالِحٌ مِنْ عَمَلِهِ سَلَفَ ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَهُ لَمْ

---

(١)أخرجه ابن ماجة بطوله برقم ٤٠٧٧ [السنن (١٣٥٩/٢)] ؛ وأبو داود مختصراً برقم ٤٣٠٠ ، وقال شارحه : « أما إسناد المؤلف حديث أبي أمامة فصحيح ، ورواته كلهم ثقات [عون المعبود (٤٤٩/١١ وما بعدها)] ؛ وأخرجه أيضا ابن أبي عاصم برقم ٣٩٠ ، ورمز لسنده عند ابن ماجة بالضعف ،ثم عقب عليه بقوله : « والحديث أخرجه ابن ماجه والآجري في الشريعة من طرق أخرى عن السيباني ، ولي رسالة في تخريج هذا الحديث وتحقيق الكلام على فقراته التي وجدت لأكثرها شواهد نقويها [السنة لابن أبي عاصم (٣٩١/١)] .

يُعَاقَبْ بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ ، - وَقَالَ حَسَنٌ الْأَشْيَبُ : بِسَيِّئٍ مِنْ عَمَلِهِ سَلَفَ - وَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ أَوْ قَالَ : سَوْفَ يَظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَّا الْحَرَمَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ وَإِنَّهُ يَحْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيُزَلْزَلُونَ زِلْزَالًا شَدِيدًا ثُمَّ يُهْلِكُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجُنُودَهُ حَتَّى إِنَّ جِذْمَ الْحَائِطِ أَوْ قَالَ: أَصْلَ الْحَائِطِ - وَقَالَ حَسَنٌ الْأَشْيَبُ : وَأَصْلَ الشَّجَرَةِ - لَيُنَادِي أَوْ قَالَ يَقُولُ يَا مُؤْمِنُ أَوْ قَالَ : يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ أَوْ قَالَ : هَذَا كَافِرٌ تَعَالَ فَاقْتُلْهُ قَالَ : وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا وَحَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَلَى مَرَاتِبِهَا - وفي رواية الحاكم وابن أبي شيبة : عن مراسيها - ﴾ (١)

---

(١) أخرجه أحمد في أول مسند البصريين برقم ٢٠١٩٩ [المسند (٥/٢٢)] وابن أبي شيبة برقم ٣٧٥١٣ [المصنف (٧/٤٩٦)] ؛ والبيهقي برقم ٦١٥٤ [السنن الكبرى (٣/٣٣٩)] ؛ والطبراني في الكبير برقم ٦٧٩٩ [المعجم الكبير (٧/١٩٢)] ؛ والحاكم برقم ١٢٣٠ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه [المستدرك ، (١/٤٧٨)] قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ثعلبة بن عباد ، وثقه ابن حبان [مجمع الزوائد (٧/٣٤٢)]

الفصل الخامس : مرحلة عيسى ﷺ

ويتضمن المباحث الخمسة التالية

المبحث الأول : نزول عيسى ﷺ علامة من علامات الساعة

المبحث الثاني : الحكمة من نزول عيسى ﷺ

المبحث الثالث : الإمامة في عهد عيسى ﷺ

المبحث الرابع : سيرة عيسى ﷺ

المبحث الخامس : مسائل متفرقة متعلقة بعهد عيسى ﷺ

المبحث الأول
نزول عيسى ﷺ علامة من علامات الساعة

🕮 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ (١)

شرح :

هذه الآية في الراجح من أقوال المفسرين يراد بها أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به عند نزوله وقبل موته ، وفيها إشارة قوية إلى نزول عيسى ﷺ آخر الزمان ، وبطلان شبه اليهود الذين ادعوا أنهم قتلوه ، وأنه لا يعدو كونه ساحراً من السحرة ، و في الآية إبطال لشبهات بعض النصارى ممن وافقوا اليهود في ادعائهم واعتقادهم أنه صلب ، وشبهاتهم بأنه ابن الله ، تعالى الله عما يقولون .

🕮 - قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢)

شرح :

هذه الآية في الراجح من أقوال المفسرين يراد بها أن نزول عيسى ﷺ في آخر الزمان يعتبر علماً من أعلام الساعة ، وعلامة من علامات فناء الدنيا وقرب القيامة .

🕮 - عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ . ﴾ (٣)

---

(١) النساء:١٥٩

(٢) الزخرف:٦١

(٣) أخرجه البخاري في المظالم برقم ٢٤٦٧ [فتح الباري (٥/١٤٤)]

أقول :

الحديث فيه إشارة واضحة أن نزول عيسى ﷺ هو علامة من علامات الساعة ؛ لذا ربط النبي ﷺ بين نزوله وقيامها .

المبحث الثاني
الحكمة من نزول عيسى ﷺ

أشار القرطبي إلى حكمة نزول عيسى ﷺ من ثلاث وجوه ، أذكرها مع بعض الإضافات والتوجيهات :

الوجه الأول :

إن اليهود لعنهم الله كانوا أكثر من آذى عيسى ﷺ ، فقد هموا بقتله وصلبه ، فنجاه الله سبحانه وتعالى من بين أيديهم ، ونسبوه للسحر ، ونسبوا لأمه الصديقة البهتان إلى غير ذلك ، والمعلوم أن غاية قوقم لن تكون إلا زمان الدجال [نبيهم المزعوم] الذي يعتبر أسحر الناس وأكذبهم ، وهم مع ذلك أكثر الناس إخلاصاً له و إيماناً بربوبيته ، وبذلك يكونون قد بلغوا من الغي والضلال أشده ؛ حيث يتصورون بغيهم أنهم يستطيعون القضاء على الزمرة المؤمنة في بيت المقدس ، ويقوم ملكهم بعد ذلك .

فناسب ذلك نزول الرجل الذي ظنوا أنهم قتلوه وانتهوا منه بعد أن اتهموه بالسحر فينصره الله سبحانه وتعالى على دجالهم فيقتله ، ويبطل كيدهم ، ويهزمهم مع إلههم المزعوم .

ويكون نزوله في اللحظة التي لا يصلح معها دينان في الأرض ، بعدما يظهر الحق وما التبس من الأمر على يديه بما لا يدع مجالاً للشك .

الوجه الثاني :

يحتمل أن يكون نزوله لقرب أجله ، ولا ينبغي لمخلوق خلق من التراب أن يموت في السماء لقوله تعالى:﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١)

ووفق هذا الاحتمال لا يكون نزوله لقتال الدجال قصداً ، بل وافق نزوله استعظام فتنته ؛ لذا هو أولى من ينصر أهل الحق .

---

(١) طـه:٥٥

الوجه الثالث :

إن عيسى ﷺ وجد فضل أمة محمد ﷺ كما بين القرآن ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأَنْجِيلِ ﴾ . (١)

فدعا الله سبحانه وتعالى أن يجعله من أمة محمد ﷺ فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه ، ورفـعه إلى السـماء إلى أن ينـزله آخر الزمان مجدداً ما درس من دين محمد ﷺ. (٢)

هذا ما ذكره القرطبي ، وأضيف إليه بعض الوجوه الأخرى :

الوجه الأول :

المعلوم أن عيسى ﷺ قد بهته اليهود واهموه بالسحر وغالى فيه النصارى واعتبروه إلها ، واليهود بزعمهم ينتظرون مخلصهم في آخر الزمان ، والنصارى تنتظر نزول إلههم المزعوم ليخلصهم ويرفعهم فوق السحاب بينما البشرية تحترق بمعاصيها .

فإذا أضفنا لذلك ما يعتقده المسلمون من كون عيسى ﷺ هو مجرد نبي أرسله الله سبحانه وتعالى ، فنكون أمام ثلاث دعاوى منها واحدة هي الحق .

وأنسب مقام يترل فيه عيسى ﷺ ، هو ذلك الوقت الذي يستشري فيه الظلم والكذب في زمان الدجال ، فيكون نزوله إبطالاً لدعوى اليهود ؛ حيث يرون بأم أعينهم مقتل إلههم المزعوم على يد عيسى ﷺ ، ولا يبقى لليهود شبهة يتعلقون بها ، وكذلك يبطل زعم النصارى بأنه إله ، حيث يكون في بادئ أمره تابعاً من أتباع أمة محمد ﷺ .

الوجه الثاني :

المعلوم أنه قبل نزول عيسى ﷺ تتحد الملل على قتال المسلمين ، ويوافق ذلك دعاية إعلامية واسعة ضدهم ، باعتبارهم مخالفين للحق ، أو مخالفين للشرع الدولي الذي يقوده الدجال ، فناسب ذلك أن تكون النصرة الربانية لأهل الحق غير معهودة ومبطلة لكل

---

(١) الفتح: من الآية٢٩

(٢) انظر القرطبي : التذكرة (٧٦٤ وما بعدها)

دعاوى أهل الباطل ، وذلك يتأتى بنزول عيسى ﷺ ليكون عوناً لأهل الحق ، ومبطلاً لمزاعم الديانات المنحرفة .

وحرب غير معهودة على أهل الحق ناسب معها نصرة غير معهودة .

الوجه الثالث :

عيسى ﷺ من الرسل أولي العزم ، وأولوا العزم هم أكثر الأنبياء ابتلاءً ، وأعلاهم درجة ، وأكثرهم تأثيراً في معركة الحق والباطل ، والمعلوم من سيرة عيسى ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قدر رفعه في أول مواجهة حقيقية مع أهل الباطل ؛ لذا ناسبت طبيعة درجته العظيمة نزوله في أعظم محنة ليكمل رسالته في مجاهدة أعظم قوى الشر في العالم ، وليكون فيصلاً في خاتمة معارك الحق والباطل مع أعظم أمرين يعصفان بأمة الحق في الأرض ، وهما الدجال ويأجوج ومأجوج ، ويكون بذلك قد استكمل درجته العليا كرسول من رسل أولي العزم .

الوجه الرابع :

من تتبع سيرة أولي العزم يجد أن النصر كان حليفهم في معاركهم مع أهل الباطل ، فنوح عليه السلام أُغرِقت الأرض بما تحمله من أهل الباطل في زمانه ، و إبراهيم الخليل انتصر في معركته مع النمروذ ، وموسى عليه السلام انتصر في معركته مع فرعون ، وكذلك محمد ﷺ انتصر في معركته مع المشركين وأهل الكتاب في زمانه .

أما عيسى ﷺ فقد ادخرت نصرته على يهود زمانه الذين بهتوه ، وحرفوا الكلم الدال على نبوته ، كما حرفوا الكلم الدال على نبوة محمد ﷺ ، وبقوا ينتظرون نبيهم المزعوم ، الذي يرون نعته في الدجال ؛ فكان أنسب أوقات نصرة عيسى ﷺ هو أن يدير حلقة الصراع مع يهود آخر الزمان مع نبيهم أو إلههم المزعوم .

الوجه الخامس :

المعلوم أن اليهود كانوا قد بشروا بعيسى ﷺ فكذبوه واتهموه وتآمروا عليه إلى أن رفعه الله ، وكذلك كذبوا برسالة محمد ﷺ مع علمهم الأكيد أنه رسول الحق ، واستمروا

في غيهم وبقوا على ضلالاهم ينتظرون ملكهم أو نبيهم الذي في مخيلتهم ؛ فعندما عاندوا الحق حرموا منه ، وصدقوا وآمنوا بالباطل الأكبر وهو الدجال الذي رأوا فيه صورة موعودهم الذي يتناسب وعقليتهم ؛ لذا ناسب الأمر نزول مسيح الحق ليهلك مسيح الضلالة في آخر الزمان .

الوجه السادس :

تعتبر مرحلة نزول عيسى ﷺ من أحلك المراحل التي تمر بأهل الحق على الأرض ، والمواجهة فيها تكون بأعلى درجاها ؛ لذا ناسب الأمر أن يكون لأحد الأنبياء نصيبٌ في ذلك الصراع العظيم ، والمعلوم أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء ، ولا نبي يبعث بعده ؛ لذا ناسب الأمر نزول عيسى ﷺ ليكون بشارة لأهل الحق وترغيماً لأهل الباطل ، وهذا من مقتضيات رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة التي كان نصيبها رسولين من رسل أولي العزم ؛ حيث ابتدأ أمرها بأعظم الرسل وسيد الأولين والآخرين ، وآخرها بكلمة الله عيسى ﷺ أحد الرسل أولي العزم ، فكان ذلك تعويضاً لها على قلة الأنبياء فيها كما كانت الأمم السالفة .

المبحث الثالث
الإمامة في عهد عيسى ﷺ

يتضح من بعض الروايات أنها تشير إلى أن الإمارة تكون في يد رجل من الأمة ويراه الأكثرون أنه الإمام المهدي ﷺ ، أما عيسى ﷺ فيكون بمثابة وزير لهذا الإمام ، وفي بعضها ما يشير إلى أن الإمارة أو الإمامة تكون لعيسى ﷺ ، وإن كانت قبله بيد رجل صالح من الأمة ، وتوجيه هذه المسألة يقتضي بيان هذه الأحاديث ووجه الجمع بينها :

أ - الإشارات النبوية الدالة على أن الإمارة بيد رجل من الأمة ، وعيسى ﷺ يكون تابعاً له :

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ . ﴾ (١)

وجه الدلالة :

الحديث صريح بأن عيسى ﷺ يكون تابعاً في أمة محمد ﷺ وليس متبوعاً ، والمقصود بالإمامة هنا إمامة الدنيا والدين كما سيتضح في الحديث الثاني .

- عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ : فَيَنْزِلُ عِيسَى ﷺ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ : تَعَالَ صَلِّ لَنَا . فَيَقُولُ : لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ . ﴾ (٢)

وجه الدلالة :

الحديث صريح في عدم قبول عيسى ﷺ الإمامة معللاً ذلك بأن بعض هذه الأمة

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٤٩ [فتح الباري (٥٦٦/٦)] ؛ومسلم في الإيمان برقم ١٥٥ [مسلم بشرح النووي (٤٢٩/١)]

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٥٦ [مسلم بشرح النووي (١/ ٤٣٠)]

أمراء على بعض تكرمة لها ، وهذا التعليل يوضح بأن المراد بالإمامة إمامة الدين والدنيا ، وإلا لما قال بعضكم على بعض أمراء ولعل الحكمة في عدم تقدمه للإمامة هو دفع غبار الشبهة والإشكال من قلوب المؤمنين ؛ إذ قد يقع في النفس إشكال وهو : هل تقدم رسول الله للإمامة نائباً عن شرع محمد ﷺ ، أو مبتدئاً شرعاً جديداً ؟ فلما لم يتقدم علم المؤمنون أن شريعة محمد ﷺ متصلة إلى يوم القيامة،وعيسى ﷺ يحكم بها ، يقول القرطبي : « لا يجوز أن يتوهم أن عيسى ﷺ ينزل نبياً بشريعة متجددة غير شريعة محمد ﷺ ، بل إذا نزل فإنه يكون يومئذ من أتباع محمد ﷺ كما أخبر النبي ﷺ حيث قال لعمر ، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي ...فعيسى عليه السلام إنما ينزل مقرراً لهذه الشريعة ، ومجدداً لها ، إذ هي آخر الشرائع ، ومحمد ﷺ آخر الرسل. » (١)

فإذا أضفنا للحديثين باقي الروايات الأخرى السابق ذكرها في نهاية الدجال والدالة على رفض عيسى ﷺ للإمامة تبين من ذلك أن الإمام ، أو الأمير هو من أمة محمد ﷺ ، أما عيسى ﷺ فيكون بمثابة الوزير والمستشار لهذا الأمير ، يعزز ذلك الأثر الوارد عن كعب وفيه قال عيسى ﷺ : « إنما بعثت وزيراً ولم أبعث أميراً . » (٢)

ب- الإشارات النبوية الدالة على أن الإمارة تكون لعيسى ﷺ .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ فَقُلْتُ لِابْنِ أَبِي ذِئْبٍ إِنَّ الْأَوْزَاعِيَّ حَدَّثَنَا عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ قَالَ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ تَدْرِي مَا أَمَّكُمْ مِنْكُمْ قُلْتُ : تُخْبِرُنِي قَالَ فَأَمَّكُمْ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ﴾

وفي رواية أخرى لمسلم : ﴿ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّكُمْ. ﴾ (٣)

وجه الدلالة :

الحديث بروايتيه يشير إلى أن عيسى ﷺ هو الإمام للأمة بعد نزوله .

---

(١) القرطبي : التذكرة (٧٦٣)

(٢) نعيم : الفتن (٣٨٧)

(٣) أخرج مسلم الروايتين في الإيمان برقم ١٥٥ [مسلم بشرح النووي (٤٢٩/٩)]

ويجاب على هذا الاستدلال :

بأن هذا معارض للأحاديث السابقة الدالة على أن الإمام من الأمة .

ويرد عليه :

بأنه لا تعارض ، لأن ما رفضه عيسى ﷺ للإمامة إنما كان في صلاة مخصوصة ، وهي صلاة الفجر التي أقيمت عند وصوله ، وقد ورد في بعض الآثار أنه علل رفضه بقوله للإمام أو لأمير المسلمين بأنها - أي الصلاة - له قد أقيمت ، وهذا من أدب عيسى ﷺ ، وتكون صلاته هذه من باب صلاة المفضول في ظل وجود الفاضل ، أما بعد تلك الصلاة يتولى عيسى ﷺ الإمامة كما صرح هذا الحديث بروايتيه .

أما الأحاديث السابقة التي تشير إلى أن الإمام من الأمة بقول الرسول ﷺ « وإمامكم منكم » ، فتحمل على لحظة نزول عيسى ﷺ ، ونص الحديث يحتمل ذلك ، وهذا هو الأوجه في الجمع بين الأحاديث ، و ذلك في حال كون الإمام غير المهدي عليه السلام أما إذا كان الإمام المهدي فتكون الإمامة له .

- عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ** . ﴾ (١)

وجه الدلالة :

قول النبي ﷺ يترل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يشير إشارة واضحة أنه لا سلطان يومئذ للمسلمين ولا إمام ولا قاضي غير عيسى ﷺ ، ولقد بوب مسلم لهذه الأحاديث مع السابقة بعنوان : نزول عيسى ﷺ حاكماً ، ويقول النووي شارحاً لكلمة حكماً : « **أي ينزل حاكماً بهذه الشريعة ، لا ينزل نبياً برسالة مستقلة ، وشريعة ناسخة ، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة .** » (٢)

(١) أخرجه البخاري في المظالم برقم ٢٤٦٧ [فتح الباري (١٤٤/٥)]

(٢) النووي : شرح صحيح مسلم (٤٣٠/١)

وتبويب مسلم وكلام النووي صريحان بأن الأمير هو عيسى ﷺ .

- جاء في حديث أبي أمامة الطويل عن النبي ﷺ : ﴿ وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا ﴾ (١)

وجه الدلالة :

قول الرسول ﷺ بأن قريش تسلب ملكها صريح هنا بأن الإمامة لا تبقى فيهم ، وإنما تتحول لعيسى ﷺ ، وإلا لو كان الإمام ليس عيسى ﷺ ، لما كان في نزوله سلب لملك قريش ، الذي يراد به هنا الحكم والخلافة ، وقد جاء في أثر عن عبد الله بن عمرو ما يُستأنس به في هذا المقام ،وفيه « ويقتل الختزير ، ويضع الجزية، ويبتز قريش الإمارة » (٢)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ يُوشِكُ مَنْ عَاشَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِمَامًا مَهْدِيًّا وَحَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . ﴾ (٣)

وجه الدلالة :

هذا نص صريح بأن الإمامة تكون بيد النبي عيسى ﷺ ، وبه يفهم بأن المراد من نزوله حكماً ؛ أي كونه أميراً للأمة .

فإذا أضفنا للأدلة السابقة أدلة كثيرة تشير إلى مدة عيسى ﷺ ، وحكمه ، و مواجهته ليأجوج ومأجوج ، وسياقها جميعا يدل صراحة على أن المتصرف بالرأي هو عيسى ﷺ ، ولا يأتي فيها ذكر لأي إمام معه ، مما يعزز القول بأنه لا أمير في ذلك الوقت إلا عيسى ﷺ ، ولو كان غيره لجاء في سياق الأحاديث ما يدل على ذلك .

توجيه الأدلة السابقة مع بيان الراجح في المسألة :

لكي يتم دفع التعارض لا بد من بيان أن هناك احتمالين في حقيقة الإمام الذي يترل في عهده عيسى ﷺ وهما :

---

(١) سبق تخريجه

(٢) أورده نعيم بسند ضعيف : الفتن (٣٨٨)

(٣) أخرجه أحمد برقم ٩٣٤٣ ، وإسناده جيد [المسند (٢/٥٤٢)]

١- الاحتمال الأول : الإمام الذي ينزل في عهده عيسى ﷺ هو الإمام المهدي .

وهذا الاحتمال هو الراجح ، وهو ما صرح به جمع من العلماء بل بعضهم جزم به واعتبره قطعياً ، فقد نقل ابن حجر عن أبي الحسن الأبدي في مناقب الشافعي قوله : « تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة ، وأن عيسى يصلي خلفه (✿) . » (١)

ويقول البرزنجي : « .. فلا منافاة أن يكون المهدي هو الأمير حتى في زمن عيسى ﷺ . » (٢) وهذا الرأي يأخذ به العدوي في الصحيح المسند ، حيث عنون باباً بقوله : إمامة المهدي لعيسى ﷺ . (٣)

ولعل سبب جزم العلماء بإمامة المهدي ﷺ بعيسى ﷺ هو ما ورد في أثر عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صلّ بنا ، فيقول : لا إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة . ﴾ (٤)

وفي أثر عن محمد بن سيرين أنه قال : « المهدي من هذه الأمة ، وهو الذي يؤم عيسى بن مريم . » (٥)

توجيه المسألة :

على هذا الرأي يمكن القول بأن عيسى ﷺ يترل في آخر عهد المهدي ، فلا يصلي به لخصوصية المهدي ، وإمامته بعيسى ﷺ تناسب مقامه الرفيع كمجدد أعظم في

(✿) لا أعلم كيف حكم بتواتر وقوع صلاة عيسى خلف الإمام المهدي مع أن الأدلة محتملة ، صحيح أنه ثبت أن عيسى يصلي خلف إمام صالح من الأمة ، وجاء في بعض الروايات أن إمام المسلمين المهدي ؛ إلا أن هذه الرواية لا ترتقي بالأمر لنحكم عليه بالقطع ، و إن كان مثل هذه الرواية ترجح كونه المهدي .

(١)ابن حجر : فتح الباري (٥٦٩/٦)]

(٢) البرزنجي : الإشاعة (٢٥٢)

(٣) العدوي : المسند الصحيح (٥١١)

(٤) ذكر هذا الأثر الدكتور عبد العليم البستوي ، وعزاه إلى نعيم بن حماد في أخبار المهدي ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده ، ونقل عن ابن القيم حكمه على الحديث بقوله : هذا إسناد جيد ، وعقب على ذلك بقوله : إسناده صحيح [البستوي : المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة (١٨٠ وما بعدها)]

(٥) أورده نعيم في الفتن برقم ١٠٤٦ ، قال محققه : إسناده حسن [الفتن (٢٦٥)]

أمة محمد ﷺ ، ثم يتولى عيسى ﷺ الأمر بعد وفاته ، وسياق الأحاديث السابقة يعزز ذلك ، خاصة أن أكثر الروايات التي تتحدث عن الإمام المهدي تشير إلى أن بقائه يكون إما سبع أو ثماني أو تسع سنوات .

وكذلك من تتبع سياق أحاديث الملاحم العظمى واعتبار أن المهدي ﷺ هو إمام أهل الحق فيها ، يحصل عنده تصور واضح بأن فترة الدجـــال ونزول عيسى ﷺ يكون في آخر عهد المهدي .

ووفقاً لذلك نقول أن عيسى ﷺ في بادئ الأمر يرفض الإمامة لخصوصية المهدي عليه السلام ، ويكون نزوله في آخر عهد المهدي عليه السلام ، ثم يتسلم بعد ذلك الإمامة التي أشارت إليها النصوص السابقة .

وهذا الرأي مبني على احتمال أن كل مدة المهدي من ٧-٩ سنوات ، أما إن كان المراد بذلك فقط مدة استقرار ملكه ، والذي يبدأ بترول عيسى ﷺ وهذا محتمل ، يمكن القول أيضاً أن الإمامة تبقى للمهدي ﷺ ، لكن لا يبقى لها معه اختصاص بشيء دون مراجعة عيسى ﷺ ؛ لذا جاز نسب الحكم للاثنين في ذلك المقام ، أو جاز نسب الإمامة والحكم لعيسى ﷺ لأنه المستشار في كل أمر يخص الأمة ، أما الحاكم الفعلي المباشر فيكون المهدي ﷺ ؛ لذا لا منافاة في الأمرين .

وهذا الرأي يرفع لدينا إشكالاً واضحاً ، وهو أن الأحاديث التي تحكي طبيعة مرحلة المهدي ﷺ من حيث الرخاء والعدل ورفع الشحناء وإفاضة المال تتشابه كلياً مع الأحاديث التي تحكي مرحلة عيسى ﷺ مما يشير إلى أن هذه الأحاديث إنما جاءت لتحكي عن مرحلة واحدة يكون فيهما إمام الأمة هو خير أولياء الله في الأرض ومستشاره هو كلمة الله عيسى ﷺ .

كذلك هذا الرأي هو الأوجه في الجمع بين الأحاديث التي تشير إلى أن عيسى في تلك المرحلة هو الحاكم ، والأحاديث التي تشير إلى أن المهدي هو الحاكم ، والأحاديث

الدالة على أن الملك في قريش ما بقي في الناس اثنان ، والآثار الدالة على سلب ملك قريش .

فسلب الملك هنا يراد به سلب خصوصية المهدي في القرار حتى يراجع عيسى ﷺ ؛ ومن هذا الوجه يمكن القول أن عيسى هو الحاكم ، ويمكن القول أن إمام الأمة المباشر للأمر في نظرها هو المهدي ﷺ .

الاحتمال الثاني : نزول عيسى ﷺ يكون في عهد أحد خلفاء المهدي .

وهذا الاحتمال وإن كان مرجوحاً ، إلا أنه متوقع ؛ إذ يحتمل وفاة المهدي قبل الدجال - كما بينت سابقاً - وتولي بعض خلفائه المهديين بعده ،ويحتمل أن يكون القحطاني ، أما الأثران السابقان الذين ذكرهما عن تعيين كون الإمام هو المهدي ، فقد سبق أن أجبت عنهما في فصل المهدي ، حيث بينت أن الحديث يراد به الوصف لا العلمية ؛ أي أن الأمير في تلك اللحظة هو من أئمة الهدى ، أما كلام ابن سيرين ، فيحتمل أنه فهم له أو اجتهاد تحصل لديه من خلال الحديث السابق ؛ لذا دلالتهما على كون المهدي ﷺ هو الإمام حين نزول عيسى ﷺ محتملة ، وليست جازمة .

توجيه المسألة :

ووفقاً لهذا الاحتمال يمكن الجمع بين الأحاديث بالقول بأن الأحاديث التي تصرح بأن الإمامة تكون في الأمة تحمل فقط على صلاة الفجر كما بينت سابقاً ، فهذا غاية ما تحتمله النصوص ، وبعد ذلك يتولى الإمامة عيسى ﷺ ، إذ من غير المعقول أن يتولى الإمامة مجتهد غير معصوم ، ويكون أحد أتباعه معصوم مطلق كعيسى ﷺ.

تساؤل : ما الحكمة من نسب الحكم والأمر لاثنين في نفس المرحلة ؟

يتضح من مجموع الأحاديث التي تتحدث عن مرحلة المهدي وعيسى ﷺ أنها تشير إلى نفس المرحلة ، لكن يلحظ من بعضها أنه نسب الحكم لعيسى ﷺ ، والبعض الآخر نسب الحكم للإمام المهدي ﷺ بما يوحي بالمغايرة بين الأمرين ، وذكرت سابقاً أنه لا منافاة بين الأمرين ، ونسب النبي محمد ﷺ الحكم مرة لعيسى ﷺ ومرة للمهدي يعتبر من

باب إعطاء كل ذي فضل فضله ، فإذا كانت مناسبة الحديث تبرز مرحلة نزول عيسى ﷺ كان نسب الفضل والحكم له .

أما إن كان السياق يتكلم عن المهدي كان نسب الفضل له ، وهذا سنراه واضحاً جلياً في المبحث التالي الذي يتحدث عن سيرة عيسى ﷺ ، والذي يشبه أو يحكي سيرة المهدي بنفس المواصفات مع بعض الزيادات المتعلقة بعيسى ﷺ وهو عدم أخذ الجزية وكسر الصليب ، ورفع الشحناء ، بينما كان التركيز في أحاديث المهدي ﷺ على إرساء العدل في الأرض وهذا يتناســب مع طبيعة المرحلة التي يخرج فيها المهدي وهو انتشار الظلم .

المبحث الرابع
سيرة عيسى ﷺ

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) ﴾

وفي رواية مسلم : ﴿ .. وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

القلاص : جمع قلوص وهي الناقة

- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ...وَتَكُونَ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً فَأَقْرِئُوهُ أَوْ أَقْرِئْهُ السَّلَامَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُحَدِّثُهُ فَيُصَدِّقُنِي فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ أَقْرِئُوهُ مِنِّي السَّلَامَ . ﴾ (٢)

وفي رواية أخرى له : ﴿ وَيُرْجِعُ السِّلْمَ وَيَتَّخِذُ السُّيُوفَ مَنَاجِلَ وَتَذْهَبُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ وَتُنْزِلُ السَّمَاءُ رِزْقَهَا وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا حَتَّى يَلْعَبَ الصَّبِيُّ بِالثُّعْبَانِ فَلَا يَضُرُّهُ وَيُرَاعِي الْغَنَمَ الذِّئْبُ فَلَا يَضُرُّهَا وَيُرَاعِي الْأَسَدُ الْبَقَرَ فَلَا يَضُرُّهَا . ﴾ (٣)

أقول :

المراد بقول النبي ﷺ ، ويتخذ السيوف مناجل ؛ أي يعم السلام والرخاء في

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٤٨[فتح الباري (٥٦٦/٦)] ، ومسلم في الإيمان ٢٢١ [مسلم بشرح النووي (١٩٢/٢)]

(٢) أخرجه أحمد في مسند في باقي مسند المكثرين برقم ٩١٤٥ [المسند (٥٢١/٢)]

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ١٠٢٧١ [المسند (٦٣٥/٢)] ، والحديث له شواهد في الصحيح

الأرض ، فتصبح السيوف كأدوات حرب لا قيمة لها ؛ لذا تستغل بما ينفع ، وهو استخدامها كمنجل في الزراعة ، والكلام كناية عن حصول الأمن والسلام ، لدرجة بوار أدوات الحرب وعدم نفعها ، وعدم توفر دواعي اقتنائها في ذلك الزمان .

وهذا الأثر فيه إشارة صريحة إلى أن الأسلحة المعاصرة إلى زوال ، وأن ما يستخدم في الحروب في عهد عيسى وقبله هو الأسلحة التقليدية القديمة .

- عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ قَالَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ يَعْنِي عِيسَى وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . ﴾

وفي رواية أخرى للحديث ﴿ ..وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ وَالْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

مربوع : بين الطويل والقصير ، وهذا وصف طابق فيه عيسى ﷺ النبي محمد ﷺ .

ممصرتين : الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة ؛ أي يترل عيسى ﷺ بين ثوبين فيهما صفرة خفيفة .

ترتع : ترعى

- جاء في حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : قال ﴿ فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا يَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع برقم ٢٢٢٢ [فتح الباري (٤/٤٨٣)] ؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠٢ [عون المعبود (١١/ ٤٥٣)] ، واللفظ له ؛ وأحمد برقم ٩٢٩٢ [المسند (٢/٥٣٦)]

الْجِزْيَةَ ويَتْرُكُ الصَّدَقَةَ فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ ، وتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ ، حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِي الْحَيَّةِ فَلَا تَضُرَّهُ ، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا ، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا ، وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلَأُ الْإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً ، فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الْقِطْفِ مِنَ الْعِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا يُرْخِصُ الْفَرَسَ ؟ قَالَ : لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا قِيلَ لَهُ فَمَا يُغْلِي الثَّوْرَ قَالَ تُحْرَثُ الْأَرْضُ كُلُّهَا . ﴾ (١)

خلاصة القول في عهد عيسى ﷺ :

١- انتهاء الملل غير ملة الإسلام :

وهذا صريح في النصوص ، حيث يدق الصليب ؛ أي يكسره ، وهذا كناية عن إبطاله لدين النصرانية ، ويضع الجزية ؛ أي لا يقبلها من أهل الكتاب ؛ لأنه بعدما زالت كل شبهاتهم ، فلا ذريعة لبقائهم ؛ لذا لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، وهذا معنى ما جاء في رواية الإمام أحمد بأنه تكون الدعوة واحدة ، وهي دعوة الإسلام ، فلا يقبل عيسى ﷺ في زمانه غيرها .

٢- عودة البركة والرخاء للأرض :

الآثار تشير إلى أن البركة تعود إلى الأرض بصورة غير معهودة ، كما كانت في عهد آدم قبل أن تقترف عليها أي خطيئة ، فقطف العنب يشبع الجمع من الناس ، وفلقة الرمان يستظل بها جمع من الناس ، والأرض كلها تحرث ؛ لذا تغلوا الثيران لحاجة الناس إليها في اشتغالهم بالزراعة ، وهذه البركة تتناسب مع كون الأرض كلها موحدة لله سبحانه وتعالى .

---

(١) سبق تخريجه

وكما أن فساد الأرض وقلة بركتها واقع بسبب معاصي الناس ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

كذلك تكون بركتها وصلاحها بصلاح الناس ، وما دام عهد عيسى يتميز عن غيره بالصلاح المطلق في حال البشرية الموحدة لله ، وهذه حالة لم تعهد على مر تاريخ البشرية إلا بعد الطوفان ، فكذلك تكون خيرات الأرض على حال لم تعهده البشرية ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢)

٣- انتشار الأمن والسلام في الأرض :

الأمن والسلامة نتيجتان لازمتان حال توفر الإيمان والإسلام ، وعهد عيسى ﷺ هو العهد الذي يلقي به الإسلام بجرانه على الأرض كلها ، فليس فيها إلا مؤمن ، وهذا لم يقتصر أثره على حصول الأمن والسلام بين البشر فقط ، بل تعداه إلى الحيوانات ، فالعقرب يترع منها سمها ، والذئب يرعى مع الغنم ، بل يتحول إلى حارس لها ، ويلعب الأطفال بالحيات والثعابين ، أي يكون الأمن في الأرض بصورة غير معهودة ، وكأن الأرض في ذلك الزمان قطعة من الجنة .

و في ذلك عبرة لنا،وهو أن صلاح الإنسان يترتب عليه صلاح كل شيء حوله .

وقد عبرت النصوص عن حال السلام والأمن في الأرض بعبارات عدة ، فالأرض تملأ من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وهذا إشارة إلى أن السلم يعم كل شيء في الأرض ، ومنها ذهاب قيمة أدوات الحرب ، فيرخص الفرس أو الخيل لعدم الحاجة لها ، وتحول السيوف إلى مناجل ، أما عن علاقة الإنسان بغيره من كائنات الأرض ، فقد عبرت النصوص عن ذلك بوقوع الأمنة في الأرض ، وفسرت ذلك بترع كل ضرر متوقع

(١) الروم:٤١

(٢) الأعراف: من الآية٩٦

من الحيوانات للإنسان ولغيرها من الحيوانات ، أي تكون المصالحة على مستوى البشر والحيوان والزاحف .

رابعاً : انتشار الرخاء في الأرض .

وهذا واضح من خلال البنود السابقة ؛ إلا أن المقصود بها هنا كثرة الأموال لدرجة عبر عنها النبي ﷺ بقوله : يفيض المال لدرجة أنه لا يقبله أحد .

خامساً : إحقاق العدل .

وإحقاق العدل هو أهم معلم من معالم مرحلة عيسى ﷺ ، والإمام المهدي ﷺ ؛ بل ببركة إحقاق العدل حصل الرخاء وغيره من الآثار الطيبة .

المبحث الخامس
مسائل متفرقة متعلقة بعهد عيسى ﷺ

أولاً : عيسى ﷺ يحج ويعتمر :

- عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا ﴾ (١)

شرح الغريب :

فج الروحاء : مكان بين مكة والمدينة ، وكان طريق النبي ﷺ إلى بدر ومكة عام الفتح وحجة الوداع .

ليثنينهما : أي يجمع بين الحج والعمرة ، وهو القران .

شرح :

١- الحديث فيه إشارة صريحة أن عيسى ﷺ إنما يترل مقرراً لشريعة محمد ﷺ ، لا ناسخاً لها ، وكذلك الحديث فيه إشارة إلى أن عيسى ﷺ لا يبقى في الشام ، بل يقصد المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومنها يتوجه إلى مكة .

٢- دلائل سياق قصة عيسى ﷺ تشير إلى أن هذا الحج يكون بعد القضاء على يأجوج ومأجوج ، وقد ثبت في الصحيح أن البيت يحج إليه ويعتمر بعد يأجوج ومأجوج .

٣- جاء في رواية ابن خزيمة أن عيسى ﷺ يمكث في فج الروحاء ومنه يحج ، وسبب هذا المكث غير مصرح به ، وطبعاً لا يتصور من سيدنا عيسى ﷺ أن يقصد فج

---

(١) أخرجه مسلم في الحج برقم ١٢٥٢ [مسلم بشرح النووي (٤٦٨/٤)]

الروحاء دون أن يمر بالمدينة المنورة التي تكون في طريقه ، بل ورد في آثار أنه يسافر إلى روضة سيد الأنبياء ويرد على سلامه يد المرسلين .

ثانياً زواج عيسى ﷺ ، و مكان دفنه .

١- جاء في بعض الآثار أن عيسى ﷺ يتزوج من جذام ، وجاء التصريح في الأثر بأن جذام هم قوم شعيب عليه السلام .

٢- أما مكان دفن عيسى ﷺ فقد اختلفت الآثار في ذلك ، والراجح فيها أنه يدفن في الروضة النبوية بجوار النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ثالثاً : قدر بقاء عيسى ﷺ في الأرض .

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ . ﴾ (١)

- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وفيه : ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ. ﴾ (٢)

شرح :

يلحظ من مجموع الأحاديث السابقة أن هناك تعارضاً بينها في تحديد مدة بقاء عيسى ﷺ على الأرض بعد نزوله ، ففي رواية مسلم إشارة إلى أن المدة سبع سنين ، وفي رواية أبي داود وأحمد التصريح بمكثه أربعين سنة ، وهذا الإشكال بين المدتين أجاب عنه العماد ابن كثير بقوله : « فهذا مع هذا مشكل ، اللهم إلا أن تحمل هذه السبع على

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن [مسلم بشرح النووي (٧٥/١٨)

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٣٠٢ [عون المعبود (٤٥٣/١١)] ، وأحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٩٢٩٢ [المسند (٥٣٦/٢)] والحديث أصله في البخاري ومسلم ، وقال عنه آبادي : « رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح [عون المعبود (٤٥٦/١١)]

مدة إقامته بعد نزوله ، ويكون ذلك مضافاً إلى مكثه فيها قبل رفعه إلى السماء ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة على المشهور . » (١)

وهذا جمع حسن ؛ إلا أنني أرى أنه ليس المراد هنا بالحديثين ، وذلك للأسباب التالية :

١- من تأمل الحديثين يجد أنه لا تعارض ، فغاية ما في رواية مسلم أنها أشارت إلى أنه يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ودلالتها الصريحة تقتصر على بيان حال الناس في مدة معينة، وهذا الكلام ليس فيه تصريح بأن هذه السبع سنوات هي كل المدة التي يقضيها عيسى ﷺ بعد نزوله ، وإنما فهم ذلك من باب الإشارة ، وليس بصريح العبارة .

أما في رواية أبي داود فقد جاء فيها التصريح بأنه يمكث في الأرض أربعين سنة ، بل سياق الحديث يدل على أن هذه المدة كلها بعد نزوله ، و إلا فما الداعي لاستخدام حرف الفاء هنا الدال على أن هذا المكث مترتب على ما قبله وهو نزوله من السماء .

إذا نحن أمام روايتان : إحداهما دلت بصريح العبارة على أن عيسى ﷺ يمكث في الأرض أربعين سنة ، والأخرى دلت بالإشارة أو بدلالة الاقتضاء أن مكث عيسى ﷺ هو سبع سنوات ، وإذا تعارض صريح العبارة مع دلالة الإشارة أو الاقتضاء ، رجحت دلالة العبارة عليهما (٢) ؛ لذا يرجح هنا أن بقاء عيسى ﷺ بعد نزوله أربعون سنة .

- أخرج أبو داود الطيالسي في مسنده الحديث السابق وفيه : ﴿ يَمْكُثُ عيسى فِي الْأَرْضِ بعدما ينزل أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يموت ، و يُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . ﴾ (٣)

وهذا نص صريح بأن مدة الأربعين إنما تكون بعد نزوله ، وعليه يحمل المراد بالحديث السابق .

---

(١) ابن كثير : النهاية في الفتن والملاحم (١١٨)

(٢) انظر الزحيلي : أصول الفقه الإسلامي وأدلته (١/ ٣٤٩ وما بعدها)

(٣) هذه الرواية ذكرها صاحب كتاب عون المعبود ، وقال بعدها ، وهذا حديث إسناده قوي [عون المعبود (١١/ ٤٥٤)]

الجمع المعتبر عندي بين الأدلة :

من خلال ما سبق يمكن القول بأن قدر بقاء عيسى ﷺ بعد نزوله هو أربعون سنة ، منها سبع سنوات ، وهي التي بعد هلاك يأجوج ومأجوج مباشرة يكون الأمن والصلاح بصورة لم تعهد حتى في عهد النبي محمد ﷺ،ولا يتصور وقوعها في عهد البشرية إلا في عهد نوح بعد الطوفان (✿)

وهذه اللحظات التي يسعد بها أهل الأرض ، وكأنهم في الجنة لا تدوم إلا سبع سنوات ، ثم بعد ذلك يكون النقص التدريجي في حال البشرية ، وتبدأ علاماته بتوقد العداوة من جديد بين الأفراد ، وهذا طبعاً لا يعني عدم صلاح الحال العام للأمة ، ولكن هو بداية النقص ، ولا يتنافى وقوع ذلك في عهد عيسى ﷺ ، فطبيعة الأرض التي خلقنا عليها ولوازم الابتلاء تقتضي مثل هذا الواقع ، و وفقاً لذلك لا يمتنع أن يتغير هذا الحال ، أو يبدأ في التغير التدريجي في عهد عيسى ﷺ ، وقبل وفاته .

(✿) سبحان الله : هناك تشابه بين العهدين : ففي زمان نوح ﷺ وقع الطوفان ، ثم عادت للأرض بركتها بعد هلاك كل أهل الباطل ، و بعد هلاك يأجوج ومأجوج يترل مطر أشبه بالطوفان يأخذ كل نتن وجيف يأجوج ومأجوج ويلقيها في البحر ، وتعود الأرض إلى بركتها بعد طهارتها من نتن أهل الباطل .

الفصل السادس : يأجوج ومأجوج

ويتضمن المباحث الثلاثة التالية

المبحث الأول :حقيقة يأجوج ومأجوج

المبحث الثاني : نظرة تحليلية للآيات الخاصة بيأجوج ومأجوج

المبحث الثالث : فتح يأجوج ومأجوج في عهد عيسى ﷺ

يعتبر خروج يأجوج ومأجوج من العلامات العظام للساعة ، والتصريح بكون خروجهم من الآيات فيه إشارة إلى أن هذا الخروج مخالف للمعهود ، أو للتصورات ، وهو أشبه بخروج الدابة من صدع في الأرض ، وأشبه بخروج الشمس من مغربها ؛ لذا حار البعض في تصور المراد بيأجوج ومأجوج من حيث موطنهم على الكرة الأرضية ، خاصة في زماننا الذي ظهرت فيه كل معالم الأرض للجميع ، وأين هذا السد الذي يحجزهم عن البشرية ، وما هي أوصافهم ..إلخ

لذا أحاول في هذا الفصل تقريب الدلالات في فهم هذه الظاهرة بعيداً عن المزايدات أو الغرائب التي تذكر بخصوص هاتين الجماعتين، مبرزاً زمن هلاكهم وموطنه، وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول

حقيقة يأجوج ومأجوج

لكي يتضح لنا المراد بيأجوج ومأجوج لا بد من تتبع النصوص الموضحة لحقيقتهم ، وذلك على النحو التالي :

📖 - عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا آدَمُ يَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ قَالَ : يَا رَبِّ ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ أُرَاهُ قَالَ : تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ . ﴾ (١)

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم ٤٧٤١[البخاري مع الفتح (٢٩٥/٨)]

وفي رواية ﴿ قَالَ اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ ﴾ (١)

شرح :

– الحديث صريح على أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم عليه السلام ؛ أي هم بشر مثلنا ، وورد عن كعب ونقله عنه النووي أن يأجوج ومأجوج من آدم دون حواء ؛ أي أن آدم احتلم فامتزجت نطفته في التراب فتخلق منها يأجوج ومأجوج ، وهذا القول ضعيف ولا يستقيم بحال ؛ لأن الأنبياء لا تحتلم أو لا ترى في منامها المجامعة ؛ كذلك أين كان هؤلاء حين الطوفان ، وهذا أيضاً يخالف صريح القرآن الذي بين أن الله قد جعل ذرية نوح فقط هي الباقية بعد الطوفان يقول الله سبحانه وتعالى في حق نوح عليه السلام : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٢) .

لذا الأرجح أنهم من نسل نوح عليه السلام ، وقد صرحت التوراة بذلك على أنهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام (✿) ويلحظ من النصوص السابقة أن يأجوج ومأجوج من أهل النار ، وأنهم أكثر البشر .

📖 - عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال ﴿ إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا وإن من ورائهم ثلاث أمم تاول وتاريس ومسك ﴾ (٣)

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير برقم ٣٢١٧ ، وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٩/٩)]

(٢) الصافات:٧٧

(✿) جاء في سفر التكوين : « وهذه مواليد بني نوح : سام وحام ويافث ، وولد لهم بنون بعد الطوفان ، بنو يافث جومر ومأجوج ومادي وياوان وتوبال ، وماشك وتيراس . » [الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح العاشر (١٦)]

(٣)قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٦/٨)]

شرح :

هذا النص فيه تصريح بأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وفيه ربط بين ثلاث أمم ويأجوج ومأجوج ، وهذه الأمم موطنها وسط وشمال أسيا .

- عَنِ ابْنِ حَرْمَلَةَ عَنْ خَالَتِهِ قَالَتْ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ إِصْبَعَهُ مِنْ لَدْغَةِ عَقْرَبٍ فَقَالَ : ﴿ إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لَا عَدُوَّ وَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عِرَاضُ الْوُجُوهِ صِغَارُ الْعُيُونِ شُهْبُ الشِّعَافِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ﴾ (١)

شرح :

هذا النص فيه بيان لأوصاف يأجوج ومأجوج ، وهي مطابقة لأوصاف المغول أو التتار أو الترك الوارد ذكرهم في أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ ، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على أهل الجبال في منشوريا ومنغوليا وسهول سيبيريا ووسط أسيا .

- عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ ﴾ (٢)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :﴿ فَتَحَ اللَّهُ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذَا وَعَقَدَ بِيَدِهِ تِسْعِينَ ﴾ (٣)

شرح :

– هذا الحديث بروايته فيه تحذير للعرب من شر قد اقترب ، وهو فتح ردم يأجوج

(١) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار [المسند (٥/٣٢٠)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٨/٦)]

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٤٦ [البخاري مع الفتح (٦/٤٤٠)]

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٤٧ [البخاري مع الفتح (٦/٤٤٠)]

ومأجوج ، وفي ظني أن هذا التحذير قد وقع بهجمات المغول والتتار على الشرق الإسلامي ، وكان الخاسر الوحيد في هذه الهجمات هم العرب الذي زال ملكهم نهائياً بعد هذه الهجمات التي أسقطت الخلافة العباسية ، وتحول الملك بعدها في أيدي العجم .

- من تتبع وصف العلماء لهجمات التتر وما ورد من أوصاف يأجوج ومأجوج والترك في السنة النبوية يجد المشابهة بين الأمرين .
- يبقى القول أن هذه الحديث يتكلم عن أحد خرجات الترك أو يأجوج ومأجوج ، ولهم خرجة نهائية بين يدي الساعة في عهد عيسى ﷺ ، وهي المقصودة في العلامات الكبرى العشر .
- يلحظ في الخرجة النهائية ليأجوج ومأجوج أنه يتآذى منها كل أهل الأرض ؛ أما خرجة التتر بالذات فقد تآذى منها العرب على وجه الخصوص بذهاب ملكهم نهائياً ، وهذا ما يعزز القول بأن الأحاديث السابقة إنما تشير إلى تلك الهجمة بالذات .

المبحث الثاني
نظرة تحليلية للآيات الخاصة بيأجوج ومأجوج

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ .. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ، ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (١) **شرح الغريب :**

الصدفين : الجبلين **قطراً** : النحاس المذاب

خرجاً : الخرج هو الجزية ، أو هو ما يخرجه كل واحد من ماله ، أو هو اسم لما يخرجه الإنسان من ماله للغير على شكل ضريبة أو جزية .

ردماً : الردم هو السد ، وهو هنا أبين في الدلالة من السد لأن السد هو كل ما يسد به ، أما الردم فهو وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم بذلك حجاب منيع ، مما يشير إلى أن ذا القرنين قد أقفل هذه الممر كاملاً بين الجبلين وعلى مساحة واسعة .

---

(١) الكهف:٩٣-٩٦

شرح :

أولاً : ملخص عام لقصة ذي القرنين :

هذه الآيات تشير إلى رحلة ذي القرنين نحو مطلع الشمس أو مشرقها ؛ حيث صادف قوماً من الأقوام البدائية نسبياً ، وهؤلاء ليس لهم ما يسترهم من حر الشمس كالبيوت ونحوه ، أو هم عبارة عن مجموعات بدائية من الحفاة العراة الذين لا يأوون إلى شيء من العمران ، ثم توجه إلى ناحية أخرى غير الشرق والغرب وأتبع سبباً نحو الجهة الشمالية – كما صرح الشوكاني في تفسيره (١) - حتى وصل إلى سلسلتين جبليتين متوازيتين بينهما ممر وحيد يربط بين الجهة الشرقية والغربية ، وفي تلك المنطقة وجد بعض الأقوام التي تقطن الجبال ، وهؤلاء أيضاً كانوا أقرب إلى الهمج أو لا يحسنون الفهم والكلام « لا يكادون يفقهون قولاً » ، وهؤلاء القوم صرحوا بأنهم تآذوا كثيراً من شعبي يأجوج ومأجوج ، وطلبوا من ذي القرنين أن يساعدهم على جعل سد بينهم وبين هذه الشعوب المفسدة ، واستعدوا لإعطائه أجراً عظيماً على هذا العمل ، فقام ذو القرنين بعمل هذا السد من الحديد والنحاس المذاب حتى جعل منه سداً منيعاً يقفل هذا الممر الجبلي التي كانت تدخل منه شعوب يأجوج ومأجوج نحو الغرب .

ثانياً : أهم الدلالات التي تشير إليها الآيات السابقة :

- إن يأجوج ومأجوج شعوب مفسدة تقطن ناحية الشرق ، أو ناحية الشمال الشرقي .
- إنه ليس من السهل القضاء على هذه الشعوب المفسدة ، والوسيلة الأنجع هي في التحصن منهم من خلال جعل سد بينهم وبين الشعوب الأخرى ، وهذا يشير إلى

---

(١) انظر الشوكاني : فتح القدير (٣١١/٣)

أن هذه القبائل تشغل مساحة واسعة ومتفرقة أشبه جداً بقبائل البراري أو بسكان الجبال المتفرقة ؛ لذا المواجهة معهم لن تجدي نفعاً .

- هذا الردم (السد) في ناحية الشرق ، أو الشمال الشرقي .
- هذا الردم (السد) هو الوسيلة الأنجع لمنع تدفق قبائل يأجوج ومأجوج نحو الغرب ، مما يشير إلى أنه يقفل ممراً طبيعياً بين سلسلتي جبال عظيمتين ، والسياق يعزز أنه الممر الوحيد الذي يسمح لقبائل يأجوج ومأجوج من التوجه ناحية الغرب ، أو ناحية الأقوام التي بعد هذا السد من ناحية الغرب .
- الملاحظ أن هذه الأقوام قد سمت هذا الحاجز باسم سد ، مما يشير إلى أنها لم تكن تطمع في أكثر من حاجز بسيط بينها وبين يأجوج ومأجوج ، بينما ذو القرنين عبر عنه بأنه ردم ، والردم فيه إشارة إلى إقفال كل الممر بين الجبلين ، والنبي محمد ﷺ قد استخدم اصطلاح ذي القرنين ،وهي كلمة الردم كما سيتضح لأنها أوضح دلالة على ما عمله ذو القرنين .
- الآيات فيها إشارة واضحة إلى أن يأجوج ومأجوج هم شعوب تعيش على وجه الأرض في بقعة معينة ومنها ، ومن هنا يتضح فساد قول من قال أنهم الآن محبوسون تحت الأرض .

ثالثا: من هو ذو القرنين .

إن تعيين شخصية ذي القرنين تساعد جداً في فهم المنطقة أو السد الذي يحجز بيننا وبين يأجوج ومأجوج ، وخلال تتبعي للأقوال الواردة في ذلك وجدت أنها غير جازمة في تحديد هذه الشخصية القرآنية ، بل بينها تباين كبير ويظهر من أكثرها أنها اجتهادات وقعت من بعض السلف من خلال كتب المتقدمين أو الأشعار الواردة أو علم الأخبار والتاريخ .

وقد لخص الشوكاني أقوال العلماء في تحديد شخصية ذي القرنين بقوله : « واختلفوا في ذي القرنين ، فقيل هو الاسكندر بن فليقوس الذي ملك الدنيا بأسرها اليوناني باني الإسكندرية ، وقال ابن إسحق : هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث ، وقيل هو ملك اسمه هرمس ، وقيل ملك اسمه هرديس ، وقيل شاب من الروم ، وقيل كان نبياً وقيل كان عبداً صالحاً ، وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك ، وقيل مصعب بن عبدالله من أولاد كهلان بن سبأ ، وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : احدهما كان على عهد إبراهيم ﷺ ، والآخر كان قريباً من عيسى ﷺ ، وقيل هو أبو كرب الحميري ، وقيل هو ملك من الملائكة . » (١)

فالملاحظ من الأقوال السابقة مدى الاختلاف الواضح في تعيين شخصية ذي القرنين ، ويحتمل عندي أن بعض الملوك أو العظماء قد استخدم هذا الاسم أو تكنى به تيمنا بسيرة ذي القرنين الحقيقية ، أو لما يحمله الاسم من معاني القوة والملك ، واستخدام القرون للإشارة للملك معلوم ؛ وهذا هو سبب الخلط في تعيين شخصية ذي القرنين ، وفي ظني أن تعيين شخصيته تتراوح بين أربعة أقوال ، أذكرها مبينا الراجح في ظني والله أعلم بالصواب في ذلك .

القول الأول : هو الاسكندر المقدوني .

والقائلون بذلك استندوا على أثر ورد فيه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن ذي القرنين فقال : ﴿ كان من الروم فأعطي ملكا فصار إلى مصر وبنى الإسكندرية ، فلما فرغ أتاه ملك فعرج به فقال : انظر ما تحتك ، قال : أرى مدينة واحدة ، قال :

---

(١) الشوكاني : فتح القدير (٣٠٧/٣)

تلك الأرض كلها ، وإنما أراد الله أن يريك ، وقد جعل لك في الأرض سلطانا ، فسر فيها وعلم الجاهل وثبت العالم ﴾ (١)

وهذا الأثر ضعيف لذا عقب عليه ابن حجر بقوله : « وهذا لو صح لرفع النزاع ولكنه ضعيف » كذلك المعلوم أن الإسكندر كان كافراً وكان معلمه أرسطاليس وهو من الكفار بلا شك ، بينما الآيات تشير إلى عبد صالح ويحتمل أن يكون ملكاً نبياً .

القول الثاني : هو ملك كان في عهد إبراهيم ﷺ .

وهذا القول يرى ابن حجر أن البخاري يأخذ به لذا عقب على ترتيبه لأحاديث الباب بقوله : « وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني ، لأن الإسكندر كان قريبا من زمن عيسى عليه السلام ، وبين زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة . » (٢)

وقد رجح ابن حجر هذا القول وساق بعض الآثار عن صحابة وتابعين تشير إلى التقاء ذي القرنين بإبراهيم ، وكلها لا تسلم من مقال .

القول الثالث : ذو القرنين ملك من العرب .

وهذا القول ذكره ابن حجر وذكر اختلاف البعض في تعيينه هل هو من ملوك حمير أو الحيرة ، ودلل عليه ببعض الأشعار العربية التي يذكر فيها اسم ذي القرنين ، وافتخار بعض القبائل العربية به .

وفي ظني أن هذا القول بعيد ، وهذه الأشعار قد يقصد ها رجل من العرب تلقب

---

(١) هذا الأثر ذكره ابن حجر وعزاه للطبري وغيره، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف [ابن حجر : فتح الباري (٦/٤٤١)]

(٢) ابن حجر : فتح الباري (٦/٤٤٠)

بهذا اللقب ، والمعلوم تاريخياً أنه لم يذكر شيئاً عن مثل هذه الرحلات الواسعة لأحد من ملوك حمير أو الحيرة .

القول الرابع : ذو القرنين هو الملك الفارسي قورش .

وهذا القول ذكره سعيد حوى عن (أبو الكلام أزاد) من علماء الهند ، ودلائل القصة في سورة الكهف تعزز أن يكون هو (ذو القرنين) ، و يفسد هذا الرأي أن النقوشات الفارسية تشير إلى أنه كان على دين الجاهلية ، لكن يحتمل أن يكون ذلك من تحريف الملأ بعده كما حرفت قريش دين إبراهيم ﷺ ورسمت له الرسومات في الكعبة وهو يستقسم بالأزلام ، فهذه الرسوم التي كانت في الكعبة لا تدل من قريب أو بعيد على ديانة إبراهيم ، بل هو تحريف من المشركين بعده ، وكما حرفت اليهود وادعت أن سليمان كفر بالله ، وأنه اتخذ السحر لكي يسخر به الجن ، وكذلك يحتمل أن التحريف نفسه وقع في حق قورش من الملأ بعده .

ملخص استدلال أبي الكلام أزاد وحامد العولقي في إثبات أن قورش هو ذو القرنين .

أبو الكلام علامة هندي أصدر بحثاً من ١٠٣ صفحة حول حقيقة ذي القرنين ، وبدأ بعدة مقدمات خلص منها إلى أنه قورش الملك الفارسي ، وهذه النتيجة نفسها وجدها عند الباحث حامد العولقي في بحثه المعنون باسم (**يأجوج ومأجوج أعراب آسيا وأقاصي الأرض**) ؛ لذا أذكر ملخص هذه الأفكار عند الباحثين على النحو التالي :

١- ارتبط موضوع ذي القرنين بسؤال اليهود للنبي ﷺ عن ذي القرنين ، وكان السؤال من باب الامتحان للنبي ﷺ ، وهذا يدل صراحة على أن اليهود يعلمون

حقيقة ذي القرنين ؛ لذا جاء القرآن راداً على سؤالهم بما فيه إظهار لنبوة محمد ﷺ ؛ لذا البداية الصحيحة لمعرفة ذي القرنين هو كتب العهد القديم عند اليهود .

٢- جاء في سفر دانيال أن النبي دانيال قد رأى في منامه كبشاً ذا قرنين ينضح بقرونه شرقاً وغرباً وجنوباً ، ولا قدرة لأي حيوان أن يواجهه ، ثم ذكر السفر أن الملك جبريل ظهر له وشرح رؤياه قائلاً أن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين مادا وفارس (✽) .

٣- هذه الأوصاف المذكورة في الرؤيا تنطبق تماماً على الملك قورش ، فهو الذي وحد مملكتي مادا وفارس واستولى على بابل ، وأنقذ اليهود من الأسر البابلي ، وكانت له ثلاثة توجهات في حروبه : توجه نحو الغرب حارب فيه اليونان وقهرهم وتوجه نحو الشرق حارب فيه القبائل الرحل وتوجه نحو الشمال سيطر فيه على القبائل الجبلية ، وكان من صفاته العدل والرحمة والحرص على الرعية ، ويذكر أبو الكلام أزاد أنه كان على الدين الصحيح لزرادشت الذي قام دينه على التوحيد ثم حرفته الديانة المجوسية ، ويرى حامد العولقي أنه يحتمل أنه أسلم على يد اليهود الذين فك أسرهم .

٤- هناك نصوص أخرى في سفر أشعيا تصف قورش أو خورس بأوصاف الأنبياء أو الملوك أهل العدل ممن يمكن لهم الله في الأرض ، ويعزز ذلك أنه وجد تمثالاً لقورش في الآثار الفارسية ويظهر فيه القرنان .

٥- يحاول أبو الكلام أزاد بعد تحليلات ونقول كثيرة أن يبرهن على صحة دعواه ، ويقارن بين النص القرآني الذي يصور رحلة ذي القرنين نحو مغرب الشمس

(✽) النص المذكور في سفر دانيال هو : « ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر أولاي فرفعت عيني ، ورأيت فإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً ، رأيت الكبش ينضح غرباً وشمالاً وجنوباً .... وسمعت صوت إنسان بين أولاي ، فنادى وقال يا جبريل ! فهم هذا الرجل الرؤيا .. أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادي وفارس . [الكتاب المقدس ، سفر دانيال ، الإصحاح الثامن (١٢٧٧ وما بعدها)]

حيث وجدها تغرب في عين حمئة ، وبين رحلة قورش نحو خليج أزمير على بحر إيجة ، وهذا الساحل يأخذ شكل العين . وهذه المنطقة وصلها قورش وعاينها .

٦- أما المهمة الشرقية لقورش فكانت لملاحقة القبائل الهمجية من ناحية الصحراء ، حتى وصل إلى منطقة من القبائل الرحل الذي لا يسكنون المدن ولا يبنون البيوت ؛ أي ليس لديهم ما يستترون به من قيض الشمس ، وهذا شبيه بالتعبير القرآني .

٧- يرى أبو الكلام آزاد أن المهمة الشمالية كانت عبر سلسلة جبال القوقاز الممتدة بين البحر الأسود وبحر الخزر أو بحر قزوين ، وهناك التقى بأقوام جبلية متوحشة حرموا من المدنية والعقل ، ويرى العوقلي أن الممر الجبل قد يكون في منطقة قريبة من نهري سيحون وجيحون ، أي مع امتداد سلسلة جبال الهملايا وجبال هندوكوش أو جبال تيان شان أو كولون .

٨- يذكر أبو الكلام آزاد أن هناك دلائل عدة وقرائن تشير إلى أن قورش قد بنا سداً منيعاً في ممر جبلي في تلك الناحية [ناحية جبال القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين] ، وهذا السد أصبح كالجدار الطبيعي يفصل بين الشرق والغرب.

٩- ذكر أبو الكلام أزاد بعض نقولات عن يونانين قدماء كهيرودوتس وزينوفن يصفون فيها قورش بالعدل والسماحة والكرم بالرغم أنهم كانوا من أمة معادية لقورش .

١٠- يتضح من كلام آزاد والعولقي أن الممر الجبلي هو بين سلسلتين جبليتين يرى آزاد أنه ضمن سلسلة القوقاز ويرى العولقي أنه ضمن سلسلة الهملايا ، ويتفق الباحثان أن هذه الجبال تسد ممراً أساسياً يمنع أعراب أسيا أو المغول والتتر في تلك المناطق من التوجه نحو الشرق ، ويرى العولقي أن هذا السد هو الذي حذا بقبائل منغوليا ومنشوريا وسط آسيا للتوجه نحو الصين مما اضطر ملك الصين لأن يبني سور الصين العظيم ليدفع عن بلاده تلك الهجمات .

١١- يذكر آزاد أنه ورد في سفر الخروج ذكر لأولاد نوح وجاء فيه أن من أولاد ابنه يافث جاء مادي ويونان ومأجوج وتوبال ومسك وتيراس ، وهذا النص ذكرته من مصدره في الحاشية .

١٢- يتفق الباحثان على أن يأجوج ومأجوج هم من القبائل الهمجية البدوية التي كانت تسكن جبال منشوريا ومنغولية ووسط أسيا وناحية سيبيريا .

١٣- المعلوم أن هذه القبائل كان لها عدة هجمات على الحضارات حولها منها ، هجمة نحو أسيا الصغرى ، وهجمة نحو أسيا الغربية ، وموجة أخرى نحو أسيا الغربية ، وهذه الموجة أوقفها قورش ، وهجمة نحو الصين اقتضت من امبرطور الصين (شين هوانغ تي) أن يبني سور الصين العظيم ، و هجمة نحو أوروبا بقيادة أتيلا أنهت الإمبراطورية الرومانية ، وهجمة نحو الشرق العربي بقيادة جنكيز خان أنهت الخلافة العباسية ، والملاحظ في كل هذه الهجمات أنه لا يدان لأحد بقتالهم ؛ لذا يعمد الجميع على سد المنافذ التي تسمح لهذه القبائل البربرية في الدخول على البلاد الحضرية حولهم . (١)

هذه هي خلاصة البحثين ، وقد تضمنا كثيراً من الأدلة المعززة لكون قورش هو ذو القرنين ، وهذه الأدلة أو القرائن إما تاريخية ، أو من باب فقه اللغة لتحليل كلمتي يأجوج ومأجوج ، أو نصوص من العهد القديم ، أو ما أرشدت إليه الآثار القديمة من دلالات ، ولا يتسع المجال هنا لذكرها ، وإن كان القلب يطمئن لتلك النتيجة التي وصل إليها الباحثان ، ولعل الأشعار العربية التي ذكرها ابن حجر هي تمجيد لهذا الرجل العادل الذي خلص الشرق من ظلم البابليين ، والمعلوم أن الحيرة أو ملوكها أقرب الناس من فارس ؛ لذا يحتمل أنهم توارثوا قصته ، والذي يعزز عندي أنه الرجل المقصود هو أن الذين افتعلوا قصته عند رسول الله ﷺ هم اليهود ؛ وهذا يقتضي أن يكون لهذا الملك أثر على اليهود أو

---

(١) انظر : حوى : الأساس في السنة ، قسم العقائد (١١٢٢/٣) ؛ العولقي : يأجوج ومأجوج أعراب آسيا وأقاصي الأرض .

ذكر في كتبهم ، وهذا لا ينطبق إلا على قورش أو خورس الملك الفارسي الذي خلصهم من الأسر البابلي ، وكذلك السياق القرآني للقصة وأوصاف يأجوج ومأجوج تنطبق على رحلات الملك قورش ، ومناطق الصراع التي خاضها أكثر من غيره من الملوك .

هذا بخصوص ذي القرنين ، أما يأجوج ومأجوج فالنصوص المتعددة كلها تشير إلى أنهم من القبائل الرحالة البربرية التي كانت تعيش في منطقة منشوريا ومنغوليا وسيبيريا ، وهذه المنطقة الشاسعة تمثل نصف قارة أسيا تقريباً .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (١)

شرح الغريب :

حدب : الأكمة ، والآكام المرتفعات الصغيرة .
ينسلون : يخرجون .

شرح :

الآية فيها إشارة إلى أن يأجوج ومأجوج يسكنون المرتفعات ، والمعلوم أن أوسع الهضاب المترفعة في العالم هي هضبة التبت التي تعتبر سقف العالم ، والمعلوم أن هذه الهضبة يسكنها أعراب ورعاة آسيا الرحل ، وما زالت بالرغم من التطور الحاصل في عصرنا منطقة مغلقة نسبياً ، ومحافظة على عقليتها وتراثها القديم ، ومن هذه الهضاب تجمع الرعاة في عهد جنكيز خان للهجوم على المشرق الإسلامي .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ (٢)

---

(١) الأنبياء:٩٦
(٢) الكهف:٩٨

شرح الغريب :

دكاء : تركه مدكوكا أي ألزقه بالأرض ، ويقال ناقة دكاء أي لا سنام لها مستوية الظهر ، والعرب تصف الفاعل والمفعول بمصدرهما فمن ذلك جعله دكا أي مدكوكا .

شرح :

في الآية إشارة إلى نهاية ذلك الردم ؛ حيث تكون هذه النهاية مرتبطة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فهل هذا الوعد هو نفسه الوعد بخروج يأجوج ومأجوج آخر الزمان كآية من الآيات العشر ، أم هو وعد آخر يترتب عليه انتهاء فاعلية السد ، ودكه ليصبح مستوياً مع الأرض ليرجع هذا الممر إلى طبيعته ، كلا الأمرين محتمل .

كذلك الآية فيها إشارة إلى أن استواء هذا السد بالأرض إنما هو بفعل رباني مباشر ، وليس بسبب نقب يأجوج ومأجوج له كما جاء في بعض الروايات الضعيفة .

المبحث الثالث
فتح يأجوج ومأجوج في عهد عيسى ﷺ

📖 - قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (١)

📖 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَعُمُّونَ الْأَرْضَ ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَمُرُّونَ ، بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَهُ حَتَّى مَا يَذَرُونَ فِيهِ شَيْئًا فَيَمُرُّ آخِرُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : لَقَدْ كَانَ بِهَذَا الْمَكَانِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيَظْهَرُونَ عَلَى الْأَرْضِ فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ وَلَنُنَازِلَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَهُزُّ حَرْبَتَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدَّمِ . فَيَقُولُونَ : قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ دَوَابَّ كَنَغَفِ الْجَرَادِ فَتَأْخُذُ بِأَعْنَاقِهِمْ فَيَمُوتُونَ مَوْتَ الْجَرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَيُصْبِحُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ حِسًّا فَيَقُولُونَ مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ ، وَيَنْظُرُ مَا فَعَلُوا فَيَنْزِلُ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى ، فَيُنَادِيهِمْ أَلَا أَبْشِرُوا ! فَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّكُمْ ، فَيَخْرُجُ النَّاسُ وَيَخْلُونَ سَبِيلَ مَوَاشِيهِمْ ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لُحُومُهُمْ فَتَشْكَرُ عَلَيْهَا كَأَحْسَنِ مَا شَكِرَتْ مِنْ نَبَاتٍ أَصَابَتْهُ قَطُّ ﴾ (٢)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ ﴿ لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، فَتَذَاكَرُوا السَّاعَةَ فَبَدَءُوا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهَا

---

(١) الأنبياء:٩٦

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٩ [السنن (١٣٦٣/٢)] ؛ قال العدوي : حسن [الصحيح المسند (٥٣٤)]

فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ ، ثُمَّ سَأَلُوا مُوسَى ﷺ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ ، فَرُدَّ الْحَدِيثُ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَقَالَ : قَدْ عُهِدَ إِلَيَّ فِيمَا دُونَ وَجْبَتِهَا ، فَأَمَّا وَجْبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، فَذَكَرَ خُرُوجَ الدَّجَّالِ قَالَ : فَأَنْزِلُ فَأَقْتُلُهُ فَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ ، فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَلَا يَمُرُّونَ بِمَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ وَلَا بِشَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدُوهُ ، فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ ، فَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمْ فَتَنْتُنُ الْأَرْضُ مِنْ رِيحِهِمْ فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ ، فَأَدْعُو اللَّهَ فَيُرْسِلُ السَّمَاءَ بِالْمَاءِ ، فَيَحْمِلُهُمْ فَيُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ ، فَعُهِدَ إِلَيَّ مَتَى كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ السَّاعَةُ مِنْ النَّاسِ كَالْحَامِلِ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادَتِهَا . ﴾ (١)

- عن النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ سَيُوقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَنُشَّابِهِمْ وَأَتْرِسَتِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ ﴾ (٢)

- عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث طويل جاء في آخره :

﴿ فَيَطْلُبُهُ – أي الدجال – حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ . فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٨١ [السنن (١٣٦٦/٢)] ؛ والحاكم في الفتن برقم ٨٥٠٢ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [المستدرك (٥٣٤/٤)]

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٦ ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٥٣٨)]

فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ (١)

شرح إجمالي :

- الملاحظ من الآية والحديث الأول أنها عبرت بصيغة [فتحت يأجوج ومأجوج] الآية [تفتح يأجوج ومأجوج] الحديث ، وهذه الصيغة لم يرد فيها ذكر للردم ، فهل هو من الإيجاز المقتضي تقدير محذوف ؛ أي يفتح ردم يأجوج ومأجوج ، هذا محتمل واللغة العربية تتضمن مثل هذه الأساليب ، لكن يحتمل أيضاً أن هذه الصيغة لا يقصد بها انهيار الردم أبداً ، وهي تامة لا تحتاج إلى تقدير محذوف ، ويكون المقصود بها هنا أمر آخر اتفقت الآية والحديث للإشارة إليه وهو أن المراد بفتح يأجوج ومأجوج خروجهم الخرجة الأخيرة ، وهذا الخروج ليس له علاقة بردم أو نحوه ، أما الردم أو السد فقد كانت نهايته قبل ذلك ، ويحتمل أن نهايته كانت في زمن هجمة التتار على المشرق الإسلامي وإنهاء الملك العربي الإسلامي إلى يومنا هذا ؛ حيث إن الملك قد خرج من يد العرب في تلك الهجمة بانتهاء الخلافة العباسية ، ليتحول بعدها الملك للعجم ، وهذا الاحتمال وارد جداً ، ويكون المقصود من تحذير النبي ﷺ للعرب من ردم يأجوج ومأجوج يراد به تلك الهجمة ، والتي شبهها الإخباريون والمؤرخون العرب والمسلمين بأنها لا توصف

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٣٧ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٥)]

من حيث الضخامة والفظاعة ، ووفقاً لهذا الرأي المحتمل يمكن القول أن الحديث هنا مع الآية قد عبرا بصورة دقيقة عن الخرجة النهائية للترك أو ليأجوج ومأجوج من القومية التركية دون أن يكون لهذا الخروج تعلق بردم ذي القرنين، أما الردم فقد فتح قبل ذلك في هجمة التتار على المشرق الإسلامي .

- هذه الأحاديث تشير إلى خروج يأجوج ومأجوج بعد مقتل الدجال ، ودلالات الأحاديث تشير إلى أن خروجهم يكون مباشرة بعد الدجال ، أو بعد عودة الناس إلى منازلهم سواء كانوا في الجزيرة العربية أو في العراق أو في المشرق كخراسان التي خرجت منها النواة الأولى للجيش الإسلامي ، وهم في حالة رجوعهم تستقبلهم يأجوج ومأجوج لتكتمل آخر حلقات الصراع التي بدأت باليهود ثم بالروم في الملاحم ، ثم بالدجال وشيعته اليهود ثم بالترك أو يأجوج ومأجوج ، و الأحاديث والآية القرآنية يشيران بوضوح على أنهم من أصحاب الجبال والمرتفعات ، وسياق الأحاديث تدل صراحة على إنهم في المشرق ، لأن المسلمين العائدين إلى بلادهم في الغالب أنهم من ناحية المشرق كخراسان وغيرها من تلك المناطق .
- أشارت الأحاديث إلى أن بقايا المسلمين يلجئون للحصون ليتحصنوا من هذه الجيوش الجرارة من يأجوج ومأجوج التي انفلتت عليهم من كل حدب وصوب ، ودلالات الأحاديث صريحة في كون أعداد يأجوج ومأجوج لا تعد ولا تحصى ، وهذا واضح من استيعابهم لمياه الأنهار شرباً ، وقد يكون هذا من باب الكناية الدالة على كثرة عددهم ، وهي صريحة على أنهم لا يذرون موقعاً يترلوه إلا أفسدوه ، فهم كالجراد الذي لا يبقى حوله شيئاً أخضراً .
- ينتهي المطاف بيأجوج ومأجوج نحو الشام ، وهناك يوحي الله سبحانه وتعالى إلى عيسى ﷺ بأن يحرز من معه نحو جبل الطور ليتحصنوا فيه من هذه الجيوش التي لا يدان لأحد في قتالها .

- تشير الأحاديث إلى مدى فساد يأجوج ومأجوج ، ومدى غطرستهم وسخفهم ؛ حيث يوجهون سهامهم لقتال أهل السماء ، فيقدر الله سبحانه وتعالى أن تترل بعض رماحهم مخضبة بالدماء استدراجاً لهم ومداً لهم في طغيانهم ، وهذا النص يوضح مدى الهمجية التي يتصف بها هؤلاء .
- يلحظ من الأحاديث أن المسلمين يحاصرون في الطور حصاراً شديداً تقل فيه مئونتهم ؛ لدرجة قال فيها النبي ﷺ إن رأس الثور يكون عند المحاصرين أفضل من مئة دينار ذهب عند غيرهم ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قلة الزاد لديهم ، وهذه اللحظات العصيبة يعقبها تضرع إلى الله من كلمة الله عيسى ﷺ وأصحابه ، فيستجيب الله لهم فيرسل على يأجوج ومأجوج دودة النغف أو حشرة النغف بأعداد كثيرة فتصيبهم في رقاهم فيموتون جميعاً موتة شنيعة بحيث يتراكم بعضهم فوق بعض كالجراد الميت .
- يلحظ من بعض الأحاديث أن بعض المسلمين يضحي بنفسه في الترول من الجبل ليعلم خبرهم فيراهم موتى ، عندها يزف البشرى للمسلمين ، لكن هذه البشرى لا تكتمل لأن رائحة نتن يأجوج ومأجوج تفسد كل شيء حولهم ، فيتضرع عيسى ومن معه أن يخلصهم من نتن يأجوج ومأجوج ، فيبدأ الطوفان الثاني والنهائي على الأرض بترول مطر غير معهود لا يحفظ منه شيء ، وهذا المطر أو السيول تحمل نتن يأجوج ومأجوج إلى البحر ، وفي رواية أن المطر هو لغسل الأرض أما جثث يأجوج ومأجوج فتحملها طير مرسلة من عند الله وتلقيها في البحر (۞) ، وفي رواية أن بعض بقاياهم يكون سماداً للأرض تأكل منه الدواب ، وفي رواية أن المسلمين يوقدون من أسلحة يأجوج ومأجوج [القسي والنشاب] سبع سنين ، وفي ذلك إشارة إلى أن أسلحتهم من الخشب .

(۞) قد يسأل سائل : من أين تأتي هذه الطيور ؟ ويجاب عليه بأنها تأتي من حيث أتت طير الأبابيل ، و لا تقيس الأمور بعقلك القاصر .

- يلحظ من الروايات السابقة أن بعد يأجوج ومأجوج ترجع للأرض بركتها بشكل غير معهود ، وبهذه المعركة تنتهي معارك الحق والباطل على الأرض ، حيث يعيش المسلمين في خير عظيم إلى أن تأتي الريح الطيبة فتأخذ أرواحهم مؤذنة بنهاية الحياة الدنيا .
- الملاحظ من حديث النواس الأخير أنه أشار إلى أن بعد مرحلة البركة تكون الريح التي تقبض أرواح المؤمنين ، وفي أحاديث أخرى إشارات إلى أن هناك علامات قبل تلك الريح منها خروج الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، ولا تعارض بين الأمرين ، حيث إن حديث النواس قد ركز على جانب صراع الحق والباطل ، ولم يستوف كل الأحداث الأخرى التي تكون في تلك المرحلة ، وما أُجمل في بعـــض الأحاديث فصلته الأحاديث الأخرى .

لطيفة :

يلحظ من مجموع أحاديث المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج أن مركز الصراع العالمي هو بلاد الشام ، والعجيب في الماضي والمستقبل أن أساطين الباطل دائماً يستدرجون إلى الأرض المقدسة لتكون نهايتهم فيها ، ففي الماضي كانت موجة التتر أو المغول المخيفة والتي انتهت عندما استدرجوا إلى بلاد الشام ؛ حيث كانت المعركة الفاصلة في عين جالوت ، وكذلك الروم استدرجوا إلى هذه البلاد إلى أن كانت الضربة القاصمة لهم في حطين ، والروم في آخر الزمان يستجمعون كل قوتهم ويستدرجون إلى الملحمة العظمى في الشام ؛ حيث تكون نهايتهم المهينة ، وكذلك الدجال يستدرج إلى تلك الأرض ليلقى وشيعته مصيره فيها ، وكذلك يأجوج مأجوج الذين يعيثون فساداً في كل الأرض يستدرجون إلى الأرض المقدسة ليقضوا نهايتهم ، وكأن الأرض المقدسة (الشام) هي مقبرة كل جبابرة الأرض .

تساؤل :

قد يطرح البعض تساؤلاً مفاده : أين يأجوج ومأجوج في هذه العصر الذي تكشفت فيه حقائق كل الكرة الأرضية .

و يجاب على ذلك بأننا حددنا حقيقة هؤلاء القوم في أغلب الظن ، وهم القومية التركية من أعراب وسط أسيا وسهول سيبيريا ، وقد يلحظ لهم انحسار في زماننا أو كمون ، وقد نرى عندهم بعض التحضر ؛ إلا أن هذه المناطق بالذات حتى في ظل كل هذا التقدم ما زالت منغلقة نوعاً ما ولا نسمع عنها إلا القليل ، بل ما يزالون يتوارثون تراثهم القديم ؛ حيث إن هذه المناطق لليوم هي الأقل تأثراً بما حولها .

ويحتمل في الأزمنة اللاحقة التي نتصور فيها تغيرات جوهرية في الكرة الأرضية أن تعود الأمور إلى سابق عهدها في تلك المناطق ، ويحتمل انفتاحها على التناسل بشكل ملحوظ بحيث تزيد أعدادها بشكل غير معهود مع العلم أن تلك البقعة بالذات هي الأكثر عدداً في الأرض ، والملاحظ في بعض المناطق [الصين] أن هناك تحديداً إجباريا للنسل ، والممنوع دائماً يكون هو المرغوب ؛ لذا لو ارتفع المنع لظروف معينة تحيق بالكرة الأرضية على وجه العموم وفي تلك المنطقة على وجه الخصوص ، يتصور أن يكون الإقبال على النسل بطريقة غير معهودة تعويضاً للحرمان الإجباري الذي فرض عليهم ، كذلك يحتمل تهيج تلك الشعوب إلى تكرار هجماتها التي تميزت بها في الماضي لكن في المرة الأخيرة تكون بأعداد كثيرة جداً .

فهذه التوقعات كلها محتملة جداً ولا يحتاج لتحققها في أرض الواقع إلا جيل أوجيلان من النسل فيهم ، وما نراه غريباً الآن قد يكون من أبسط الأمور في المستقبل القريب ، وأضرب مثالاً وهو أنه لو قلت لمن شئت قبل قرن واحد من الزمان أن اليهود سيتجمعون في أرض فلسطين وسيكون لهم شوكة قوية جداً ؛ حيث يكونون الأكثر نفيراً في الأرض ، قد يستغرب البعض ويراه من المستبعدات ، أو من الأمور التي لا يتصورها

عقل ؛ خاصة وأن أرض فلسطين لم تعهد أي تجمع ولو صغير لليهود فيها من قرون ، وهذا الأمر المستبعد أضحى حقيقة نعاينها جميعاً .

إذا لكل حديث زمانه ، ولكل حدث مهيئاته ، ويبقى في حقنا التسليم بمصداقية كل ما ثبت عن رسولنا الكريم الذي لا ينطق إلا وحياً من عند الله سبحانه وتعالى .

الفصل السابع : علامات نهاية البشرية

ويتضمن المباحث السبعة التالية

المبحث الأول : طلوع الشمس من مغربها

المبحث الثاني : خروج الدابة

المبحث الثالث : خراب الكعبة

المبحث الرابع : الريح اللينة التي تقبض أرواح المؤمنين

المبحث الخامس : على من تقوم الساعة

المبحث السادس : خروج نار من اليمن تسوق الناس

المبحث السابع : الحث على العطاء بين يدي الساعة

المبحث الأول
طلوع الشمس من مغربها

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ، وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ (١)

شرح :

هذه الآية فيها إشارة إلى خروج يأجوج ومأجوج و نهاية أجل الردم الذي بناه ذو القرنين ، وفيها إشارة إلى انقضاء الدنيا بعد ذلك ؛ حيث عبرت الآيات أنه يومئذ _ أي يوم خروج يأجوج ومأجوج – يموج الناس في بعضهم البعض في اختلاف وهارج إلى أن تقوم الساعة ، وهذا التموج طبعاً يحصل بعد السنوات المباركة التي يعيشها المسلمون في رغد مع عيسى ، ويبدأ على حقيقته بعد طلوع الشمس من مغربها ، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر فيما نقله عن عبد بن حميد في تفسيره حيث أخرج من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : « تأتي ليلة قدر ثلاث ليال لا يعرفها الا المتهجدون يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام ، ثم يقوم فيقرأ ثم ينام ، ثم يقوم فعندها يموج الناس بعضهم في بعض ، حتى إذا صلوا الفجر وجلسوا فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها ، فيضج الناس ضجة واحدة حتى إذا توسطت السماء رجعت . » (٢)

وعقب على الرواية بقوله ، « و عند البيهقي في البعث والنشور من حديث بن مسعود نحوه فينادي الرجل جاره يا فلان ما شأن الليلة لقد نمت حتى شبعت

(١) الكهف ٩٨-٩٩

(٢) فتح الباري (٣٦٣/١١)

وصليت حتى أعييت » (١)

وأورد نعيم بن حماد من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو قال : « لا تلبثون بعد يأجوج ومأجوج إلا قليلا حتى تطلع الشمس من مغربها ، فيقول من لا خلاق له ما نبالي إذا رد الله ضوءه علينا من حيث ما طلعت من مشرقها أو مغربها . قال : فيسمعون نداء من السماء : يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة وجفت الأقلام وطويت الصحف » (٢)

وفي كتاب العظمة أيضاً حديث مطول يشير إلى حالة الفزع والتهارج التي تصيب الناس بسبب تأخر خروج الشمس . (٣)

ومجموع هذه الآثار تشير إلى أن طلوع الشمس لا يكون بينه وبين يأجوج ومأجوج إلا أمد قصير ، بل هي نفس الحقبة الزمنية أو نفس الجيل ، ويبقى بعدها أهل الإيمان على إيمانهم ، ويختم على أهل الكفر ، فلا يقبل من أحد منهم شيئاً بعد خروجها .

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (٤)

شرح :

هذه الآية صريحة في أنه بعد مجيء بعض آيات الله سبحانه وتعالى لا ينفع نفس الإيمان بعدها ما لم تكن آمنت من قبل ، وقد جاء التصريح في الأحاديث أن بعض الآيات

(١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

(٢) أورده نعيم برقم ١٣٧١ ، وفيه ضعف [الفتن (٤٤٣)]

(٣) عبد الله الأصبهاني : العظمة (١١٧٣/٤)

(٤) الأنعام:١٥٨

المقصودة هنا هي طلوع الشمس وخروج الدابة .

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ مَا تَذَاكَرُونَ ؟ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْـــرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ . ﴾ (١)

شرح :

الحديث صريح على أن طلوع الشمس وخروج الدابة من العلامات العشر العظام بين يدي الساعة .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ . ﴾ (٢)

شرح :

الحديث صريح بأنه بعد طلوع الشمس من مغربها يقفل باب التوبة .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٠١ [مسلم بشرح النووي (٩/٢٥٥)] .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن برقم ٤٦٣٦ [فتح الباري (٨/١٤٧)] ؛ ومسلم في الإيمان برقم ١٥٧ [مسلم بشرح النووي (١/٤٣٢)]

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا . ﴾ (١)

شرح :

هذه الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن طلوع الشمس من مغربها مؤذن بنهاية العالم ، وأن الحياة الباقية تعتبر بداية الإرهاصات الدالة على الفناء الكلي .

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ . ﴾ (٢)

وفي رواية:﴿ الدَّجَّالُ وَالدَّابَّةُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَوْ مِنْ مَغْرِبِهَا. ﴾ (٣)

شرح :

هذا الحديث يشير إلى بعض آيات الله التي لا ينفع بعدها إيمان ، منها الدابة وطلوع الشمس والدجال ، وقد سبق شرح هذا الحديث ، وبينت المراد بجمع الدجال مع الدابة وطلوع الشمس .

والشاهد فيه هنا أن بعد طلوع الشمس وخروج الدابة تنتهي مرحلة الاختبار ، ويختم على الصحف على ما كانت عليه قبل هذين الحدثين العظيمين .

📖 - عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابًا مَفْتُوحًا عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . ﴾ (٤)

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦٥٠٦ [البخاري مع الفتح (١١/٣٦٠)]

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٥٨ [مسلم بشرح النووي (١/٤٣٣)]

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن برقم ٥٠٦٧ ، وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٨/٤٤٩)]

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٦٠١ ، وقال : حسن صحيح [تحفة الأحوذي (٩/٥١٧)] ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٧٠ [السنن (٢/١٣٥٣)]

شرح :

هذا الحديث فيه تصريح بأن باب التوبة يقفل بعد خروج الشمس من مغربها ، وفيه إشارة ضمنية على أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدابة .

المبحث الثاني
خــروج الدابــة

- قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

شرح :

– هذه الآية تشير إلى الدابة التي تخرج كعلامة من علامات الساعة ، وخروجها مرتبط بوقوع القول على الناس ، وقد اختلف في المقصود فيه على عدة أوجه منها : إذا وجب العذاب وهو الأوجه ، وقيل المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من أهوال ، وقيل وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ، وقيل : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .

– الآية تشير إلى أن هذه الدابة تخرج من الأرض ، وهي بذلك شبيهة بآية صالح ؛ حين خرجت الناقة من الصخر ، وقيل أن الدابة هنا هي ابن ناقة صالح عليه السلام ، وقيل هي دابة على خلقة بني آدم وهي في السحاب وقوائمها في الأرض ، وقيل غير ذلك ، وحاصل الأمر أنها دابة عظيمة تخرج كآية من الآيات بين يدي الساعة ، أما كنهها فلا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

– اختلف العلماء في مسألة خروجها من الأرض : قيل تخرج من جبل الصفا بمكة ، وقيل تخرج من جبل أبي قبيس ، وقيل تخرج بين الركن والمقام ، وقيل تخرج في تهامة وقيل من مسجد في الكوفة من حيث فار التنور ، وقيل من أرض الطائف ، وقيل من صدع في الكعبة ، وقيل من صخرة أجياد ، وقيل لها عدة خرجات ، وفي ظني أن تحديد موطن خروجها من الأرض قد يكون من باب العلم الذي لا ينفع ، ويكفي لنا هنا معرفة أن

---

(١) النمل:٨٢

هذه الدابة على غير المعهود تخرج من الأرض ، أو من صدع من أصداعها ، وأن هذه الدابة هي آية من الآيات حيث تكلم الناس .

– اختلف العلماء في طبيعة كلام الدابة ، قيل تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ، وقيل تكلمهم بما يسوؤهم ، وقيل تكلمهم بقوله تعالى : « أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون »

– نقل آبادي عن الرازي في تفسيره : « تكلم الدابة في الناس من وجوه : أحدها في مقدار جسمها وفي الحديث أن طولها ستون ذراعا وروي أيضا أن رأسها تبلغ السحاب ، وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب . و ثانيها في كيفية خلقتها ، فروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان ، وعن ابن جريج في وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير . و ثالثها في كيفية خروجها عن علي عليه السلام أنها تخرج ثلاثة أيام . والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن الحسن لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام . و رابعها في موضع خروجها سئل النبي ﷺ من أين تخرج الدابة فقال " من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام " . وقيل تخرج من الصفاء فتكلمهم بالعربية . و خامسها في عدد خروجها فروي أنها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبين الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون . واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قبل ، وإلا لم يلتفت إليه انتهى » (١)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ

---

(١) آبادي : تحفة الأحوذي (٩/ ٤٥)

مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث سبق شرحه في الفصل الأول من الباب الثاني ، والشاهد فيه هنا أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدابة ، أو أن هاتين الآيتين متلازمتين ، وأن هاتين الآيتين بالذات مؤذنتان بفناء العالم .

ولا يفهم من هذا الحديث أن هاتين العلامتين هما أول الآيات العشر ، بل المراد به أول الآيات غير المعهودة ، وهي تتضمن ثلاث آيات : طلوع الشمس ثم الدابة ثم النار الحاشرة ، فخروج دابة في الأرض على شكل غريب غير مألوف تكلم الناس وتسم الكافر أو تسمي الكافر والمؤمن يعتبر أول الآيات الأرضية ، و طلوع الشمس من مغربها يعتبر أول الآيات السماوية .

📖 - عَنْ أَبِي زُرْعَةَ قَالَ : جَاءَ نَفَرٌ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ يُحَدِّثُ فِي الْآيَاتِ أَنَّ أَوَّلَهَا الدَّجَّالُ قَالَ : فَانْصَرَفْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَمْ يَقُلْ شَيْئًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدَّابَّةُ عَلَى النَّاسِ ضُحًى فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ - : وَأَظُنُّ أَوَّلَهُمَا خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . ﴾ (٢)

شرح :

الحديث فيه إشارة إلى تلازم هاتين العلامتين بالذات ، وهناك اجتهاد من عبدالله بن عمرو يرى فيه أن طلوع الشمس قبل خروج الدابة ، ودلائل الأحاديث كلها تعزز ذلك

(١)أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤١ [مسلم بشرح النووي (٢٦٨/٩)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤١ [مسلم بشرح النووي (٢٦٨/٩)] ؛ و أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٨٨ واللفظ له [عون المعبود (١١/ ٤٢٤)]

، وقد ذكر ابن حجر عن الحاكم قوله : « الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه . »

وعقب ابن حجر على ذلك بقوله : « والحكمة من ذلك أن طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة . » (١)

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ . ﴾ (٢)

شرح :

الحديث يشير صراحة إلى ضرورة انتباه المؤمن لنفسه والاستعداد للعظائم التي قد تفاجئه بما لا ينفع بعده ندم أو إيمان ومن هذه العظائم الدابة وطلوع الشمس من مغربها .

📖 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ وَعَصَا مُوسَى فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ ، وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخُوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هَاهَا يَا مُؤْمِنُ وَيُقَالُ : هَاهَا يَا كَافِرُ وَيَقُولُ : هَذَا يَا مُؤْمِنُ وَيَقُولُ : هَذَا يَا كَافِرُ . ﴾ (٣)

📖 - عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ قَالَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ ، حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ مِمَّنِ اشْتَرَيْتَهُ فَيَقُولُ : اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ . ﴾ (٤)

---

(١) فتح الباري (٣٦١/١١)

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٧ [مسلم بشرح النووي (٢٧٧/٩)]

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن برقم ٣٢٤٠ [تحفة الأحوذي (٤٤/٩)] ، وقال عنه : حسن ؛ وابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٦٦ [السنن ١٣٥١/٢)]

(٤) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٣٧١ [المسند (٣١٧/٥)] ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال عمر بن عبد الرحمن بن عطية وهو ثقة [مجمع الزوائد (٦/٨)]

شرح :

- هذين الأثر يشيران إلى الحكمة من خروج الدابة ، وهو تمييز المؤمن من الكافر بعلامة مميزة قبل قيام الساعة ، والعلامة المميزة هي الخطم أو الوسم على أنف الكافر ؛ واختيار الأنف ؛ لأنه علامة على الأنفة والكبر ، وهي من باب قول الله سبحانه وتعالى في حق بعض متكبري مكة (۞) ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ (١) ، وهذا الوسم يكون من باب التمييز الحسي الذي يكشف عن باطن صاحبه وعاقبته .
- أما المؤمن فينال السنا والتجلية في وجهه ، بحيث يظهر عليه نور الإيمان جلياً واضحاً ، ويلحظ أن هذا التمييز له أثره على أهل ذلك الزمان ، فيبدءوا يتنادون وفقاً لهذا التمييز ، فالمخطم يُنادَى بعبارة يا كافر ، والمؤمن أيضاً ينادى بصفته .

(۞) الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق

(١) القلم : الآية ١٦

المبحث الثالث
خـــراب الكـــعبة

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ (١)

أقول :

هذه الحديث فيه إشارة واضحة إلى أن الحبشة لا يخربون الكعبة إلا في آخر الزمان بعد يأجوج ومأجوج ، وذكرت سابقاً أن عيسى ﷺ يحج ويعتمر من ناحية الروحاء ، وهذا حاصل أيضاً بعد يأجوج ومأجوج ، ويحتمل أن يكون هذا الحدث بعد خروج الدابة و طلوع الشمس من مغربها ؛ حيث تبدأ إرهاصات النهاية ، أولها خراب البيت ، ثم رفع القرآن ، ثم الريح اللينة التي تقبض الأرواح المؤمنة ، ثم لا يبقى إلا شرار الخلق .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ قَالَ يُبَايَعُ لِرَجُلٍ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا تَسْأَلْ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ ثُمَّ تَأْتِي الْحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا وَهُمِ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ . ﴾ (٢)

أقول :

هذا الحديث تضمن ثلاثة أمور تتعلق بالبيت : الأولى : بيعة لرجل بين الركن والمقام ، ويراد بها بيعة المهدي ، والثانية : إن استحلال البيت لن يقع إلا من أهل الإسلام ، أو من المنتسبين إليه لا من الملل الأخرى ، وهذا من دلائل نبوة محمد ﷺ ؛ حيث وقع استحلال البيت في عهد الأمويين ، وفي زمن القرامطة ، وقد بين الحديث أن هذا الاستحلال سيكون مؤذناً بهلاك العرب بعده ، وهذا وقع أيضاً .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٥٩٣ [البخاري مع الفتح (٥٣١/٣)]

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين برقم ٨٣٧٢ [المسند (٤٣٩/٢)] ؛ والحاكم برقم ٨٣٩٥ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه [المستدرك (٤٤٩/٤)]

والثالثة : هي أن هدم البيت واستباحته وسلب كنزه سيكون على يد الحبشة بين يدي الساعة ، وهذا الخراب إذا وقع فلن يعمر بعده البيت أبداً مما يشير إلى أن وقوع هذا الحدث سيكون بعد يأجوج ومأجوج .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ » (١)

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا . » (٢)

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ . » (٣)

شرح الغريب :

أصيلع : تصغير كلمة أصلع ، وهو الذي لا شعر في رأسه .

أفيدع : زيغ بين القدم مع عظم الساق المسحاة : المجرفة

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اتْرُكُوا الْحَبَشَةَ مَا تَرَكُوكُمْ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَخْرِجُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ إِلَّا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ . » (٤)

شرح إجمالي :

- هذه الأحاديث تشير إلى أن الذي يهدم البيت هم الحبشة ، وقد بينت الآثار أن

---

(١)أخرجه البخاري في الحج برقم ١٥٩١ [البخاري مع الفتح (٣/٥٣١)]

(٢)أخرجه البخاري في الحج برقم ١٥٩٥ [البخاري مع الفتح (٣/٥٣٨)]

(٣) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة برقم ٧٠٧٠ [المسند (٢/٢٩٥)] ؛ وابن أبي شيبة برقم ٢٧٢٢٨ [المصنف ٤٦١/٧)] ؛ وعبد الرازق برقم ٩١٨٠ [المصنف (١٣٧/٥)]

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم برقم ٤٢٨٧ [عون المعبود (٤٢٣/١١)] ؛ والحاكم برقم ٨٣٩٦ ، وقال : صحيح الإسناد [المستدرك (٥٠٠/٤)]

الذي يتولى كبر هذا الجرم هو رجل حبشي أسود أصلع أفحج ، وصفه النبي ﷺ بأنه ذو السويقتين ، وقد جاءت كثير من أوصاف هذا الرجل بصيغة التصغير تحقيراً له ، وهذا الرجل ينقض الكعبة حجراً حجراً بمعوله ومسحاته ، وهذا التوصيف الدقيق لعملية هدم الكعبة يراد منه بيان عظم الجرم الذي سيترتب عليه بعد ذلك الفناء .

- الملاحظ أن فكرة هدم الكعبة في الماضي كانت من نصيب أهل الحبشة أيام أبرهة ، ولم يتم لهم ذلك بحفظ الله لها ، وفي آخر الزمان يتم هدم البيت على يد الحبشة أنفسهم ، وكأنهم توارثوا فكرة هذا الجرم ، وتم لهم ذلك عند انتهاء أجل البيت الحرام في الأرض ، وبهدم أول بيت وضع للناس هدمت كل معاني بقاء البشرية على الأرض ، لذا تتسارع أحداث النهاية بعد ذلك .
- لم تبين الأحاديث الدوافع التي عند الحبشة في آخر الزمان لهدم البيت ، ولعلها شبيهة بدوافع أبرهة ؛ حيث تعود الجاهلية كهيئتها الأولى .

المبحث الرابع
الريح اللينة التي تقبض أرواح المؤمنين

- عن عَبْدُ اللَّه بْنُ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ يَا عُقْبَةُ اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّه فَقَالَ عُقْبَةُ هُوَ أَعْلَمُ وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَجَلْ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث يدفع تعارضاً يتصور بين أحاديث الطائفة المنصورة والتي جاء في بعضها أُهُم سيبقون قائمين على الحق إلى قيام الساعة ، وبين الأحاديث التي تدل على أن الساعة تقوم على شرار الخلق ؛ أي لا يكون حينها وجود للطائفة المنصورة ، ووجه الدفع بين الأمرين أن الطائفة المنصورة تبقى إلى قبيل قيام الساعة ثم تكون الريح التي تقبض أرواح المؤمنين ، وذلك إيذان بقيام الساعة ، وفي الأغلب أن هذه الريح بعد خراب البيت أو قبله بقليل ؛ لذا لا تعارض بين الأمرين ، ويصدق في حق الطائفة المنصورة أُهَا باقية إلى قيام الساعة .

- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن رقم ١٩٢٤ [مسلم بشرح النووي (٦٧/٧)]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا . قَالَ : إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث صريح على أن للإسلام جولة ثانية يعم فيها الدين جميع الأرض ، وتبطل معه الملل الأخرى ، وهذا ما سيكون في عهد المهدي وعيسى ﷺ ، ثم يبعث الله ريحاً تقبض أرواح المؤمنين أو من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ثم تعود الجاهلية إلى صورتها الأولى ، وفي روايات أنها تكون أشد من الجاهلية الأولى ، ودلائل المرحلة والسياق تعزز كونها أسوأ مرحلة تمر بها الكرة الأرضية .

📖 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنْ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنْ الْحَرِيرِ فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ : مِثْقَالُ حَبَّةٍ و قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ : مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ﴾ (٢)

شرح :

هذا الحديث يشير إلى أن مبعث هذه الريح من جهة اليمن ، ويتصور وقوع ذلك بعد طلوع الشمس وخروج الدابة ؛ حيث إن باب التوبة قد أقفل ؛ لذا لا يتصور بقاء المؤمنين بعد ذلك كثيراً .

📖 - وفي حديث الدجال الطويل عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ﴿ .. فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٠٧ [مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٣٠)]

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١١٧ [مسلم بشرح النووي (١/ ٣٧٤)]

أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ قَالَ : سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ أَلَا تَسْتَجِيبُونَ فَيَقُولُونَ فَمَا تَأْمُرُنَا فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ نُعْمَانُ الشَّاكُّ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث يشير إلى أن تلك الريح تكون بعد عيسى ﷺ ، وقد بينت الأحاديث الأخرى أن وقوعها يكون بين يدي الساعة ، لكن هنا أشار الحديث إلى أن الريح تكون من ناحية الشام ، فيحتمل أنها ريحان ، ويحتمل أن هذه الروح تكون في نفس الوقت لكن تبعث من ناحيتين ، أو يكون مبدؤها من أحد الإقليمين ، ثم تصل الآخر وتنتشر عنده ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٤٠ [مسلم بشرح النووي (٢٦٧/٩)]

المبحث الخامس
على مـــن تقوم الساعة

📖 - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ : أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا . فَقَالَ لَهُ صِلَةُ : مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالَ : يَا صِلَةُ تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا . ﴾ (١)

📖 - عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ . ﴾ (٢)

📖 - عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا . قَالَ : إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ . ﴾ (٣)

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٤٩ [السنن (١٣٤٤/٢)] ؛ قال البوصيري : هذا إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات [مصباح الزجاجة (١٩٤/٤)] ؛ وأخرجه الحاكم برقم ٨٤٦٠ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٥٢٠/٤)]

(٢)أخرجه مسلم في الإيمان برقم ١٤٨ [مسلم بشرح النووي (٤١٧/١)]

(٣) سبق تخريجه

وفي رواية للحاكم ﴿ لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى ، ويبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير ، ويبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم . ﴾ (١)

- وفي حديث الدجال الطويل عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ﴿ .. فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ، قَالَ : سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا . قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ : فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . ﴾ (٢)

- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال ﴿ والذي نفسه بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذ من يقول لو واريتها وراء هذا الحائط ﴾ (٣)

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير قلت : إن ذلك لكائن ؟ قال : نعم

(١) أخرجه الحاكم في الفتن والملاحم برقم ٨٦٥٠ [المستدرك (٥٩٢/٤)]

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه أبو يعلى برقم ٦١٨٣ [مسند أبي يعلى (٤٣/١١)] ؛ قال الهيثمي : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٣٣١/٧)] ؛ قال العدوي : إسناده حسن [الصحيح المسند (٣٩٧)]

ليكون﴾ (١)

شرح الغريب :

يتسافدوا : السفاد نزو الذكر على الأنثى .

📖 - عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ لَعى ذِي الْخَلَصَةِ وَذُو الْخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٢)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ ﴾ (٣)

📖 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ﴾ (٤)

شرح :

- هذه الأحاديث تصف حال الناس الذين تقوم عليهم الساعة ؛ حيث يعودون إلى جاهليتهم الأولى برموزها ؛ و تعود عبادة اللات والعزة وذي الخلصة ، مع اختلاف واضح بين بشرية الجاهلية الأولى ، وبشرية آخر الزمان ؛ فالذين تقوم عليهم الساعة هم أكثر أهل الأرض شراً على وجه العموم ، ويلحظ من الأحاديث أنهم بالرغم من كفرهم إلا أن حطام الدنيا الفاني ييسر لهم ، وهذا من باب مدهم في طغيانهم ، ويتضح من الأحاديث أن الفاحشة تنتشر في آخر الزمان في الطرقات ؛ حيث أشبهوا البهائم ؛ لذا وصف النبي فعلهم بتسافد الحمير ، كذلك يلحظ من الأحاديث أن كل أشكال العبادة الحقة ترفع في ذلك الزمان ،

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم ١٨٨٩ [موارد الظمآن (٤٦٦/١)] ؛ وابن أبي شيبة برقم ٣٧٢٧٧ [المصنف (٤٦٦/٧)] ؛ والبزار برقم ٢٣٥٣ [المسند (٣٤٥/٦)] قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٣٩٦)]

(٢) أخرجه البخاري في الفتن برقم ٧١١٦ [البخاري مع الفتح (٨٢/١٣)]

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٩ [مسلم بشرح النووي (٢٧٨/٩)]

(٤) أخرجه أحمد برقم ٣٨٤٣ [المسند (٥٢٦/١)] قال العدوي : صحيح لغيره [المسند الصحيح (٥٦٧)]

حتى لا يبقى في الأرض من يقول كلمة الله ، وهذا فيه إشارة إلى إطباق الشر والكفر في الأرض .

- توصيف الفاحشة بهذا الشكل في ذلك الزمان متصور حال فساد الفطر ، وقد عهدنا في عصرنا عند الغرب صور شبيهة لحال آخر الزمان ، فالفاحشة يجهر بها في بلادهم ، وتفترش النساء في المتنزهات والأماكن العامة وشواطئ العري ، وغير ذلك بما يعطينا صورة أولية عن حال الفاحشة في آخر الزمان ، والملاحظ أن غاية الإنكار في ذلك الزمان يكون من البعض بطلب المواراة بالفاحشة عن الطرق إلى الأزقة ، وهذا يشير إلى استمكان المنكر وفساد الفطرة لدرجة أحط من البهيمية ، وهؤلاء يتناسب فيهم أن يذوقوا صدمة الحشر والصعقة الأولى .

المبحث السادس
خروج نار من اليمن تسوق الناس

أولاً : النار الحاشرة هي أول علامات الفناء وقيام الساعة :

- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ فَقَالَ :« إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ : مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ قَالَ : فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ : ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ : أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ .. ﴾ (١)

شرح :

يتضح من مناسبة الحديث أنه تضمن سؤالاً لرسول الله من أحد علماء اليهود قبل أن يسلم ؛ لذا جاءت الإجابة من رسول الله ﷺ متفقة مع طبيعة السؤال وفق علوم بني إسرائيل ، أي أن طبيعة السؤال تتعلق بأول علامات نهاية الدنيا ، فأخبر النبي ﷺ بأنها النار التي تحشر الناس ، وهذا لا يتعارض مع الأحاديث السابقة التي ذكرت العلامات العشر ، أو العلامات الثلاث ، فالآيات العشر تشير إلى علامات خاصة بأمة محمد ﷺ وفيها تفصيل لأحداث عظام قبل قيام الساعة ، والآيات الثلاثة ارتبط الحديث فيها عن انتهاء اختبار الإيمان والكفر ، أما السؤال هنا فيتعلق بلحظة قيام الساعة ؛ لذا كانت الإجابة عن أول آيات ذلك ، وهو النار التي تحشر الناس ، ثم يعقبها الصعق والنفخة الأولى و فناء النظام الكوني .

لذا يمكن القول أن النار الحاشرة هي حلقة الوصل بين العلامات العظام وفناء الدنيا ، لذا جاء ترتيبها الأخير في العلامات العشر العظام ، والأولى في علامات الفناء .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٢٩ [البخاري مع الفتح (٤١٧/٦)]

ثانياً : النار الحاشرة هي آخر العلامات العشر العظام .

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ مَا تَذَاكَرُونَ ؟ قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ .. وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ . ﴾ (١)

شرح :

هذا الحديث سبق شرحه ؛ لكن الشاهد فيه هنا أن علامة النار الحاشرة تكون في الدنيا وتستمر مرحلة في حشرها للناس أو سوقها لهم نحو أرض المحشر ؛ أي أن هذه النار تحشر الناس وهم أحياء نحو بلاد الشام ، ولا يراد بها الحشر بعد البعث .

ثالثاً : مكان خروج النار الحاشرة وصفتها .

- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ مِنْ نَحْوِ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْشُرُ النَّاسَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ . ﴾ (٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا . ﴾ (٣)

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ ﷺ قَالَ : قَامَ أَبُو ذَرٍّ فَقَالَ : « يَا بَنِي غِفَارٍ قُولُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ حَدَّثَنِي ﴿ أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْوَاجٍ : فَوْجٌ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتَحْشُرُهُمْ إِلَى النَّارِ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : هَذَانِ قَدْ عَرَفْنَاهُمَا فَمَا بَالُ الَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة برقم ٢٩٠١ [مسلم بشرح النووي (٢٥٥/٩)] .

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن ، وقال : حسن صحيح غريب [تحفة الأحوذي (٤٦٣/٦)]

(٣) أخرجه البخاري برقم ٦٥٢٢ [البخاري مع الفتح (٣٨٤/١١)]

يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ ؟ قَالَ يُلْقِي اللَّه الْآفَةَ عَلَى الظَّهْرِ حَتَّى لَا يَبْقَى ظَهْرٌ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ الْحَدِيقَةُ الْمُعْجِبَةُ فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ذَاتِ الْقَتَبِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا ﴾ (١)

شرح الغريب :

ظهر : ما يركب عليه كالناقة ونحوها — الشارف : الناقة المسنة

شرح :

- نلحظ في الحديث الأول في هذه الفقرة أنه أشار إلى أن النار تخرج من حضرموت ، أو من بحر حضرموت ، وفي الأحاديث السابقة تخرج من قعر عدن أو من اليمن ، وفي أحد الأحاديث أشار إلى أن النار تحشر الناس من قبل المشرق والمغرب ، ولا تنافي بين هذه الروايات ؛ حيث يحتمل أن مبدأها من قعر عدن ثم تنتشر في جميع الأرض ، ويحتمل أن النار المشرقية مجازية ؛ أي هي كناية عن الفتن الشديدة والأهوال التي تعصف بتلك المنطقة في آخر الزمان ؛ بحيث يصعب العيش ، فيتوجه الناس ناحية الشام لتعذر العيش في غيره ، وهذا معنى قوله في بعض الأحاديث « راغبين راهبين » .
- في مجموع الأحاديث إشارة إلى أن هذا الحدث يراد به الحشر في الدنيا ؛ لأنه ذُكر فيه الدواب ، وفي الحديث الأخير إشارة إلى استعداد الإنسان للمساومة بحديقته مقابل ناقة مسنة يذهب بها نحو الشام ، وهذا لا يكون إلا في الدنيا .
- جاءت الإشارة إلى أوصاف هذه النار ، منها أنها تطرد الناس طرداً نحو الشام ، وفي رواية تبيت إذا باتوا وتقيل إذا قالوا ، وتصبح إذا أصبحوا ، وهذه الملازمة تشير إلى أن مقصد هذه النار تحويل حياة البشر إلى حالة من النكد في كل الأرض ليتوجهوا نحو بلاد الشام ، ودلائل الأحاديث تشير إلى أن هذه النار تستمر مدة طويلة ؛ لذا نجد أن أول من ينتبه لشرها يستعد للرحيل ، فيجد

---

(١) أخرجه أحمد مسند الأنصار برقم ٢١٥١٢ [المسند (٥/١٩٦)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٥٦٠)]

الدواب التي تحمله نحو الشام أما من يتأخر فيحرم من الدواب ؛ لذا يحشر نحو الشام ساعياً ماشياً .

رابعاً : آخر من يحشر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ لَا يَغْشَاهَا إِلَّا الْعَوَافِ يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا » (١)

شرح :

هذا الحديث تضمن أمرين هما خروج أهل المدينة ، والثاني بيان آخر من يحشر ، والحديث يشير إلى خلاء أهل المدينة من أهلها ، ويحتمل الأمر أنه بسبب النار الحاشرة أو غيرها ، و محصلة الحديث الإشارة إلى أن هذين الراعيين من مزينة هم آخر من يحشر أو يصعق بين يدي الساعة .

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ اللِّقْحَةَ فَمَا يَصِلُ الْإِنَاءُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّى تَقُومَ وَالرَّجُلُ يَلِطُ فِي حَوْضِهِ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّى تَقُومَ » (٢)

شرح :

الحديث فيه إشارة إلى مباغتة الساعة للناس ، وهم في أعمالهم وآمالهم .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج برقم ١٨٧٤ [البخاري مع الفتح (١٠٧/٤)]

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٥٤ [مسلم بشرح النووي (٢٨٠/٩)]

المبحث السابع : الحث على العطاء حتى اللحظة الأخيرة من الدنيا

📖 - عن أَنَس بْنَ مَالك ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ﴿ إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ . ﴾ (١)

شرح الغريب :

فسيلة : نخلة صغيرة

شرح :

هذا الحديث أختم به كتابي وفيه إشارات عجيبة منها أن رسالة الإسلام رسالة عطاء حتى في أحلك الظروف ؛ لذا لا يتصور البعض أن الشدائد والفتن أوالفساد المستشري قبل قيام الساعة مدعاة للخمول أو ترك العمل أو التهاون فيه ، فالمسلم مكلف ما دامت الروح تجري في جسده .

والمعلوم أن النبي ﷺ يوجه الخطاب هنا للمؤمنين ، والساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق مما يشير إلى أن النبي ﷺ إنما ذكر ذلك من باب التمثيل لا الحقيقة ، ويقصد به حث المسلمين على العمل وعلى العطاء ، حتى لو قامت الساعة و في يد واحد منهم نخلة صغيرة ، فليزرعها مع علمه أنه لن ينال من ثمرها ، بل لن يُكتب لها الاستمرار .

لذا هذا مثل يوجه للدعاة والعاملين في حقل الإسلام على العمل الدءوب دون انتظار للنتائج ، ودون تأثر بالمعيقات حولهم .

تم بحمد الله

---

(١) أخرجه أحمد برقم ١٢٩٠٧ [المسند (٢٢٢/٣)] ؛ قال العدوي : صحيح [الصحيح المسند (٥٦٣)]

الخاتمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ،وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (٣) ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤)

اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ .

إلهي .. ربي .. مولاي .. مالك أمري .. يا من ناصيتي بيده .. يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه .. يا من له الخلق والأمر .. يا من وسع علمك كل معلوم .. وتقدست في علاك عن كل مذموم .

اللهم أنت الخالق وأنا المخلوق .. وأنت المالك وأنا المملوك .. وأنت الرب وأنا العبد .. وأنت المعطي وأنا السائل .. وأنت الغفور و أنا المخطئ .

لك الحمد كله ، بيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله سره وعلانيته وأوله وآخره ، اللهم إني أحمدك بمحامدك كلها ما علمت منها وما لم أعلم .. أحمدك بالذي أنت أهله ذاكراً نعمائك شاكراً لآلائك .

إلهي بعد هذه الرحلة المباركة في بستان وحيك .... هاأنذا أقف على باب العبودية لك وحدك متسربلاً ثوب العجز والتقصير مقراً بجهلي معترفاً بغفلتي ، عاجزاً عن شكرك أو الثناء عليك بما يليق لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، سبحانك لا أحصى ثناءً عليك

---

(١) سبأ:١

(٢) القصص:٧٠

(٣) الروم:١٨

(٤) غافر:٦٥

أنت كما أثنيت نفسك .

اللهم صل وسلم وبارك على حبيبنا وشفيعنا وطبيبنا ونور أبصارنا ، سيد الأولين والآخرين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وأبلغه منا السلام وعظيم الامتنان ، و اجعلنا ممن يتبعون هديه في الدنيا ، وينهلون من حوضه يوم القيامة .

وبعد !!!!

هذه الجولة المباركة التي قضيت فيها سنوات متأملاً الوحيين (الكتاب والسنة) في موضوع من أهم مواضيعها أجد نفسي قد وصلت إلى هذه النتائج :

١- هذا الباب العظيم من أبواب الدين يعتبر من أعظم دلائل نبوة محمد عليه السلام ، وفيه إشارة قطعية دالة على خلود رسالته وعمومها .

٢- لا يظنن القارئ الكريم أني خلال هذا الكتاب قد بلغت مدى هذا العلم الجليل أو أحطته من جميع جوانبه ، بل الحقيقة التي وصلت إليها أنني كمثل رجل وجد نفسه أمام ربوة فصعدها ، فرأى خلفها بحراً عظيماً لا يدرك منتهاه ، فعمد إلى القوم يبلغهم عن تلك النظرة ، أو يطلعهم على قطرة ارتشفها من هذا المعين المهول ، أما حقيقة هذا البحر ومكنوناته ، فلم أبلغ منها شيئاً بعد ، لكنني خرجت من هذه التجربة بإحساس عميق بمدى جلالة وقدسية وعظمة هذا العلم ، وشوق عارم للغوص فيه عبر تجارب أخرى ، وكلامي هذا لا ينقص من قيمه هذا السِفر ، لأنني أظنه تجربة أولية جيدة ، ولبنة أساس في صرحه العظيم .

٣- من أهم النتائج التفصيلية التي وصلت إليها أن الأيام القادمة فيها مفاجئات كثيرة جداً تفوق تصورات الناس ، وتحتاج إلى إعداد لها ، وأكثر الناس عنها غافلون ، أما الأحداث الطبيعية والسياسية والاجتماعية والنفسية التي نعيشها حالياً فلم تكن بمنأى عن الوحيين (الكتاب والسنة) ، لكن غابت البصيرة عن الكثيرين .

هذه أبرز النتائج ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بكتابي هذا ، وأن يجعله نبراساً للأمة في معلم من المعالم الهامة للدين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

أهم المراجع

أولا: المراجع الحديثية .

- آبادي : **عون المعبود**، محمد شمس الحق آبادي ، ط الثالثة ٧٩م، دار الفكر بيروت .
- **ابن أبي شيبة** : **مصنف ابن أبي شيبة** ، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، الأولى ١٤٠٩ هـــ ، مكتبة الرشد الرياض .
- **أبي يعلى** : **مسند أبي يعلى** ، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي ، الأولى ٨٤م ، دار المأمون دمشق .
- **ابن حجر** : **فتح الباري** ، أحمد بن حجر العسقلاني ، ط الأولى ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، مصر .
- **ابن حبان** : **صحيح ابن حبان** ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، ط الثانية ٩٣م ، مؤسسة الرسالة .
- **ابن خزيمة** : **صحيح ابن خزيمة** ، محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري ، ط ٧٠م ، المكتب الإسلامي بيروت .
- **أحمد** : **المسند** ، أحمد بن حنبل ، ط الأولى ٩٣م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن ماجة : السنن ،
- **الأصبهاني** : **العظمة** ، عبد الله بن حيان الأصبهاني ، الأولى ١٤٠٨ هـــ ، دار العاصمة الرياض .
- **الحاكم** : **المستدرك على الصحيحين** ، محمد بن عبدالله الحاكم ، ط الأولى ٩١م ، دار الكتب العلمية بيروت .
- **الدارمي** : **سنن الدارمي** ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، الأولى ١٤٠٧هـــ ، دار الكتاب العربي بيروت .
- **الكناني** : **مصباح الزجاجة** ، أحمد بن إسماعيل الكناني ، ط الثانية ١٤٠٣ هـــ ، دار العربية بيروت .

- **الصنعاني** : **مصنف عبد الرازق** ، أبو بكر عبد الرازق الصنعاني ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- **الطبراني** : **المعجم الكبير** ، أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط الثانية ٨٣ م ، مكتبة العلوم الموصل .
- **الطبراني** : **المعجم الأوسط** ، أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط ١٤١٥هـ ، دار الحرمين القاهرة .
- **المباركفوري** : **تحفة الأحوذي** ، محمد عبد الرحيم المباركفوري ، دار الفكر .
- **المقدسي** : **الأحاديث المختارة** ، محمد بن عبد الواحد المقدسي ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، مكتبة النهضة مكة المكرمة .
- **النووي** : **صحيح مسلم بشرح النووي** ، محيي الدين بن شرف النووي ، ط الأولى ٩٩م ، دار الفجر ، مصر .
- **الهيثمي** : **مجمع الزوائد** ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط ١٤٠٧هـ ، دار الريان للتراث ، القاهرة .
- **الهيثمي** : **موارد الضمآن** ، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ثانياً : المراجع المتعلقة بالفتن والملاحم .

- **ابن الأثير** : **النهاية** ، مجد الدين بن محمد الجزري ، دار إحياء الكتب العربي ، مصر .
- **ابن القيم** : **إعلام الموقعين** ، شمس الدين محمد بن أبي بكر ، ط ٨٧م ، المكتبة العصرية ، بيروت
- **ابن كثير** : **النهاية في الفتن والملاحم** ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، ط الأولى ٢٠٠٣ م ، دار الفجر للتراث ، مصر .
- **ابن حماد** : **الفتن** ، نعيم بن حماد المروزي ، ط الأولى ٩٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **البسوتي** : **المهدي المنتظر** ، عبد العظيم البستوي ، ط الأولى ٩٩م ، المكتبة المكية السعودية .
- **البرزنجي** : **الإشاعة لأشراط الساعة** ، محمد بن رسول البرزنجي الحسيني ، ط الأولى ٢٠٠٢م ، دار الحديث القاهرة .
- **حوى** : **الأساس في السنة** ، **قسم العقائد** ، سعيد حوى ، ط الأولى ٨٩م ، دار السلام ، مصر .

- **الداني** : **السنن الواردة في الفتن** ، أبو عمرو عثمان المقري الداني ، الأولى ١٤١٦هـ ، دار العاصمة الرياض .
- **السلمي** : **عقد الدرر** ، يوسف بن يحيى بن عبد العزيز السلمي ، ط الأولى ٧٩ ، عالم الفكر ، مصر .
- **العدوي** : **الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم** ، مصطفى العدوي ، ط الأولى ٩١م ، دار البراق ، مصر .
- **القرطبي** : **التذكرة** ، محمد بن احمد الأنصاري القرطبي ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

ثالثا: المراجع المتنوعة .

- **ابن الأثير** : **النهاية في غريب الحديث** ، مجد الدين بن محمد الجزري ، دار إحياء الكتب العربية مصر
- **ابن تيمية** : **اقتضاء الصراط المستقيم** ، أحمد بن تيمية ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- **ابن خلدون** : **المقدمة** ، دار إحياء التراث العربي بيروت
- **ابن منظور** : **لسان العرب** ، جمال الدين محمد ابن منظور ، ط ٩٢م ، دار صادر بيروت .
- **الخضري** : **الدولة العباسية** ، محمد الخضري بك ، دار المعرفة ، بيروت .
- **الخطيب** : **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي**، محمد أحمد الخطيب ، ط الأولى ٨٤م ، مكتبة الأقصى ، عمان .
- **الذهبي** : **التفسير والمفسرون** ، محمد حسين الذهبي ، ط الرابعة ٨٩م ، مكتبة وهبة ، مصر .
- **السوسوة** : **منهج التوفيق والترجيح** ، د عبد المجيد محمد إسماعيل السوسوة ، ط الأولى ، دار النفائس ، الأردن .
- **الشوكاني** : **فيض القدير** ، محمد بن علي الشوكاني ، عالم الكتب .
- **عبد الخالق** : **الفكر الصوفي** ، عبد الرحمن عبد الخالق ، ط الرابعة ٩٣م ، دار الحرمين ، السعودية .
- **الغزالي** : **كيف نتعامل مع القرآن** ، محمد الغزال ، ط الأولى ٩١م ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي .
- **قطب** : **واقعنا المعاصر** ، محمد قطب ، ط الأولى ٨٦م ، مؤسسة المدينة ، السعودية .

الفهرس

الفصل الثاني : العلامات الصغرى الصريحة

الفصل الثالث :العلامات الصغرى غير الصريحة